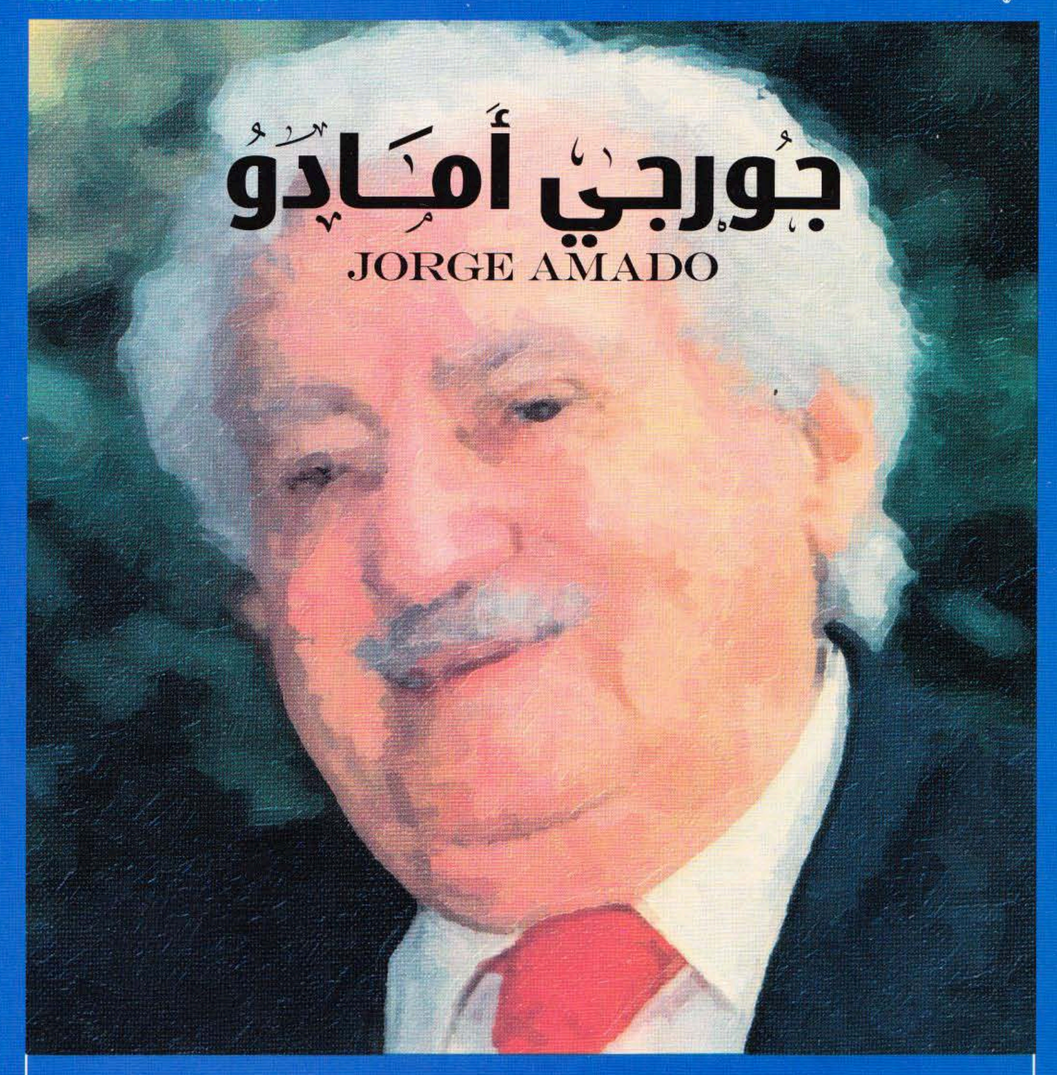
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



جُورجِي أمَادُو
JORGE AMADO

تريزا باتيستا

ترجمة: عوني الديري

رواية



تريزا باتيستا

TEREZA BATISTA

تريزا باتيستا
TEREZA BATISTA

رواية

تأليف

جورجي أمادو

ترجمها عن البرتغالية

عوني الديري

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل
Tereza Batista Cansada De Guerra
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
The Wylie Agency (UK) Ltd.,
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-345-9

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
هاتف/فاكس: 21676179 213+
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

آراء في الرواية

"إنهـا التكوين الذي تصوّره فيدياس البرازيل، جورجي أمادو، على شكل رواية تتوزّع بمنهجية واقعية حرّة تماماً. تمتزج فيها المعرفة الجادة بفرح لغوي شفاف ينغرز في الـدم. إن أمـادو "مايـسترو" الـرواية الـبرازيلية، يجـيد لعبة التقابل والثنائية في تشكيل الموضوع الأثير لديه: الإنسانية المعذّبة مقابل اللاإنسانية"...

الناقد أحمد خلف
(مجلة ألف باء)

"... وهـناك روايـة أمـادو تريـزا باتيـستا الـتي لا يمكـن نـسيان عـوالمها وبطلتها وأحـداثها، صـراع أثقـل عليَّ، ولكنه صراع محبّب أن تفاضل بين جودتين وبين طبقين فاخـرين يحمـل كـل مـنهما خصائـصه، ومذاقاتـه، ومكوّناته... ويجعلانـا نشكر اللذين أتاحا لنا أن نتناول من هذين الطبقين".

عبد الستار ناصر
(جريدة الجمهورية)

"تريـزا باتيـستا واحـدة مـن روائـع جورجـي أمـادو... وها أنا من جديد، كأنني ألتقـي ذاكرتـي، وأسـتعيد فرحـي بـشبابي... اللغة الحارة... الدم الحقيقي الذي يجعل الملامـح ملامـح... واللغة الخاصة... ونكهة الأرض التي لها رائحة أمة ومزايا إنسان... إن أمـادو يكـتب عـن برازيله التي يمكن لفرط إيمانه أن تصير برازيلنا، أو أن تفيدنا بأن نحب أرضنا ونكون لصيقين بها...".

الشاعر يوسف الصائغ
(مجلة ألف باء)

"مـنذ زمـن طويل لم أطالع قصة بمثل هذا الشغف ولا أبالغ إذا قلت إنني رحت أفـترس صـفحاتها الأربعمائـة واثـنتين وسـتين كمـا كانـت أعـين الـرجال تفترس تريزا باتيستا، دون أن تشبع من التحديق... إنها كرنفال الواقعية والشعر".

أنطوان رعد
(جريدة الحياة اللندنية)

"أعتـبر روايـة تريـزا باتيـستا للكاتـب البرازيلـي جورجـي أمـادو الـتي نقلـها إلى العربية الأديب اللبناني عوني الديري، هي رواية عام 1989".

الروائي غازي العبادي
(استفتاء عام 1990)

"... هـذه الرواية إذاً هي واحدة من البدايات للواقعية السحرية في أدب أميركا اللاتينـية، تملـك أن تعطي الروائيين في العالم كشفها الفني الخاص وتضعهم أمام بدايات تجديدية ألا وهي القدرة على إعطاء البعد الأسطوري للواقع...".

عبد الرزاق المطلبي
(جريدة العراق)

"منذ أيـام، كـنت في زيارة للدكتور عصام عبد علي في دار المعرفة، وسألته عن روايـة جورجي أمـادو، تريـزا باتيـستا الـتي تـرجمها الأديـب والصديق عوني الديري، فأجاب: لقد بيع منها أكثر من ثلاثة آلاف نسخة خلال عشرة أيام...!"

الروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي
(ملاحظات في الثقافة)

مقدمة المترجم

لا شـــك أن جورجـــي أمادو هو أكبر روائيي البرازيل، وأكثر أدباء أميركا اللاتينـــية انتـــشاراً في العالم، إذ تُرجمت رواياته التي زادت على الثلاثين، إلى أربع وأربعـــين لغـــة، ولكـــنها في لغتنا العربية ظلّت محدودة، لأسباب عديدة أهمها قلّة المترجمين عن البرتغالية التي كتب بها أمادو.

ومـــا يميِّـــز أدب هذا الروائي العملاق هو امتزاج الخيال بالواقعية، والحيوية الغنائـــية بواقـــع حياة الضائعين في قاع المجتمع. كما تميّز أدبَه الإقليميةُ ذات البعد الإنساني، إذ إن قدرة أمادو لا حدّ لها في اختراق المكان، والمكانية، ليضع الإنسان في زمن عليه أن يغادر فيه ذاته ومكانه تفاعلاً مع إنسانية لا تحدِّدها الجغرافية. وقد ذهـــبت رواية أمادو تضرب بجذورها في منطقة برازيلية حافلة بالعنف تمتزج فيها الأجناس والثقافات، وهناك، في باهيا، ولد في عام 1912 لمزارع فقير، في جزء من "مضلّع الجفاف" الذي لا يلين في إحكام قبضته على ملايين البرازيليين.

وينظـــر جورجـــي أمـــادو، المولـــود في تلك الأرياف القاحلة - الخصبة، الـــصاخبة - الهادئـــة، شطر البحث حيث مرافئ الحب والموت والأعياد والغرق والشعر والعنف، فيرى وجوه الناس على صفحة المياه نقية - عكرة، وتبدأ المعاناة. وهـــناك، عند شواطئ باهيا ترى الفتى الصامد بنـــزيفه يمعن تأملاً في أوجاع بني جلدتـــه، فينسال حكايات طويلة سيكون لها أن تترجم إلى أكثر لغات العالم لأنها كتبت بلغة الإنسان، ثم اقتبست مسلسلات تلفزيونية وأفلاماً سينمائية، وكتبت لها سمفونـــيات موسيقية عديدة وأخرجت مسرحياً، وأعدّت رباعيات إذاعية، وأغاني شعبية أصبحت شائعة في أميركا الجنوبية شيوعها في أوروبا وأفريقيا البرتغالية.

وإثر رواياته الشهيرة "بحر ميت"، "بل الكرنفال"، "فرسان الأمل"، "والكمين الكـــبير" وغيرها، تحوّل إلى تخيّل شخصيات نسائية فذّة، فكانت "غابرييلا، قرنفل وقرفة"، "دونا فلور وزوجاها"، "الفتاة العنـــز"، و"تريزا باتيستا تعبة من الحرب".

قـــد يتـــبادر إلى الـــذهن، مع تريزا التعبة من الحرب، مشهد امرأة مدجّجة بالـــسلاح، تقـــارع عبر حرب طاحنة يختلط فيها جمال المرأة بالدماء، وتنهار فيها الأجساد وتتهاوى، وصراخ الموت يعلو عبر الخراب؛ ولكن تريزا ليست محارباً في هـــذا المعنى، فهي إنسان بكل ما تحمله الكلمة من معنى وأبعاد، يناضل ضد المجتمع المـــادي والمآســـي الـــناتجة عن بشاعته، وقدرها أن تحب وسط الكراهية، واللذّة، وأسواق البغاء، والملاهي، ولكنها تظل متشبثة بحبها حتى النهاية.

تريزا باتيستا هي الحب والكرا

هـــية بأعمق صورهما وأعنف تأثيراتهما، يتصارعانها عبر النضال المتواصل ضد رغوات الوضعاء، ووحشية الإنسان، وشيطان السلطة المتجسّد في نظامها ورجالها وقيمها وكيفما تشكّلت أساساً وجوهراً.

وفي دم تريـــزا باتيـــستا دم عربـــي أيضاً، كما يتكهّن المتكهنون، فتستحق تـــرجمتها المجازفة والعناء، ومع المعاناة تبدأ مشقة الترجمة كعملية إعادة بناء حقيقية، ترافقها ساعات التردد، وأيام السأم، ولحظات التعب مما يعرف طعمه الذين عانوه كثمرة حرب من نوع حرب تريزا التي قيل عنها أيضاً إنها مالوية، أنغولية، غجرية قارئة كف، ابنة الإله شانغو أو يمنجا آلهة الحب والبحر، ولكن كل هذه المقولات أشـــياء تقـــال، لأن تريـــزا امرأة، إنسان، وأجزم أنّ دمها، هو دم يمتزج فيه الدم العربـــي الحار بالدم البرازيلي الراقص حيوية ورغبة.

عوني الديري

القسم الأول

عندما علموا بأني سأعود إلى تلك الربوع، طلبوا أن آتيهم بأخبار تريزا باتيستا وأن أستجلي حقيقة بعض الأحداث التي ظلت غامضة؛ أجل، ما لا ينقص العالم هم الناس الفضوليون.

ورحتُ أَلملم الأجزاء هنا، وهناك، في معارض المنطقة الوسطى، وعند أرصفة الميناء؛ ومع الزمن، والثقة، وضعني بعضٌ من أصحاب النعمة، وبعض آخر من البائسين، على علم بالعُقد والأزمات، وكل منهم يروي بطريقته الخاصة وفقاً لمستوى إدراكه. وبقدر ما استطعت الإصغاء والاستيعاب، ربطتُ بين أجزاء الحكايات والأنغام المتوافقة مع خطوات الرقص وصرخات اليأس، وتنهدات الحب تمتزج كلها وتتسارع لدى المتعمّقين بأخبار الفتاة النحاسية اللون وعاداتها ومسالكها. ولم يتكوّن لديَّ الكثير لأصفه لأن الشعب هناك قليل الكلام، ومن يعرف الكثير يتكلم أقل من سواه حتى لا يُمنح شهادة كذّاب.

تحركات تريزا باتيستا، تلك، حدثت في ذلك المكان الواقع على ضفاف نهر ريال، عند الحدود الواقعة بين باهيا وسرجيبي ضمن مساحة واسعة من الأرض. هناك، كما في العاصمة، المكان إقليم مأهول بأمة من الهنود المتحضرين والخلاسيين، والمتولّدين من الزنوج والهنود؛ قوم قليلو الأنماط كثيرو الحركة، وأقل منهم في ذلك سكان العاصمة من الخلاسيين المولعين بالغناء والرقص الفولكلوري. وعندما أشير إلى عاصمة هذه الشعوب الشمالية، يعرف الجميع أنني أعني مدينة باهيا التي يسمِّيها البعض السلفادور دون أن يدري أحد سبباً لهذه التسمية. ولن تفيد مناقشة التيار أو مجابهته عندما يمتد اسم باهيا ليشمل حدّ فرنسا الفاصل ومرتفعات ألمانيا الثلجية؛ هذا دون أن نشير إلى شواطئ أفريقيا.

اعـــذروني إذا لم أروِ كـــل شيء تفصيلاً إثر تفصيل، فأنا لا أفعل ذلك لعدم معـــرفتي بـــه، وهـــل في هذا العالم من يعرف حقيقة تريزا باتيستا بنضالها ومتعتها كاملةً؟ لا أعتقد وإن بنذر قليل.

1

وما دمت تسأل مع هذا القدر من اللطف فدعني أقول لك: يكفي الشقاء أن يبدأ، وحين يبدأ فليس هناك من يسيطر عليه. ينتشر، ينمو، ويصبح سلعة رخيصة كـــثيرة الاستهلاك. أما الفرح فعلى العكس، إنّه غرسة واهية، صعبة الشتل وذات ظل قليل وديمومة قصيرة، لا تتكيّف مع الشمس والريح والمطر وتقتضي عناية يومية وأرضـــاً مخصبة، لا يابسة، ولا رطبة، تكلف زراعتها كثيراً الأغنياء الغارقين بالمال. الفرح يحافظ على نفسه بالشمبانيا، أما الكاشاسا فإذا ما جاءت بتعزية فإنها لا تعني إلا الـــشقاء؛ والـــشقاء غرسة ذات جذور شرسة، يمتدّ في الأرض دون حاجة إلى عـــناية، ينمو وحده ويورق، وتلقاه في كل الدروب. وفي ساح الفقراء يا صديقي يزدهر الشقاء فلا ترى غيره نباتاً، وإذا لم يكن لصاحبه جلد غليظ وكاهل جاسئ، ذو نواتـــئ في الداخل والخارج، فلا يقدِّم ولا يؤخِّر أن يعدّ نفسه من الشرفاء، إذ ليس من اعتبار زائف ليؤول إلى شيء. وأمر آخر أقوله لك وأنت تلازمني، لا من أجـــل إطرائـــي أو مـــن قبيل إعلاء شأن المنهكين في الأرض، ولكن كونه حقيقة خالـــصة: وحده الشعب الفقير يمتلك الأصالة والقدرة على التكيف مع مثل ذلك الشقاء فيتمكّن من الاستمرار حياً. وكوني قد قلت و لم يعترض أحد فأنا من يسأل الآن: "مـــاذا يهمّـــك يا أخي أن تعرف عن مشقات تريزا باتيستا؟ أوَتستطيع أن تداوي أحداثاً مضت؟"

تنكّبت تريزا عبئاً ثقيلاً، قليلون من الرجال يستطيعون أن يتنكّبوه... وظلت تـــتقدّم فلـــم يرها أحد تشتكي أو تطلب الرحمة، وإن وجد، في مرات قليلة، من ســـاعدها فقد فعل ذلك بواجب الصداقة لا لضعف الفتاة، وحيثما وُجدت كان الحـــزن يتـــبدّد. و لم تعر تريزا الشقاء إلا قليلاً من الاهتمام، ووحده الفرح، كان صاحب القيمة في حياتها. فهل تريد أن تعرف إذا كانت تريزا من حديد، وإذا كان قلـــبُها مـــصفحاً بالفـــولاذ؟ من حيث اللون كانت مشهورة بجلدها النحاسي لا

الحديـــدي، أما قلبها فكأنما صُنع من الزبد، ومن الأفضل القول إنه من العسل. أما الأستاذ، صاحب المصنع، ومن يعرفها أحسن منه، فقد منحها اسمين لم ينادها يوماً بغير أحدهما: "تريزا شهد العسل"، "تريزا قرص العسل" وكان ذلك هو كل الإرث الذي أبقاه لها.

أزهر الشقاء باكراً في حياة تريزا، وددت يا أخي أن أعرف كم من الشجعان سيقاومون لو مرّوا بما مرّت به، وتغلّبت عليه، في دار النقيب، وأي نقيب؟ أجل إنه النقـــيب جوستو أو لنقل المرحوم جوستينيانو دوارتي دا روزا. نقيب في أي سلاح؟ إن أســـلحته كانت حزاماً من الجلد الخام وخنجراً ومسدساً ألمانياً وزخرفاً وسوء أخـــلاق ورتـــبة غني وصاحب أراضٍ بقدر ما تجيزه الشارات التي يحملها العقيد، ولكن كان لديه على كل حال ما يكفي حتى لا يبقى فلاحاً وضيعاً ولكي يضيف الألقاب إلى اسمه... أما أراضي العقيد: فراسخ وفراسخ ممتدة متواصلة من السهول المخـــضوضرة، فقـــد كان يمتلك منها إميليانو الأكبر سناً في آل غويدس وصاحب المـــصنع، وهو في الوقت نفسه قانوني اختصاصاً، بختم وريشة، وإن لم يكن يمارس المهـــنة فهو لم يرغب في لقب آخر غير لقب أستاذ. إنها الأزمنة الحديثة، ابن عمي، فلا تجزع: فقط تتغيّر الألقاب فالعقيد أستاذ والسركال مدير، والمزرعة شركة، أما الباقي فلا يتغيّر والثراء هو الثراء والفقر هو الفقر مع وساخة الشقاء.

عـــن بدايـــة حياتها، أستطيع أن أؤكد أن تريزا باتيستا كان لها بداية ونيف؛ والعـــذابات التي قاستها صغيرة، قلة قليلة من أهل جهنم قد عانتها؛ يتيمة، لطيمة، وحـــيدة في هذا العالم، وحيدة ضد القدر والشيطان... وعبرت الصغيرة الوحيدة أســـوأ مراحل الشقاء وأكثرها إيذاءً، وخرجت منها سليمة معافاة والابتسامة على ثغـــرها... ابتسامة على الثغر. لا أعرف في الحقيقة، فإني أقول ما سمعتهم يقولونه؛ وإذا شـــاء المحترم الكشف عن وقائع هذه الحالة من بدايات تريزا باتيستا، فما عليه إلا أن يـــستقل قطـــار الغرب البرازيلي إلى ربوع المنطقة الوسطى، فهناك من بقي مستعداً ليخبره بكل التفاصيل الصغيرة.

كان صعباً على تريزا أن تتعلّم البكاء لأنها ولدت لتضحك وتعيش فرحة. لم يدَعـــوها وشـــأنها، ولكنها أصرّت بعناد، وحتى الحمار لم يكن يعتاده. إنه تشبيه ســـيئ، أيهـــا الـــسيد، ولكن من الحمار لم يكن عندها إلا العناد، فلم تكن امرأة

مـــسترجلة ولا عاقراً ولا ذات فم بذيء... على العكس، إنها ذات فم معطّر ولا أنظـــف، ولا هي سليطة لسان أو مثيرة شغب أو محرِّضة، وإذا كان أحد قد أخبرك بـــشيء مـــن هذا القبيل فقد أراد أن يخدعك أو أنه لا يعرف حقيقة تريزا باتيستا. قلـــت، وأؤكـــد، إنهـــا مـــستبدّة في مقايـــيس الحب. وفي الحب كانت شديدة الاستقامة... فلماذا إذاً كانوا يسمّونها تريزا الجميلة العراك؟ أجل لأنها كانت جميلة العـــراك، حقاً، وندّاً لها لم يوجد شباب ولا قلب ولا حيوية؛ كانت تحسّ بالنفور مـــن زمر الشباب المنحرفين فلم تدخل قط في أوساطهم، ولكنها لم تكن تتغاضى عن رؤية رجل يضرب امرأة.

2

العرض الأول الذي تمّ الإعلان عنه رسمياً، والذي كانت ستؤدّيه تريزا باتيستا في ملهى باريس الليغري الواقع في فاتيكانو من منطقة ميناء أراكاجو في سرجيبـــي ديلـــراي، تأجّـــل عدّة أيام بسبب جراحة أسنان طارئة لنجمة العرض نفسها. وتمّ التأجـــيل بقرار حزم به فلوريانو بيريرا المعروف بفلوري باتشولا صاحب الملهى، والـــذي يعود بخلقه القوي أصلاً إلى ولاية مارينياو. وقد حافظ فلوري على صلابة طـــبعه فلم يتذمّر ولم ينح باللائمة اعتباطاً على أحد كما حصل عادة في مثل هذه الحالات.

كانت الحفلة الأولى لنجمة السامبا المثيرة قد أثارت اهتماماً كبيراً، لأن اسم تريزا باتيـــستا كـــان معروفاً في بعض الأوساط، ويتردّد على ألسنة المتجولين، وفي السوق والمرفأ والمنطقة العامة، وكان باتشولا ذا فعالية في الدعاية، لا يزاحمه مزاحم في استنباط الجمـــل والـــشعارات الدعائية. أما لولو سانتوس محامي الفقراء الشهير في سرجيبـــي كلّهـــا، فهـــو من جاء بتريزا إلى فلوري. وقد عُرف لولو بمرافعاته في المحاكم وخطبه الملهبة وعباراته الروحية، فبرع في المسائل الجنائية براعته في شرب البيرة. وكان في كل مـــساء يتـــباحث مع زبائنه في مقهى وملهى مصر، ضاحكاً على البلهاء منهم، وراسماً الأســـاليب الدفاعـــية عبر دخان سيجاره المتطاير باستمرار؛ ومنذ عطّل شلل الأطفال رجلـــيه عن الحركة، راح لولو سانتوس يتنقّل متوكئاً على عكازين، قائماً بهذا العمل بسرور كبير ومزاج جيد لا يتبدّل. وكانت تربطه صداقة قديمة بتريزا باتيستا فقد أُشيع

أنّـــه ســـافر مـــنذ عدة سنوات إلى داخل باهيا، بطلب، وعلى نفقة إميليانو غويدس صـــاحب المصنع والأراضي الواسعة في الولايتين، بغية حسم دعوى كانت قد قُدِّمت ضد تريزا باتيستا، واعتبرت باطلة لأن المدّعي عليها كانت قاصراً، ولكن أي شيء من كل ذلك لا ينطبق على هذه الحالة، إذ لا يهمّ هنا سوى الكلام عن الصداقة بين الفتاة واللـــسِن الـــذي يساوي وحده مجموعة كاملة من خريجي الحقوق وحَمَلة المؤهلات والمتدينين اللبقين والخطباء والأساتذة المتفرغين وأصحاب الرداء المهني.

الملهـــى مليء بالرواد، وعلى كثير من الحيوية، في جو صاخب، تزيد صخباً فـــرقة جـــاز منتصف الليل؛ والزبائن ينفقون على البيرة والكوكتيلات والبراندي والويـــسكي.. في ملهـــى باريس الليغري، هذا، يستمتع شباب الطبقة المخملية في أراكاجـــو بأسعار معقولة، وكما يمكن ملاحظته في كتيّبات الدعاية الموزّعة بكثرة في المدينة، فإن الشباب المخملي، هناك، هم من الموظفين في المكاتب التجارية، ومن الطلاب والموظفين الرسميين والجباة، بالإضافة إلى الشاعر جوزي سارابيفا والرسام جنـــر أوغوستو؛ بعضهم مؤهلون وأكثرهم متسكعون، بالإضافة إلى المحترفين من أصحاب المكاتب والمؤسسات الصغيرة، ذوي الأعمار المختلفة. وقد ذهب بعضهم بـــشبابه المخملي إلى ما بعد الستين. وكان فلوري باتشولا، المولود من أب أبيض وأم هـــندية، ذو القامـــة الصغيرة والكثير من حسن الكلام، وقوة الإقناع، قد قام بتفخـــيم خاص لحفلة أميرة السامبا والإثارة، ولم يأل جهداً ليجعل من ظهور تريزا الأول على خشبة ملهى باريس الليغري أمراً جللاً وحدثاً لا يمكن نسيانه.

3

بالنسبة لليلة عرض أول كانت تبدو شديدة الثقة بنفسها مع قليل من العصبية تعمـــل علـــى إخفائها، وهي جالسة في ركن من أركان الصالة تنتظر وقت تغيير ملابـــسها، وهـــي تـــتحدّث إلى لولو سانتوس وتصغي إلى تعليقاته الخبيثة المتعلقة بالزبائن. تكاد لا تعرف أحداً في المدينة بينما اللّسن كان يعرف كل الناس.

وعلى الرغم من الضوء الخافت وموقع الطاولة المنعزل فإن روعة تريزا لم تكن خافية على أحد. ولفت الأستاذ لولو انتباهها إلى إحدى الطاولات التي يجلس إليها شابان شاحبان يشربان كوكتيل براندي ويبدو شحوب أحدهما مرضيّاً:

– الشاعر لا يرفع عينيه عنك يا تريزا.

– أي شاعر؟ أذلك الشاب هناك؟

وقــف الــشاعر ذو الــشحوب المرضي رافعاً الكأس بيده متوجّهاً إلى تريزا واللّــسن، ويــده الأخــرى فوق ناحية القلب بحركة عريضة تعبيراً عن الصداقة والإخلاص. حرّك لولو سانتوس اليد والسيجار معاً رداً على التحية:

– إنــه جــوزي سارابيفا. موهبة عالمية. شاعر، ولكنه مع الأسف ذو حياة قصيرة.

– وماذا به؟

– مسلول.

– ولماذا لا يعالج نفسه؟

– يعــالج نفسه؟ إنه يقتل نفسه ويقضي ليالي بيضاء وهو يشرب بوهيميا. إنه أكبر بوهيمي في سرجيبــي.

– أهو أكثر بوهيمية منك؟

– لــست شــيئاً بالنــسبة إليه، إني أشرب كميتي من البيرة، ولكنه لا يتقيّد بقاعدة، يبدو كأنه يريد أن يموت.

– أمر سيئ حين يريد الناس أن يموتوا.

بعــد عدة دقائق، وهو الوقت الذي يتناول خلاله الموسيقيون كأساً من البيرة عاد الجاز يصطخب. ومشى الشاعر لينتصب أمام تريزا ولولو:

– لولو، أخي، أرجو أن تقدّمني إلى إلهة الليل.

– صديقتي تريزا، الشاعر جوزي سارابيفا.

قــبّل الــشاعر يد الفتاة وهو مثقل بالشراب وفي عينيه مسحة حزن حاول إخفاءها ببعض الحركات المفتعلة بشكل فجائي:

– لمــاذا تخفــين كل هذا الجمال؟ إنّ جمالك تزيّنه أمارات النعمة والشهرة. دعينا نرقص يا نعمتي الإلهية.

وبيــنما هما يتوجّهان إلى حلبة الرقص، توقف الشاعر سارابيفا أمام الطاولة ليجرع ما بقي في كأس الكوكتيل وقرّب تريزا من رفيقه:

– أيها الفنان، تمتّع بهذا النموذج العلوي الجدير برافائيل وتيسيانو...

نظـــر الرسام جنر أوغوستو إلى وجه تريزا، ومنذ ذلك الحين لم يعد ينساها. وابتـــسمت تريـــزا بلطافة محافظة على المسافة، سئمة القلب، فارغته، وغير مهتمة بنظرات الإعجاب والتملق، وانسحبت بتمهّل.

راح الـــشاعر وتريزا يرقصان. قطرات من العرق تنبع منه خوفاً من الفشل في قيادة السيدة ذات الحركة التي لا أخفّ منها، والإصغاء الذي لا طائل منه؛ كانت تريـــزا قد تعلّمت أن ترقص مع الأستاذ، بكمال، ناسية العالم عبر دفء الموسيقى وعيناها مغمضتان.

ومـــن المؤسف أن تكون مضطرة إلى فتح عينيها لتصغي إلى الشاعر المسكين الذي يخرج من صدره تنهُّد عميق مع الكلمات الحلوة:

- هـــي أنتِ نجمة السامبا المثيرة، أليس كذلك؟ هل تعلمين أن إعلان فلوري لعرضك الأول هو قصيدة؟ طبعاً لا تعرفين، ولست تحتاجين إلى المعرفة، فدورك هو أن تكـــوني جمـــيلة، ليس إلاّ. في الحقيقة تساءلت عندما قرأت الدعاية: يا جوزي ســـارابيفا الذي تعلّم كل شيء، قل لي، ماذا أعطت هذه الفتاة لباتشولا فتمكّنت مـــن أن تجعـــل منه شاعراً؟ أما الآن فأستطيع أن أجيب. بل أستطيع أن أنظم لك قصائد دون أن أقتفي آثار فلوري الشعرية.

وهنا بالذات، أراد أن يردِّد أبياتاً من الشعر الغزلي في غمرة الرقص على أنغام الجـــاز، ولكـــان يفعـــل ذلك بالتأكيد لو لم يقع بجانبه حادث هامشي جاء نقطة الانطلاق إلى الأزمة.

رجـــل وامرأة يدوران رقصاً على الحلبة وجهاً لوجه. أما الرجل فكان محاسباً مـــتجوّلاً، يـــبدو عليه ذلك من ملابسه الأنيقة: سترة رياضية أنثوية، وربطة عنق جذّابة، ولم ينسَ تصفيف شعره وطلاءه بالدهن اللمّاع؛ ومن الطريقة التي يُغدق بها بالإغـــراءات والوعـــود علـــى مسمع الفتاة التي بدت كل شيء من السمنة وقلّة التجـــربة، وذات جانب من الرأس جذّاب، وبعد أن كانت تبدو متلمّظة بمعسول الكـــلام ومتمـــتّعة بأناقة ولطافة النجم اللامع، فقد عبّرت فجأة عن ارتباك وقلق وعادت تنظر إلى باب المدخل. وصاحت فجأة:

- "إنه ليبوريو، نجّني يا الله"، فرّت من ذراعي شريكها وأرادت أن تهرب فلم تجد مكاناً، ثم بدأت بالبكاء مرتعبة.

كـــان ليبوريو الذي أحدث دخوله، برفقة ثلاثة مرافقين، ارتباكاً لدى الفتاة، شخـــصاً طـــويل القامة يرتدي اللون الأسود وكأنه في حداد وذا عينين ناعستين وشـــعر أشـــعث وكتفين منحنيين وفم أشدق. إنه من الناحية الجمالية على عكس الجمـــال تماماً، وبدا كأنه راجع من دفن. توجّه نحو حلبة الرقص ووقف أمام الفتاة الخائفة وقد سُمعت له خُنة في الصوت:

– أهكذا يا عاهرة ذهبت تزورين أمك المريضة في بروبريا؟

– ليبوريو، لا تثر فضيحة، حباً بالله.

ابتعد المحاسب المتجوِّل، وقد اكتوى سابقاً بتمثيلات لها، ولكي لا يوسّخ سجله مـــرة أخـــرى في المختـــبر الـــصيدلي الذي من أجله يسافر إلى باهيا وسرجيبـــي والأغـــواس متنحياً إلى مسافة بعيدة، في حين أن زملاءه في المهنة كانوا قد انتصبوا واقفين لمساندته إذا اقتضى الأمر.

وكان الشاعر قد همَّ بالرجوع إلى الرقص دون أن يعير أهمية كبيرة لما يحدث، ولكـــن ما هو أكثر شيوعاً في الملهى هو نطحة القرن الخطيرة. وها هي الصفة تأتي مدوية إلى حدّ غطّت معه على صخب الجاز...

أوقفـــت تريزا خطوها الراقص في الوقت الذي شاهدت فيه يد الفظّ الغليظة تهـــوى ثانيةً على وجه الفتاة وسمعت صوته الأخن يقذف بكلمات طالما سمعتها في الـــسابق: "تعلّمـــي أن تحترميني يا كلبة؟"، الصوت كان مختلفاً ولكن العبارة هي نفسها وكذلك وقع يد الرجل على وجه المرأة.

في البرهة نفسها أفلتت تريزا من ذراعي الشاعر سارابيفا واتجهت نحو الاثنين:

– الرجل الذي يضرب امرأة ليس رجلاً، إنه جبان...

إنها أمام الطويل القامة، ترفع رأسها إلى أعلى وتخبره:

– وأنا لا أضرب الجبان ولكني أبصق في وجهه.

وانطلقت البصقة، متدرّبة منذ صغرها على إجادة كل أنواع العراك والحرب مـــع الأولاد السيئي التربية فإن تريزا باتيستا كانت تجيد التصويب، ولكن البصقة هـــذه المرة بسبب طول الشخص المصوّبة إليه أخطأت الهدف، وبينما نظر الرجل شزراً، استقرّت البصقة على الأرض.

– يا بنت الزانية!!

- إذا كنت رجلاً فتعالَ واضربني.

- فوراً يا زانية.

- عجِّل إذاً.

اقتـــربت ولكـــنها لم تنتظر أن يُسرع إليها، فوجّهت إليه رفسة مستهدفة بها خـــصيتيه، ولكنها أخطأت هدفها ثانيةً فالرجل كان ذا فخذين قطبيين.. وفقدت تريـــزا توازنها فانتهز أحد مرافقي الرجل المتطاير العينين شزراً الفرصة، وأمسك بها من الخلف، شادّاً ذراعيها، وواضعاً وجهها أمام متناول الآخر. و لم يكتفِ ليبوريو بضرب الامرأة بل استعمل لذلك قبضة يده فحطّمت الضربة فم تريزا.

قفـــز الشاعر ساريفا فوق قليل الحياء الذي يؤدب نجمة السامبا الدافئة، فوقع الثلاثة أرضاً. وبقفزة واحدة انتصبت تريزا لتبصق من جديد في وجه ذلك النموذج الفـــظ، ولكـــن البـــصقة هذه المرة كانت دماً وقطعة من سن صغيرة. واستجمع الفـــريقان قواهما: من جهة مؤيدو ذي القرنين الكبيرين، ومن جهة أخرى الرسام جنـــر أوغوستو وهو يعضّ شفتيه، والمحاسب المتجوّل الذي كانت قد قادته الحيطة إلى إهمـــال رفيقته وتركها لقدرها؛ أما الفتاة المجهولة فقد قامت بما يجب القيام به. واستمرّ الجاز بالعزف ولكن الراقصين أهملوا الحلبة تاركين إياها خالية للمشاهدين؛ ووقـــف أحدهم فوق الطاولة وبيده ورقة من فئة عشرين كروزيرو وراح يتحدّى بصرخاته الحيوانية:

- إني أراهن بعشرين كروزيرو على الفتاة، فمن يدفع؟

وتمكّـــنت تريـــزا من الإمساك بشعر التيس الأشعث تريد أن تقتله بينما هو يحـــاول أن يهوى بقبضة يده على فمها من جديد ليكسر لها سناً أخرى؛ ولكنها، ســـريعة، لبقة، كانت تحمي نفسها بعيدة عن متناوله وتستمر شدّاً بخصلات شعره الطـــويلة، تبـــصق على وجهه وتنتظر الفرصة المؤاتية لتسدِّد له ضربة بحذائها على خـــصيتيه، وتحلّق الزبائن حول حلبة الرقص ليزيدوا من متعتهم بالمشهد المثير. أما الفـــتاة التي تسبّبت بكل ما يجري فإنها كانت ترافق الضربات من بعيد ولا تعرف إلى جانب من يجب أن تبقى.

خـــلال العـــراك وصل إلى المكان هندي ذو عضلات لفحتها الشمس وجلد عملت فيه رياح البحر، وبعد أن شاهد بعض الجولات، قال للجميع:

- بحق السماء، إني لم أشاهد حتى اليوم أنثى أجمل عراكاً من هذه المرأة.

في تلك اللحظة ظهر رجلا أمن بلغهما الضجيج فعرفا ليبوريو وأصدقاءه، ثم وزنـا بنظـراهما الزبائن وانطلقا غاضبين نحو تريزا مع الاستعداد اللازم لتعليمها كيف تكون المناطحة.

- إلى هـناك، أنا من يهذب يا يانسان. أطلق الهندي صرخة الحرب هذه ولم يعـرف أحـد لماذا يا يانسان. هل قالها وهو يعني تريزا منادياً إياها، دون خـوف، باسم رمز من رموزه الإلهية، يريد بذلك أن يظهر أمام الجميع الأكثر شـهامة، أم أنـه أراد أن يلقّن أمثولة للداخلين في معركة مع المعلم جانواريو جيريبا؟

جعـل دخول الهندي الجميل رجلي الأمن يفرّان كل واحد باتجاه، فمنع أحـد أتـباع الطـويل القامة عن وضع كعب حذائه في وجه الشاعر جوزي ساراييفا صـاحب الـصدر الضعيف والقلب المتعب، وقد تمدّد أرضاً دون كلمة... وصل إليه الهندي، كأنه الإعصار، فرفعه وعاد يتابع الجولة بينما عاد الحارسـان لـيقفا من جديد. وعندما شهر أحد مرافقي الفظ الغليظ مسدسه مهـدّداً بـإطلاق الرصاص انطفأت الأضواء. كانت آخر صورة شوهدت هي منظـر لولو سانتوس واقفاً على عكاز واحد والسيجار في فمه ويدور بالعكاز الآخـر في الهـواء. وما كادت الظلمة تسيطر على المكان حتى سمعت صرخة حيوانـية أطلقهـا ليبوريو، سببها أن تريزا كانت قد أصابته بضربة عنيفة من رجلـها في المكان الذي يجب أن يضرب فيه. لم يتمّ العرض الراقص الأول في تلك الليلة، وما تمّت مشاهدته من عرض قليل قامت به أميرة السامبا في باهيا، لم يكن وحده السبب في جعل ظهور تريزا على حلبات رقص أراكاجو حدثاً لا ينـسى. أمـا الطبيب، جراح الأسنان جميل نجار الذي كان قد راهن بعشرين كروزيـرو، فإنه لم يتلقَّ شيئاً من أميرة السامبا ليركّب لها سناً من الذهب مع الكثير من الجفصين في لثّتها العليا حيث هوت قبضة الحديد على فم تريزا لتشق لها شفتيها، فبالنسبة إلى جراح الأسنان، إذا كان لا بدّ من المطالبة بدفع، فالدفع هذه المرة لا يتمّ بالمال.

4

اعـــتنى فلـــوري بآثار الجراح على فم تريزا باتيستا، وبقي الأمر متوقفاً على كلمـــة يقـــولها جراح طب الأسنان ليتمكّن صاحب الملهى من تعيين تاريخ جديد لعرض تريزا الأول الذي أصبحت جماهير الزبائن تترقّبه بكثير من الشوق، ودون أن يضطر إلى تأجيله مرة أخرى.

أما طبيب الأسنان جميل نجار فقد اتخذ من العلاج فرصة ذات فائدة ليصل إلى مبـــتغاه: "إنـــه عمل راق يا عزيزي باتشولا، وليكن ما يكون، فهو يحتاج إلى فن وعـــناية كبيرين؛ إلى أهلية، تحتاج الوقت الكافي لتصل إلى الكمال؛ والمسألة ليست مسألة سن ذهبية وحسب بل مسألة تلاؤمها مع الفهم الإلهي، ولا يمكن أن تكون غير مدروسة كأنها عمل تجاري، فالأمر دقيق وحساس".

أما فلوري فلكي يستعجله قال:

– "إني أفهـــم جـــيداً هواجسك الوجدانية يا حضرة الطبيب الذي ركّب لي أســـناني الاصـــطناعية. ولكن عليك أن تذهب بخفة، فلا تضع الصبغ الذهبـــي، أرجـــوك"، وبينما كان فلوري يفكّر في أساليب الدعاية التي سيستخدمها للعرض المقـــبل. كانـــت اللـــوحات الملونة قد علّقت في كل زاوية من زوايا محلّة فاوستو كـــاردوزو، قـــرب القصر الحكومي، وكتب عليها بحروف بارزة: "قريباً جداً، في ملهـــى بـــاريس الليغـــري، إمبراطورة السامبا المتألقة"، "السامبا بنفسها ترقص"، "راقـــصة السامبا الأولى في البرازيل". إعلانات فعّالة في نظر فلوري ولكنها ناقصة ودون ما تستحق النجمة الكبيرة. أما لائحة المولعين براقصة السامبا التي لا مثيل لها فـــيجب أن تحمل أولاً اسم صاحب الملهى نفسه، قبل اسم المحامي وطبيب الأسنان المؤهل، والشاعر والرسام، وإذا لم يكن من أسباب موجبة لذلك، فعلى الأقل لأن صـــاحب الملهـــى هو من يدفع التكاليف، مع أحكامه المسبقة، على عائدات الليلة المثمرة، المجيدة.

الجمـــيع مشوّشون. أما فلوري الذي شاب وهو يتعامل مع الفنانين فقد وجد أنـــه من الضروري القيام مساء بتمارين يومية، بينما النشاطات الطبية جارية على أســـنانها وشفتها المتماثلة للشفاء، بغية محافظة أميرة السامبا على الانحناءات الخلفية اللازمـــة للسيطرة على التوازن؛ والأمثل في تلك التمارين هو التدريبات الإيقاعية،

وفي هذه الحال يكون العازف هو فلوري باتشولا نفسه ذو المواهب المتعدّدة: بيانو، قيثارة، كمان، مغني أناشيد عميان...

ولكــن كــيف يواجه انحراف المعجبين من الذين يأتون خلف الراقصة، من أمثال طبيب الأسنان والشاعر والرسام والمحامي اللّسن ليزعجوا التدريب ويفسدوا على فلوري مخططاته المبيّتة.

كــان فلــوري قــد وصل إلى أراكاجو منذ أكثر من عقد من الزمن بصفة مسؤول عن تصفيات شركة جوتا بورتو وألما كاسترو وممثل رسمي لمجلة "أين يحرق الفلفل؟" التي ستقدّم على مسرح ركريو في الريو دي جانيرو ثلاثمائة عرض، ولكنه كان في أراكاجو أقل نجاحاً وسعادة (بالكلام فقط) منه عن رحلته إلى الشمال.

وعــندما حلّ فلوري محل المندوب المفوض في سان لويس دو ماراتيا، كان ما يزال شاباً متحمساً لم يتكشف بعد عن موهبة الإداري لبيوت وشركات العروض الفنية. و لم يكن يمتلك بعد الخبرة الفنية لذلك، لكن الخبرة ما لبثت أن تكوّنت إثر سلــسلة مــن الصدمات خلال الرحلة من سان لويس إلى بلين فمناوس. وخلال رحلــة العودة طلعت له الجميلة ألما كاسترو فولّهته وجعلته يتخلّى عن وظيفته في شــركة تــصدير الباباس؛ ولكن المسألة كانت ذات نهاية غير مرتقبة، لا انفعالات فيها. وعندما علم بانصراف عازف البيانو المفاجئ والخياني، ولأنّ عينه على المغنية، عــرض نفــسه عازفــاً ليستمر العمل، ثم أوكلت إليه مهام مساعد للمتعهد الفني والنجم الرئيسي جوتا بورتو في كل ما هو متعلق بالمشاكل العملية والالتزامات تجاه المــشرفين على المسرح وعلى شركات النقل وأصحاب الفنادق وغيرهم من رجال الأعمال.

عند الحلول في مدينة جديدة، كان يعمل على تقليص أهمية المندوب الرئيسي. وفي أراكاجو غدا العرض المسرحي مكملاً لأوقات السينما، وعندها، لم يعد المكان يدعــى شــركة ألما كاسترو وجوتا بورتو، فقد تقلّص الاسم وأصبح مجموعة ألما كاســترو. وبعينين مبلّلتين بالدموع، جمع جوتا بورتو آخر نقوده المعدنية، ورأى نفسه خارجاً منهزماً بعد أن قبّل ألما كاسترو في جبهتها وفلوري على خدّيه، وهو متشكك من الأخير، وإذ ذلك وجد المخرج المسرحي الذي كانت الفتيات يفقدن النوم وهنّ يفكّرن فيه نفسه مجبراً على التخلي عن كلّ شيء بسهولة.

وجاء فلوري إلى ريسيفي مع السيناريوهات وحافظة الملابس والكمان وأربعة رسوم كبيرة من ضمنها رسم ألما كاسترو. ودون أن يكون معه قطعة نقود معدنية فائضة، بلغ قمة الاحتراف المسرحي. ولكي يبرهن كم كان قادراً، فقد تمكّن المدير العام الجديد من أن يقدِّم العرض نفسه في ماسيا وبينيدو وأراكاجو.

في أراكاجو، ولكي يسمح بانطلاق العاملين معه إلى الريو، ترك نفسه رهينة في الفندق الذي حجز المعدات، لأن الفرقة كانت عاجزة عن دفع المصاريف؛ ومن الريو دي جانيرو أعطت ألما كاسترو الأمر الضروري لإطلاق سراح المدير الجديد والخطيب السابق.

لم تكـــن تنقصه علاقات الصداقة والجنس في مدينة الريو، انطلاقاً من القائد سانتوس فريرا العضو البارز في جمعية لوز برازليرا، وكذلك في أخوية ألما كاسترو، إلى الآخـــرين مـــن كبار السن الأغنياء وأصحاب النفوذ والمشاهير وذوي المراتب العليا؛ وبفضل هؤلاء لم يتم إعطاء أي أمر للقيام بأعمال خشنة.

بعـــد عشرة أيام في الفندق، اكتشف السيد ماروزي أن بقاء الأسير في غرفة مـــزدوجة يأكـــل بمقدار ثلاثة نزلاء لم يكن إلا ليزيد تكاليفه، فاعتبر المال مفقوداً والأمـــر منتهـــياً، حتى إنّ مدير الفندق ماروزي عرض مساعدته لتحمل تكاليف السفر؛ لكن فلوري، وقد أخذه الشغف بالمدينة الجميلة المضيافة، آثر البقاء، وبقي يـــتابع الحركة المسرحية، مكوناً لنفسه المادة والتجربة، وامتهن تدريجياً حرفته، من موظف في ملهى إلى مدير فشريك فصاحب ملاهي تور إيفل وميرامار ولاغارسون وأورو فينو، إلى أن بلغ ملهى باريس الليغري.

راحـــت تريـــزا تتدرّب مرتدية ملابس، هي ملك الشركة. حتى الآن: قبعة ريش، وسترة شفافة، وأوفرول... وبقي جزء كبير من جسدها عارياً؛ ولكن لماذا يبقى عارياً؟

وراء البـــيانو كان فلوري حزيناً يستنكر في قرارة نفسه وجود حاشية الأدب والفـــن والقانـــون، وعلى الأخص وجود طبيب الأسنان؛ وكل الحاشية عند أقدام تريـــزا باتيـــستا. ولكنه، أبعد من معرفته بكل ما يجري، فقد كان فلوري عنيداً، مقاومـــاً، علّمـــته الأيام كيف يكون صبوراً؛ وما دام هو سيد الملهى ورب عمل النجمة الكبيرة، فمن في الميدان أفضل منه؟

الجميع مغرمون، وليس أقل منهم غراماً. المحامي اللّسن لولو سانتوس الذي، على الرغم من عكازيه، كان له صيت زير نساء خطير. جميعهم حول تريزا، وكل واحد يُظهر نفسه أكثر غراماً بها.

الشاعر ساراييفا كان قد أعرب عن تولهه في ديوان شعري غنائي كانت تريزا مصدر إلهام لبعض أهم قصائده في الجزء الذي أسماه فتاة النحاس، وكان هو من أعطاها ذلك اللقب الذي عُرفت به فيما بعد.

أما طبيب الأسنان جميل نجار وهو ابن عربي، ذو دم حار، فكان قد عرض عليها أن يجعلها سعيدة بينما كان يمسك بفمها مفتوحاً ويضع لها السن الذهبية، وكان الرسام وهو يحدِّق فيها بعينيه الزرقاوين العميقتين، يبقى صامتاً، وهو يجلس في مكان خلفي ويرسم لها لوحات ملوّنة، كانت هي الرسوم الأولى التي رسمها جنر أوغوستو لتريزا باتيستا، وطُبعت في كتيّب لائحة الأسعار وكتيبات الإعلان عن النشاطات الفنية اليومية.

وكانت كل رسوم تريزا من صنع جنر أوغوستو إذا لم تخن الذاكرة، ما عدا اللوحة التي تمّ رسمها في محترف النهر الأحمر، عندما ارتأت تريزا أن تعرض نفسها نموذجاً لذلك الإطار الكبير الذي تقف فيه فوق الذهب والنحاس، وتبدو امرأة كاملة، في قمة الجمال، وزهرة العمر، وترتدي الملابس نفسها التي كانت ترتديها في باريس الليغري: قبعة ريش صنع باهيا وأوفرول قصير شفاف فوق صدرها النافر، بينما فخذاها عاريان ولون بشرتها وضّاء شيطاني.

كانت تريزا تسخر من هؤلاء وأولئك؛ وعلى الرغم من اللطافة والالتزام بما يحيط بها من الطيبين رقيقي الإحساس الذين يغمرونها بالقصائد الغنائية، فقد كانت تفتّش دائماً عن صداقة حقيقية لحاجتها إلى حرارة إنسانية.

ولم تكن تعطي نفسها بسهولة، وذلك، ربما لأن المهن الوحيدة التي أتيح لها أن تمارسها كانت مهناً تناط فقط بخادمة تقوم بالأعمال كافة، من داعرة إلى عشيقة، ولأنها كانت قد تمدّدت في فرش رجال عديدين، وذلك خوفاً بالدرجة الأولى، وكسباً للحياة بالتالي. وعندما كانت تحسّ بالرغبة فقد كانت تنتفض مسعورة من الفراش لأنها لا تقوم بذلك إلا عن حب، ولا يكفيها الميل العابر. فلا محترف الفن فلوري، ولا الطبيب المرشح للزواج منها, ولا اللّسن لولو سانتوس، ولا الرسام

الـــصامت ذو العينين النافذتين، ولا الشاعر، للأسف، لا أحد من كل هؤلاء قرع باب قلـــبها وأشعل الشمعة المنطفئة فيه. لو قال لها لولو سانتوس يوماً: "يا صديقتي أريد أن أنام معك فإن لم تفعلي تألمتُ أكثر مما أستطيع تحمله لذهبتْ وإياه دون اكتراث، بعيدة الروح لأنها تمارس عملاً، ولأنها مدينة للمحامي بخدمة سابقة، إذا فرض عليها أن تدفع الدين بجسدها فلن تنكر عليه حقّه وليكن ذلك واجباً مؤلماً من الواجبات التي يجب أن تلتـــزم بهـــا. ولـــو وصل مرة الشاعر جوزي سارايبفا بربطة عنقه السخيفة، وكالعادة يـــسعل فيـــصطخب البلغم في صدره، وقال لها إنه يموت سعيداً إذا اضطجع معها قبل الموت لتمدّدتْ في فراشه بالطريقة نفسها، ولكانت تفعل الشيء نفسه مع مموّلها بالدفع الآجـــل فلـــوري باتشولا، ومع الشاعر المولّه. أما أن تعطي نفسها بلذّة ورغبة، فهي عاجـــزة عن ذلك. كما هي عاجزة عن أن تبدي اهتماماً بأحد، فهذا الأمر مستحيل هـــو الآخـــر، وحتى تكون هي نفسها في الفراش وبعلاقة حب، فيجب أن تدفع سعراً مـــرتفعاً وبعملـــة صعبة اسمها الشقاء. واكتفى اللّسن والشاعر بإبداء رغبتهما دون أن يطلبا منها ذلك، ومكثا ينتظران لأنهما لا يريدانها بالتسوّل والمال.

أمـــا الآخـــرون فقد طلبوا مرات متكررة وتوسّلوا، ولكنهم لم يحصلوا على شـــيء، ولو أن ذلك كان ليتمّ بأي مبلغ من المال ويجعلها غنية، لما كانت لتفعله؛ ومـــا دام في حقيبـــتها بعض المال وهي تنتظر أن تنال أجرها كونها راقصة سامبا، فستبقى سيدة نفسها مع ذلك، وإن وقتاً قصيراً.

عـــندما وصـــلت لتقيم في غرفة مؤجرة في دار العجوز أدريانا وفقاً لاقتراح لولـــو، تلقّـــت عرضاً مغرياً عرضته عليها فرناندا صاحبة بيت الدعارة الأكثر أناقة والأغلى سعراً في أراكاجو. فرناندا تلك، السيدة الجنوبية، لا يعطي مظهرها العمر المـــسجّل لهـــا في سجل الولادة، حسنة الطلعة، لبقة في المفاوضات، ثرية المظاهر تغطّيها الملابس الحرير وتنتعل الكعب العالي. وكانت تريزا قد سمعت باسمها يتردّد علـــى لسان النقيب الذي كان يسيطر في ذلك الحين على أراكاجو. كانت فرناندا قـــد أصبحت على علم بوصول تريزا بواسطة لولو سانتوس الزبون الدائم والعليم، مَن يدري؟ إنها أمور من الماضي.

وجاءت فرناندا شخصياً لتقدّم العرض بنفسها لتريزا فتناولت المهفة وطردت العجوز الفضولية أدريانا بنظرة باردة، ألقتها عليها:

- إنك أجمل مما وصفوك لي يا تريزا...
هكذا بدأتْ عرضها.

وراحت فرناندا تصف لها بيت العزّاب المسمَّى راندي فو. دار واسعة قديمة تقع بين الأشجار وسط مساحة من الأرض مسيّجة بجدران عالية حُوِّلت الغرف الكبيرة إلى غرف حديثة. وتقع غرفة الانتظار في الطابق الأرضي. وفيها أسطوانات موسيقية وغرامافون ومشروبات، وفيها تُعرضُ الفتيات المتفرغات. أما الطابق الأول فتستخدمه فرناندا لاستقبال رجالات السياسة والأدب والفن وأصحاب المصانع وكبار الفنيين، وهناك، غرفة الطعام، والمشتمل، و"تستطيعين يا تريزا أن تقيمي معنا إذا رغبت". كانت تظهر لها الاحترام بينما تعرض عليها المأوى والعمل حيث تقيم بعض المختارات من النساء الأجنبيات اللواتي امتلأن بالمال وأخذن يعدن إلى الجنوب...

وتريزا تستحق الاستثناء، فإذا لم تشأ أن تقيم فباستطاعتها أن ترتاد المكان، عصراً، وليلاً، في ساعات الحركة، حيث تخدم فرناندا الجميع دون تمييز، وعلى قدم المساواة، ما داموا يدفعون التعريفة المحدّدة. وإذا شاءت تريزا استطاعت أن يكون لها زبائنها الخاصون، من أصحاب الامتيازات؛ وعرضت فرناندا الواضحة في حديثها أن تختار لها الزبائن من النخبة وذوي الإمكانيات المالية الكبيرة المُدرَجين في مفكرتها، وهم أقل تطلباً وأكثر دفعاً للمال؛ وإذا كانت مؤهلة بقدر ما هي جميلة، فإن لديها المجال لأن تربح مالاً سهلاً وسريعاً، وإذا لم تكن ذات نوبات جنونية تجعلها تلقّم المال "للمعتاشين من مال العاهرات" فستصبح فاحشة الثراء.

كما أن تريزا ستتعرّف إلى مدام جيرترود، الفرنسية، التي، بالمال الذي تربحه هناك، ستشتري داراً وأراضي في منطقة الألزاس، وهي مزمعة على العودة إلى الوطن في العام المقبل لتتزوّج وتُرزق أطفالاً، إن شاء الله.

أوقفت فرناندا المهفة، ففاحت رائحة مسك قوية امتزجت بالهواء الحار، بعد ظهر ذلك اليوم الصيفي، وكانت تريزا قد أصغت بصمت إلى العرض الكامل بكل ما فيه من المقترحات المغرية والمتعددة مبديةً الاهتمام الأدبي، وعندما مطّت فرناندا ابتسامتها العريضة منهية حديثها، أجابتها تريزا:

- "لا أنكـــر أني تعاطـــيت الدعارة سابقاً وأستطيع أن أعود إلى ممارستها إذا اضـــطرتني الحاجة، ولكني، حالياً، لست مضطرة إلى ذلك، وأشكرك. ربما في يوم مـــا". كانـــت قد تعلّمت الأساليب والطرق المهذّبة والفعّالة مع الأستاذ، وعندما كانـــت تتعلّم شيئاً فلا تنساه. كما كانت المعلمة مرسيدس في الابتدائية تُثني على ذكائها وشغفها بالدرس.

- وإن مـــرة واحـــدة، إذا دُفع لك مبلغ كبير، ودون التزام يومي، استجابة لنـــزوة واحد من الكبار؟ تعرفين أن أفضل قوم في أراكاجو يرتادون بيتي.

- لقد سمعتُ عن ذلك ولكن لا يهمّني الأمر. اعذريني.

عضّت فنراندا على طرف المهفة متكدّرة. فتاة مثلها بملامح الغجريات وذات جمـــال متفـــرّد تـــسبقها الشهرة، هي اللقطة الأخيرة، بل قطعة الحلوى، للأسنان المتبقية، وعضّة الناب للزبائن المصرّين، إنها المال داخل الصندوق.

- إذا قرّرت يوماً فيكفي أن تفتّشي عني... أيّ شخص يعلمك عن مكاني.

- شكراً جزيلاً... مرة أخرى أستميحك العذر.

وعادت فنراندا من عند الباب المؤدّي إلى الشارع:

- هل تدرين أنني أعرف النقيب جيداً؟ كان أحد زبائن البيت، هناك.

انقبض وجه تريزا مسوداً كأن الليل قد هبط فجأة على المدينة:

- لم أعرف في حياتي نقيباً.

- لا؟

ضحكت فنراندا، وانصرفت.

5

هـــناك لا أحـــد يلامس قلبها ولا أحد يوقظ فيها رغبة دفينة فيشعل الشمعة المنطفـــئة. أصـــدقاء، أجل، البعض منهم: المحامي اللّسن، الشاعر، الرسام، وطبيب الأسنان، وصاحب الملهى. أما كعشيق فلا أحد. ومن ينسجم في صداقته مع امرأة جميلة؟ ومسائل القلب من يستطيع أن يفهمها ويفسّرها؟

كم هو فسيح عالم أراكاجو حيث مشى الهندي العملاق. ذلك المتحضر ذو الدم الهندي، النقي، الخارج من الماء وقد أحرقته الشمس ولفحته الريح؛ أية نهاية حملته؟

تكـــاد تعـــرفه فقد لمحته أثناء العراك في الملهى وتعرّفت إليه خلال الكأس التي احتسياها معاً في البار الواقع في نهاية الشارع عند آخر الليل. واختفى عند الفجر، لـــدى الـــضوء الأول؛ هـــو والفجر لون واحد، معدن متشابه، وفي الفجر ذاب العمـــلاق الأبـــيض. عبر انسياب الضوء عند أواخر الليل وأوائل النهار رأته تريزا غارقـــاً في الـــصمت. كان يضرب الأرض بقدميه؛ ذراعاه في البحر، وشعره غيمة مطـــر في سمـــاء زرقـــاء قاتمة... لقد وعد بالرجوع. وحده، وضع حداً للعراك، ضـــاحكاً، متكلماً بصوت مرتفع، متوجّهاً إلى الحاضرين والغائبين، إلى الأشخاص والـــرموز. كم هو رائع في تقنية الهجوم والدفاع. عندما شهر أحدهم مسدسه في الملهـــى مهدِّداً بإطلاق الرصاص أطفأ فلوري الضوء، وأصبحت المسؤولية جماعية، وهكذا انتفت قانوناً، فمن يستطيع أن يعطي شهادة عما كان سيحدث في الظلام؟

عـــندما انتـــزع الهندي المسدس بحركة سحرية، ولو أن رجل الأمن لم يُدر فوهة الـــسلاح إلى الأرض ويطلق الرصاص حتى لا يقال عنه كذاب، لكان الهندي نفسه قد فعـــل ذلـــك بكل برود ولطف. كل هذا حدث بقفزة واحدة في الهواء قام بها الهندي الطائـــر العملاق ذو العضلات التي لفحتها الريح والذي اسمه جانواريو جيريبا. وجيريبا ألـــيس مـــشتقاً من يبريبا العملاق؟ أليس جيريبا ملك طير البحر، الطائر الكبير؟ هكذا عرفته وهكذا اكتشفته، ولكن كم كلّفها الأمر حتى تعرفه بما فيه الكفاية؟

عندما انطفأت الأضواء في الملهى، ازداد اللغط وبدأ يتّسع، وحدث كل شيء سريعاً، ما لم يعطِ فرصة المتعة والإشباع الغرائزي لبعض الزبائن والفضوليين الذين انـــضمّوا إلى الحلقة. وعند صرخة "لقد جاءت العصا" التي أتت إنذاراً من الشارع تفـــرّق المـــشاهدون قبل أن تصل إمدادات الشرطة التي كان أحد رجال الأمن قد خرج ليأتي بها.

في الظلام، شوهدت تريزا أرضاً، فرعتها ذراعان وحملتاها عبر السلم الأسفل إلى الـــشارع، وراحـــتا تطوفان بها المنعطفات عبر أزقة ضيّقة بطريقة صامتة بينما تفـــوح من صدر العملاق رائحة الملح. أخيراً وضعها واقفة على رجليها في هدأة ركن منعزل من الشارع، ووقف أمامها وهو يبتسم:

- "جانواريـــو جيريبا في خدمتك، في باهيا يعرفونني أكثر باسم المعلم جيريبا ومن يحبّني يسمّيني جانو". عندما يضحك يخيّم السلام فوق العالم: "لقد جئت بكِ

مـــن تلك المعمعة لأجنّبك الشرطة التي لا توقّر أحداً، هنا، وهناك، وفي أي مكان آخر".

- "شـــكراً جانو"، قالت تريزا، الحب لا يُشترى ولا يُباع ولا يتمّ بسكين في الصدر ولا يمكن تجنّبه، إنه يحدث.

يذكّـــرها الهندي بأحد تعرفه، بمن؟ مهنته بحّار، قائد مركب شراعي ومرفأه باهيا في مياه جميع القديسين ونهر براغواسو؟ ترك مركبه فلور داس أغواس في ميناء رامبا دي مركادو. لم يكن في الحقيقة عملاقاً كما بدا لها في العراك، ولكن ينقصه القلـــيل ليكون كذلك. يخرج، ما يشعرها بالهدوء من صدره الرخامي، ومن عينيه الـــضاحكتين ويديه الغليظتين، ومن كل ما فيه، وهو يغرس رجليه مجذفاً عبر نسيم البحـــر... لا، ليس هدوءاً بالمعنى الدقيق؛ وتصلّح تريزا فكرها: إنه بالتأكيد شعور قـــادر على الانفجار والإتيان بما لا ينتظر! إنه إحساس بالأمان وبالحقائق الثابتة. يا إلهـــي من يشبه هذا الرجل الخارج من البحر؟ ليس إنه يشبه الآخر بوجهه وشكله وقد تذكّرت أحداً تعرفه ممن تعرفهم. إنها بقربه لا تشبه مهتاجة خارجة من عراك، ولا تحـــسّ بخجل وهي تسمعه يروي أنه دخل إلى باريس الليغري في اللحظة التي كانـــت تبـــصق على وجه الوضيع؛ إنها في نظره امرأة شجاعة تستحق أن تُرفع لها القبعة احتراماً.

- لست شجاعة أو أي شيء من هذا القبيل، ولكني لا أستطيع أن أرى رجلاً يضرب امرأة.

- "مـــن يـــضرب امرأة ويضطهد طفلاً ليس زهرة عطرة"، وافق العملاق، "ولكني لم أشاهد البداية، أهكذا كانت إذاً؟"

في أراكاجو وجد جيريبا طريقة ليخدم صديقه صاحب الطوافة فنتانيا، كايانو غونـــزا، الملقّـــب بـــأمير رخفة البحر، والذي استنجد بجانواريو في ساعة الضيق. والصديق لمثل هذه الأوقات وإلا لما يصلح الصديق؟

ولكي يعوِّض الخسارة التي لحقت بصديقه الذي خذله صاحب سفينة بسبب المـــرض الـــذي ألمَّ به لأن صاحب البضاعة كان على عجلة من أمره ولا يمكن أن يـــؤجّل موعد الإقلاع، فقد أطلق جانواريو جيريبا العنان لمركبه في ميناء رامبا في رحلة عمل جميلة، والهواء الخفيف قد جعل البحر في عيد. ليلة الحادثة، وصل مساءً

إلى مـــرفأ أراكاجو، فأرسى لتفريغ شحنة التبغ والحصول على حمولة جديدة لتأتي الرحلة ببعض المكاسب الإضافية. عدة أيام في أراكاجو، لنقلْ إجازة. وبقي صديقه على متن المركب، وخرج هو تفتيشاً عن حلبة رقص والرقص نقطة ضعفه. وبدلاً من الرقص معركة، ومن المعارك الجميلة. وراحا يمشيان بلا هدف أو أي إحساس بالـــوقت. "لا بدّ أن يكون في هذه المدينة مكان مفتوح يمكننا فيه أن نشرب جرعةً ما، نخب النصر وتعرُّف الواحد بالآخر". قال هذا وضاع الاثنان، هو يحكي وهي تـــصغي، تسمع أمواج البحر تتكسّر، والهواء يعصف في الأشرعة، واضطراب المياه عند غطس الغواصين إلى الماء؛ تريزا لا تعرف شيئاً عن البحر، وهي المرة الأولى التي تـــرى نفسها فيها قرب هدب مياه المحيط المالحة، هنا أمامها، في صلصال أراكاجو بعـــيداً عـــن المدينة. تشعر، قربها، بخطوة رجل البحر المتهاوية، ذي الصدر الذي أحرقته الشمس وعملت فيه عوامل البحر والعواصف. أشعل جانواريو سيجاراً من التبغ المعجون: "في البحر أسماك وأنواء، وفيه الأخطبوط الأسود وأسراب المرجان، وفي البحر مراكب آتية من الجانب الآخر من هذا العالم، وفيه نباتات...".

– نباتات؟ في البحر؟ كيف يمكن أن يكون؟

واستمرا يسيران. من مكان قريب، عند مدخل نصف مختبئ يقف فيه "قوّاد" كأنمـــا لا عمر له يدعى ألفريدو يعمل لحساب أندرادي صاحب السوق العمومية. هناك سُمع صوت اللّسن وتعالى ضجيج عكازيه:

– آي... أنتم انتظروني.

– إنـــه لولو سانتوس يفتّش عن تريزا، خوفاً من أن تكون قد وقعت ضحية خدعـــة من خدع ليبوريو أو رجال الأمن. وبمعرفته بكل خمارات أراكاجو دعاهما إلى شـــرب كأس تذكارية، قريباً من هناك. اكتفت تريزا بملامسة الكأس لشفتيها، فهي لم تألف تذوّق الكاشاسا الحادة وذات الرائحة الخشبية. أما المضيف فقد راح يتـــناولها جرعات صغيرة، متلمّظاً بها كأنما يشرب محلولاً من الدرجة الأولى، كنبيذ بوردو أو كونياك فرنسا، أما المعلم جيريبا فقد قلب الكأس إلى جوفه دفعة واحدة:

– "أســـوأ المشروبات هو الكاشاسا... من يشربه ليس بذي فائدة"، وبينما كـــان يضحك طلب كأساً أخرى. وراح لولو يروي آخر أخبار المعركة: "عندما وصـــل رجال الشرطة في نهاية الأمر، وجدوه جالساً مع الشاعر سارايفا وفلوري

وهمـــا يشربان البيرة بهدوء. أما ملك الاشمئزاز ليبوريو، فقد هرب. وتخيّلي يا تريزا بمـــساعدة مَن؟ بمساعدة التي تلقّت الصفعات وتسبّبت في كل شيء، إذ عندما سمع ليـــبوريو صـــفّارات سيارات الشرطة أصبحت يداه أعلى من عناقيد العنب وهو يـــصرخ بأنه يستسلم ويطلب طبيباً، ويدّعي أنه أعيق، وهي، إذ لم تعد تلمح، في الـــصالة، المحاســـب المـــتجوّل، فقد نسيت الصفعات التي تلقّتها، وراحت تساعد الـــسافل علـــى النهوض ونزلا السلم معاً. إنهما يتشابهان، هي معتادة على الخيانة والانـــزلاق، وهو يعيش حياته في رذيلة الجرم المشهود والفضائح. صنف سافل من البـــشر"، استنتج لولو سانتوس. أراد الشاعر ساراييفا أن يذهب به إلى نزل تيدينيا المفضّل لدى الشاعر لقضاء أواخر الليل في أراكاجو، ولكن اللّسن المنشغل التفكير في تريـــزا رفـــض الدعوة. وراح الشاعر وحيداً، في صدره الصدمة وفي حنجرته الـــصهيل. وتفرّقوا بعد الكاشاسا. أوصل اللّسن تريزا في سيارة التاكسي إلى بيتها. إنـــه سافل حقير ليبروريو ذاك، والمشاكل تعيش معه في الفراش وتجلس إلى مائدته، وهـــو لا يـــستحق تسهيل الشرطة لأموره.. ومن نافذة السيارة كانت ترى المعلم جانواريـــو جيريبا يسير ناحية الجسر من حيث سيصعد إلى الطوافة... كان بلون الفجر وفي الفجر ذاب.

أحـــسّت بقلبها يضطرب، وبالصدمة التي أصابتها في الماضي، عندما طلع لها دانـــيال كأنـــه ملاك صاعد إلى السماء بعينيه المنكسرتين، ولكنه تخلّى عنها وهي خائـــرة القوى، بلا مقاومة أو شعور بما حولها. من يشبه الهندي النقي الدم؟ لا، لا يُشبه أحداً، ولكنه يذكّرها بدانيال الذي عرفته سابقاً، ولحسن الحظ أنها لا تتذكّر بـــه ملاكـــاً خارجاً من غرفة أو نازلاً من السماء، وهي منذ تلك الصدمة لا تثق بالرجل ذي الوجه الملائكي والصوت المتوجّع والفم المتوسّل والجمال الملتبس، وقد تستطيع أن تكون سعيدة في الفراش مع أمثال دانيال ولكنها وإياه جبانان مزيّفان.

وجـــدت نفسها وحيدة في غرفتها. ودّعت لولو سانتوس: "متشكّرة جداً يا صـــديقي"، ولم تسمح له بالنـــزول من السيارة، فهو لو نزل لأراد البقاء في الغرفة العارية من كل زينة. وفي الفراش الحديدي الضيّق. وبينما تُغمض عينيها طالبة النوم عـــرفت مـــن يذكّرها به صاحب المركب الشراعي: إنه يذكّرها بالأستاذ إميليانو غويدس... ولكنهما لا يتشابهان بشيء. فواحد أبيض رقيق، غنيّ ومثقّف، والآخر

هـــندي أسمـــر البشرة أحرقته ريح البحر، وفقير لا يعرف من القراءة غير القليل، ولكـــن كان بينهما صلة قرابة وهيبة عائلة واحدة؛ من يدري؟ ومن الذي يعرف الإنسان بكلّيته؟

كـــان المعلم جانواريو جيريبا قد وعد بالمجيء ليأخذها ويُريها المرفأ والطوافة فنتانيا، وبداية البحر من هناك بعيداً عن المدينة، فأين هو الآن؟

6

وصل لولو سانتوس ليدعوها إلى حضور فيلم سينمائي، فهو مولع بأفلام رعاة البقـــر، ومكـــث هناك يتحدّث عند الشرفة المطلّة على النهر، بينما تقوم العجوز أدريانـــا بتقديم المانجا وجوز الهند ليختار أحدهما أو يأكل الاثنين إذا رغب. التهم المانجـــا، فاكهته المفضّلة، واستبقى الشاي للعودة من السينما. كانت أدريانا تعرض المانجا الأكثر جمالاً، وأجود الأنواع منها، الوردية، والغامقة، والصلبة، وقلب الثور وغيرها، معتزّة بالبستان الذي تملكه خلف منـــزلها وهو كناية عن حقل صغير.

– هل تريد أن أقطعها لك قطعاً؟

– أنا أفعل بنفسي، أدريانا، شكراً.

وبينما يلتهم الفاكهة راح يوضّح التطورات الأخيرة:

– أنت ظاهرة يا تريزا. ما كدتِ تصلين إلى أراكاجو، حتى أصبح لديك فئة مـــن المـــولعين وأخرى من الخصوم. تَعبُد العجوز أدريانا، عبادةً، التدخلَ في ما لا يعنيها:

– "مـــن المـــولعين أعـــرف على الأقل واحداً..."، ألقت نظرة على اللّسن وتابعت: "ولكن هل هناك من لا يحب هذه الفتاة الجميلة والطيبة إلى هذا الحد؟"

– اليوم، عصراً، تحدّثتُ مع شخص قال لي: إن تريزا باتيستا هذه هي بئر من الكبرياء، ومتحفّظة إلى درجة الغباء...

– "ومن هو؟" أرادت تريزا أن تعرف.

– إنهـــا فنراندا... فنراندا شهيرتنا، وصاحبة أشهر مسلخ للّحوم الطازجة في المديـــنة. يقال إنها لا تقدّم إلا الفيليه الطرية، ولكنها اليوم أرادت أن تقدّم لي لحم كبش فرنسي فاسد.

قبل أن تنتهي إلى العمل في محل لبيع الخضار والفواكه، فإن العجوز أدريانا كانت قد تعاطت ذلك النوع من العمل. وفي المنزل الذي تمتلكه بالميراث كانت تسهِّل الحياة للعزّاب الهاربين تفتيشاً عن متعة. وما تزال، خدمةً لصديق، تسهِّل الأمور، ولكنها تفضّل أن تؤجر الغرفة الشاغرة إلى فتاة موظفة، أو أخرى كتوم، ومن الأفضل أن تكون محميّة أحد ما. وظلّت أدريانا منذ أيام عزّها وحتى اليوم، تحمل حقداً على فرناندا المتفوّقة عليها، والمليئة بالعُقد، والتي تعامل زميلاتها بأعلى كتفيها:

– هذه التي لا تسمَّى كانت هنا وراء تريزا، مستلقية كأنها كتاب قديم مستعمل. وقد نصحتُ تريزا أن تحذرها، فهي امرأة عادية وليست حشرة جميلة على كل حال.

– "لم أسء إليها"، قالت تريزا متعجبة وتابعت: "لقد دعتني لأذهب معها فلم أشأ، وهذا كل ما حصل".

العجوز أدريانا تتساءل بفضول:

– ومَن أيضاً لا يحب تريزا؟ أخبروني.

– لنبدأ، ليبوريو داس نيفس. إنه حيوان أعجم. لو توقّفت الأمور عليه لكانت تريزا قابعةً في السجن، لكنه لم يقدّم دعوى في مركز الشرطة، لأنه على الرغم من حماية الشرطة له، فإنه يمنع نفسه عن الاعتداء على الناس الذين تربطُني بهم صداقة، وعلى الأخص أنني محامٍ في قضية ضده.

– "السيد ليبوريو" كانت العجوز أدريانو تلفظ الاسم باحترام ممتزج بالحزن.

– "إنه براز..." قال اللّسن ذلك يريد أن يظهر نفسه بمظهر القادر على جذب ليبوريو من عنقه.

– ليس في هذه الأرض شخص أقذر من ابن الزانية هذا، الوضيع، السافل، إنّ ما يثير سخطي هو أنني عملت في دعويين ضده وخسرت الاثنتين، والآن أنا في صدد دعوى ثالثة وسأخسر من جديد.

– "أنت، لولو، تخسر في المحكمة!" قالت العجوز متعجبة: "يقولون إنك لا تخسر أبداً".

– ليس في المحكمة بل في القضايا المدنية. إن المتهتّك يعرف كيف يسلّح ارتكاباته. ولكن لا بد في يوم من أخذ هذا المفتري من عنقه.

- "وماذا يفعل؟"، اهتمّت تريزا بالموضوع.

- لا تعرفين؟ سأخبرك فيما بعد، الأمر يحتاج إلى الكثير من الوقت، وها هي الساعة قد حانت لنذهب إلى السينما ويجب أن نخرج في الحال. غداً أو بعد غد أخبرك منْ هو ليبوريو داس نيفس، المحتال رقم واحد في أراكاجو، استغلاليّ الفقر والفقراء.

وهمَّ بأخذ عكازيه ليقف: "شكراً، أدريانا، يا حبيبتي. شكراً للمانجا إنها أفضل مانجا في كل سرجيبي".

هبّت نسمة عليلة من جزيرة جوز الهند ناحية المرفأ تُلطِّف الليل الرطب الحار والمُعرِق. ومع هذا الهدوء والسكينة في ليل تسطع فيه النجوم، وهذه الساعة الجميلة لسماع الحكايات، لماذا الانحشار في حر السينما الذي لا يُطاق؟ وماذا أيضاً لو ظهر جانواريو؟

- لا يا لولو سنؤجِّل الذهاب إلى السينما، ومن الأفضل أن نبقى هنا منتعشين. نسمع الحكايات أفضل من أن نموت حرّاً داخل صالة العرض.

- كما تفضّلين يا أميرتي. حسناً، تبقى السينما ليوم غد، وسأقول لك الآن من هو ليبوريو، ولكن قبل أي شيء اقفلي أنفك لأن رائحة كريهة تفوح من هذا الشخص.

وضع لولو سانتوس عكازيه وأشعل السيجار من جديد، لم يكن يحب السيجار الذي يحصل عليه مجاناً من صديقه ريمون دوسونا في أشتانسيا، والذي يعمل في مصنع والكيرا.

كان لولو يتلقّى هدايا كثيرة من المأكولات والمشروبات والطيبات المختلفة، ويشتري أشياء أخرى ينسى أن يدفع ثمنها، ولو لم يكن كذلك، فكيف يستطيع أن يكون محامي الفقراء؟

كان يدفع من ماله الخاص في بعض القضايا بدلاً من أن يحصل على بدل عن أتعابه، وبينما يمجّ نفساً من السيجار بدأ يهتك فضائح ليبوريو داس نيفس المتتالية:

- "سنتعاطى بالأدلة يا بنيّتي". بدأ كأنه في محكمة يدافع ويتّهم منطلقاً بحماس، ورافعاً صوته مغمضاً جفنيه من وقت لآخر، واهباً نفسه الوقار والهيبة، مازجاً حديثه بشتائم صغيرة وأقوال شعبية. أخيراً شرح باختصار كيف أن ليبوريو

بــدأ حــياته مصرفياً، بل حشرة مصرفية، ومعروف أن إعطاء رخصة مصرفي إلى حــشرة يقتــضي أن يكون صاحبها شريفاً. واستقرّت لعبة الحشرة على أن تكون الثقة التي يجب أن يتمتّع بها المصرفي هي العامل الأساسي في إدراك أغراضه الدنيئة؛ وإذ أصــبح أحــد أصحاب البارولي في كرة القدم، فقد جاءت فضيحته الأولى في عــدم دفعه المستحقات للمقامرين الرابحين في مكتبه. ولكي يجبروه على الدفع فإن بعــض الزبائن، غير الراضين عن قلة حيائه، تجمّعوا تحت امرأة أحد لاعبــي الكرة الملقّــب بقدم البغل لقوة قذفته، وراحوا يتعقّبون المصرفي المحتال. في الواقع لم يكن قدم البغل مهتمّاً بالموضوع لشخصه لأنه لم يكن يقامر أبداً، ولكنه تحرّك نيابة عن المرأة المسنّة، جارته السيدة ميلو التي شارفت على المائة، والتي كانت كل يوم أحد، تجــازف بلعبة الثلاثية وهي طريقة مغامرة معقّدة، وبها راحت تتعقّب خلال أشهر متتالية تحقيق الربح.

كانت تحقّق بعض الأرباح في السابق، ولكنها لم تجد يوماً أقل صعوبة في الحصول على أرباحها، ولم تعرف لأي سبب غيّرت المصرفي السابق، ربما، لأنها أخذت بكلام ليبوريو المعسول، فتحوّلت إلى مكتبه، تتعقّب الثلاثية، بالإضافة إلى أنــاس كــثيرين في ذلك اليوم كانوا قد قامروا على الثلاثية التي يسمّونها الكلب. وسبب الإقبال ذلك، أنه في اليوم السابق، كانت الصحف والإذاعات قد بثت أخباراً عديدة عن كلب متشرّد أنقذ طفلاً من الغرق في بحر أتالايا... وكانت نتيجة الشوط فوز ثلاثية الكلب، فتحوّل ليبوريو إلى ما يشبه الدخان. الرابحة الرئيسية كانت المرأة المسنّة ميلو التي أصيبت بصدمة كبيرة لدى اختفاء المــصرفي؛ وهي منحنية كأنما أصبحت قطعتين، ومتكئة على عكازها، راحت تــنادي على الله والرجال. إنها تريد أن تتسلّم مالها الكثير؛ وغدا لاعب الكرة قــدم الــبغل قاســياً، حانقاً، وأخذ على عاتقه إنقاذ جارته من الآلام، وتقدّم الثائــرين على تصرفات المصرفي، مفتشاً عنه، حتى وجده في النهاية. وتمّ الدفع بالحوار والتهديد.

حــاول ليبوريو في بادئ الأمر أن يلفّ ويدور، منحياً باللائمة على الآخرين، ومستنبطاً وجود شركاء كانوا قد هربوا، ولكنه على أثر بعض الضربات التي تلقّاها على كتفيه من قدم البغل وعَد بالدفع خلال ثمانٍ وأربعين ساعة.

كـــبيرة مصداقية الرجال، حتى وإن كانوا لاعبـــي كرة شعبيين يمتلك الواحد مـــنهم مدفعاً في كل قدم كما كان المعلّقون الرياضيون يصفون قدم البغل الذي لم يكن يجيد عمل شيء آخر غير كرة القدم. ومن ناحية ثانية فإن كرة القدم عنده لا علاقـــة لهـــا بهـــذه الأمور وقد أبقي في الفريق، بالدرجة الأولى، لأنه كان يلعب باليسرى وليس من حارس مرمى بقادر على أن يلتقط كرة قذفها بيسراه.

أمـــا خارج نطاق التدريبات فكان يستبدل النساء في الشارع ويزور البارات ويحضر منازعات البلياردو، وبعبارة أصح كان يتسكّع.

مـــرّت الثماني والأربعون ساعة ولا أثر لليبوريو فنـــزل قدم البغل من جديد إلى الساحة، ومع معرفته بمدينة أراكاجو وضواحيها، راح يفتّش عن اللص المختفي في زقـــاق ضيّق قرب محلّة اللحوم. كان ليبوريو هناك يلعب النرد مع صاحب المحل الـــسوري، عندما، ودون أن يقرع باباً، أو يستأذن بالدخول، دخل بصحبته أربعة مـــرافقين يشقّ طريقه داخل المحل التجاري. شهر السوري سكيناً، يريد بذلك أن يظهـــر بمظهر الشجاع، فانتزعوها منه وأنالوه بعض الصفعات على خدّيه، وتلقّى ليبوريو من حصته ما يستحق.

اكتفـــى الأربعة بالصفعات التي وزّعوها وهم لا يريدون أن يضيّعوا مزيداً من الوقت، إذ أعطوا السارق الأمثولة التي يستحق وانصرفوا في الحال مزهوّين.

واعتـــبر ليـــبوريو الأمـــر منتهياً، وكذلك أمر المال بالتأكيد: فمقابل بعض الصفعات واللكمات يصبح معفياً من دفع الديون.

من قال ذلك؟

خلافاً للجميع كان قدم البغل متفرغاً لهذا الموضوع، وكونه يمثّل المرأة المسنّة، فإنه لم يمنح المصرفي إخلاء السبيل.

أن يجمع ليبوريو المال، فلا بأس، ولكن يجمعه ليدفعه...

ودفـــع ليـــبوريو جزءاً هو أكثر من النصف بقليل، وبقي الجزء الآخر لليوم التالي.

ولم تتخلَّ المرأة المسنّة عن الباقي، لشدّة الصدمة، فمن رأى مصرفياً يرفض أن يدفع؟

وكانت تصرّ على الحصول على مالها بإلحاح وبأقصى سرعة.

واختفى ليبوريو من جديد، ومن جديد عاد قدم البغل يفتّش عنه، وبعد أسبوع، وبالصدفة، التقى به وسط شارع مييو في قلب العاصمة. وجاء من تلقاء نفسه كأنه ليس مديناً لأحد بشيء، يتمتم بحيوية في أذن أحد المحتالين غير المدرّبين بعد: "أحجار كريمة مقلّدة بإتقان". وعندما وقعت عيناه على قدم البغل فَقَدَ حيويته، وأعلن نفسه منهزماً ودفع باقي المبلغ إلى العمّة ميلو التي تسلّمت حتى الفلس الأخير، وبهذا لا بدّ من أن يكون قدم البغل قد ربح ملكوت السماء، فهو بعد عدة أيام مات في حادثة اصطدام الشاحنة التي كان يستقلّها فريقه إلى بينيدو مع بعض لاعبي الاحتياط لخوض مباراة وديّة. انقلبت الشاحنة في الطريق ومات ثلاثة لاعبين أحدهم قدم البغل، ومنذ ذلك الحين لم يُعرف في عالم كرة القدم في سرجيبي لاعب له قذفته القوية، ولم يسر في شوارع أراكاجو متسكّع ذو قلب طيّب كقلبه. هذه الفضيحة في عالم مكاتب القمار كانت عرض ليبوريو الأول في دنيا الأعمال.

فيما بعد، شارك ليبوريو في عدّة عمليات تهريب واستمرّ في الدجل خلال العشرين سنة الأخيرة. ودافع لولو سانتوس مرتين عن حقوق زبائن دجّل عليهم ليبوريو.

في المرة الأولى كانت قضية أحجار كريمة مزيّفة، إذ إنّ ليبوريو تاجر مدةً طويلة بالألماس والزمرد والياقوت، وكان يبيع منها حجراً حقيقياً بين كلّ خمسين حجراً مزيفاً. وخسر لولو القضية لعدم توفُّر الأدلة، وإذ أصبح ليبوريو ثرياً، وهمّاً في المنطقة، أقام علاقة بالشرطة يرشي الحراس والأمن السري ويعمل بنشاط في أوساط الفقراء.

أما مصادر الأرباح الرئيسية فكانت: الرهونات، والديون بفوائد جائرة كأن يتلقّى مقابل الديون غير المدفوعة كل ما يملك المدين. وإضافة إلى الربا كان يتعاطى الكثير من الأمور المشكوك فيها.

وكان يُذاع عنه أنه شريك السي أندرادي صاحب الفاتيكانو لاستثمار الغرف التي تؤجّر إلى العاهرات، بالليلة، أو بالساعة، ومن نصف الشهر إلى آخره كان يشتري مرتبات الموظفين الرسميين بأسعار منخفضة مستعملاً كل أنواع الضغوط للحصول على المال...

وفي إحدى هذه الحالات غُلب لولو سانتوس على أمره وهو يدافع من جديد عن فقير، لعين، ضد ليبوريو داس نيفس الذي كان مموّلاً لمجموعة من لصوص

القمـــار، أصحاب الحيل والتزييف وأهل تركيب أوراق اللعب المؤشّرة، والروليت المنحـــرفة؛ فقـــد اشترى ثلاثة مرتبات شهرية من أحد موظفي إدارة البلدية. كان الأخير عنصراً جيداً ولكنه مقامر مدمن، وقد حصل منه المرابـــي على وكالة تكفل له الحصول على المبلغ المستحق. وفي حمأة الحصول على المال ليلعب الروليت، فإن المتهوِّر طلب أن يملأ المرابـــي نفسه الاستمارة ووقع على ورقة بيضاء كتب عليها المحتال ما أراد: أي أنه كتب ستة أشهر بدلاً من ثلاثة.

ولم يكـــن مـــن مجـــال لإثبات ما حصل، إذ إن الوثيقة كانت موقعة وثابتة وبتوقـــيع الـــشخص نفسه. ولم يفد بشيء أن يؤكد لولو سانتوس في المحكمة أن ليـــبوريو اشترى ببعض فيش الروليت ثلاثة أشهر فقط من المرتّب المتواضع لموظف الـــبلدية. تألق لولو سانتوس في الوصف، وكان ليبوريو ذاك يجعل نفسه في المحكمة مـــضطهداً مذلـــولاً. ولله، أية قابلية لدى لولو سانتوس أن يفقد احترامه للقضاء ولقاعة المحكمة، وأن ينهار بعكازه على ظهر السّافل. وتريزا لا تستطيع أن تتخيّل مقدار السرور لدى اللّسن عندما رآها وهي تبصق على وجه ابن الزانية المعتاد على هـــذه الفـــضائح وعلى الشجاعة في ضرب امرأة... ولكن ليس عنده الشجاعة في مـــواجهة أحد الذين يعرفون كيف يتركون على وجهه العلامات. ولكنه، بشكل غـــير مباشر، وإذا أتيحت لـــه الفرصـــة، فإنـــه يضطهدهم مستعملاً الامتيازات والعلاقات التي تربطه بأوساط الشرطة فيجعل حياتهم مستحيلة. إنه ابن زانية بالمعنى المطلق، سافل ومقرف.

والأسوأ من كل ما سبق، أن الحكم في القضية الحالية سيُلفظ خلال أيام قليلة من الأسبوع المقبل... أمر مؤسف أن يكون دفاعاً خاسراً سلفاً... يكفي أن يتذكّر الأمر حتى تتّقد عينا لولو سانتوس شرراً وغضباً.

– سأخبرك بما يستطيع عمله ابن الزانية.

وكـــان يفصّل المقاطع اللفظية: على لسان لولو سانتوس أي شخص كان ابن زانية، أحياناً يقولها بمحبة وأخرى باستظراف، ولكن ليبوريو كان ابن زا – ن – ية بالكلمة والمقاطع اللفظية المفصّلة.

"في مـــزرعة ريفـــية صغيرة يحيط بها شجر المانجا والكاجو والفستق والسرو والتفاح السكري، وأبو ريحة، تعيش وتشتغل جوانا داس فولياس وهي زنجية طاعنة

في الـــسن، وأرملة برتغالي هو سي منوال فرنسا العجوز الذي يعرفه لولو سانتوس معـــرفة شخـــصية. وكـــان سي منوال هو الذي جاء إلى أراكاجو بزراعة الخس والبـــندورة الكـــبيرة الحجم، والقرنبيط والملفوف والهندباء وغيرها من خضريات الجنوب، يزرعها إلى جانب الجيلويرا والأنفوريا والشمام والبطاطا الحلوة في أرض المزرعة المخصّبة.

وكـــوّن البرتغالي زبائن موثوقين دائمين لعمله الصغير الذي أخذ بالازدهار. منذ الفجر يبدأ العمل، وتجده هناك، مع الزنجية داس فولياس التي صاحبها في بداية الأمـــر، وبعـــدما كبر ابنهما وأحسّ هو بالرعشة القوية الأولى في قلبه، تزوّجها في المكـــتب الشرعي ثم في الكنيسة. ولم ينتظر الابن موت الأب فحمل معه مدّخرات أبيه واختفى في هذا العالم. ولم يستطع البرتغالي أن يتحمّل الصدمة. فورثت الزنجية جـــوانا الموقع الزراعي وبعض المال الذي تسلّمته من الإشبين أنطونيو منيوتو وهو ميراث مستحق فعلاً.

زنجـــية قـــوية البنية: متانة ثور، ووفاء كلب، وتفكير في الابن. وتعاقدت مع مساعد لها للعمل في المزرعة ولحمل الخس والطماطم والملفوف إلى الزبائن.

– "انتظر حتى أعود فتكمل الحكاية..."، طلبت العجوز أدريانا مستفيدة من فترة راحة اتخذها لولو.

– دقيقة واحدة ريثما اجلب الكوارع.

– "يا للسفالة!!"، قالت تريزا متعجّبة: "إنه أشأم البشر ليبوريو هذا".

– اسمعي الباقي من الحكاية وسترين أي مشؤوم هو أنا!!

كـــان النسيم العليل يأتي من ناحية المرفأ ولولو سانتوس منطلق في الكلام عن الـــبرتغالي منوال فرنسا وزوجته وابنها الشريد، بينما تريزا تفكّر بجانواريو جيريبا. إلى أين ذهب؟

وعـــد بالـــرجوع وبأن يأخذها لترى الطوافة ويتمشّيا بعيداً عن المدينة عند الشواطئ الرملية، فلماذا لم يأتِ؟

وضعت أدريانا الكوارع في الصحون العميقة ومعها مزيج الذرة الهندية وجوز الهـــند... فنسي اللّسن برهة الجزء المثير من الاهتمام الموجّه إلى ليبوريو داس نيفس آه... لو كان في المحكمة الآن!!؟

- "إلهية. هكذا وببساطة، إلهية هذه الكوارع يا أدريانا"، لو كان في المحكمة!! لو كان في المحكمة!!؟

"أيها السادة المحلفون: إن المرأة المفجوعة بزوجها، والمحرومة من ابنها التائه في الجنوب، تسلّمت من الأخير كتاباً. وبعده بقليل برقية. أما الكتاب فقد شرح الابن الضال فيه أنه سلك المسالك الوعرة في الريو ووقع في مأزق، فتورّط بالديون وأصبح مهدّداً بالسجن إذا لم يدفع خلال عدة أيام ثمانمائة ريال ملكي، ونادى الولد الضال على أمه لتقوم باللازم، وبأقصى الطرق الممكنة: إذا لم ترسل المال فإنه سينهي حياته بطلقة في صدره. كان واضحاً أنه لم يكن ينوي أن يطلق النار على نفسه، و لم تكن المسألة أكثر من مزايدة غير مألوفة، ولكن الأم المسكينة، الأمية، المتألمة بسبب وحيدها المعبود، جُنَّ جنونها، إذ كيف تتدبّر الثمانمائة ريال ملكي التي طلبها الفتى؟

وكان جارها الذي طلبت إليه خدمة قراءة الكتاب والبرقية قد سمع الناس يتحدثون عن ليبوريو، المرابي، واستحصل على عنوان الأخير، وإذا بالعجوز بين يدي المرابي الذي سلّفها الثمانمائة ريال على أن تعيدها إليه ألفاً وخمسمائة ريال بعد ستة أشهر؛ لاحظوا الفوائد أيها السادة المحلفون، الفوائد الجائرة التي لم تعرفوا هولها ومرارتها يا سادة المجلس التحكيمي.

وجهّز ليبوريو السند بنفسه: إذا لم تدفع جوانا في التأريخ المعين، فإنها تفقد موقع المزرعة، الذي يبلغ سعره عشرة آلاف ريال على الأقل؛ وإلى آخره أيها السادة المحلفون...

وقبلت الأرملة بالتوقيع على السند التنفيذي، ووقّع عنها جوال ريس خادم ليبوريو لأنها لا تعرف القراءة والكتابة وعاجزة عن تصوير اسمها تصويراً. وكان عميلان آخران من عملاء عديم الضمير ليبوريو قد اتّخذا شاهدين على الوثيقة. وأخذت جوانا القرض مطمئنة لأن الإشبين أنطونيو منيوتو الرجل المستقيم ورجل الكلمة، كان سيدفع لها ألف ريال بعد أربعة أشهر، وأما الخمسمائة ريال المتبقية فقد كانت الأرملة ستقتصدها خلال ستة أشهر، كونها قد حافظت على زبائن أوفياء منذ أيام زوجها. وجاءت الأمور كلها كما توقّعت: فقد دفع الإشبين في التاريخ المحدّد، وفاقت مدخراتها الخمسة آلاف كروزيرو، وفتّشت عن ليبوريو لتدفع الدين.

هل تعرفين ماذا قال لها؟ تكهّنوا. تكهّني إذا كنت قادرة يا تريزا، تكهّنوا أنتم أيها السادة الشرفاء في المجلس التحكيمي.

– ماذا؟

– إنّهـــا كانت مدينة له بثمانين ألف كروزيرو، أي بثمانية آلاف ريال بدلاً من ثمانمائة.

– ولكن كيف؟

– كان هو من حرَّر سند الوثيقة، وكتب المبلغ بالأرقام: 8000 كروزيرو وما كـــادت المـــرأة تخرج حتى سارع القذر إلى زيادة صفر على الرقم، مستعملاً القلم نفسه، والحبر نفسه، وفي الساعة نفسها.

ومن أين لهذه الفقيرة التعيسة أن تتدبّر ثمانين ألف كروزيرو قولي لي؟ من أين أيها السادة المحلفون؟

وطلب ليبوريو من العدالة أن يوضع الحجز على المزرعة حتى يُصار إلى بيعها بالمـــزاد العلني، وبالتأكيد فإنه هو نفسه من سيفوز بالمزرعة مقابل أربعة مثاقيل من العشرينات الألفية.

– هـــل فكّـــرت يا تريزا بما ستؤول إليه أحوال هذه المرأة التي عملت طيلة حـــياتها في تلـــك المزرعة ووجدتْ نفسها فجأة مرميةً خارج قطعتها الصغيرة من الأرض مجبرَة على التسوّل؟ هل فكّرتِ، تريزا؟

سأضرب نفسي، سأصرخ، سأطالب بالعدالة، ولكن ماذا يفيد كل هذا؟

لـــو أن المحكمة كانت محكمة شعب لكان الأمر مختلفاً، ولكنها محكمة مطرقة مدنية. من ناحية أخرى لو وجد شخص جيد، يعرف من هو ليبوريو، ومتأكد من أنـــه زوّر الوثيقة، لكان بالإمكان كسب قضية الأرملة وإقامة دعوى مضادة بتهمة التزوير لغرض السرقة، ولكن كيف العمل ما دام هناك ورقة موقّعة، وتواقيع شهود وليس من أحد بقادر على إثبات أن الصفر قد أضيف فيما بعد".

أخـــذ المحامـــي اللّسن استراحة، وبدا أن هذا الإذلال يُشعل له وجهه ويجعله جميلاً تقريباً ثم استطرد:

– يعرف الجميع أن هناك أكثر من مأساة تسبَّب فيها ليبوريو، لكن المؤسف أنه لا يمكن القيام بأي عمل، فهو سيبتلع أرض منوال فرنسا وستعيش الزنجية جوانا

مـــن التسوّل، أما الابن الشقي، ابن الزانية هو ما هو، فإني أرجو أن يضع رصاصة في صدره لأنه لا يستحق شيئاً آخر.

وقـــع الـــصمت كحجـــر على التراب، لعدة ثوان، فلم يتفوّه أحد بكلمة. وضـــاعت تريزا في المسافات، ولكنها هذه المرة لا تفكّرً بالمعلم جانواريو، المدعو تحبّـــباً جانـــو، ولا برمال البحر، إنما بالزنجية جوانا فولياس، السيدة جوانا فرنسا، منحنـــية فوق الأرض إلى جانب زوجها البرتغالي، ثم وحيدة، تزرع، تحصد وتعيش من عمل يديها، بينما ابنها في الريو في حمأة الرذيلة، يطلب المال ويهدِّد بقتل نفسه، فـــإذا أخـــذوا أرضها وربح ليبوريو القضية فماذا يحصل لجوانا داس فولياس، وأين ستتدبّر الضروري لتأكل، ومن أين تدّخر ليبدِّد ابنها مدخراتها؟

عادت العجوز أدريانا بالصحون إلى المطبخ.

- قُل لي شيئاً يا لولو.

قالت تريزا وهي تعود من البعيد.

- ماذا؟

- لو أن السيدة جوانا كانت تعرف القراءة والكتابة، فهل يكون لهذه الوثيقة المزوّرة القيمة التي لها؟

- لو أنها كانت تجيد القراءة، وتعرف كيف توقّع اسمها؟ كيف ذلك؟ إنها لا تعرف، لقد انتهت، و لم تذهب إلى المدرسة، وهي أمية الأب والأم.

- ولكن لو كانت تعرف فهل يبقى المستند ذا قيمة؟

- طـــبعاً لا، لو كانت تعرف كيف توقّع اسمها لعدَّ المستند مزوّراً. ولكن مع الأسف ليس هذا بواقع الحال.

- هـــل أنت متأكد مما تقول؟ هل ترى أنه يمكن أن يعدّ مزوّراً؟ ولماذا ترى هذا؟ أين يجب أن تُثبت السيدة جوانا أنها تعرف كيف توقّع اسمها؟ في المحكمة؟

- أية قصة هي هذه؟ أية قصة لنثبت أنها تعرف أن توقّع اسمها؟

أطرق برأسه مفكراً ثم تبيّن حقيقة ما تعنيه تريزا. وثيقة مزوّرة؟ توقيع اسم؟ واستطردت تريزا:

- الـــسيدة جـــوانا تعرف القراءة وتعرف توقيع اسمها، وستصل إلى المحكمة وتقول: هذه الورقة مزوّرة وأنا أعرف توقيع اسمي.

– ومـــن سيعلّم جوانا داس فولياس توقيع اسمها خلال أسبوع أو أكثر قليلاً؟ إنها تحتاج إلى شخص قدير وموثوق.

– الشخص هنا، أمام عينيك، هو أنا، خادمتك. في أي يوم ستنعقد المحاكمة؟

بـــدأ لولـــو سانتوس يضحك مقهقهاً. إنه خلق ليضحك، وجاءت العجوز أدريانا راكضة، قلقة:

– ماذا بك يا لولو؟

كفَّ لولو عن الضحك وقال:

– أريد فقط أن أرى وجه ليبوريو داس نيفس في هذه الساعة. تريزا، أستاذة تريزا، إني أعلنك قمة في المعرفة، سأذهب حالاً إلى البيت لأدقّق في هذا الموضوع، وأظن أنك كلت لليبوريو بالمكيال الذي يستعمله. إلى الغد أدريانا، الكوارع الإلهية الجمـــيلة... وكما يقول المثل: من يسرق لصاً؟ إني أريد فقط أن أرى وجه وعاء البراز في ساعة الهتك العظيم، وسيكون ذلك أكبر نصر حقّقته في حياتي.

وبيـــنما ظلـــت تقف في الشرفة المطلّة على النهر، نسيت تريزا لولو سانتوس وجوانا داس فولياس وليبوريو داس نيفس. أين ذهب؟ لقد وعد بالمجيء ومعه غليون التـــبغ المعجون، بجلده الممسوح بالريح، وصدره الرخامي، ويديه الكبيرتين اللتين رفعتاها في الهواء. لم يأتِ لماذا؟

تريـــزا باتيستا تفتّش عن جانواريو جيريبا في المدينة النائمة، عند المرفأ المقفر، وحـــيدة، مـــصلوبة، مجروحة الكبرياء... من يدري؟ فهو لم يستطع أن يأتي لأنه مـــشغول أو مريض، ولكن ماذا كان يكلّفه أن يعلمها بالأمر، كأن يوفد أحداً مع رســـالة؟ وعدها بالمجيء ليأخذها عند أول الليل ليأكلا سمكة حارة، على الطوافة، مصنوعة على الطريقة الباهيانية. "طبخ الأكل بالزيت مهنتي". وبعدها يذهبان لرؤية بحر الأمواج والعواصف، بعيداً عن المدينة، البحر الحقيقي، لا ذلك المصب النهري؛ "جمـــيل نهـــر كوتنكيبا"، لا يريد أن ينكر، إنه نهر عريض ويمتد حتى جزيرة جوز الهـــند، وواسع من ناحية المدينة، وترسو فيه مراكب كبيرة وسفن شحن صغيرة، ولكـــن البحر "سترين" شيء آخر، ولا يصح تشبيهه بالنهر، البحر طريق بلا نهاية، ولـــه قوة تستحيل السيطرة عليها، له قدرة الأعاصير، ونعومة العاشق عندما يصبح زَبداً فوق الرمال؛ لم يأت، لماذا؟

لم يكن على حق أن يتعامل معها كأنها امرأة ما؛ إنّها لم تطلب أن يأتي. في الأيام الماضية، كان المعلم جانواريو ينتظر تفريغ الطوافة والانتهاء من تنظيفها ليتسلّم الحمولة الجديدة من أكياس السكر، فاستفاد من زيارة تريزا والجلوس معها على جسر الإمبراطور ليخبرها عن المراكب والرحيل في البحر، وعن العواصف والأنواء وحوادث الموانئ والمراسي الصخرية التي تواجه ربابنة المراكب، وعن القراصنة، وأمهات البحر ورموزه الإلهية، وحدثها عن الأعياد، فهناك، العام كله أعياد: عيد يسوع البحارة في الأول من كانون الثاني عندما ترافق المراكب المجاذيف ذهاباً وإياباً في مياه بوافياجين، ثم تنطلق السامبا ليل نهار، وعيد القديس بون فين في الأسبوع الأول، ومن الأحد إلى الأحد، تتزيّن البغال والحمير والمهور والجياد بالزهور، وتحمل فتيات باهيا الأباريق الملأى بالماء فوق رؤوسهن، ويغسلن بالمياه المقدسة كنيسة شفعينا بونفين وهو زنجي أفريقي وأبيض أوروبي، قديسان في قديس حقيقي واحد من باهيا؛ وعيد الإلهة يمنجا، في النهر الأحمر في الثاني من شباط عندما تحمل الهدايا المتراكمة في علائق القش إلى أم المياه وسيدة البحار من صابون وعطور وصيغة ومحابس وخواتم مصقولة وعالم من الزهور وأكوام من الرسائل تطلب الرحمة، والبحر هادئ والسمك وفير، والفرح والصحة والحب، ويستمر الاحتفال منذ الصباح وحتى ساعة طلوع النجم القطبي عندما تنطلق المراكب في موكب جنايينا، وفي طليعتها مركب المعلم ليفيانو ليقدِّم الهدية الكبرى، هدية الصيادين عند منتصف البحر، حيث تنتظر الملكة مرتدية رداء شفافاً من الحرير الأزرق وتأخذ بيديها إبريق الماء المعطر: تعطري يمنجا تعطري!!

وكلّمها عن باهيا، وكيف ولدت المدينة في البحر وصعدت إلى الجبل، تقسمها المنحنيات. وكلّمها عن السوق وعن مياه الأطفال ومرسى الميناء والمدرسة وإلهة العواصف يانسان، وفي رأيه التّحبّبي أن تريزا لا بد وأن تكون ابنة يانسان كون الاثنتين متساويتين في الشجاعة وفي التصرف: وعلى الرغم من كونها امرأة، فإن يانسان قديسة شجاعة فهي إلى جانب زوجها شانغو شهرت أسلحة الحرب، لا تخاف الجان والموتى وتنتظرهم وتطلق صرختها إلى الحرب: ها أنذا!!!

وفكرت من جديد:

أمس، لمس شفتيها بأصابعه وهما على جسر الإمبراطور، فلاحظ أنه لم يبق أثر للّكمة ولم يبقَ إلا السنّ التي لم تركّب بعد. ولم يتجاوز جانواريو تلك اللمسة

الخفيفة من أصابعه التي كانت كافية على كل حال لأن تجعل تريزا تشتعل ناراً. وعوضاً عن أن يطمئن على سلامة شفتيها بامتحان أعمق، وببعض القبلات، فقد سحب يده كأنما كان قد أحرقها ثغر تريزا المرطّب، ثم جلب مجلة تصدر في الريو وفيها تحقيق صحفي ملوّن عن باهيا مع صورة شغلت حيِّز صفحتين لميناء المدينة، حيث ترسو في المقدمة فلور داس أغواس بشراعها الأزرق الخفّاق، وهو وراء الدفّة، عاري الصدر، يرتدي سروالاً؛ قبطان المركب جانواريو الذي عند تريزا يُدعى جانو: "من يحبّني ينادني جانو".

نزلت تريزا إلى الشارع الأمامي تفتش عن العملاق الذي يتهادى في مشيته البحرية، وجمرة غليون التبغ المعجون تُضيء الطريق.

وبينما تسمّرت على جسر الخشب اللولبي، غير بعيدة، راحت تتبيّن في الظلمة الطوافة فنتانيا المطفأة الأضواء، ولا حركة على متنها، ولو أن أحداً هناك فهو نائم بالتأكيد، ثم تستمر لا تستطيع أن تُمسك نفسها عن الاقتراب. أين هو المعلم جانو؟ أين اختبأ عملاق البحر؟ إلى أين وصل سيد النسور في تحليقه؟ أين هو طائر البحر الكبير؟

من هناك، يظهر الطابق الأول من فاتيكانو مزيناً بالأضواء الملوّنة الحمر والخضر والصفر والرمادية والزرق، كأنها تدعو الأجانب وشباب أراكاجو المخملي إلى صالة رقص ملهى باريس الليغري.

من يدري؟ ربما كان جانواريو يسيطر الآن على حلبة رقص، وسيدة جميلة من خليعات المرفأ بين يديه، فالرقص نقطة ضعفه، ولكن، ألم يصعد سلم الملهى في ليلة العراك بعد أن فرغ من الرقص؟ من يعطي تريزا القدرة على اقتحام الباب، وقفز درجات السلم، وبلوغ الصالة، مقلّدة ليبوريو داس نيفس، والاتجاه إلى حلبة الرقص فتقف مطعونة في كرامتها، ويداها في زنارها تحدياً وامتعاضاً أمام جانو الذي يضم إلى صدره صدر امرأة:

– أهكذا إذاً يكون السيد جانو قد ذهب، ليأتي بي من البيت كما وعد؟

كان فلوري قد منع تريزا من ارتياد الملهى ليلاً، ليحافظ على صورة تريزا الثابتة لعرضها الأول الذي يجب أن يتم قبل أن يشاهدها الزبائن، ويبدأوا التعليق اعتباطاً؛ وهي إن بدأت بالظهور ليلاً لترقص وتحادث هذا وذاك، فإن أحداً من

الـــزبائن لـــن يفكّر فيها ثائرة وهي تبصق على وجه ليبوريو تتحدّى نصف العالم بـــوقفة حرب. فقط يرونها ثانية في الليلة الكبرى لتقديم أميرة السامبا، وهي ترتدي الـــسايوت وقـــبعة الـــريش.. هذا بالإضافة إلى الشفة التي لم تشفَ تماماً، والسن الناقـــصة... وللحديث عن السن، فقد تساءل فلوري ساخراً من الحياة، متى ينتهي الدكـــتور جمـــيل نجار من تحفته الفنية؟ لم يتأخر قط جرّاح أسنان هذا التأخير كله لتـــركيب سن ذهبية. كاليشتو كروسو، خلاسي متقاعد، ميسور الحال، صاحب مطبعة، وأمير الجوخ في أراكاجو، معجباً بأسنان الذهب كان قد وضع منها سبعة، أربعـــة في الأعلى وثلاثة في الأسفل، وقد وُضعت كلها برمشة عين لدى الدكتور نجار. خلال جلسة واحدة وضع له ثلاثة، ثلاثة أضراس ذهبية كبيرة، والعملية كلها لم تـــستغرق نصف الوقت الذي صرفه الدكتور نجار على سن الذهب الوحيدة في فـــم تريزا باتيستا. ولا تفعل ذلك لأنها ممنوعة أو تجنباً لمحنة، ولكن بالدرجة الأولى لأن لـــيس لها حق عليه، أي حق وأقله بأن تمنح قائد المركب الشراعي عن رغباته، ســـواءً كان يرقص أو يطارح الغرام أو يتلمّس جسد امرأة، أو يتقلّب في فراش إلى جانـــب امـــرأة ما، كهيكل سفينة من خشب الكوكونو. حتى ذلك اليوم لم تكن تـــستطيع أن تعلن نفسها عشيقة: لم تلقَ منه سوى نظرات هروبية، إذ كان يحوّل نظـــره عنها في كل مرة كانت تأخذه بالجرم المشهود وهو يأكلها بنظراته. صحيح أنها كانت تناديه جانو تعاملاً مع الحبيب، وبالمقابل كان يعطيها أسماء مختلفة: تيتان، ســـانتا، موســـورومين، يـــاون، وهنا كانت نهاية الخجل؛ عملياً توقفت تريزا عن الانـــتظار، كأنها تستعيد في نفسها امرأة ذات حس بالكرامة... منه يجب أن تنطلق الكلمـــة الأولى تعـــبيراً عمـــا يُضمره ضاحكاً، متحدثاً لبقاً ولكن لا يتجاوز هذه الحـــدود الأفلاطونية؛ هنالك شيء ما يمنع صوته عن أن يكون أكثر دفئاً، يمنعه عن كلمة حب وحركة حنان، ويخنق الرغبة الأكيدة في المعلم جانواريو جيريبا.

أخـــيراً، لم يـــفِ بوعده، ولم يأتِ إلى الموعد، وتركها بالانتظار منذ السابعة مـــساءً، ثم ظهر لولو سانتوس يدعوها إلى السينما ففضّلا البقاء في البيت، والمحامي يخبر عن ليبوريو داس نيفس حكايات الاعتداء والأحزان؛ إنّه المخلوق الأكثر إثارة للقرف والاشمئزاز، ليبوريو ذاك؛ واستأذن اللّسن بالانصراف بعد التاسعة راضياً عن الحياة ما دام قد اكتشف بمساعدة تريزا طريقة ليهزم الجبان اللئيم في الجلسة المقبلة؛

وتمـــنّت تريـــزا ليلة سعيدة للعجوز أدريانا وحاولت أن تغفو ولكنها لم تستطع، فتـــناولت معطفها الأسود المطعم بالورود الحمراء، هدية الأستاذ الأخيرة، وغطّت رأسها وكتفيها وسارت باتجاه المرفأ.

لا أثـــر للمعلـــم جيربيا، للعملاق جانو. وكل ما بقي لديها هو أن تعود إلى البـــيت، تحـــاول أن تنسى، أن تضع الرماد على الجمرة المتوقدة؛ ويكفيها التصفيق والهـــتاف عندما يحين وقتها. أيها القلب اللامنطقي عندما تكون معه تحسّ بسلام وتـــصبح هـــي نفـــسها، هادئة، ومنسجمة مع ذاتها مستعدة لأن تضع الحياة في أحـــشائها ودون أن يـــزعجها شيء. سهل أن تحب، حركة واحدة فتشتعل النار المحـــرقة في الصدر والشفتين، وصعب أن تنسى، فالشوق يستهلك صاحبه، والحب ليس شوكة يمكن اقتلاعها، أو ربما يمكن معالجته، إنه وجع مؤلم وملحاح، يقتل من الداخل؛ وإلى هناك تذهب تريزا، متدثرة بمعطفها الإسباني، باتجاه البيت. إنها صعبة الدموع وبدلاً من البكاء تصبح عيناها ناشفتين، قاسيتين.

ولكـــن أحدهم يسير باتجاهها مسرعاً، ظنّت تريزا أنه رجل يفتّش عن امرأة عمومية ليأخذها إلى فاتيكانو عبر باب واتو ألفريدو.

- "انتظري يا سيدة، انتظريني أريد أن أكلمك. أرجوكِ انتظري..." فكّرت تريـــزا أولاً في إسراع الخطو، ولكن المشية المهرولة إليها وملاحظة التأثر في صوت الـــرجل جعلتاها تقف، وبسبب الوجه المنشغل وتلك الرائحة المزعجة الشبيهة بما شمّـــته في صدر جانواريو وهي رائحة المد البحري، ولكن تريزا لا تعرف عن البحر غير القليل مما سمعته هذه الأيام من فم جانو الباسم، جانو الجلد الملفوح بالريح.

وقبل أن يتكلم راحت تتبيّنه وتحسّ بخفقة بين ضلوعه، وهنا حدث أمر سيئ:

- مـــساء الخير يا سيدة، أنا الربان غونزا صديق جانواريو. لقد جاء إلى هنا بطوافتي بغية مساعدتي في أمر ما ولم يعد بعد.

- هل هو مريض؟ لقد كان على موعد معي فلم يأتِ، وقد جئت أعرف عنه شيئاً.

- إنه مسجون.

عادا يسيران، فأخبرها كايتانو غونزا صاحب الطوافة فنتانيا بقدر ما استطاع أن يوضح: كان جانواريو قد اشترى سمكة، وزيت الدند، وليموناً وفلفلاً حاراً ذا

رائحـــة، وكزبرة وكل البهارات اللازمة... طباخ كثير المواد! وهو في ذلك اليوم كـــان قد استرسل في نزقه. كان كايتانو قد عرف كل هذا لأنه أكل قليلاً عندما، بعد التاسعة، رأى أنها وصديقها لم يأتيا، فأخذ منه الجوع.. كان جانواريو قد ترك الطعـــام بعـــد الساعة السابعة على نار فحم متوهج، وخرج ليأتي بتريزا قائلاً إنه سيعود بعد نصف ساعة، وما عاد كايتانو ليراه بعدها. لم يقلق في البداية وقد ظنّ أن جانواريـــو قـــد ذهـــب في مـــشوار أو إلى صالة رقص كونه صديقاً لإحدى الراقصات، وكما قال، فقد جهّز لنفسه صحناً في التاسعة وأكل، ولكن ليس بما فيه الكفاية، إذ إنه في تلك الساعة أحسّ بنفسه متخوفاً، فترك الصحن والملعقة، وخرج يفتّش عنه و لم يفز بغير الأخبار قرب محل لبيع المثلجات حيث أخبره بعض الشباب أن الشرطة ألقت القبض على شخص كان يهرول في الشارع "خطير"، كما أعلن أحـــد المـــتكلمين منهم؛ ومن ناحية ثانية كان من الضروري حشد عشرة حراس ورجـــال أمـــن ليتمكّـــنوا من إلقاء القبض عليه، لأن الشخص كان خطيراً حقاً، ومقامـــراً في لعبة كرة القدم، وقد سبّب كسوراً لثلاثة أو أربعة رجال من الشرطة، إنه شخص كبير، يبدو بحاراً، و لم يعد ممكناً الشك في هوية الموقوف. فرجال الأمن السريون ما زالوا غاضبين منذ ليلة الشجار.

- لقـــد سرتُ من مكان لآخر وتوقفت في مركز الشرطة العام، ورحت إلى مخفرين فلم أعثر على خبر عنه.

"آه جانـــو، أوَتظـــن أنـــني رغبت في نسيانك، وفي وضعِ الرماد فوق الجمر المتوقّد، وفي خنق الخفقات التي تحرق صدري؟.. لن أنساك أبداً؛ حتى عندما تعود الطـــوافة فنتانيا إلى البحر العميق، فسأبقى معك على الدفة أو قرب الشراع وإذا لم تأخـــذ بيدي فسآخذ أنا بيدك الكبيرة وهي تمسّ شفتي، وإذا لم تقبلني، فإن شفتيّ ستفتشان عن فمك القاسي، وعن الملح في جسدك، حتى وإن لم تكن تريدني...".

8

أخـــيراً قـــدّمت الـــسمكة الحارة عند مؤخرة الطوافة لدى العودة في الثانية فجراً - "سمكة حارة تُلحس بعد أكلها الأصابع إعجاباً بطعمها الطيب". كان لولو سانتوس يلحس عظام السمكة مفضلاً أكل الرأس، الجزء الأطيب بنظره.

- "ألهــذا، لــدى الأستاذ نخاع كبير في رأسه". لاحظ الربان كايتانو غونزا مسترسلاً في الحقائق العلمية و"أن من يأكل رأس السمكة يصبح ذكياً إذ إنها مسألة علمية وثابتة؟"

في تلــك الساعات القليلة المتراكضة، غدا صاحب الطوافة فنتانيا معجباً بلولو إلى حدٍّ بعيد. فقد ذهبوا إليه ليوقظوه ويسحبوه من الفراش، وكان لولو يسكن في رابية سانتو أنطونيو في بيت متواضع ذي حديقة.

- "إني أعرف أين يقع منــزل المحامي لولو"، استدرك السائق، وفي الحقيقة لم يكــن ثمــة داعٍ للاســتدراك، فكل أراكاجو كانت تعرف عنوان وكيلها المنتدب.

صوت نسائي تعب ومتردِّد، أجاب، وسط قرقعة السيارة، على مناداة الربان غونــزا؛ وعلى الرغم من الساعة المتأخرة، عندما قالوا إن المسألة ضرورية وتتعلق بإخراج أحدهم من السجن، جاء الصوت ودياً:

- في الحال، لا تأخير.

وفيما بعد وهو ينحني فوق النافذة، أراد لولو أن يعرف:

- من هنا، وماذا تريد؟

- "أنا، أستاذ لولو، تريزا باتيستا"، قالت أستاذ اعتباراً للزوجة التي كان ظلّها يحتمــي وراء قامــة المحامي، "عذراً لإزعاجي إياك، ولكني هنا مع صاحب الطوافة فنتانــيا كما سأشرح لك، إنه صديق العملاق الذي كان تدخّله حاسماً في شجار الملهى، أظن أن السيد يعرفه...".

- ألــيس هو الذي ضرب الحراس ورجال الأمن في ملهى باريس الليغري في تلك الليلة؟

تريزا متجهة بكليتها ولولو راضٍ عن نفسه وهو يتحدث عن الملهى:

- إنه هو، أجل أيها السيد.

- انتظروا قليلاً فسأصل في الحال.

عدة دقائق، ثم انضم إليهم في الشارع؛ شوهدت الزوجة داخل الحديقة وهي تقفل الباب وصوتها ناه آمر: "انتبه للمطر يا لولو! ادخل السيارة. سقْ إلى الأمام يا تيساو..." شرحت تريزا كل القصة. كايتانو كان قليل الكلام:

– لقــد قلت لجانواريو: يا صديقي، انتبه، رجل الأمن أسوأ من أفعى، إنه لا ينمو بغير الخيانة. لم يعر الأمر اهتماماً، إنه كذلك، يواجه كل شيء بصدر مفتوح.

تثاءب لولو وهو ما يزال مغالباً النعاس:

– لا لــيس من موجب للفّ على كل المخافر. الأفضل أن نذهب مباشرة إلى الأعلى، إلى الأستاذ منوال ريبيرو مدير الشرطة العام، إنه صديقي، ورجل خير.

ورســم لمديــر الشرطة صورة من الإطراءات: عالم قانون ورجل كتب، ذو ثقافــة واســعة، شجاع، لا يستطيع أحد أن يناقشه، ولكنه لا يتغاضى عن الظلم والاضطهادات التي لا سبب لها، ما عدا، طبعاً، اضطهاد الخصوم السياسيين؛ ولكن ليس له في هذه الأمور أي غرض شخصي، فإذا اضطهد المعارضين إنما يفعل بحكم وظيفــته المــسؤولة عــن الأمن العام، منفذاً الواجبات الإدارية التي لا بد منها في المسؤولية. هذا ولن نتكلم عن ابنه الذي يمارس الكتابة بموهبة هي في سن الورد.

وعلى الرغم من تقدُّم الساعة، في غرفة الاستقبال في مقر إقامة مدير الشرطة، كانــت الأضــواء مــا تزال مشتعلة، وكانت هنالك حركة.. جندي من الشرطة العسكرية، يعاني الشوق إلى أيام كان خارجاً فيها عن القانون، يحرس مدخل الدار، متكئاً على الحائط، يترنّح بين إغماضة عينيه وفتحهما، وبيده مسدس. عندما عرف الجندي لولو سانتوس، تخلّى عن تأهبه وعاد إلى وضعه السابق مرتخياً ضاحكاً:

– هذا أنت يا أستاذ لولو؟ تريد أن تتكلم مع الرجل؟ تستطيع أن تدخل.

انتظرت تريزا والربان كايتانو في السيارة، بينما السائق يطمئنها:

– استرخي يا سيدة، إنّ الأستاذ لولو سيخلص زوجك.

ضحكت تريزا خفيفاً دون أن تعترض، وتابع السائق روايته عن أمجاد لولو.

– "الــرجل الملائم موجود هنا. إنه يفعل كل شيء ليساعد محتاجاً. هذا ولن نتكلم عن الذكاء. آه.. إنّ مرافعاته في المحكمة لا يستطيع مدعٍ عام إزاءها شيئاً لا في سرجيبــي ولا في الولايات المجاورة". ولكونه زبون محاكم، فالسائق راح يصف بالتفاصــيل المثيرة الحكم على المتهم موازينيا أحد أواخر الذين وصلوا إلى الداخل بالرشــقات وبيوت الخرطوش: "آتياً من الأغواس ووراءه لا أعرف كم من القتلى؛ وارتكــب هــنا في ســرجيبــي عدة جرائم أخرى، وعُيِّن لولو سانتوس من قبل القاضــي للدفاع عنه مقابل أتعاب قليلة، أو، مجاناً، لأن القاتل لم يكن لديه سنتافو

واحـــد.. والله، مـــن لم يحـــضر تلك المرافعة من "الطقطق للسلام عليكم" والتي اســتغرقت سبعاً وأربعين ساعة من الأسئلة والأجوبة، لا يعرف من هو المحامي ذو النخاع في الجمجمة؛ اسمعوا كيف بدأ المرافعة: بدأ مشيراً إلى القاضي بإصبعه ثم إلى المدّعـــي العام فإلى المحلفين واحداً واحداً ثم وضع إصبعه في صدره مشيراً إلى نفسه وقال:

- مـــن ارتكب تلك الجرائم هو المدّعي العام وهو السيد القاضي والأعضاء الموقـــرون في مجلس العدل، وأنا، نحن كلنا، والمجتمع برمته من ارتكب.. لم أرَ شيئاً في حـــياتي أجمل من هذا، حتى اليوم اهتزّ عندما أُخبّر، فأظن أن الأمر يحدث الآن بالذات".

وأخيراً، وهو يدخّن سيجار سان فليكس كان قد قدّمه له مدير الشرطة الذي جـــاء يـــرافقه حتى الباب، ظهر المحامي ضاحكاً لمزحة قالها صاحب النفوذ الوفي. وأعطى أمراً للسائق:

- يا تياو إلى المركز.

كـــان جانواريـــو يخرج من الباب عندما توقفت السيارة، وانسحبت تريزا تـــركض وهي تمدّ بذراعيها إليه، وتعلّقت في عنق العملاق. ابتسم القبطان جيريبا، وهـــو يحدّق في عينيها: لقد تحوّل قراره الذي لا يُقاوم إلى مياه تنساب في الأسفل؛ كـــيف لا يقـــبّلها في حـــين هي قد آخذته بقبلة من ثغره. عند باب المركز كان الجـــلادون ينظرون، فأوامر المدير العام، مع الأسف، لم تكن تقبل النقاش: "اطلقوا سراح الرجل حالاً، وإذا تعاطيتم معه فسيكون لي عمل وإياكم".

لقـــد تـــصادموا بالـــضرب، ويكفي أن ترى عين صاحب المركب الشراعي لتعرف ما فعلته الشرطة.

لقـــد بـــدأت المعركة في الشارع وتكرّرت في السجن: وعلى الرغم من عدم ملاءمة المكان والزنزانة الضيقة، فإن المعلم جيريبا لم يخرج منها بشكل سيئ.. لقد تلقّـــى ولكنه أنال ما تيسّر، وعندما تركه الجبناء واعدين بالرجوع فيما بعد لحفلة جديـــدة، ولقهـــوة الصباح، بمعناها التحقيري، على حدّ تعبير أحدهم، فإن الملاّح كـــان مـــا يـــزال متماسكاً تماماً وإن بدا ملطخاً، وكان الجلاد ألسيدو والتحري أغنالدو ملطخين بالقدر نفسه.

اشترك الجميع في التهام السمكة الحارة بمن فيهم السائق الذي كان مستعداً في تلك اللحظة للتخلي عن أجره مقابل الرحلة التي لا نهاية لها، ولكنه في النهاية تلقّى الأجـــرة حتى لا يصدم القبطان غونزا الدقيق جداً في المسائل المالية.. وكشف لولو سانتوس عن وجه آخر للسائق، أن تياو معروف في عالم السامبا والمسيرات الراقصة وبطل عدة كرنفالات.

ورافقـــت الكاشاســـا أكلـــة السمك، لولو الملسان يشرب كما هي عادته جـــرعات مـــوزونة، ويمـــدّ لسانه مع كل جرعة، بينما جانواريو وكايتانو يقلبان الشفاه، فيتبعهما السائق بالحركة نفسها وإلى جانب المعلم كانت تجلس تريزا وهي تأكـــل بـــيديها؛ فمنذ سنوات عديدة لم تأكل هكذا كأن تجمع الأكل بأصابعها، كتلة سمك مع بعض الطحين وتغمس كل شيء بالذرة الهندية المطحونة.

أفـــرغت القنينة الأولى بسرعة ففتحوا قنينة الكاشاسا الثانية، وبدأ لولو يُعرب عـــن دلائل التعب لأنه أكل ثلاثة صحون. أما السائق تياو، عقب هذه الكمية من الـــسمك الحار والكاشاسا، فقد دعا كل الموجودين إلى أكلة فجوادا في داره، نهار الأحد في نهاية شارع سيماون دياس، عندما غنّى للأصدقاء آخر مؤلفاته الموسيقية وهو يعزف على الكمنجة.. منـــزل رجل فقير لا مظاهر ولا اعتداد بالنفس ولكن لا تنقصه الصداقة.. وإذ كان قد قبل الدعوة فإن لولو تمدّد على ظهر السفينة ونام.

كانـــت الساعة الرابعة صباحاً، وراح الضوء يتسلّل عبر الليل الذي ما يزال ســـاطعاً، فجلس إلى جانب السائق الفرحان، المعلم جانواريو جيريبا وتريزا باتيستا باتجـــاه أتالايـــا، والسيارة تترنّح يساراً ويميناً، إذ إن تياو كان قد شرب الكثير من الكاشاســـا وغنّى السامبا التي ألّفها عندما لُفظ الحكم على اللص موازينيا، تقديراً لدفاع لولو سانتوس المثير:

"بلى، أيها الكبير
منْ قَتَلَ هو أنت،
لم يُطلق وحده الرصاص
فمن قتل هو أنت،
وهو القاضي والمدّعي العام،
من قتل هو الجوع،

وهو ظلم بني البشر.."

يفتح ذراعيه، يتحرك ليعطي الحرف قوة، يترك المقود، فتنحرف السيارة، تتزحلق وتهدِّد بالانقلاب، ولكن في تلك الليلة أي حادث لا يستطيع أن يقع، إنها ليلة المعلم جانواريو جيريبا وتريزا باتيستا... "الزواج هكذا، رجل وامرأة مولهان الواحد بالآخر، يستحق أن يحدث"، يقول السائق تياو واضع موسيقى الاحتجاج الذي انتهى إلى السيطرة على السيارة القديمة... من هناك ذهبوا عبر الطريق العريض المستقيم، أما تريزا وهي مليئة بالتأثر، فارتمت على صدر جانواريو.

وفجأة كان البحر.

9

هنا، تنهّدت تريزا، دارا فوق الرمال، وبلّلت الأمواج أرجلهما، وكان الفجر يولد من لون جانواريو. اكتشفت تريزا في النهاية من أين تأتي تلك الرائحة لتعطّر صدر العملاق، إذ لم تكن غير رائحة البحر الطيبة؛ كانت قد بدأت تشمّ البحر وتتذوّقه. لماذا لا تريدُني؟ سألت تريزا عندما خرجا وأيديهما متشابكة وهما يركضان فوق الشاطئ ليبتعدا عن السيارة حيث استسلم السائق لشخير حماسي.

"لأنني أريدك وأرغب فيك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها منفجرة بالغضب، وعندها وقعت أسير حبك، لهذا أبتعد وأهرب، أُبعد يدي، أقفل فمي وأحرق قلبي. لأنني أريدك للحياة كلها لا لبرهة. آه لو كنت أستطيع أن آخذك معي إلى بيتنا وأضع في إصبعك خاتم خطوبة دفعة واحدة وللأبد.. آه لو كنت أستطيع، ولكن ذلك ليس ممكناً".

ولماذا لا يكون ممكناً يا معلم جانواريو جيريبا؟ بخطوبة أو من دون خطوبة، لا يهمّني. إلى بيتنا وإلى الأبد، أجل.. إني حرّة بنفسي ولا شيء يربطني ولا أرغب في أي شيء آخر.

– ولكنّي لستُ حراً.. تيتا، إني أحمل سلاسل حديدية في رجليّ؛ إنها زوجتي ولا أستطيع أن أنفصل عنها، لأنها تعاني مرضاً مزمناً، لقد خطفتها من بيت أبيها حيث كان عندها كل شيء ولديها خطيب تاجر؛ إنّها دائماً مستقيمة معي، لقد تجاوزت كل حاجاتها دون المطالبة بشيء؛ تعمل وتبتسم، تبتسم حتى عندما لا

يكـــون لديـــنا ما نأكله؛ وإذا كنتُ قد تمكنتُ من شراء المركب الشراعي، فلأنها كانت قد ادّخرت بعض المال متلفة صحتها وراء ماكينة الخياطة طيلة اليوم؛ وبقيت طـــيلة حياتها عرضة للمرض، ضعيفة الصدر، وأرادت أن يكون لها ابن فلم تُرزق، وما خرجت من فمها قط كلمة شكوى؛ ما أجنيه من المركب الشراعي أنفقه على الأدويـــة والأطباء لأطيل مدة المرض الذي لا يمكن الشفاء منه. عندما خطفتها من البيت لم أكن أكثر من متشرّد في الموانئ، أعيش في الفقر والحزن وقلة التفكير. أما المـــرأة التي أحببتها وأردتها فقد سرقتُها من عائلتها، ومن إغراءات الخطيب، حيث كانـــت متعافية، جميلة، وسعيدة، وهي اليوم مريضة، حزينة وبشعة وكل ما عندها هو أنا ولا شيء آخر، ولا أحد آخر، فأنا لن أرميها في الشارع أو عند مصب النهر.. لا أريدك ليوم واحد، لليلة فراش وتنهيدة حب؛ إلى الأبد أريدك ولا أستطيع... لا أســـتطيع أن آخذ على نفسي عهداً لأني أحمل سلاسل في رجليّ وأغلالاً في يديّ؛ لهذا لم ألمسك قط ولم أقل لك يا حبـــي الكبير، فقط لم يكن لديَّ الشجاعة على الهـــرب مرة واحدة، دون أن أعود، وفي نيّتي أن أحملك إلى الأبد في أعماق عينيّ، بـــوجهك الجميل ولونك المالوي وقوامك الخيزراني وذكرى مراسيك، حتى أتغذّى من ذكراك في وحدة ليالي الرحيل وأنا أنظر إلى البحر فأراك فيه.

– إنـــك رجـــل مـــستقيم يا جانواريو جيريبا، تكلمت كما يجب أن يتكلم الـــرجال: جانو، يا جانو أغلالي، أي أمر محزن ألاّ أكون دفعة واحدة معك في بيتنا وحـــتى المـــوت، ولكن إذا لم يكن ذلك ممكناً فليكن ليوم واحد، لساعة واحدة، ولدقـــيقة واحدة، يوماً، يومين أو أقلّ من أسبوع، بالنسبة لي، هذا اليوم، أو هذان الـــيومان أو ذلك الأسبوع القصير، لـــه حجم الحياة مضروباً بعدد ثواني وساعات وأيام الحب، حتى وإن كان شوقاً فيما بعد، وسأذوب رغبة ووحدة وأنا أحلم بك في هـــدأة المـــستحيل؛ حتى هذا يستحق العناء. إني أريدك الآن، في هذه اللحظة، حـــالاً، في هذه البرهة بالذات، دون تباطؤ ودون أي تأخير، الآن وغداً وبعد غد، الأحـــد والاثـــنين والثلاثاء، فجراً وعصراً وليلاً، وفي أية ساعة كانت، في أقرب فـــراش، علـــى الحرير أو التبن، على الأرض، على الرمل، على سطح المركب، في مرسى البحر، حيث أردت أن يكون وإذا أمكن ففي ذراعي الواحد الآخر فاقدي الوعـــي، حـــتى وإن يكـــن بعدها الألم الموجع، فإني أريدك وسأحصل عليك، يا

جانواريـــو جيريبا، ربان المركب الشراعي، العملاق، ملك النسور الياهياتي الأسوأ قدراً والأقل حظاً في باهيا.

كان البحر اللامتناهي، أخضر وأزرق، كحلياً، قاتماً، نقياً، زيتياً، مائياً، وكأن لا ارتـــواء مـــن البحر، فقد أمر جانواريو جيريبا قمراً من الذهب والفضة ومنارة مـــشتعلة في أعلـــى السماء أن ينيرا جسديهما في غمرة مطارحة الحب؛ كانا اثنين عـــندما وصلا، وها هما الآن واحد فقط، على رمال الشاطئ، تتسلّل إليهما موجة فتطالهما.

تريـــزا باتيـــستا مشبعة برطوبة البحر، على فمها وشعرها المسبل، وصدرها المفـــتوح، وســـرة خـــصرها الهـــندي، وزهرة الطحالب تتقطر لآلئ ندية، هنا يا حبيبـــي، لأموتنّ على حدّ البحر الفاصل، بحرك أنت، بحر الأعشاب والطحالب، بحـــر الفـــراق والغـــرق، ومن يدري فقد أموت يوماً في بحر باهيا، على مركبك الـــشراعي، مـــن فمك المالح وصدرك الأريني في مركبك يرفع كل الأشرعة، وفي غمـــرة الأمـــواج، ولـــدت من جديد عذراء بحرية، خطيبة وأرملة ملاّح مركب شراعي، وكلي شوق هنا، يا حبيبـــي البحار...

10

لا أســـتطيع أن أروي لك الحكايات عن أمّة تريزا.. يوجد بعض العارفين في هـــذا الأمـــر، بعض مثقفي الكليات، وبعض أصحاب الحقائب الدبلوماسية الذين يقـــودون الـــبحث في هذه المواضيع، كاشفين بجرأة وعلم عن أصول كل واحد، حاصـــلين بهذا على نتائج إيجابية لا أعرف إذا كانت دقيقة ولكنها بالتأكيد تلائم الأحفـــاد، حتى إنّني أعرف أحد مطلقي العنان لشعورهم الفوقي يقدِّم نفسه سليلاً للإلـــه أوغون، فتأملْ أي باحث تافه فتّش له عن أصل عائلته، وبالتأكيد، كان هو نفسه، وبكل تألق، إذ لا يجب على أحد أن يوكل إلى الآخرين مسألة أصل حساس كهذا.

وكمـــا تعـــرف أيها المواطن الشريف، هنا، امتزجت كل الأمم لتكوّن الأمة البرازيلية. وفي قسمات الوجه، وقوام الجسد، وثنية العين، وطريقة السلوك، فإن من لـــه نظـــر يجد خاصية، منها يستوضح القرابة البعيدة، أو طريقة التمازج، وكيفية

حدوثها، وسيستوضح المدّعي أصله ويجد أنه نسيب الإله أوغون، وأنّ هذا الأخير يكون صلفاً لأنه كما تقول الحكاية كان يعاشر أوشوسي الإله لأغراض وقحة كأن يعتدي على بنات القديس بروكينيا. وإذا بدا لك هذا الأمر استنباطاً، فاطلب التوضيح من الرسام كريبيه فهو من يجلو هذه الأمور للنبلاء، واضعاً نصب عينيه صورة الإله أوشوسي، بالإضافة إلى أنه صادق وواثق من الحديث عن تريزا باتيستا التي يهم الكثير إلقاء الضوء عليها، فإن الاختلاف كبير في كل ما يقال في شأنها، آراء مختلفة، ونقاش طويل حول الكاشاسا رغبة في المحادثة.. مالوية الأصل طاغية الحسن، فقد جاء من يأخذها ويخفيها بدقة وسط البضاعة المنقولة ويحملها معه من هناك.. والبعض الآخر يتبيّنها فيجزم بأنها غجرية، قارئة كف، سارقة جياد وأطفال تضع أقراطاً معدنية في الأذنين وتتزيّن بعقود من الذهب، وتمارس الرقص. ويقول البعض، إنّها من الرأس الأخضر، ذات ملامح هندية، متحفظة أكثر مما يتوقع منها، وذات شعر أسود مسبل.. أنغولية، ناغونية، كابينداوية، ذات قوام كونغولي أهيب، ومن هناك دمها النحاسي الذي امتزج بدماء كثيرة أخرى امتزجت بالتالي بالأمة البرتغالية، ولكن، هنا تمازج الجميع... أفلست تراني زنجياً؟ أجل إنّ أول من تمدّد في فراش جدتي كان برتغالياً عسكرياً.

في غمرة هذا اللغط يقولون جزافاً إنّ بائعاً متجولاً من حملة الحقائب هو الجد الأكبر لتريزا نتيجة إحدى صداقاته مع العاهرة المشهورة ميكالينا.. وعندما أقول بائعاً متجولاً من حملة الحقائب، أرجو أن لا أكون مضطراً إلى أن أوضح أنني أعني العربي، السوري أو اللبناني الذي يسمّونه هنا التركي.. في المنطقة الداخلية حيث ولدت تريزا كان الانقسام مستمراً في هذا الموضوع وظل صعباً معرفة ما إذا كان البائع المتجول قد ضمّ هو الآخر إلى صدره كومة القصب المغرية. إلى أين تصل الذاكرة؟ كانت نساء العائلات يشبعن أنظارهن ثم يخرجن بوقاحة يلصقنها بالأموات ويستمرّين بانتهاك القبور إلى أن يصلن إلى تريزا، وهنا فقد سمعتُ الكثيرات منهنّ يقلن في أكثر من محرقة كلامية، إنّ تريزا كانت بشعة ذات تكوين سيئ، وإنّها كانت تأسر الرجال بالسحر الأسود والكتابة لأنها كانت خبيرة وطيبة الفراش وليس لأنها جميلة. فانظر أيها المواطن الأصيل كم من التناقض! ومع ذلك فإنهم يريدون أن يصدّقهم الناس ويكونوا شهود عيان على خزعبلات التاريخ.

مـــنذ زمـــن ليس ببعيد كنت متصالحاً مع نفسي. وأنا آكل قطع الحلوى المغمسة بالقَطْر، في بيتي الصغير، عندما بدأ أحد المشخصين يروي لبعض أهالي ســان باولو ولإحدى السيدات الفتيات، دائمة الابتسامات كأفواه الأغنياء، آه لــو لم أكــن متزوجاً!! كما كنتُ سأقول لك قبل أن أتوقف أمام زهرة سان باولـــو الندية، فإن المشخِّص شاب عصري لا يتفحّص الكذب أراد أن يكون وسيطاً للزائرين فأكد أن تريزا كانت شقراء مشاكسة وسمينة، ومن الحقيقة لم يُبق لها سوى الشجاعة من أجل الوصول إلى غرضه بالقضاء على شهرة تريزا، بقـــوة الصراخ، وقال إن تريزا بينما تهرول في الشارع فقد نادى عليها للتقيد بالنظام بينما كانت قد صرخت صرختي ألم فبدا وجهها هزيلاً شاحباً. هنا، في الـــسوق النموذجـــية، يا ابن أمي، يسمع الناس أشياء مرعبة وكذباً يقع كما المطرقة على الحائط.

لــو كنت أنا المواطن النبيل لتركت جانباً مسألة الأمة هذه، فأية فائدة تعود إلـــيك إذا عرفت أنّ في عرق تريزا دماً مالوياً أو أنغولياً، أو إذا كان للعربـــي في يـــوم دخل في هذا الموضوع، وما إذا كان الأمر يعني الغجر الضاربين خيامهم في الغابـــات؛ كان شاب هناك قد أخبرني أن سيدة تدعى ماجدة مورايس قد أفادت عـــند الشرطة، تدعمها أخواتها في ما تقول، إن تريزا كانت سوداء من عرق سيئ وبشع.. وهكذا كانت تريزا من لسان إلى لسان، من شقراء إلى سوداء، من جمال لا مثـــيل لـــه إلى بشعة دميمة، وكنت أنـــا في بيتي الريفي الصغير، أصغي وألوذ بالصمت، فمن يعرف عن تريزا أكثر مني و لم يأخذني صديقاً؟

لا أســـتطيع أن أقـــدِّم لك أكثر من هذا عن أمة تريزا، ولا يهمّني بشيء أن تكون هي نفسها الإلهة يانسان، توأمها أو نسيبة لها، ولكن ما يخص أمتك أنت يا صاحب النفوذ، ودون أن أذهب بعيداً أو أنتقص من الحقيقة، أستطيع في الحال أن أكتـــشف مـــزيجك الدموي الأقوى؛ إني أسمع تحت بياض جلدك قرع طبول تُصم الآذان؛ أن الإلـــه الـــسيد هـــو من أمة الخلاسيين البيض الذين يسمّون أهل باهيا البـــيض، أمـــة الطليعة أقول لك، منها أوشوسي وشانغو اللذان يقيمان في منـــزل القديس جورجيوس في مدينة باهيا قبلة العالم.

11

أيـــام مليـــئة بالارتباك تعيشها تريزا باتيستا موزّعة بين جوان داس فولياس، فلـــوري باتشولا، باريس الليغري، والربان جانواريو جيريبا الذي اسمه جانو عند مداعـــبة نسيم البحر وإغماضة الجفنين وتكسر الأمواج ورغبات الحب لدى تريزا. أمـــا حاشـــية المعجـــبين والوقت الذي تصرفه عند طبيب الأسنان وإلحاح فنراندا فكانت كلها تُضاف إلى محور اهتماماتها.

حـــوالى الساعة العاشرة صباحاً، ترجّلت تريزا أمام مدخل المزرعة الصغيرة في توقـــف لم يتوقّعه سائق الباص الشعبـــي. في تلك الساعة كانت جوانا قد قامت بجزء كبير من كدحها اليومي: فالعامل الذي يشتغل معها يكون قد خرج في الباص الأول مـــع الخـــضار لـــزيارة الزبائن في الشوارع التجارية. وهي تشقى في العناية بالأرض قبل بزوغ الشمس، تهتمّ بالخضار، تقطف، تزرع، تضع السماد، وها هي تصل من أعمالها الزراعية الشاقة وتتوجّه لتغسل يديها.

هـــا هما جالستان إلى طاولة غرفة الطعام مع الأقلام والحبر والكتاب والدفاتر وقـــد أخذتا قراريهما بإصرار... ذلك العمل لم يكن مجهولاً بالنسبة إلى تريزا، ففي أشتانـــسيا في الشارع الهادئ، ومع قلة العابرين، كانت قد بدأت بتعليم الحروف الأولى لـــولدي لولا ونينا اللذين انضمّا فيما بعد إلى أولاد الجيران، متمكّنة من أن تجمـــع سبعة تلاميذ متحوّمين حولها بدائرة من الضحك والدلال. لم يكن هنالك الكـــثير لتعليمه في ذلك الوقت الذي تعلّمت خلاله تريزا باتيستا هي الأخرى؛ ما تعـــرفه الآن من الكتابة والقراءة يعود إلى تلك الأيام، التي، رغم كونها أياماً سعيدة وهادئـــة، فإنها ما تزال تثقل كتفيها بما سبقها وما أعقبها فتبدو لها أيام سوء وألم، ولا يـــسقط اسم السيدة مرسيدس ليما معلمة المحلة الريفية التي كانت هي الأخرى قلـــيلة المعـــرفة وكثيرة التفاني. في الحصة اليومية، من العاشرة وحتى الحادية عشرة (باســـتثناء الأيـــام التي يأتي فيها الأستاذ إلى المدينة ويقيم في الدار) أمثولة ونزهة، كانـــت تريزا أثناءها تلقّن الأطفال التهجئة وتعلّمهم الخط وتطعمهم السندويشات الكـــبيرة المعـــدّة مـــن الخبـــز والجبن ومعها حلويات منـــزلية وثمار وألواح من الشوكولاته إلى جانب المشروب الغازي. أولاد هيف، أذكياء، وبعضهم من ذوي الحـــيوية والحـــركة الزئبقية، هكذا كانت هي نفسها في صف السيدة مرسيدس.

بعضهم الآخر أصعب تعلماً، ذوو رؤوس صلبة ولكن أي واحد منهم لم يكن يشبه جوانا داس فولياس، لا لأنها كانت قليلة الذكاء أو بلهاء، فعلى العكس كانت نبيهة، وعندما عرض عليها لولو سانتوس مخطط المعركة فقد استوعبته فوراً. ترددت قليلاً في اعتماده، إذ في رأيها، ولأنها امرأة شريفة كانت تفضّل أن تدفع للمرابي ثمانمائة ريال القرض والفوائد الباهظة المتفق عليها. ولكن اللّسن لم يوافق مفسِّراً الأمر بقوله: "كل شيء أو لا شيء". فلكي تدفع الدين الحقيقي عليها أن تعترف على الأقل بجزء من صلاحية الوثيقة الموقع بالالتزام، وأن تتنكّر في الوقت نفسه لتزييف الأرقام، ولكن كيف السبيل إلى إثبات التزييف؟ لم يكن من وسيلة لذلك مع الأسف، فالطريق الوحيد الذي يجب سلوكه، كان في إنكار التوقيع بالالتزام، وتجاهل الوثيقة واتهام ليبوريو بتزييفها، بكل ما فيها، ظناً منه أنها أمية مجرّدة من كل شيء ومرمية في موقع العمل، والادعاء بأنها لم تأخذ مرة أي قرض وليست مدينة لأحد بشيء، كانت تعرف القراءة والكتابة وتوقيع اسمها وهي كانت مستعدّة لإثبات ذلك وهي تخطُّ على مرأى من القاضي توقيعها على ورقة. أما لولو فكان يريد فقط أن يرى وجه ليبوريو القذر في تلك اللحظة.

كان عليها أن تختار بين إجراءين: فإما أن تعترف بالوثيقة، في هذه الحال سيتمّ حجز موقع العمل ويباع في المزاد العلني ويعطى بالتالي إلى ليبوريو مع تقبيل يده، وليس لدينا ما نثبت به تزوير الأرقام، وهكذا تبقى جوانا داس فولياس تعمل خادمة لليبوريو نفسه في الأرض التي كانت سيدة عليها وتخرج في طلب الإحسان والصدقة في شوارع أراكاجو، وإمّا أن تعلن أن الوثيقة مزوّرة بكلّيتها، ما سيجعل موقع العمل بمنأى عن كل تهديد، ويجعلها حرّة في الوقت نفسه من دينها، المال المحفوظ لدفع الدين من حق لولو على أتعابه: "رجل مثلك، أستاذ، لا يوجد، عليَّ أن أدفع أتعاب حنوك عليَّ، لا لشيء إلا لأنك قبلت بالأمر دون أن تأمل في أية مكافأة". وهذا أمر لن يحدث يا عزيزتي لأن الكلفة والأتعاب ستكون على حساب سيئ الأخلاق إذا جاءت العقوبة عادلة، وكما يجب أن تكون؛ في الأعماق لم تكن تحبِّذ جوانا فكرة إعطاء أمثولة للمزيف: لقد كانت تمتلك ذكاء أهل الريف وخبرة نظرية تجعل تعلّم الألفباء والمقاطع اللفظية والقراءة مسألة سهلة بالنسبة إليها.

لم يكن في يديها ما في عقلها من طراوة تسمح لها باستيعاب المسائل الحساسة والمزخـــرفة.. فـــإن يـــدي جوانا كانتا كمزلاجين أو كقطعتين من أرض يابسة، وكانـــت أصابعها كجذوع الشجر أو كأغصان غير متناسقة، يدان متعوّدتان على معالجـــة الأشـــياء القاسية وعلى الفرش وصيد السمك واستعمال الفأس والمنجل؛ فكـــيف لهاتين اليدين أن تعالجا الأقلام والريشات؟ بقيت تريزا في المزرعة الصغيرة حـــتى الثالـــثة بعد الظهر تعالج يدي جوانا متوقفة فقط لتناول غداء سريع. عمل مـــضن، وشغل مثير، تراقب معه أدنى تقدُّم، وتحصي الركود في كل لحظة، متغلبة علـــى الـــضعف، منتصرة على العمل الشاق وتجربة الاستسلام. أما جوانا فكانت تهـــتف أحـــياناً باسم منوال طالبة النجدة، وكانت تعضّ يديها أحياناً لمعاقبتهما؛ وامتلأت عيناها بالدموع عندما تمكّنت أخيراً من خط حرف ج مقروء.

في باص الساعة الثالثة كانت تريزا تذهب إلى طبيب الأسنان، وبعدها مباشرة إلى التمـــرين في بـــاريس الليغري حيث يلاقيها جانواريو في نهاية رحلته اليومية. ولجانواريـــو كانـــت تعمل أيضاً: تساعد في التحميل والتنظيف والصباغة وإعداد الأشـــرعة، وفي تجهيز الطوافة فنتانيا للانطلاق.. لم يعد شيء يجري في السر، حتى فلـــوري الذي يستعجل طبيب الأسنان وهو يرى في غبار الأرض مشاريع الجلوس والتمدّد في الفراش مع نجمة السامبا المثيرة كان يرى فجأة صاحب الطوّافة يقفز إلى المكان فتقهقه تريزا ضحكاً في زاوية من زوايا الملهى. ولكن كما تمّ شرحه سابقاً، فـــإن فلـــوري باتشولا الرجل الذي خبر الحياة والنساء لا يطفئ رغبته بسهولة في يـــوم، أكثر أو أقل، وعندما يتمّ تحميل أكياس السكر وترتفع الأشرعة في معالقها وتنفـــتح للـــريح وتُرفع المشكاة وتعود الطوافة فنتانيا خشباً متأرجحاً فوق البحر، فسيعبر الجسر باتجاه باهيا بانتظار المخطط وهو يتبيّن إثارة السامبا؛ كان ينظر دون ارتـــباك إلى العملاق في أعلى السلم: اذهب ودع الفراش الذي سأتمدّد فيه، فليس من فراش أكثر غضباً من فراش امرأة موجعة من الشوق.

مـــع وصول جانواريو استأذن الشاعر والرسام بالانصراف؛ لم يكن الشاعر يـــتعقّب غـــير سراب بعيد ورمز محبط وحلم زائل، مفتشاً عن الخلود في قصائده المولودة من حسناء النحاس أبيات شعر عن الحب والموت؛ أما الرسام فيبدو صامتاً عمـــيق النظرات كأنما ينظر إلى الخارج والداخل متشبعاً من الصورة التي لا تُنسى

ومـــن كل تعبير، ومن عبء الماضي والقوة الحيوية، تريزا الراقصة، المرأة التي تكف عـــن الـــدوران، عذراء المنطقة الوسطى، امرأة المرفأ، الغجرية، ملكة السامبا، ابنة الشعب، فكم من اللوحات وكم من العناوين التي وضعها تحت وجه تريزا؟

بعـــد التمارين، وحوالى الساعة السادسة مساء، عادت تريزا إلى موقع العمل برفقة جانواريو، وابتدأ الدرس من جديد. وقت متعب ولكنه ترفيهي. ودون إضافة دقيقة واحدة. ففي تلك الجولة المكثفة النشاطات أصبحت تريزا وجوانا صديقتين. أخبرتها الزنجية عن الزوج: فلاح قوي ونشيط ذو قلب طيب، لم يحزن إلا على ابنه الـــذي رغـــب في أن يراه يحرث الأرض ويوسّع المزرعة ويزيد من إنتاج الخضار والفـــواكه، وكـــذلك من الزبائن، محوّلاً الموقع الصغير إلى مزرعة كبيرة.. لم يغفر للابن هربه.. جميل وحار. كان يحب أن يحكّ شاربيه العريضين على جلد زوجته؛ لم ينظـــر قط إلى امرأة أخرى مكتفياً بزنجيته جوانا؛ وعندما مات كانت جوانا قد أكملـــت الـــواحدة والأربعين من عمرها منها ثلاث وعشرون سنة برفقة منوال فرنسا، ومنذ موت الزوج توقفت عادتها الشهرية، وكأنها ميتة هي الأخرى في مثل هذه الأمور.

لولـــو ســـانتوس إلى جانب حمى المحكمة وسعير البار، كان يظهر في المزرعة الـــصغيرة ليلاحظ ويتأمل في تطورات العاملة.. ومنذ البدء لم يكن متحمساً: فيد جـــوانا داس فولياس، يد حراثة وتسميد وزرع وقطاف ولن تستطيع أبداً أن ترسم حـــروف اســـم السيدة جوانا فرنسا؛ الوقت قصير، والجلسة قريبة، ومحامي ليبريو حـــاذق في تحـــريك الشطرنج، يستعجل القاضي ومع الحروف الأولى أصبح لولو حيوياً وعاد إليه تفاؤله.. فالقلم لم يعد يمزّق الورقة وقلت نقاط الحبر... ومن يدي جوانا ودوخة تريزا بدأت تولد الحروف.

يـــد جوانا تسير وحيدة، وعندما تستأذن تريزا بالانصراف في الثامنة ليلاً في الـــباص المليء، في فضيحة قبلات، ويبدأ ليل الحب، فإن الزنجية تتابع المجازفة على الورقة، فتعيد كتابة الألفباء، كلمات وكلمات أخرى، أما اسمها فتعيد كتابته مرات لا تحـــصى.. نقطة الحبر الأول تتحوّل إلى كتابة، والخدوش في كل مرة أكثر نظافة وأكثر ثباتاً، وأقل إغلاقاً على الفهم.. تدافع جوانا داس فولياس عن كل شيء بقدر مـــا تـــستطيع، عن موقع عمل منوال الذي تحول معها إلى مزرعة نموذجية، وإلى

بستان فاكهة مختارة، منه تكسب خبزها وهو إرث من الزوج، وأرض خصبة منها تأتي بالضروري لنفقات البيت وما زاد عن ذلك فلجنون الابن العاق الذي تحبه.

12

في حديث مع لولو سانتوس، عدّت العجوز أدريانا فتيات اليوم حمقاوات ولا تفكير عندهن ولا يفكّرن في الغد.

– إنها مجنونة، إنها ترمي بعيداً بحظها الكبير.. (عنت بحظها الكبير سيناتوراً صناعياً).

كان اللّسن قد وصل لزيارة تريزا ففتحت له العجوز قلبها:

– تريزا لا تبقى في البيت، إنها تخرج تواً بعد تناول القهوة وتبقى ليل نهار وراء هذا البحّار اللعين. فتاة بهذا المستوى والجمال تستطيع الحصول على كل ما تريد وتطمح فيه في مدينة أراكاجو، حيث لا ينعدم وجود رجل مستقيم، متزوج، ذي مركز مرموق، وصاحب مال يصرفه، ومستعد لأن يحميها ويتحمّل مسؤولية معاشرة امرأة من صنفها.

أدريانا لم تكن تموت حباً بفرناندا، ولولو يعرف أسباب العداوة، ولكن الحقيقة يجب أن تقال: "هذه المرة فإن الحمقاء تتصرّف بأحسن ما يكون. لقد أرسلت تعرض على تريزا لقاءً سرياً في بيت العزّاب، أتعرف مع من يا لولو، تكهّن إذا استطعت، وخفضت صوتها لتفصح عن اسم الصناعي المصرفي، السيناتور! وهو، لقضاء بعد الظهر في فراش تريزا، مرة واحدة، يعرض ثروة صغيرة ويبدو أنه رآها في أيام أشتانسيا وحمل لها ولهاً قديماً وضغطاً طبخ على نار خفيفة (واعتذرت من لولو عن التعبير الذي ردّدته فرناندا)، وكانت فرناندا قد توسطت أدريانا ووعدتها بعمولة معقولة.. إنها لتريزا الفرصة السانحة، وأبعد من ذلك أيضاً إمكانية الغنى الكريم إذا أعجب بالفتاة و(هو بالتأكيد سيكون معجباً) على أن يضعها في بيت مؤثث من كل شيء؛ تريزا مشتّتة؛ أين عقلها؟ إنها لم تكتفِ بالرفض ومقابل إلحاح أدريانا التي تعهّدت بالتقيد بكلمة الوعد التي أخذتها على نفسها أمام فرناندا، هدّدت تريزا بالرحيل؛ إنه سخف لا معنى له احتقار أغنى رجل في منطقة سرجيبي. إنّ ذوات العقول الهوائية فتيات اليوم يفكّرن دائماً في الممارسة ليس مع من يدفع بدل الأتعاب، ولكن مع خنافس منهزمين،

وهـــنّ مـــتعلقات بأي نوع من الفقر، إنهن ينسين الشيء الأساسي، المال، سيد العالم، وينتهين جميعاً إلى مستشفيات المعوزين".

تـــسلّى لولـــو سانتوس بيأس المرأة المسنّة، اليأس الصدمة بسبب العمولة التي وعدتها بها فنراندا: العجوز أدريانا امرأة التقاليد والمبادئ الكتوم، تحوّلت إلى سمسار في خدمة أشهر امرأة دعارة في أراكاجو؟ فلمن أعارت كبريائها المهني؟

- لولو، إن الأيام تترك آثارها، ولكن المال لا يحمل رائحة ولا أثراً.

- أدريانـــا يـــا جميلتي اتركي الفتاة بسلام، تريزا تعرف قيمة المال، إنها لا تخدع نفسها، ولكنها تعرف أكثر قيمة الحب والحياة، أو تفكرين أن السيناتور وحده هو من يركض وراء تريزا حاملاً حقيبة بيده وضغط روث الحصان في مقعده؟؟ (اعذريني على الكلمـــة، ولكني أردِّد أيضاً كلام فنراندا) وهناك شاعر تغمره القصائد، وكل معنى من معانـــيه يـــساوي ملايين الصناعي وهو يموت من أجلها. إذا لم تكن قد أعطت نفسها للشاعر، فلماذا تعطيها لسيد الأقمشة؟ إنها لم تردني أنا يا أدريانا، أنا المعروف بكسارة جـــوز الهـــند بالنسبة إلى نساء أراكاجو، إنها تريد فقط من توجّه إلى قلبها بالكلام.. اتركـــي تريـــزا بسلام خلال هذا الوقت القصير من الحب والفرح وهيّئي لتهتمّي بها بعطـــف وتعطـــيها راحة الصداقة عندما، غداً أو بعد غد، من الآن ولعدة أيام مقبلة، يكون البحار قد رحل وبدأ زمن اليأس المر والاندثار ندماً.

ووعـــدت أدريانـــا: ستكون أختاً وأماً لتريزا وستمسح دموعها، "ولكن تريزا يا عجوزي صعبة البكاء، وإذا كانت ذات رأس فارغ فإنها وحدها المسؤولة". والتمع في عـــيني أدريانا بريق أمل: عندما تبرد معاناتها وتصبح حرّة طليقة من وجود الكبير الهامة، ربما أعادت تريزا النظر في موقفها، وانتهت إلى قبول قطعة الحلوى من أب الوطن.

13

"فقط، بعد ظهر يوم الرحيل، تقول لي، لا أريد أن أعرف سلفاً يوم ذهابك"، طلـــبت منه تريزا. لقد تصرّفا كما لو أنهما كانا يعيشان معاً طيلة الحياة، دون أن يتوقعا فراقاً قريباً، وكما لو أن الطوافة فنتانيا كانت ستبقى جاثمة إلى الأبد في مرفأ أراكاجو. على رمال الشاطئ في غابة الفستق، في تعرجات الجزيرة، في غرفة تريزا، علـــى مؤخرة الطوافة، يعيشان أيام العيد هذه، بجنون تراهما يملآن سرجيبـــي حباً.

شـــارك جانواريو بكل تفاصيل حياة تريزا، أثناء التمارين يعلمها قفزات وحركات الجسم اللين، وكيفية إعطاء السامبا الأناقة والشجاعة، إذ ما تزال تريزا تشعر ببعض الحياء وهي تؤدِّي دوران السامبا الأنغولية. ربان مركب شراعي، وراقص بطبيعته، يـــرافق باهـــتمام كبير أقل تقدّم تحرزه جوانا داس فولياس، ويضحك بفرح عندما يلاحظ أن اليد تتحرّك في النهاية وتصبح قادرة على إدارة الريشة والقلم وهي تهتزّ فوق الورقة، دون أن تجعلها كما في السابق. وما زالت تلطخ بالحبر دون أن تحول الأحرف إلى نقاط سوداء مفهومة. وهناك دائماً لحظة، خلال الصف، كان الثلاثة يتبسمون فيها معاً، تريزا, جانواريو وجوانا داس فولياس.

يتمشيان ممسكين الواحد بيد الآخر في المرفأ ويجلسان معاً يتحدثان على جسر الإمـــبراطور، وعند مؤخرة الطوافة فنتانيا؛ ومرة ترك المجاذيف وأخذها بين يديه في الزورق المتهادي وكان الإبحار خفيفاً وذاتياً عبر مجرى النهر، وبعدها رسا في جزيرة جـــوز الهند، وخرج الاثنان لاكتشاف خبايا المكان. في ليلة أتالايا كانا يلاحقان القمر في السماء وحيدين على الشاطئ الممتد، وقد خلعا ملابسهما، ودخلا البحر، بينما تريزا قد أسلمت نفسها وسط المياه وكلها ملح ورائحة بحرية.

- "أنـــت لست يانسون الآن، إنك يانسون فقط في ساعة العراك. أنت الآن جانايينـــيا، ملكة البحر". قال لها جانواريو، المعتاد على تعاويذ آلهة البحر. كان في نيّة تريزا أن تسأل عن المركب الشراعي فلور داس أغواس، وعن الرحلات البحرية الطـــويلة، ونهـــر باراغواسو وجزيرة إيتاباريكا ومرافئ اللهو، وكيف تكون الحياة هناك في باهيا؛ ولكن منذ تلك الليلة في أتالايا، عندما أخبرها بما هو أهم، لم يعودا إلى الحـــديث عـــن هـــذه الموضوعات، وعن المراكب الشراعية، وأنهر باراغواسو وماراغو جيبي وسانتو أمارو وكاشويرا، وعن الجزر والشواطئ ومدينة باهيا، وعن مـــياه بحر جميع القديسين؛ لقد تحدّثا عن موضوعات أراكاجو، عن الجلسة الأخيرة مـــن دعوى جوانا داس فولياس التي عيّنت المحكمة تاريخها، وعن باريس الليغري، وعـــن التمرينات على عروض الرقص، بحيث إن العرض الأول أصبح قريباً، وعن ســـن الذهب التي بلغت مرحلة الصب وهل أن جميل نجار طبيب أسنان أو نحات؟ فـــنان جـــراحة الأســـنان يجيب الطبيب وهو يعرض التحفة. كانا يمارسان هذه الأحاديث كما لو أنهما لن يفترقا أبداً، وكما لو أن الحياة توقفت عند ساعة حب.

نهـــار الأحد، ذهبا إلى الغداء في منـــزل السائق تياو، بصحبة لولو سانتوس والـــبحار كايـــتانو غونزا، كما هو متفق عليه. أكلة فيجوادا بكل معنى الكلمة، تستحق أعلى درجات التقدير وإبداء الإعجاب.. حفلة تضجّ بالحيوية، والمدعوون كثيرون، سائقون من المحلة، موسيقيون هواة مع الكمنجة والناي، وعازف مندولين مـــن الدرجة الأولى، وبنات الجيران صديقات زوجة تياو ممتلئات إثارة، وكاشاسا وبـــيرة؛ أمـــا للنـــساء فالمـــشروبات الغازية. شربوا، غنّوا، ثم رقصوا على أنغام الغرامافون، الجميع يعدّون جانواريو وتريزا زوجاً وزوجة:

– تلك الجميلة هي امرأة الضخم الجثة.

– رجل بحر، تعرفه ما إن تراه.

– يا لهذه القطعة من جمال النساء.

– إنهـــا عنب رازقي، ولكن لا تتحدث معها، إنها متزوجة من ذلك التيهور، زوجـــة بحار؛ من لا يعرف؟ قريباً تغدو أرملة، إمّا بسبب موت زوجها في البحر، وإمّا لأنه راحل لتوه؛ حب رجل البحر يدوم المسافة بين ضفتيّ نهر. ولم تهرب تريزا باتيستا مع علمها بأن فرحها مؤقت وبأن رجلها رحال.

ثمن باهظ يجب أن تدفعه هو حياة النضال: ولكنّ وهم الحب يستحق العناء.

14

بحـــركة من الكاتب القضائي وقف الجميع، إذ إنّ لحظة لفظ العقوبة الحاسمة كانت قد حانت. وبينما يقف، ألقى القاضي نظرة بطرف عينه إلى لولو سانتوس. كـــان وجـــه لولو ينمّ عن أسف ويرتدي ملامح النية في رفض التزوير والتزييف والـــسرقة والجريمة، ولكن لن يخدع القاضي الجديد ذا الصيت اللامع الأستاذ بنيتو كاردوســـو: علـــوم عالية ومقالات في مجلة المحاكم التي تصدر في سان باولو ونال شهرة مشرّع لامع، بشهادة البروفسور روي أنطونس من جامعة برنامبوكو الذي جيء به إلى سرجيبـــي لمعالجة قضية جنائية معقّدة، إن الأستاذ كاردوسو بالإضافة إلى معرفته العميقة بالقانون، لـــه معرفة بالرجال تثير الإعجاب.

في عمق عيني المعوق، كان القاضي يتكهّن بوجود طبيعة احتياليّة: إنّ الجلسة لـــن تكون أكثر من مهزلة من الخدعات، ولكن إذا كان كشف القناع عن اللص

يقتضي الكذب والمراوغة في النهاية فلا بأس؛ لولو سانتوس، رجل القانون الحاذق، مجهّـــزاً نفسه بالمخططات والأفكار المسبقة، سيأخذ أسوأ محتال في المدينة، المرتكب موبقات التزييف في أماكن العدالة، مستعملاً القانون لأغراضه وغير مدان أبداً، من أجلـــه؛ فكـــم من المرات أخلى الدكتور كاردوسو سبيله لعدم توفر الأدلة، ولكنه يعـــرفه مذنباً؟ أربع مرات على ما يتذكّر... "إنّ الإفادات والشهود كانت رائعة يا لولـــو، و لم يعـــد من الضروري الإدلاء بكلمة حتى يلفظ القضاء حكمه العادل. وعندما ينتهي كل شيء، فإن القاضي بفضول عبثي سيرغب في استجلاء أمر واحد فقط".

ألقـــى القاضـــي على ليبوريو داس نيفس نظرة قاسية من الامتعاض والكره! إلى جانـــب المرابـــي بدأ الخريج من كلية الحقوق سيلو ميلو، محامٍ دخل السلك من باب الـــتلاعب، يحـــسّ بـــأن القضية خاسرة من خلال القلق الذي ارتسم في عيني موكله الـــشبقتين إلى الربا والنفاق.. وكيّف رئيس المحكمة حنجرته القضائية، وقرأ الحكم، في صـــوته الأجـــش البطيء، وفي الاعتبارات التي سبقت القرار، بدأ ليبوريو داس نيفس يكـــشف عـــن نفسه، ويتفرّغ من انتفاخه ككيس تمّ تفريغه في النهاية، بينما عاد لولو ســـانتوس يرافق كل تفاصيل الوقوع في الشرك المنتظر: ليبوريو كيس فارغ، بل كيس قـــذارة... وظل صوت الدكتور بنيتو كاردوسو احتفالياً، يلفظ كل مقطع لفظي، كل حـــرف، وفي نهاية القطعة التي يقرؤها، تلفّظ بتفخيم للمقطع الأخير: "لهذه الأسباب، ولعدم توفُّر الأدلة، أحكم بإسقاط العمل التنفيذي الحالي الذي يطالب به ليبوريو داس نـــيفس ضـــد جوانا فرنسا، وأحكم بعدم صلاحية الوثيقة المزوّرة التي ارتكزت عليها الدعـــوى وانتظم الطلب بموجبها؛ وبموجب الإثباتات التي حملتني على هذا الاستنتاج (تزويـــر المستند) أحكم، بتحويل الوثيقة إلى العدالة دون ادّعاء أي طرف، وإذا وجد، فـــبعد الحكم تستخرج نسخة طبق الأصل عن القرار الحالي وترسل إلى الوزارة العامة، وذلك لاتخاذ العقوبات اللازمة؛ أما تكاليف المحكمة الناتجة عن تصرف مسببها لتصرفه بنيّة الغش وسوء القصد، فيدفعها الجاني ويدفع بالإضافة إليها أتعاب المحاماة بنسبة 20% من قيمة تكاليف المحاكمة.

"فقـــط أريد أن أرى وجه ليبوريو"، قال لولو سانتوس لتريزا باتيستا في تلك اللـــيلة التي وضعوا فيها مخطط النضال في بيت العجوز أدريانا.. و لم يشاهد وجهه

يتصبّب بالعرق البارد، ولكنه سمع صوته يخنخن بصرخة نزاع، فأحسّ لولو عندها أنه، قد تقاضى بدل أتعابه وأتعاب تريزا وجوانا داس فولياس: "أعترض، أعترض! لقد خذلوني، إنها مؤامرة ضدي، إنهم يسرقونني" صرخ ليبوريو ضائعاً، يائساً، كاد القاضي أن يرفع الجلسة، وإذ كان ما يزال واقفاً، أشار بإصبعه مهدِّداً، وقال:

- "كلمة واحدة بعد، وأرسل في إلقاء القبض عليك وإيداعك السجن بتهمة تقليل الاحترام للعدالة... رفعت الجلسة". ابتلع الوضيع لسانه وأوقف اعتراضه الذليل؛ أما المحامي سيلو ميلو، فقد بدا وجهه كوجه فأر، وبانت عليه هيئة الأحمق، ودون أن يفهم، وإنّ نصف ما حدث في المحكمة، سحب زبونه إلى خارج القاعة. خرج الحاضرون ووضع الكاتب القضائي الكتاب الأسود الذي تمّ فيه تسجيل الحكم، على ذراعه... وأخيراً بقي القاضي وهو يجهز نفسه للخروج والمحامي يهيئ عكازيه، وحيدين.. إنهما صديقان منذ زمن بعيد؛ وإذا بالقاضي، بصوت انخفض إلى حدّ التمتمة غير المسموعة، وبثقة، يستفهم من المحامي عن الحلقة المفقودة التي كانت تشغله، وكل الباقي يبدو شفافاً واضحاً: "سيد لولو، قل لي، من علم الزنجية توقيع اسمها؟" تأمّل لولو سانتوس في القاضي بنظرة متشككة: "من؟ السيدة كارمليتا مندونسيا، هي قالت هذا، هنا، منذ قليل، بعد أن أقسمت على ذلك، إنها المرأة الأكثر استقامة، المحترمة من كل ولاية سرجيبي، معلمتنا نحن جميعاً، ومعلمتك أنت، نظيفة، طاهرة، وذات كلمة لا تقبل التكذيب".

- ومن يكذها؟ لو كان في نيّتي تكذيبها لفعلت ذلك أثناء المحكمة. معلمتي، أجل.. ومعلمتك أيضاً، فأنت كنت تلميذها المفضل لأنك كنت الأذكى و...

- "والمعوق..." ضحك لولو.

- "أجل... أجل... اسمع يا لولو، ما دام الحكم قد لفظ: السيدة "كارمليتا" لم ترَ قط تلك الزنجية قبل أن تدخل هذه الصالة، لقد جاءت لأنك أخبرتها بالحقيقة وأقنعتها، وعملت هي خيراً لأنها جاءت. إنّ ليبوريو عفن مكروه ويستحق الدرس الذي أعطي له، ومع هذا لا أظن أنه سيرعوي، إنه وُلد سيئاً. ولكن سيد لولو قل لي من هو العبقري الذي توصّل إلى أن يجعل تينك اليدين ترسمان دون ذبذبة حروفاً يمكن قراءتها؟..." اللّسن، مبتسماً، عاد يحدِّق في القاضي وعيناه خاليتان من كل شك وتساؤل:

– إذا قلت إنها جنية ساحرة الجمال فلن أكون بعيداً عن الحقيقة. لو لم تكن قاضياً محترماً لكنت دعوتك إلى أن تذهب معي يوم الجمعة المقبل إلى ملهى باريس الليغري، في المنطقة، ولقدّمت لك الحسناء...

– وهل الحسناء امرأة عامة؟

– إنهـــا تريزا باتيستا، جمال قلّ نظيره، يا عزيزي. وهي في العراك أفضل منها في الكتابة.

قال ذلك وغادر الصالة تاركاً القاضي يفكّر كم تحمل الحياة من المفاجآت العبثية أحياناً. فتلك الدعوى لا تعدو كونها الآن حيلاً وخدعاً تصبّ في مجرى الحقـــيقة والعدل. مسرعاً، وهو يتنقل على عكازيه، جاء لولو سانتوس لملاقاة ســـيلو ميلو الذي ينتظره مهزوماً ذليلاً مفتّشاً عن اتفاقات خارج القاعة، كان اللّـــسن قـــد أخذته فرحة عيد: آه.. لقد تبدّل وجه ليبوريو بفعل البراز الذي سكب عليه.

15

مهـــزلة من الخدع، حسب قول القاضي الأكبر؛ فقد تقمّص الحاضرون هيئة تنكـــرية، بحيث إن كل واحد لعب ورقته على أكمل وجه، إن مدبِّر طلب التنفيذ ليـــبوريو داس نـــيفس، الذي تبدّل لونه من شاحب ضعيف إلى هزيل أبيض، فَقَدَ بـــذلك السيطرة الذاتية على نفسه في اللحظة الحاسمة. أما لولو، في ذروة التوقد إلى النـــصر، فقد حفر من الصخر كلامه الموحي، المؤثر: هناك في قاعة المحكمة، طالب بـــبراءة المدّعي عليها ومعاقبة المذنب وتنفيذ حكم العدالة. لقد استحقّ العمل، عناء الزيارة التي قام بها إلى المعلمة الموقرة كارمليتا مندونسيا لإقناعها:

– معلمتي العزيزة، لقد جئت إليك لتذهبـــي إلى المحكمة شاهدة، ولكي تدلي هناك بشهادة زور.

– شهادة زور، لولو هل جننت؟ دائماً بضروب جنونك... لم أكذب قط في حياتي، ولن أبدأ الآن بالكذب. وأين؟ في المحكمة...

– تكذبين لإنقاذ الحقيقة وكشف القناع عن المجرم، ولانتشال امرأة فقيرة، أرملـــة، مـــن البؤس، وممن يريدون أن يسرقوا القليل الذي تمتلكه... ولتجنب

البؤس، فإن هذه المرأة الخمسينية قد تعلّمت القراءة والكتابة خلال عشرة أيام ولم أرَ في حياتي شيئاً نبيلاً يعادل هذا الأمر. وبشكل مأساوي، راح لولو يقصّ الحكاية بكل تفاصيلها من البداية وحتى النهاية. المعلمة كارمليتا، عندما كرّست نفسها للخدمة العامة، تفانت بحماس منقطع النظير في مسألة تعليم البالغين، وأتت بمنجزات مشهود لها، وهي مؤلفة عدة أطروحات ودراسات حول الموضوع! أصغت المعلمة إلى الوصف باهتمام كبير وتراءى لها منظر الزنجية المنحنية فوق الورقة محاولة السيطرة على الريشة والقلم، وانتصرت لقضية جوانا داس فولياس:

– لا يمكن أن تكون قد اخترعت هذه الحكاية لولو، لا بدّ وأن تكون حقيقة. اعتمد عليَّ، وفي اليوم المحدّد تعالَ وخذني فسأقول ما تريد أنت.

كان القاضي يعرف أن لولو يقوم بهجوم معاكس مستعملاً السلاح نفسه الذي استعمله ليبوريو: الكذب وشهادة الزور، وذلك بإنكار كل مصداقية للوثيقة المقدّمة أساساً للمطالبة، معلناً إياها مستنبطة ولا أساس لها من الصحة من أول حروفها إلى آخرها، مدّعياً أن موكلته لم تستدن قط أي مال من المدّعي، وليست مُدينة له بشيء إطلاقاً، وإن بإمكانه أن يثبت هذا بطريقة واضحة، ساطعة لا تقبل الدحض، لأنها، لكونها تعرف القراءة والكتابة، لم تكن تحتاج إلى من يوقّع عنها التعهد. تلك الوثيقة ليست إلا فظاعة مزوّرة كيهوذا يا حضرة الرئيس.

وقدّم لولو إدلاءً جديداً عن الأحداث وبصيغة جديدة: في الحقيقة، كانت السيدة جوانا فرنسا تحتاج إلى ثمانية آلاف كروزيرو لمساعدة ابنها الوحيد المقيم في الريو، ولما لم تكن تملك المال فقد فتّشت عن المرابي ليبوريو داس نيفس لتطلب منه قرضاً للأهمية المشار إليها. فأبدى المرابي استعداده لإعطائها القرض إذا كانت مستعدة لدفع خمسة عشر ألف كروزيرو بدل الثمانية آلاف بعد ستة أشهر. أمر مدهش يا حضرة الرئيس!! فوائد بنسبة مائة وخمسين بالمائة سنوياً أو لنقل بنسبة اثنتي عشرة بالمائة شهرياً، ومقابل هذه الفوائد الوحشية، تخلّت السيدة جوانا عن العملية، وكونها أقرضت بعض المال الذي وفّره زوجها إلى صديقه ومواطنه أنطونيو سلامة المعروف بأنطونيو منيوتو، ولكون الدين

يستحق بعد عدة أشهر، فإنها التجأت إلى مدينها طالبة منه أن يدفع لها مسبقاً الثمانية آلاف كروزيرو التي تحتاج إليها بشدّة، فقابلها الصديق بالإيجاب في الحال؛ وكونه على علم بما يعني الأرملة، ولا أحد يعلم من يطلعه وكيف، فقد اطّلع ليبوريو على حقيقة هي أن الزنجية حين كانت إلى جانب زوجها كانت قد طلبت التوقيع عنها على الأوراق الضرورية كونها لم تكن تجيد القراءة والكتابة، وإذ علم ليبوريو بذلك فقد خطّط لعمله الاحتيالي وبنيته الاستيلاء على أرض المدّعى عليها، كما فعل سابقاً، وبطرق غير شرعية، مستولياً على ملكيات ضحايا بريئة، ضحايا خدعه الزائفة.. وهكذا اخترع الوثيقة بمساعدة الموقعين بالنيابة؛ وفي الوثيقة التي هي أساس المطالبة، فقد نسب إلى المرأة الفقيرة ديناً له، ليس بقيمة المبلغ المتواضع نسبياً، الذي كانت تنوي اقتراضه، ولكن بقيمة هي عشرة أضعاف ذلك المبلغ وعيناه على الأرض التي تحوّلت بقوة ساعد الزوج فرنسا إلى مزرعة صغيرة وبستان يثيران الحسد، ولكن، في التسلح المريع لتنفيذ المخطط المجرم فات المزوّر شيء مهم، هو تفصيل جزئي ذو أهمية كبيرة، إذ بعد الزواج بقليل، أو لنقل، منذ أكثر من خمسة عشر عاماً فإن منوال فرنسا خجلاً من كون زوجته الشرعية أمّية، تعاقد، لتعليمها القراءة والكتابة، مع المعلمة السيدة كارمليتا مندونسيا الاسم الذي تضاف إليه الأوصاف المشرفة، معلمة عدة أجيال من السرجيبيين ذوي المكانات والمراكز الكبيرة في الحياة العامة ومنهم السيد القاضي الأول نفسه. وخلال أشهر من العمل الشاق، مطبّقة معلوماتها في هذه المادة، تمكّنت السيدة كارمليتا مندونسيا، بقدرتها العجيبة ومجدها التربوي في منطقة الداخل، من أن تنتشل السيدة الجميلة جوانا من أنياب الجهل مضيئة حياتها بالكتابة والقراءة.

لقد جرى هذا منذ خمسة عشر عاماً وأربعة أشهر يا سيدي القاضي. "إنه عفريت حاذق لولو سانتوس"، فكّر القاضي وهو يصغي إلى الشاهدة؛ لقد تمكّن من الحصول على إفادة السيدة كارمليتا بأنها علّمت السيدة جوانا داس فولياس تصوير أحرف اسمها وجاء يعلن أن الأخيرة متعلمة منذ خمسة عشر عاماً.

- انقلاب جبار... ولكن ما إن دخلت المرأة الثمانينية الطيبة، "الأم الروحية للكثيرين منا"، كما قال اللّسن بعبارته المؤثرة، ومجد التربية في منطقة الداخل، إلى

قاعـــة المحكمـــة، حتى لاحظ القاضي كأنها طيلة حياتها لم تقع عيناها على الزنجية القـــوية البنـــية الجالـــسة بصمت إلى جانب لولو سانتوس؛ فقط القاضي وليبوريو ليـــبوريو داس نيفس انتبها إلى الهفوة التي ارتكبتها المعلمة العتيقة. من علّم المدّعى عليها الكتابة والقراءة؟

- نعـــم، منذ خمسة عشر عاماً علّمت جوانا فرنسا الأحرف الأولى وأساليب الكـــتابة، منقذة إياها من الأمّية، وهي نفسها هذه الموجودة هنا غير أنها الآن أقوى وأكبر سناً.

ومـــن سيناقش تأكيد المعلمة كارمليتا مندونسيا؟ عفريت اسمه لولو سانتوس وكذلك أنطونيو سلامة أو منيوتو لكونه قد ولد في بوفوا دو لانيوسو في البرتغال، فقد ألقى الدرس بصورة كاملة كما علمه المحامي، ولكي يحادث ويدرّب البرتغالي، فقد كان ينتقل إلى منطقة لارانجيراس برفقة جوانا. وأكد أنطونيو إفادة المحامي لولو وقـــال إنـــه سلف الثمانية آلاف كروزيرو إلى العمّة كما رغبت، مجيباً بذلك عن ســـؤال المتدرج الجديد في سلك المحاماة سيلو ميلو؛ وقال: وإن كانت المدّعية أمّية وإلى الوقت الذي كانته، فقد عرفها دائماً ضليعة في الحساب، والويل لمن يحاول أن يخدعها في هذا المجال!

ونجـــح انقلاب الرحمة بتغييب الشاهد الثالث عن الحضور بتحريض من لولو ســـانتوس. جوال ريس، المعروف بجوال ماو دي غاتو في الأحراج الواطئة وفي كل قرى المنطقة؛ متقاعد حذر وعليم في هذه الفنون الصعبة، خجلاً، من المحكمة، فقد رحل عن أراكاجو حتى لا يأتي ويشرح للعدالة كيف وقّع الوثيقة المزوّرة موضوع الـــدين، كما لو أنه وقّعها بطلب من جوانا فرنسا، دون أن تكون هذه الأخيرة قد طلبت منه أي شيء من هذا القبيل؛ ولكنه فعل ذلك بطلب من ليبوريو داس نيفس حامـــيه وسيده؛ ومن سحب ماو دي غاتو من قرية أراكاجو غير المدّعي مستعملاً لـــذلك علاقـــات وتـــأثيرات في بعض أوساط الشرطة حيث إن الشرطة والجريمة يـــتداخلان؟ ولمن ينفذ جوال ريس هذه الخدمات الاجتماعية؟؟ ولمن يؤدّي أجور إيجـــار الغـــرف إلى العاهرات؟ "سيدي القاضي، لمن كل ذلك؟ إلى الرجل النبيل، المحـــافظ على سمعته، غير الملوث ليبوريو داس نيفس، فيا لـــه من منافق يا حضرة الرئيس...".

لقد استحق العمل عناء الحديث مع السيدة كارمليتا وطابع التأثر في الصوت، والسفرة القصيرة إلى لارانجيراس والتّهديدات التي وجّهها لماو دي غاتو، وبطاقة الدرجة الثانية في القطار إلى لستي، والعودة المجانية بسبب عدم القدرة على الاختيار بين الوقوع في الفخ وبين التخريب المعنوي لنصرة الحق. لقد استحق العمل العناء! كل هذا، وفوق كل شيء، التوقيع خمس مرات الذي رسمته جوانا أمام القاضي على ورقة نظيفة بيضاء، دون أية نقطة حبر، ودون أي اهتزاز؛ توقيع جوانا داس فولياس الواضح البسيط غير المزخرف: جوانا فرنسا والحرف الأول يكاد يكون جميلاً يا حضرة الرئيس.

16

دون حراك، كأنها تمثال حجري منصوب على الجسر العتيق، كانت تريزا باتيستا تتابع استعدادات رحيل الطوافة فنتانيا: الأشرعة مهيأة للإبحار، يضرب فيها نسيم البحر، والمشكاة معلّقة، والمعلمان غونزا وجيريبا في المقدمة والمؤخرة، على الدفّة والمجذاف في آن: منذ قليل قفز جانواريو إلى أعلى، بهلوان، فنان، ملك طير البحر، الطائر الكبير، عصفور البحر العملاق. "هذا هو جانو، رجلي، زوجي، حبي، حياتي، موتي"؛ قلب تريزا يزداد خفقاناً، وجسدها الأهيف يرتجف، ما يجعلها تمثالاً مصنوعاً من مادة الألم. عند الأصيل، وهما يجلسان في مقهى وبار. مصر على انتظار نتيجة جلسة طلب التنفيذ الذي يتوسله ليبوريو داس نيفس ضد جوانا داس فولياس، قال لها جانواريو: "غداً، مع هزيع المدّ الأول"، وبينما يأخذ يد تريزا بيده الكبيرة، أضاف: "سأعود يوماً". ولا كلمة أخرى.. فجأة بردت شفتا تريزا وتبدّل لونهما، تجمّدتا بفعل هواء الأصيل البارد، يهب حاملاً الحزن، وعيناها في البعيد، تفكّر في الفراق الأكيد، وفجأة خرج لولو والزنجية من الشارع يقفزان فرحاً بالانتصار: سنذهب لنحتفل. عالم متناقض، الحزن والفرح يمتزجان. في بيت جوانا، وضعت الطاولة، وفتحت الزجاجات، وتقدّم لولو يحيّي تريزا ويتمنّى لها الصحة والسعادة، وأية سعادة! هو زمن الشقاء أتى؛ وفي اللحظات الأخيرة اتّكأت على صدر الرجل الذي وُلدت من أجله ولقيته متأخرة؛ مع مرارة الفراق وعنف الشعور به والغضب

الـــناتج عـــنه تعضّه مداعبة، وهو يقرّبها من صدره كأنها تريد أن تدخل تحت جلده.. في اللحظات الأخيرة من ليلة الحب، التنهدات تختنق والبكاء ممنوع، ثم جاءت موجة وغمرتهما، وجاء البحر وحمله هو... وداعاً أيها البحّار! وبقفزة مـــن الطوافة وصل جانواريو إلى الجسر قرب تريزا وأخذها بين ذراعيه. القبلة الأخـــيرة تدفـــئ الشفتين الباردتين. حب البحارة يدوم بدوام المدّ، وعند المدّ ستـــشرع فنتانـــيا باتجاه الجنوب تفتيشاً عن ميناء باهيا. كم من المرات أرادت تريزا أن تسأل كيف هي الحياة هناك، ولماذا تسأل، والأشرعة جاهزة للإبحار، والمـــشكاة معلقـــة؛ واقتربت الطوافة من الجسر وعلى المجذاف المعلم كايتانو غونزا... يبتلعان ريقيهما، يرخيان أسنانهما، ويسلمان شفتيهما لليأس، ففيهما تحترق المسافة في قبلة ملتهبة، وفيهما يذوب الموت في الحياة. وتترك تريزا على شـــفة جانواريـــو علامة وضعتها بسنها الذهبية. القبلة الملتهبة تترك على شفة جانواريو نقطة من الدم، إنها ذكرى تريزا باتيستا على طرف فمه، وشمة وشمتها ســـن ذهبـــية: نهر وبحر؛ بحر ونهر، سأعود يوماً حتى وإن أمطرت ناراً، وتحول البحر إلى صحراء؛ سآتي وسط العاصفة والإعصار تفتيشاً عن المرفأ الضائع، عن صـــدرك الحجـــري اللـــين، عن بطنك الفخاري الأملس، عن محارك اللؤلؤي وأســـنانك النحاســـية وظـــل البرونز ونجمة الذهب؛ نهر وبحر، بحر ونهر، مياه الوداع، وأمواج لا شيء آخر بعدها.. وعن الجسر، من بين ذراعي تريزا، قفز الـــبحار إلى حافة الطوافة؛ عملاق مترجل، طعمه مالح، ورائحته رائحة البحر، القـــيود في معـــصميه والأغـــلال في رجليه. تريزا تمثال من حجر، لا تتحرّك، وعيناها ناشفتان، الشمس تتحرّك في السماء، فجر من الأحزان الكثيفة؛ ليل لا نجوم فيه؛ والقمر دائماً وأبداً بلا فائدة؛ هواء البحر يضرب سريعاً في الأشرعة وفي فـــم المعلـــم جانواريـــو، الوداع الأكثر إيلاماً؛ وداعاً تيتا الفتنة؛ يتهدّج الصوت؛ وداعاً جانو الحب، يجيب قلب ممزّق في منازعة الفراق؛ وداعاً يا مياه الـــوداع؛ أيهـــا البحر والنهر؛ وأنت في خطى المحار، وفي مصارعة العواصف؛ وداعاً.

العمـــلاق مترجل وصوت البوق يمزّق الفضاء يأمر بالتحرك، وها هي الطوافة فنتانـــيا تغـــادر ميناء أراكاجو، ميناء سرجيبـــي ديل راي، وعلى المجذاف كايتا

نوغونـــزا، إلى جانب المعلم الأكبر، الهارب، جانواريو، العصفور المقطوع الجناحين أســـير الأصفاد والسلاسل... على خد مياه النهر والبحر، ارتفعت ذراع العملاق وتمايلت يده الكبيرة: وداعاً. إنها تمثال من حجر على جسر الألواح الخشبية المهترئة بفعـــل الزمن؛ هناك ظلت تريزا باتيستا مسمّرة وخنجر يحفر في صدرها. وداهمها الليل بالظلمة والفراغ والشوق والفراق: هو ذا حبـــي، بحر ونهر.

17

وأخـــيراً، الـــسن من ذهب، والقلب من جليد، وفي تمايلات رقصة الحطب والـــسامبا الدائرية، قدّمت تريزا باتيستا نجمة السامبا المحرقة، وإمبراطورة الدوران المثيرة، عرض ليلتها الأولى في باريس الليغري في الطابق الأول من مبنى فاتيكانو من مـــنطقة أراكاجو. أمام المرفأ حيث كانت الطوافة فنتانيا جاثمة، وما زال يلعلع في الميـــناء صوت البوق الصاعق يؤذن برحيل المعلم جانواريو جيريبا الذي جاء ليثير المـــشاكل ويقـــتل حـــباً من كانت هادئة القلب مرتاحة إلى أن تصنع حياتها من جديـــد.. تلـــك الحـــنجلات الأنغولية كان هو من علمها إياها؛ سفير الكرنفال، وراقـــص العـــيد. منذ احتفال التأسيس منذ سنة وحتى اليوم لم تعرف قاعة باريس الليغـــري، في أية مناسبة أخرى، ما تعرفه هذه المرة من حشد صاخب ومن حيوية وفرح تعتري شبيبة أراكاجو المخملية، عندما تنطلق أنغام فرقة جاز منتصف الليل، يزدحم الراقصون على حلبة الرقص؛ على الطاولات الممتلئة بالناس، استهلاك كبير مـــن البيرة والكوكتيل والكونياك الوطني، والويسكي المزيف الآتي من منطقة النهر الكـــبير الجنوبـــــي لاستهلاك المتصنعين. حاشية المولهين حباً، وفية: الرسام جنر أوغوســـتو بعينـــيه العميقتين تعباً. والشاعر جوزي سارايفا بأبيات الشعر المتيّمة، وزهرة قطفها عند العبور، وطبيب جراحة الأسنان جميل نجار ساحر الفن الجراحي، والمظفـــر اللّسن لولو سانتوس، وسيد الملهى السعيد الطامع في فراش النجمة فلوريا موريـــرا المعروف بفلوري باتشولا الذي، في الكمين الذي ينصبه الجميع، المرشح الأوفر حظاً لكونه رب العمل.

وبالإضافة إلى الأربعة الذين ذكرت أسماؤهم، كانت هناك على الأقل دزينتان من القلوب الخافقة، وثلاث من ذوي الميول المكبوحة إلى "رسولة السامبا الإلهية"،

كمـــا كان يقرأ في اللوحات الملونة. ولا داعي لذكر أولئك الذين، لأسباب سرية ومقتـــضيات خاصة، لم يستطيعوا المجيء شخصياً إلى الملهى للتصفيق لعرض سيدة الـــسامبا (التعبير تماماً كما هو في لوحات إعلان فلوري). واحد على الأقل أرسل من يمثّله: السيناتور الصناعي، الذي هو في رأي أولئك الاقتصاديين ورأي العجوز أدريانـــا، أغـــنى رجل في سرجيبـــي... فنراندا؛ جالسة إلى طاولة قريبة من حلبة الرقص، ترافقها بعثة من الفتيات القلقات، قد شرّفت المكان بحضورها، لقد تلقّت وكالة من الوجيه الكبير لتحرق اللعبة وتعرض عند الضرورة ما تريده المرأة الشهيرة مـــن أجل قضاء بعد الظهر في العبث بين جدران بيت العزّاب... وبعد ذلك، فإذا نالـــت إعجابه، وكانت من ذوات الشبق، كما كانت تبدو، يتعهّد الرجل الكبير عـــندها بأن يحميها: بيت معيشة، حساب خاص في المحلات التجارية، كماليات، ألواح شوكولاته، ساعات يد ذهبية، خاتم ألماس (صغير)، وحتى مرافق إذا لم يكن بد من ذلك.

... على متن البحر، في أعالي المنجو سيكو تبحر الطوافة فنتانيا، تتقاذفها الأمـــواج وتـــضرب بها ريح الجنوب. هناك جانو حبيبـــي، في الأنواء، وعلى طريق الضياع، في الليل المظلم الفارغ، لا، لا أريد تصفيقاً وهتافاً وهدايا، ولا أريد المال رزماً، ولا عقيداً يحميني، وأرى في المرافقين فظاعة، ولا أريد قصائد الـــشاعر؛ لا أريـــد(غير صدرك الأريني، ورائحتك، رائحة البحر، وفمك المالح الزنجبيلـــي. في تلك اللحظة، أطفئت الأنوار، كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، وأعلـــنت شبكة الجاز البداية وفتحت الممرات لتمر نجمة السامبا المثيرة، ووقع ضـــوء أحمـــر على حلبة الرقص: تريزا باتيستا، ترتدي السايوت وقبعة الريش والـــصندل والأساور والخشاخيش، وكلها من شركة جوتابورتو وألما كاسترو؛ جمال آلهات البحر، أو جمال الغجر، من الرأس الأخضر، أو سمراء خلاسية وطنية تتقطّـــر دلالاً وكبرياء... تصفيق... هتاف، وإعجاب، جاء فلوري بباقة زهر تعبيراً عن لطافة المكان، أما الشاعر جوزي سارابيفا فجاء بوردة طرية، وحفنة من أبيات الشعر.

في الـــوقت نفسه، ولأي شيء، لن يعتريها الضعف ولا لسبب مشابه لما حـــدث ليلة العرض الأول؛ فما كاد التصفيق يتوقف حتى استطاعت تريزا أن

تـــسمع عند إحدى الطاولات القريبة من الحلبة نقاشاً حاداً بين وضيع منحرف يـــتدرّب على استعمال سلاحه للمرة الأولى في مهنة سمسار دعارة، وفتاة متعبة بدأ يعدو عليها الزمن. كانت تريزا قد انحنت انحناءة شكر على الزهور وأبيات الـــشعر والتـــصفيق عندما لعلع صوت الرعديد بالتهديد ما جعل المرأة تجهش بالبكاء:

- سأشوِّه خلقتك؟

- رفعـــت تريـــزا نـــصفها المنحني، ويداها تحت حزامها، ومع ذلك الشرر المفاجئ في نظرها قالت:

- "شـــوِّه خلقـــتها لأني أريد أن أرى، أيها الشاب الصغير، شوِّه خلقتها أمامي إذا كانت لديك الجرأة". لوهلة ساد منظر عصبــــي: كان اللعين يريد أن يقـــوم بردة فعل، وتقدّم خطوة ناحية النجمة. هل يكون هنالك شجار كالمرة الأولى لا يُنـــسى؟ هـــل يتم تركيب سن ذهبية أخرى يقوم به بنـــزق طبيب الأسنان جميل نجار؟ ولكن الجبان لم يقم بردة فعل، فغدا محرجاً، لا يعرف أين يـــضع يديـــه وكـــيف يخفي سحنته فكلمة تريزا جعلت القانون يسود بما فيه الكفايـــة. تحية تأييد واسعة لكلماتها جاءتها من الجمهور، وفي ذلك البحر من التصفيق انطلقت تريزا باتيستا برقص السامبا، نجمة الترنح ومهنة أخرى: عندها الكـــثير وتعطـــى وتزاد، هي التي مع كل ما لها لا ترغب من الحياة في غير أن تكون سعيدة إلى جانب رجلها في البحر.

عـــند عـــصر اليوم الثاني من تلك المناسبة، ونزولاً عند طلب اللّسن وبرفقته، كانت في قصر العدل وفي غرفة من المحكمة تمّ تقديمها إلى القاضي بينيو كاردوسو، وإلى محـــامين ومـــدّعين عامين، وكتّاب قضائيين وسواهم من الأساتذة المرموقين: "تريـــزا باتيـــستا النجمة المسرحية" خجولة لكونها نجمة ولهذا التبجيل، تغدو أكثر جمـــالاً بابتسامتها المرتبكة. ظنَّ الجميع أنها نصر حديث العهد حقّقه اللّسن المعوق زيـــر النساء، وفقط رئيس المحكمة كان يعرف المغامرة، مغامرة أو أعجوبة، معلمة الحـــروف الأولى لجـــوانا داس فولـــياس العاملة المسنّة ذات اليدين اللتين كأنهما جذعان. واتّسعت نظرات إعجاب القاضي في الحال وتحوّلت إلى نظرات وإخلاص ورغـــبة: آه! إنـــه رئـــيس محكمة الدولة. وقدّم لها الإعجاب والعطف، ولكن مع

التـــزامات قـــاض يصل متعباً إلى عائلته التي أسسها قانونياً ليكون له بيت شرعي، كيف يمكن أن يفكّر في العشق، في عشيقة، في صديقة، ليكون له بيتاً عسكرياً؟

وســـط بحر التصفيق، ابتدأت الفنانة تريزا باتيستا، عبر حركات من الارتفاع والانخفـــاض، بعـــرض أخّـــاذ؛ القلب بارد كأنه جزء قائم لوحده. آه.. لو كان باستطاعتها أن تبكي، ولكن الأسد لا يبكي وكذلك البحار: يا مياه بحر الفراق، يا بحـــر الأعاصير! أين يسير المعلم جانواريو جيريبا، جانو الحب، في طريقه إلى ميناء باهيا؟ أرخت تريزا نصفها الأسفل كما علّمها؛ مشكاة أُلقيت إلى الأعماق؛ الرحم في صـــعود وهـــبوط؛ بزرة السرة زهرة؛ قلب بارد؛ جليد ومسافة؛ "آه جانواريو جيريـــبا، عمـــلاق البحـــر، ملك الطير المحوم فوق أمواج العاصفة، متى أراك مرة أخـــرى، وعلـــى صدرك أتذوّق طعم الملح ورائحة البحر، وأموت بين ذراعيك، تلهبني قبلتك؛ أيها الحب متى المرة الأخرى؟"



القسم الثاني

الصغيرة التي طعنت النقيب بسكين لقطع اللحم المجفّف

1

لا أشك في أنك إنسان مندفع، واجهت أحداثاً واختبرت الصدمات بما لديك مـــن مزايا، ولكني أسألك مع هذا إذا كنت قد رأيت إنساناً نزّ فيه الجرب، وأكل من لحمه وانفتحت جروحه وقد وُضع في كيس وحُمل إلى المحجر الصحي. قل لي إذا كـــنت قد حملت على ظهرك مسافة فرسخ إنساناً أجرب يلفظ أنفاسه الأخيرة والعفـــونة منه تفسد الهواء وصديد القيح ينسال من كيس القنّب الذي وضعته فيه لتحمله إلى المحجر الصحي. شيء يجب أن تراه يا صديقي.

فليصدّق من يشاء، وليتألم من تؤلمه الحقيقة، كانت العاهرات ولا أحد آخر، هـــنَّ اللـــواتي قضين على الجرب عندما شاع أسود ضدئاً في تلك الربوع. طريقة تقال، وأسلوب في الكلام، إذ هنا أرض مهملة وصحراء قاحلة وآخر الدنيا، ولو لم تكن شقيّات شارع كانكرومولي، لما بقي أثر حيّ لراوي الحكاية. من اهتمّ وقضى علـــى الجـــرب كانت المدعوّة تريزا باتيستا نفسها، الملقّبة بتريزا الجراحة، وتريزا المتمايلة، وتريزا التنهدات السبع، وتريزا عمل الإحسان، أسماء كلها مستحقة، كما أنهـــا استحقّت اسم تريزا الأمل، هدية من خبراء موريكابيبا؛ وهكذا انتهى الوباء وشـــوهد الناس عائدين إلى ديارهم. لقد قضمت تريزا الجرب بأسنانها بغية شفاء المصابين به، ثم لاكته وبصقته... لاكته بتلك الأسنان الحادّة، مع سن الذهب بينها، هديـــة طبيب أسنان أراكاجو، لجمالها. شيء لتشاهده فلا تنساه يا رفيقي... أنا، ماكـــسيميانو ســـيلفا، المعـــروف بماكسي، الملقّب بملك الزنجيات، مراقب المركز

الـــصحي في بـــوكين، حي أزرق وشاهد على ما رأيت، وحتى اليوم أغمض عينيّ وأرى تريـــزا بكل روعتها ترفع الكيس عن الأرض وداخل الكيس يتحرّك ويصلي مـــصاب بالجـــرب هو الشاب زكرياس. أغمض عينيّ وأرى: تذهب تريزا موازنة الحمـــل على كتفيها، منحنيةً، في طريقها إلى المحجر الصحي. تريزا: انتهى الخوف، اسم آخر أُعطي لها وربما كان الاسم الأول الذي أعطيت إياه منذ زمن طويل، فهل تعرف أيها المتميز لماذا، وكيف؟

2

لم تكن تريزا باتيستا قد أكملت الثالثة عشرة من عمرها، حين باعتها عمتها فيليـــبا بمبلغ ألف وخمسمائة كروزيرو وكمية كبيرة من المواد الغذائية وخاتم مقلّد ولكـــنه جميل مع ذلك، إلى جوستينيانو دوارتي دا روزا، النقيب جوستو، المعروف بـــالغنى والفحولية وإثارة المشاكل التي تطوف منطقة الداخل كلها وتتجاوزها إلى أبعـــد مـــن هناك. وحيثما كان النقيب يمرّ مع أزلامه، ومع قافلة من البغال المحملة والجياد المسرجة، والشاحنة والمسلحين بالبنادق ليفتتح مخيماً لأعماله المزدهرة، كان يصل الخبر أولاً مع الحصان الذي يجرُّ العربة.

لم يكـــن النقـــيب يناقش كثيراً، ولكنه كان يحب أن يلاحظ الاحترام الذي يفرضـــه وجوده. "إنهم يرتجفون خوفاً"، كان يتمتم باعتزاز، ترتو كاشوخو سائق من حملة المسدسات وهارب من عدالة برنامبوكو؛ وعندما كان ترتو يلوِّح بسكينه ولفّة تبغه، كان الخوف ينقلب إلى رعب حقيقي. لا تدفع عناء المناقشة مع النقيب، فمـــن يـــناقش أكثر يخسر أكثر وبالنسبة إليه فإن حياة الرجل لا تستحق أكثر من عشرة نحاسيات من العسل المصفّى". وكان الناس فيما بينهم يحصون عدد الأموات والكمـــائن والخـــدع في عـــراكات الديوك الهراتية والتزوير في حسابات المخزن والتعويض الذي يدفعه شيكو ماسيولا بصفة فروقات، والأراضي التي ضمّها النقيب إلى ممـــتلكاته بـــسعر المـــوز البخس وتحت التهديد بالخنجر أو البندقية، والفتيات القاصـــرات اللـــواتي اغتـــصبهن في عمـــر مبكر؛ هذا والفتيات كنَّ نقطة ضعف جوســـتنيانو دوارتي دا روزا، فكـــم من اللواتي فضّ بكاراتهنّ وهنَّ دون الخامسة عـــشرة من العمر؟ وإن عقداً من الخواتم الذهبية معلقاً في عنق النقيب جوستنيانو،

تحت قميصه، وداخل سمنة الصدر، يرنُّ في الطرقات رنين أجراس تيس يقود قطيعاً: وكلُّ خاتم في العقد رمز لقاصر فضّ بكارتها، ولا نتكلم عن اللواتي كنَّ في سن ما بعد الخامسة عشرة، فهنَّ لا يُحصين.

3

قفز جوستنيانو دوارتي دا روزا عن مقعد قيادة الشاحنة الصغيرة وكان بكامل أناقـته: طقم أبيض، حذاء من الجلد، وقبعة باناما، وبكثير من التعالي قدّم إصبعين إلى روزالفـو ولكـنه مدّ يده كاملة إلى الأم فيليبا، وبدا مع الأخيرة متحبِّباً وعلى وجهه المستدير ابتسامة:

- كيف حالك يا عمّة؟ هل أستطيع الحصول على كوب ماء؟

- تفضّل بالجلوس يا حضرة النقيب فسأجيئك بالقهوة.

وكـان النقـيب، عـبر نافذة الغرفة المتواضعة، يرمق بنظراته النـزقة الفتاة الـصغيرة المـنطلقة بعفوية في بستان الفاكهة الكثيف وقد تسلّقت إحدى أشجار غـويابا قفـزاً، طلوعاً ونزولاً، وفي أعلى الشجرة توقفت عن الحركة لتقضم ثمرة غـويابا. بـدت فتاة ذات جسد طويل أهيف ونهدين يكادان يظهران تحت قماش سترتها الشيت، وقد وضعت تنورتها بين جنبيها الطويلين. نحيلة وطويلة، وما زالت دون المـرأة في رأي فتيان الجيرة، وبعضهم من المنحرفين في المعرفة، والمسعورين في الصيد المستمر للقاصرات الميّالات بفعل الرغبات المبتدئة إلى هتك اللمسات الأولى والقـبلات والالتـصاقات. وكلهم لم يتصلوا بتريزا بل كانوا يلهون معها بلعبات الحـرب والتخفي، حتى إنّهم جعلوها قائدة لهم، ذكية وشجاعة إلى آخر الحدود. وكانـت تـسبق الجمـيع في العـدو خفيفة لا تجارى وقادرة على تسلق أعلى الأغصان... واستيقظت فيها شيطنتها بقدر قليل ليس أكثر من فضول الذهاب مع الخلاسـية السمراء جاسيميرا والسمينة سيسا للتجسُّس على حوض سباحة الفتيان في النهر.

عيـنا النقيب ترافقان الصغيرة من غصن إلى غصن، وكان تنقّلها يجعل تنورتها تتطاير لتنكشف عن لباس ملطّخ بالطين، ويزداد النقيب جوستنيانو دوارتي دا روزا تحديقاً ليرى ويتخيّل بصورة أفضل.

وكـــذلك عيـــنا روزالفـــو الناعستان المتعبتان اللتان بفعل الكاشاسا تبقيان مطـــرقتين إلى الأرض إجمـــالاً، قد دبّت فيهما الحياة فجأة عندما نظر إلى الصغيرة تريـــزا، وراحـــتا تـــصعدان عبر الفخذين والمؤخرة. وكانت فيليبا تترصّد نظرات جوســـتنيانو دوارتي دا روزا ونظـــرات زوجها روزالفو وهي تصنع القهوة. "إذا تأخـــرتُ فـــإن الـــزوج سيبدأ بضم الصغيرة إلى صدره". وكانت فيليبا قد بدأت تلاحظ نوايا زوجها تجاه قريبتها منذ زمن طويل، وهذا سبب إضافي وقوي يصبّ في خانة نوايا النقيب الأكيدة. ثلاث زيارات خلال أسبوعين، وحديث طويل حميم وإضاعة وقت. متى، في النهاية، يقرِّر النقيب أن يفتح أوراقه على الطاولة ويتحدث بالأعمال؟ في رأي فيليبا إنه آن الأوان لوضع حدّ لهذه المجاملات والأوليات، إذ إن النقيب قد عرض ما فيه الكفاية من الغنى والسلطة والرجال وأبدى الرغبة والقدرة، فلمـــاذا لا يـــتكلم دفعة واحدة؟ أو يظن أنه سيأخذ الباقة العطرة مجاناً؟ إذا كان يتخـــيّل أن بإمكانـــه أخذ الفتاة بهذه الطريقة فهو إذاً لا يعرف فيليبا؛ إنّ النقيب جوســـتو صاحب أراضٍ واسعة وغابات مزروعة وقطعان ماشية وأفضل مخزن في المدينة وزعيم رجال عصابات وقاتل وعنيف وسيئ، ولكن كل هذا لا يجعله سيداً علـــى تريزا وحراً في التحكُّم بمصيرها، وليس هو من أطعمها وألبسها خلال أربع سنوات ونصف، وإذا أرادها فيجب أن يدفع.

لـــيس هو من أطعمها وألبسها ولا روزالفو أبو الكاشاسا والكسل والإهمال بعيـــنه وبقايـــا الرجل والعبء على ظهر فيليبا. فلو توقف الأمر عليه لما استطاعوا إنقاذ البائسة اليتيمة الأب والأم، ومع هذا، تراه الآن يلحس شفتيه بلسانه عندما تمرّ الـــصغيرة ويرافق بنهم تكوين جسدها وتكوُّر ثدييها ومنحنيات الأرداف الأولى، وبالفهم نفسه يرافق بعينيه سمنة الخنـــزير في الحظيرة... رجل ضحل لا يفيد بشيء ولا يعرف إلا أن يأكل ويشرب.

مـــن الذي يقوم بأعباء البيت، ويشتري الطحين والفاصولياء واللحم المجفّف والملابـــس المستعملة وحتى كاشاسا روزالفو؟ إنها هي، فيليبا بعائدات عمل يديها، تـــزرع، تربـــي الدواجن وتبيع إنتاجها أيام السبت في معارض السلع. صحيح أن تريـــزا قـــد شاركت في النفقات وساعدت في أعمال البيت والبستان، ولكن ما كلفـــته، كثيراً كان أو قليلاً، من أكل وملابس وتعلُّم الأحرف الأولى والحسابات

هو أضعاف ما أنتجته، فمن الذي أعطاها كل ذلك؟ هي الخالة فيليبا شقيقة مارينا أم تريـــزا، التي ماتت مع زوجها في حادثة الباص منذ خمس سنوات، والآن عندما ظهر لتريزا من يتقدّمون لها، فمن العدل أن تكون هي فيليبا من يقبض ويستلم.

وقد تكون ما تزال تريزا حصرماً و لم يحن وقت قطافها بعد، فإذا نضجت بعد ســـنتين فسيكون وقت قطافها ناضجة قد حان، وهي، كما هي الآن، صغيرة جداً ولـــيس بالإمكان إنكار ذلك. وإنه لعمل سيئ إعطاؤها إلى النقيب الآن، ولكنها، فيليـــبا، ستجنّ إذا اضطرت إلى الانتظار أو اعترضت. أتنتظر لتراها في الفراش مع روزالفـــو أو في الأحـــراج مـــع فتى من فتيان الجيران؟ وإذا اعترضت جوستنيانو فسيحمل هذا الأخير الفتاة عنوة، بالعنف، ومجاناً في النهاية. ستكمل تريزا بعد أيام قصيرة الثالثة عشرة من عمرها، وهي، فيليبا، كان لها من العمر أكثر من هذا بقليل عـــندما أقام لها بورسيانو حفلة العيد، وفي الأسبوع نفسه نال منها الإخوة الأربعة لبورسيانو والأب، وإذ لم يكتفوا، فإن العجوز أتلفينو قد مسح بها شاربيه، وكانت رائحـــته شـــبيهة برائحة الأموات؛ و لم تمت فيليبا بسبب هذا و لم تعوَّق، و لم يكن ينقـــصها سوى أن تتزوّج لدى الكاهن وبمباركته. وأين تجد موهبة في حمل القرون كموهـــبة روزالفـــو التي لا مثيل لها في الجوار؟ أبو قرون بقدر ما هو مدمن على الكاشاسا..

يقتـــضي الأمر معرفة إدارة المحادثات حصولاً على الحد الأقصى؛ فهي بحاجة إلى بعـــض المـــال الإضافي لتذهب إلى طبيب الأسنان وترتّب نفسها قليلاً فتشتري بعـــض الملابس وزوج أحذية. أصبحت مهملة مع الوقت، و لم يعد الرجال يسعون وراءهـــا، وعـــندما يتوقفون وينظرون فلكي يستطلعوا الوقت الذي تنضج فيه تريزا.

إن النقيب إذا أراد الصغيرة فيجب أن يدفع سعراً مرتفعاً، ولن يكون السعر ما دفعـــه بدل الكثيرات اللواتي أكلهنّ. إنه عندما يكتشف فتاة تروق له عمراً وجمالاً يبدأ بالتردُّد على الأبوين ويُبدي الصداقة، آتياً معه بعلبة من القهوة وكيلو من سكر وبعـــض الهـــدايا المغلفة بالورق الأزرق، والشوكولاته، ويصبح صوته هادئاً ويبدأ بإغـــراء الـــصغيرة بقطعة حلوى ثم بالوعود. إنه كريم مبذّر في الوعود، ولكنه في الحقيقة بخيل، هذا النقيب جوستنيانو دوارتي دا روزا.

في يـــوم ما، ودون سابق إنذار، قد يضع الصغيرة في الشاحنة عنوة أو إغراء، وهو يضحك في وجه أهلها. فمن لديه الشجاعة للشكوى أو الاعتراض؟ أليس هو الـــزعيم الـــسياسي في المنطقة؟ ومن يعيّن مدير الشرطة؟ أمّا المكلّفون الرسميون في الدولة، أفليسوا من مسلحي النقيب؟ ويعرف الجميع أن رئيس المحكمة يشتري من مخـــزن جوســـتنيانو دون أن يدفع وهو مدين للنقيب بالمال، ومع ذلك فإن رئيس المحكمـــة هذا يستطيع أن يُعيل زوجته وأولاده الطلاب الثلاثة المقيمين في العاصمة بيـــنما هو هنا في هذه الحفرة يُعيل فتاة هوى، وهل أن هذه المصاريف قائمة على مرتب الجوع الذي يدفع للقضاة؟ فكيف العمل، أجيبوا إذا كنتم تعرفون!؟

وقـــد حدث مرة أن جوستنيانو أوقف الشاحنة عند باب دار "فنسلو" والد إحـــدى القاصرات التي ما يزال صدرها منبسطاً وتدعى ديفا. وبحركة من النقيب إلى القاصـــر، ودون أيّـــة كلمة أو تفسير أخذها معه، فذهب فنسلو إلى القاضي ومدير الشرطة فروى ما حدث متوعِّداً مهدِّداً بالقتل... ووعد القاضي بالتحقيق في الأمـــر فتبيّن له أنّ رواية المدّعي ليست حقيقية وأن الخطف والاغتصاب لا أساس لهما من الصحة. وأمام القاضي وقف مدير الشرطة يعدُ بعمل سريع وتحرُّك فوري، فوُضـــع المدّعي فنسلو والد القاصر في السجن حتى لا يقلق الهدوء العام بادعاءات كاذبـــة ضـــد مواطـــنين شرفاء، ولكي يقطع مدير الشرطة دابر التهديد ويفرض الاحتـــرام، أرسل إلى السجين فنسلو من أعطاه أمثولة أقامه بالضرب فيها وأقعده، وبالمقابـــل، وبينما يخرج الأب المحزون من النظارة في اليوم التالي، يجد الابنة ديفا، وقـــد أُعيدت لـــه مع رسالة شفهية من النقيب تقول: "كانت مفتضّة البكارة منذ وقت طويل، الكلبة".

لا تريد فيليبا إلا المفاوضة والحصول على بعض الأرباح؛ فإن تريزا وإن كانت صـــغيرة، فهـــي الرأسمال الوحيد الذي يبقى لها. ولو كان بالإمكان الانتظار عدة ســـنوات، لكانت بالتأكيد ستحقّق أفضل الأرباح لأن الصغيرة تنطلق بقوة، ونساء العائلة كلهنّ جميلات إلى حدٍّ كبير ومحظوظات، يتصارع من أجلهنّ الرجال. حتى فيليـــبا بأسنانها البشعة ما زالت تحتفظ بسمة من الجمال في حركة الردفين والتماعة العينين. آه، لو كان بالإمكان الانتظار! ولكن النقيب قد خطا خطواته الأولى و لم تعد فيليبا قادرة على فعل أي شيء.

4

اخترق صوت فيليبا صمت النوايا والحسابات: "تريزا"، نادت: "تعالي إلى هنا يا عفريتة".

ابـــتلعت الصغيرة ما في فمها من الغويابا، وقفزت، عن الشجرة، راكضة إلى المنـــزل، والعرق يلمع على الوجه النحاسي، وبدا الفرح في عينيها وعلى شفتيها!

- هل ناديت، يا خالة؟

- اسكبـــي القهوة.

ذهـــبت الصغيرة وهي ما تزال تبتسم لتأتي بصينية الشاي النحاسية، وفي الممر أمـــسكتها فيليبا من ذراعيها، وأدارتها إلى الخلف فإلى الأمام وهي تعرضها كأنما لا تريد أن تبيعها:

- "ما هذه الأعمال؟ ألا تلاحظين الزيارة؟ قبل كل شيء اطلبـــي البركة من النقـــيب". أخـــذت تريزا اليد السمينة ذات العروق الناتئة ووضعت شفتيها على الأصـــابع المـــثقلة بخواتم الذهب والألماس فحدّقت في أجملها وهو كناية عن خاتم أخضر:

- البركة، من السيد النقيب.

- باركك الله.

ووضـــعت فيليـــبا يدها على كتف الصغيرة بعد أن داعبت وجهها قليلاً، ثم أطرقت تريزا أمام روزالفو وقالت:

- البركة يا عمّي.

أحسّ روزالفو بحرقة من الغضب في حنجرته: آه للحلم الدفين! طيلة سنوات وســـنوات، يراها تكبر؛ يكتمل تكوينها يوماً بعد يوم، ويتكهّن بجمالها النادر، إنها إنتاج أجمل مما كانت عليه أمها كاريتا الفاتنة وخالتها فيليبا حين كانت فتاة عامية تدور حوله وتلهث في أثره، فأنقذها روزالفو من حياة البغاء وتزوّج منها. منذ متى يحصي على العجوز مشاريعها؟ فجأة جرت من تحته الماء ووقفت الشاحنة في الباب تنتظـــر وتـــرتو كاشوخو وراء المقود؛ لقد علم روزالفو بالأمر منذ زيارة النقيب الأولى. إذاً، وبحـــق الـــشيطان، لماذا لم يقم بأية حركة، ولم يقدّم الساعة ولا ورقة الحكم وتاريخ الموت؟ لماذا لم يأتِ الوقت بعد؟ لأنها ما تزال طفلة غير بالغة، ومن

يعــرف جيداً هو روزالفو: "أنا من يعرف جيداً، إذ أتحسس عليها عند الفجر؛ و لم يحن الوقت بعد لتعرف رجلاً يا فيليبا، ثم إن بنت الأخت لا تُباع، إنها الابنة اليتيمة لـــشقيقتك التي ماتت، لقد انتظرت كل هذه السنين بصبر ورغبة يا فيليبا، وبيت النقـــيب، كمـــا تعرفين، هو الجحيم. إنها ابنة أختك يا فيليبا وما ستقومين به هو خطيئة، خطيئة مميتة، ألا تخافين عقاب الله؟"

- "لقد أصبحت فتاة راشدة" قال جوستنيانو دوارتي دا روزا ولسانه يرطب شفتيه الغليظتين، وفي عينيه الناعستين نظرة صفراء.

- "أجل لقد أصبحت امرأة" صرخت فيليبا لتبدأ المفاوضات.

كـــذب، وهـــراء، تعرفين أنه كذب يا فيليبا، أيتها العاهرة العتيقة الفاحشة، والتي لا قلب لها، لم تأتِ عادتها الشهرية بعد و لم تنـــزف دماً، إنها طفلة، قريبتك، ومن دمك. وضرب روزالفو على فمه بيده حتى لا يصرخ: آه. لو كانت فتاة بالغة وقـــادرة علـــى استقبال رجل لأخذتُها زوجة لي، وقد جهّزتُ كل شيء من أجل ذلـــك و لم يعد ينقص سوى حفر القبر لأدفنك فيه يا فيليبا الفاحشة ذات الصدر الـــذي لا رحمة فيه، وأنت تتاجرين ببنت أختك. وخفض روزالفو رأسه: فالأكبر من الصدمة والغضب هو الخوف.

مدّ النقيب رجليه القصيرتين وفرك يديه الواحدة بالأخرى وسأل:

- بكم يا عمّتي؟

اخـــتفت تريزا من ناحية المطبخ، وظهرت في مخزن التبن، وعند الرجوع مع الكلبة ركض الاثنان وراحا يلهوان ويدوران فوق الأرض. نبح الكلب فضحكت تريـــزا، هـــي أيضاً حيوان ريفي بريء وصحّي. لمس النقيب جوستو عقد الخواتم وعيناه الناعستان تكادان تغمضان:

- قولي كم تريدين؟

5

تـــناول جوســـتنيانو دوارتي دا روزا رزمة النقود من جيبه وراح يعدّها ورقة ورقة بتمهُّل وامتعاض. لا يروقه أن يتخلّى عن المال، ويحسّ بوجع تقريباً عندما لا يبقى له مخرج سوى أن يدفع أو يعطي أو يردّ.

- فقط، احتراماً، لأنك كما قلت ربيت الشابة وأعطيتها لتأكل وتتعلّم. وإذا كـــنت أعطـــيك هذه المساعدة فلأنني أريد ذلك. ولو كنت أريد أن آخذها بأية طـــريقة فمـــن الذي يمنعني؟ نظر نظرة احتقار ناحية روزالفو وبلّل إصبعه بلسانه ليفصل بين الأوراق المالية بشكل أفضل.

كانـــت عينا روزالفو ثابتتين في إطراقهما إلى الأرض. يحسّ بصدى الأوراق المالـــية المتعاقـــبة بغضب وخوف وعجز عن التحمّل. هذا المال الذي تنتزعه فيليبا مقابـــل فعلـــتها الفظيعة سيبقى محرّماً عليه، إنّه لن يرى حتى لونه إلا إذا تمكّن من سرقته، والسرقة مجازفة كبيرة. آه. لماذا انتظر طويلاً تنفيذ المخطط المكتمل في رأسه تفصيلاً إثر تفصيل؟

مخطّـــط بسيط، سهل، سريع التنفيذ! أصعب ما فيه حفر المكان الذي سيدفن فيه الجثة، ولكن روزالفو كان يعتمد، حين تأتي الساعة، على مساعدة تريزا. أجل، علـــى تريـــزا. فمن غيرها المستفيد من موت فيليبا؟ ستتحرّر من العبودية المنـــزلية وستـــصبح زوجة روزالفو، سيدة البيت والبستان والدجاجات البياضة والخنازير. ظـــلّ خلال أشهر وأشهر يصمّم ويطور ذلك المخطط وهو يرى قريبة فيليبا تكبر وتـــصبح صبية يوماً بعد يوم. وراح يلاحظ تكوّر ثدييها ويرافق الطيات الأولى في بطنها الذهبـــي.

عندما كانت فيليبا تنام نومها الثقيل عند الفجر الخافت، كان هو يراقب تريزا في سريرها الحديدي أو مستلقية فوق الأرض بلباسها القذر وهي تفتح رجليها؛ من يدري إذا كانت تحلم هي الأخرى! وكان يُشبع نظره من الجسد العاري الذي اتخذ أشـــكالاً ليست نهائية بعد ولكن صلبة وجميلة. ولم يكن بحاجة إلى أن يلمسها، أو أن يلمـــس نفـــسه، وكان يكفي أن يراها حتى تصعد اللذّة إلى صدره، وتدخل في لحمه، وتجعل العرق ينبع منه.

تخيّل اليوم القريب الذي كانت ستبلغ فيه تريزا سن الرشد، وتصبح امرأة. في يـــوم العـــيد هذا كان روزالفو سيذهب لإحضار اللازم من مخبأ الغابة ويقوم ليلاً بالعمـــل... الـــرفش أداة متعددة الاستعمالات ويكفي للإجهاز على فيليبا وحفر مدفـــنها قبراً على القياس، دون صليب ودون "يرقد هنا"، فالشقية لا تستحق كل هذا، وكان روزالفو قد سرق الرفش من بستان تيماتيو منذ أكثر من ستة أشهر ثم

أخفـــاه، ومـــنذ ذلك الحين كان قد قرّر أن يقتل فيليبا عندما تصبح تريزا في سن البلوغ.

لم يكن يتصوّر سوى أن اختفاء فيليبا سوف يقلق الجيران والمعارف ويقود إلى أســئلة واستقــصاءات... وأقل من ذلك هو معارضة تريزا وخروجها للدفاع عن خالتها إن أنكرت عليه المساعدة و لم تقبل به رجلاً. وأي شيء آخر لم يكن يستقر في عقـــل روزالفـــو: فقد اكتفى بسرقة الرفش والحبل وتخيُّل المخطط: يُجهز على فيليبا حين تكون المكروهة نائمة، فهي عندما تكون متمدّدة فلا يظن أحد أن الميت يكـــون غير ما هي. في السرير، وهو يتمدّد إلى جانب زوجته، كان روزالفو يرى الـــرفش يشقّ جمجمتها ووجهها... وكان يتخيّل وهو يحفر في ظلمة الليل الوجه المـــشوّه وقـــد غدا قطعة من الدم: اذهبـــي وتدبّري فحلاً في جهنم أيتها العجوز العاهـــرة الفاســـقة. وعـــند سماع صوت الرفش في رهبة المكان وهو يحطّم العظام والغـــضاريف فإنـــه يحـــسّ بمنتهى اللذّة. و لم يكن روزالفو يغامر بأبعد من تلك المخططات والتصورات، فهي تكفيه وزيادة، لتملأ أيامه الفارغة وتعطي الكاشاسا طعمـــاً، وتمنحه أملاً. الحياة والموت ولدا من دم تريزا الأول، حياة روزالفو وموت فيليبا.

أما الآن فإن التصاميم والأحلام قد تبدّلت بين يدي النقيب بسبب فيليبا المرأة الـــسيئة إلى حـــدّ بـــيع ابنة أختها اليتيمة، والتي لا مثيل لها في العالم. لماذا لم يضع روزالفو خطته موضع التنفيذ، ولماذا بقي ينتظر أن ينفر الدم من تريزا ملطخاً وردها الذهبية الصغيرة فيجعل منها صبية بالغة ومهيّأة؟ لماذا لم يتصرّف من قبل و لم يقدّم دفعة واحدة زمن الحياة والموت، فأي سوء كان ذلك؟ والآن من سيقوم بكل ذلك هو النقيب، لقد باعت فيليبا تريزا الصغيرة، ابنة أختها اليتيمة فيا لها من خطيئة مميتة.

– "من كان سيمنعني، قولي". استدار جوستنيانو باتجاه روزالفو.

– هل كان سيوقفني أحد يا روزالفو؟ أنت، ربما؟

وطلع صوت روزالفو من التراب، من غبار الأرض، من كهوف الخوف!

– لا أحد، لا، أيها السيد. أنا؟ لينقذني الله ويحرسني.

بالنـــسبة إلى فيليـــبا، تمّت الصفقة، وفي ساعة الدفع القاسية تحبّبت حذرة ولكن واثقة:

– قل لي، سيادتك؛ يا حضرة النقيب، أين كنت ستجد صبيةً موهوبة مثلها؟ تعـرف القـيام بعمل كل شيء، داخل البيت وخارجه، تعرف القراءة والحساب وتـذهب وحـيدة للبيع في المعرض، فأين كنت ستجدُ جميلة مثلها!؟ هل في هذه المديـنة مـن فـتاة تصل حتى قدميها؟ لكي تجد واحدة مثلها يجب أن تذهب إلى العاصمة، هناك ربما! ولكن من سيتمتّع بها، أليس سيدها يا حضرة النقيب؟

أعطاها الورقات المالية بتمهل قائلاً لها إنه غير نادم، لا يتراجع، ويفي بوعده:

– أقـول لك يا حضرة النقيب إن شخصاً قد جاء إلى هنا، شخصاً مستقيماً وليس أياً كان يعرض الزواج على تريزا، صدّق.

– زواج؟ ومن هو، وإن أسأت السؤال؟

– الـسيد جوفنتينو، لا أدري ما إذا كنت تعرفه. شاب يمتلك حقولاً واسعة مـن الذرة الصفراء والمانديوكا ويبعد مكانه من هنا مسافة ثلاثة فراسخ إلى ناحية النهر. رجل شغول.

6

تذكّـر روزالفو في أيام المعرض، يوم السبت بالذات، وبعد ما باع جوفنتينو أحمـال الذرة الصفراء والبطاطا الحلوة وأكياس الطحين جاء يجري محادثة ويحكي حكايات ويعلّق على أحداث، وظلّ مدة طويلة معهم. وتحرّك النـزق في فيليبا، إذ ظنّت أنها الغاية من الإلحاح، ولكن روزالفو علم بنوايا ذلك الشخص وسعيه خلف الـصغيرة، وهذا هو الصحيح. وكانت النيّة، في أن يضطجع معها، ولكن لم يكن هـناك تفسير لعمل ذلك، فجوفنتينو كتوم و لم يكن يذهب إلى أبعد من النظرات، ومن كلمة إلى أخرى، وفي أقصى حد، كان يدعو روزالفو إلى جرعة، ويقدِّم البيرة إلى فيليـبا، والغوارانا إلى تريزا. وكانت فيليبا تتأكّد من نصفها الأسفل الإغرائي كما في الزمن السعيد، ووصل جوفنتينو، نهار أحد، يشدُّ ربطة عنق، آتياً معه بذلك الحديث عن الزواج. كان يومها محظوظاً إذ غدت فيليبا غاضبة، متوحشة، وأصبح طلـب الزواج مسألة مضحكة. كانت قد قضت نصف ساعة في الغرفة، تتصابى، بيـنما الـشاب في الصالة مع روزالفو وزجاجة الكاشاسا، وعندما أطلّت أنيقة، معطّـرة، فبدلاً من أن تجد مموّلها في زيارة حب لقيت طالباً ليد ابنة أختها، ورمت

الـــشاب خـــارج البيت، فهل كان ذلك الطلب ممكناً؟ أين تلقّى طلباً للزواج من صـــغيرة في ســـن الثانية عشرة؟ إنها ليست بالغة بعد!! وبدت فيليبا العمّة الحريصة على حفيدتها، الأكثر غضباً وانكساراً.

- "سأنتظر وأعود"، أعلن جوفنتينو وهو يذهب لتوِّه.

لـــن تـــصل إلى حضن جوفنتينو ولا إلى حضن روزالفو، وانتهى النقيب من القول وأعاد القول إن ألفاً وخمسمائة كروزيرو، مبلغ كبير يا سيدة فيليبا.

- كرّر القول، إن شئت، ريثما أعدّ النقود.

انتـــزع ورقة من دفتر الحساب الصغير، ورسم المبلغ فوقها ووقّع... التوقيع معقّد ولكن النقيب يعتزّ به.

- خذي هذا المبلغ للمشتريات من المخزن. تستطيعين أن تشتري بالجملة أو تأخذي حاجاته بالمفرّق، ألف كروزيرو لا تنقص نحاسة واحدة.

رفع روزالفو نظره إلى المال... طوت فيليبا الأوراق المالية ووضعتها في الورقة حـــيث وقّع النقيب أمر السماح لها بالمشتريات، ووضعت الرزمة الصغيرة في أسفل لباسها. ومدّت يدها نحوه، فسأل جوستنيانو دا روزا:

- ماذا؟

- الخاتم. سيادتك قلت إنك ستعطي الخاتم.

- "قلت إني سأعطيه إلى الفتاة، إنه مهرها"، وضحك: "جوستنيانو دوارتي دا روزا لا يترك أحداً للإهمال".

- أنـــا أحتفظ به يا نقيب. فتاة كهذه لا تعرف قيمة الأشياء، فقد تضيّعه أو ترميه في مكان ما. أحتفظ به لها، إنها قريبتي ولا أب لها ولا أم.

نظر النقيب إلى وجه المرأة شزراً؛ إنها غجرية رهيبة.

- لقد دخلت في الاتفاق، أيها النقيب، أليس كذلك؟

جاء بالخاتم ليعطيه للصغيرة ويكسب مودّتها؛ لا قيمة له، إنه زجاج ملوّن وصفيح مذهّب، وانتزعه من إصبعه: ذهب مقلد، زمردة مزيّفة، حجر أخضر جميل، في النهاية ليس من سبب يدعوه لاستمالة الصغيرة، فقد دفع السعر المتفق عليه وهو السيد.

نظّفـــت فيليـــبا الحجـــر بقماش فستانها، ووضعت الخاتم في الإصبع وأبدت الإعجـــاب بـــه وهي تديره باتجاه ضوء الشمس، راضية. ليس أحب إليها في هذا

العالم من السلاسل والأساور والخواتم. فقد صرفت كل الفائض المالي التعيس على خشاخيش باعة الحقائب المتجوّلين...

سحب النقيب جوستو رجليه ووقف يرنُّ حول عنقه عقد الخواتم الذهبية، جرس العذارى، وغداً، يُضاف إليه خاتم ذهبي جديد، عيار ثمانية عشر قيراطاً.

- الآن، نادي على الصبية، سأذهب في الحال.

وهي ما تزال منبهرة بالخاتم رفعت فيليبا صوتها:

- تريزا؟ تريزا، عجّلي.

جاءت الصغيرة برفقة الكلب ووقف الاثنان بالانتظار:

- هل ناديت، عمّة؟

آه. لو لم يكن روزالفو مشدوداً إلى الأرض، ولو أضيئت في قلبه شمعة واستطاع أن يقف على رجليه. يا إلهي كيف يجب أن يكون الزوج إذا كان واقفاً أمام فيليبا! روزالفو يغلق فمه قسراً، تشتعل في صدره الشتائم واللعنات فتكاد تخنقه. فيليبا، أيها الطاعون، المرأة التي لا قلب لها ولا أخلاق، أيتها الأم المنحرفة! إنك ستدفعين في يوم عقاب خطيئتك المميتة، فيليبا، الله يطلب الحساب، وابنة أختك يتيمة لا تُباع، ابنة بالتبنّي، ابنتنا فيليبا، بيعت كما يُباع الحيوان... إنها ابنتنا أيها الطاعون الأسود.

عبر انبهارها بالخاتم، تماوج صوت فيليبا شبه دافئ:

- تريزا إنك ستجمعين أشياءك كلها وستذهبين مع النقيب، وستقيمين في بيته، وستكونين مطيعة له هناك حيث ستمتلكين من كل شيء، وستكونين سيدة راقية، والنقيب رجل طيب.

بشكل عام، لم يكن من الضروري تكرار الأوامر إلى تريزا، في المدرسة كانت المعلمة مرسيدس تُثني على إدراكها السريع وذكائها المتوقد وعقليتها المتأهبة، وفي لحظة واحدة، تعلّمت أن تقرأ وتكتب. ولكن هذا النبأ لم تفهمه تريزا:

- أقيم في بيت النقيب؟ لماذا يا خالة؟

من أجاب عن السؤال كان جوستنيانو دوارتي دا روزا نفسه. انتصب واقفاً ويده ممتدة إلى الصغيرة:

- ليس من الضروري أن تعرفي لماذا، لقد انتهت الأسئلة ومعي تصغين وتطيعين، اعرفي هذا جيداً وتعلّميه مرة واحدة. هيا.

اتجهـت تريزا إلى الباب منسحبة ببطء، فأمسكها النقيب من ذراعها؛ سمين، طويل، ذو وجه مستدير، يكاد يكون بلا رقبة، ومع كل ذلك الجسد الضخم كان جوستنيانو قوياً ليّن الحركة، خفيفاً، سريعاً، يجيد الرقص، وقادراً على كسر طابوقة بضربة من قبضة يده.

– دعني. قالت تريزا وهي تتشبث في الأرض بقدم واحدة.

– هيا.

كان يسحبها عندما عضّت الصغيرة يده بقوة وبكل ما استطاعت أن تعضّ، فتـركت أسـنانها علامـة من الدم في الجلد القاسي الذي يكسوه الشعر، فانقضّ النقيب عليها لكنها اختفت في الغابة.

– ابنة الزانية! عضّتني وستدفع ثمن فعلتها. ترتو! ترتو!

صرخ بالمرافق الذي يغفو في الشاحنة: "هنا، ترتو! وأنتم أيضاً!"

وتوجّه إلى العمّة: "لنذهب ونأتِ بالفتاة، ليس لديَّ وقت أضيّعه".

انضمّ ترتو كاشوخو إليهم وخرج الجميع إلى البستان.

– وأنت يا روزالفو، ماذا تفعل هنا واقفاً؟

استدارت فيليبا نصف استدارة وتفرّست في الزوج:

– ألا تـأتي؟ أعـرف ما تريد أيها التيس القليل الحياء، تعالَ قبل أن أفقد صبري.

اللعنة على هذه الحياة الشقية، ماذا يستطيع سوى أن ينضم إلى الآخرين؟

ولكني لا أذهب بإرادتي، هذه الخطيئة يا الله ليست خطيئتي، إنها خطيئتها هي وحـدها امـرأة السوء التي تعرف أن بيت النقيب هو الطاعون والجوع والحرب. وانضم روزالفو إلى عملية صيد تريزا.

دامت العملية ساعة تقريباً، وأكثر، ومن يدري، فالنقيب لم يسجّل الوقت في ساعة يده ذات العقارب الدقيقة، ولكنهم كانوا جميعاً يضعون أيديهم على أفواههم عـندما تمكّنوا في النهاية من الإحاطة بها في الغابة الكثيفة، وكان روزالفو قد ذهب مـن الناحـية الأخرى... الكلب لم ينبح في وجهه ولكنه نبح في وجوه الآخرين، وللمـرة الأخـيرة لمس روزالفو جسد تريزا وضمّها بين ذراعيه وأخذها إليه من صدرها ورجليها... وقبّلها قبل أن يسلّمها.

ووجّه ترتو رفسة عنيفة إلى الكلب فأسقطه أرضاً، كاسراً له إحدى قوائمه ثم ذهب ليساعد روزالفو، فأخذ تريزا من ذراعها بينما روزالفو يمسك ساحباً بالذراع الأخرى محاولاً أن يبدِّد شحوبه بالضحك. كانت الفتاة تحاول أن تعضّ، تغالب، وعيناها تقدحان شرراً، وفرك بيده الغليظة المفتوحة مرة، مرتين، ثلاثاً، أربعاً... خيط من الدم انهمر من الأنف، ابتلعته تريزا شيئاً فشيئاً. لم تبكِ. القائد لا يبكي. هكذا تعلمت من الفتيان أثناء اللهو الصبياني في لعبة الحرب.

- هيا.

سحباها إلى الشاحنة هو وترتو كاشوخو. ومشت فيليبا باتجاه البيت وحجر الخاتم الأخضر يلمع تحت أشعة الشمس. وقف روزالفو في مكانه خائر القوى ثم مشى إلى حيث الكلب. كان الكلب يتلوّى ألماً بسبب قائمته المكسورة.

على جانب الشاحنة كان مكتوباً بأحرف زرقاء زاهية: باتجاه القدر. ولكي يُجبرها على الصعود وجّه لها جوستنيانو دوارتي دا روزا مرة أخرى واحدة من الصفعات القوية. وهكذا أبحرت تريزا باتيستا في طريق قدرها المأساوي طريق الطاعون والجوع والحرب.

7

رفعاها إلى داخل الغرفة وأغلقا الباب. كان عليهما أن يأخذاها من رجليها وذراعيها بعدما قفز جوستنيانو وترتو كاشوخو من الشاحنة. الغرفة الصغيرة، المظلمة، ليس فيها غير نافذة مسيّجة بأسلاك مربّعة يتسلّل عبرها الضوء والهواء. ووضع على الأرض فراش عريض مزدوج وعليه شرشف ووسائد صغيرة وبالقرب منه إناء للتبول. وكانت صورة زيتية لمريم والملاك جبريل معلّقة على الحائط إلى جانب سوط من الجلد الخام. كانت الغرفة تحتوي سابقاً على سرير، ولكن، وقع إطار السرير مرتين خلال تطورات ليلة المجون في كل مرة: مع الزنجية أوندينا القفزة الشيطانية، ومع غراسينيا المرتعبة التي جُنَّ جنونها في ذلك الملجأ. بعدها قرّر جوستنيانو أن يُلغي السرير ووضع الفراش أرضاً عند المكان الذي تأتيه الشمس أسهل وأكثر راحة.

وكان يمتلك غرفة كهذه في منزله في المدينة، خلف المخزن. وكلتاهما متشابهتان تقريباً ومخصصتان للغرض نفسه: نزوات النقيب جوليو مع العذارى

اللواتي يقطفهن عبر تفتيشه عنهن أو اللواتي يستدلّ عليهنّ. كان يفضّل الجديدات، وبقـــدر ما تكون حديدة تغدو مفضّلة، وعندما كان يوصي عليهنّ يفرض أن يكنَّ عذارى بالدليل والبرهان، ومن اللواتي تقلّ أعمارهن عن خمسة عشر عاماً وهنَّ ما يـــزلن برائحة الحليب كما قالت لـــه فنراندا عاهرة أراكاجو التي تتظاهر بالآداب، عـــندما كانـــت توكل إليه بالفتاة زيفادوترا التي قالت إنها ما تزال برائحة الحليب ولكـــنها كانـــت قـــد مارست الدعارة منذ أكثر من عام، فنراندا لا تستحق إلا الـــضرب! اللواتي هنَّ دون الخامسة عشرة، وعذارى، يستحققن شرف وضع خاتم الذكرى في العقد الذهبـــي. وجوستنيانو دوارتي دا روزا، كان يتصرّف باستقامة في مـــا يتـــصل بخصوصياته، فهناك من يهوى جمع الطوابع بالآلاف في جميع أنحاء العالم، من ملك إنكلترا المتوفّى، إلى زوررواسترو كورينفا الموظف في البريد والذي عـــنده زوجة جميلة، وهناك هواة آخرون يفضّلون جمع الخناجر كما يفعل ميلتون غـــويدس أحـــد أصحاب مصنع السكر؛ وفي العاصمة هواة جمع المسابح اللولبية وعلـــب الكبريت والبورسلين والعاج وحتى الصور الحديدية التي تُباع في المعارض، أمـــا جوســـتنيانو فإنه يهوى جمع القاصرات، يقطف ويرسم نماذج بألوان وأعمار مختلفة، بعضهن تجاوزن سن الحادية والعشرين، نساء عاميات، ولكن لا يضع خاتم الشرف في العقد الذهبـــي في عنقه إلا لمن يقلّ عمرها عن الخمسة عشر عاماً.

فـــوق ذلـــك الفراش وفوق الآخر الذي يمتلكه في المدينة، جندل الكثيرات؛ بعضهن عليمات، خبيرات، متكيفات في الممارسة، مهيآت، وهنَّ إجمالاً من الأكبر سناً، ولكن معظم الأخريات من الصغيرات، الخائفات، القلقات، المجازفات، وهنَّ يهـــربن إلى الـــزوايا بيـــنما يطاردهن النقيب الرياضي. وفي إحدى المرات، بالت إحداهن في ملابسها خوفاً، وعندما تمكّن من التقاطها وشدّها إليه كانت قد بالت علـــى نفـــسها بالكامـــل وبللت الفراش ورحليها، والشيء الأكثر جنوناً هو أن جوستنيانو حتى الآن ما يزال يلتهب رغبة كلما تذكّر ذلك المشهد.

ولكـــونه رياضياً، فإن النقيب كان يفضّل اللواتي يُبدين مقاومة ما في البداية. أما الهيّنات، السهلات المنال، ومع المعرفة بالممارسة، فلم يكنَّ يعطينه الشعور نفسه المـــتّقد بالسلطة والنصر والفتح المبين. أما الخجل والحياء والمعارضة والتمرد فكانت تُجـــبره علـــى أن يوظّـــف العـــنف ويعلّم الخوف والاحترام الواجبين تجاه السيد

والعشيق؛ قبلات يعقبها الضرب؛ وكان الضرب يعطي اللذّة بعداً، ويجعلها أعمق وأكثر كثافة. وكان كل شيء ينتهي إلى الأفضل، بعض الضربات على القفا، بعض الصفعات، وأحياناً عملية نفض الغبار عن الملابس، ولم يستعمل الحزام أو سوط الجلد الخام إلا عندما أجبر أوندينيا على أن تفتح جنبيها. بعد أسبوع أو أسبوعين على الأكثر، كانت قد استسلمت لا تريد شيئاً آخر، وأخريات غيرها غدون منزعجات بتمسكهنّ اللحوح، وكنَّ يدمن وقتاً أطول بصفة محظيات.. مثلاً غراسينيا: كان عليه أن يحجمها بالضرب لكي يفترسها ويتركها غير موافقة مع ارتعاجها، ولم يمضِ أسبوع بعد الليلة المُرّة التي تعلّمت فيها الخوف والاحترام حتى بدأت تتنهّد لقلة الصبر، ووصلت بها الشجاعة إلى أن تأتي وتدعوه إليها في الساعة غير المناسبة.

في أراكاجو حيث كان يذهب غالباً في عمل، كانت فنراندا فرحة، ممازحة، تعرض عليه صبية عذراء، دائماً قاصر مفضوضة البكارة حديثاً. بيت عزّاب مريح، وتقريباً بيت رسمي نظراً لكثرة السياسيين الذين يرتادونه بدءاً بالمحافظ إلى كبار رجالات العدل من رؤساء ومحاكم وقضاة وكبار موظفين وصناعيين وأصحاب التجارة الواسعة والمصارف (إنه أفضل تجمع رسمي للدولة كما يقول اللّسن لولو سانتوس وهو يتوكأ على عكازيه). ويحمي بيت البغاء ذاك رجال الشرطة (إنه المكان الأكثر محافظة على الشرف في أراكاجو بما في ذلك بيوت أحسن العائلات، وهذا أيضاً رأي اللّسن، الزبون الدائم).

مرة واحدة تنغّص هدوء المكان اللائق براحة وسلطة زبائنه من المشاهير، ومن نغّص الهدوء كان النقيب جوستو وهو يحاول إزاحة أثاث الغرفة حيث اكتشف خدعة الحجر الثمين الذي دسّته فنراندا لتوهم فتاة جديدة آتية من الداخل. وإذ انقضت سورة الغضب وهدأ المزعج المخيف أصبحا صديقين، وكانت الداعرة، مع فرنيش، تتعامل معه فقط كونه مرعب كاجازيراس الجنوبية ومدجّن الفتيات العاصيات؛ وفي بيت الدعارة الخاص بفنراندا كانت الفتيات الأجنبيات طيبات هنَّ الأخريات، مستوردات من الجنوب، فرنسيات من الريو وسان باولو، بولونيات من بارانا، ألمانيات من سانا كاتارينا، ولكنهنّ شقراوات مؤكسدات ويقمن من كل شيء بطرف، ولم يكن النقيب يحتقر غريبة مؤهلة، وعلى العكس، كان يقدّر ذلك كثيراً.

كانت الفتيات متوفرات في الأزقة وزوايا الشوارع والأماكن الآهلة والدارات الفخمة والمدن المجاورة، وعلى الأخص في غابات ذلك الداخل الفقير؛ ومن كان يعرضهن هم الأهل والأتباع. رايموند أليكاتي مزارع قصب السكر في أراضي المصنع، مقابل الخدمات الصغيرة كان يسلّم الفتيات إلى النقيب. وسيسرو، ضارب طبل، طبّال، وهو يستقبل الهنود والزنوج، كان سهلاً عليه الحصول على لقطة جيدة، وعندما يقول إنها بكر فلم يكن أحد يشك في ذلك. وغابي أيضاً، صاحبة نزل نساء في المدينة، منذ متى وإلى متى ستظل تطلق البضاعة الشهية، ولكن مع هذه العجوز كان الأمر يتطلّب القليل من الانتباه حتى لا تحصل على هر بدَل الأرنب. وفي أكثر من مناسبة هدّد جوستنيانو بإقفال مكانها إذا حاولت خداعه من جديد، ولكن التهديد لم يكن ليفيد، وكانت المرأة الفاسدة تكرِّر الخداع.

وأفضل الجميع هنَّ اللواتي يعثر عليهنّ بنفسه عندما كان يقف في شرفة المخزن، أو في الشارع أو في الحفلات الراقصة، وعبر روحاته وجيئاته إلى حلبة عراك الديوك الهاراتية؛ منهنّ من كلّفنه القليل، رخيصات، مجاناً تقريباً، أو مقابل شيء لا يُذكر، وأخريات كنَّ أغلى ثمناً، وكان عليه أن يدفع لهنَّ، مانحاً إياهن الهدايا والمال المحدود كتريزا باتيستا، ولكن الأغلى من الجميع كانت الشاذة دوريس.

هل كان يجب وضع اسم دوريس في التقرير؟ معها كان الأمر مختلفاً، إذ كان عليه أن يخطب ويتزوج عند الكاهن، وفي المحكمة، وأن لا يقطفها في أي من غرفتيه الصغيرتين المظلمتين، بل في الغرفة الزوجية الكبيرة في محلة ماتريز. وبعد الزواج في المحكمة وإثر مباركة الكاهن، فإن الخائنة اللطيفة تبدأ اليوم ممارسة أسلوب السعادة التقليدية التي تزدهر في مكتب الزواج (حسب التعبير الشعري للأب سيريليو)، فتنسحب العروس لتحضير ملابس العرس وترتدي ما يتلاءم مع السفر في القطار لبداية شهر العسل؛ ولكل حالة حلتها، وكل حلة جديدة أغلى من سابقتها ومعدّة للاستهلاك بالمناسبة.

لا في غرفة الفراش الأرضيّ، ولا في غرفة فندق ميريديونال الفخمة، في باهيا، بل هناك في غرفتها الخاصة والمجاورة للصالة التي يتجمّع فيها عشرات المدعوّين الذين يجهزون، بإشراف أم العروسة، على الطعام والشراب، ومع هذا الإسراف في الأكل والشرب بدأ النقيب يطالب بدفع التعويض عن ذلك التبذير للمال.

رافق النقيب العروسة دوريس وساعدها على خلع ملابسها منتزعاً عنها البرقع والإكليل والفستان الذي يدوس على طرفه، بينما هو على عجلة من أمره ليسحق عظامهـــا الرقيقة، ووضع يده فوق شفتيها فارضاً الصمت. وفي الصالة المجاورة نخبة المدينة وأكثرها رقّة وأهمية هي دوريس القشطة التي تقتل الجوع والعطش... البيت مليء بالناس ودوريس لا تستطيع أن تُمسك نفسها...

تناثـــرت الأزرار عـــن الجسد الصغير وانفكّت التنورة تحت يدي جوستنيانو دوارتي دا روزا الثقيلـــتين، وشدّت ذراعاه صدر الضعيفة التي لم تستطع أن تتحمّل البداية ففتحت عينيها ورغبت بشيء واحد هو الصراخ، رغبت في أن تصرخ عالياً إلى درجة أن تسمع المدينة كلها وتهرع للنجدة... ثم وجد النقيب ذراعيه مكتفتين فوق النهدين الصغيرين وهو يبتسم، فأبعد عنها ملابسها الداخلية، وكما الكلب في مـــثل هـــذه الحـــال، انقضّ النقيب على تلك التي كلّفته ثروة وحساباً مفتوحاً في المخزن وفساتين وهدايا ومصاريف فكّ الرهن والزواج وغيرها.

8

احـــتفل جوســـتنيانو دوارتي دا روزا بميلاده السادس والثلاثين عندما تزوج دوريـــس كورفـــيلو وهي في الرابعة عشرة من عمرها. والابنة الوحيدة للمرحوم الدكـــتور أوبالدو كورفيلو: رئيس بلدية وزعيم معارضة سابق، بالإضافة إلى كونه طبيباً أحزن غيابه كل المدينة: ذكرى ذائعة، وشهرة بالاستقامة والمقدرة الإدارية مع بـــراعة في ممارسة مهنة الطب والشعور الإنساني... (إنه جمجمة في التشخيص على حدّ قول الصيدلي تريغويروس، وأبو الفقراء على ألسنة الجميع) كان كل هذا عندما تـــرك لـــزوجته وابنته ذات الاثني عشر عاماً بيتاً مرهوناً وأكواماً من الاستشارات الطبية غير المدفوعة، وبرسم التحصيل.

خـــلال حـــياة الطبـــيب لم يكن هناك مصاعب... فهو صاحب أكبر عيادة في المديـــنة، يناضل فيها أربعة عشر طبيباً لمنازعة العيش، وكان الدكتور يحصل منها على الـــضروري لإعالة عائلته ولبعض الرفاهية إرضاء لذوق السيدة بريجيدا المرأة الأولى في الحـــياة العامة بجدارة واستحقاق. واستطاع الطبيب من عمله في العيادة أن يشتري داراً في محلـــة ماتريز... قسم كبير من زبائن العيادة كان من الفقراء المدقعين الذين لا مكان

لهم يسقطون فيه موتى.. وقسم كبير آخر كان يسير فراسخ وفراسخ ليصل إلى الطبيب، وأكثر الزبائن قدرة كانوا يجلبون معهم بدل أتعاب الطبيب جذور البطاطا الحلوة أو البنجر السكرين والقرع وغيرها، وآخرون لم يكونوا يأتون بغير كلمات خجولة، يدفع لك الله، حضرة الطبيب؛ وبعض آخر كانوا يأخذون من الطبيب بعض المال لشراء الأدوية، ففي ذلك البلد لا حدَّ للحاجة إلى النقد... على الرغم من كل ذلك ومن رفاهية السيدة بريجيدا، فإن الطبيب كان يمكن أن يترك بعض المدخرات المالية وإن كانت قليلة، لو لم يتعاطَ السياسة إرضاءً لصديق وتشريفاً للزوجة التي كان أبوها في زمن مضى قد وصل إلى مرتبة مستشار بلدي.

انتخابات رئاسة البلدية، والعناية بالحزب السياسي، وسنوات الإدارة في زمن العمل القليل في العيادة، والتغطية المالية التي يقوم بها أومبرتو سنترا المسؤول المالي، والزميل "المفتاح" الانتخابي، وأحد مراكز القوة للفوز، تلك التغطية المالية التي أدّت إلى رهن البيت، وعلى الأخص فشل الحملة الانتخابية، كما أدّت إلى انهيار الطبيب المالي الذي أُصيب بخيبة أمل وأصبح لا يملك نحاسية واحدة.

خرج الطبيب من المعركة الانتخابية بأعصاب مرهقة وقلب مثقل. عوامل الاشمئزاز والصرف استهلكت فرحه المعتاد وحوّلته إلى كائن حزين وعصبي، ولو لم يمت إثر تخمة آلام صارخة، لما ترك شهرة طبيب وعطوف. وعندما جفّفت السيدة بريجيدا دموعها لتطلع على جرد الإرث، وجدت أنها قد انتهت إلى العيش براتب تقاعدي لأرملة طبيب في الصحة العامة وإلى استشارات غير قابلة للدفع.

بعد سنتين من يوم الدفن الذي لا يُنسى للدكتور أوبالدو كورفيلو، وقد سارت وراء جنازته من الكنيسة إلى المقبرة كل مدينة كاجازيراس الشمالية، فقراء وأغنياء، زملاء وخصوماً، حكومة ومعارضة، المجموعات الطلابية والكلية العامة، بعد سنتين أصبحت السيدة بريجيدا والابنة دوريس بلا سند مالي، واستحق رهن الدار، والراتب الشهري غير كافٍ فهو يُدفع حتى آخره بدلاً عن ديون أخرى. حتى المظاهر الخارجية لم تستطعْ دونا بريجيدا إنقاذها مهما حاولت إصلاح فساتينها وجرّبت إخفاء مداهمات الزمان وتبدلات الأحوال... وكان التجار يفرضون عليها دفع الحسابات، وأخذت ذكرى الطبيب المباركة تعود إلى الوراء وتتبدّد في الزمان ولم تعودا قادرتين على الحياة على نفقته.

كانت السيدة بريجيدا على وشك التنازل عن عرش الملكة الأم السيدة الأولى في البلدية خلال إدارة زوجها، وحتى بعد هزيمته في الانتخابات فإنها حافظت على الجلالـــة، وعندما انتقل الدكتور إلى رحمة الله، فقد جعلت نفسها ذات روح عالية ومعـــنويات كـــبيرة. وإحدى العمّات، السيدة بونسيانا دي أزفيدو، ذات اللسان الـــسليط، كانت قد لقّبت السيدة بريجيدا بالملكة الأم في اجتماع الطبقة الراقية في عـــيد الـــسيدة حـــنّة، بعد معاناة طويلة وجهد جهيد للتفريغ من حدّة السموم! وأعجب اللقب السيدة بريجيدا ووقع منها الموقع الحسن.

حافظت بريجيدا، بالتضحية والحرص، على معطف وصولجان صغير ولكنها لم تعد تخدع أحداً. السيدة بونسيانا دي أزفيدو وبروح ثأرية ملحاح دسّت في عتمة اللـــيل، خبراً قطعته من جريدة يومية، تحت باب دار السيدة بريجيدا: "ملكة صربيا في المنفـــى تعـــاني الجوع وتبيع جواهرها". من الجواهر، الجيدة في أيامها، امتلكت نـــصف دزينة، وباعت حتى الخواتم الأخيرة إلى تركي في باهيا، منطقة بيع الفضة والـــذهب من بيت إلى بيت، وباعت أثاثاً قديماً وصور قديسين وتماثيل خزفية عفا علـــيها الـــزمن... الجوع لم يكن قد دقّ بابها بعد، ولا باب ابنتها، فلطف النقيب جوســـتو غـــير المـــرتقب من حدوث الأسوأ، وخاصة عندما امتنع تجار الحبوب والبقالون عن البيع لها بالدّين.

وكلمة لطف، ليست بالكلمة الصحيحة... جوستنيانو دوارتي دا روزا، رجل ذو ثقافة ضحلة، لم يكن يمتلك أساليب اللطف والمجاملة واللطافات المضمرة... وفي يـــوم، وقـــف أمام النافذة حيث كانت بريجيدا تنظر إلى الشارع، ودون أن يلقي بالتحية باشرها بصلافة:

- أعـــرف أن سيادتها تشتري لتأكل من زمرة عديمة الأخلاق و لم يعد لديها مـــن تشتري منه... ففي مخزني تستطيع أن تشتري بالثقة كل شيء وعندما تشاء. صحيح أن الدكتور كان على خلاف معي ولكنه وجه.

كـــان النقيب قد تعلّم كلمة وجه في سفرة متأخرة إلى العاصمة. فعلى مقربة من قصر دسياتشوس كان أحدهم قد قدّم له سكرتير دولة قائلاً:

"الأســـتاذ دياســـي وجه حكومي". قدّر جوستنيانو التعبير حق قدره، وعلى الأخـــص أن الشخص الذي يعرفه قد قدّمه بالشارة نفسها: يا صاحب السيادة إنّ

للنقـــيب جوســـتنيانو دوارتي امتيازات كبيرة في منطقة الداخل، ولن يتأخر في أن يـــصبح وجهـــاً هو الآخر. وراضياً عن هذا التعريف فإن النقيب دفع سعر البيرة والـــسيجار الـــذي قدّمه للشخص ودعا الصحافي للعشاء ثم وضع الكبرياء جانباً وسأل:

- "وجه"؟ بحق الشيطان ما هذا؟ تعرف أن هناك ما أجهله من هذه الكلمات الغربية.

- "وجه" تعني زعيماً سياسياً، واجهة السفينة، مهماً، رجلاً ذا قيمة معترفاً له بها، مشهوراً... مثلاً: روى باربوزا، ج. ج. سيابرا، غويس كلمون، والعقيد فرانكلين...

- هل هو فرنسي أو إنكليزي؟

- "ألماني"، أجاب المراوغ وهو يطلب مزيداً من البيرة.

علـــى الـــوجهاء السياسيين واجبات، وعلى الأخص عندما يواجهون حملة سياســـية. ومع كل هذه الانحناءات، فإن الموت يأخذهم ويصبح القول غير مباح وتُدفن معهم أسرارهم، وها هو الدكتور قد انتهى بعد أن كان وجهاً.

عـــرض لا يُـــصدق! بعد عدة أيام اكتشفت السيدة بريجيدا السبب الحقيقي لمقاربـــة التاجـــر لها وإفساحه المجال لشرائها بالدين... وبقي أن تقع أرضاً مغمياً عليها.

- لا، لم يكـــن ممكـــناً، لا يمكن أن يكون! عبث بلا حجم، غير ممكن تخيُّل الأمر، وفي الوقت نفسه إنّه أمر واقع، فالنقيب كان يضع عينيه على دوريس ويدور حولها.

علـــى الـــرغم مـــن الأربعة عشر عاماً والعادة الشهرية المنتظمة، فإن السيدة بـــريجيدا لم تكـــن ترى في ابنتها تلك صبية ناضجة وهي ترتدي الملابس القصيرة المزخرفة والأحذية الواطئة الكعوب. وكانت تحافظ على الصغيرة بأنسب ما يكون وأرخصه مما يتلاءم مع إمكانياتها ومنظوراتها الشخصية. ولم يمر قط في رأس السيدة بريجيدا، وهذه هي الحقيقة العارية، أن هنالك أحداً يمكن أن يهتم بدوريس الصامتة المـــنغلقة علـــى نفـــسها، الصعبة، دون صديقات، والتي تقضي أيامها في الكنيسة والقداســـات. إنها ستكون راهبة، كانت العمّات يردّدن، ولم تكن السيدة بريجيدا تعترض، ولا تجد مخرجاً أفضل من ذلك وحلاً أنسب له.

ورثـــت دوريس عن أبيها مزاجيته العصبية، تحزن بسهولة، وتبكي للاشيء، وتقـــبع في الـــزوايا، حـــزينة، والحقيـــبة في يدها، ودون التوقف أمام الخصائص الفيـــزياوية، وهـــذا جزء كانت السيدة بريجيدا تفضّل أن تلتزم إزاءه بالصمت، لم تكـــن بـــشعة الوجه أبداً، ذات عينين كبيرتين، واضحتين، وحزمة عظام ضعيفة، وفخذين كقطعتي خشب مجفّفتين، ونصفها الأعلى مسطح والثديان بلا حجم، و لم يكـــن لها قط حبيب... السيدة بريجيدا ذات الأمومة التي لا يجرؤ أحد على الشك فـــيها، وبينما تقرّب ابنتها من عنق الملكة الأم الرائع، كانت تتنهّد بشكل مأساوي معلـــنة: قطتي الدافئة!! أجل، كل شيء كان بالنسبة إلى القطة الدافئة هو يسوع، راهـــبات المدرســـة والمستشفى كنَّ ينمّين فيها الدعوة والتحفظ، بينما الزميلات القاسيات كنَّ ينادينها بالأم النحيلة.

الآن، ظهـــر النقيب! ما من شاب في الشارع أو مراهق في المدرسة رفع عينيه إلى دوريس بلطف أو كياسة أو عرض عليها أن ترافقه إلى المرتفع التقليدي المنعزل والمخصص للعشاق، والطريق الذي كانت كل الفتيات يمررن به عند خروجهن من الـــصفوف وهنَّ يردّدن ما تعلّمنه.. من هذه الأشياء كانت دوريس تعرف فقط ما سمعتهنّ يقلنه، وكانت الزميلات يجدن لذّة في شيطنتهن وهنَّ يأمّنها على أنها كاتمة أســـرار للقبل والمداعبات بتفاصيل مثيرة... وكنَّ يطلعنها على علامات ملطّخة في الرقبة والشفاه المعضوضة، مفتخرات بذلك. بصمت، ودون ابتسامات أو تعليقات كان دوريس تصغي... ما من شاب دعاها إلى مشوار خلف المرتفع.

وهـــا هـــو النقيب فجأة، رجل غني وناضج، وأعزب دهره يغرس عينيه في الفتاة النحيلة، فمن كان يظن ذلك؟ النقيب جوستو رجل ذو سمعة سيئة، وقبيحة، ولا يوجد أســـوأ منه... هو محترم، بلا شك لماله ورجاله ونفوذه وكونه مقاولاً، عنيفاً ودموياً... حـــتى الدكـــتور أوبالدو الذي قبل أن يتعاطى السياسة لم يكن يقول كلاماً سيئاً عن أحـــد، وكـــان لطـــيفاً جـــداً في حكمه على أخطاء الآخرين، لم يكن يتغاضى عن جوســـتيانو، الـــوحش، حسب تعبيره وأحد الأسباب الرئيسية في فشل الدكتور في الانـــتخابات الـــتي كان فيها مرشح المعارضة. كانت شجاعته في فضح التآمر، خلال المهـــرجانات، لـــرئيس البلدية القديم والمندوب الحكومي والنقيب، ضد المدينة... تلك المـــسائل المتعددة من الفضائح غدت معروفة لدى العامة إلى حدّ الفضيحة التي جعلت

آل غـــويلس حمـــاة المدينة يسحبون ثقتهم ومساندهم لزمرة الشر في السلطة. وعندما انـــتُخب، لم يـــستطع الدكـــتور عمل الكثير ضد المتهمين بسبب عدم توفُّر الأدلة، والتضامن بين المتآمرين واكتفى بالإدارة الشريفة إزاء معارضة آل غويلس... كل شيء يجـــب أن تكـــون لـــه حدوده بما في ذلك الشرف الإداري، وذلك السياسي الذي لم يستطع التمييز بين الحساسيات المختلفة في الحياة العامة، كانت مدته في المهنة السياسية قصيرة.. ومن بعيد، من حقول قصب السكر والبيت الكبير في مصنع السكر، فإن آل غـــويلس ابتدأوا بتمجيد الدكتور أوبالدو كورفيلو أسير الشرف، وانتهوا بالقضاء عليه سياســـياً. في ذلك الوقت كان النقيب جوستنيانو يسير وفي عنقه حبل قصير، فقد كان الـــسبب في ســـجن اثـــنين من رجاله في إحدى حفلات عراك الديوك. وعندما هُزم الدكـــتور أوبالدو في الانتخابات التالية، شوهد جوستنيانو دوارتي دا روزا وهو يجتاز الطـــريق الرئيـــسي ومحلة ماتريز على ظهر جواده وهو ينثر الورق الدعائي في الهواء.. بحـــذر.. أمـــا رئيس البلدية الجديد فإنه لم يمارس حتى سلطته، وعاد الخوف يشيع من جديد تحت أقدام الجياد وفي طلقات المسدسات.

أجل، لم يكن جوستنيانو دوارتي دا روزا المعروف بالنقيب جوستو من ينظر إلى الـــصغيرة بطـــرف عينيه، وقد شوهد حتى في محلة ماتريز عند الشفق في ساعة الصلاة: العينان الناعستان، كأنهما عينا خنـــزير، محفورتان في دوريس.

وضعت السيدة بريجيدا يديها على رأسها، ماذا أفعل يا الله؟ واعترتها الرغبة في الـــركض لمناقـــشة الموضـــوع مع الأب سيريليو والعمّة تيكامنـــزيس والصيدلي تريغويروس، ولكن الحذر احتواها، فقبل أن تخرج للكلام عن الموضوع يجب عليها أن تدرسه من كل نواحيه وتعطي نفسها المجال للتأمل العميق في هذه المسألة.

وبينما كنَّ جالسات إلى جانب الطريق بعد العشاء على أحد المقاعد، كانت الأرملة وجاراتها يمارسن خلال الليل المنعش متعتهنّ المفضلة التي لا يضاهيها شيء: مـــتعة نبش حياة الآخرين؛ وكانت دوريس تصغي صامتة... وفي مصهر العمّات المُحرق لا يوجد غفران ولا استثناء: إن التجار لصوص، والأزواج سفلة، والفتيات بلا حياء، دون أن نتحدّث عن الزناة وأصحاب القرون الكبيرة.

عند سماع خطوات النقيب هيمن الصمت، صمت عصبـــي، مثير، وكل عين تحـــدّق فـــيه بينما عيناه مسمّرتان في دوريس. فكّرت السيدة بريجيدا بالانسحاب

بصورة عادية مع ابنتها وأخذها إلى الداخل، وبإغلاق الباب وراءهما، ولكن الحذر، مرة أخرى، احتواها فأجابت على مساء الخير بشكل تحبّبـــيّ وابتسمت للوحش.

9

عانت السيدة بريجيدا مرارة الليالي البيضاء وأيام الحزن وهي تزن الأمور بما لها وما عليها، وتحلّل المشكلة وتتأمّل في مستقبل الفتاة. كان عليها أن تحسب حساب كـــل شيء وتقرِّره؛ فالفتاة الصغيرة البريئة، كانت تعيش بعيدة عن العالم ولا تهتمّ بغير المسائل الكنسية: فتاة هائمة بالمدرسة وأسوأ رفيقة في الأعياد وفي أمور اللهو، أما عن الشباب والعشاق فلا تتكلم، إنها فقيرة.

لقد ولدت دوريس لتبقى عزباء: لنقل، بسبب مزاجها وطرقها، ولكونها تجد صعوبة في الحصول على خطيب أو الزواج في سوق المدينة، حيث تكثر الصبايا في ســـن الزواج ويقلّ الشباب المتقدم. وكان الفتيان، لا يكادون يشبّون عن الطوق، حتى يأخذوا وجهة الجنوب تفتيشاً عن الفرص بسبب قلّتها هنا. وكان مال البلدية يـــأتي عملياً من ضرائب مصنع السكر، وملكية آل غويدس أصحاب المصارف في العاصـــمة وأسياد الأراضي، وعلى الأخص منها الأراضي الخصبة ذات المستنقعات المائـــية المتجمّعة من النهر والتي تنمو فيها غابات القصب والحقول الخضر، خلافاً للأراضـــي الجافـــة القاحلـــة الـــتي تقابلها. وكان المصنع يوظّف بعض أصحاب الامتـــيازات. وكانت قلّة أخرى من الشباب تعمل بالتجارة الصغيرة في الدكاكين والمخـــازن، بينما الباقون يهاجرون مستقلين قطار سكة الحديد. الفتيات يتعاركن بـــضراوة، للحـــصول على مَن تبقّى، ومن وقت لآخر كانت واحدة منهنّ تتعلّق بذراع تاجر جملة متزوج وأب لعدّة أولاد، هاربة بجنون من اللف والدوران، وأما شرف العائلة فإلى جهنم وبئس المصير... وهنا تأخذ العمّات بالارتجاف.

أمـــا آل غـــويدس فكانوا قلما يظهرون في المدينة. الإخوان الثلاثة ونساؤهم والأولاد والأحفـــاد كانـــوا يذهبون إلى المصنع ويعودون توّاً إلى العاصمة، وكانوا يأخـــذون القطـــار عند محطة تقع وسط غابة القصب.. وفي شاليه محلة دوكونفنتو الذي يبقى طيلة العام مقفلاً، كان السيد ليريو الفلاح الحارس يقضي أوقات فراغه بـــين الأشـــجار التي يزيد عمرها على المائة سنة، ومن حين لآخر، وكل سنتين أو

ثـــلاث، كـــان أحد الإخوة مع زوجته وأولاده يظهر في عيد السيدة حنّة شفيعة العائلة وعرّابة البلدية، فتنفتح نوافذ الشاليه وينطلق الضحك من الغرف والممرات، ويأتي من العاصمة زائرون، بينما الفتيات المحليات في أحلى حللهن، والشباب الآتي مـــن الخارج لا يعرف أن هناك مثل هذه الكياسة. وكانت المسألة تدوم أسبوعاً، عـــشرة أيام، خمسة عشر في الأكثر.. وبعد أن يتعرّضن للتقبيل والمداعبة والملاعبة ويُتخلّى عنهن في فورة العيد، كانت الفتيات العذراوات اللواتي أصبحن الآن جمراً مـــتّقداً يعـــدن إلى زملائهـــن التافهين والواقفين في الشرفات من الأشقياء، داخل البـــيوت أو أثناء الأعياد الكنسية، وهنَّ عزباوات في العشرين، وحتى لو رغبن في التمدد في غرف النقيب المظلمة، فإنه يرفضهن معتبراً إياهنّ مسنّات وعوانس.

عـــندما تصبح بالغة وامرأة في عرف المدينة، فإلامَ تستطيع دوريس أن تصبو عـــندما تنهي الدراسة التكميلية في مدرسة الأخوات؟ يمكن تدبير الأمر بالواسطة وبالطلـــب المتواصل، كونها يتيمة الدكتور أوبالدو، فتستطيع الحصول على مركز معلمة ابتدائية في إحدى مدارس البلدية أو الحكومة، أو قد تستطيع إكمال دروسها في الانخـــراط في سلك الرهبنة. مديرة مدرسة ابتدائية أو راهبة. فالسيدة بريجيدا لم تكـــن تـــستطيع الخـــروج بافتراض ثالث.. زوج وزوجة؟ مستحيل... الفتيات الأخـــريات، في وضـــع أفضل منها مالاً وشكلاً، بنات فلاحين وتجار وموظفين، جمـــيلات، متعافيات ومطروحات للزواج، كنَّ يذبن على الشبابيك دون أن يفزن بـــزواج، فكـــيف تتزوّج دوريس الحزينة، النحيلة، غير المرغوبة، البشعة، المكفهرة الـــوجه، ذات الصحة العليلة إلى درجة مؤلمة. إن زواجها يمكن أن يتحقّق بأعجوبة ليس إلاّ.

وتحقّقـــت الأعجوبة: لقد كان النقيب جوستو يبدي اهتمامه بوضوح، وفي المديـــنة كـــان قـــد ابتدأ عيد التنهدات وجاءت العمّات للاحتفال وهنَّ في أحلى حللـــهن. كنَّ يصلن إلى الاحتفال اثنتين اثنتين أو ثلاثاً معاً، وأكثرهنّ تكتماً يأتين وحـــيدات مرتديات الأسود، فيعطّرن الممرات ويقفن في صف النقيب! كنَّ يقلن أمـــوراً مفـــزعة: "يقولـــون إنه..." "من أخبرني كان موجوداً..." "ليس من زمن بعيد..." وكانت السيدة بريجيدا تسمع الحكايات المخيفة، تهزّ رأسها، لا تقول نعم أو لا، وتـــبدو وكأنهـــا لغـــز... وتحـــيط بها العمّات، عصابة من بائنات العظم

الرخيــصات، في الشارع الأعلى والشارع الأسفل، في القدّاس، في الزياح، وأثناء متّــسع الوقت الكبير، وكانت السيدة بريجيدا دائمة الالتزام بالصمت كأن ذلك لا يعني لها شيئاً.

في هدأة البيت الموصد وبعيداً عن ثرثرة العمّات، ليلاً، كانت السيدة بريجيدا في تأملها العميق، تزن الوضع وتستعيد فظائع النقيب التي تبدو كأنها نشيد ديني بلا نهاية..

في الــنهاية، فظائع كتلك كانت تتقلص أهميتها عندما يسترخي المرء للتفكير في الموضــوع بهــدوء وتسامح. كانت العمّات يضعن الجمر خاصة على المسألة الجنسية وعلى اختراق القواعد التقليدية في حياة جوستنيانو دوارتي دا روزا. سلسلة من الفتيات والقاصــرات في فــراش فضّ البكارات، وفضائح في بيوت العزّاب وأماكن الدعارة، وخلاســيات فاحمــات اغتصبهن وضربهن وتركهن مهملات في أسواق البغاء.. كان النقــيب عازبــاً، ومــن هو الأعزب الذي لا تسجّل حياته أحداثاً وانهيارات من هذا الــنوع؟ مــا عدا الرجل غير الطبيعي، المنحرف، من أمثال تيان فيوليتا بواب السينما ولوطــي المدينة الرسمي، وكما يقولون، فإن أحد أبناء ملتون غويدس كان مشكوكاً في أمره من هذه الناحية، ولكن أهله كانوا قد أبعدوه إلى الريو دي جانيرو.

إن سجل حياة جوستنيانو يبدو حافلاً، ولكن من الذي ينجو من ألسنة العمّات؟ حــتى الــرجال المتزوجون الأكثر احتراماً لم يكونوا بمنحى، وقد اتهموا بأشياء وأشياء مــزجت بعضها بالبعض الآخر. حتى إنّ العمّات كنَّ يتمتمن ويغتبن الدكتور أوبالدو نفــسه، القديس كما يعرفه الجميع، وقد اتّهمنه بالأختين لوريتو، وهما فتاتان تعيشان وحــيدتين، ووريثتان لملكية دار وبعض المدخرات المالية، وكانتا زبونتين لدى الطبيب، وقــد نــسبت العمّات إلى الفتاتين علاقة عشق مع الطبيب في الوقت نفسه.. لم يكن أحــد يــنجو مــن ألسنة السوء تلك في أرض كهذه، ذات أعمال قليلة، وفي مكان موحش كهذا خلال الأمسيات البطيئة والساعات التي لا نهاية لها.

بالتأكيد، استنتجت السيدة بريجيدا أنّه ليس ممكناً أخذ النقيب مثلاً يحتذى به في الــتقوى يستشهد به في ساعات التعليم الديني، كونه متموِّلاً وحراً فلن ينقصه الاســتئناس بالمــرأة. وعائلات كثيرة في زوايا الشارع وفي الحقول، كانت ترمي الفتــيات في الطرقات، وتعرض العذارى للبيع من النوافذ وبأسعار منخفضة، ولم

يكـــن هـــناك اختيار: اللواتي يُقال عنهن من عائلة كريمة باستثناء القليلات اللواتي يتزوّجن أو يهربن، كنَّ ينتهين عوانس شاحبات. والأخريات من الأكثرية العامة، كنَّ في أغلبهن يشكّلن جيشاً بكامله للأسواق العمومية.

لكونه عازباً، كان يحقّ للنقيب أن يرفّه عن نفسه. وأما المبالغات فكانت تعود إلى صـــحته القـــوية وطاقته الجنسية. بالإضافة إلى ذلك، هناك من يقول إن الذين تكـــون حـــياتهم أكثر انحلالاً يرتدّون إلى الحياة الكريمة ويصبحون أفضل الأزواج ومُـــثُلاً عليا، وبعد أن يكونوا قد أنفقوا وهم عزّاب حصتهم من قلّة الحياء، فإنهم يعملون على إنقاذ ماء الوجه فيما بعد.

بالنـــسبة إلى العمّـــات، كان فصل الناحية الجنسية في سيرة النقيب المتهتكة الخلاعـــية هـــو أكثر ما يهمّ وأثقل وزناً من كل شيء آخر.. أما سوء الائتمان في الحـــسابات الجاريـــة الـــتي حقّـــق بنتيجتها أرباحاً مضاعفة، والعنف في التعامل، والعائـــدات المدفـــوعة بالتهديد والشجارات، وأعمال الشغب في عراك الديوك، والتزويـــر في أعمال الأراضي، والجرائم، والقتلى الذين أجهز عليهم أو أمر بذلك، كـــل هذه الأمور كانت تبدو أقل خطورة من سيرة النقيب الجنسية. ما لا يُغفر له هو التهتك: إنه النجاسة بعينها، الذي لا يُغفر للنقيب ولا للفتيات ولا للصبايا ولا للقاصـــرات، فهنَّ محكوم عليهنّ بالتهمة نفسها. في ذلك الفصل لا يوجد ضحايا، فالمنحرف الشاذ متّهم، وكذلك هنَّ جميعاً. بعضهنّ خليعات والأخريات تائهات.

في الـــوقت نفسه، كانت السيدة بريجيدا تتوقف أيضاً عند مظاهر عديدة من سلوك النقيب، وهي تحلّل القيمة الحقيقية للحكايات المتداولة وبعضها ذات تفاصيل مـــرعبة. فيما يتعلق بسوء الائتمان في الحسابات والمطالبة بالدفع بواسطة الصراخ والتـــضارب، فمن هو التاجر الذي لا تُلصق به تهمة سوء الائتمان؟ ومن هو الذي لا يـــستعمل كل الأساليب للحصول على الديون المتأخرة؟ وأفضل مثل على ذلك هـــو المـــرحوم الدكتور أوبالدو الذي ترك عائلته لرحمة القدر لعجزه عن المطالبة بالحـــساب ومفاتحـــة زبائنه. لقد ترك مجموعة من المدينين الذين عالجهم وعاينهم خـــلال ســـنوات، والكثيرون منهم مدينون بحياتهم له، وواحد منهم لم يفتّش عن العائلة في ضائقتها وحاجتها لهذه الديون الشريفة، وبالمقابل فإن الدائنين هم الذين نبتوا للعائلة وطلعوا عليها بالكلام الغليظ.

في ليالي الأرق، ظلت السيدة بريجيدا توضّح الأحداث والاتهامات بتسامح. وبدأت صورة جوستنيانو دوارتي دا روزا تأخذ ملامح إنسانية، ولم يعد الوحش مقلقاً إلى حدٍّ كبير.. هذا دون أن نتحدّث عن الصفات الإيجابية: عازب وغني.

تسامح أو طيبة إرادة؟ على الرغم من كل طيبة الإرادة، فإن السيدة بريجيدا لا تستطيع أن تتجاهل المناطق المظلمة والشكوك التي لا تغيب، وأصداء طلقات الرصاص في الكمائن ورؤية القبور المفتوحة ليلاً. وفي محاكمة جريمة قتل الإخوة الثلاثة بريتو وأسيدرو وألسينو الذين قتلوا وهم نيام، لم تثبت التهمة على النقيب، بل على أحد المجرمين ويدعى كاسبار. وفي عشية يوم الحكم، فإن كاسبار ذاك كان قد شنق نفسه! تأنيب ضمير بالتأكيد.

تبقى المحادثة الصعبة دائماً لليوم التالي. والسيدة بريجيدا تخشى ردّة فعل الابنة العصبية والبكّاءة عندما ستُفصح لها عن رغبة الوجه السياسي الذي تُعمل فيه نقاشاً من تهيِّئ نفسها للروحانيات في خدمة يسوع الناصري، في صمت خاشع، كيف تستطيع أن تتخيّل النقيب وأسطورته المروعة؟

آه! لن تقبل دوريس أبداً أن تناقش الموضوع، وهي نحيلة وهزيلة وأعصابها دائماً هادئة ولكنها عنيدة لا يضاهيها في العناد أحد، وقادرة على أن تقبع في الغرفة وترفض الخروج إلى الشارع.

عند الفجر، كانت السيدة بريجيدا الأم الحبيبة، تزن العواطف والواجبات؛ تعرف أنه من المستحيل إجبار دوريس على الزواج من جوستنيانو دوارتي دا روزا إذا ضربت الفتاة رجلها في الأرض وقالت لا. عنوة لا يمكن. إذاً، كيف أفعل يا الله لإقناعها؟

10

وكان الحديث غير المنتظر، مساء، بينما الأم والابنة عائدتان من زيارة بروتوكولية إلى السيدة بياتريز زوجة قاضي الأمور المستعجلة وسيدة العاصمة... كانت الأخيرة قد جاءت لقضاء بعض أيام الإجازة مع الزوج وجاءت بابنها دانيال الذي بلغ السابعة عشرة من عمره؛ شاب ذو تكوين عذب، متأنق صغير وصاحب شكل يستحق أن يعلق قلادة في العنق. في الصالة الأمامية وجوه أخرى رضية في حديث عالٍ واحتفالي، ودامت الزيارة مدة قصيرة.

في الطريق بادرت السيدة بريجيدا ابنتها الفهيمة:

- شاب جميل! يبدو وكأنّه لوحة فنية.

وأفلت صوت دوريس كالمعتاد:

- شاب؟ إنه ولد مدلّل ومتمسك بملابس والدته. لا أطيق الشاب المائع.

تعجّبت السيدة بريجيدا من الرأي ومن لهجة الاحتقار.

- "مـن يسمعك يا ابنتي تتكلمين يظن أنك قادرة على أن تفكري في الفتيان والشباب.." مازحت السيدة بريجيدا. "ولد مائع تقولين، أما أنا فأقول إنه شاب فهيم، ولم يرفع عينه عن ياقة فستان نيوزا علماً أنها ليست ياقة بل خلاعة، فصدرها يكاد يكون في الخارج، هل لاحظت؟ إنك لا تلاحظين أبداً هذه الأمور". وفجأة خرجت الكلمات من فمها: "إني أراهن أنك لم تلاحظي بعد النقيب جوستو يجيل بنظره فيك".

- بلى، لقد لاحظت ذلك يا أماه.

صدمة وحرقة في صدر السيدة بريجيدا.

- لاحظت؟ ومتى؟

- منذ وقت طويل يا أماه.

مشتا خطوات عديدة صامتتين، السيدة بريجيدا تمسك بقلبها وتضع يدها فوق صدرها المجهد، "يا إله السماء!"

- أتريدين أن تقولي... أن تقولي إنك... غير سئمة من ذلك... وأنك غير...

- سئمة؟ لماذا؟ إننا خطيبان يا أماه.

أحسّت السيدة بريجيدا أن قلبها يكاد يخرج من موضعه، إنها بحاجة طارئة إلى ماء الورد وإلى كرسي تستطيع الجلوس عليه بينما شمس الصيف تزيغ نظرها وتشوّش على المعاني. هل سمعت جيداً وهل هذه ابنتها دوريس حقاً؟ ابنتها الفقيرة والبريئة الصغيرة، هذه التي تتبعها جنباً إلى جنب في الشارع، وتعدّ نفسها خطيبة النقيب بالصوت نفسه المنخفض اللين إلى حدّ الإلهاء عن الصلاة، وهل صحيح ما تسمعه، أم أنه مجرد حوار لا يعدو كونه تصوراً خاطئاً؟

- ابنتي، حباً بالله أخبريني بكل شيء قبل أن أختنق.

ضحكت من جديد، هل هي ضحكة الظفر؟

– لقد كتب لي رسالة وأرسلها..
– أرسلها؟ إلى أين؟ ومن جاء بها؟
– أرسلها إلى المدرسة وتسلّمتها بينما كنت عائدة إلى البيت، في الطريق. لقد كـــان شـــيكو الموظف لديه هو من جاء بها. وهنا رددت على الرسالة فكتب من جديد فرددت مرة أخرى. كان شيكو يعطيني رسالته وأنا ذاهبة إلى المدرسة، وفي طـــريق العودة إلى البيت كان يأتي ليأخذ الجواب. قبل أمس كتب يسأل إذا كنت أوافق أن أكون خطيبته وإذا كنت موافقة فإنه سيتكلم مع السيدة الوالدة.
– وأنت؟ هل أجبت؟
– في الـــيوم نفـــسه، يـــا أماه، لقد قلت لـــه إنه بالنسبة لي يمكن أن يعدّني خطيبته منذ الآن.

اســـتوت السيدة بريجيدا في وسط الشارع على مقعد الرصيف تنظر إلى الابنة النحـــيلة ذات الفـــستان القصير والحذاء ذي الكعب الواطئ والوجه البائن العظم، الابنة التي تكاد تكون بلا صدر، الطالبة البلهاء البريئة..
– آه! إن النار تشتعل في صدر بريجيدا!

11

قاضـــي الأمور المستعجلة الدكتور أوشتاكيو فياليو غوميز نيتو، الذي يتعاطى نظـــم الـــشعر في ساعات الفراغ باسم فياليو نيتو، نشر عدة رباعيات في صحف ومجلات باهيا، وعندما كان طالباً نال مع فرجيل دي سبونيروس جائزة الشرف في المـــسابقة الـــشعرية التي أجرتها مجلة فون فون في الريو دي جانيرو، ذلك القاضي بالـــشكل الـــذي يبدو عليه، كأنه دليل على الثقافة الدينية، كان يدافع عن مسالة مدهـــشة بـــصورة جدّية وبالأدلة، وفي رأيه أن جوستنيانو دوارتي يشتعل بالحب الحقيقي للقاصر، وليس الحب حقيقياً وعميقاً وحسب بل مؤلماً أيضاً. إنه الحب في أعمق صوره، حب هو سعادة الجنّة وعذاب الجحيم.
– "إن للـــسيد رؤية في الحب هي من أغرب الرؤى بلا شك". فبالنسبة إلى ماركوس ليموس حارس السجلات والذي وهب نفسه للوحي الشعري هو الآخر، فإن القاضي كان فقط يتسلّى على حساب الأصدقاء، إنه متمايل.

- الأستاذ أوشتاكيو يحب المفارقات... كان يتأمل في المدّعي العام الأستاذ إيباميـنونداس تريغو الضخم، الأنيق، ذي الذقن المزيّنة، والأب لخمسة أولاد بينما السادس في رحـم الأم، وله ثلاثون سنة من العمر غير كاملة.. وكان واحداً من الحلقة الضيقة ذات الثقافة المحلية المزدهرة، لكونه مجازاً في الحقوق أكثر منه حاكماً عـادلاً. وكان في الادعاء العام عدماً، ولكنه مؤهل في فك الألغاز. ولم يكن يغامر في إنكار أو رفض رأي القاضي، مسؤوله الأعلى.

- "إنـك سـافل..." ضـحك العضو الرابع في المجموعة، إيرتون أمورين، المسؤول عـن جباية الضرائب، قصير النظر، ذو الشعر القصير جداً، وأحد قراء إيسادي كـيروز ورماليو أورتيحون وصديق القاضي. "الحب شعور نبيل... إنه الشعور الأنبل".

- وبالتالي؟

- المشاعر النبيلة والنقيب جوستو نقيضان لا يلتقيان.

- إنـك أكثر من ظالم لعزيزنا النقيب، فأنت عالم نفس سفلي... إنه الحب، الحب الحقيقي، وسأبيِّن لك بالبراهين...

ليـست فقـط النخبة المثقفة بل المدينة بأكملها هي التي تهتمّ بتفسير الخطوة والـزواج وأعمال النقيب الأخرى، التي هي في الحقيقة أعمال وضيعة... قبل أيام مـن استحقاق رهن البيت، عمل على فك الرهن منتشلاً الأرملة والابنة من الخطر الداهم، ومن فقدان الأثاث الذي كان قد اشتراه الطبيب بتضحية كبيرة.

- "هـذا الكـرم الواسع، هذا التخلي، أليس دليلاً كافياً على الحب؟" كان القاضي يُدلي بالحديث مع البراهين الساطعة.

- "وجهـاز ملابـس دوريس؟ من الذي دفع بدل الحرير والجوخ والأقمشة الـناعمة والكشاكش والبرائم؟ ومن دفع بدل الخياطة؟ هل يمكن أن تكون السيدة بـريجيدا قد دفعت من الراتب التقاعدي؟ كل ذلك خرج من جيب النقيب، هذا النقـيب ذو قبضة يد منكمشة عادة، بخيل، وفجأة يصبح مبذراً، منفتح اليد، يدفع دون أن يـناقش.. لقـد عادت السيدة بريجيدا فائزة بحق الاستدانة من الدكاكين، منتـصرة على التجار المنحنين أمامها بالسلام وهم أنفسهم، أولئك المتلونون، من كانوا يضطهدونها قبل فترة لتدفع حساباتها المستحقة.

لو لم يكن حباً، ماذا يمكن أن يكون؟ كيف يمكن تفسير التبذير، والسماحات واللطافــات. نعــم، اللطافات التي قام بها النقيب، لو لم يكن كل ذلك حباً، لماذا يتــنكّب أحمــال المال، ويتزوّج؟" سأل القاضي، وهو يشير بإصبعه: "لو لم يكن مولهاً؟ وما الذي تأتي به دوريس غير عظامها الضعيفة؟ أموال؟ لم يكن لديها مكان تمــوت فــيه. اسم الأب الشريف دون شك، ولكن أية فائدة يعود بها الاسم إلى جوســتنيانو دوارتي دا روزا، وكذلك الشرف وذكرى الطبيب أوبالدو كورفيلو؟ إنه الحب الأعمى والكاوي ليس إلاّ...".

- "الأعمى بالدرجة الأولى". قاطع إيرتون أمورين متفكهاً.

وحــده الحب الكاوي والأعمى يفسِّر الخطبة والزواج والمصاريف واللطافات في رأي القاضــي الكبير أوشتاكيو؛ رأي قضائي وشاعر، جدير بالانتباه، وقد أخذ يــشقّ دربه في المدينة. كان وقتاً غنياً بالمناظرات والآراء المتناقضة وبعض النكات الجريئة الفاقعة. السيدة بونسيانا دي أزفيدو التي لا تتعب، نالت نجاحاً كبيراً بأحد تحديــداتها القــيّمة: إنه زواج جحش قوي من خنــزير سمين، تشبيه قاس ولكنه مصيب، ومن يستطيع أن ينكر؟

ســواء كــان حباً أو لسبب آخر مجهول، وكما تشاء العمّات، فإن النقيب جوســتو كاد يفقد عقله، و لم يعد يبدو الرجل نفسه. أحد ديوكه الهراتية سقط في أحــد العــراكات، فلم يناقش جوستنيانو الأمر و لم يتّهم أحداً بالسرقة و لم يهاجم الحلاق ريناتو صاحب الديك المنتصر.

مــع كل ذلك، لم تستطع السيدة بريجيدا كلياً أن تتحرّر من الأفكار السوداء الــتي تضطهدها ليلاً.. اعتادت على وزن الأحداث والحركات والمكارم والحدود المرسومة. صحيح أن النقيب فكّ رهن الدار في المصرف، لا شك في ذلك، ولكنه لم يتــنازل عن الدار في المكتب العقاري للأرملة، وأصبح هو الدائن؛ وعندما فاتحته الــسيدة بريجيدا بالموضوع نظر إليها جوستنيانو بعينيه الناعستين كأنما يهاجمها: ألم يكــونا في طور الزواج، هو ودوريس، وسيبقى كل شيء ضمن العائلة، فأين هي الحاجــة لتبذيــر المال في المكاتب العقارية للحصول على التنازل وغيره من أعمال الغباء؟

وفي المحلات التجارية أيضاً حدث أن اعتذر لها التاجر:

- عفـــوك ســـيدة بريجيدا، فلمشتريات بهذا الحجم يجب استشارة النقيب...
وضـــاعت وسط المكارم. السيدة بريجيدا كانت تحسّ بأن قدميها ليستا على أرض آمـــنة، وبوادر الكرم واللطافة لم تكن إلا أغطية فوق أرض العنف والغابة الصماء التي لا ظل فيها ولا ماء.. ولم ينقص شيء من الأمور الضرورية لتجهيزات العرس، ولكـــن لا يمكن مقارنتها بتجهيزاتها هي، الكبيرة، الغالية، التي لا تنسى في أحلام السيدة بريجيدا. هكذا، فإن الشكوك والظلال القاتمة كانت تزعج حلمها ورضاها، ولكن ليس بالنسبة إلى جوستنيانو دوارتي دا روزا ذي الوله المعلن على الملأ.

دامـــت الخطـــوبة ثلاثة أشهر، وتمّ خلالها تجهيز أدنى الأشياء الضرورية من المستلزمات. كانت السيدة بريجيدا قد اقترحت أن تكون مدّة الخطوبة ستة أشهر، وهـــي مـــدّة معقـــولة... ستة أشهر؟ لخياطة بعض الفساتين وتفصيل الشراشف؟ سخف! فالنقيب لم يشأ حتى المناقشة... ولو عادت المسألة إليه فإنه كان سيتزوّج في اليوم التالي من الخطوبة. أما دوريس ففي أمسية اليوم نفسه، لو أن المسألة تعود إليه وإليها.

واحـــتفاءً بطلـــب الـــيد، فإن جوستنيانو دوارتي دا روزا كان قد جاء معه بالقاضي أوشتاكيو ورئيس البلدية في زيارة إلى منـــزل محلة ماتريز. ودعت السيدة بـــريجيدا الأب ســـيريليو وبعض الصديقات الحميمات، بعد أن أعدّت المعجنات والفطائـــر والحلوى وقد تجمّع في المحلة فضوليون منهم العمّات والباقون من عامة الشعب. وعندما لاح طالب اليد يرتدي بدلة بيضاء وقبعة باناما وإلى جانبه القاضي ورئيس البلدية علت التمتمات.

وأمـــسك النقيب نفسه وألقى بنظرة هجومية. إنه رجل آخر هادئ، لم يرفع ذراعـــه ولا صوته، ونادى على ترتو باسم شيكو، ولم يحمل مسدساً، فقد اكتفى بالنظـــر، وكان ذلك كافياً. "يبدو أنهم لم يروا قط رجلاً يصبح خطيباً"، همس في أذن رئيس البلدية.

من أجل خاطر العائلة وإلا فإنه كان أعطى أمثولة لهؤلاء الرعاع.

خـــلال مدة الخطوبة القصيرة وفي مناسبات عديدة، كان على وشك الابتداء بإعطـــاء أمثولة إلى أحد هؤلاء الرعاع، ولكنه كان يمسك نفسه عن ذلك مع آلام موجعة. وعندما كان يخرج في مشوار برفقة دوريس وأمها بريجيدا في طريقهم إلى

السينما أو الكنيسة، فإن أول انفعالات النقيب كان الانفجار الداخلي حين ينظر إليه أحد بفضول واضح. ولكنه مرة واحدة فَقَدَ عقله عندما بادلت إحدى الزوجات زوجها الحديث بصوت منخفض وهي تبدو غير راضية عن المشهد "ألم تعرفيني قبل اليوم يا ابنة الزانية؟" صرخ وانطلق مهاجماً. ولو لم يكونا زوجاً وزوجة معوقة القدمين لجاء تبادل إطلاق النار بشعاً، وكانت السيدة بريجيدا تتوسل: "هدِّئ نفسك يا نقيب". أما دوريس فبقيت صامتة، غير منزعجة وهي تمسك بذراع الخطيب. الفضول، المناظرات، الآراء، نظرات التعجب وزيارات العمّات غير المتوقعة إلى غرفة الخطوبة، وعبارات التفرغ والجمل الروحية، كل ذلك توقف دفعة واحدة وبصورة قطعية. ففي إحدى غزواتها الليلية، وبغية دسّ رسالة تحت باب القاضي، متعلقة بسلوك زوجته في العاصمة وعشاقها هناك، فإن الناصحة المنتصرة السيدة بونسيانا دي أزفيدو وكانت قد طلبت أن يرافقها شيكو الملقب بنصف الكعب وأحد العاملين في خدمة النقيب والمسؤول عن جباية الديون المتأخرة الذي بغية اغتصابها، شهر عليها خنجراً، وبصورة سريعة، ووخزها قليلاً برأس الخنجر المسنون... بعدها وجدت السيدة بونسيانا صعوبة في الوصول إلى البيت حيث أسلمت نفسها للقيء والنحيب. وفي نوبة انهيار عصبي لا مثيل له، انطوت على نفسها خلال أسبوع في بيتها، لا تضع قدمها في الشارع... وشاع الخبر، ثم تحوّل إلى مسألة ديون متأخرة، وبعدها خيّم السلام على المدينة.

هكذا انقضت أشهر الخطوبة الثلاثة. كانت السيدة بريجيدا تحاول أن توطّد أواصر الثقة والصداقة مع صهر المستقبل دون أن تلقى الترحاب المطلوب. شخص قليل الشاعرية، فإن جوستنيانو دوارتي دا روزا، خلال زيارته اليومية بعد العشاء، كان يقصر الحديث على الأمور الجوهرية: موضوعات الزواج، والمصاريف التي لا بد منها. ما عدا ذلك، كان الخطيبان يبقيان في قاعة الجلوس، يجلسان على الأريكة، بصمت. كانت السيدة بريجيدا تحاول أن تمدّ الحديث، ولكن المحاولة تبقى إضاعة للوقت ومسألة مستغفلة... ولا تواجهها إلا همهمات النقيب وصمت دوريس...

يبقى الخطيبان بالانتظار، صامتين، بانتظار أن تذهب السيدة بريجيدا إلى المطبخ أو غرفة الطعام بحجة إعداد فنجان قهوة وتفتيشاً عن حلوى الموز أو الكرز،

المانجـــا أو الكاجـــو. ولا يكادان يريان ظهرها حتى يشتعلا بالقبل وتصبح أيديهما كـــثيرة الانشغال والحركة... السيدة بريجيدا لم تعد تعرف إلى أين تذهب ومن أين تعـــود، وماذا تفعل، فهذه الأشهر الثلاثة أطول من أن تنقضي. لم تكن دوريس، الوقحة، تأتي لتتفقّد أمها في حال تأخّرت عن الرجوع، بل، كانت تفكّر كيف لا تسمح الأم لهما بمزيد من الحركة؟ ألم يكونا مخطوبين، في النهاية؟

الأم المحتقـــنة غـــضباً، تزعق، تعالج، تصرخ، تربـــي ابنتها بأكبر درجة من العـــناية، تنشئها على المناقب والتعاليم الدينية، وتظن أنها تعرفها، تعرف كل شيء عـــنها، ولكنها لا تعرف شيئاً، على الإطلاق. لاحظت السيدة بريجيدا كل ذلك، حزينة مبعدة نفسها إلى النافذة، ووجهها إلى الشارع، وظهرها للخطيبين.

وانقـــضى الـــوقت بـــين مسرّات العائدات، والأشغال اليدوية، والقمصان واللباســـات والمـــشتريات والإعـــدادات، وصنع الحلويات والكحول، والتحضير للحفلـــة، وبين الانشغالات الناتجة عن سمعة الخطيب المؤلمة، ومواجهة انفجار صهر المـــستقبل وســـيد العنف. كانت السيدة بريجيدا ترتعب من العنف، وخلال ذلك الوقت لم تحس دقيقة واحدة بنفسها منسجمة متوازنة؛ ومع كل ذلك، فإنها عندما علمت بقلق السيدة بونسيانا دي أزفيدو، الذي كاد يقتلها، ورأس الخنجر المسنون مـــسدّد إلى رقبتها، فإنها لم تمسك نفسها عن الشعور بالكبرياء لشعورها بالسلطة. لقـــد استحقت الخبيثة، نفّاثة السم، ما تعرّضت لـــه، وهذه أمثولة جيدة للعمّات الأخـــريات. الآن، الصديقات العطوفات، العمّات الغيورات، أصبحن يعرفن جميعاً أن عليهنّ ألا يتجاوزن الحدود، وإذا تجرّأن، فالآن، هكذا هو الواقع: من يتبدّل مع دوريـــس أو مع السيدة بريجيدا فإنه يجازف بحياته... ومن شاء أن يجعل من نفسه حيواناً، فإنه يجد الطريقة في الحال. أمضت أمسية ساحرة، وسمعت على الأقل عشر روايـــات مختلفة عن الحدث، ولكن، مع الليل عادت ظلال الخوف المظلمة تسيطر عليها.

تلك الخطوبة كانت زجاجاً حساساً لا قيمة لـــه، ومصنوعاً من مادة سريعة العطـــب. منـــشغلة الفكـــر بالـــصهر، بطريقته المكشوفة وغير الجادة، ومنشغلة، خـــصوصاً، بدوريس التي تستهلك نفسها بالانتظار: غضب، مزاج سيئ، ارتباك، اســـتعجال وعـــدم اهـــتمام بأي شيء، فأين هي الصغيرة الخجول، طالبة مدرسة

الـــراهبات؟ دائمـــاً تائهة الفكر وذات قابلية قليلة، ولكنها الآن لا تتذوّق الطعام، وأصـــبحت حدقتاها سوداوين، وظهرها منحنياً وغدت أكثر هزالاً: عظام وجلد. قـــبل شـــهر واحد من الزواج، اعترتها الحمى وسعال متواصل. استدعت السيدة بـــريجيدا الطبـــيب دافيد، وبعد معاينة طويلة والسماعة الطبية على ظهر المريضة، ونقـــرات الأصـــابع على العظام الظاهرة "لنقل ثلاثاً وثلاثين"، فإن الطبيب نصح بالـــذهاب إلى العاصـــمة لإجـــراء فحوصات مختبرية، وربما لأخذ صور شعاعية، والأمـــثل هو تأجيل الزواج ريثما تعود دوريس قوية: "إنها ضعيفة جداً، أكثر من المعقول، والفحوصات لا بد منها"، استنتج الطبيب.

أحسّت السيدة بريجيدا بالعالم يدور بها:

– هل هي مريضة في صدرها، دكتور؟

– لا أظن، ولكنها قد تصاب في صدرها إذا استمرت هكذا، التغذية، الراحة، الفحوصات، وتأجيل الزواج لعدة أشهر، مسائل لا بد منها.

أبقـــت السيدة بريجيدا، الملكة الأم، نفسها قوية: إنّ الأدوية التقليدية تخفض الحـــرارة، وبواسطتها قلّ السعال، وأصبح التحسن ملحوظاً لا جدال فيه؛ إذاً فلتبق الفحوصـــات إلى يوم الذهاب الاضطراري إلى العاصمة في رحلة شهر العسل، ولم يعـــودوا للحديث في ذلك الموضوع؛ زجاج سريع العطب، مادة سريعة الانكسار، وخطـــوبة لا تستحق التقدير تدافع عنها السيدة بريجيدا، محافظة على نفسها وهي تبتلع القرف والاشمئزاز، والكثير الكثير من الخوف.

12

بالكعـــب العالي، وفستان الحرير الطويل، والقبعة المزيّنة بالزهور الطبيعية، عبر الممـــرات الـــتي تتعطّر بالروائح الطبيعية، ومتألقة بالواجب الذي أدّته، فإن السيدة بـــريجيدا كانت في يوم الزواج ذات نجم ساطع؛ أخيراً ها هو مرفأ الأمان والمرسى الأخير، لقد انتهت إلى الأبد تهديدات الشقاء، ولم تعد الأحوال مرضية وعلى قدر الحال. لقد أدّت واجبها بوصفها أماً، وكانت تتلقّى التهاني بابتسامة مناسبة.

دوريـــس، بفـــستان الزواج، وكثرة الزينة المأخوذة عن إحدى مجلات الريو، والنقـــيب ببدلة زرقاء من الكشمير، عريس جديد، والمدعوون بملابس الآحاد، ثم

الاحـــتفال بالزواج الذي لم يُتناول بالتعليق زواج أكثر منه في تاريخ كاجازيراس الـــشمالية، في محلـــة ماتريز، ثم الاحتفال الديني، مع دموع الأمومة وخطبة الأب ســـيريليو، أمـــا عقـــد الـــزواج المدني ففي بيت العروس مع خطبة دافئة للقاضي أوشتاكيو فياليو غوميز نيتو، الشاعر فياليو نيتو، تضمّنت الخطبة صوراً صاعقة عن الحـــب، الشعور الإلهي الذي يحوِّل العاصفة إلى سكون، وينقل الجبال من أماكنها، ويضيء الظلمات.

وجـــاءت كل المدينة إلى محلة ماتريزا، بمن فيهم السيدة بونسيانا دي أزفيدو، المـــصنوعة ثانية من القلق، والمتهيئة لقبول الزعامات الجديدة: "إنهم قوم محترمون! واضح، لم يرَ أحد قبل اليوم عروساً جميلة كدوريس، صدّقيني، بريجيدا، إن النقيب وعائلته قوم محترمون، صدّقيني بريجيدا، يا صديقتي الحبيبة". راضية عن نفسها، فإن السيدة بريجيدا تنتهي إلى القبول بالتفخيم الذي تستحقه من العمّات.

الملكة الأم تترأس الاحتفال بانتباه، تدير الوليمة بمن حولها من همين، وتعطي الإماء والخدم الأوامر الدقيقة؛ وفجأة لاحظت مغادرة دوريس للصالة لتغيير فستانها في غرفة النوم، تبعها النقيب، وأقفل الغرفة من الداخل عليهما، يا إلهي، هل يمكن؟ لماذا هذه العجلة؟ ألا يستطيعان الانتظار يوماً آخر، بعض الساعات، مسافة السفر في القطار، وصولاً إلى غرفة الفندق؟ لماذا هنا، على مرأى من كل المدعوّين تقريباً؟

على مرأى من المدعوّين، كل المدعوّين، أجل يا أماه. على مرأى من المدينة كلها إذا أمكـــن. علـــى مرأى من الفتيات والصبايا، كلهنّ، ودون استثناء، على مرأى من هضبة العشق وراء المدرسة، واللواتي كنَّ يتذوّقن نكهة القبل وغيرها، وعلى مرأى من اللـــواتي كـــنَّ يفعلـــن الشيء نفسه في حدائق شاليه آل غويدس مع الأغنياء، ووراء شـــرفات المحلات التجارية مع المحاسبين في الأمسيات الفارغة. أجل على مرأى وأمام جمـــيع اللـــواتي كـــنَّ يأتين ليخبرها عن القبل والعناق والتنهدات والزفرات والصدور المفتوحة والسراويل المحلولة، وجميع اللواتي كنَّ يثرن حسدها ويذللنها بقولهن لها أخت مـــتدرجة وأم رئيـــسة. لـــتأتِ كل نساء المدينة وليرين وليشتهين، المتزوجات منهنّ، الرصـــينات، والـــزانيات، والعـــذارى الغبيات الكثيرات المنتظرات في الحدائق وخلف البـــيوت، والعمّات في الشبابيك والكنائس، والراهبات في الدير، والنساء العاميات من نزل غابـــي، والمستوحشات، فليأتين كلهنّ، دون أن تتخلّف واحدة منهنّ.

الـــيدان مصلوبتان فوق الصدر الضعيف، العينان مضيئتان، الجسد النحيل في ارتجاف، ورغبة في الصراخ، أعلى الصراخ! دوستو، دعني أصرخ، لماذا تفرض عليَّ الصمت يا حبيبـــي؟ تصرخ عالياً حتى تأتي النساء راكضات ويشاهدنها كما "كما خلقـــتني ربـــــي" يـــشاهدن المـــسكينة دوريس وقربها رجل في الفراش متهيِّئ لامتلاكها، ومداعبتها لاهثاً من الرغبة. وفعل ما لا يفعله طالب مدرسة أو متسكع شـــاب في زقـــاق أومترو، فهو بعملية سريعة، يد في الأعلى، وأخرى في الأسفل ينتهـــي من اللعبة. ثم يستعجلها للركض لأن أحدهم يمكن أن يأتي إلى هنا. رجل وأي رجل! جوستنيانو دوارتي دا روزا، النقيب جوستو، الفحل المعروف والمشهور والعالمـــيّ كله لدوريس، إنه زوجها. هل سمعتم؟ إنه زوجها، بعلها، بشهادة موقّعة مـــن القاضي ووثيقة زواج من الكنيسة، زوج، عشيق، فحل، رجلها، وهو بكليته لها في الفراش، في الغرفة هنا قرب صالة الاستقبال، فتعالوا كلكم وانظروا...

13

اعـــذريني ســـيدتي، واسمحي بأن أقول لك، إن الشجار حتى الموت ليس مسألة صعبة، إذ إني قد حضرت كل المعارك الدامية. لقد رأيت الزنجي باسكوال دوسوسيغو صاحب كوخ أنغولي يواجه فرقة من الجنود، فقتل سبعة منهم، وكانت المهزلة.

مع حمل السلاح، تصبح المسألة ذات أبعاد أعمق وأكثر اختلافاً. كل مسيحي مـــع المسدس بيده يصبح شقاوة. لقد انتهت أمة الجبناء: أضع فوهة النار في صدر قريبـــي فأترقّى إلى رئيس عصابة من القتلة أو مفوض في الشرطة. أليس كذلك، يا ابن قومي الأبيض؟

مـــا أردتُ أن أراه لأؤمـــن، هـــو نبـــي قادر على أن يواجه الرعب، أجل، سيدي، روحه من غير هذا العالم تهيم في عتمة الغابة، ليلاً، يقذف النار من منخريه وحـــدقتي عينيه، وجروحه تنـــزف دماً، ويكون ظهوره هو الظهور الأشدُّ إرعاباً. هـــل يعـــرف، صاحب السيادة، ما هو مدى أنياب الرجل الذئب؟ ومدى انغراس أسنانه؟ إنها شفرات حادّة تقطع من بعيد.

في يـــوم مـــن الأيام رحت أختصر الطريق عبر الغابة، وفي ظلمة الليل سمعت ضـــجيج البغل المقطوع الرأس. لن أكذب ولن أروي شعراً؛ كان يكفي أن ألقي

نظـــرة علـــى الحيوان الذي من دون رأس حتى أصبح ناراً في مكاني وأفقد الحركة والكبرياء وأصرخ: "أنجدني يا أبتاه سيسرو، أنقذني من الشرير، آمين..." إليه أدين بالحـــياة، وإلى هـــذا الرمز الذي لا يقهر الذي أحمله في عنقي. مرَّ الخبث عن بعد ثلاثمائة متر فلم يُبق و لم يزر وأصبح كل شيء يابساً، الغابة والعشب فقدم الحيوان والخشخشات كلها، غرسات القرع وزراعة القصب. انتبهي سيدتي: كفى كلاماً عن العنف، فالأمر يوسخ سمعة رجال كثيرين. كانت وحدها، تريزا باتيستا. راغبة في إنقاذ شقي مظلوم وسيِّئ الطالع وبهذا أردّ على تساؤل المتميز الراغب في معرفة ما إذا كانت الصبية تستحق كل هذه الشهرة في الشجاعة. لقد واجهت وقاتلت، وإذا كـــان الصديق لا يتمسك بكلامي، فيكفي أن يتحقّق من الموجودين، إنها لم تهـــرب قـــط و لم تطلب العفو، و لم تستنجد بأحد لمساعدتها، وفي ساعة القدر لم يـــساعدها أحد، فوجدت نفسها وحيدة، و لم تكن في وحشة وحدتها امرأة مهملة من الله ومن أهل الأرض، هكذا أقفلت جسدها: تريزا الجسد المقفل ضد الرصاص والخناجر وسموم الأفاعي.

لا أقول أكثر ولا أعقب، إذ إني سمعتهم يروون هذه الحالة الحقيقية مع التبديل الكـــبير في الفكـــرة، كل واحد يفكّ اللغز على طريقته، يصف ويضيف مغيّراً في الأجـــزاء: وملحقاً القواعد بالأحداث. أحد رابطي الأجزاء ببعضها، من الأغواس، متعجباً من هذه الصورة الكبيرة، وراغباً في تحليل الظاهرة بمنطقية وقاعدة، قال إن تريزا، عندما كانت حديثة السن، باعت روحها للشيطان، فصدّقه الكثيرون. ومحلّل آخـــر برازيلـــي يدعـــى لويس كامارا كاسكودور عندما رأى كل هذه القسوة والوحدة، وضع زهرة في يد تريزا. زهرة ترمز إلى الألم وتتطابق مع الحب.

أن يكـــون كـــل ذلك قد حدث، فإنّي لا أتحمّل مسؤولية التأكيد، ولا أستنكر، فلا شيء يثير دهشتي، ولا أشكُّ في شيء، ولا أناصر فريقاً ضد آخر، فأنا لست من هنا، لقد جئت من الخارج، ولكن انظر يا صاحب السيادة المتميز، كـــم أن العالم شكّاك، فتريزا التي عرفتُها، وأستطيع أن أكون شاهداً عليها، الملقّبة بتريزا القمر الجديد كانت ذات لون عسلي، وطبيعة إنسانية عسلية، وكانت تغنّي الأغـــاني الشعبية، وهي في كل ذاك الأكثر هدوءاً ومسالمة وأنوثة ونعومة من كل نساء العالم.

14

لـدى عودتهما من النهر، صعدت السيدة بريجيدا تتحدّث وحيدة إلى نفسها، مُحاطـة بـالظلال المعتمة. وعند وسط المنجدر، وصل إليها الصراخ يقطع عليها حديـثها الـرتيب مع نفسها؛ ومع بعض الخطوات الأخرى، شاهدت الصغيرة تريـزا مأخـوذة من يديها ورجليها وهي تحاول التخلُّص من قبضة النقيب وترتو كاشوخو.

اختـبأت وراء شـجرة المانجـو، وضمّت الطفلة التي تحملها إلى صدرها، ثم عـادت تلتفت إلى السماء وتتمتم متضرّعة، في يوم ما، يجب أن ينظر الله إلى مثل هذه القباحة ويرسل عقابه. فمتى تأتي نهاية عذابها؟

كـان صراخ الصغيرة تريزا كأنما ينفجر في صدرها ويمزِّق قلبها هي: تمدّدت عيـناها، فأقفلـتهما، وبدا الغضب على وجهها: لقد تغيّرت السيدة بريجيدا وتغيّر العـالم كله من حولها. إن من يقود الفتاة من ذراعيها لم يعد جوستنيانو دوارتي دا روزا صـهرها، المدعـو جوستو، إنه الخنـزير، الوحش الشيطاني، الخارج على المألوف وغير المألوف. يتغذّى من الفتيات، يمتصّ دماءهن، يمضغ لحومهن الطرية، ويكسر عظامهن، الرجل الذئب يساعده مطيعاً ومنقّباً عن الضحايا، يصطاد ويأتي بالـصيد إلى الكلـب الرئيسي من عصابة أولاد السوء. مشوّه ومتوحش مفترس، وأبـسط تسلية لدى الخنـزير هو أن يفترس القاصرات؛ جبان يتمتّع بأكل اللحم الطـري. السيدة بريجيدا في تلك الساعة تكهّنت بالفكرة، وهذه الموهبة في التكهن كانت قد تكوّنت عندها منذ وقت طويل!

ما عدا الخنـزير والرجل الذئب، هنالك أشخاص آخرون مُقلقون على قدم المـساواة، ولا تستطيع السيدة بريجيدا أن تحفظ أسماءهم في رأسها المرتبك، ولكن واحـداً مـنهم ظهـر لها في الغابة، إنها تاجرة لحوم المجازر، فعرفتها في الحال، إنها صاحبة المسلخ البشري: البغلة بلا رأس.

البغلة بلا رأس تستطيع أن تظهر بمظهر السيدة النبيلة، وأن تلعب دور العرّابة، المجاملـة، لكنها لن تخدع السيدة بريجيدا بعد اليوم. عندما كانت قد ظهرت للمرة الأولى في مدخل المزرعة، بعد عدة أيام من دفن دوريس، فإن السيدة بريجيدا كانت مـن استـقبلها وكان النقيب قد خرج على جواده للتحدي في عراك الديوك...

وبيـــنما تأخذ فتاة صغيرة غاية في الجمال من يدها، قدّمت السيدة غابـــي نفسها عـــرّابة ووصية على الفتاة؛ إن السيد النقيب هو من أوصى على الفتاة لتساعد في تـــربية اليتـــيمة، وكان للسيدة غابـــي أساليب مميزة، ومحادثة مسلية، وتبدو مسنّة ذات تربية مرهفة، وليس أفضل منها لزيارة تعزية، وقد عزّت فعلاً الأم المحزونة.

وبينما تتبادلان الأحاديث الحميمة تقريباً، لم تنتبها إلى عودة النقيب؛ في باب غـــرفة الاســـتقبال. مشيراً إليها بإصبعه الكبير، انفجر جوستنيانو دوارتي دا روزا بـــضحكات متواصـــلة تزداد وقعاً في كل مرة، ثم تحوّلت الضحكات المتقطّعة إلى قهقهـــة طـــويلة، بينما يتلوّى بتجويف بطنه. رجل قليل الضحك، ولكنه حين كان يـــضحك بـــتلك الطريقة، لم يكن يروق لأحد النظر إليه. كان يريد أن يتكلم فلا يستطيع وكانت الكلمات تدور ملتفّة على الضحكة.

– صديقات، رفيقات، من كان يقول ذلك؟

وقفت السيدة غابـــي خجلة لا حول لها، ومعتذرة:

– "لقـــد انتهزتُ الفرصة لأقدِّم تعازيَّ" واستأذنت بالانسحاب: "وداعاً أيتها السيدة المحترمة".

كانـــت مـــستعجلة لمغـــادرة الصالة، ممسكة بالفتاة من يدها، ولكن النقيب استوقفها:

– إلى أين تذهبين؟ تستطيعين أن تتكلمي هنا بالذات.

– هنا؟ أليس من الأفضل...

– هنا بالذات أفصحي.

– أجـــل، لقـــد أحـــضرت هـــذه المخلوقة، إنها تستطيع المساعدة في تربية الصغيرة... نظرت إلى السيدة بريجيدا بينما الأرملة تذرف الدموع الإلزامية.

وخفضت سمسارة الدعارة صوتها:

– إنها طيبة الطعم فيما يخصّ الشيء الأساسي.

أمـــسك النقيب نفسه عن الضحك بصعوبة، ولم تعد غابـــي تعرف إذا كان يجب أن تضحك أو أن تبكي شفقةً.

– الـــيوم سأستجلي الأمر، وإذا كانت تستحق العناء، فسأمرّ غداً من هناك وأدفع لك ما وعدتُك به.

- رجـــاءً، نقيب، أعطني جزءاً، اليوم. إني محتاجة، يجب أن أدفع للتي جاءت بها، وقد جاءت من بعيد.

- أأدفـــع مـــالي ســـلفاً، لن تري هذا، لا اليوم ولا أبداً. هل نسيتِ أم أنك تـــريدين أن أذكّـــرك؟ أدفـــع غداً إذا كان هناك ما يجب أن أدفعه. وإذا رغبت، تستطيعين أن تأتي إلى هنا لتقبضي. وهكذا سترافقين حماتي قليلاً؛ مرافقة حماتي، آه! شيء مسل.

من جديد انطلق في الضحك، وغابـــي تتوسّل:

- ادفع لي شيئاً اليوم، رجاءً يا نقيب.

- تعـــالي غداً صباحاً. إذا كانت عذراء أدفع رزمة، وإذا لم تكن فأنصحك بألاّ تظهري هنا...

- لا أتحمّـــل المـــسؤولية. لقد جاؤوا بها على أساس أنها عذراء وجئتُ بها في الحال إلى السيد النقيب. إنّ أفضل ما أتدبّره آتي به إلى السيد.

- لا تـــتحمّلين المسؤولية، أليس كذلك؟ تريدين أن تخدعيني مرة أخرى. ألم تفعلي؟ لماذا لم أدفع لك في المرة الماضية، أوَتظنين أنني أبله؟ ولكن لا تضيِّعي الوقت بالانتظار. اخرجي من هنا.

- ادفع لي على الأقل المال الذي صرفته.

أدار لها النقيب ظهره، وهنا بالذات، أمام الحماة، سأل الفتاة:

- أمـــا زلـــت عـــذراء. لا تكذبـــــي وإلا ســـتنالين مـــا هـــو أسوأ من الكذب..

- لم أعد لا...

- عاد جوستنيانو وأخذ غابـــي من ذراعها ودفعها بقوة:

- إلى الخارج من هنا قبل أن أطيح بوجهك!...

- "بهـــدوء، يـــا نقيب، ما هذا؟" أخذت السيدة بريجيدا تقول قبل أن تفهم سبب ضحك الصهر وتألقه: "بهدوء!"

- لا تتدخّلي في ما لا يعنيك، ابقي في زاويتك حتى تبقي سعيدة.

مـــرة أخـــرى انطلقت الضحكات المتقطعة عندما سمع حماته تتحدّى سمسارة الدعارة:

- اترك هذه الروح الجميلة بسلام...

كاد يموت ضحكاً!

- "هـــل تعرفين مَن هذه الروح الجميلة؟ ألا تعرفين؟ أجل ستعرفين الآن. ألم تـــسمعي قط عن غابـــي، بغلة الكاهن، التي كانت عشيقة الأب كابريسيو وبعد وفاتـــه أسّـــست نزلاً للفتيات؟ وبمال القداسات..." آلمه تجويف بطنه وقد أخذه الضحك من فمه وحتى أحشائه:

- إلى هنا! إلهي! وكفى.

وهي تخبّ، أدركت غابـــي، بغلة الكاهن، الطريق العام، وذيلها بين فخذيها خاوية الوفاض، وأرادت الفتاة أن ترافقها إلا أن النقيب منعها:

- "أنت تبقين..." تأمّل في جسدها بعين الخبير، لقد كانت تستحق العناء.

- منذ كم من الوقت؟

- منذ شهر يا سيد!

- فقط شهر واحد؟ لا تكذبـــي.

- فقط أيها السيد.

- ومن كان؟

- الأستاذ إميليانو صاحب المصنع.

كان يجب أن ينفجر ويحطّم أنف الداعرة القذرة اللصة لأنها حاولت أن تبيعه لحمـــاً من مسلخ آل غويدس. إنهم مزاحمون أقوياء، أغنياء، وعلى الأخص إميليانو غـــويدس. من المصنع لم تكن تأتي بغير الفتيات المفتضّات، ومن تلك الأنحاء لم يفز النقيب حتى اليوم بخاتم لعقده.

- أين صرّتك؟

- ليس معي شيء أيها السيد.

- اذهبـــي إلى هناك في الداخل...

ألقـــت الـــسيدة بريجيدا نظرة على صهرها، وأرادت أن تقول شيئاً ما، وأن تـــتلفّظ بكلمـــات قاسية تدينه، ولكن النقيب انطلق من جديد بضحكة: "روح جمـــيلة، هنا روح جميلة"، وإصبعه يشير إلى حماته. وخرجت السيدة بريجيدا وهي تنوح ودخلت الغابة عبر أبواب الجحيم.

لم يبقَ حتى أدنى بقايا الاحترام وكأنها أصبحت غير موجودة. في الليل، وبعد العشاء المظلم على ضوء الفوانيس، قام النقيب يفتِّش عن الفتاة الجديدة في الغرفة التي تنام فيها الطفلة.

"هيا حالاً"، إلى آخر الممر، عبر النور الأحمر الآتي من القنديل شاهدت بريجيدا الخنزير، المتمادي في غيِّه، المسلوب الإرادة وكأنها تراه للمرة الأولى.

واعتدى على الفتاة؛ حتى قبل موت دوريس لم يكن سليم العقل؛ صياح النقيب كان يخترق الجدران: "إن ابن الزانية غويدس، انتهكها من الناحيتين".

خلال ذاك العام والنصف بعد وفاة دوريس ظهرت البغلة بلا رأس عدة مرات تأخذ بيدها فتاة في كل مرة، ولكن يكفي أن تلوح في الدرب أو على الطريق حتى تتبيّنها السيدة بريجيدا. يكفي أن تراها حتى ينقلب العالم إلى جحيم تسكنه الشياطين. لماذا تدفع السيدة بريجيدا ثمن خطاياها وهي على قيد الحياة.

البغلة بلا رأس، صاحبة الكاهن، الناسكة، لا تخدع، وإن بقدر قليل، الخنزير الذي كانت نوبات غضبه تنثر أوراق الشجر، وتقتل العصافير في الغابة:

– لا تجلبي لي لحوماً، لقد قلتُ لك إنني لا آكل فضلات الآخرين... سأطيح بوجهك يا كلبة...

صراخ وتنهدات، ودوي نوبات من الجنون، وصوت حزام الجلد، وزنجية تتوجّع طيلة الليل، وفي عنق الخنزير عقد من الفتيات، والخاتم الأكبر فيه المصنوع من الذهب الصافي، هو لدوريس. رأس السيدة بريجيدا في كل مرة يزداد ثقلاً عن السابق، مرة في هذا العالم، ومرة أخرى في الجحيم، وأيهما أسوأ؟

أين هي تلك السيدة الجليلة بريجيدا، المرأة الأولى في حي العدل، أرملة الإنسان الشريف دكتور أوبالدو كورفيلو، والملكة الأم التي تترأس زواج ابنتها الوحيدة؟ انتفضت الأحداث في رأسها وذاكرتها الضعيفة.. تخلّت عن الاهتمام بملابسها، وتحفّظت بوضع الأردان على قبات قمصانها وستراتها، وارتدت الجوارب القديمة، وأهملت شعرها الأشعث، أصبحت تنسى الأحداث والتواريخ، وتخلط التفاصيل ببعضها، والذاكرة تذهب وتعود غير مستقرة، لا دقة فيها، تقضي أياماً وأياماً منهمكة في أفكارها، تتحدّث وحيدة، وتهتمّ بحفيدتها، وفجأة تغرقها حادثة

مـــا في الـــيأس. الوحوش يضطهدونها، وأمامها في المعاناة الجهنمية الخنـــزير الذي افترس ابنتها ويرمي إلى افتراس حفيدها.

بقيت تعي كلياً الجريمة التي ارتكبتها. بلى، السيدة بريجيدا كورفيلو التي ترى نفسها متساوية بغابـــي بغلة الكاهن لأنها غذّت الخنـــزير، وترتو كاشوخو الرجل الـــذئب، لأنهـــا جـــاءت بالـــصيد لجوســـتنيانو دوارتي دا روزا. نقيب الخنازير والـــشياطين... قدّمت لـــه ابنتها ليمتصّ دمها ويكسر عظامها ويأكل القليل من اللحم الذي كان عندها.

لا تحاولوا تبرئتها، رجاءً، معتبرين إياها مخدوعة وضحية الظروف، لأنها عدّت النقـــيب كائـــناً بشرياً وربطت بين الشبق المسعور إلى الفراش وبين قضايا الزواج النبيلة. إنها بحق تكفّر عن خطاياها للجريمة التي ارتكبتها. كانت تعرف الحقيقة منذ الـــبدء، لقـــد عرفت منذ نظرتها الأولى للنقيب، ولم تترك نفسها مخدوعة أبداً. لقد أمـــضت ليالي بيضاء وهي تفكّر وعندها تماماً وسّعت موهبتها في التكهن بالأفكار وقراءة المستقبل.

كانت تعرف، ولكنها لم ترد أن تعرف، وسكتت، ابتلعت السموم والأفاعي ونقـــرت بإصبعها على جرح السل في صدر دوريس، وبالإصبع الآخر نقرت على التـــراب، ومرّت بيد الغفران على أعمال النقيب السيئة... وقادت الابنة الفتية إلى الأعلـــى، إلى الـــسرير الزوجي في غرفة النوم وبفستان الزواج... وكان الخنـــزير يأكلها ظهراً ومساءً ومع قهوة الصباح، وعلى كل وجبة يلتهم قطعة منها وعندما أصـــبحت حـــاملاً، كانت دوريس قد أصبحت صغيرة ونحيلة، ولم يبقَ في النهاية شيء ليدفن.

بـــسبب الجريمة البشعة، فإن الله القادر على كل شيء قد عاقبها بالجحيم خلال حياتها، في بيت صهرها اللعين، وفي حقول الأراضي المهملة. حيث الأجراء يتضوّرون جـــوعاً. وعـــراكات الديـــوك الهـــراتية ذات المناقير الحديدية، والأزلام ذوو الخناجر والبـــنادق، والفتـــيات الـــصغيرات، صـــغيرات وباكرات، وأحياناً القليل من النساء الناضـــجات، وكـــم منهن بعد موت دوريس؟ لقد أضاعت السيدة بريجيدا العدد ولا يفـــيد الجمـــع بين نساء المزرعة لأنه يقتحم الكثيرات في بيت المدينة، خلف المخزن. تنسى أشياء كثيرة، وتتذكّر بعض الأشياء الأخرى. تنسى ارتباك وجنون دوريس. وإذ

مـــا تـــزال الـــسيدة بريجيدا معترضة على الزواج في قرارة نفسها، فإن دوريس مجنونة بكـــبريائها وجهلـــها، دخلـــت بإرادتها إلى غرفة النوم آخذة العريس من يده ساخرة ومتحدّية. لقد انتزعت من ذاكرتها رؤية دوريس في غرفة العرس، إذ كانت دوريس قد أضـــاعت المحافظـــة الأخلاقية وانطلقت يدها ولسانها في التسكع، واستعادت السيدة بـــريجيدا صـــورة الابنة، الطالبة البريئة التي لا تعرف التلاعب، ذات العينين المطرقتين، الموعـــودة للمسيح، في يدها المحفظة الصغيرة والصلاة تتردّد على لسانها، ذات الدعوة الإلهية لأن تكون راهبة. إنها ضحية طموح الأم ورفاهية النقيب...

ونزعت أيضاً من عينيها وذاكرتها صورة دوريس الزوجة المولهة الذليلة العبدة عـــند قدميّ الزوج. لقد دام الزواج وفوران دم دوريس عشرة أشهر، واستغرقت معاناة المرض عشرة أيام سريعة، ولكنها كانت عشرة أجيال من الإذلال والأزمات العنيفة للسيدة بريجيدا.

لم تكـــن، ولن يكون بعدها، زوجة أكثر وفاءً وصبراً. لقد تجاوزت دوريس تلك الشهور العشرة بصورة شاعرية، وهي تمنح مجاناً للنقيب. لقد عادت من شهر العـــسل بقلـــب مليء وبتوقّد رافقها إلى أن ماتت، إنه الوقت الكافي للإنتاج. لقد تجاوبـــت مع أقل رغبة للحبيب السيد زوجها، تتوسّل إليه ليمنحها نظرة، حركة، كلمة، وممارسة جنسية. كانت تمتلئ بالاعتزاز لأن تأخذ بذراع جوستنيانو خلال المـــرات المعدودات إلى السينما أو الزيارات القليلة إلى المدينة. لقد أضعفت السيدة بريجيدا ذاكرتها لشدّة ما حاولت أن تنتزع منها مشاهد غير لائقة: مشهد دوريس فـــوق حـــوض الماء الآسن وهي تغسل، ليلاً، قدمي الخنـــزير وتقبّلهما، تقبّلهما، إصـــبعاً إصبعاً، ومن مرة لأخرى، وبنعمة خالصة يمنحها إياها، وكان النقيب يضع رجله في وجهها، وهنا كانت العظام تقع على الأرض... فتمسك دموعها، وتجهد في الابتسام، فهذه ليست أكثر من مزحة مسلية... هكذا كانت مداعبات النقيب.

أي مقدار من الإذلال، أيها السيد! ولكن دوريس كانت تتمتّع بتلك الحياة، و لم تكـــن تـــريد ســـوى أن تـــنام مع الزوج، وأن تستقبله بين رجليها، فيا لهذه الألاعيب المحزنة.

مـــنذ الـــبدء، مهتمّة بالمشاريع والمطالبات، كانت السيدة بريجيدا تحاول أن تـــتحدّث مـــع صهرها بحثاً عن تفاهم قلبـــي عميق، على طاولة العشاء عرضت

اقتــراحات متواضــعة، مسكناً في المدينة، في محلة ماتريز، في بيت هو ملكهم فلا مــصاريف إيجار، إنه نمط حياة جدير بعائلة ذات اعتبار كبير، وبكلفة قليلة؛ قسم كــبير مــن المــواد يأتي من المخزن، أما الخدم والخياطات فهم قوم يعملون مقابل طعامهم، ولاستقبال الأصدقاء وأصحاب الأراضي الكبار فإن السيدة بريجيدا كانت تعرف كيف تقوم بشراء الصنف الضروري وبالكلفة القليلة. وضع النقيب الشوكة والسكين ولعق أصابعه منظّفاً عنها بقايا الفاصولياء:

- أهذا كل شيء؟ أليس هناك شيء آخر؟

كلمــة واحــدة بعد لم تكن ضرورية لتوضيح أفكاره، وسقطت المحادثة في التــرددات. بعد عدة أيام، عرفت الأرملة بتأجير البيت إلى أحد أتباع آل غويدس صــاحب معمل تقطير الكاشاسا. لم تكن السيدة بريجيدا التي كانت ما تزال مثقلة بالأحلام وبإمكانية التنفيذ قد فقدت الأمل، فعبرت إلى الضفة الأخرى، عبرت من الحــوار إلى الــنقاش، ومن العروض إلى الالتزامات، أن يتصرّف في بيتها دون أن يستــشيرها، فيا للجرأة! فأين سيسكنون عندما يعودون إلى المدينة، أو أن الصهر يفكّر في أن السيدة بريجيدا ستنتهي في هذه الأحراج؟ والاكتفاء بغرف الأموال غير المنقولة في المخزن، وبحماية المحاسبين والأزلام؟ مع مَن يفكّر النقيب أنه يتعامل؟ إنها ليست أياً كان.

وانفتح النقاش ثم أُقفل في الحال وإلى الأبد. كانت السيدة بريجيدا تعرف وهي في أعنف لحظات الانفعال وفي أوج الشعور بالانكسار كم كان النقيب قادراً على الانفجار: "براز!"

بقيت السيدة بريجيدا فاغرة فاها ورافعة يدها في الهواء. وكان النقيب يُطلق عليها من عينيه الناعستين: "أي بيت؟ ولا نصف بيت. فمن الذي فكَّ الرهن في المصرف؟

كــثيرة الغرور، امرأة من الأشراف بل كيس فارغ من الشرف، هذا ما أنت يــا ســيدة، ولــيس عــندك مكان تُدفنين فيه. إذا كنت تجدين هنا مبيتاً وطعاماً فاشــكري ربــك لأنك أم دوريس. إذا كنت تريدين أن تذهبــي الآن، وتعاني الجــوع في المدينة وتعيشي في مأوى الدولة، فالباب مفتوح، فاخرجي قبل الأوان، ولــن يشتاق إليك أحد، وإذا كنت تريدين أن تمكثي هنا، وأن تعيشي على نفقتي، إذاً ضعي لسانك في (...) ولا ترفعي صوتك بعد اليوم".

في هــذه الساعة المحتدمة، أين هي دوريس لتساندها وتعطيها القوة والنضال؟ ولكــن علــى العكس تماماً، فإن دوريس كانت دائماً إلى جانب الزوج ضد الأم نفسها:

- السيدة الوالدة أصبحت لا تطاق، جوستو صبور معها فوق الحدّ. عنده الكثير من المشاكل ليحلّها، بينما الوالدة تثيره. حباً بالله أوقفي هذا ودعينا نعيش بسلام.

في أحــد الأيــام، وقد سمعتها تشتكي إلى إحدى زائرات المدينة، فقد وقفت دوريس في وجهها غاضبة:

- توقفــي عن كل هذا ودفعة واحدة يا أماه، إذا كنت ترغبين في الحياة هنا، إنك تعيشين بالفضل وتتبرّمين.

تحطّــم تاج الملكة: نبيلة البراز، انقطع عرق من عروق عقلها. مكتئبة، هزيلة انقطعت عن الكلام مع الصهر محتفظة بما تبقّى من كرامة ومع ابنتها دوريس إلا في الحالات الملحّة، وراحت تتكلم وحيدة في الحقول.

أمــا فــيما يــتعلق بــدوريس فقد أضاعت هذه الأخيرة كل بقايا الكرامة، والطهارة، واحترام الذات، وأصبحت ألعوبة بين يدي الزوج الذي عاد بكليته إلى عاداته وعقليته السابقة.

غالــباً مــا كان النقيب يصل من المدينة عند الفجر، وفي العرق الذي تجفّفه دوريس عن صدره كانت تشمّ رائحة النساء، والعطور الرخيصة، والروائح القوية، والبــصمات الواضــحة. ولم يخطر قط في بال جوستنيانو دوارتي دا روزا أن يخفي تلــك الآثار مرة واحدة عن الزوجة. وهو في هذه الحال، يكاد يصل قادماً من عند الأخرى من غرفة المخزن الداخلية أو من نزل غابــي، فقد كان يتعاطاها كفاكهة بعــد وجبة طعام، وكانت النحيلة في تلك المناسبات تتنهّد: آه! لم يكن من امرأة ساقطة ندّاً لها.

مــرات أخــرى كــان يحدث أن يكون متعباً جداً إلى حدّ لا يغسل رجليه، فيرفض المياه الآسنة والحنان، "اذهبــي إلى الجحيم واتركيني بسلام"، ويروح يغطّ في الــنوم. وكانــت دوريــس وهي المصدومة تقضي الليل باكية، تجهش بالبكاء بــصوت منخفض حتى لا تزعجه. مَن يدري، قد يأكلها صباحاً عندما يستيقظ. وبالانتظار فإنها عبدة عند رجليه.

لم تكن تغامر قط بالمطالبة بشيء، و لم تفتح فمها لشكوى واحدة حتى عندما كان النقيب التافه الغضوب يسيء معاملتها بالشتائم والتعنيف. ومن كانت تتآكل من الداخل فهي السيدة بريجيدا التي دمّرت المرارة الدائمة عقلها. وفي إحدى المرات ولأن دوريس تأخرت في جلب سترته التي طلبها بصرخات حيوانية، وضع جوستنيانو يده على وجهها، على مرأى الأم:

- ألم تسمعيني أنادي، يا زحافة؟

بكت دوريس في الزوايا، ولكنها لم ترد أن تصغي إلى كلام أمها التي اقترحت في ثورة انفعالها الأول أن تغادر البيت وتذهب حالاً... "مسألة تحمل على الجنون، إنه قطعة جماد بلا أهمية، أنا المذنبة". لقد تأخرت كثيراً، بين هذه وتلك، كانت المرأة النبيلة بريجيدا تتصالح مع السيدة بريجيدا الراجحة العقل.

بهذه الطريقة أو بأخرى، كذا أو كذلك، فقد عرفت دوريس كيف تحافظ على اهتمام النقيب، وربما لأن النيران المشتعلة في صدر المسلولة التي تستهلك نفسها كانت تجعل منها امرأة لا تضاهيها في الجنس امرأة أخرى. وكان النقيب مؤهلاً في هذه المادة واختصاصياً، وقبل يومين من المرض والموت كان ما يزال يمارس الحب معها بالطرق الحيوانية المحض، وكانت دوريس تمنح بلهفة اللقاء الأول نفسها في غرفة العرس في بيت محلة ماتريز عندما راحت تبدّل فستان الزواج.

إنه حب زوجين، عميق ومؤلم بحسب زعم أطروحة الأستاذ القاضي كبير الجمجمة!

أقدم السل خبباً خلال أسبوع الحمل الأخير، وأصبح السعال الخفيف السابق سعالاً متواصلاً بعد الزواج. وازدادت أخاديد الوجه وانحناءة الكتفين، ولكنها فقط كانت تتقيأ الدم عند دنو أيام المخاض. أما الدكتور دافيد الذي جيء به في الشاحنة لإجراء المعاينة، فقد أشار إلى معاينته السابقة: "كنت قد أنذرت. كان يجب تأجيل الزواج وإجراء الفحوصات. الآن، أصبح الأمر متأخراً، و لم يعد الشفاء ممكناً وإن بأعجوبة".

وهي ترى الابنة تنزف حتى الموت، وتبصق الدم، فإن عروقاً أخرى انقطعت في دماغ السيدة بريجيدا. فنسيت الأحداث الخطيرة والكلمات السيئة والكره، وأطفأت الصور الفاضحة وإذلال الزوجة والخطيبة لها. ووجدت من

جديـــد في ذاكـــرها المعطوبة صورة الطالبة الصغيرة في مدرسة الراهبات، دوريس الطاهـــرة ذات العيـــنين المطرقتين والصليب في عنقها، بعيدة عن السوء وفي طريق الـــرهبنة. ومـــع الابنة المستقرة من جديد في ذاكرها رمزاً للقداسة، انعطفت إلى الجحـــيم، حـــيث تـــنفّذ عقوبة جريمتها. ومن البراعة بقي لها ما هو كاف للعناية بالحفيدة.

الولادة والموت في الليلة الواحدة، وفي الساعة نفسها تقريباً. المولودة الجديدة، قوية وسمينة، جاءت إلى الدنيا على يدي القابلة نوكينيا، ولكن دوريس سقطت بين يدي الدكتور دافيد الذي تأخر في الوصول ليصدر شهادة الوفاة.

بمـــاذا أحسّ النقيب بعدها؟ ذهب إلى المدينة، وبعد أن أوصل الدكتور دافيد إلى منـــــزله، تـــوجّه بشاحنة إلى منـــزل غابـــي حيث أربعة ساهرين متأخرين كانوا يشربون الكونياك بصحبة فالديس الفتاة الخجولة من عملها. وبعد اتفاق مع أحـــد الأربعة على الليلة الكاملة كانت الفتاة تنتظر بفارغ الصبر، معانية النعاس، انـــتهاء الكاشاســـا التي يشربها الزبائن المسترسلون في مناقشة حول كرة القدم. في الـــشرفة، كان أرودا الفتى، وقوّاد غابـــي، يقف معانياً النعاس هو الآخر. ودخل النقـــيب عبر الباب الداخلي دون أن يقول كلمة، فأخذ زجاجة الكونياك وأفرغها في جوفه.

استيقظ أرودا غاضباً وقصد الشجار ولكنه عندما لمح جوستنيانو ابتلع رجولته.

اكتفـــى النقـــيب بالفتاة فالديسي مع عدم وجود أفضل منها. وإذ كان قد حصل عليها بالقوة في الاتفاق السابق، فإلها قاومت الدعوة "اذهب من هنا"! فوجّه لهـــا صفعتين وشدّها من شعرها الطويل وأقفل عليها الباب، ومن هناك خرج عند الصباح الباكر.

في مركز المدينة كان خبر موت دوريس مع تفاصيله المذهلة قد جعل العمّات يعقدن اجتماعاً في جلسة داخل الكنيسة، فشاهدن النقيب جوستنيانو يجتاز الشارع آتياً من نواحي كياداغوا حيث العاهرات يمارسن أعمالهن.. كان متثاقلاً، ضخماً، متباطئاً، نجساً، حيواناً.

وإذ ماتـــت الابنة ودفنت، تخيّلت السيدة بريجيدا أنها ستكون الوريثة، وبجرأة علوية حرّكت صوتها، وطالبت بالجرد، فضحك النقيب، الجرد كان قد أوكل إلى

القاضي الأكبر، وبخدمة جليلة ترك لها حق الاحتفاظ بالغرفة الداخلية والاهتمام بالطفلة المولودة.

ومع توالي الأيام وتعاقب الفتيات، بعد عام ونصف من دفن دوريس، أصبحت مهملة، هزيلة، وعلى قسط كبير من الجنون، بقيت السيدة بريجيدا تعيش بين وحوش العمل الإلزامي: الخنزير، والرجل الذئب، والبغلة بلا رأس، يضطهدها شعور مؤلم بالذنب، كونها منفّذة الجريمة التي لا تغتفر ضد ابنتها البريئة الضعيفة وهي هنا تنفّذ العقوبة، عقوبة الجحيم وهي على قيد الحياة.

بعد ذلك وعندما تكون قد نفّذت العقوبة كاملة، وقاست العذاب الذي أملاه الله، فإن ملاك الثأر يهبط من السماوات، وفي أحاديث لا نهاية لها مع نفسها تراها تحتفل بيوم التحرير. ملاك من السماء، القديس جورجيس، القديس ميخائيل، أو أب بائس بسبب الابنة المفضوحة، أو شريك سرق بتزوير الحساب، أو مربي ديوك هراتية خاسر في الرهانات، أو مستلزم، أو شقي ما، ومن يدري فقد يكون الجبان الرجل الذئب هو من سيقتل الخنزير. وعندما تتطهر الخطيئة، فإن السيدة بريجيدا ستنطلق حرّة وغنية حتى توفّر لحفيدتها مصيرها بحكم الجذور الواحدة. آه! ليكن هذا قريباً. وقبل أن تصبح الطفلة فتاة في نظر النقيب، وتتحوّل إلى خاتم في عقد عنقه.

ومن وراء شجرة المانجا، وهي ترتدي الأطمار والطفلة مشدودة إلى صدرها، وشعرها يتطاير، فإن السيدة بريجيدا أضاعت المنظر، أخذ الوحشان الفتاة، الوحشان المهتاجان، ينشران الحركة في المكان، على النبات، في الحرج، في البيت، في السهل كله.

لقد حملا الجسد إلى داخل الغرفة وأقفلا الباب من الخارج، وبصق النقيب على كفي يديه وفركهما الواحدة بالأخرى.

وضع النقيب المفتاح في المزلاج، فتح باب الغرفة ودخل، غيّر مكان المفتاح ثم أقفل الباب من الداخل ووضع الفانوس أرضاً. لملمت تريزا جسدها، ووقفت مسندة ظهرها إلى الحائط في الركن البعيد، حذرة وشفتاها نصف منفتحتين، بدا جوستنيانو دوارتي دا روزا على غير عجلة من أمره، خلع سترته وعلّقها على مسمار في الحائط بين سوط الجلد والرسم الزيتي للبشارة بولادة المسيح، وخلع سرواله وبدأ يفك رباط حذائه، واستغنى في تلك الليلة عن الماء الفاتر ليغسل رجليه

فغـــداً تغـــسلهما لـــه المملوكة الجديدة في حوض الماء قبل أن تبدأ مهمتها. وظهر بسرواله الداخلي الطويل وقميصه المفكوكة الأزرار، وبجويف بطنه المنتفخ، والخواتم في أصـــابعه، والعقد في عنقه، وأبدى اهتماماً بالطعام الملقى هناك، فرفعه وتفحّص الـــصحن وطاســـة الماء التي كانت الطبّاخة العجوز غوغا قد وضعتها هناك. بقي الـــصحن غـــير ملمـــوس ولكن تمّ شرب جزء من الماء، وعبر الضوء القليل راقب البـــضاعة: غالية الثمن، كونتو وخمسمائة كروزيرو بالإضافة إلى قيمة المأخوذ من المخـــزن، ولكـــنه لا يـــندم، مال موظف جيداً: جميلة الوجه، ذات جسد أهيف سيكون أجمل عندما تكبر وتصبح امرأة في نصفها الأعلى وعند ردفيها. ومع ذلك، في رأي جوستنيانو دوارتي دا روزا لا شيء يضاهي حصرم الصغيرات كهذه، حين تكـــون ذات طعـــم حليب الأمومة على حدّ قول فنراندا، فنراندا الخدّاعة السافلة، ولكنها ذات طاقة عقلية. إذ كانت تعرف الرغبات والشهوات وتستعمل كلمات ملهبة وتستورد غريبات إلى أراكاجو: أجنبيات خبيرات، يفعلن كل شيء، إلا أن هـــذا ليس الوقت للتفكير في فنراندا، ولتذهب بصخبها إلى الجحيم ومعها محافظ الولاية زبونها وحاميها. لقد قالت فيليبا الحقيقة: لتجد واحدة أجمل من هذه. فقط تـــستطيع أن تلقاها إذا ذهبت إلى العاصمة، تعني باهيا، وحتى في أراكاجو لا يمكن الحـــصول علـــى كمال كهذا، فاللون نحاسي والشعر أسود يسترسل على الظهر والفخذان عاليان؛ إنها لوحة شبيهة بتلك اللوحات المصنوعة للقديسات، وهنا على الحـــائط واحدة منها، إنها تستحق أكثر من هذا السعر، لقد كلّفت الكثير من المال ولكنها ليست غالية، ومن الضروري التمييز. مرَّ النقيب بلسانه بين شفتيه متلمظاً، وخفـــض الـــضوء الملقـــى على الأرض، واشتدّ الظلام "تمدّدي هنا" أعطى أمره. "تمـــدّدي هنا". كرِّر. ومدَّ ذراعيه ليجبرها، فظلت الصغيرة ملتصقة بجانب الحائط، فـــضحك جوستنيانو ضحكة قصيرة. "تريدين أن تعبثي، هل أنت خائفة من هذا؟ إذا أردت، هـــيا بنا! أقدِّر الملاعبة قبل الممارسة. اخدمي نفسك قليلاً ليكون دمك حاراً.." والنقيب يفضِّل هذا، فاللواتي ينطلقن في العمل دون مقاومة لا يبقى راغباً فيهن ما عدا دوريس، ولكنها كانت زوجته، وكيف استطاعت دوريس أن تقاوم في غرفة النوم قرب صالة الاستقبال؟ لم تستطع أن تصرخ، ابتلعت الخوف واشتعل الـــنار في الـــداخل، حتى في بيت عزّاب فنراندا وسط الفرنسيات والأرجنتينيات

والبولونيات لم يكن من امرأة نداً لها في الرغبة والقدرة. والنقيب يجب أن يقتحم. أن يحسّ بالمقاومة والخوف، وكلما ازداد الخوف كان ذلك أفضل. أمر مثير أن يرى الخوف في أعين السافلات، فذلك مثل كأس الكحول يجدّد المزاج. "إذا أردت أن تصرخي، تستطيعين أن تصرخي: ليس في البيت سوى الخادمة والعجوز والطفلة، ولا أحد ينزعج من التنهدات والصراخ. هيا بنا، يا حلوتي". وخطا النقيب خطوة، ففرّت تريزا منه، فتلقّت ضربة على أنفها. ضحك النقيب من جديد. إنها الساعة الأكيدة للبكاء، البكاء يدفئ القلب ويزيد دم جوستنيانو اندفاعاً. وبدلاً من أن تبكي ردّت تريزا برفسة من قدمها: إنها مدرّبة على عراك الفتيان، فأصابت العظم في قصبة ساق الرجل العارية وجرح ظفر إصبع قدمها الجلد. خدش وسيلان دم: كان دم تريزا قد انهمر أولاً. انحنى النقيب ليرى بينما يضع قبضة يده على كتف الصغيرة بكل قوته لتلقينها الدرس. إنها مقاتلة عنيدة وذات تجربة في شجار الأولاد وقد تعلّمت أن المحارب لا يبكي وليس عليها أن تبكي. ولكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها عن الصراخ، فالصلف الفظّ قد فكّ كتفها. "هل أحببت هذا؟ هل تعلّمت؟ هل أنت راضية أو أنك تريدين المزيد؟ تمدّدي، يا شيطانة، تمدّدي قبل أن أدجنك". وبدأ النقيب يغلي رغبة، لقد ساعدت المقاومة في إشعال شهوته، ونشّطت دمه وفتحت شهيّته. "تمدّدي!" بدلاً من أن تطيع فإن الشقية تحاول أن تصيبه مرة أخرى، فلاحقها النقيب بلا حياء، "سترين!" الجلف يحقن صدره وتريزا تحاول أن تتملّص، وتفتح فمها لتتنفس لاهثة، جوستنيانو دوارتي دا روزا يستفيد من الفرصة ويتمكّن أخيراً من أخذها بين ذراعيه. شدَّ بها إلى صدره يقبّلها من عنقها ووجهها، يحاول أن يصل إلى فمها. ولكي يتمكّن منها بصورة أفضل خفّف من الشدة، فتملّصت تريزا، هربت، ووضعت أظافرها في وجهه السمين الذي أمامها. آه! كادت تعمي النقيب الشجاع. من هو الخائف حضرة النقيب؟ ليس في عيني تريزا غير الكراهية، هذا ولا شيء آخر. "يا ابنة الزانية سترين ما يعجبك، لقد انتهى اللعب". تقدّم جوستنيانو فهربت الصغيرة، الظلال المعتمة تتمايل، الدخان يتصاعد، أحمر، خانقاً، يغزو الأنوف، فجُنَّ غضباً، وأصاب النقيب صدر تريزا بضربة سُمعت كأنها ضربة على طبل. فقدت تريزا التوازن فذهبت إلى ما بين الحائط والفراش، تقطّب وجه

جوستنيانو، ابنة الزانية السافلة تريد أن تفقأ عينيه، فانحنى فوق الصغيرة لكنها تابعت التملص، فمدّ ذراعه ليمسك بالفانوس ويطفئه! أحسّ النقيب بلهيب النار في ملابسه عند أعلى خصيتيه. "أيتها المجرمة، القاتلة! دعي هذه الفتيلة حالاً. ستحرقين البيت وعندها أقتلك". تريزا واقفة، في يدها الفانوس يعلو ويتقدّم، خادعها النقيب مرة أخرى يحاول إنقاذ وجهه. أسندت ظهرها إلى الحائط وحرّكت الضوء لتثبت العدو في مكانه. وهي تفعل ذلك، برز الوجه الناضج بالعرق والانحراف. أين هو الخوف. الخوف القاتل لدى كل الأخريات؟ كراهية وحسب. من الضروري تعليمها الخوف. واحترام العشيق والسيد الذي اشتراها بصورة مشروعة. إنه سيدها وكيف يصبح العالم إذا لم يعد فيه احترام؟ وفجأة حقن النقيب نفسه وقفز بقوة وصوته يدوي فتمكّن من إمساكها، غرقت الغرفة في العتمة وضاعت تريزا بين الظلمات. بالنسبة إلى جوستنيانو دوارتي دا روزا هو يوم مضيء، وحشر الصغيرة عند الحائط، وعيناها مليئتان بالكراهية، والمشعل في يدها غير ذي فائدة، من الضروري تربيتها وتعليمها الخوف. لقد جاءت الساعة وها هي الأمثولة الأولى. وتلقّت تريزا على وجهها يده المفتوحة، كم من المرات؟ لا تدري! وكذلك النقيب لا يدري هو الآخر. أمسك بالفانوس فحاولت الصغيرة أن تحمي وجهها بذراعها فلم يفد الأمر كثيراً. يد جوستنيانو دوارتي دا روزا ثقيلة، وهو يضرب براحة اليد وقفاها والخواتم في أصابعه. وسال الدم من تريزا أولاً، نقطة، لا قيمة لها... فاكتفى النقيب ضرباً، فالدّم من فم الصغيرة وسّخ يده. "تعلّمي أن تحترميني، أيتها الملعونة، تعلّمي أن تعطيني، وعندما أقول تمدّدي فيجب أن تتمدّدي. إني سأعلّمك الخوف، وستخافين كثيراً إلى أن تصبحي قادرة على أن تتكهّني برغباتي كسائر الأخريات بل وأسرع منهن". توقف عن الضرب، لقد كانت أمثولة جيدة، ولكن لماذا لا تبكي ابنة الزانية هذه؟ حاولت تريزا أن تبتعد عنه فلم تتمكّن، فأمسك بها النقيب ولوى ذراعها. أرخت الصغيرة أسنانها وشفتيها، فقد تجاوزها الألم وكاد الرجل يكسر ذراعها، لا يجب أن تبكي فالمقاتل لا يبكي في ساعة الموت. شعاع قمر يتسرّب عبر فتحة النافذة الصغيرة في أعلى الباب، شعاع ضئيل ليشهد على القساوة. مع الألم في ذراعها الملتوية، استسلمت تريزا ووقعت متمدّدة على ظهرها، "هل تعلّمت أيتها المتدللة؟" وبينما هو واقف أمام الصغيرة

الملقاة أرضاً، ينضح عرقاً، ومصاباً في رجله ومجروحاً في وجهه كان يضحك مظفراً، فقبل أن يبدأ بالشتائم تأتي ضحكته لتنذر بعقاب القدر. رفع ذراع تريزا، إنها منهارة و لم تعد تشكّل خطراً... في ثورة غضبه انتهى النقيب إلى الضرب من أجل الضرب، وأخذ يسيء المعاملة من أجل إساءة المعاملة، وفي أثناء شعوره بالإذلال نسي الشيء الرئيسي، فعوضاً عن أن يتهيّج، أنهى الصراع بالتلاشي ويبست كل أجزائه. شعاع القمر يصل فوق الفراش المكشوف ليثير ردّة فعل في رغبة جوستنيانو دوارتي دا روزا. أغلق عينيه الناعستين ونزع لباسه، وحرّك حبات العنب فوق الصغيرة: "انظري يا صغيرتي، كل هذا لك، هيا بنا، انزعي فستانك بسرعة. انزعي فستانك، إني أعطيك أمراً". مدّت تريزا يدها إلى سحاب الفستان فرافق النقيب الحركة بخشوع، لقد سيطر على المتمردة الشيطانية "أسرعي، هيا، انزعي الفستان"، هكذا مطيعة، تعطيه المتعة: "أسرعي، هيا بنا"، ومرة واحدة أسندت تريزا يدها إلى الأرض، وقفزت قفزة فتى استعاد أنفاسه في العراك، وانحشرت من جديد في ركن الحائط. فَقَدَ النقيب عقله: "سأعلّمك يا كلبة!" تقدّم خطوة فتلقّى قدم تريزا بخصيتيه، وجع لا أقسى منه ولا أسوأ، فأطلق صرخة مخيفة، وراح يدور ويلتفّ على نفسه. تمكّنت تريزا من الوصول إلى الباب، وطرقت عليه بقبضتيها، طلبت النجدة: "ساعدوني حباً بالله إنه يريد أن يقتلني". هنا بالذات تلقّت الجلدة الأولى من سوط الجلد الخام سوط توصية، سبعة حبال من جلد الثور، مبرومة، ومصنوعة وفق الطلب، وفي كل حبل عشر عقد. جُنَّ جنونه، بغضب، ومع الألم الذي ينال منه، لم يعد النقيب يفكّر بغير الضرب. أصاب السوط تريزا على فخذيها، على بطنها، على صدرها، على كتفيها، على ظهرها، على قفاها، على حاشيتها، على وجهها وكل جلدة تترك آثار الحبال السبعة، وكل حبل يترك آثار العقدات الكاملة خطاً واضحاً وجرحاً لكل عقدة، ودماً منحصراً تحت الجلد أو سائلاً فوقه. الجلد سكين مسنونة والجلدات تصفر في الهواء.. كان النقيب، مجهداً وأعمى كرهاً يكرّ كما يفعل أبداً، حتى الزنجية أونديناً لم تتلقَّ هذا القدر من الضرب. دافعت تريزا عن وجهها بيديها، بجروحها المفتوحة، ومع ذلك لا يجب أن تبكي. ولكن الصراخ والدموع كانت تقفز وتدور خارجة على إرادتها، ولا يكفي أن تريد: تريزا تتلوّى ألماً: "إلى هنا وحسب! حباً بالله!" من الغرفة المجاورة تصل

تـــضرعات بريجيدا، غير ذات فائدة، لا تهدِّئ النقيب ولا تعزّي الصغيرة ولا توقظ الجيران. النقيب الذي لا يتعب: تريزا تلتفّ على نفسها نصف ميتة، الفستان ملطّخ بالدم، والنقيب يستمر بالضرب. "هل تعلّمت يا كلبة؟ مع النقيب جوستو لا أحد يتجرّأ ومن يتجرّأ يلقَ جزاءه... تعلّمي الخوف والطاعة". وإذ ما يزال السوط بيده، انحنى جوستنيانو دوارتي دا روزا ولمس الجسد المنتفخ ولحم الصغيرة... فضلة متبقية مـــن الرغبة عادت تتحرّك في جزئه الأسفل المتوجع، فمكث فوقها وفوك وأشاح الحـــياء وأبعـــد الكبرياء. أحسّ بالصقيع في جسده، إنه بقية ألم ليست بذات أهمية وهـــي لن تمنع النقيب عن أن يبدأ باستعادة الألف وخمسمائة كروزيرو... الصغيرة تتحـــرّك وتجهش في البكاء يائسة. سحب جوستو الفستان إلى أسفل فشوهد الدم علـــى القماش وعلى اللحم المفروم. لمس النهدين، ليسا بنهدين بعد، إنهما شكلان يـــولدان، أما الردفان فيكادان يأخذان شكليهما. إنّها بداية امرأة ليس إلا، صغيرة، وحـــصرم حـــامض، ولكنها كانت تلائم ذوق النقيب وأحسن منها لا يمكن أن يكـــون. إنها كلب آت من الجحيم ولكنها لوحة رائعة. أكلة ملك. وعذرية طرية كهذه لم يرَ قط...، ولكن أبعد من الوجع، وسورة الانفعال، فإن النقيب عاد يتّقد شـــهوة متأهباً بسلاح فعّال للاقتحام، وسيبدأ المهمة. ولكن البائسة ضغطت على فخـــذيها وأقفلـــت حاشيتها فكيف تجد طريقة أو فراراً تنفّذه؟ حاول النقيب أن يـــبعدهما، ولكـــن ليس من قوة إنسانية بقادرة على أن تفعل؛ مرة أخرى يتحرّك الـــسوط في يـــد جوستنيانو دوارتي دا روزا ويعقبه نباح الكلب في ليل الملذّات. وقف وأخذ يضرب بيأس، يضرب ليقتل، حتى يكون مطاعاً عندما يأمر ويرغب. دون طاعة مـــاذا يحـــلّ بالعـــالم؟ زعيق الوجع يضيع في الغابة حيث تلجأ السيدة بريجيدا ومعها حفيدتها بين يديها. يتوقف النقيب عن الضرب عندما تتوقف تريزا عن الصراخ، وهي مـــرتمية ككتلة من اللحم. يرتاح قليلاً، يضع السوط أرضاً، يفتح فخذيها ويمسّ السر الخفـــي. وتحاول الصغيرة الحركة وصفعتان على وجهها تنتهيان بإخضاعها... النقيب يجب أن يأكلهنّ حصرماً برائحة وطعم الحليب... ولكن طعم تريزا دم..

عـــندما تمكّـــنت خـــيوط ضوء الفجر الأول من أن تتسلّل عبر فتحة النافذة الـــضيقة، دارت تريزا على نفسها، نصف محطّمة، والألم في كل مفصل من كيانها، وسحبت نفسها إلى حافة الفراش الموضوع أرضاً، وشربت على دفعتين بقية الماء في

إنـــاء الشرب. وبجهد تمكّنت من الجلوس، وشخير النقيب يجعلها ترتعد خوفاً. لم تكـــن تفكّر في شيء، فقط كانت تحسّ بالكراهية. حتى الآن كانت دائماً مبتسمة ولعـــوباً متجاوبة مع الآخرين ومبتهجة، صديقة الجميع، وطفلة ناعمة.. ولكنها في تلك الليلة تعلّمت الكره، كل الكره ودفعة واحدة. أما الخوف فلم تتعلّمه بعد..

خـــرجت مـــن الفراش زحفاً، وذهبت إلى الإناء المخصص لقضاء الحاجات داخـــل الغـــرفة تتلوّى من الألم وهي تجلس... واستيقظ النقيب على خرير البول. يريدها متيقظة لا قطعة ميتة من اللحم الهشّ. يريد أن يراها تتلقّى العملية وجسدها يتلوى مقاومة ووجعاً. وأن يسمعها تبوّل كان أمراً يثيره جنسياً حتى الجنون.

– تمدّدي، سنقوم بإشعال فتيل آخر.

سحب تريزا من رجلها وألقاها إلى جانبه، عضّ شفتيها وكانت تمتزج الرغبة بـــالألم الموجع المكظوم. لا تقفلي فخذيك إذا كنت لا تريدين أن تموتي متفككة. ولكن الشقية لم تقفل فخذيها وفمها وحسب، فقد فعلت أسوأ من ذلك: وضعت يـــدها في العقـــد وبشدّة قوية في السلسلة الذهبية، تناثرت الخواتم في الغرفة، وكل خاتم هو رمز إلى فتاة أكلها حصرمها. "اللعنة!" وبقفزة واحدة وقف النقيب ناسياً رغـــباته، وأحـــسّ بألم في قلبه وكل كيانه الشاذ. لم يكن في هذا العالم شخص، حيوان، أو شيء ذو قيمة وتقدير عند جوستنيانو دوارتي دا روزا، لا طفلته الصغيرة ولا الـــديك الهراتي كلوديونور بطل الصنف الياباني النقي ولا المسدس الألماني، لا شيء عنده من كل ذلك أثمن من عقد الخواتم في عنقه، عقد العذراوات... في الليلة نفـــسها، الخـــواتم والعقد معاً: "آه! شيطانة! شيطانة، ابنة زانية، لم تتعلّمي بعد، وســـتتعلّمين. ســـتجمعين الخواتم واحداً واحداً!" وبينما السوط في يده أعمى من الغضب والانزعاج وبمظهر يثير الرعب، هوى بالضرب من جديد.

يكـــزّ بعنف ليروّض حيواناً ويجعل الغرف الأخرى في البيت تهتزّ خوفاً، و لم يـــنقص شيء سوى أن يقتلها. نباح الكلاب كان يجيب في المسافات البعيدة عن تأوهـــات تريـــزا: "خذي، يا كلبة، لتتعلّمي". تركها مغشياً عليها ولكن مَن جمع الخواتم كان النقيب نفسه.

عـــندما انتهى من جمعها، أحسّ النقيب نفسه ممتعضاً، تؤلمه ذراعه، وكادت يده تقطع من مفصلها، لم يضرب قط أحداً بهذه الصورة، وكان يعجبه أن يضرب

لتمضية الوقت، ولكنه في هذه المرة تطاول أكثر من المعقول؛ هذا الحيوان الشرس الذي أمامه صعب الترويض؛ ضربها ليكسر إرادتها فلم يكسر إلا قواها الجسدية. وما زال النقيب مشرقاً، لم يستسلم للتعب بعد، فحل قوي طيلة الحياة، وغطّى الصغيرة بجسده، الصغيرة ذات الرأس العنيد، وها هي عذرية أخرى من الذهب تضاف إلى العقد.

نزل عن تريزا وتركها ملقاة في الزاوية كما تلقى الديوك الهراتية المهزومة... يحسّ بألم في جهازه. آه! ابنة الزانية متمرّدة، ولكن حتى الحديد ما كان ليحتمل هذا.

16

الخوف المطبوع على وجه الفتيات في ساعة الاستحقاق ينقر على رغبته الجنسية نقراً، ويعطيه بعداً أعمق وطعماً جنسياً نادراً. أن يراهن مرتعبات، ميتات خوفاً فإنها لذّة عنده لا تضاهى، وأن يكون مجبراً على امتلاكهن عنوة وبقوة السوط فهذه متعة من عند الآلهة. الخوف هو أبو الطاعة. ولكن تريزا هذه جديدة. آه! لا يرى النقيب في عينيها الخوف، وبقدر ما ضربها في الليلة الأولى فإنه لم يعرف منها غير صورة الغضب والتمرد والكراهية. أما الخوف فلا إشارة إليه.

جوستنيانو دوارتي دا روزا كما كان يعرفه الجميع، ويحترمونه، كان رياضياً، مربي ديوك هراتية، وملك المراهنات. وقد راهن هذه المرة مع نفسه، فهو قد استطاع أن يفك مزاليج تريزا المقفلة، ويحصل على عذرية جديدة لمجموعته من الفتيات، فقد يذهب إلى أراكاجو إلى محل صياغة أبدون كارتيادو ليوصي على خاتم ذكر تذكاري عندما يكون قد دجّن الصغيرة أمام رجليه، وجعلها منتبهة لأوامره ونزواته، مستسلمة ومتوسلة ومستعدة لأن تفتح جسدها عند أقل إشارة منه وأن تطلب المزيد. وسيعلمها أن تفعل كل شيء بمقدار ما تفعله نساء بيت عزّاب فراندا الأجنبيات. لقد تعلّمت دوريس في لحظة وأصبحت خبيرة ووفية، ومن المؤسف أنها كانت هزيلة وبشعة... ولكن تريزا هي طبعة قديسة، لقد دفع النقيب ضعف سعرها من المال الكثير ورقة ورقة، وعليه أيضاً أن يضربها عشر مرات في اليوم، وبمقدارها ليلاً... يجب أن يراها ترتعد أمامه، وعندئذ يذهب إلى أراكاجو، إلى صياغة أبدون، ليوصي على خاتم الذهب.

خلال الأيام الأولى، بالإضافة إلى محاولة الهرب، لم يحصل سوى أن النقيب بقي في فراشه، بسبب الإصابة في إحدى خصيتيه نتيجة رفسة تريزا؛ لقد كانت السافلة منتعلة، وكادت أن تعوق النقيب طيلة حياته الباقية. مرتين في اليوم كانت الطباخة العجوز غوغا تفتح الباب وتدخل الغرفة آتية بصحن من الفاصولياء، مع الطحين واللحم المجفّف، وبصفيحة ماء الشرب، وتأخذ المبولة لتفرغها. في الصباح الأول، عندما لاحت غوغا وهي تجلب وجبة الغداء، فإن تريزا لم تتحرّك من الفراش، إذ كانت محطّمة وخائرة القوى. وفي عتمة الغرفة نظرت غوغا إلى الدم ممتعضة، وتناولت السوط، هزّت رأسها وتكلمت من دون توقف:

– ماذا يفيد أن تعاندي النقيب. من الأفضل أن ترضي رغبته في الحال، ولماذا بحق الشيطان تريدين أن تحافظي على "العشرينات الثلاث" من القذارة؟ بماذا تفيدك؟ إنك صغيرة جداً ومتطورة حديثة. إنهم رعاع وسفلة وتضعين نفسك في أزمة معهم. من الأفضل أن تتجاوبي مع رغباته... لقد تعرّضت للضرب المبرح وسمعتك تصرخين... هل تظنين أن أحداً سيأتي للنجدة؟ من؟ العجوز المجنونة؟ إنك أكثر جنوناً منها... أوقفي هذه الضجّة فنحن نحتاج إلى النوم وليس ممكناً أن نسمع الصراخ طيلة الليل. ماذا فعلت للنقيب حتى تركته طريح الفراش؟ هل أنت مجنونة؟ إنك لا تستطيعين أن تخرجي من الغرفة وهذه هي أوامره.

"لا تستطيعين الخروج من الغرفة هذه هي أوامره"، سنرى إذا كنت أستطيع أو لا. وعند العصر، عندما عادت الزنجية فإن تريزا لم تمنحها حتى فرصة الدخول، وانزلقت من الباب المفتوح تلفّ نفسها بشرشف وخرجت تدرك العالم.. في الصالة، رأتها السيدة بريجيدا تمرّ: يا للنفس المعذبة، إنها بقية لحم من وجبة النقيب وفي يوم سيرسل الله عقابه. لقد استحقت بريجيدا الجحيم في حياتها..

تمكّنوا من العثور على الهاربة عند منتصف الليل في قفر بعيد. النقيب محكوم عليه بالراحة الكاملة في الفراش. الجرح المشوّه في حوض الوجه ممرغ بنوع من الشاي المصنوع من أوراق الميحار الملصقة عليه. دواء فعّال لشفاء التهاب العضلات. ومن الفراش أمر بإرسال البعثة لإلقاء القبض عليها بإمرة ترتو كاشوخو، وتوزّع المسلحون في الغابة، ووجدها راعي الحيوانات ماركينيو وهي

نائمة داخل عليقة وكان الأمر الواضح الذي أعطاه النقيب هو عدم الإساءة إليها. إذ إنه لا يسمح لأحد بأن يمسّ امرأته، وحده فقط من كان يحق له بتعنيفها.

جـــيء بها إليه وهي ملتفة بالشرشف. النقيب في جلوس نصفي، وظهره على الوسائد، تناول مسطرة كبيرة، وثقيلة، من خشب البلوط، قديمة من زمن العبودية، ومسطرة من هذه النوعية الممتازة لم تعد تصنع في هذه الأيام. الأزلام كتفوا تريزا، وناولهـــا النقـــيب أربع دزينات من قطع الحلوى: دزينتان في كل يد. لا يجب أن تبكـــي، ولكـــنها مـــن النصف وإلى النهاية كانت تبكي بصوت منخفض وتخنق شهقاتها. مرة أخرى أقفلوا عليها الغرفة الضيقة.

مـــن تلك اللحظة فصاعداً عندما تفتح غوغا الباب، كان أحد الأتباع يقف حارساً في الممر. في اليوم التالي وإذ بلغ الجوع منها مبلغاً لم تستطع تريزا أن تتحمّل فـــنظفت الـــصحن ممـــا فيه. لا يجب أن تبكي، ولكنها بكت. لا يجب أن تأكل، ولكنها أكلت، مسجونة في الغرفة، لم تكن تفكر في غير الهرب.

وقـــد شفيت خصيتاه، فإن النقيب عاد إلى رغبات الفراش. وفي أحد الأيام، ظهرت غوغا في غير الساعات المألوفة وجاء معها أحد الأتباع بالحوض وجرّة الماء. أعطت العجوز تريزا قطعة من الصابون: إنها لك لتستحمّي. فقط عندما انتهت من الحمـــام، عـــادت غوغا لتعلق منشفة في الحائط بين صورة مريم العذراء مع الملاك جـــبريل وســـوط الحبال السبعة الذي ما زال ملطّخاً بالدم، وحينذاك فهمت تريزا سبب الحمام. وأعطتها غوغا التوصية:

– لقـــد طلـــب أن تـــرتدي ملابسك، إنه عمل لطيف. اعملي على أن لا تصرخي فالناس يريدون أن يناموا.

قميص مخرّم ومزخرف بالكشاكش، وقطعة ناعمة من فستان العرس اصفرّت مع الزمن. لماذا لا ترتدين ملابسك؟ أمجنونة أنت؟

ضوء المصباح الباهت ينير سحنة النقيب الذي ينـــزع سرواله ولباسه، وتجنّباً للشكوك سحب العقد من عنقه، ثم ذهب يعلقه فوق الصورة على الحائط. "لماذا لم ترتدي القميص التي أرسلتها لك أيتها العاقة، لماذا احتقرت هديتي؟"

وابتدأ الضرب من جديد، الضرب والصراخ أصبحا مسألة رتيبة، فقط السيدة بريجيدا ما زالت تهرب إلى الغابة تنادي على العدالة الإلهية. العقاب للبائس، العقاب

لفـــتاة الفضائح، لماذا كل هذا العناد والصراخ، هل تكون هذه العامية أحسن من دوريس حتى تجعل نفسها بهذا الاعتداد وهذه الصعوبة! إنه الجحيم في الحياة.

عنـــيداً ومنهجيّاً، وضع النقيب معالجته للأمر عدة مرات على المحك، ستنتهي تريـــزا بتعلم الخوف والاحترام، وبتعلم الطاعة سيدة العالم؛ حتى الحديد يتلوى مع وقع السوط اللين على الجلد، لم تستغرق هذا الوقت واحدة أخرى من المسجلات في مفكـــرته، ولكـــن التجربة كانت قد علمت الشعب داخل البيت أن ينام على الـــزعيق والـــصياح. "ما هذا الزعيق الحيواني؟" أراد أحد الفضوليين المتعجبين، أن يعرف. "لا ليس شيئاً أيها السيد، إنها مجنونة، يربِّيها النقيب". تحمّلت تريزا شهرين تقـــريباً.. كل مرة نال منها النقيب كانت بالإرغام: كل تطور جديد استغرق وقتاً من العنف... يأمر النقيب: (...)، وكانت الفاتنة تقفل فمها، فيأخذ بضربها بعروة الحزام على أعلى ردفتيها: "افتحي يا كلبة!" إلى أن تفتح. كل معرفة جديدة كانت تستغرق ليالي وليالي من التلقين، وكان ضرورياً أن يستعمل اليد المفتوحة ويضعها علـــى وجههـــا. وأن يهوى بقبضته على صدرها، وبالحزام والمسطرة والسوط... واســـتمر الأمـــر هكذا إلى أن خارت قوى تريزا وأصبحت تفهم وتنفّذ... بآثار الجـــراح النازّة والدم المحصور وزعيق الألم بدأت تريزا باتيستا مهامها في الفراش. "أديـــري ظهرك" كان يأمر النقيب، "ابقي على الأربعة"، ولكي يرى ظهرها وهي علـــى الأربعة، كان جوستيانو دوارتي دا روزا يستهلك جلد سوطه الخام، سوط الحبال السبعة، وكل حبل بعشر عقد.

كـــان النقـــيب جوستو عنيداً. لقد راهن مع نفسه: كان على تريزا أن تتعلّم الخوف والاحترام والطاعة المقدسة، وانتهت بتعلمها، فيا للفخر!

17

ســـابقاً، حاولت الهرب مرة ثانية. اكتشفت أن تأهب التابع الحارس في الممر خـــلال ذهـــاب وإيـــاب غوغا قد توقف. ومتأكداً، فإن النقيب بعد شهرين من التدريب المكثف عدَّ تريزا مدجنة بما فيه الكفاية وخاضعة لإرادته.

وإذ لاحظـــت غـــياب الحـــارس، فرّت تريزا مرة ثانية، وهي ترتدي قميص دوريـــس. خفـــيفة السعي كحيوان غابة. لم تبتعد كثيراً: فقد ركض على صراخ

غوغا تابعان والنقيب، وأحاطوا بها حول البيت، وعادوا بها. هذه المرة أمر النقيب بربطها بالحبال، فبقيت بلا حركة، ومن جديد ملقاة في الغرفة.

بعد نصف ساعة، ظهر جوستنيانو دوارتي دا روزا في الباب، وضحك ضحكته الأكيدة: "عقوبة القدر". كان يحمل بيده مكوى من الحديد مليئاً بالجمر الوهاج. رفعه إلى أعلى فم الصغيرة وفتحه من الخلف وتطايرت الشظايا، ولمعت في الداخل جمرات الفحم المشتعلة. وضع إصبعه على لسانه، وفي عمق مكوى الحديد استقرّت بصقته لتتبخّر.

جحظت عينا تريزا، انقبض قلبها وخانتها الشجاعة، وعرفت لون الخوف وطعمه. أرجفت له صوتها وبكت:

- أقسم بالله إنني لن أهرب، فقط أريد أن أستحم إني مليئة وسخاً.

استسلمت دون أن تسترحم، صامتة؛ متضرّعة و لم تتأفف بالشتائم. عندما كان ما يزال لها قوة كانت تقاوم ولا تستسلم. بكت وأدركت بالتأكيد، ولكنها لم تطلب العفو أبداً مع كل ذلك، أما الآن فقد انتهت:

- لا تحرقني، لا تفعل هذا، حباً بالله، لن أهرب أبداً بعد اليوم، أطلب العفو، افعل كل ما تريد، أطلب العفو، رحمة بأمك، لا تفعل هذا، سامحني سامحني!

ابتسم النقيب وهو يلاحظ الخوف في عينيها وفي صوتها، أخيراً لكل شيء في العالم ثمنه ووقته.

كانت الصغيرة مربوطة بالحبال ومعلّقة من أسفل إلى أعلى... أحسّ جوستنيانو دوارتي دا روزا نفسه في الفراش أمام أخمص قدمي تريزا العاريتين، فوضع المكوى المتّقد على أخمص القدم الأولى ثم على الأخمص الثاني.. ففاحت رائحة اللحم المحروق، وشواء الجلد، والزعيق، ثم ساد صمت الموت.

بعد أن أحرقها بالمكوى، فإن النقيب راح يفكّها من الحبال؛ لم يعد من حاجة إلى الحبال وإلى تأهب الحارس في الممر وإلى إقفال الباب... فصل دراسي كامل في الخوف والاحترام، وانتهت تريزا إلى الطاعة.. افتحي فمك، فتفتح بسرعة، وعلى الأربعة فتكون في الحال. وحدها في هذا العالم ومعها الخوف، وها هي تريزا باتيستا خاتم في عقد النقيب.

18

بــين المــزرعة والمخزن أقامت تريزا طيلة أكثر من سنتين مع النقيب جوستو بالمــصاحبة، كــيف؟ لنقل محظية؟ إنها عشيقة النقيب الجديدة على اللسان العام، ولكــن هــل كانت حقاً كذلك؟ إن شرط المصاحبة أو الحظوة، أو الفتاة المعاشرة داخــل البــيت، أو الــصديقة أو العشيقة، يقتضي وجود تفاهم عميق بينها وبين حامــيها، وجملــة واجــبات متبادلة، وحقوق وملذات ومكاسب. وحتى تكون المعاشــرة كاملــة، فإن المحظية تشترط نفقات وبذل الجهود في التفاهم المتبادل.. المعاشرة بالمعنى الكامل والعادل للكلمة هي مسألة رائعة كما هي حال بلينيا صاحبة كــبير القضاة. فالقاضي كان قد أقام لعشيقته بيتا في شارع متكتّم تحيط به حديقة مــن شــجر المانجا والكرز، وفيه كاراج وملجأ، ويحتوي على أثاث بسيط ولكنه نــاعم، بالإضافة إلى الستائر والسجاد، وكان يهبها بالإضافة إلى الضروري للباس والتنـــزّه، بعــض المال الإضافي للنفقات الصغيرة. وكانت بلينيا سبب غيرة حتى النــساء المتزوجات عندما كانت بكامل أناقتها وبعينيها المنخفضتين تتبعها الموظفة وهــي تذهب إلى الخياطة.. كان عندها موظفة للخدمات المنــزلية ولمرافقتها إلى دور الخــياطة، وإلى طبــيب الأســنان والــدكاكين والسينما، أجل، لأن شرف العــشيقات ســريع العطب ويحتاج إلى غطاء دائم، ومقابل هذه المكاسب، كانت بلينـــيا تلزم نفسها بأن تقدِّم للعشيق الرفيع الشأن أعمق مشاعر شخصها الكريم، وأن تضاعف الدلال والاهتمام وأن تكون له رفيقة وحبيبة بالإضافة إلى الإخلاص الــذي هو واجب أساسي ورئيسيّ. وخرق مادة أو أخرى في هذه المواثيق للحياة الكريمة ينتج عن النقص في التكوين البشري، وها هي بلينيا نموذج المصاحبة المثالية، ولكــنها في الــوقت نفــسه عاجزة عن الإخلاص وهو عجز فطري في شخصها اللطــيف.. القاضـــي يدرك ذلك ويتغاضى عنه إذ كان يُغمض عينيه عن زيارات قــريب عشيقته، أيام الجلسات، احتراماً للروابط العائلية. إن زوجته في باهيا تمتلك أقرباء من الذكور رفيعي الشأن ومرحين، فكيف يمنع بلينيا عن استضافة قريب لها شـــهم وهو وحيد عائلته خلال الساعات الطويلة التي يوزّع خلالها العدالة في قاعة المحكمـــة؟ إنـــه رجل مقتنع، ورحابة الصدر لا بدّ منها في بعض الحالات لنجاح صداقة كاملة غير منقوصة.

ليس عشق تريزا عشقاً بالمعنى المعروف، وإن تكن قد انتهت إلى النوم في الفراش الزوجي، تارة في البيت الريفي وأخرى في الفراش القديم في بيت المدينة، وعلى الرغم من الرفاهية التي رفعتها إلى مرتبة أعلى من الأخريات، وأعطتها مستوى خاصاً في حلقة الخادمات والمحميات والداعرات اللواتي تعاقبن في حياة جوستنيانو دوارتي دا روزا. رفاهية ذات قيمة بلا شك، فبالإضافة إلى بعض الفساتين المستعملة من خزانة دوريس، حذاء ومرآة ومشط وقطعة زينة مشتراة من بائع متجوِّل.. في الأشياء الأخرى، خادمة بمستوى الأخريات في العمل من الصباح حتى الليل، أولاً في بيت المزرعة، ثم على شرفة المخزن عندما اكتشف جوستنيانو براعتها في معرفة جداول الحساب والكتابة بالحروف الواضحة، خادمة ومحظية، فإنه أبقى تريزا صاحبة الامتياز الأول في الفراش خلال سنتين وثلاثة أشهر. كان عندها خصوم ومزاحمات. وقد بقين جميعهن في الغرف الخلفية و لم تترقَّ واحدة من فراش القاع إلى الفراش ذي الشراشف النظيفة.

وامرأة واحدة لم تبقَ مفضلة طيلة ذاك الوقت الطويل عند النقيب، صديق التغيير، ووفود من الفتيات (صغيرات، كاهبات، ناضجات) عشن في بيت النقيب جوستنيانو، وبتصرفه. إن اهتمام النقيب الذي يبدأ قوياً كان يتبدّد خلال أيام، أو أسابيع وقلما يدوم أكثر من شهر.. وبعدها كانت التعيسات ينصرفن إلى العالم البعيد وأغلبهن كنَّ يذهبن إلى كياداغوا المكان المعروف للنساء العاميات؛ وقليلات من اللواتي كنَّ أكثر موهبة في الشكل، كنَّ يذهبن إلى أراكاجو أو باهيا حيث أسواق النساء أكبر وأوسع حركة. خلال عشرين سنة ونيف جهّز النقيب بضاعة متعددة ومختلفة الجودة لمراكز الاستهلاك.

في رأي المراقب القضائي إيرتون أمورين وباللغة العلمية، فإن ترجمة هذه العادة في التغيير تسمَّى عجزاً. "عجزاً جنسياً؟" المدّعي العام إيامينونداس تريفو يعترض ثائراً على تفسيرات إيرتون الماورائية، والذي كانت تسليته المفضّلة تقوم على استغلال نيّة زملائه الحسنة وهو يلقي بالسخافات.

- ها أنت تأتي من جديد باختراعاتك.. من أجل نساء بهذا العدد فإنه يحتاج إلى طاقة جحش جنسية.

تفسير كهذا، أجل:

- لا تقل لي دكتوري الشهير إنك لم تقرأ قط مارانيون.

كان المراقب القضائي يحب الجلسات وهو يعرض القرارات الجديدة: "غريغوريو مارانـــيون عـــالم إسباني من جامعة مدريد، هو من يؤكد ويثبت يا حضرة القاضي أنّه يقدر ما يكون عدد النساء أكبر، وتغيير الإناث متعدداً، يكون الشخص أكبر طاقة".

- "مارانـــيون؟" تعجّـــب ماركوس ليموس مسؤول الوثائق في المحكمة: "كنت أعرف النظرية ولكني كنت أعتقد أن صاحبها هو فرويد. مارانيون؟ هل أنت متأكد؟"

- الكتاب عندي في المكتبة إذا رغبت في التأكد.

- إنـــه مـــثقاب نساء يأكل ويبدّل، يبدّل ويأكل، إلى درجة أنني أنا نفسي أرغـــب في أن أكون كذلك. الرجل لا يفعل شيئاً سوى افتضاض العذارى وأنت تصنّفه عاجزاً فأين تجد سخفاً كهذا؟ المدّعي العام لا يقتنع.

رفع إيرتون ذراعيه إلى السماء: "أيتها الجهالة القديسة! لهذا بالذات يا عزيزي أســتاذ السنوات الخمس من التخصص في الكلية، لهذا بالذات: إن الفرد يحتاج إلى تغـــيير المرأة مع كل خطوة ليثير نفسه ويحافظ على طاقته. هل تعرف أنت يا ممثل النـــيابة العامة العزيز، من كان أكبر عاجز جنسي في التاريخ؟ دون جوان، العشيق يتفوق، عشيق الألف امرأة.. ومثقاب آخر ثقوب كازانوفا".

- أما هذه فلا إيرتون، ليست كذلك وإنّها لمفارقة.

لكن القاضي غير الرّاغب في الظهور بمظهر الأقل ثقافة، أكّد وجود مارانيون والنظـــرية الانحرافية، وإن كانت حقيقة أم لا، فإن النظرية طُرحت موضوع نقاش. نقـــاش مـــسهب، وفيما يتعلق بفرويد، فإن الموضوع كان مختلفاً: "نظرية الأحلام والعقد، وقصة ليوناردو دافنشي تلك..".

- لـــيوناردو دافنشي، الرسام؟ كان الدكتور إيمينونداس يعرفه من الكلمات المتقطعة.

- هل كان عاجزاً جنسياً هو الآخر؟

- عاجزاً، لا، كان منحرفاً.

موضوع مناقشات؛ عاجزاً كان أو مثقاباً، فإن النقيب مع وفرة الفتيات، ومن حين لآخر كان يتمسّك بواحدة منهن، على أن تكون صغيرة، جديدة، وما زالت في لباس الطفولة.

– هـــذا للاستشهاد من جديد بفنراندا العالمة، والتي هي بموضوعات الجنس ذات سلطة وخبرة تضاهي بهما فرويد ومارانيون ولكنها أقل تعقيداً منهما. مباشرةً إلى فـــراش الزواج دليل على إعجاب النقيب، إنه امتياز وشرف بالإضافة إلى هدية فـــستان رخـــيص وزوج أحذيـــة وأداة زينة وقطعة قماش؛ ومع هذا تنتهي علاقة الـــرفاهية مع المفضّلات؛ النقيب لم يتعوّد رمي المال بعيداً، أما المصروفات والهدايا الثميـــنة فكان يقدّمها صاحب السمو القاضي لأنه من السهل أن يكون الشخص مبذراً لأموال الآخرين.

لا كلمـــة عطـــف بـــل سحنة متجهّمة، لا شكر أو ملاطفة، فقط السيطرة والـــرغبة في الامـــتلاك. وكان يحدث له، في الساعات الأكثر جنوناً، أن يشير إلى تريـــزا بحركة "إلى الفراش بسرعة!" يرفع تنورتها، يقضي حاجته غير القابلة للتأجيل ويأمرها بالرجوع إلى العمل.

هذا الشبقُ العنيف لم يكن يمنعه عن النوم مع أخريات. وقد أتاحت له الفرصة العـــناية بضيفتين، في الوقت نفسه، في المزرعة والمدينة، غير تريزا، وكان يزورهن جمـــيعاً في الـــيوم نفسه... عجل لتكثير النسل، جواد في إسطبل، ومع ذلك فإن إيـــرتون أمـــورين بالمزاح الذي لا يمكن تجاوزه كان يتّهم النقيب بالعجز الجنسي، وتأكيد سمو القاضي لا يقنع المدّعي العام بأن مارانيون ذاك ليس أكثر من بهيم.

عـــندما جاءت تريزا باتيستا من بيت المزرعة إلى بيت المخزن، وجلست إلى طاولـــة صـــغيرة خُصـــصت لعمـــل الحسابات، كان فضوليون يمرّون في الشارع ليـــتمازحوا فـــيما بينهم: "إن صديقة النقيب الجديدة تستحق العناء!" في المدينة، كانت فتيات جوستنيانو دوارتي دا روزا موضع هجوم دائم في مجلس العمّات، وفي اجتماعات المثقفين الأدبية. واحدة منهن، ماريا روماو، سبّبت ضجة كبيرة عندما شـــوهدت علـــناً وهي تعطي ذراعها إلى النقيب على رصيف السينما لافتة الانتباه بـــردفيها الـــسمينين وصدرها العارم؛ بعد ذلك شاع خبر الحساب المفتوح لتلك الخلاســـية في دكان إينوك على أنه حدث نادر، وجدير بأن يكون نبأ في صحف العاصـــمة.. طويلة سمينة ذات شعر مسبل، كأنها تمثال، العجيب أنها لم تكن صغيرة جديـــدة، وكانت قد أكملت التاسعة عشرة من عمرها عندما نالها النقيب جوستو مـــن عائلـــة جيء بها من أعالي منطقة الداخل باتجاه مزارع الجنوب. وكان زميل

لجوستنيانو دوارتي دا روزا، وباللقب نفسه، النقيب نيكو سوبرينيو، يتاجر بسكان الـداخل، يجمعهم في موسم الجفاف ليبيعهم في غوباس، إنه عمل مزدهر ذو أرباح أكـيدة. وبيـنما يمرّ من هناك، ونظراً لحاجته إلى مؤن، قايض ماريا روماو بلحم مجفّـف، وفاصولياء ودقيق وسكّر أسمر... كانت ماريا روماو الأولى والأخيرة التي نالت حق الحساب المفتوح في الدكان. داعرة قديرة تحشر نفسها بوقاحة في أنوف السكان، ولكنها لم تدم إلا قليلاً إذ إنها لم تكمل الأسبوع الثاني بصحبته.

لم يكن النقيب موهوباً للصداقات الحميمة، وعلى العكس: كان متحفظاً بطبيعته وعدواً للعقد والمعقّدين؛ وفي تلك الفترة، وبينما كان يسرّح ماريا روماو سأله صديقه الدكتور القاضي أوشتاكيو فياليو غوميز نيتو عن مصداقية النبأ الذي ينتشر في الشوارع فلـم يبخل عليه بالخبر الصادق؛ كان القاضي جديداً في المحكمة وعائلته في العاصمة، ويستحيل عليه بسبب وظيفته معاشرة النساء العاميات فراح يفتّش عن فتاة يعدُّ لها بيتاً، ولاحت لـه ماريا روماو مفصّلة جيداً وتفي بالغرض للحالات الطارئة:

- أصحيح ما يقولونه يا نقيب؟ إن تلك الفتاة روماو لم تعد تحيا برفقتك؟

أجـل، صحيح. لقد بادلتُ كل تلك الواجهة الكبيرة بفتاة صغيرة جاءتني بها غابـي مـن أشتانـسيا، من مصنع الجوخ. ارتاح النقيب قليلاً، وأكمل: "تظنُّ غابـي أنها خدعتني. لم يلد بعد من يخدع النقيب يا حضرة الدكتور".

- "قايـضَت، يا نقيب؟ قايضت، كيف؟" استفهم القاضي عن عادات تلك الأرض وعادات النقيب.

- إني أقـوم بـبعض المقايضات مع غابـي، يا دكتور. عندما يكون عندها جديـد تخـبرني، إذا أحببت، قايضت، استأجرت، أقوم بأية عملية تمويل. وعندما أشبع من السافلة فإن المفاوضة تبدأ من جديد.

- "فهمت، لم أكن أفهم مباشرة، كنت سأفهم مع الوقت، أوَتعني أن الصبية حرّة، ومن يرغب...".

- يكفي الحديث مع غابـي. ولكن، وإن تطفّلت بالسؤال، فالدكتور مهتم بها من أجل أي شيء؟

شرح القاضي مشكلته، مع النقيب الذي يأتي له الدكتور بتوصية من أصدقائه ذوي الـنفوذ، كان يمكن أن يفتح صدره للكلام. إن زوجته كانت تُطيل البقاء في

العاصـــمة أكثـــر من مرافقة الزوج بحكم كون أولاده طلاباً في باهيا. كانت تأتي وتعود وكان هو يذهب ويرجع عندما يكون الأمر ممكناً...

- "مصروف هائل" قال النقيب وضغط على أضراسه.

"لو كانت.. ليس مستحسناً الكلام ولكن ما العمل؟ إن تربية الأولاد تقتضي تـضحيات يـا نقيب. الآن، انظر يا صديقي. في مركز قاضي الحقوق المستعجلة، ليس مستحسناً معاشرة بيوت النساء، والشوارع المشبوهة" وأخيراً... فهم النقيب الوضع الحساس. يفكّر في وضع مخلوقة مستقيمة تقوم بالمتطلبات، عندما عرف أن ماريا روما حرّة، وأن النقيب لم يعد متهماً بها...

مـع تعاقـب الأيام تعلّم صاحب السمو، القاضي، الكثير عن العادات وعن النقـيب. وأصبحا صديقين، وتبادلا الخدمات، تجمعهما المصالح المتعددة، وهما في رأي الـشعب شـريكان في الأعمـال الشائنة وتجمعهما عصابة الأربعة: النقيب، القاضي، المندوب ورئيس البلدية. ويفتخر القاضي بأن يعرف، كما لا أحد سواه، عواطـف جوسـتنيانو دوارتي دا روزا. في حلقة المثقفين، وفي المناظرات الركيكة والـتافهة، وكـذلك في الأمـسيات الطويلة مع حرارة صور بلينيا، فإن الدكتور أوشـتاكيو كان يتحدث عن حياة الوجيه المحترم الجنسية والعاطفية. "الحب الجدير بهـذه الكلمـة العلوية يستطيع أن يرفع الرجل الناضج ذا المبادئ الراسخة للقيام بالأعمـال الإنـسانية الكبيرة، والحب الحقيقي، مرة واحدة أحسَّ به جوستنيانو وعانـاه؛ وكانت دوريس هي موضوع ذلك الشعور النقي، فيا للأعمال الإنسانية الكـبيرة الـتي قام بها النقيب، دليلاً على الحب والوله، دليلاً على الحب العلوي؟! أجـل يا زملائي الأعزاء، يا صديقتي الناعمة، من الذي يتزوج من مخلوقة بلا نعمة إلى هذا الحدّ، فقيرة ومسلولة؟ إنه الزواج، القمّة في الجنون، الحب الإلهي أو الأعمى، كما تفضلون، هو حقيقي، أجل. النقيب لم يعترف قط بالحب أمام دوريس، وما عاد يحسّ بـه أبداً، كل الباقي لا يعدو كونه ممارسات جنسية، وضاعات، وموضوعات فراش بسيطة ذات ديمومة تقصر أو تطول، ولكنها إجمالاً قصيرة".

تريـزا لم يكـن عـندها حساب مفتوح في دكان إينوك، وما شاهدها أحد وذراعهـا إلى ذراع النقيب، في ساعة السينما. وبالمقابل كانت الوحيدة طيلة أكثر مـن سـنتين المفضّلة عند جوستنيانو دوارتي دا روزا المتمددة في الفراش الزوجي.

سنتان وثلاثة أشهر كاملة وكم من الوقت كانت ستبقى هناك لو لم يحدث ما حدث؟

السيد القاضي عالم نفس متعمّق وشاعر متمرّد أهدى إلى بلينيا جزءاً كاملاً من الرباعيات الغنائية المؤثرة، لم يرفض فقط أن يضع تريزا إلى جانب دوريس في سلّم العواطف الخاصة "بجوستنيانو دوارتي دا روزا، ولكنه أيضاً أعلنها كما كان يفعل الشعب، عشيقة أو صديقة النقيب. صديقة؟ مَن, تريزا باتيستا؟ وبالتأكيد فإن صاحب السمو القاضي وقد وجد نفسه بطريقة ما معنياً بالأحداث الأخيرة التي جعلت عدم انحيازه في الأمر مسألة صعبة، وقلّلت من إلهامه الشعري، غير سامحة له بالتمييز بين الحب والكراهية بين الخوف ودعمه، قد رأى فقط ضحايا ومجرماً، والمجرم هو تريزا باتيستا، صغيرة وقليلة التجربة ومع ذلك فإنها الرذيلة بعينها وكالحجر شعوراً.

هناك من فكّر تماماً بالعكس! وهم بعض الأشخاص الذين لا مكانة عالية لهم، ولم يكونوا قضائيين ولا رجال أدب من مستوى الدكتور أوشتاكيو فياليو غوميز نيتو والمدعو فياليو نيتو عندما يهبط عليه الوحي الشعري، بل كانوا لا يعرفون القوانين ولا فن الأدب. في النهاية وكما يمكن التحقّق منه، لم يبقَ شيء واضحاً بسبب التدخل الحاسم للأستاذ إميليانو غويدس شقيق آل غويدس الأكبر.

19

إن مشاعر جوستنيانو دوارتي دا روزا بالنسبة إلى تريزا، تلك المشاعر القادرة على أن تدوم طويلاً في الحظوة والاهتمام المتنامي، ما زالت حتى اليوم بانتظار التحديد العادل لعدم وجود اتفاق بين المثقفين حول الموضوع... أما مشاعر تريزا باتيستا فإنها لم تفرض - ولا تستحق - المناظرات والتحليلات التي يجب أن تتقلّص كلها تحت عنوان الخوف.

في البدء، عندما قاومت واعترضت بيأس، فإنها عاشت وجعلت نفسها قوية بكراهيتها للنقيب، وبعدها، كان الخوف، ولا شيء آخر.

وخلال الوقت الذي ساكنت فيه النقيب، فإن تريزا باتيستا كانت عبدة ذليلة، في العمل والفراش، متيقظة ونبيهة. من أجل العمل لم تكن تتحمّل أوامر؛

نـــشيطة، سريعة، يقظة، ولا تكلّ؛ ألقيت على عاتقها مسؤوليات أوسع الخدمات وأثقلها، من تنظيف البيت، وغسل الملابس والكيّ والعمل الشاق طيلة النهار. وفي العمـــل الـــصعب، جعلت نفسها قوية وقاومت، والمتأمل في جسدها النحيف لا يستطيع أن يحكم عليها بالقدرة على حمل أكياس الفاصولياء، ذات العشرين رطلاً، وأحمال اللحوم المجفّفة.

وعرضـــت نفسها على بريجيدا للمساعدة في تربية الحفيدة، ولكن الأرملة لم تكـــن تسمح لها بالاقتراب، حتى بالعواطف، ناحية الطفلة... كانت تريزا بالنسبة إليها الخائنة والعدوة التي تشغل فراش دوريس وتستعمل ملابسها (كانت الفساتين الـــضيقة تظهر محاسنها المتكومة بشكل مثير) وتمهّد لسرقة الصغيرة والإرث، وهي غارقة في الوهم. في عالم الوحوش، كانت السيدة بريجيدا تحافظ على قوتها في كل مـــا يـــتعلق بالحفيدة، الوريثة الوحيدة والشرعية لأموال النقيب، وفي يوم، عندما ينـــــزل مـــن الـــسماء ملاك الثأر، فإن الطفلة الغنية والعجوز المطهرة في الجحيم ستذهبان للعيش في رغد وفي نعمة الله.

الحفيدة هي نصرها، وورقة تحريرها، ومفتاح خلاصها.

كلبة جيء بها من أعماق الجحيم على يد البغلة بلا رأس أو يد الرجل الذئب إلى حظـــيرة الخنـــزيـــر، تتقنّع بأقنعة دوريس، والغاصبة هذه تريد أن تقفل على السيدة بـــريجيدا آخـــر باب للخروج وأن تسرقها وحفيدتها وأن تنتزع منها الأموال والأمل. وكلما كانت تريزا قريبة من الطفلة كانت السيدة بريجيدا تختفي مع الأخيرة.

من أعطاها السلطة للعناية بالطفلة، لم تكن الطفلة لعبة، لم تكن فقط لعبة؟

فتريـــزا تحبّ الأطفال والحيوانات و لم تلهُ مرة واحدة باللعب. السيدة بياتريز، زوجـــة القاضـــي والعرّابة التي اختارتها دوريس وهي ما تزال في بداية الحمل أتت بلعـــبة مـــن باهيا هدية في عيد الميلاد، كانت اللعبة تفتح عينيها وتغمضُها وتقول "مامـــا"، وذات شـــعر أشقر مجعّد وفستان عرس أبيض. وكانت اللعبة توضع في الخـــزانة وأيام الآحاد يُعطى النقيب الطفلة خلال ساعات معدودات، مرة واحدة أخذتها تريزا بين يديها وفجأة انتزعتها منها السيدة بريجيدا وهي تشتم بغضب.

لم تكـــن تريزا تتذمّر من العمل كالتخلص من البول والقذارة في الآنية المعدّة لهـــا، وتنظيف مجاري المياه، والعناية بالجرح المفتوح في فخذ غوغا وجلب الغسيل،

ولكـــن ما كان يؤلمها هو نيّة الأرملة السيئة ومنعها عن لمس الطفلة. كانت تراقُبها مـــن بعـــيد وهي تمشي بخطواتها الهادئة؛ وكان جميلاً أن تُرزق بولد أو أن يكون عندها لعبة.

واجـــبات الفراش كانت أكثر إيلاماً، تُستخدم مطيّة للنقيب، لترضي نزواته، ولتعطي نفسها بنعومة في أية لحظة في الليل والنهار.

بعـــد العـــشاء. وبحـــضوره، كانـــت تأتيه بحوض الماء الفاتر وتغسل رجليه بالـــصابون. وكـــل هذا حتى تأخذ مكان دوريس في رأي السيدة بريجيدا، ولأن دوريس كانت سعيدة وهي تفعل هذا وتعبد رجليه وتقبّل فيهما الأصابع ودائماً ما تلهـــيه بانتظار الفراش والقيام بالمهمة. ولكن بالنسبة إلى تريزا، فالأمر هو واجب خطير وغير آمن وتفضّل عليه ألف مرة العناية بجرح غوغا الذي ينبع منه القيح.

وعـــندما يتذكّـــر دوريس أو لمجرد الإساءة إلى تريزا، كان النقيب يضع رجله في وجه تريزا ويدفعها أرضاً: "لماذا لا تقبّلينها، ألا تعجبك، أيتها الطاعون؟ الأخريات كنَّ يفعلـــن أفضل"، ثم يدفعها: رفسات وكدمات غير ضرورية، إطلاقاً، وبلا معنى، يكفي النقيب إعطاء الأوامر، وكانت تريزا تبتلع الكبرياء والقرف، وتأخذ بلحس رجليه...

لم تحـــسّ تريـــزا بأدنى لذّة، أو أقل رغبة أو اهتمام؛ كل ملامسة جسدية مع جوستنيانو دوارتي دا روزا كانت قرفاً واشمئزازاً وبالخوف وحده تقبل وتفعل، أنثى بالتـــصرف، يقظـــة ومتأهـــبة. في تلك المرحلة من حياتها لم تكن مسائل الفراش والجنس تعني لتريزا غير اللكم والدم والقذارة والمرارة والعبودية، حتى إنّها لم تتصوّر أن هـــذه المسائل يمكن أن تتضمّن فرحاً وتبادلاً أو أنها ببساطة، لذيذة. هذه الأمور كـــون تريـــزا فقط وعاء يفرغ فيه النقيب ويروي منه رغبته كما يفرغ البول في الإناء. أما كيف يمكن أن يكون الجنس بطريقة أخرى، بعطف، وتلامس، وغزل، فـــإن هـــذه الأمور لم تكن تخطر ببالها. لماذا كانت عمّتها فيليبا تقفل على نفسها الباب مع الرجال؟ لا تعرف! الرغبة والشبق والشهوة والفرح، كلها أمور لا وجود لها بالنسبة إلى تريزا باتيستا.

لم تطلـــب مرة واحدة شيئاً، كائناً ما كان، وهي لا تعني مع ذلك شيئاً. لقد أعطاها جوستنيانو فساتين من جهاز دوريس، زوج الأحذية جاء من دكان إينوك، وقـــلادة أو أخـــرى رخيصة في أيام الرضى الكلي، عندما يكون ديك من ديوكه

الهــراتية قــد تــرك خصمه مجندلاً في العراك وقد مزّقته مناقير الحديد، حتى تلك الذكــريات الــنادرة ما كانت لتستبدل الشعور الوحيد المسيطر على صدر تريزا: الخــوف. وعندما يخطر لها الغضب في صوت النقيب وحركاته تعود إليها في الحال رجفة الموت في أخمص القدمين وتشعر ببرد الرعب نفسه الذي اخترقها وهي تراه حاملاً بيده مكوى الحديد، والجمر يتلظّى فيه متّقداً. يكفي أن تسمعه يرفع صوته غير راضٍ ويتلفّظ بكلمة بشعة، ويضحك ضحكته القصيرة، حتى يخترق برد الموت قلب تريزا باتيستا ويحرق أخمص قدميها بمكوى اللظى المستعر.

20

والنقــيب جوســتو، هل كان يعرف أنّ النساء، مثل الرجال، قادرات على المتعة؟ ربما كان يعرف، ولكن الموضوع لم يكن يهمّه كثيراً؛ ولم يهتمّ قط بمشاركة شــريكته الــرغبة والغــزل: امتلاك مشترك، غزل متبادل ومحادثة هادئة بكلمات ناعمــة، أمــور لا وجود لها بالنسبة إلى النقيب، فإن الجميلة في الفراش هي تلك العــذراء الحــصرم، لكــونها غير مُجربة ومتخوّفة صغيرة، أو لكونها قديرة وعالمة بالعهــر، وهــذه هي التي تُلهب شهوته، وكما كان معلوماً لدى الجمهور، كان النقــيب يفــضّلهن جديدات إلى حدّ أنّه كان يُضيف إلى مجموعته في العقد عدد القاصرات الأقل سناً من الخامسة عشرة عاماً اللواتي يقطف عذرياتهن.

لم يــرد أبــداً مــع النساء سوى الحصول على متعته الخاصة. كان يفترض بالتأكيد أن اللواتي كنَّ أشدّ ألماً ومعاناة، هنَّ المشاركات بصورة أفضل.

هكــذا كانت دوريس التي استهلكتها الحمّى؛ حتى في بيت عزّاب فرناندا في أوســاط الأجنبــيات، مــا كان ممكناً العثور على واحدة كدوريس أكثر إجادة للــدعارة. ومأخوذاً بعنجهية الفعل، كان النقيب يحسّ بنفسه راضياً عندما يلاحظ الارتــباك والــرغبة لدى شريكته فيعزو ذلك إلى صفاته الرجولية؛ رجل قادر أن يُمــضي اللــيل كاملاً وهو يتحقّق من العذرية، وأن يمضي الفجر مع امرأة عامية حاذقة؛ منابع توقّده لم تكن من متعة ورغبة لدى الشريكات، بل على العكس، فإنه كــان يتردّد عندما تبدي عذراء ولهاً وترغب في المبادلة وتطالب بالانتباه والعطف، أين يمكن مشاهدة هذا؟ الفحل المثقاب لا يدلّل امرأة.

مـــاذا جـــرى بالنسبة إلى علاقته بتريزا؟ لماذا تأخرت إلى هذا الحدّ في الفراش الزوجـــي؟ لـــماذا لا يستطيع النقيب التخلي عنها، ولا يتعب منها؟ سنتان؛ وقت مرعب! يلقي عينيه على تريزا فتتحرّك الشهوة لديه وتنتشر في صدره. كان يسافر إلى النساء المرفّهات في العاصمة، ولم يكن ينسى تريزا. وقد حدث له في المزرعة أن حطّم "العشرينات الثلاث" لمخلوقة جديدة فوق الفراش الأرضي، وبعدها جاء إلى الفراش الزوجي واندسّ مع تريزا وهو ما يزال ملطّخاً بدم الأولى.

لـــماذا؟ ألأنّهـــا جميلة وذات وجه وجسد جميلين، وفاتنة في نظر الآخرين وما تزال في جدّتها؟ في إحدى الأمسيات وبينما تعرض عليه العاهرة غابـــي خبر صيد جديـــد حققته بنفسها: "على هذه أضع يدي في النار، فإذا لم تكن عذراء من غابة عـــذراء فـــلا تكلف نفسك دفع أي مبلغ"، فإنها، وهي العالمة باهتمامات النقيب، ولكـــي تجعل الاتفاق ممكناً، عرضت عليه استبدالها بتريزا، علماً أن طريدتها ذات دمغة أكيدة:

- حتى إنّي أملك لائحة بالمرشحين المنتظرين دورهم.

النقـــيب لا يـــسمح باستلهام الشعر من امرأته، ومن لا يتذكّر حادثة جونغا الموظف ذي المركز العالي؟ فقد خسر وظيفته وقدرته على استعمال يده اليمنى، ولم يفلت من الموت إلا لذنب اقترفه طبيب مستشفى سانتا كاز؛ وكلّ هذا لأنه شوهد يحـــدّث سيلينا على طريق النهر؛ لهذا أنهت غابـــي الحديث بصورة سيئة وابتلعت الـــضحكة؛ وبغـــضب، فإن جوستنيانو دوارتي دا روزا كاد يصدّع صالة النـــزل بصوته:

- لائحـــة؟ أريـــني إياهـــا لأني أريد أن أعرف من هم أبناء الزانيات الذين يتجرّأون! أين هي اللائحة؟

اختفت مجموعة زبائن المساء، ووجدت غابـــي أكبر صعوبة في تهدئة النقيب الثائر: "ليس هناك أية لائحة، إنها طريقة كلام للإعلاء من شأن الصبية".

- لا حاجة إلى الإعلاء.

علـــى الرغم من المنع، فقد استمرّت الإعلاءات والأحاديث ولائحة الانتظار، وتـــردّدت أسماء جديدة اقتطفها النقيب سراً. في كل ذلك البلد الشاسع لا توجد امرأة واحدة أجمل من تريزا، وكان النقيب يحسّ بالاعتزاز كونه سيد تلك الجوهرة

القــادرة علـى أن تمـلأ عيني الأستاذ إميليانو غويدس الصعب الاختيار، المليونير والإقطاعـي، وعرضها جوستنيانو متباهياً في حفلة عراك الديوك الهراتية، وعندما كـان يـستقبل في دارته الريفية صاحب مزرعة، أو بائعاً متجولاً في المخزن، كان ينادي على المملوكة لتقدّم القهوة أو الكاشاسا، فيتغزّلون بالمالك الذي يُحسد على محظـية بهذا الجمال. ولكنه كان أقل اعتزازاً بها منه بديكه الهراتي كلوديونور البطل الذي لا يقهر والقاتل المفترس.

لم يكـن النقـيب حساساً تجاه الجمال بنوع خاص إلا في ساعة المفاوضة أو المقايـضة أو البيع عندما يكون وجه وجمال جسد الفتاة مالاً نقداً. أما في الفراش، بعدها، فإن قيماً أخرى كانت ثقيلة في ميزان إعجابه.

دوريـس، بشعة ومريضة، دامت بقدر ما عاشت، فلماذا إذاً بقيت تريزا في السرير الزوجي طيلة هذا الوقت؟

ربمـا، من يدري؟ لأنه لم يحسّ بها لحظة واحدة تعطي نفسها كلياً. خاضعة، أجل، وبطاعة كلية، تركن للخدمة، وتنفّذ أوامره وتستجيب لنـزواته دون تأفف تتـصرّف هكذا حتى لا تُضرب. ولكي تتجنّب العقاب والضرب بالمسطرة والحزام وبـسوط الجلـد الخام، كان يأمر فتنفّذ، ولكنها لم تأخذ قط المبادرة ولم تعرض نفـسها أبداً. متمددة، كانت تفتح رجليها وفمها. وكانت تعمل وتنفّذ والنقيب وحـده مـن يأمـر، لم تعرض نفسها قط. أما دوريس فكانت تفكك نفسها في الفـراش: مثيرة، تعرض نفسها وتستبق أوامره، سأفعل كذا وكذا. مثلها لا أحد، حـتى أجنبيات فنراندا. صامتة وفعّالة فإن تريزا كانت تنفّذ الأوامر. لم تكن تترك للنقـيب أن يحسّ بنفسه راضياً مع كل ذلك الخضوع: لقد كلّفه جهداً كبيراً تعليم الخـوف لـتلك المتمـردة، وتدجيـنها وكسر إرادتها. أن يكسر فإنه كان خبيراً بالموضوع، ولهذا بالذات ولأيّ مبرّر أو من دون مبرر، فإنه كان يلجأ إلى الضرب بالمسطرة الكبيرة أو بالسوط ليبقي لمحة الاحترام حيّة ويمنع ولادة التمرّد من جديد. دون الخوف ماذا يحلّ بالعالم؟

وحـتى يصرفها من الخدمة، ولكي يفاوض عليها مع غابـي أو فنراندا لأنّها تستحق العمل في بيت عزّاب فنراندا، وجديرة بالعواصم. ولكي يبيعها إلى الدكتور إميلـيانو، كـان النقـيب ينتظر أن يسيطر عليها بالكامل ويتركها مغرمة متوسلة

كالكـــثيرات غيرهـــا ابتداء من دوريس. إنه تحدٍّ، ورهان آخر مع نفسه! من كان يستطيع أن يتكهّن؟ والنقيب متحفّظ بطبيعته و لم يصل إلى المصارحات إلا قليلاً.

كانـــت الأغلبـــية تتأمل في الأمر، بمن فيها العمّات والقاضي وحلقة الأدباء، وتعـــود الأقلـــية المتأملة في الأمر بالمصارحة الطويلة إلى سبب وحيد: تكوين تريزا باتيستا الرائع ووصولها إلى عتبة سن الخامسة عشرة؛ ثديان نافران وردفان مقوّسان مـــع ذلك اللون الملفوح كالنحاس والجلد الذهبـــي. جلد الدرّاقن حسب التشبيه الـــشعري للقاضـــي الملهم. ومع الأسف، فإن القليلين استطاعوا أن يقدّروا روعة الصورة الشعرية بسبب الجهل بالفاكهة الأجنبية. ماركوس ليموس حارس الوثائق في مصنع السكر، ذو الميول الوطنية فضّل أن يشبّهها بعسل القصب وبثمرة العناية؛ وكان اسم ماركوس ليموس في الأعلى من لائحة غابـــي.

بالنسبة إلى النقيب؟ إنها مهر متوحش! ولكنه دجّنها وامتطاها وفي يده الرسن وعلى فمها الكمّامة.

21

الصغيرة التي تقفز حرّةً، فرحةً، وهي تتسلق الأشجار وتتراكض مع الآخرين وتلهـــو بمسيرات ومعارك المسلحين من الفتيان، المحترمة في العراك ولضحكاتها مع الـــزملاء في المدرســـة، ذات الـــذكاء والذاكرة المشهود لهما من المعلمة. الصغيرة المجـــتهدة، الموهوبة، تنتهي إلى الموت البطيء على فراش الزنزانة الأرضي تحت لفح ضـــربات المـــسطرة الثقـــيلة وجلدات السوط. مرتعدة من الخوف، عاشت تريزا وحـــيدة، و لم تختلط بأحد، في غرفتها المقفلة. من الداخل، مستنفرة باستمرار: لم يكـــن الضغط يخفّف عنها إلا عندما كان النقيب يخرج بسفرة إلى أراكاجو وباهيا مرتين أو ثلاث مرات في العام.

سلخت من ذاكرتها أيام الطفولة والصفاء، في بيت عمها وعمّتها الريفي، وفي مدرسة السيدة مرسيدس، مع جاسيرا وسيسا، وفي الحرب البطولية مع الفتيان، وفي معرض السبت الأسبوعي؛ سلخت كل ذلك من ذاكرتها حتى لا تتذكّر العمّة فيليبا وهـــي تر[illegible]ها لتأتي مع النقيب وتقول لها إنه رجل صالح، وفي بيته سيكون عندك من كل شيء وستكونين سيدة.. العم روزالفو رفع عينيه عن الأرض وخرج ببلادة

مزمنة للمساعدة في الطوق المضروب حولها؛ وكان هو من اعتقلها ولّمها وفي إصبع العمّـــة يلمع الخاتم. ماذا فعلت يا عمي روزالفو، أية جريمة ارتكبت يا عمّتي فيليبا؟ تريــزا تريد أن تنسى؛ سيئة هي الذكرى التي تؤلم داخلها، والباقي تعيشه كحلم؛ تنهض عند شروق الصباح فلا آحاد أو إجازات، وفي الليل تتفرّغ للنقيب، وأحياناً يتواصل الليل مع اليوم التالي. عندما يحدث أن يخرج في سفر، ويبقى في المدينة فهي اللـــيالي المقدّســـة المـــباركة. تنام تريزا، ترتاح من الخوف، وفي الفراش تخرج من ذاكرتها ذكرى الشؤم الميتة ولكن المنحرف يرافقها في الحلم بثقل الحجر..

رغــبت تريزا في إقامة علاقات صداقة مع الشباب والأزلام والنساء القليلات الموجـــودات، ولم يكـــن ذلك سهلاً. إنها فتاة النقيب التي تنام في فراشه الزوجي، والجميع يغرقون في خشية غضب جوستنيانو دوارتي دا روزا السريع. إن محميته لم تكن لتقيم محادثات صريحة وبأسنان بارزة... الكثيرون من السكان شهدوا على ما حصل مع جونغا وقالوا في المحكمة إنهم عرفوا الأمر من الآخرين. ونجا جونغا بحياته محظــوظاً. ودفعت سيلينا ثمن المحادثة والضحكة وسط الاستعراض أمام الجمهور، عندما أدخلها إلى الإسطبل. كان مشهدها يثير الحزن. امرأة النقيب: خطر الموت، مرض معد، وسم أفعى.

مـــرّتين أخذها النقيب معه رديفة على حصانه إلى عراك الديوك الهراتية. كان النقـــيب معتزاً بديوكه اعتزازه بجميلته المصنوعة من خشب الكوكونوس، وهو في غمـــرة متعـــته بإثارة حسد الآخرين. الشباب يحملون المال للمراهنات، والأزلام مـــستنفرون بالخناجر والمسدسات. على الحلبة ديوك الدم، مناقير الحديد، الصدور المنفوخة، والرأس المغسول بالكاشاسا. أغمضت تريزا عينيها حتى لا ترى فأعطاها النقـــيب الأمـــر بالنظر: "مشهد أكثر إثارة من هذا لا يمكن أن يكون؛ يقولون إن مصارعة الثيران أفضل، ولكني أشك! آتي فقط إلى هنا لأني مؤمن بهذه الحقيقة". في المـــرتين خسرت ديوك النقيب الهراتية بشكل مروع، وانهارت بصورة لا سابقة لها ولا يمكـــن تفسيرها. كان يجب أن يكون هناك تفسير، والذنب ذنب تريزا، الأمر واضـــح، بعينـــيها الحائرتين المليئتين بالشفقة وصرخة النـــزاع عندما وقع الديك متخـــبطاً وفي عنقه فتحة يسيل منها الدم. يعرف كم هو سيئ لبطل يحلّ في العراك مـــن الديوك الهراتية أن يجد نفسه وسط جوّ من التشجيع المصحوب بالبكاء سواء

من رجل أو امرأة. طالع شؤم لا مثيل له. في المرة الأولى اكتفى جوستنيانو ببعض الشتائم وبعض الصفعات حتى يعلم تريزا التقدير والإيحاء إلى الديوك. أمّا في المرة الثانية فقد عرّضها النقيب لعملية ضرب من تلك العمليات الكبيرة لأنها جاءته بسوء الطالع وسبّبت خسارة ماله في المراهنات وفي صدمته بانهيار الديك. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يأخذها معه قط على متن الحصان وحرمها من حضور مصارعات الديوك! كيف يستطيع أحد ألاّ يُحبَّ قتال الديوك وأن يكون عاجزاً إلى هذا الحدّ؟ وعدّت تريزا عملية الضرب ثمناً بخساً لإعفائها غير المنتظر، كما أنها كانت تفضّل، في ساعات التوقف عن العمل القليلة أن تُنقِّب في العجوز غوغا عن القمل وتقتله.

هكذا، مع الاضطراب، انقضت سنتان من حياة تريزا في بيت المزرعة. وفي يوم فاجأها النقيب تعبث في ورقة بقطعة من قلم الرصاص؛ أخذ منها الورقة والقلم.

- اسم مَن هذا؟

على الورقة كانت تريزا قد كتبت اسمها، تريزا باتيستا دا أسونسيان، واسم المدرسة طوبياس بريتو، واسم المعلمة مرسيدس ليما.

- إنه اسمي. أجل يا سيدي.

تذكّر النقيب أنه سمع فيليبا تمتدح كتابة وقراءة الصغيرة أثناء عملية المفاوضة وهي تحاول أن تعطي قيمة للمادة التي تبيعها، ولكنه لم يعر الأمر اهتماماً لأن كل اهتمامه كان قائماً آنذاك على برعم العذرية:

- هل تعرفين عمل الحساب؟

- أعرف نعم يا سيد.

- الجداول الأربعة؟

- نعم يا سيد.

بعد عدة أيام نُقلت تريزا إلى بيت المدينة حيث وضعت صرّة ملابسها في غرفة النقيب. لم تحمل معها أي اشتياق إلى المزرعة، ولا حتى إلى غوغا بقملها وجرحها المفتوح؛ في المخزن أخذت مكان موظف هاجر إلى الجنوب، وكان الوحيد الذي يعرف الجداول الأربعة: كان يدعى شيكو نصف الكعب، رجل ثقة،

ويحفـــظ في ذاكرته الموجودات المخزّنة والويل لمن يحاول أن يعبث في البضاعة! أما جابــــي الحــــسابات المتأخــــرة الذي لا بديل عنه، ذو الكشرة والأسنان النافرة باســـتمرار فإنـــه كان يجد صعوبة في جمع اثنين مع اثنين، وأما الولدان الآخران، وأحدهما اسمه بومبيو، والآخر بابا موسكاس فكانا يعرفان كيف يسرقان في الوزن والقـــياس ولكـــنهما كانا ضعيفين في الحساب. كانت تريزا تسجّل المواد المُباعة بالمفرّق، وتجمع، وتتسلّم المال وتعيد الفكّة وتجرد الحسابات الشهرية. خلال ثلاثة أيام بقي جوستنيانو يراقبها ثم أعلن رضاه. كان الزبائن يتجسّسون عليها بأطراف عـــيونهم، يلاحظون الطول وروعة التكوين، و لم يكونوا يرغبون في المحادثة، فامرأة النقيب مرض عضال، سم أفعى، وخطر الموت.

22

حدث مرة وتريزا ما تزال تسكن في المزرعة، أن جاء الأستاذ إميليانو غويدس إلى هناك وقد حملته النيّة للاطّلاع على قطيع رجل أعمال متنوعة، فإن جوستنيانو دوارتي دا روزا كان يشتري ويبيع كل شيء، يشتري رخيصاً، ويبيع نقداً، وليست هـــناك طريقة أخرى لربح المال. وكان قد ألقى يده على عملية مربحة، عدة أشهر بعـــد مرور أحدهم من هناك ويدعى أغريبينو في طريقه إلى معرض سانتانا، قطيع ثيران ملجومة نحيلة كأنها جلد وعظام، أصابها مرض التيفوئيد فنفقت بعض رؤوس الماشـــية، وبـــاع صاحب القطيع المواشي الباقية بقيمة عشرة ريالات للرأس، عند ســـاعة الدفع حسم جوستو سعر بقرة من الحساب كانت قد ماتت لدى رجوعها إلى أرضه، كما حسم سعر رأسين آخرين لقاء بعد المسافة من هناك إلى هنا. وأراد الراعـــي أن يعترض فأغلظ النقيب القول: "لا ترفع صوتك، لا تقل إني سارق، لا أسمح، خذ مالك واذهب من هنا ما دام لديك الوقت لتذهب يا ابن الزانية! وأرسل القطيع ليرعى في المرج ويسمن".

ولكي يتفحّص القطيع ويختار بعض البقرات، قفز الأستاذ إميليانو غويدس عن حـــصانه الأســـود؛ اللجـــام والمهماز من الذهب والفضة؛ فرحّب به جوستنيانو بالحفـــاوة اللائقـــة بزعيم عائلة غويدس، أكبر الإخوة الثلاثة وسيد تلك الأراضي الحقيقـــي؛ وإلى جانبه، كان النقيب جوستو الغني المرعب يتحوّل إلى لا شيء، لا

أحـــد، ويـــبدو فقيراً فَقَدَ الصلافة والرجولة في الصالة؛ وفي يده العصبية الكرباج المــزيّن مـــن أعلاه بالفضة، حدَّق الزائر في السيدة بريجيدا: بعيدة، شائخة، تلفُّ الحفاضات حول حفيدها، لم تعد تبدو هي نفسها.

- "منذ وفاة فقيدتي اختلّ عقلها. لقد أسلمت نفسها لليأس وما عادت تختلط بأحد. إني أبقيها هنا، شفقة" شرح النقيب.

رافق أكبر الإخوة غويدس بنظره الأرملة التي تدفن نفسها في الأحراج:

- من يقول؟ امرأة متميزة إلى هذا الحدّ...

دخلـــت تريزا إلى الصالة آتية بالقهوة، فنسي إميليانو غويدس السيدة بريجيدا وغـــدرات الزمان، برم شاربه، وتأمّل في الخادمة. أصيب بالدهشة، ولم يعد قادراً على إخفاء تعجبه: يا إله السماء!

"شـــكراً يـــا ابنتي" ارتشف القهوة وعيناه على الصغيرة. كان نموذجاً جميلاً، طـــويل القامـــة، نحـــيلاً، ذا شـــعر رمادي وشارب مهذّب وأنف مستقيم قليل الاحديـــداب وعيـــنين نافذتين ويدين معتنى بهما، أعطته تريزا ظهرها وهي تخدم النقيب. كان إميليانو يزن الصفات القيِّمة: أرداف وخصر، أما الخلف فكان متمرّداً في فستان لا يناسبها. رائعة! إنها ما تزال في طور التكوّن، وذات سلوك جيد، ومع العطف والحنان قد تصبح تحفة رائعة.

انتهى شرب القهوة، وذهبا راكبين لمعاينة القطيع. وهناك فصل إميليانو أفضل رؤوس البقـــر واتفـــق على السعر. في طريق العودة، خلال التفاصيل الأخيرة من عملية الشراء، وقف الحصان بباب النقيب، شكر الفارس واعتذر عن قبول الدعوة إلى الترجل.

- "شـــكراً جـــزيلاً، إني على عجلة من أمري". أهمز، ولكن، قبل أن يلكز الحصان، مسّد شاربه، وقال: "ألا تريد أن تضم إلى الصفقة هذه الصغيرة التي عندك في البيت؟ إذا أردت فضع السعر الذي تريد".

لم يفهم النقيب في الحال: "صغيرة في البيت؟ أي منهن، أستاذ؟"

- أتكلم عن الصبية، خادمتك، إني بحاجة إلى عاملة في المصنع.

- إنهـــا محمـــيتي أستاذ، يتيمة الأب والأم وقد جاؤوا بها إليّ لتربيتها، لا أستطيع التخلي عنها. لو كنت أستطيع لكانت لك الآن. اعذرني إذا لم أستطع أن أخدمك.

أنـــزل الأستاذ إميليانو يده، وبالكرباج ذي الرأس الفضي ضرب خفيفاً على فخذ الحصان:

- لا كلام بعد اليوم في هذا الموضوع. أرسل لي البقر. إلى اللقاء.

صـــوت وصـــي عتيق وسيد عريق. بمهمازي الفضة لكز بطن الحيوان وشدّ الـــزمام فجعل الحصان يقفز على حافريه الخلفيتين واقفاً! ثم أعاده إلى وقفته. وبلا وعي تراجع النقيب خطوة. الأستاذ مثّل مشهد المعتذر عندما لامس حافرا الحصان الأماميان الأرض وتصاعد الغبار. صبراً، لقد كانت تربية الفتاة من مهامه ومع ذلك لم يحـــدِّد السعر. في عيني الأستاذ بريق، بريق ماسة خام يجب أن يستخرجها صانع ماهـــر قديـــر. ماسة بهذا النقاء نادرة وفريدة من نوعها. واستمر يحدِّق فيها، صرّة الملابس فوق رأسها؛ وتمايل الردفين. تسلك طريق النهر، وكان أسفلها قد بدأ يذرّ بقـــرنه. لو تمّت العناية بها، في الرفاهية وبالعطف، لكانت الكمال بعينه، ونزوة من نزوات الآلهة، ولكن جوستنيانو، هذا الحيوان ذو الغريزة المنحطّة عاجز عن أن يرى ويهـــذّب ويشذّب، وعن أن يعطي القيمة الحقيقية للنعمة التي تقع عليه. لو كانت للأســـتاذ إميليانو غويدس لحوّلها إلى جوهرة ملكية، باختصاص، وبطريقة ممنهجة، وبهدوء ومتعة. آه: يا لاشتعال العينين السوداوين، وعدم إنصاف الحظ!

النقـــيب جوســـتو على شرفة البيت، يلاحظ في البعيد المطيّة الثائرة؛ حصان أصـــيل وغـــالي الثمن؛ منذ قليل، وهو يقف على حافريه الخلفيين سبّب له القلق، وعلى صهوته فارس العز بمطرّزات الفضة...

جوستنيانو دوارتي دا روزا يعبث في عقد الخواتم، عذريات مقطوفة، حصرماً أخـــضر، الأكثر عناية في الصنع هو خاتم تريزا الذي أكل عذريتها حصرماً مقطوفاً لـــتوِّه. لقـــد كلّفته تريزا ألفاً وخمسمائة كروزيرو مع قيمة المواد التي أخذت من المخـــزن. تريـــزا الجديـــدة، وبالغلاف، تريزا الثلاثة عشر عاماً، تريزا ذات رائحة الحلـــيب ولـــباس الطفـــولة، إذا أراد أن يبيعها، مفتضّة البكارة ورغم كل شيء فـــسيبيعها نقداً ويربح مالاً في تحويل الملكية. إذا أراد أن يبيعها، فالأستاذ إميليانو غـــويدس، أكـــبر إخوة الغويدس، صاحب فراسخ وفراسخ من الأراضي والأزلام الذين لا يُحصون، سيدفع السعر الجيد ليأكل فضلته لكنه لم يكن ينوي بيعها، على الأقل، في الوقت الحالي.

23

رطّبت أمطار الشتاء الأرض القاحلة فتفجّرت البذور متحوّلة إلى نبات، وازدهر الشجر. في احتفالات التسعة والمستقرضات المقدسة، تنطلق الفتيات بغناء الأناشيد، ويتضرّعن لكي يقرع الحظ أبوابهن بالزواج، وينذرن من أجل ذلك النذور. في الدروب تتعالى أنغام الأوكورديونات في ليالي الرقص، وتشتعل القبابيل بنيرانها المضيئة، وبعد الصلوات والتضرعات إلى الشفيع يبدأ الرقص وتنطلق الكحول وبأخص الكاشاسا. العشاق وبنات الهوى أجساد مرتمية في الغاب بين اعتراض وضحك... حزيران شهر القمح والبرتقال وقصب السكر ومواد الحساء وصنع الحلويات والمعجنات وكحول الفاكهة وشراب الجنيباب والمواد الجاهزة والمصابيح المضاءة وشهر القديس أنطونيوس شفيع الراغبين في الزواج، والقديس يوحنا، والقديس بطرس شفيع الأرامل، بينما المدارس في العطلة الصيفية، إنه باختصار شهر تخصيب النساء.

في الصالة الخارجية من بيت صاحب السمو القاضي الأستاذ أوشتاكيو غوميز نيتو، المعروف بقصائده الغنائية الملهبة باسم فياليو نيتو، تجد الأضواء مشتعلة، والكراسي تشغلها زائرات الحياة الحلوة لدى بياتريز غويدس وماركوندس غوميز نيتو الزوجة التي تكون في أغلب الأحيان غائبة؛ الأم العطوف في العاصمة وهي تعتني بالأطفال، وفي أيامنا هذه، لا يمكن ترك الأولاد وحيدين في مدينة كبيرة، مع كل ما فيها من التواءات وانهيارات أخلاقية.

أمطار الشتاء مفيدة أيضاً للسيدة بياتريز، التي، منذ زيارتها الخاطفة في شباط الماضي، وحتى هذه الزيارة الحزيرانية، خلال هذا الوقت القصير من أربعة أشهر، فقد بدت أصغر بعشر سنوات على الأقل.. جلد أملس، نقيّ، لا حفرة ولا تجعيد، وجسد أهيف، وثديان عاليان، ولا يقدّر عمرها بأكثر من ثلاثين ربيعاً أخضر. فاحفظنا يا الله من تفتُّح يذهب إلى هذا الحدّ؛ وبتألّقها المعتاد أطلّت على الصديقات؛ وبعد الزيارة فإن السيدة بونسيانا دي أزفيدو ذات العبارات الطنّانة: "فلانة هذه هي المجد الأثيل للطب الحديث"، وبالنسبة إلى السيدة بونسيانا فإن الجراحة البلاستيكية كانت جريمة ضد الدين والعادات الحسنة: "تغيير الوجه الذي أعطانا إياه الله، وقصّ الجلد، وخياطة الثديين، ومن يدري خياطة أي شيء آخر،

هي الخطيئة المميتة.." أما ماريكينياس بورتيليو فلم تكن موافقة: "إني لا أرى جريمة ولا خطيئة في التجميل"؛ وهي، بالتأكيد، لا تفعل ذلك ولا تجد سبباً له، كونها أرملة فقيرة، ولكن زوجة القاضي كانت تسكن في العاصمة وتعاشر الطبقة الراقية..

- "الراقية والواطئة، عمّة، ولكن الواطئة أكثر من الراقية..." قاطعت السيدة بونسيانا التي لا تُفحم "إنها تجاوزت الأربعين بكثير وتبدو الآن بوجه صبية، وأكثر من ذلك صبية صينية...".

وأشارت إلى عينيها الجديدتين اللوزيتين، اللتين استبدلت بهما السيدة بياتريز عينيها القديمتين الكبيرتين، المعطّنتين، الحزينتين، المتوسلتين، والعاملين المهمين في نجاحها السابق، الغارقتين مع الأسف في بحر من التجاعيد وفي رجلين نحيلتين يُنظر إليهما مع ذلك:

- أكثر من أربعين سنة؟ إلى هذا الحد؟

أكثر من الأربعين بالتأكيد، وعلى الرغم من الإرث والأهل، فقد تأخّرت في الزواج، وكان ضرورياً أن تنتظر صيداً ثميناً وقادراً أن يصمَّ أذنيه عن كلام الملأ:

- "السيدة بياتريز عندما كانت صبية عزباء، كانت تتساهل. الآن، ابنها دانيال الموجود هنا في العام الثاني والعشرين من عمره وهو الثاني لها. البكر، أزاليس، شارف على السابعة والعشرين، وبين الاثنين ولدت لها طفلة ماتت بالنزلة الصدرية، وفي كانون الأول المقبل سيُنهي دراسة الطب. نعم يجب أن تعرفي يا ماريكينياس، أنتِ التي تدافعين عنها كثيراً، إنّ الأولاد الذين بسبب براءتهم تذهب للمراقبة في باهيا، هما هذان المجريان القاسيا العود، وابنتها فيرا، فيرينيا، عمرها أكثر من عشرين سنة، وهي مع خطوتها الأنثوية قد سجّلت الخطوبة الثالثة؛ السيدة المحترمة تبقى في باهيا، للعب الورق والدعارة، ولا تخجل من أن تعلن نفسها الزوجة المضحية من أجل أولادها، كما لو كنا نحن عصابة من العجائز الخرفات اللاتي لا عمل لهن سوى الكلام السيئ عن حياة الآخرين. ألسنا كذلك بالمناسبة؟" وكانت الطيبة ماريكينياس بورتيلو تضحك؛ الأخريات في الوقت نفسه، كنّ يوافقن السيدة بونسيانا دي أزفيدو كونها على علم راسخ بحياة عائلة صاحب السمو ومعارفه وجيران السيدة بريجيدا في الشارع الذي تقيم فيه: "شهود عيان، عيان، يا سيداتي! كل يوم، بعد الظهر، تخرج الأم الحنون إلى زيارة المجاملة لمثيلاتها

في التقـــنع أو لملاقاة الدكتور ليريوبابيتا الأستاذ في الجامعة وعشيقها منذ أكثر من عـــشرين ســـنة، والظاهر أنه هو، عندما كان طالباً، من أقام لها العيد الأول. ولا تكتفي بتركيب القرون للقاضي، فإنها أيضاً تضع القرون للطبيب الفيزيائي الكبير، وتـــتغذّى مـــن الشباب. وهذا ما تفسّره الضرورة لتغيير الوجه وتكييف الجسد، وانتعال نصف كعب ككعب كامل، تغيير العينين، وتخييط الثديين ومن يدري ماذا تخيط أيضاً؟" الحسد يملأ العمّات، يمرمر حلوقهن، ويفلفل ألسنتهن.

بعد عودتها إلى الجلوس، متوجّهة بالكلام إلى زوجها بعد أن نظّفت الصحون مـــن الـــرماد وأعقـــاب الـــسجاير - كانت العمّات قد جئن ليغتبن، بمجاملات مـــسمومة، كعـــصابة من كواسر الطير - دون أن تخفي السيدة بياتريز الانطباع السيئ الذي كوّنته خلال زيارة بعد الظهر إلى السيدة بريجيدا وحفيدتها:

- المرأة المسكينة تعيش في العفونة، خلف الطفلة، وفي الإهمال، وقد تدهورت حالها أكثر خلال هذه الأشهر الأخيرة، إنها تثير الشفقة. ودائماً مع تلك الحكايات المـــنحوتة. لـــو أنّ في مـــا ترويه ذرة من حقيقة، فإنّ صديقك جوستنيانو هذا - إشبيننا - يكون أكبر منحرف في العالم.

وردّ عليها القاضي بتفسيره التقليدي، وكانت تلزمه بالدفاع عن النقيب بعد كـــل زيارة تقوم بها إلى الحفيدة والسيدة بريجيدا وأيضاً بوجود صديقات كثيرات للدكتور المرهف أوبالدو كورفيلو.

- مجنونة، مجنونة، فقيرة، لم تستطع أن تتحمّل موت ابنتها، تعيش هكذا لأنها تريد ذلك، وليس من طريقة لإقناعها بالاهتمام بنفسها. ماذا كان يستطيع النقيب أن يفعـــل؟ إرسالها إلى مأوى باهيا؛ أو إلى مستشفى سان جوان دي ديوس؟ إنك تعرفين الظروف التي يعيش فيها المجانين. على العكس فإن الإشبين يحتفظ بها في بيته الريفـــي، يعطيها كل شيء، ويتركها تهتمّ بالحفيدة التي تتعلّق بها تعلقاً شديداً. من الـــسهل على النقيب، مع العلاقات التي له، أن يتدبّر لها مكاناً شاغراً في المستشفى العقلي، ولكانت المشكلة انحلّت... وتابع:

- أطلب منك بمحبة، يا صديقتي، أن تتجنّبـــي أي حديث يسيء إلى احترام النقـــيب، وليكن ما يكون، فهو عرّابنا، وقد كان لنا صديقاً خدوماً، ونحن مدينون له بالكثير.

– "مديـــنون، لا، يـــا صديقي.." كانت تقول صديقي وهي تضع في صوتها الوقور استهزاءً بصاحب السمو القاضي "أنت مدين.. ومدين بالمال، أظن".

– المال للنفقات، أو أنك تعتقدين أن راتب القاضي يكفي نفقاتنا.

– "لا تنسَ يا صديقي" من جديد لهجة الاستهزاء "إني أدفع نفقاتي الشخصية مـــن عائدات ميراثي، ومع ذلك، بالجزء الصغير الذي تضعه خارجاً، كان ممكناً أن أنقذ الوضع بأعجوبة".

عـــدة مرات كان القاضي قد تسلّم راتبه شكليّاً، وكل مرة كان يقوم بردة الفعل بالصورة نفسها، رافعاً يديه إلى السموات، فاتحاً فاه للاعتراض العنيف؛ وأحياناً لم يكن يعترض، ولم يكن يقول كلمة، كما لو أنه، ضحية من أكبر ضحايا الظلم، يتخلّى عن أي تفسير قابل للنقاش، وعن أي دفاع متفجّر، من أجل السلام العائلي.

مـــع ابتسامة خفيفة تركّب السيدة بياتريز أظافرها الطويلة والمهذبة، والعينان اللّوزيّـــتان تحيد بهما عن الزوج الرجل المسكين الذي لا تفيد ملاطفته لها بالطريقة المتكـــررة، وبالحـــركة الضائعة المضحكة. كان أوشتاكيو يزعجه بفكرة العشيقة الـــريفية، مـــع أقـــنعة الاحترام وأبيات الشعر الحماسي الجديد، فهو مقتر عجوز. وبكليته في أيدي النقيب، حقير من الصنف السافل؛ في خدمته، يرفع بيارقه ويغطّي على أعماله الشريرة. لقد حكم الحظ بأن لا يكون هناك احتمال عودة إلى السياسة وأن تكون هي، السيدة بياتريز نسيبة آل غويدس من ناحية الأم الضمانة الأكيدة. يـــدين لهـــم بتعيينه، هو أوشتاكيو، في رئاسة المحكمة منذ اثنتي عشرة سنة عندما، بملاحظته التباس موضوع الإرث الموعود، مَن فرض عليها ذلك الحل حتى تتجنّب الهجـــر وجرح الشرف الرفيع وهزّت كتفيها تعليقاً: لا تتكلّمن بهذا بعد، فالسيدة بـــريجيدا تهمّها قليلاً أو لا تهمّها أبداً. راحت تزورها لتقوم بواجب اجتماعي، وقد أتـــت لتمـــضية بعض الأيام مع الزوج، بواجب اجتماعي ومصلحة شخصية: فلا أولادهـــا ولا أنسباؤها يرغبون في رؤيتها مطلّقة أو منفصلة عن الزوج. هذا العالم ملـــيء بالتناقـــضات، إنها قواعد اللعبة ولا بد من التقيّد بها، ولا يستطيع أحد أن يتجاهلها.

لا أحد، غير دانيال، الابن الثاني، صورة طبق الأصل عن الأم، وقد دخل إلى غرفة الجلوس مع ابتسامة الإغراء الدائمة، ما كان على دانيال أن يأتي لتمضية شهر

العطلــة برفقة أبيه، واضعاً المسافات بينه وبين السبعين سنة ضوئية في عمر بيرولا شفارتز لياون، مليئاً بالخواتم، والعقود والتنهدات وغيرة العجوز المعوّقة! وهو يضع نفسه موضع الساحر، ويملأ صدره بالتنهد، فإن دان لم يكن أكثر من فتى صغير.

أحـــسّ دانيال بالضغط في الصالة، فهو يكره الشجار والمناقشات والأشخاص المنغلقين ويحاول أن يبث الحياة في المحيط العائلي:

"رحتُ أرقب حال السوق؛ إنّه بنسبة كبيرة حزين، أليس كذلك؟ لقد نسيت كـــيف كان، فأنا لم آتِ إلى هنا منذ جيل. لا أعرف كيف تتحمّل الحياة هنا طيلة العـــام يـــا أبـــــي، مع الذهاب مرتين فقط في العام إلى باهيا. إنّها مسألة قاسية، سأتخـــصّص في الحقـــوق كما تريد ولكن لا تطلب مني أن أكون قاضياً في منطقة الداخل، إنه قيد".

ابتسمت السيدة بياتريز للابن:

– أبـــوك يا دان كان دائماً قليل الطموح، إنه شاعر، ذكي، ومع هذا القدر مـــن الثقافة، يكتب في الصحف، ومع امتيازات عائلتي كان يمكن أن يشقّ لنفسه طريقاً سياسياً، ولكنه لم يشأ، ففضّل القضاء.

– "لكل شيء مكافآته يا ابني". ارتدى القاضي من جديد رداء الاحترام.

– "أصـــدق يا أبـــي". وافق دانيال متذكّراً بلينيا التي سلّم عليها في الشارع، عشيقة الأب الدكتور القاضي.

– هـــنا أستطيع أن أدرس وأن أهيِّئ بهدوء كتابـــي الجديدين، كتاب قانون العقـــوبات وكتاب الشعر. وعندما أتقاعد أفكّر بالتدريس في الكلية، تجذبني مقاعد التدريس، أما السياسة فلم تجذبني أبداً، على العكس: إنها تقزّزني!

واختبأ في ردائه النّقابـــي.

السيدة بياتريز تفضّل أن تغيِّر مجرى المحادثة. إن أساليب أوشتاكيو الوقور تثير أعصابها، يا للتعب!

– دان، هـــل أيقظـــتَ تـــولهات كبيرة وجعلت قلوباً كثيرة تغلي؟ كم من الأزواج، وكم من المدافئ القلبية مهدّدة بالانطفاء؟ كان تنقر غراميات أبنائها، إنها أميـــنة سر متفهّمة وشريكة موزونة، وعلى الأخص عندما كان دانيال يتوغل مع صديقة ما، في سكّته القصيرة.

- النّـــسائيّة ضعف، أمومة، ولكنها عداء أيضاً، مسلخ عام؛ لم أرَ قط شيء كهذا، الشبابيك مقفلة، والاهتمام قليل، على الأقل حتى الآن.

- "ألا يجـــذبك شـــيء؟ يقولون إن صبايا هذا المكان على الرغم من كونهن بـــنات البلد فإنهن من الصنف المتحرر" وتوجّهت إلى الزوج من جديد: "ابنك هذا يا أوشتاكيو هو غازي العاصمة رقم واحد".

- "مغالطات بسبب عاطفة الأمومة، لا تصدِّق هذا الحديث يا أبـــي. إنّ لي بعـــض الحظ مع كبيرات في السن، وبعض الغراميات الرومانسية ورصيداً صغيراً في المـــصرف". تأمّل القاضي بصمت زوجته، وهي تركِّز اهتمامها في أظافرها، بينما الابـــن فاغر فاه، فبدا له الاثنان متشابهين، وكأنهما غريبان بالنسبة إليه. في النهاية، مـــاذا يبقـــى لـــه في هذا العالم؟ الحفلات العائلية مع أصحاب الأرض، وصعوبة المهـــنة، والأماســـي والليالي في حرارة بلينيا، الساحرة بلينيا، تخيّلها وهي تتوسّل متواضعة، متحفّظة، وعندها ابن عم، لا بأس، إنّها خطيئة عرضية.

أيـــد تـــضرب على الباب: زوجة رئيس البلدية العالية المقام في زيارة رفيعة الشأن لعقيلة قاضي الأمور المستعجلة. اختفى دانيال وذهب يقوم بجولة حول مخزن النقيب.

24

- "إني رومنطيقـــي غـــير قابل للشفاء، ماذا أستطيع أن أفعل؟" كان يوضح دانيال، الشهير في أوساط الكبيرات في السن، وهو في حرم الجامعة. طالب حقوق ودكـــتور في التهتُّك أكمل اختصاصه في الملاهي وبيوت العزّاب وأوساط النساء؛ طـــويل، نحـــيل، واهي القوة، ويافع متكوّن: عينان منكسرتان كبيرتان متهدّلتان (كأنهمـــا عينا السيدة بياتريز قبل أن تحوّلهما على الطريقة الغربية)، إنهما عينا نظرة تقديـــر الأسعار، كما يعلق زملاؤه؛ الشفتان غليظتان، والشعر مجعّد بل محلزن، أما الجمال ففيه التباس كبير ليس لأنه متناسقاً بل لأنه مرضٍ، فقد جعل دان من نفسه معـــبود الفتـــيات في بيوت العزّاب وساحر النساء الأنيقات في الوسط الاجتماعي العالي، اللواتي هنَّ الأكثرية على الحلبة بالتعديلات البلاستيكية على أشكالهن.. من هـــذه وتلك كان يقبل الهدايا ويعرضها باعتزاز: ربطات عنق، ساعات يد، بيوت

ريـف وورقـات مالية من فئة الكونتو، ويُظهر صوراً مثيرة معهن ليدغدغ غيرة الطلاب ويجعل من نفسه الأمهر والأحسن.

وحـتى لا تجـرح عواطفه، كانت زازا دوبيكو دوسي تدسّ في الخفاء جزءاً كـبيراً مـن غلّتها اليومية في جيب سترته، كان دان يذهب فجراً إلى بيت عزّاب إيزورا مانيتا وكانا ينـزلان إلى شارع سان فرانسيسكو متغامرين إلى الغرفة المرتّبة وفـراش الـشراشف النظيفة المعطّرة بالخزامى: وفي غفلة منه كانت زازا، الكتوم، المـرهفة، تجد الساعة والطريقة الملائمة لتدسَّ المال في جيبه دون أن ينتبه إلى ذلك، إنها العبقرية كلها زازا دوبيكو دوسي. ويوضّح دانيال:

- يكفي أن أتظاهر بالانشغال ويستقرّ المال في الجيب دون أن تجرح عواطفي.

وهـا هي السيدة أسونتابنينووز دو أرابال زوجة رجل مسن وصاحب أفران لـصنع الخبـز، أربعينـية في قمّة القابلية تدسّ في الفراش المال والهدايا وتقدِّم علناً الهـبات، "لقـد كلّـف غالياً، يا جميلي، كلّف مالاً كثيراً" (كانت تحصل على حـسومات مـن أصدقاء زوجها) وفي الوقت نفسه تطري على المنشأ والنوعية، كشمير إنكليزي مهرّب تهريباً، وهي تتماجن، كانت تضع ربطات العنق على رقبة دان وتأخذه بضمّة حول البطن: "انظر كيف أن عانستك هذه هي يد مفتوحة".

وكمـا كـان يفضي دانيال سرّاً إلى زملائه، فإنه مع كل صفاته، مجتمعة، لم يتوصـل أن يكـون محتـرفاً حقيقياً، مع منظره الخارجي الكامل وهيئته الإباحية الطفولية الغامضة فإنه عاطفي ورذيل، عليم بكل الأمور الضرورية للعمل الشريف، قديـر وعنـيد، يـرقص جيداً، ثقّاب ممتاز، وشفتان ليّنتا الحركة، وصوت دافئ، سـاحر، موسـيقي، ومسكر، لطيف في الفراش، وصاحب أحسن لسان كلب في باهيا، والشمال الشرقي وربما في كل البرازيل، ومع كل تلك الصفات:

- إني رومنطيقـي غير قابل للشفاء، فماذا أستطيع أن أفعل؟ أتولّه ببقرة تافهة وأعطي نفسي مجاناً حتى إنّي أصرف من مالي. أين ترى جيكولو وفياً ويحترم نفسه ويصرف ماله على النساء؟ لست أكثر من عاشق.

كـان الزملاء يضحكون لسخرية تصل إلى هذا الحدّ من السخف، ودان ما عـاد عـنده حل، إنه حالة ضائعة وسخرية حتى أبعد الحدود، وذهب الأوفياء من أصـدقائه بـسبب وجـود تولهات مفاجئة عنده يطالبونه بإهمال حامياته الفتيات

وداعـــراته المـــرحات. إن حظه في العشق أصبح مضرب مثل في أوساط الطلاب والبوهيمـــيين الذين ينسبون إليه سيلاً من العشيقات مضاعفين الحالات. منذ كان فتى، مبتدئاً منحرفاً، كان يربح المال ويصرفه، مع النساء.

كان أولاد القاضي قلّما يذهبون إلى قصر العدل القريب لرؤية أبيهم. وكانت الـــسيدة بياتريـــز بانتباهها إلى المناسبات والأساليب الحلوة، وفي معلوماتها المنطقية وتمـــسكها بوعود التربية الدينية، تأخذ برفقتها أحد الأولاد في زيارات إلى الزوج الأب. زيارات ثقيلة، بلا شك، ولكنها ضرورية لسمعة العائلة. أما دانيال، الأكثر تردداً والأقل تفرغاً، فهو منذ خمس سنوات لم يأخذ قطار ليستي برازيليرا البطيء. "فلمـــاذا أذهب لأدفن نفسي طيلة شهر في تلك الحفرة؟ ماما، لو أستطيع أن أرى أبـــــي عندما يأتي إلى هنا، دون أن أقول إن لديَّ برنامجاً لهذه العطلة" مكافأة له، ســـيزور الـــريو وســـان باولـــو ومونتفيديو وبيونس أيرس برفقة، وعلى حساب المخلـــصات الكريمات لشكله الخارجي ومواهبه الكبيرة. هذه المرة، مع ذلك، فإن السيدة بياتريز لا تحتاج إلى الاسترضاء والمناقشة، وبصورة غير مرتقبة عرض دانيال نفـــسه للـــسفر: "أريد أن أغيِّر أجوائي يا ماما"؛ فبهذه الطريقة فقط يستطيع أن يتحـــرَّر مـــن السيدة بيرولا شوارتز لياون، الجرثومية التي تحافظ على نفسها بمواد التجميل والجواهر. كاريكاتور صبية تستدعي البكاء، حتى إنّها لم تعد تستطيع أن تضحك عالياً لكثرة ما شدّوا من جلد وجهها، والمال عندها رُزم وتفوح من فمها رائحـــة الثوم.. أرملة ساوباولية، ستينية، في زياراتها إلى كنائس باهيا، وبالذات في كنيسة سان فرانسيسكو التقت بالطالب الشاب، الجميل المتديّن، فأضاعت عقلها وتكوينها واستأجرت بيتاً على الشاطئ وفتحت له جيبها العامر. وراح مال صناعة الحقائـــب يتوجّه مباشرة إلى جيوب تانيا الداعرة الخلاسية الواصلة للعمل حديثاً في بيت عزّاب بيسورسيا وصديقة دانيال الحميمة.

تملّـــص مـــن الاثنتين في الوقت نفسه، فأية عملية جراحية لا يمكن أن تقضي على رائحة الثوم في عنق السيدة بيرولا كما أن المال والدلال قد أزعجا تواضع تانيا فحـــوّلاها إلى ملحاحة ومتطلبة. كانت تمنح دان نيراناً ذات وهج خفيف. لم يبقَ عـــنده إلا الهـــرب، وذهب مع السيدة بياتريز إلى حدود الولاية حيث كان الوالد يدير العدالة ويكتب قصائد الحب.

أمـــا الأخت فيرينا التي كانت قد انتُخبت ملكة جمال الجامعة، والتي أضاعت لقـــب الملكـــة لتحيُّز اللجنة الواضح، فقد لفتت انتباه الأخوين إلى بعض القصائد الأبوية المنشورة في ملحق جريدة المساء الأدبـــي:

"بعـــض الأشـــياء تفعل ولكنها لا تُعلن وإن شعراً" وخلقاً فإن إيزايس كان صـــورة عـــن أبيه، "إنه أوشتاكيو ممضوغاً مبصوقاً"، كانت السيدة بياتريز تقول بمرارة، "ومن الذي لا ينخدع به؟ إني أعرف مملكتي". أما دانيال المشابه لأمه فكان ذا رأي مختلف: "لكل واحد طريقته التي تروق له، فاتركي الآخرين وشؤونهم. إذا كان يعجب الوالد أن يجسد إيماءات فلاحته الصغيرة أبياتاً من الشعر الإباحي فهي مـــشكلته هـــو فلماذا تنتقدينه؟ وحيداً في هذه المدينة الصغيرة المُضجرة، حيث لا زوجـــة ولا أولاد يتفرّغون لمرافقته، فإنه كان يقتل ضجره برواية المقاطع والقوافي الصعبة، خيراً يفعل. ماذا يعني الوكر المسعور بحق الشيطان؟ مع كل ذلك لا يوجد قاموس في هذا البيت".

القـــصائد الـــشعرية أيقظت فضوله، وعند وصوله إلى كاجازيراس حاول أن يكتـــشف ملهمة توقدات والده الملتهبة. وكان ماركوس ليموس الموظف الكبير في مكاتب المصنع وزميل القاضي في الآداب، من أعطاه إيضاحات عن بلينيا وبفضح علني، وكان ماركوس هو من كلّمه عن تريزا باتيستا على التوالي.

عـــندما جاء في المرة الأخيرة إلى قصر العدل، كان شاباً في السابعة عشرة من عمـــره، فراح يحتكّ بالشابات هناك بجنون جنسي، وفي منعطف الممر تلمّس صدر المتزوجة ذات الخصائص نفسها في مخاطرة جريئة وكان ذلك كل شيء. الآن وهو يمـــرّ في محلـــة ماتريز وينـــزل الشارع العام امتلأت النوافذ بالضحك والنظرات؛ عـــذارى بالدزينات. محكوم عليهنّ بالعزوبية والعنوسة، تلك الكلمة الخبيثة الأكبر ســـناً وطأت رجلها حفرة العنوسة، الثانية قد وضعت الرجلين معاً، وإنهن مع ذلك محكومات بعدم التصديق والهستيريا والجنون؛ دانيال لم يرَ قط إباحية وجنوناً بذلك القـــدر، وإناثـــاً، هكذا، يتوسّلن الفحل. "إن الحكومة"، قال دانيال لماركوس ليما وإيـــرتون أمورين، أثناء مشاركته في جلسة الأدباء، "إذا كانت تريد حقاً أن تعنى بالـــسكان، فعلـــيها أن تتعاقد مع نصف دزينة من الرياضيين الأقوياء وتضعهم في خدمة الجماهير النسائية اليائسة..".

الفكاهي إيرتون أمورين صعق للفكرة:

- فكـــرة جـــيدة، ولكن من أجل جماهيرنا النسائية هنا، فإن من الضروري وجود دزينتين أو ثلاث على الأقل من الأبطال الدوليين.

إذا أراد أن يملأ شهر العطلة بمواكبة العذارى من خلف الأبواب وتحت إمرته المـــواد الكـــثيرة والاختيار الواسع، فعليه أن يكون منتبهاً وأن يحتاط كثيراً حتى لا يرتكب خطأ فيقطف برعماً أو عنقوداً حصرماً، وغير هذا لا تريد الفتيات الثائرات لكي تضع الواحدة فمها في العالم! "النجدة! لقد أكلني، انتهكني، كنتُ عذراء، إني حامـــل، نادوا على الكاهن والقاضي"، وتعلنه محباً وخطيباً ويتمّ تعيين الزواج على عجلـــة. ولكونه ابن قاضي الأمور المستعجلة، فليتجنّب هذه المجازفة، لم يكن جيله يفضّل العذارى، فهو من جيل يفضّل المتزوجات، الصاحبات، أو الطليقات من كل قـــيد. ولكـــن المتزوجات، هناك، في تلك الحياة الريفية لم يكن يساوين عناء نظرة واحدة وهنَّ يفقدن باكراً بريقهن في الأعمال المنـــزلية والأعباء المترتبة، وفي الرتابة والقهـــر اليوميين. ودانيال كاد لا يتعرّف على صاحبة الصدر المعتز التي احتكّ بها منذ خمس سنوات في لقاء ملتهب سريع؛ إنها الآن سمينة وربة أسرة ونصفها الأعلى رخو، ولونها قاتم. وواحدة أخرى، امرأة خبيثة ذات عينين كسيرتين وتستحق نظرة تفحص لا تقاوم، وهي ترد ابتسامته، فقد تكشّفت عن ثغر تنقصه الأسنان المعوّض عنها بجسور اصطناعية؛ تعاسة وعدم اكتراث مع بعض الامتعاض.

وهناك ما هو أبعد من خطر الفضيحة. تخيّل رجلاً منتهكاً في عرضه، متعجباً مـــن قرنين نبتا له فجأة، يتّهمه، هو ابن القاضي، بتدمير القواعد المسيحية السعيدة وبتوســـيخ المؤســـسة العائلية المقدسة، وهذا لن يفعل إلا الأسوأ: تهديدات بالثأر والقتل، ومطاردات، وطلقات رصاص! ودان ذو حساسية ضد العنف من أي نوع كان.

لم يكـــن بمقدوره أن يتسبَّب بورطة كهذه لوالده، ولا أن يعرض نفسه لغيرة الـــريفيين من أهل الداخل البدائيين الذين ما زالوا يعيشون في زمن الخرافات عندما كانـــوا يغسلون بالدم الشرف الجريح. في العاصمة، فإن الزوج المخدوع يقتل فقط إذا كان من الطبقات التي تسمَّى بالطبقات الأقل شأناً، وحتى القتل من هذا النوع أخذ يقلّ أكثر فأكثر. وابتداءً من فضيحة أكيدة، وإذا كان الغضب كبيراً لأن قصة

حب الزوجة كبيرة، فإن الزوج يعاقبها بالضرب، أما إذا كان عقله خفيفاً، وعاجزاً عـــن أن يـــتحمّل عبء القرنين فإنه يهجرها ويذهب إلى أخرى؛ ولكن الأغلبية المطلقة تتلاءم، وبقدر ما تكون الأغلبية غنية يصبح التلاؤم سهلاً. دانيال خبير بهذه المواد ويمكن الثقة به. ولكن في هذا الداخل المليء بالمزارعين وأهل البنادق، وحيث لم تـــصل الحضارة بعد، فمن المستحب تجنُّب السيدات المتزوجات مع التأكيد على احترام العائلة القائمة شرعاً.

بالمقابـــل، تـــوجد المصادقات: عشيقات، صاحبات، حبيبات، بنات هوى، عـــزباوات يعشن مع متزوجين، وهذا لا يصل بالعلاقة إلى حدود مفاهيم الشرف الـــتي يـــبتُّ فـــيها القاضي والكاهن؛ فقط قضايا حب، واتفاقيات مالية، وخطر الفـــضيحة مـــع ذلـــك معدوم تقريباً، وأقل منه خطر العنف، ومن الذي سيشعل فضيحة بسبب العشق ويموت من أجل صاحبه؟ وفقاً لمفاهيم دانيال، في هذه الحالة، لا يمكن تشويه الشرف المصان.

امـــتحان ســـريع لمقايـــيس الحـــب المحلية يبيّن فوراً الذوق السيئ السائد في العلاقـــات الغـــرامية: تقدير مفرط للسمنة واعتبارها عنصر جمال وشرطاً للزواج بـــسبب المقتضيات المنـــزلية، وعلى الأخص المتعلّقة منها بالطبخ، والعشيقة الجيدة يجب أن تكون طبّاخة ذات يدين ساحرتين في الطهي... هناك ثلاث فقط جديرات بالاهتمام، واحدة منهن لا يستطيع أن يتعامل معها بإنصاف ويعلنها صديقة أو أي مـــرادف مـــن مرادفات هذه الكلمة الناعمة: لكونها أيضاً، خادمة مملوكة لنـــزق السيد الكبير وغسل شراشفه.

الأولى تلك، خلاسية بيضاء ذات كعب عال، ولحمة رخيصة، هي الآن ممتلئة الجـــسم بيـــضاء اللـــون، سوداء الملامح وذات فم شهي على وجه هادئ، وهي بالتأكيد جيدة في الفراش، ويمكن ملاحظة هذا الأمر من الغدة الصعترية في ردفيها وهـــي منذ أكثر من خمس سنوات زوجة شرعية للمراقب القضائي إيرتون أمورين لكـــون زوجته الثانية مقعدة على كرسي طبـــي ذي عجلات، وكان بصعوبة قد طرح الموضوع للنقاش مع مكانته المرموقة وحصل على فرصة الظهور على التوالي أمـــام الكاهن والقاضي. وهكذا فإن القاضي قد زكّى الأمر، وسمح لـــه بالانتقال مـــن هذه إلى تلك، وفي النهاية، يا أُمّ السماء، راحت الأولى تقضي يومها جالسة

علـــى كرسي ذي عجلات، غارقة، بصمت، لا تقوم بعمل شيء وتحمل فقط بقية نـــور، إنها ليست الحياة بالنسبة إلى أحد. الثانية، هي الأخرى ذات شكل مقبول، وذات نكهـــة أصـــيلة، والمعـــني بها هي بلينيا، عشيقة القاضي، ومن البعيد، تبينها ماركـــوس لـــيموس في الـــشارع، من حيث جاءت، ومعها الخادمة، إلى طبيب الأســـنان؛ عجّـــل دانيال في الخطو ليلتقي بها ويراقبها من قرب؛ حسّنت بلينيا من مشيتها المفزلكة، وعلقت عليه عينيها المجازفتين لتتعرّف عن قرب على ابن القاضي، فابتـــسم لها دانيال بلطافة وحيّاها: "البركة، أماه..." لم ترد عليه ولكنها وجدت الـــنعمة في الضحكة العريضة، والعينين المطرقتين، وأدارت قفاها وذهبت... كانت خلال غياب صاحب الفضيلة القاضي تعزّي نفسها مع قريبها، وهذه أمور عائلية. كانـــت قادرة على أن تجذب اهتمام الطالب وهو في عطلته الجامعية وإجازته من الحـــياة الصاخبة في العاصمة. أمّا الثالثة فهي الفتاة الصغيرة، الحلم، التي، قربها، كل الأخـــريات لم يعدن موجودات، بالله كيف تنبت في الأرض القاحلة، فجأة، زهرة بهذا السحر؟ ماركوس ليموس باعتزازه في أن يكون دليلاً سياحياً للشاب اللطيف، لم يـــستطع أن يقاوم ففضح وجود تلك القطة الناعمة (كان قد أعطى لقب القطة الـــناعمة قصائده المستلهمة عن تريزا) عشيقة النقيب... عشيقة بالمعنى الدقيق، لا، فقط نزوة من نزوات جوستينيانو دوارتي دا روزا. حدّق دانيال فيها. فطار صوابه، وإذا الوله نيران ملتهبة تحرقه.

25

سيئة شهرة النقيب... معتدّ، عنيف، مشاكس، ذو رغبات سيئة وغرائز أسوأ منها، ولكن دانيال الحذر، عدو الورطات، لم يحفل بأخبار ماركوس ليموس وعدها مـــبالغات مـــن حافظ الوثائق اللطيف... كان دان يثق بنجوميته الثابتة وبتجربته العمـــيقة في الحالات السابقة، فهل يصدّق ما يقوله الرجل الذي أعطى أهمية مبالغاً فـــيها لـــواحدة من العديدات، كيف يسمّيها دانيال؟ لنقل بنات؛ كلمة بمضمون محـــدود، أجـــل الكثير من اللطائف كان يهدي الواحدة ليحصل عليها، وبعدها، اثنـــتان أو ثـــلاث في الوقت نفسه، في المزرعة، في نزل، في زوايا الشارع، وعلى الأخص هنا في أعماق المخزن، في الأماكن المعدّة لحياة الفتاة.

ولمـــاذا يجب على النقيب أن يعرف؟ الحذر والاحتياط ضروريان؟ وفي الحيطة والحـــذر فإن دانيال يفوز بشهادة دكتور، في الحلقة الحالية فإن نجومية دان لم تخنه وتمّت الأمور بمساعدة الظروف.

علـــى الحدّ الفاصل مع المخزن، كانت تقوم دار آل مورايس، إحدى أحسن دور الـــسكن في المديـــنة، تـــسكنها أخوات أربع من أرومة عائلية عريقة ووريثات بيوت مؤجـــرة وأســـهم في المزرعة الفدرالية؛ فرحات، منطلقات، جميلات، سيدات بيوت، مكـــتملات، يعشن في العاصمة، وبالتأكيد لا ينقصهن متقدمون طلباً للزواج، وبالتالي طلـــباً لحصة الميراث، ومع ذلك فإن الكبرى منهن في عامها الثامن والعشرين والصغرى في الثانـــية والعشرين، وكنَّ يذبلن وقد حُكم عليهنّ بالعنوسة وليس لهنَّ أهداف أبعد مـــن الاحـــتفال بالأعياد الكنسية التساعية والثلاث عشرية، والقيام بالتحضيرات لعيد المـــيلاد المجـــيد وصنع الأقراص والحلويات، وقبل كل شيء، من الواضح أن اهتمامهن انصبّ على أعياد حزيران وظهور دانيال المفاجئ على الحدّ المجاور.

الكبرى ماجدة كانت تعزف على البيانو العزف الذي تعلّمته عند الراهبات، وكانـــت أماليا تغنِّي أغاني "أعوامي الثمانية"، "الحمام"، بنبرة معبّرة؛ وكانت برتا ترســـم مشاهد طبيعية بأقلام تلوين وألوان مائية، ويمكن رؤيتها على جدران الدار الكبيرة وفي دور العائلات الصديقة، أما تيودورا فكان لها قصة حب مع قارع طبل يوناني شهير يعمل في سيرك الشرق الكبير، وقد تبادلت معه القبلات ولبست خاتم الخطـــبة في الظلمة وفي ضوء القمر، وهي التي تحدّثت أولاً عن الهرب، ثم هدّدت بقـــتل نفسها عندما اقتيد الرجل إلى مخفر الشرطة ليدلي بالإيضاحات (بطلب من ماجـــدة، التي طلبته في السر إلى مركز الشرطة على أن لا يعرف أحد، لأنه إذا بلغ تدخلـــها الخفي مسامع تيودورا فسينهار العالم على رأسها) وقد وُضع قارع الطبل الـــيوناني أمام الحائط تحت تهديد سوط الجلد، فاعترف بأنه مواطن يوناني ومتزوج ولكن زوجته خانته ثم تخلّت عنه. إفادة مخجلة وكئيبة. أما تيودورا فلربما كانت قد أوصـــلت شرف العائلة إلى الحضيض ولكانت واصلت ملاحقة الفنان الفقير وهو علـــى حصيرة الخيزران الساحرة، لولا أنه لم يسرق البغلة في صمت الليل دون أن ينتظـــر فـــك جناح السيرك. حلقة رومانسية شاهدتها المدينة مغناة قصيرة، ولكنها مكـــثّفة، إذ إن العـــشيقين معاً في كل مكان يقومان بعروض غزلية وتيودورا غير

مهـــتمّة بالنصائح والنقد مع أحلام الحب التي تتحوّل إلى نوادر مضحكة، وما يزال الأمـــر حتى اليوم موضع شك يتحدّى لباقة العمّات؛ هل أن ملك الطبالين الدولي (هكـــذا كانـــوا يلقّبونه في تقديم برامج السيرك) كان قد أغوى الشابة تيودورا، وجـــرّدها مـــن عذريـــتها، أو أنه أبقاها عذراء؟ في الساعة الحاسمة تخبر الأخوات الساعيات إلى الحقيقة بكل ما لديهنّ من إرادة ليعرفن، فإنهنّ لم يعرفن، والأكبر سناً المهـــتمة بإظهار نفسها بمظهر غير المكترث، النقيّة والموالية لتيودورا نفسها، كانت تحتفظ بالشك، وهي تجيب، بغمغمات، وبظنون غامضة وبتنهدات عميقة عن كل تلمـــيح أو محاولـــة استيـــضاح، وبينما تهدِّد بالانتحار، منذ انطلاق السيرك، فإنها استنفرت ماجدة:

- تعرفين، يا ماجدة أني قلقة، لا تقولي شيئاً للأخوات.
- منشغلة؟ لماذا؟ ما الذي لم يأتِ؟ قولي حباً بالله.
- عادتي الشهرية.
- هل تأخرت كثيراً؟
- "تأخرت عدة أيام مع بعض الألم في الثديين وهناك بعض الظواهر الأخرى يـــا ماجدة"، وجمعت ماجدة الأخوات سرّاً "تيودورا حامل، إنها مأساة، ماذا يجب أن نفعل؟ لقد تحدثت عن قتل نفسها، وهي قادرة على كل شيء". "إنها مخبولة... فلتـــبقَ حاملاً"، قالت أماليا، ورأت ذلك عملاً جيداً، والاستفادة من الجنين أفضل من الإجهاض، ولكن فيما يتعلق بتيودورا، فإنها ترى أنه من الضروري المناداة على القابلـــة نوكينيا؟ "اختصاصية، تصنع العجائب، نوكينيا؟" "اختصاصية، بلا شك، ولكـــنها طويلة اللسان، عاجزة عن الاحتفاظ بسر"، اعترضت ماجدة؛ "أليس من الأفـــضل لنا الاستنجاد بالدكتور دافيد طبيب العائلة؟" "لا نوكينيا ولا الطبيب" في رأي بـــرتا: "أن تـــيودورا تريد أن تختلق لنا أشياء سخيفة لكي نفكّر أن الأمر قد انقـــضى". "وأنـــت هل تظنين أنه لم ينقضِ؟" "أجل أظنّ ذلك، لم ينقضِ، إنه لم يأكلها، و لم يقتحمها..." "يكفي"، أمرت ماجدة، الأكبر سناً، "فلننتظر إذاً".

لم تـــدم الإثارة طويلاً، وجاءت العادة الشهرية، ولكن تيودورا ظلت غامضة بعـــيدة وخطيرة، مع ذلك الشعور بالتفوق، شعور من يمتلك ماضياً وعنده أسرار؛ واستمرّت الأخوات بالشك والغيرة وهنَّ يناقشن الموضوع، والمدينة أيضاً، ما تزال

حتى اليوم في الشك المحيّر... تيودورا، في النافذة مع أحلامها، العينان في البعيد والتنهدات في الصدر... إنها بين غامضات كاجازيراس الشمالية الأكثر غراماً ويشكّل مخزن النقيب جوستو المتلهّى الأكثر ديمومة، للأخوات الأربع، وهنَّ في نوافذ الطابق الأول من دارهن يراقبن الزبائن، ويسجلن حجم المشتريات، ويجبن على التحيات، ويقتلن زمن الأشواك الطويل. ولكن الحركة في المدة الأخيرة ازدادت كما ازداد الزبائن الذكور؛ ماجدة، بحجة الأشغال غير القابلة للتأجيل عند الموظفة، ذهبت إلى المشتريات، واستوضحت سبب التجمع الجديد. لقد عرفت فوراً: فضول يتعلق، بالفتاة التي تجمع الحسابات، فتاة النقيب، مملوكة جديدة، ذات شعر مسبل، وهيئة قلقة، هكذا وصفتها ماجدة للأخوات، وهو مع ذلك، وصف صحيح. مع الوقت، تضاءل الفضول، وفقط ماركوس ليموس بقي زبوناً دائماً يشتري السجائر صباحاً والثقاب مساءً وهو يعود من مكتب المصنع.

عندما شوهد دانيال للمرة الأولى يستجلي بانتباه مرفهات الدار الأنيقة، فإن الأخوات الأربع تشبّثن في مقاعدهن وجلست ماجدة خلف البيانو، وملأت المكان بألحان الفالس، وكيّفت أماليا صوتها وكيّفت برتا الألوان المائية.. من المستحيل وجود أجمل منه وأكثر فروسية، مهذب، "أليس هو الطالب في العاصمة وابن القاضي"، قالت أماليا الخجولة التي كانت قد وصلت إلى الباب المؤدّي إلى الشارع حتى تنقذ من الخطر الهر السمين ميموزا الذي راح طليقاً في الشوارع، وإذا بدانيال يقطع الطريق على الهارب، ويأخذه بين يديه ويعطيه لأماليا المرتبكة، وتحيات عريضة، وابتسامات وتطلعات، تحيّي ماجدة وبرتا عندما ظهرتا في النوافذ، وشكر بكلمات شعرية على كأس الماء البارد الذي طلبه فقدّمته تيودورا بشخصها. في اللحظة نفسها من وصول النقيب جوستو، الآتي من المزرعة الذي، وهو يترجّل من الشاحنة، شاهد تبادل الابتسامات والكلمات اللطيفة؛ كانت تيودورا منحنية أفضل انحناءة لإظهار ثدييها عبر أطراف القميص بينما دانيال الشاب اللطيف، يقبّل يدها:

– مرحباً بالنقيب.

– كيف تجري الأمور في هذه الأرض؟ وفي حين تقدّم دانيال مادّاً يده ليسلّم، فإن النقيب خفض صوته للمحادثة الخبيثة "أرى أن الصديق لا يضيّع الوقت وقد قام بسطو مسلح".

علّق دانيال على الملاحظة بابتسامة تأييد؛ أخذ النقيب من ذراعه، وعيناه في الباب حيث كانت تيودورا تعرض صدرها، ثم حوّل نظره إلى شبابيك الطابق الأول حيث تقف ماجدة، وأماليا، وبرتا، ولكل واحدة نظرة وبالدور... غطاء أفضل من هذا لا يمكن أن يكون؛ عزباوات جئن من السماء، ووقفن إلى جانبه. ومع ذلك فالفتاة الأخرى، وعلى الرغم من المشاكل، تستحق المجازفة ورمي النفس في المخاطر والحقارات، ومع صغيرة النقيب تلك في متناول اليد، ذلك السحر، كيف يمكن التفكير في امرأة أخرى؟ ودخل إلى المخزن آخذاً بيد جوستنيانو دوارتي دا روزا.

26

فجأة أحسّت تريزا بثقل العينين اللتين ترمقانها، فرفعت بصرها، بينما كان الشاب يتحدث مع النقيب واثقاً من نفسه؛ لعدم الاكتراث وبسبب الخوف، لم تكن تريزا تجد أية متعة في تبادل النظرات مع الزبائن، ومع ذلك كانت تلاحظ دخول وخروج ماركوس ليموس، والنظرة الشهيدة، والابتسامات في حضوره اليومي. غليظ، غير مرغوب، وكبير في السن مع سنواته الخمسين، فإن ماركوس ليموس كان يغمزها ويقوم بحركات غزلية. إنها المرة الأولى التي يفتر فيها ثغر تريزا عن ضحكة عند رؤيتها رجلاً وتحدِّق بعينيها في شاب من الشارع، ثم راحت تتجاهله وهي تثبت نظرها على الدفتر الذي كانت تسجل عليه الأسعار التي يهتف بها بومبيو أو بابا موسكاس، وشيكو نصف الكعب عندما جاء بالصدفة، رجل الثقة يساعد في الحسابات. كان شيكو الذي يهتمّ بكل خدمات الشارع، من تسلُّم البضائع التي تصل في القطار أو على ظهور الحمير، إلى الأشياء المعادة إلى الحمالين ورجال القوافل وأصحاب الشاحنات، وتسديد الأجور الشهرية والمدفوعات المتأخرة، قلّما يخرج إلى الشرفة. وكان ماركوس ليموس يتأخر في إشعال السيجارة بانتظار صيد نظرة من تريزا، وبانتظار أن يراها تضحك مرة أخرى. وكان ينصرف في النهاية. متأكداً من مكانه الطليعي في الطابور: الاسم الأول في لائحة غابي، ولا يأتي أحد قبله في المخزن، وعندما ستجد نفسها وحيدة، في طريق المرارة التي يضعها عليه النقيب، ستتذكّره، فيعد نفسه في المركز الملائم.

مـــع قهقهـــات الضحك، رفعت تريزا رأسها من جديد، وكان الشاب يضع عينيه فيها من أعلى كتفي النقيب المنحني؛ إذ كان النقيب ينحني فوق تجويف بطنه في واحدة من تلك الضحكات التي لا يسيطر عليها. كان الشاب يتسم بينما يضع يـــده فوق الطاولة: الشفتان نصف مفتوحتين، العينان منكسرتان، الشعر متدرج، والـــنعومة في الوجه، فلماذا كانت تريزا تعرفه إذا لم تكن قد التقت به سابقاً؟ لماذا كانـــت ابتـــسامته كأنها اليقين عندها. فجأة تذكّرت: إنه يشبه الملاك في صورة البشارة المقدّسة الموضوعة في البيت الريفي على حائط الزنزانة، مثله، شبيهه بالتمام والكمـــال. تلك الصورة كانت الشيء الأجمل الذي رأته تريزا في حياتها؟ إنها ترى الآن الملاك بنفسه، وبينما تخفّض عينيها ابتسمت رغماً عنها.

كـــان بابـــا موســـكاس يُملـــي عليها الجزئيات: كيلو ونصف جابا بألف وأربعمائـــة، ثـــلاث أرطال طحين بثلاثمائة، رطل فاصولياء يابسة بأربعمائة، ليتر كاشاسا ومائتا غرام من الملح. بعد ذلك، انطلق صوت النقيب يضجّ بالضحك:

- تريزا، عندما تنتهين من عمل الحساب اذهبـــي وأعدّي القهوة.

كـــان دانـــيال يستعرض سيرة بيوت العزّاب والملاهي في باهيا: الجميلات، الأسمـــاء، الألقاب، العمليات والنكات، وكان جوستنيانو دوارتي دا روزا يحب أن يسافر هناك، وكان الشاب يجد متعة في رواية تلك الأشياء.

وضـــعت تريزا الصينية فوق الطاولة وعليها ركوة القهوة والفناجين الصغيرة والـــسكّرية، وبينما كانت تصبُّ القهوة سمعت الشاب يقول للنقيب دون أن يرفع عينيه عنها بتوسُّل وإلحاح:

- "يـــا نقيب بينما أحاصر القلعة، ألا أستطيع استعمال المخزن ملجأً مؤقتاً؟"

انطلقـــت في الهواء رائحة القهوة، فارتشف دانيال جرعة من فنجانه "لذيذ! وهل أستطيع من وقت لآخر الحصول على قهوة كهذه؟"

- "مـــن الـــسّابعة صباحاً وحتى السادسة ليلاً يكون المخزن مفتوحاً وتحت تـــصرفك، أما القهوة فيكفي أن تطلب" وأمر تريزا "عندما يأتي الصديق دانيال إلى هنا، وأظن أن مجيئه سيتكرّر" ضحك، وهو ينقر بإصبعه الكبير بطن الشاب "اعملي لـــه فـــنجان قهوة. وإذا كنتِ مشغولة، فسينتظر، ليس مستعجلاً، أليس كذلك يا صديقي؟"

- لا عجلـــة، يـــا نقيب، كل وقتي الآن مكرّس لهذا الموضوع بنوع خاص، عيناه في تريزا كأنه يتكلم عنها وإليها.

اختفت تريزا مع الصينية وفناجين القهوة، قال النقيب:

- لاحظ تيودورا! هل كنت تعرف أن اسمها تيودورا؟ وتنادى بتياو، يقولون إنها لم تعد تملك شيئاً تدافع عنه، إنها طريق مفتوح، وأن فناناً في السيرك مرَّ من هنا حقّق فيها ربحاً... أنا شخصياً، لا أشك، وأقول لك بصراحة، أن يكونا قد تبادلا قُـــبلاً وعناقاً، فبالتأكيد وأنا شخصياً رأيت من هنا، من المخزن، الاثنين بفم واحد في بـــاب بيـــتها، ولكـــن أن يكون هناك أكثر من ذلك، فلا أعتقد؛ وأين، بحق الـــشيطان، كان يمكن أن يضيئا الشمعة؟ فكاجازيراس ليست باهيا حتى لا ينقص مكان، ولا حتى غابة كثيفة يستطيع أن يبقى الواحد فيها على راحته؟ هذا دون أن نقول إن الناس هنا بعضهم يراقب حياة الآخر، وسترى قريباً. فقط شخص واحد لا يتعاطـــى هذه الأمور ويفعل ما يريد، إنه خادمك الحاضر هنا. أتركهم يتكلمون وأذهـــبُ لأكـــل الأحسن والأفضل، وبالمقابل، لا أتعامل مع أناس متحفظين من قماشـــة الجارات... عندما أتعامل مع أمثال هؤلاء، فسأفضّل الزواج. أفضّل صيداً طازجاً لا يسبّب التعب ولا وجع الرأس. وللكلام بصراحة، أظن أن الفتاة والفنان المذكور، راح يدفّئ أحدهما الآخر، فإذا كانت قد أحسّت بثقل ما فهو ثقيل اليد، والباقي كلام في كلام. على كل حال، سواء أكانت عذراء أو لم تكن، فهي قطعة من الجمال.

رفـــع دانيال صوته بينما نظره إلى تريزا، وإليها توجّه بالكلام من أعلى كتف جوستنيانو دوارتي دا روزا:

- إنها أجمل امرأة رأيتها في حياتي.

- إيـــه! ما هذا؟ لا تبالغ. ليس فقط أنها لا تروق لي وليست من النوع الذي أفضّل، ولا لأني لا أقدّر الجمال، ولكني أعطي الأفضلية لحديثات السن ولأني أيضاً عرفت كثيرات أفضل منها، ولا مجال للمقارنة. في أراكاجو في بيت عزّاب فرناندا تـــوجد أجنبية إنكليزية أو بولندية، أعرفها: شقراء بكلّيتها، من الرأس إلى القدمين مـــن شعر الذراعين إلى شعر البطن، الشعر يكاد يصبح أبيض لكثرة الشقرة، وهي تقول إن هذا الشعر له اسم في بلادها، لا أعرف ما هو، من الفضّة.

- بلاتينيوم أشقر. أكّد دان.

- هذا بالذات، ليس كالشقرة الخاصة بنا، إنه أجعد محمر، شيء آخر، مثير. إن في نـــيّتي الذهاب إلى أوروبا فقط لشراء أجنبية جديدة، ذات شعر أشقر وجسد أبيض بكلّيته.

كان دانيال يرهف سمعه، وعيناه مركّزتان على الفتاة، وكذلك تريزا باتيستا، لم تـــرَ قـــط أحداً جميلاً مثله. لا أحد؟ ربما الأستاذ صاحب المصنع، ولكنه كان مختلفاً، ودون أن تريد، تقع عيناها على دانيال، وبإغراء تفتح شفتيها وتبتسم.

27

إنهـــا في وضـــع معقّـــد، تبتسم دون أن تعرف لماذا، وتنظر دون أن تريد.. والـــشاب في دوران، مـــشوار إلى فـــوق، آخر إلى تحت، ومرة من داخل المخزن لـــيكلمها كـــان فقـــط يطلب كوب ماء. "ألا تقبل فنجان قهوة؟" "سأذهب إلى الداخل لأمشي". تريزا لا حول لها ولا قوة، الصوت يرتجف، خجلة، ما دام منتظراً فـــإن دانـــيال كـــان يقدّم السجائر الأميركية إلى الباعة؛ سجائر مهرّبة، و لم يكن الـــشابان في المخزن يسيئان الظن، فهما مقتنعان بأن موضوع الفيلم كان شيئاً آخر وأنه يلعب مع تيودورا ورقة الصبية الأكبر سناً. وبرغبة كبيرة كانا يرافقان وبثبات، اللـــصَّ الآتي من مدينة كبيرة ليوقع في شباكه الضحية البريئة، ومع ذلك، فإنه كان لصاً ظريفاً و لم تكن الصبية بريئة إلى ذلك الحدّ.

في ســـرير الحديد وعلى فراش الصوف المكيّس بصورة نهائية، في غرفة بومبيو يتخيّل الأخير أنه يقبّل وجهها البريء، بنكهته وتفجُّره بالرغبات، وأنه قد نام عدة مـــرات مـــع تيودورا وأخرى مع تريزا. ويتخيّل نفسه في أوضاع مثيرة قد امتلك الـــواحدة بكـــفّ يده اليسرى والأخرى بكفِّ يده اليمنى؛ هذا بالإضافة إلى عدة ممـــثلات سينمائيات وفتيات محليات. والمفضلات عنده تيودورا ومرلين ديتريتش؛ وعلـــى الفـــراش الموضوع على ألواح خشبية الخاص ببابا موسكاس، القاتم، ذي الشفتين الغليظتين والشعر الزنجي الكثيف والمجعّد، فإن الأخير يحمل على يده المثقلة بالأحلام كلاً من تيودورا وأخواتها الثلاث، والعديد من الزبونات وتريزا، وكذلك، اعذرني يا صديقي العزيز دان، السيدة بياتريز التي تخيّل بابا موسكاس أن الفرصة قد

سنحت له برؤيتها عارية، خلال العطلة السابقة عندما كان يعمل ساعي بريد لدى قاضي الأمور المستعجلة قبل أن يُصبح محاسباً، وبعد الحمّام تخيّل بابا موسكاس أن السيدة بياتريز كانت قد تعرّت في الغرفة وعادت وعليها المساحيق ومواد التجميل الطبية، والعطور، لتلوِّح له عارية وهي تضع على جسدها منشفة وجه لم تكن تغني عـــن شيء؛ وأمام الباب، في الأيام السعيدة، فإن المملوك قد لمس أماكنها الغزيرة شـــبقاً: هذه السيّدة أنظفهن، فهي تضع العطور حتى في (...). أما المفضّلة المتقدّمة عليهن جميعاً في خيال بابا موسكاس فهي تيودورا، تياو المشكوك في أمرها، وكان بابا موسكاس يتخيّل فنان السيرك وهو يضع بصماته عليها.

كـــان يحدث أن تأتي تيودورا إلى المخزن لبعض المشتريات، وفستانها متلألئ متطاير، والياقة عند منحنى الثديين، وكانا يتنازعان، (بلعبة المفرد والمزوج) الحق في خدمـــتها وتكحيل النظر بامتداد عنقها فانفراجه. وكانت تتظاهر بأنها غير منتبهة. ولكنها كانت تشارك في لعبة البائعين مؤخرةً المشتريات ومفاصل يديها ملقاة على الطاولة لكي يزداد طرف الفستان من ناحية صدرها انفراجاً: وكانت تأتي دون أن تـــضع حاملة أثداء. مع المشتريات كانت تأتي معها بالبائع المسكين المحكوم عليه. وفي ليالي السهاد كانت نظرات البائعين الوضيعين الهروبية مادة حلم لتيودورا... لا تكـــاد تعطـــي ظهرها حتى كان بومبيو يبصق في كف يده اليمنى ويقذف في إناء البول، أما بابا موسكاس فكان يحتفظ بالرؤيا المتوقدة لليلة الحب.

بالنـــسبة إلى الاثنين لم تكن هناك أمور غامضة: إذا كان دانيال لم يأكل تياو بعد فلن يتأخّر في أكلها؛ ولم يمر في رأسيهما أبداً أن الطالب يمكن أن يكون مهتماً بتريزا. ولم يكن ذلك فقط بالحكم عليه بأنه عشيق تيودورا، بل لأنهما ينسبان تريزا إلى النقيب. فقط هارب من مستشفى المجانين يجرؤ على مغازلتها، إلا إذا كان الأمر بالسرية المطلقة، باليد، والبصقة، وفي ظلمات الليل.

ولم تكن تريزا لتبقى دائماً أمام الطاولة الصغيرة لإجراء الحسابات. كان عليها أن تهتمّ بغرفة وملابس النقيب. أما تنظيف البيت والمخزن من الأوساخ وحتى آنية البول فإن البائعين كانا يقومان بها لدى وصولهما في الصباح الباكر.

كـــان شيكو نصف الكعب يضع القصعة على النار وفيها الفاصولياء اليابسة، واللحـــم المجفّف والكزبرة والقرع والبطاطا وقطعة كبيرة من الصوصاج الرديء.

وكان قد تعلّم الطبخ في السجن. عند الظهر، وعندما تخفّ الحركة داخل المخزن، كـــان شيكو والبائعان الآخران يدخلون لتناول الغداء بينما تبقى تريزا وحيدة في المخـــزن للخدمة إذا ما دخل زبون ما.. وعندما يكون النقيب في المدينة فإن تريزا تضع منشفة على الطاولة، والصحون، والملاعق وتصبُّ لـــه الكاشاسا قبل الغداء، والبيرة خلاله. كان أكل جوستنيانو يأتي من نزل كورينا في طنجرة كبيرة ومتنوّعة المحتوى. وكان النقيب يأكل على راحته، عدة صحون، ويستطيع أن يشرب بقدر مـــا يـــرغب ودون توقـــف، أمـــا شيكو نصف الكعب فكان يحق لـــه بزق من الكاشاسا عند الغداء وآخر عند العشاء، زق واحد، بجرعة دفعة واحدة. وتعويضاً عـــن ذلـــك، كـــان في ليالي السبت وفي غروب أيام الإجازات والأعياد المقدسة، يـــشرب حتى يقع كالميت على فراشه، أو في غرفة امرأة عامية رخيصة. في غياب الـــسيد، لم تكن تريزا تضع منشفة على الطاولة، ولا تستعمل ملاعق، تأكل بيدها الأكلة الطيبة التي صنعها شيكو ودلّلها بأغنية.

اســـتفهم دانيال بسرعة عن عادات وتقاليد المخزن بأسئلة يطرحها في بعض المناسبات على البائعين، في حين، وليستمر في إعجاب الشابين، كان يعرض نفسه على الأخوات الثابتات على شبابيك الدارة.

الأخوات قلقات، يفترسهن الاستغراب وقلة الصبر: لماذا هذا الحياء السخيف؟ إنه واصـــل من العاصمة بشهرة الجريء الفاتح، مرعب الأزواج، وحتى بسمعة جيكولو، الـــسيدة بونسيانا دي أزفيدو العارفة بسيرة دان في مشواره على الحدود المجاورة كانت قـــد ذهـــبت في زيارة وفصلت الفضائح، فذو التكوين الجميل ذاك كان يبقى بعيداً، كـــتوماً، دون أن يحاول تقرباً، ضائعاً، في الأوليات، وما كان أيضاً فوق المألوف، هو اهـــتمامه بالأخـــوات الأربع على قدم المساواة، يوزّع عليهن نفسه لطفاً وانحناءات في الـــوقت نفـــسه. ومن يعرف، ربما يكون سبب الحياء غير المعقول هو صعوبة اعتماد واحدة منهن! تيودورا الأصغر سناً، البطلة، أعطت انطباعاً لا يقبل الجدل بأنها السبب الوحـــيد لوجـــود الطالب هناك قبل الغداء وعند نهاية بعد الظهر... ولكن الأخوات يـــدّعين وكل واحدة تدّعي الأفضلية "اليوم قال لي وداعاً" تشير ماجدة "رمى لي قبلةً" تعلن برتا "قام بحركة وكأنه يقرّبني إلى صدره" تقول أماليا. أما تيودورا فلم تكن تقول شـــيئاً، إنها سيدة الحقيقة. الأخوات الأربع ملتزمات بمعركة من الفساتين والتسريحات

والماكــياجات والحرير والجوخ الذي تفوح منه رائحة النفتالين إذ كانت الخزانات قد فُــتحت... مــن قبل كنَّ متّحدات، أما الآن فإنهنَّ متخاصمات ضمن مناخ من عدم الــثقة والإباحــية، وبكلمــات فرحة وضحكات تهتُّك تقف كل واحدة في شباكها ودانــيال في المكــان المقابل والابتسامة على فمه، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم يقوم بمــشوار صــعوداً وآخــر هبوطاً تحت شمس منتصف النهار أو مع لفحة برد السماء ويستريح في ظل المخزن... تنهدات الأخوات الأربع لا تتوقف على الشرفات؛ كانت بــرتا تــذهب مسرعة لتبوّل، إذ كان يكفي أن تراه يمر حتى تحسّ بالبرد في الأسفل، وكان عليها أن تمسك نفسها وهي تسرع إلى الحمام.

والنقيب أيضاً أراد أن يعرف تطورات دانيال:

– والآن هل تذوّقت الفاكهة؟

– بهدوء، نقيب، عندما يحصل سأخبرك.

– فقط أريد أن أعرف إذا كانت باكراً، أراهن أنها باكر.

– ليسمع الله منك يا نقيب.

بقي الاثنان في سجال شعري حي وبمضمون واحد لا يتبدّل.

حياة المواخر في باهيا هي موضوع أطروحة مثيرة لجوستنيانو دوارتي دا روزا؛ لقــد غزا دانيال ثقته، وذهبا معاً إلى نزل غابـــي لشرب البيرة ورؤية النساء. وفي حين يضع ظهره على طاولة المخزن الكبيرة فإنه يقوم بتحليل نقدي للدعارة الرفيعة المــستوى في المكان، كما أن دانيال بحضور النقيب كان يقصُّ جناح تريزا في تغيير لغة كلام العينين والابتسامات المحمّلة بالعواطف، إنه يهيِّئ الموقع.

– بضاعة متدنّية، نقيب، بضاعة غابـــي هذه... إنها بصراحة متوسطة الجودة.

– لا تقل لي إنك لم تقدّر تلك الفتاة؟ فهي في الحياة العامة منذ لا يزيد على الثلاثة أشهر.

– لم تكــن شــيئاً كــبيراً. عندما يأتي النقيب إلى باهيا فإني سأكون دليله الــسياحي وسأريك ما هي المرأة. لا تقل لي من جديد إنك تعرف باهيا جيداً! من لم يرتد بيت عزّاب زفرينا، ولم يذهب إلى بيت ليزيتي لا يعرف باهيا. ولا تأتي بمثل البولندية في أراكاجو لأني سأريك شقراء حقيقية، بلاتينيوم أشقر بالفعل، لا بالشعر المصبوغ، ويا للمستوى الرفيع!

- متى تذهب إلى باهيا يا نقيب؟ ضع التاريخ وأنا أراهن على روزاليا بعشرة ضد واحد. إذا لم تنجح، فإن الحفلة لن تكلفك شيئاً، مجانية.

- قد اذهب إلى باهيا خلال هذه الأيام، مباشرة بعد الأعياد. لقد تلقيتُ دعوة من المحافظ لحضور حفلة الثاني من حزيران وسيتمّ الاستقبال في القصر. إنه صديقي وقد عرّفني عليه أحد رجال الشرطة.

- هل ستتأخر هناك؟ من يعرف فقد ألتحق بك.

- أنا نفسي لا أعرف، وكل شيء متعلق بالقاضي، عندي قضية في المحكمة. إني أستفيد من المناسبة لأرى الأصدقاء، في وكالات الدولة، وهم رجالات حكومة، وأعرف أناساً كثيرين في باهيا؛ هنا، بعد آل غويدس، فأنا من يحلّ المشاكل. سأتأخر ما يقارب الخمسة عشر يوماً.

- مع هذه المدة، لن أستطيع اللحاق بك، فقد وعدتُ العجوز بالبقاء معه طيلة الشهر. ودون أن نتكلّم عن الجارة التي عليَّ أن أستجلي موضوعها، وأكتشف الحقيقة وما إذا كانت عذراء أم لا.. بالنسبة لي هي نقطة الشرف. ولكن دعنا نفعل الآتي: إني أعطيك كتاباً تحمله إلى روزاليا، ويفتش عنها الصديق باسمي في التباريس.

- ملهى التباريس؟ أعرفه، لقد ذهبت إلى هناك.

- أجل إنها تغنّي هناك طيلة الليل.

- إذاً، أعطني الكتاب، وسأتعرّف عليها. ولكن أنذرها لكي تحترمني وتهتمّ بي شخصياً. إذا كانت لا تريد أن تتعرّض...

- إني أتمسّك بالرهان، يا نقيب، وروزاليا ستقلبك رأساً على عقب.

- المرأة التي تأمر النقيب لم تلد بعد، فكيف يمكن أن تجعل منه كلباً فرنسياً. الرجل الفحل لا ينحدر إلى هذا المستوى.

- مبلغ الرهان، كونتو كامل، مقابل مائة ألف ريس.

- لا تكرِّر هذا الأمر وإن بالمزاح، ورهانك أرفضه، اكتب لهذه السيدة، وقل لها بأنني أدفع لها مباشرة وأنّ عليها أن تحترمني، وأن لا تأخذني طريدة عندما أغضب فما يجب أن تعرف غضبي.

شهرة سوء، وتافه فرح، استنتج دانيال. ماذا يمكن التفكير في شخص يعلق في عنقه عقداً من الخواتم الذهبية وكل خاتم يذكّره بأولئك العذارى البائسات

اليتـــيمات اللواتي اغتصبهن. وبينما يلوك النقيب فحوليته كان دانيال يقوّض تريزا بإغراءاته.

كـــان يغري تريزا، دون أن تريد، ودون أن تعرف لماذا، ورغماً عن إرادها، فـــإن تريزا كانت تردُّ على نظراته: يا لتينك العينين الحزينتين، الزرقاوين العميقتين، ويـــا لذاك الفم الأحمر، والشعر، إنه ملاك هابط من السماء. وعندما خرج النقيب والمـــلاك إلى الشارع مسترسلين في الحديث الذي لا ينتهي خبأت تريزا في صدرها الوردة التي جاء بها... من خلف ظهر النقيب كان دانيال قد أراها الوردة العطرة ثم قـــبّلها ووضعها على الطاولة الكبيرة... بالنسبة إليها فقد قطفها وقبّلها، واستقرّت على الطاولة وردة حمراء وقبلة حب.

28

في نهايـــة أسبوع الذبذبة والعصبية، طرحت ماجدة المشكلة، مع ما لديها من سلطة الأخت الكبرى، على طاولة العشاء:

– لا بـــد أن يحـــدِّد موقفه. كائنة من كانت الخطيبة التي يختارها، فإننا جميعاً ســـنكون مـــوافقات، والـــثلاث الباقـــيات يلتزمن بهذا الاختيار، ويذهبن للعناية بتجهيزات العرس.

– أن يخطب الأربع معاً أمرٌ غير ممكن، إنه واحد.

– جيد أن يكون قد اختار اثنتين على الأقل... إنه أمر عظيم!

قالت أماليا ذلك، مظهرة اعتراضها على أي اتفاق.

– لا تقولي حماقات، ولا تكوني مدعاة سخرية.

– "من تكون مدعاة سخرية أكثر من امرأة متقدمة في السن تجري وراء شاب في مقتـــبل العمـــر". ومع العصبية التي كادت تنفُر من جلدها رأت ماجدة نفسها معتدى عليها فأجهشت بالبكاء.

– "إني لا أجـــري خلفه، هو من يجري خلفي، ولست متقدمة في السن، إني في العشرينات مثلكن"، وكانت الكلمات تخنقها التنهدات.

أحسّت أماليا بالندم "اعذريني يا أختي، إني أسبح في الزيت!" عانقت شقيقتها وبكتا معاً.

- "لماذا عليه أن يحدِّد موقفه ما دام يحسّ بنفسه جيداً في موقعه؟" أعلنت برتا الأقل جمالاً، المكتفية بالقليل، فالقليل أحسنُ من لا شيء، وهي سعيدة بتلك اللذّة؛ فبين الصعود والنــزول في مشاويره يصيبها البرد في حوضها عندما تراه:

- ابدأن المشاكل وهو لن يعود أبداً.

آه، عدم رجوعه سيكون نهاية كل أمل: الاشمئزاز، المرارة، البكاء دون سبب، المزاج السيئ، الانهيارات العصبية، سوء التفاهم بينهن لأقل الأشياء، الخبث، التآمر، الليونة المفتعلة، إنها الحياة التي تتنكّر لها العزباوات. أجل، برتا على حق، ليس علينا أن نخــبره، ونعــين الــتواريخ، ونفرض القرارات.. ونذرت ماجدة نذراً للقديس أنطونيوس المزواج، وفتّشت أماليا عن القديسة فيدنتي التي لا مزاحم لها في مواضيع الحــب، ووعــدت بأن تدفع لها النذر مقدّماً، أما برتا فإنها تفضِّل القديسة الزنجية لــوكايا، وفي زاويــة من الشارع، اشترت لها الأعشاب ووضعتها أمامها للحمام، وهي أعشاب معصومة.

اكــتفت تــيودورا بالابتسام، صامتة، فهي صاحبة تجربة ومتأكدة، هذه المرة أيــتها الأخــوات الحبيبات الكريهات لن تكون كسابقتها وتياو لن تتركه يهرب، فــستهرب معه، حتى وإن أُجبرت على التخلي عن كل ميراثها، حتى وإن أُجبرت علــى بــيع صكوك الإرث والبيوت المؤجرة. ألا يقولون إنه يأخذ مالاً من النساء المتزوجات وحتى من النساء العاميات؟ إن السيدة بونسيونا تؤكد بالأدلة والبراهين إنهــا فتاة غيورة وستثير فضيحة في الشارع، في العاصمة، وتفضح المبالغ والتواريخ الدقــيقة. إذاً، جيد جداً: تياو مستعدّة للدفع، فلديها مال مودع وعائدات شهرية، وإذا اقتضى الأمر فستقوم بسرقة مدخرات الأخوات وستفعل ذلك بسرور.

بالأســئلة والمحادثات، واللف والدوران، اكتشف دانيال الوقت المثالي. خلال وجــبة غــداء شيكو نصف الكعب والبائعين، عند الظهر، تبقى تريزا على الشرفة وحيدة في المخزن، ولكن زبوناً ما يمكن أن يأتي، وإنّها مسألة لا بدّ من حلها لأمن المخطط: في غياب النقيب خارج المدينة، في الأعمال، أو مشغولاً في المزرعة. بقي دانيال منتظراً ومنتبهاً.

بعــد عدة أيام من الانتظار ونفاد الصبر، رفض دانيال دعوة النقيب إلى سفرة قصيرة، يخرج فيها صباحاً ويعود مساء، لمشاهدة حفلة عراك ديوك هراتية في المحلّة

المجـــاورة من أراضي الداخل؛ عشرة فراسخ من طريق عام صعب الاجتياز بسبب الأمطـــار، ولكن ترتو كاشوخو، السائق الجيد، كان يستطيع اجتيازه في ساعتين. المقاتلون المفترسون يستحقّون التضحية، وهي فرصة مناسبة لكي يربح الصديق مالاً كـــثيراً في المـــراهنة على ديوك النقيب. أمر مؤسف أن لا يكون دانيال قادراً على القـــبول، فقـــد حدث أنه في ذلك اليوم بالذات كان على موعد محدّد، وفي مكان ســـرّي، وهي الفرصة الوحيدة ليأخذ بين ذراعيه الجارة الجميلة ويكتشف الحقيقة كاملة، يا للأسف يا نقيب.

- ســـبب وجيه، لا ألحّ، ابقَ هنا قريباً، تأكد مباشرة ثم قل لي إذا كنت على حق: الفتاة عذراء، وإذا كانت قد تلقّت كثيراً ففي أوسط الأمور.. استأذن النقيب وجلس في الشاحنة إلى جانب ترتو كاشوخو "إني سأذهب مباشرة، وعليَّ أن أمرَّ بالمزرعة سريعاً".

قـــبل الغداء، في مكان العقوبة التقليدي أمام الدارة الكبيرة، شرب دانيال ماء ورد بـــارداً وقد أخذ الكأس من يدي تيودورا ونظر في قبّة العنق الذي يشرئب منه الـــثديان "ألف شكر لأنك قتلتِ عطش مولّه ظمآن؛ الآن سأذهب إلى البيت لقتل الجوع إلى اللقاء أيتها الرائعة".

- ألست تريد أن تأكل معنا، ألا تريد أن تأكل أكل الفقراء؟

ووقفت تيودورا في البيت مشرئبة تعرض نفسها كلياً.

- "في مناسبة أخرى أقبل الدعوة بسرور وأتشرّف، ولكن اليوم وعدت أبويّ وهما ينتظرانني وقد تأخرت؛ يبقى الصحن اليومي ليوم آخر، يا تيودورا، لمرة أخرى، لأعياد أخرى، من يدري، اليوم سأتمتع بأكلة إلهية يا أخت السماء؟ الوداع، سأقول للنقيب إنني اكتـــشفتُك عذراء وخوفاً من الظروف احترمتُ برعمك الذي لم يبقَ منه شيء، وأما الباقـــي فملاعـــبات، وتآكل، في المطارح الخصبة العامرة". نوافذ الدارة الكبيرة خالية، الشارع مقفر، ومن ناحية الركن يعود دانيال إلى المخزن، عندما رأته تريزا يدخل ظلّت بـــلا حـــراك، بـــلا صوت، عاجزة عن الكلام والحركة، لم تحسّ بنفسها هكذا قط، والقلب غير منتظم، ليس خوفاً ولا نفوراً، فماذا يمكن أن يكون؟ تريزا لا تعرف.

لم يتـــبادلا كلمة واحدة، أخذها بين ذراعيه، واضعاً وجهه الدافئ على وجه تريـــزا الـــبارد، كان لهاثه معطّراً والعطر يحكي بلا كلام. في الشعر، في الجلد، في

الـــيدين في الـــصدر نصف المفتوح.. أما النقيب فتضوع منه رائحة العرق الكريهة ولهاث الكاشاسا، الرجل الفحل لا يستعمل العطور. ودون أن يبتعد عنها فقد رفع دانـــيال يديـــه إلى وجه تريزا، يداعب الوجه بإصبعه، وبينما يحدِّق في عينيها رأى فمهـــا نصف منفتح فقبّلها. لماذا لا تحيد تريزا برأسها إذا كانت ترتعب من القُبل، ومـــن قرف فم النقيب فوق فمها، يمتصّ رحيقها ويعضّها؟ أكبر من الاشمئزاز كان الخوف.. وهذا الشاب لا يشعرها بالخوف، إذاً، لماذا توافق ولا تشيح بوجهها ولا ترسله بعيداً؟

فـــم دان، الـــشفتان، اللسان الطويل، الريق الطيب، كلها، جعلت فم تريزا يستـــسلم، وفجأة انفجر شيء ما في صدرها، فإنها بعينيها المستسلمتين لعيني الملاك السماويتين المبتلتين، تستطيع أن تبكي لأسباب أخرى على ألاّ تكون أسباب وجع سوط الجلد والكره العضوض والخوف الذي لا يوصف. هل يوجد في الحياة أشياء أخـــرى غـــير مـــا عرفته مع النقيب؟ لا تعرف فهي لم تتذوّق إلا البضاعة العفنة، وحـــياتها طاعون، جوع. في أمطار الشتاء، تتفجّر البذور، وتدوي الرعود بهزيمها فإذا الأرض القاحلة المتشقّقة، الضحلة، تتفجّر ثماراً وأزهاراً.

عـــندما دخل البائع بومبيو إلى المخزن وعقبه بابا موسكاس، كانت تريزا في المكان نفسه، واقفة، منسيّة، خارج العالم، ومختلفة وثقيلة عما كانت عليه في تلك اللـــيلة الممطرة، عندما كان الواحد والآخر منهما، في سرير الحديد، وعلى فراش الألـــواح الخـــشبية يخونان المختارة سابقاً تيودورا، وفي السر الأعمق، يملكان تريزا بكف اليد.

29

لقـــد قـــبّلها دان في عينها، ثم في فمها، ويده اليمنى تنـــزلق على الظهر إلى الـــردفين والـــيد اليسرى تتغلغل في شعر تريزا وها قد مرّت أربعة أيام على القبلة الأولى مـــن الـــشاب، ولكـــن تريزا ما زالت تحتفظ بها في شفتيها بانتظار الثانية. الصوت الدافئ يُشعل في صدرها النار:

- "غداً ليلة عيد القديس حنا" قال دانيال "وقد أخبرني النقيب أنه ذاهب إلى عيد يدوم طيلة الليل ولا يعود إلى البيت إلا في اليوم التالي".

- أعــرف، يذهب كل عام، إلى الحفلة الراقصة في بيت سي مندينيو أليكاتي الريفي.

- غداً، كوني في التاسعة مساءً عند الباب الخلفي، في التاسعة تحديداً سيكون عيد القديس حنا عيدنا نحن.

مــن جديد الفم والقبلة، ولمست تريزا خفيفاً، وبخوف، خصلات شعر دانٍ؛ إنها ليّنة كحرير دود القز. غداً عيدنا نحن، ودون خطأ.

30

لم يعــوّد النقيب زوجته الشرعية دوريس، ولا تريزا خاصة، الفتاة البسيطة، على الاطّلاع على خطواته وذهابه وإيابه، وجلساته الليلية ومشاريعه وقراراته؛ و لم يترك أبداً لامرأة ما الجرأة في أن تسأل أين يقضي الليل، معها في البيت أو في بيت حــريم غابــي يشرب البيرة ويتفحص نزيلة جديدة، إنّه في محلة قريبة أسير أعماله المــتعددة أو في عراك الديوك الهراتية، الرجل الذي يحترم نفسه يبقي المرأة في المكان المعدّ لها.

أما سفراته الطويلة إلى باهيا أو أراكاجو، فكانت تريزا تعرف بها عند غروب الــيوم السابق ومع الوقت الذي تحتاجه لإعداد الحقيبة: قمصان مكويّة بصورة لا مثيل لها، وبدلات بيضاء ملطّخة.. كانت قد عرفت صدفة، من خلال إصغائها إلى جــزء من حديث بين النقيب وشيكو نصف الكعب، عن برنامج تأخره في المزرعة ليــسرّع الأعمــال، وعــن ذهابه إلى كريستيانا ليدقّق في مبيعات الزنجي باتيستا، مبيعات الزنجي بالاسم فقط لأن المال والبضائع كانت لجوستنيانو، وعن ليالٍ بطولها هــنا وهناك، وفي الحفلات في بيوت معارفه، في الأماكن السكنية والمزرعة، كونه راقــصاً جيداً وهو دائماً متهيّئ لضربة قدم في الأرض، وكون هذه المراقص أفضل المحطات لتوظيف صغيرات خضراوات بالتسمية الدقيقة للنقيب... إنها ليالي الراحة بالنسبة إلى تريزا.

في بــيت رايموند أليكاتي على تلة بعيدة في أراضي المصنع، وفي عيد القديس حــنا، كانت تريزا تعرف أن النقيب لا يخلّ بالذهاب إلى هناك فحضوره المناسبة رئيسي ولا يمكن التّساهل فيه في كل عام... ذلك الدنيوي أليكاتي، المحمي من آل

غـــويدس، ومخبأ المسدس، بالنسبة إلى جوستنيانو، كان شكلاً معروفاً في المنطقة: فمـــع زراعـــة قصب السكر، كان يبيع كاشاسا، ببعض أنواعها المعروفة بالمثيرة، وكـــان مـــستبدّاً، وكأنه قائم من كفن، وذو شباب دائم، وفي أيام الواجب، كان يقفـــز في البـــيت لاستقبال الفحول وأمامهم كان الفحل الأكبر يلوي عذرية ما، لـــذلك كانوا يعرفونه أيضاً باسم رايموندو لاوي العذرية أو بالدنيوي لابس السترة الهندية، التي يقول إنه أوصى عليها في باهيا لدى المرحوم برنادينو كاشف الورق... مـــع كـــل هـــذا وأكثر منه، فإن الفتيات اللواتي كان يجمعهن كان يجهّز النقيب وأشخاصـــاً آخـــرين بهـــنَّ (حاجزاً لآل غويدس أصحاب المصنع أكثرهن جاذبية حسب الإشاعات) أو يرسل بهنَّ إلى نُزل غابـــي وإلى أماكن دعارة مختلفة كسوق كـــيادغوا؛ إنّـــه محتفل بالعيد ولا يزاحمه أحد، فإنه كان يقضي شهر حزيران مع العبـــيد في البيت، في قطف الثمار العذرية، ونجّنا يا قديس أنطونيو ويا قديس حنا، ويا قديس بطرس..

العـــيد الأكـــبر هو عيد القديس حنا، ومع كومة كبيرة من الحطب المشتعل، وجـــبال مـــن الذرة الصفراء، والألعاب النارية من الدوي المدفعي والانفجارات، والـــرقص الصاخب، كان يأتي إلى هناك أناس من كل المحيط، على الحصان، وفي عـــربات ثـــيران، على الأرجل، وفي شاحنة الفورد... وكان رايموند أليكاتي يذبح خنـــزيـــراً وعجـــلاً وخـــروفاً ودجاجاً وفراخاً، وإذا العيد عامر بالأكل. عازفو القيـــثارات والكمانات والهرمونيكا برقصات الفالس ورقصة الشوارب والبولكا، والمازوركـــا، والذئاب، وسامبا الدوران... وتدور الموسيقى ويستمر الرقص طيلة اللـــيل. كـــان النقيب يدفع الراقصين المتماسكين فهو جيد الرقص، لم يخسر مرة، وجـــيّد الـــشرب، ويجيد الأكل بالشوكة، وعيناه تفتّشان وسط الخراف المعروضة بالمـــزاحمة، وعندما كان يقرِّر، فإن رايموند المهتم بالأمر والمطري على المحاسن كان يـــتكفّل بمناقـــشة الـــنقطة الحساسة. من ذلك العيد لم يخرج النقيب أبداً خاوي الوفاض.

كـــوت تريزا البدلة البيضاء والقميص الأزرق. الملابس مغسولة ومطوية وجاهزة فـــوق الفـــراش والنقيب جالس عارياً. تريزا تغسل رجليه وتجفّفهما، ثم تخرج لتفريغ حـــوض الماء وهي ترتجف خوفاً. لم يكن خوفها ذاك الخوف التقليدي من المعاملات

الـــسيئة والجلدات العادية، كان الخوف، اليوم، من نوع آخر، إذ كانت تخشى، كما تعـــوّد أن يفعـــل، أن يطلب إليها أن تتمدّد ويأمرها بفتح فخذيها فيغير عليها قبل أن يرتدي ملابس العيد، اليوم لا، يا الله... واجب صعب ومكروه لتريزا الخاضعة للتنفيذ، كل الأيام في مسلسل العقوبة، ولكن اليوم، لا! يا إلهي! اجعله لا يتذكّر.

عـــندما النقـــيب يأمر وعليها أن تطيع وليس من طريقة للاعتراض. ولا يفيد حـــتى أن تكـــذب قائلـــة إنها غير مهيأة في يوم هي ليست في كامل جهوزيّتها؛ فجوســـتنيانو يحب أن ينالها وهي في عادتها الشهرية ويتهيّج عندما يرى الدم يتقطّر مـــن رفيقـــته صارخاً وهو ينال منها: "إنها الحرب! (تعبير آخر تعلّمه من فنراندا) فلتحـــيا الحرب!" هكذا يحدث بالتالي فور أن يفور دم الحياة للمرة الأولى، جاعلاً مـــنها امـــرأة قديرة، إنها الحرب، القذارة والاشمئزاز، التي تعلن عن نفسها في هذه الأيام، والتي يكون الواجب فيها أكثر ثقلاً وإيلاماً. ولكن واجب اليوم هو الأكثر رعباً. اليوم، لا، يا إله السماء!

لقـــد عـــاد إلى الغـــرفة. يـــا إلهي! نقل النقيب قطع الغسيل عن الفراش إلى الكرسي، تمدّد بالطول فبدا جذعه قوياً، وجسده مترهّل البطن بالانتظار، لا شيء غير عقد الخواتم فوق صدره الغليظ. تريزا تعرف واجبها: إذا تمدّد النقيب فعليها أن تتمدّد أيضاً دون أن تنتظر الأوامر، العصيان مستحيل. ميتة من الخوف، من الخوف الدائم من أن تتعرّض للضرب، ومع ذلك فإن تريزا كما لو أنها لم تره، مشت تأتي بالثياب المغسولة.

- إلى أين تذهبين بحق الشيطان؟ لماذا لا تتمدّدين؟

مـــشت إلى الفراش برجلين ثقيلتين وغليان في داخلها، أسوأ مما في الأيام التي تكون فيها غير متلائمة، ولكن ليس من وسيلة وها هي تنـــزع لباسها بيد بطيئة.

- بسرعة. هيا بنا!

صـــعدت إلى الفراش، تمدّدت، اليد الثقيلة تمتد فوق جسمها، تريزا تتضايق، واختناق في حنجرتها دائماً ما كلّفها الكثير ولكن ليس إلى هذا الحدّ. اليوم هو أبعد مـــن حـــدود الاحتمال، إنه عذاب من نوع آخر، عذاب أكيد، ألم في القلب... عـــندما امتطاها فإن مقاومتها الداخلية كانت قوية إلى حد إغلاق أبواب جسدها التي اقتحمها بالحديد منذ أكثر من سنتين.

بالنسبة إلى النقيب كانت العملية طيبة كما لو أنها المرة الأولى، تريزا مضغوطة، وقاسية، ما عاد ذلك الجسد الطري، المرتخي، المستسلم، إنه الآن صلب، صعب ومقاوم. وأخيراً فهو مشارك، ظنّ النقيب ذلك وهو راضٍ عن نفسه مرة أخرى، منتصراً على الطبيعة المتمردة في الصغيرة، وليس من فحل يضاهيه.

في لحظة الرجفة، وقد كان مهتاجاً، أخذها من فمها، فم مر، وقبيح، مع الاستعجال لارتداء ملابسه لم يغسل النقيب نفسه، تضع اللباس والجوارب والحذاء للنقيب، ثم ناولته القميص والسروال وربطة العنق والسترة وأخيراً الخنجر والمسدس.

ترتو كاشوخو ينتظر في الشاحنة أمام المخزن، إنه سائق، حارس مسلح، ورفيق مشارك في الرقص، وعازف هرمونيكا، ومجلّ في الحروب؛ أما شيكو نصف الكعب، فكان قد خرج إلى الماراثون الذي لا ينتهي في ليلة القديس حنا، من بيت إلى بيت، يشرب العرق، الكونياك، والليكورز: ليكور الجنيبابو والكرز، والخوخ، ولا يهمّه أن يعرف الصنف إنّما العلامة، وعند الصباح يرتمي على فراش الهواء فوق أكياس السمك المجفّف على القاع القذر والذباب فوقه لا يُعدّ، هذا إذا لم يبقَ مرمياً في غرفة إحدى الداعرات في سوق البغاء الخلفي في كياداغوا.

ببدلته البيضاء كما تقتضي الوجاهة، يأمر المطر فينهمر؛ إنه وجه سياسي، وبينما يعقد ربطة عنقه، فكّر النقيب لبرهة باحتمال أخذ تريزا معه وهي ترتدي فستاناً من فساتينها القليلة الاستعمال: شابة جميلة، وقطعة جديرة بالعرض في حفلة رقص مونديينو لاوي العذرية. في لقاء المصنع بمناسبة عيد القديس حنا، فإن الدكتور إميليانو غويدس كان دائماً يقوم بقفزة مع الأهل والمدعوين في رقصة شعبية ليبيّن لضيوف العاصمة كيف يكون العيد النموذجي الحزيراني في الريف. كان يتأخر قليلاً، ويرتشف كأساً واحدة، ويشهد رقصة أخرى ثم يعود إلى الرفاهية في بيت المصنع. ولكن الأستاذ، وهو يبرم شاربه كان يزن بعيني العارف المجموعة النسائية الحاضرة، بينما رايموند منتبه لأي دليل على الاهتمام، إلى أقل إشارة إعجاب ليقوم بمعالجة التفاصيل ويضع المنتقاة في تصرف سيد الأرض.

يعجب النقيب أن يعرض مملوكته تريزا أمام نظر غيره أكبر آل غويدس سناً. سيد كاجازيراس الشمالية. ولكن الأستاذ إميليانو في سفرة إلى بلاد أجنبية وقد ذهب حديثاً ولن يعود قبل أشهر. ومع ذلك توصّل النقيب إلى أن يفتح شفتيه

وكـــاد يُعطـــي الأوامر إلى تريزا لترتدي رداء العيد، ولكنه بعدها راح يتأمّلها من رأسها إلى قدميها متفحصاً.

تريـــزا، متكهنة بنواياه، أخذها الخوف من جديد، ولكن ليس من المعاملات السيئة وألم الفراش، إنه خوف أكبر: إذا أخذها النقيب معه فسيبقى الشاب منتظراً تحت المطر، أمام الباب الخارجي؛ مستحيل! أين العيد الموعود؟ لن تعرف أبداً ذلك الـــنداء في صدرها، وحرير الشعر، والفم المغري. كان الأستاذ إميليانو يستأنس مع الأجنبيات في فرنسا، وأبعد من ذلك إذا سرى في العيد نبأ، وواجه موقفاً حساساً، وأعجبت فتاة ما النقيب وأراد أن يأتي بها إلى المزرعة؟ ماذا يفعل بتريزا؟ يعيدها في الـــشاحنة مع ترتو كاشوخو؟ امرأة جوستنيانو دوارتي دا روزا لا تسير وحيدة في اللـــيل مـــع رجـــل آخر، ومع أنه رجل ثقة فلا يمنع أن يكون ترتو ضعيفاً ويجربه الـــشيطان في الظـــلام. وحتى لو لم يحدث شيء فإن الناس سينظرون إلى ما حدث بعـــين السوء، ومن يستطيع أن يُثبت العكس؟ لم يخلق جوستنيانو دوارتي دا روزا ليكون نصف رجل، يمكن القول عنه أي شيء.. وكل ما يقال فإنما يقال من وراء ظهـــره... يعدونه لصاً قاسياً، يُغري القاصرات، فظاً، ومنحرفاً، لص أراضٍ، ماهراً في الـــوزن والحـــسابات، خـــدّاعاً في عراك الديوك الهراتية، مجرماً مميتاً، من خلف ظهـــره، ولماذا لا يقولون هذا في وجهه، أين الشجاعة؟ ومع كل ذلك، لم يتّهموه بأنـــه ذو قرنين زُرعا في رأسه، ولم يتّهموه بالتعبُّد للقديس كورنيليو، وبالرُّجيل، وبكـــونه مخـــدوعاً من أنثى. ولكن النقيب لا ينخدع، إنه رجل يحترم نفسه ولا يـــنحدر إلى هذا الدّرك. ولكن شباب العاصمة يبدون كالموز في أيدي النساء، ألم يبقَ دانيال مختلياً طيلة قبل الظهر بفتاة الدارة الكبيرة دون أن ينالها خوفاً من النتائج، ولكنه فعل كلّ ما عدا ذلك؟

أخـــذ تريـــزا معه لا يستحق العناء، والمملوكة قد حصلت على وجبة يومية جيدة تكفيها:

- عندما أخرج، أطفئي الأضواء، واذهبـــي للنوم.

- "نعم يا سيد" تنهّدت تريزا: آه، لقد عانت كل أنواع الخوف في بداية ليلة القديس حنا.

اتجه النقيب جوستو إلى المخزن، وفتح الباب، إنها تُمطر في الشارع.

31

كـــان محيط المخزن يُطلّ على زقاق ضيق مكوّن من المساكن الخلفية، حيث كانـــت الشاحنة والعربات تفرغ البضائع التي كانت توضع لاحقاً في غرفة البيت تجنُّباً للتكديس الذي يمنع الحركة في المخزن. كان النقيب في سفراته يشتري بضائع بالجملـــة وهـــي كناية عن مواد في طور التصفية، مواسم مقطوفة من الفاصولياء والقهوة والذرة! وإذا كان يملك سيولة ليدفع نقداً، فقد كان يحصل على حسومات خاصـــة مـــن تجار الجملة فيربح في الشراء ويربح في البيع، وها هي ثروته الخارجة قليلاً عن نطاق المألوف أصبحت مبعثاً للحسد وإن لم تكن ثروة كبيرة.

كان المطر يطفئ في الشارع أكوام الحطب، المشتعلة ابتهاجاً، وفي الزقاق كان يـــشكّل أحواضـــاً من الماء، ويقلب صفحة الأرض. وبينما يلفُّ نفسه بمعطف من المطاط، عند مثلث مدخل متاخم لحائط المخزن، كان دانيال يتفحّص الليل وسمعه مرهف لأية حركة، بعينين تريدان أن تخترقا ستار المطر والظلمة.

في ذلـــك اليوم، بعد العشاء، كان دانيال قد سأل السيدة بياتريز: "يا عجوز، هل يمكن ألا يكون عندك سترة ما، لا قيمة لها، على أن تكون جميلة، تعطيني إياها حتى أهديها إلى فتاة جميلة؟ إن التجارة المحلية كالمخدر، مؤلمة".

– لا أحـــب أن تناديني بالعجوز، دان، إنك تعرف ذلك جيداً، لست عجوزاً إلى هذا الحد ولا منتهية.

– عفواً. ماما، إنها ليست غير طريقة تحببية في الكلام؛ إنك ثلاثينية ما زالت في عـــزّ شبابها، ولو كنت أنا الأب الواقف هنا لما كنت تركتك تسيرين وحيدة في باهيا.. وضحك فرحاً معتبراً نفسه ذكياً ومسلياً.

– "إن أبـــاك، يـــا بني، قلما يهتمّ بـــي. دعني أرَ إذا كنت أجد سخافة ما أعطـــيك إياها". في الصالة؛ بقي الأب والابن وحيدين، فحذّر الأب القاضي ابنه دانيال:

– لقد بلغني أنك تدور حول دارة الفتيات مورايس، وربما تسعى إلى تيودورا. وقـــد تكـــون سمعت في شأنها قيلاً وقالاً واتهامات باطلة، إنها فتاة كاملة، وكل ما حـــدث لم يعـــد كونه غراماً أحمق. إني أوصيك بالحذر، فهؤلاء الفتيات من عائلة متميـــزة، وأية فضيحة معهنّ ستكون ذات صدى سيئ.. وأخيراً فإن المكان مليء

بالفتـــيات المتفـــرغات اللواتي لا حول ولا قوةَ لهنَّ، ولا أزمات معهنّ، ولا كلام عليهنّ.

- لا تقلـــق، بابـــا، لست طفلاً، إني لا أضع يدي في النار، ولم آتِ إلى هنا لأسبِّب لك وجع رأس. هؤلاء الفتيات لطيفات، إني أنسجم معهنّ وهذا كل ما في الأمر وأكثر من ذلك فليس عندي تفضيل لواحدة على الأخريات.

- لمن الهدية إذاً؟

- لمتفـــرِّغة، لا حـــول لهـــا ولا قوة، ولا أزمات معها ولا كلام عليها. كن مطمئناً.

- شـــيء آخـــر: إن أمك تقيم في باهيا بسببكم. ولو عاد الأمر إليّ لكانت تعيش هنا ولكنها لا تستطيع أن تترك أختك وحيدة.

- "فرينيا؟" ضحك دانيال "بابا، صدِّق ما أقول لك: فرينيا هي أكبر عقل في العائلة. لقد قرّرت أن تتزوّج من مليونير، فعُدَّ الأمر مقضياً، عندما تريد فرينيا شيئاً فإنها تحصل عليه.. لا تقلق على فرينيا".

بالنـــسبة إلى وقـــار صاحب الفضيلة، كان دانيال يبدو رجلاً وضيعاً إلى حدٍّ بعـــيد. وعـــادت السيدة بياتريز إلى الصالة وهي تحمل معها منديلاً مطرّزاً بخيوط ذهبية. هل يفيدك هذا يا بني؟ "رائع، ماما، (مرسي)".

في الـــزقاق عـــند زاوية الباب الكبير، كان يلهو بالمنديل في جيب المعطف، يـــشعل سيجارة أخرى، وانهمار المطر يغسل وجهه. في الشارع الأمامي، انطفأت كـــومة حطـــب الأخـــوات موررايس، ولم تعد تسمع شرقطة الحطب في النار التي يجـــدِّدها أحـــد الخدم المكلفين. وفي ليلة العجائب، في عيد القديس حنا، جلست العـــزباوات في الدارة الكبيرة، إلى مائدة الطعام، وعليها ما لذَّ وطاب من الفواكه والـــثمار وكـــل أنـــواع الطعام الذي يصنع بالمناسبة، والليكور! الأخوات الأربع منتظـــرات هـــنَّ الأخريات. إن المطر الغزير يمنع زيارات العمّات والأهل المتفرغين وبعـــض الأصدقاء. ودانيال؟ في إحدى دارات العائلات، تحقّقت الأخوات بقلق، ففـــي أي مـــنها يرقص إذاً؟ إذ إنه تلقّى دعوى إلى حفلة رايموند أليكاتي الراقصة. دانيال يفكّر في الأخوات الأربع، إنهنَّ طريفات عند فقدان الصبر على حدود الأمل الأخـــير، والأكـــبر سناً ما زالت مرغوبة بثدييها الصنميين. غداً بالتأكيد سيذهب

لــزيارتهن لــيأكل كانجيكا برفقة الأربع، فيعشقهن معاً متظاهراً بالخجل: ماجدة، أمالــيا، برتا، وتيودورا التي هي غطاؤه الرائع.. ينهمر المطر على وجه الشاب، لن يحــتفظ في فمــه بنكهة تريزا ولن يحسّ بصدره رجفة الجسد الأهيف، وتلمع في العينين الرطبتين نزوة الاحتراق، عليه أن يذهب.

الــسمع مرهف: تبيّن أخيراً ضجيج محرك الشاحنة التي توقفت أمام المخزن، النقــيب سيذهب، لقد غادر متأخراً ابن الأمة. وما كاد نور الأضواء الأمامية يشعّ عند الركن، يكشف الظلمة، حتى اختفت الشاحنة في المطر.

استهلك دانيال سيجارة أميركية أخرى مهرّبة... ترك الملجأ عند الباب الكبير واقترب أكثر، حيث يستطيع المراقبة، ولفّه المطر يبدّد ضفائره اللولبية. وانفتح باب المخزن الخارجي بشكل مثلث، فتبيّن دانيال الوجه المبلّل والشعر المسبل المتقطر ماء: إنه وجه تريزا باتيستا.

32

إذا كـــان هناك من يحتقر الأعاجيب، فلست أنا. أفعل القليل أو الكثير، كما تفــضّل سيادتك، وكما تفهم بصورة أفضل... سيادتك تجيء بدورك مع سيل من الأســئلة، وكـــل ســؤال أكثر إحراجاً من سابقه. الناس ذوو الكلام الرتيب هم صــناديق مقفلــة من الاختصاص، يكيدون بالشعب الغبـــي، ويحصلون منه على الاعتـــراف والشهادة.. لقد عرفت مندوباً في الشرطة شبيهاً بهؤلاء، لم يكن أحد يعطيه أي اهتمام، فهو لم يكن يصرخ، ولم يكن يضرب، وأسير يده لم يتعرّض قط للجلـــد. كان فقط يجيد الحديث الطيب، أخبرني، قل لي، اعمل لي معروفاً، وكان يرمي الحصرم ويقطف العنب. سيادتك لست من الشرطة، أعرف، نعم سيدي، لا أريد أن أعتدي عليك، فلا تحمل السوء على محمل النّوايا. ولكنك تصرُّ كثيراً على الاســتفهام عـــن تريزا باتيستا لأن الناس يظلّون هنا حذرين ويريدون أن يشعروا بالاطمئـــنان، حيـــثما يكون الدخان فهناك نار، ومن يسأل يرد أن يعرف، فلماذا سبب حيطة الناس إذاً؟ أمن أجل أن يصل النبأ قبلك عندما تعود إلى أرضك، فتخبر خصومك في مجمع الميناء؟ اعلم إذاً أنك هنا في المعرض تستطيع الحصول على أكثر من ثلاثين طريقة تصف فيها تنقلات تريزا باتيستا، وكلها بدفء الشعر، مع الروي

والقافية. وكل بيت شعر بثلاثمائة ريس، وهذا ليس مالاً يذكر بل رخصاً تافهاً، في هذا العالم الغالي وكل شيء فيه بسعر الموز، فإن سيادتك تجد عند وصولك إلى فقر الشعب قصائد الحياة فقط. ومقابل شيء زهيد تتعلّم سيادتك قيمة تريزا.

بالإضافة إلى ما أخبروك وأكّدوا لك، فقط أضيف أن الأعجوبة تتحقّق، ولو لم تكــن الأمّة مزروعة بالقديسين وأصحاب الأعاجيب فما عسى يصبح من أمر الشعب؟ الأب سيسرو رومارو، والشفيعة ميلانيا دي برنامبوكو والشفعية أفونسينا دونــزيلا والقديس الأبرص شفيع ملمات دي بروبريا واسمه أرليندو داس شاغاس والــسيد الــصالح جيزوس داس لابا الذي هو شفيع أيضاً ويشفي كل الأمراض، ولــولا أنــه بواسطتهم قضي على الجفاف والطاعون وطوفانات النهر، ولولا أنهم اهتمّوا بالجوع وجراحات الشعب فأخذوا يساعدون الصعاليك في الغابات الوعرة لينــتقموا من هذا الشقاء، آه: لو لم يكن بواسطتهم هم، فليقل لي السيد، الفارس، مــاذا كــان سيحلّ بالشعب؟ هل يبقى في مساعدة طبيب، أو مساعدة عقيد، أو مساعدة الحكومة؟ الويل لنا لو كان مصيرنا مرتبطاً بالحكومة والعظماء السياسيين واللوردات، لكانت منطقة الداخل قد انتهت إلى الجوع والمرض، وإذا كان الشعب ما يزال حيّاً فبفضل الأعجوبة.

يقال والملاك جبريل شاهد عيان على أن تريزا وهي صغيرة كانت غير عذراء، مدعــراً بها، مبعوثاً في مطارحها، مستعبدة مذلولة، منتهكة العرض، بريئة، مالحة الدم، إنّها هي من أتت بالأعجوبة. ولكن لا تتعجّب سيادتك إذا رأيتها متدخلة في أمور الــشفيعة بياتا أفونيستا دونزيلا التي هي ذات قدرة خارقة في هذا الفصل: كان قد انتهكها ثمانية عشر رجل عصابة في جلسة واحدة وكان آخرهم بيريلوليما المشهور بطول قياسه والملقب لهذا ببيريلو أبــي العصا، وبيريلو ذاك مات في الساعة نفسها من ألم في أحشائه، وإذا البنت في نهاية الاعتداء الوحشي كاملة وعذراء كما كانت مــن قــبل. وقد كان الملاك أو الشفيعة، أو الاثنان معاً من ناضل من أجل وقوع الأعجــوبة وعــرف كل الناس أن تريزا باتيستا عندما تغيِّر رجلاً تعود مرة أخرى عذراء، عذراء ببكارة جديدة وهذا ما جلب لها الكثير من الشهرة والصيت.

إنهــا الأعجوبة الأحدث تحققاً، أيها السيد المتسائل، والأكثر قدرة كما غنّاها الأعمى سيماون داس لارا نجراس في طرق منطقة الداخل:

"كانت أعجوبة مميزة،
حقيقية، معزّزة،
مع تريزا حدثت
فقط لها تحقّقت،
في الليل تنتهك بكارتها
وفي النهار تفرخ عذريتها،
من يستطيع القول إن عجوزتي
لن ترجع عذراء بأعجوبة؟
هناك من يختلق الأعاجيب، ولكن لست أنا".

33

تلك الليلة، الطويلة كأنها مائة عام، بدأت هناك، حول المخزن، تحت المطر، تريزا بين ذراعيه، ودانيال يقبّل وجهها، عينيها، خديها، جبهتها، فمها. كيف يمكن، في أقل من ساعة، أن يتحول شيء بشع إلى شيء جميل، وأن ينقلب الشقاء فرحاً؟ في الفراش، مع النقيب متعبة، وعقدة في حنجرتها، وكتلة في معدتها، واشمئزاز ونفور في جسدها، من الداخل والخارج، فهي عندما خرجت لتأتي بحوض الماء وعندما، أخيراً، صعدها، فإن تريزا بصقت راغية ثم تقيّأت.

ولكنها عندما وضعت فستان الشيت على جسمها ووصلت إلى صدر دانيال ويد تلمس صدرها، وشفتان مبتلتان تطوفان فوق وجهها، وجدت تريزا نفسها مأخوذة بالعواطف والأحاسيس التي كانت تجهلها: نعومة تمرّ من جنبيها، ويتولّد البرد في أحشائها، وحرارة تحرق وجنتيها، وفجأة الحزن والرغبة في البكاء، ورغبة أخرى في الضحك. فرح كهذا لم تحسّ به أبداً إلا عندما لمست اللعبة في المزرعة، ثم قفزت اللعبة من يدها مع كلمة طاعون، القلق، والراحة، وكل شيء يمتزج دفعة واحدة. آه: كم هو رائع.

ما كادت تسمع الشاحنة تقلع، وضجيج المحرك يضيع في المسافات، حتى ركضت وغسلت نفسها بالماء التي جاءت به في الحوض للنقيب فلم يستعمله لأنّه كان على عجلة للخروج إلى الحفلة.. لقد خرج متأخراً وكان لا يزال يرتدي

ملابسه عندما قرع جرس الكنيسة معلناً التاسعة مساء: في الساعة التاسعة تماماً، قال الملاك، فلم يكن عند تريزا الوقت لتضخّ الماء من البئر فتأخذ حماماً كاملاً، في حوض الماء المخصص للوجه - الذي هو حوض قدمي جوستنيانو في ساعة النوم - نظّفت نفسها من رائحة النقيب ما استطاعت، من عرقه، من مرضه، من بصاقه.

هناك قرب الباب الكبير، المطر يغسلها وينظّفها، قلب تريزا يخفق للقائه مع صدر دان وهي تحدّق في وجه الملاك جبريل النازل من السماوات، وشفتاه تسودان فمها حيث يحاول اللسان أن يدخل.. تريزا لا تقاوم، تتركه يفعل ولكنها حتى الآن لا تشارك، وما زالت متغلفة بالخوف والاشمئزاز. هناك حول المخزن في بداية الليل الفسيح، عندما فتح دانيال شفتيها وغزا فمها بلسانه وأسنانه، وقبل الخوف المفزع جعلها عبدة. الخوف يهدأ ولكن تريزا تستعيد الكرة في الغزوة الأولى. للحظة واحدة سيطر عليها الكره فغطّى على الفرح جاعلاً إياها مرتبكة إلى حدّ أن دانيال انتبه إلى الأمر الغريب وأوقف الملاطفة.. منعه المطر من أن يرى البريق في عيني الصغيرة، ولو أنه رآه فهل كان قادراً على الفهم.

دون أن يتكهّن به، فإن دانيال قد انزلق من بين الخوف والكره: يقبّل شفتيها، عينيها، وجهها، ويمتص لسانها وشحمتي أذنيها، وأعطت تريزا نفسها، لا تفكّر بالنقيب بعد، فانطفأ داخلها. وعندما، للحظة واحدة تركها تتنفس بلا حركة ابتسمت وقالت:

- إنه لا يعود قبل أن يطلع الفجر. إذا أردت فإننا نستطيع أن نذهب إلى هناك في الداخل.

في الحال أخذها دان وعلّقها بين ذراعيه تاركاً تريزا متمدّدة فوق صدره، تحت المطر حملها من الباب الكبير حتى مدخل الصالة، هكذا في مجلات بومبيو وبابا موسكاس القديمة يحمل عرسان السينما عرائسهم في ليالي المسرات.

وضعها في مدخل الباب، دون أن يعرف إلى أين يذهب، أخذته من يده وتجاوزت الصالة والممر حتى النهاية، حيث فتحت باب غرفة صغيرة مكدّسة فيها أكياس الفاصولياء وجريش الذرة الصفراء والمعلبات، وأحمال ثقيلة من البيكون واللحوم المجفّفة وسرير رغبات، في الظلام تفحّص دانيال جريش الذرة الصفراء:

- سنبقى هنا، أليس كذلك؟

ردّت بالإيجـــاب بإيمـــاءة مـــن رأسها. أحسّ بها دانيال مرتعدة، إنه الخوف بالتأكيد.

- هل يوجد نور؟

أشـــعلت تريـــزا قنديلاً معلقاً وعبر الضوء الواهي الحزين تبيّن دانيال ابتسامة الاعتذارات؛ إنها صغيرة ليس إلا.

- كم عمرك يا جميلتي؟

- أكملت الخامسة عشرة، قبل البارحة.

- قبل البارحة؟ منذ متى تعيشين مع النقيب؟

- منذ أكثر من سنتين.

لمـــاذا كل هذه الأسئلة؟ مياه المطر تسيل من معطف دانيال ومن فستان تريزا الملتـــصق بجـــسدها، وكـــأن آباراً قد تكوّنت في قاع المخزن. لا ترغب تريزا في الحـــديث عـــن النقـــيب، وفي تذكُّر أشياء سيّئة مضت. كانت مرتاحة في الظلمة والـــصمت. عند الباب الخارجي، فقط شفتان ويدان تلمسها. ماذا يهمّ الملاك أن يعرف إذا كان جوستنيانو هو الأول والوحيد. لماذا يستفسر واقفاً هنا، ينـــزّ مطراً وبـــرداً؟ أول ووحـــيد، لم يكـــن هناك آخر، وقد شاهد ملاك الغرفة كل شيء وعـــرفه.. لقد بدأت تميل بانتباهها عن الأسئلة لتسمع فقط موسيقى الصوت الذي هـــو أكثر تأثيراً من عينيه، صوت ليل من الكسل، صوت فراش (إني أسمع صوتك، أريـــد فراشـــاً بصورة طارئة، كانت تقول له مدام كالكويرو من المجتمع الباهياني الراقـــي) يـــتغلغل في تريـــزا. لا تجيب عن الأسئلة: كيف جاءت لتستقر في بيت النقـــيب، أين أهلها، أين أبوها وإخوتها؟ ودون أن ينتبه، وخلال توقف الصوت، يعـــيد دانيال حركته كما في اللقاء الأول، وحيدين معاً في المخزن، يأخذ وجهها بـــيديه ويقبّل فمها.. لقد خطف دان بشفتيه الخبيرتين القبلة الأولى التي منحها فم تريزا باتيستا غير الحاذق وتمسك مطيلاً إياها إلى ما لانهاية.

- "لقد تكهّنت بعيد ميلادك وجئتك بهدية" ومنحها المنديل المطرّز بالذهب.

- "كـــيف كـــنت ستعرف؟ فقط أنا من يعرف"، ابتسمت ابتسامة عريضة وســـعيدة عـــندما رأت الشال الصغير "إنه جميل، ولكني لا أستطيع أن أقبله فليس عندي مكان أضعه فيه".

- "أخفيه في أي مكان، فقد تستطيعين استعماله في يوم ما" رائحة لحوم وبيكون رطبة تطلع من القاع: "قولي لي، أليس هناك مكان آخر؟"

- غرفته هو ولكني أخاف.

- من أي شيء، ما دام لن يعود باكراً؟ قبل أن يصل أكون قد خرجت.

- أخاف أن يعرف أن أحداً دخل إلى غرفته.

- أليس هناك غرفة أخرى؟

- هناك غرفة أخرى ولكنها شبيهة بهذه مليئة بالبضاعة، وحيث ينام شيكو، وفيها فراشه وأشياؤه الخاصة. آه، هناك غرفة الفراش الأرضي.

- فراش أرضي.

- يوجد هنا غرفة فراش أرضي وأخرى في المزرعة. وهي حيث...

- لقد سمعتهم يتحدثون، لنذهب إلى هناك فهذه الغرفة يستحيل أن نبقى فيها.

في غرفة الفراش الأرضي، تمدّدت الكثيرات مغتصبات أو مملوكات وفي غالبيتهن كاعبات، عذارى، والكثيرات هناك جلدن، وتلوّين ألماً وتجاوبن بالصراخ والصفعات بالحزام الجلدي وبالسوط (سوط عريض فقط من الجلد، يختلف عن السوط الآخر في غرفة المزرعة) والدم يسيل وخواتم عقد النقيب تزداد. الشرشف ما يزال يحتفظ بعرق الصغيرة الأخيرة التي تمدّدت في الفراش، منذ عشرين يوماً تقريباً، فقيرة معدمة كانت قد راحت تصلي بصوت مرتفع، وتتوسّل جاثية بكل مفاصلها إلى العذراء والقديسين أمام منظر جوستنيانو دوارتي دا روزا العاري وبيده السلاح الفعّال. إنه القديس سيباستيان، قالت بتوقد، من جاء بتلك القهقهة من الضحك الذي لا يسيطر عليه، ضحكة من تلك الضحكات المعروفة.. وأكلها النقيب وهي ترتّل، وسمعت الصلوات وترديد اسم العذراء والصرخات والقهقهات وبكاء الطفلة: القديس سيباستيان أو الشيطان الرجيم، تريزا في الناحية الأخرى من البيت، وحيدة في الفراش، لم تستطع أن تنام ليلة احتراقها تلك. لم تدم القصة أكثر من أربعة أيام. فالنقيب لم يستطع أن يتحمّل الأمر مع تلك الصلوات والترانيم وإذ لم يكن من مكان شاغر للضحية في منزل غابي، فقد أعادها إلى والديها مع رزمة ألف كروزيرو وكمية قليلة من المؤن الغذائية.

34

هنا على الأقل، لا يكدّسون أحمال الجريش، واللحم المجفّف والسمك المملح، وفي أحـــد مسامير الحائط علّق دانيال معطفه وسترته وربطة العنق. وابتلعه التعجب عندما رأى السوط، وارتجف عندما فكّر في إيلام الضرب بقطعة الجلد الخام.

– انزعي الفستان يا حبيبتي وإلا فستنالك لفحة برد.

ولكـــن كان هو من رفعه عنها، ومع الفستان ظهرت حاملة الثديين و لم يبقَ على جسد تريزا سوى لباس الشيت المزهر: زهور حمراء شاحبة.

غـــرقت تريـــزا من جديد في الصمت، منتظرة. الثديان النافران، الظاهران لا تحاول أن تخفيهما! يا إلهي، فكّر دانيال، هل يمكن ألا تكون عالمة بشيء؟ تتصرّف كمـــا لو أنها لم تدخل قط إلى غرفة مع رجل لتتمدّد معه وتمارس الحب ومع ذلك يجب أن تعرف، لا بد أنها تعرف بالتأكيد، تعيش مع النقيب جوستو منذ أكثر من سنتين، معه في الفراش، وإلا فأي صنف من الحيوان هو هذا جوستنيانو دوارتي دا روزا، بصوت الجلد؟

دانيال العجائز، دانيال السيدات، جيكولو فتيات الهوى، قد حدث لــــه عدة مـــرات أن اســـتحوذ علــــى نساء متزوجات (بعضهن متزوجات منذ عدة سنين) أمهات، وليس فقط عذارى لمجرد رغبة في المتعة ولكن مملوكات وحوامل أيضاً. في البيت، مع الزوجة، الواجب والاحترام والطهارة وفراش صنع الأولاد، وفي الشارع مع العشيقة أو فتاة الهوى، المتعة والتشبع وفراش الرفاهية والحرية الإباحية. هذه هي عملـــة وتصرف الكثيرين من الأزواج ذوي المناقب العائلية: والنساء الجائعات، مع أول لقاء عشق، كنَّ يدّعين حياء وتوبيخ ضمير، في بكاء الخطيئة ويليه: "يا لزوجي الفقير، إني مجنونة بائسة شقية، ماذا سأفعل؟ يا لشرفي كامرأة متزوجة". وكان دان مـــوظفاً نفسه لعمل هو مختصّ به ألا وهو، فكان صاحب تعزية من الطراز الأول. يحتـــرف مسح العبرات، كان يعجبه أن يعلّم أولئك الضحايا حقيقة المناقب الصلبة لــــدى الأزواج، أصـــحاب الفـــضائل عبر كل مراقي المتعة. وكنَّ يتعلّمن بسرعة منطلقات نفسياً، معجبات، غير مكتفيات، ومنعتقات من كل ذنب، طاهرات من الخطيـــئة، خالـــيات من عذاب الضمير ولديهنّ المبررات الكافية للتوغل في الزّنا. كـــيف التعامل مع زوج هو بعقلية الذكر أو بحب الذات يعتبر المرأة وعاء، شيئاً،

جسداً لا حياة فيه، قطعة لحم؟ كيف التعامل معه؟ الجواب هو بأن يوضع في رأسه قرنان من القرون الكبيرة، مزهران.

ولكـــن الأمر مع تريزا مختلف، ليست زوجة ولا أُمّاً لأولاد ولا حتى عشيقة أو داعرة في الروندي فو، إنّها مملوكة بسيطة، فأي احترام يقدِّم لها النقيب؟ ومع كل ذلك فهي هنا واقفة بصمت وبالانتظار، لا تعرف حتى أن تقبل، ذات فم متردِّد، غير أكيد. لا تبكـــي، لا تُظهر تأنيب ضمير، ولا تنكر ذاها ولا تشتكي: واقفة بالانتظار، فتاة في الخامـــسة عشرة ما زال جسدها في طور التكوين، وفي الوقت نفسه ناضجة، دون سن محـــدّدة ومـــن يعـــرف أن يعدّ السنوات في روزنامة الألم؟ ليس دانيال، بالتأكيد، ابن العاصـــمة بالمعنى السطحي، البارع والوقح في ممارسات الحب السهلة! بالنسبة إلى دان الحلو، دان العجائز، فإن تريزا هي الغموض وهي السر الذي لا يمكن حل ألغازه.

ولكنه يلاحظ روعة الجسد وجمال الوجه ويبتهج، فتريزا بكلّيتها، من النحاس والفحـــم، فحم في العينين والشعر المسترسل، أما الثديان فصخرتان في نهر أعطتهما المـــياه طـــراوة، أوراكها وفخذاها طويلة، البطن لامع واضح والردفان مستديران والأســـفل مـــا زال مـــراهقاً في استدارة متناسقة، وتحت حقل زهر لباسها وردة مـــزروعة في وادي الـــنحاس، لم يشأ دانيال أن يقطفها حتى الآن، سيأخذ الوردة المختبئة فيما بعد وفي الوقت المناسب، وماذا الآن يا دانيال؟ فإن تريزا بالانتظار.

ولمرة واحدة في الحياة لا يعرف دانيال الكلمات..

خلـــع القميص والسروال، عينا تريزا السوداوان جمدتا أمام رؤية جسد الملاك وشعر صدره وتجويف بطنه الأملس وعضلات فخذيه. وعندما خلع دانيال حذاءه وجـــواربه، رأت أن ساقيه ضعيفتان، وأن أظافر رجليه معتنى بها! إنه سرور بالنسبة إليها أن تغسلها وأن تملأها بالقبل.

إنهمـــا الـــواحد أمـــام الآخر، وابتسم وهو ما يزال لا ينبس ببنت شفة أو بكلمات. كلمات؟ يعرف الكثير منها، وكلها جميلة، مشتعلة ولهاً، عبارات حب، حـــتى إنّـــه يعـــرف بعض الأبيات الشعرية الملهبة لوالده صاحب السمو القاضي، كلمـــات فقـــدت معانيها لكثرة ما استعملها مع السيدات المسنّات والمتزوجات الملتهـــبات وفتيات الملاهي وبيوت العزّاب الرومانسيات، وأية كلمة منها لا تفي بالغـــرض للصغيرة الواقفة أمامه. ابتسم فردّت تريزا بالابتسام، جاء وعانقها جسداً

ضـــد جـــسد... يـــد دانيال تنـــزل حتى اللباس، ولكن قبل أن تصل إلى الحديقة المزهرة أحسّ من أعلى أصابعه بآثار الجرح. انحنى ليرى: أثر جرح قديم وفي وسطه ثقب كما لو أنه حدث بفعل مسمار. "ما هذا يا حبيبتي؟" لماذا يريد أن يعرف إلى هذا الحدّ؟ لماذا يزعجها بالأسئلة والأجوبة في الوقت الوحيد من هذه الليلة القصيرة الـــتي ربما لن تتكرّر أبداً؟ لقد كانت بفعل رأس الحزام في جلدة من الجلدات. هل كـــان يـــضربها كثيراً؟ وبسوط الجلد الخام؟ وما زال يضرب، ولكن لماذا يريد أن يعرف، لماذا يبتعد عنها ويكفّ عن لمس جسدها ويحدِّق فيها بنظرة ملاك مرتبك؟ مـــمَّ يتعجّب؟ من يعرف يكاد لا يصدِّق، ولكنّ ملاك الغرفة في زنزانة المزرعة قد شـــاهد كل شيء: السوط ومكوى الجمر الأحمر. أجل، ما يزال يضرب، يعاقب بـــسبب أيّـــة هفوة، بسبب لا شيء، وبسبب خطأ في الحسابات تدخل المسطرة الثقـــيلة في المشهد، ولكن ماذا يفيده أن يعرف ما لم يكن يملك أن يفعل شيئاً؟ لا تـــسأل شـــيئاً فالليل قصير، من الآن وبعد قليل، تنطفئ كومات الحطب المشتعل، وتـــصمت القيـــثارات واضعة نهاية للرّقص والدبكات الشعبية. وعند عتبة الصباح يعـــود النقـــيب ويشغل الفراش الزوجي والعبدة تريزا. بعيداً من الأنانية والرقص الـــصاخب لدى الشباب والشعور السطحي والمغامرة التي لم تحسب نتائجها، بدا الـــشاب دانيال منـــزعجاً، يرى الإنسان كل شيء في هذا العالم: وضع نفسه على مفاصـــله، يقـــبّل آثار الجرح في بطن تريزا. "آه، يا حبيبـــي"، قالت، ولأول مرة كلمة حب. ليلي قصير، طويل، كأنه مائة عام.

35

بدأت تريزا بأن تكون الأولى وانتهت بأن تكون تريزا الأخرى، في تلك الليلة الـــسريعة من الدقائق المسرعة في الارتباك والشحوب، والطويلة كأنها مائة عام من الاعترافات والبشائر.

وهي تستعيد نفسها من تلك الضمّة التي انتفضت فيها متنهّدة متلوية بالرجفة الأولى، رجفـــة طويلة عنيفة، في القلب والأحشاء، من رؤوس أصابعها إلى أطراف شعرها، أحسّت تريزا بدانيال قربها يأخذها من خصرها ويشدّ جسمها الناضج إلى جسده:

- "أنت امرأتي الحبيبة البلهاء التي لا تفهم شيئاً بعد ولكنك ستتعلمين كم هو طـيب، سأعلمك شيئاً فشيئاً، سترين كم هو طيب"، وقبّلها خفيفاً، لم تجب تريزا بشيء، فابتسمت أيضاً منتصرة. لو كانت عنده بقية حيوية لقالت لـه أن يبدأ في الحال وبسرعة. إذ لم يعد لديها غير عدة ساعات، وبعدها لن يلتقيا أبداً. التعهُّد لا يقبل النقض في مفكرة النقيب. وعلى الأخص التعهد بحضور الحفلة الراقصة لمناسبة عـيد القـديس حنا في دار رايموند أليكاتي. أما بمناسبة عيد القديس بطرس، فإنه يـستطيع أن يلف ويدور كثيراً على رجليه بحثاً عن فتاة جديدة، كما يستطيع أن يبقى في نزل غابـي يشرب البيرة مع العاهرات، دون تحديد ساعة معينة للرجوع باكراً أو متأخراً فليس من موعد محدّد. بسرعة يا ملاكي، بسرعة، ليس من دقيقة واحـدة نـضيّعها، كانت تريزا تريد أن تقول ذلك لو لم يخنها الصوت وتنقصها القدرة.

يكفي أن تلقي بنفسها عليه، صدراً ضد صدر، جنباً مقابل جنب، غابة مقابل غابة، لتشتعل الرغبة من جديد فتية وملحّة، لم تقل شيئاً وراحت يدها تنـزل على جـسد دانيال وهي تمسّ كل تفصيل من تفاصيله. مدّت ذراعها لتصل إلى قدميه وتداعـبهما. وكانـت تعطـي أفضلية لشعر الصدر، وهناك تغلغل يدها بأصابع مفتوحة لتمشّط الشعر ولتمشّط أيضاً ضفائر شعر الرأس الحلزونية. وهكذا راحت تتعلّم، وبفمها لامست شفتي دانيال. "يا حبيبتي، إنك لا تعرفين بعد كيف تقبّلين، دعـيني أعلمك"، جيكولو بالموهبة، وأيضاً بالمهنة فإن دانيال كان يجد متعة في متعة رفيقـته في الفـراش، سـواء أكانت فتاة مرتبكة صبية أو عجوزاً غنية ومتفزلكة، "سـأجعلك تصلين إلى الرجفة كما لم تفعل أية امرأة أخرى"، وكان ينفّذ الموعود بالمـال أو مجاناً.. شفاه، أسنان ولسان، وتريزا تتعلّم التقبيل. يدا دانيال تضاعفان التجـسس في الأمكـنة الأكثر سرية في حوض البطن الرطب وأماكن الليونة في الردفين. يدا تريزا تكتشفان تفاصيل أخرى: الفمان في العمل. فمه يعرف أن يفتّش عـن الارتـباك المخفي، وفمها الآن يتململ في معالجة القبلة ويتكشف عن معاناة وجرأة.

وقـع دانـيال ضحكاً وقال: "لا، لتكرِّري يا حبيبتي، وإذا كانت الأوضاع والمواقـع متعددة ومتنوعة، وكل وضع باسمه، وكل موقعة أكثر رشاقة من غيرها،

فـــسأعلمك إياهـــا كلها". عاد ليضمها إلى صدره ثم رفعها، والواحد في الآخر، ودون أن يعلمهـــا أحد تخاصرا وراحا دوراناً. عذراء وأكثر من عذراء، باكر بألف بـــرعم جديـــد، وكـــأن كل شيء يحدث للمرة الأولى؛ لم يحسّ دانيال أبداً بتلك الشهوة أو مثيلاً لها، فبالنسبة إليه أيضاً كان الأمر اكتشافاً وشيئاً جديداً.. في تمدد تريـــزا أطال متعته الشخصية ولكنه لم يستطع أن يوقف رفيقته اللحوح والمتأخرة عنه، ولم يستطع أن يحتويها. متبدّدة، العينان مغلقتان، تعيد تريزا ربط جنبيها ولكن دانـــيال يـــستمر ويتابع ببطء، بالتقطير والمعرفة سيأتي بها، ومن جديد حملها على جـــناح الطير، والآن أجل، الاثنان معاً يصلان. اشتعلت في ليلة القديس حنا كومة حطـــب تريـــزا باتيستا، وإذ اشتعلت فقد احترق دانيال في نارها الملتهبة والمشعّة ولكن ببريق سريع وتدرج التنهدات والآهات المشتعلة، لم تشتعل أية كومة حطب بمثل ذلك اللهيب العالي والاحتراقات المتجمّرة.

بعد المرة الثانية، أتى دانيال بسيجارة من جيب سترته ووضع رأسه على صدر تريـــزا الدافئ وراح يدخّن بينما هي تداعب شعر رأسه. "سأقطع جذعك" قالت تريـــزا فضحك الاثنان. مداعبة أخرى لم تكن تريزا تعرف غيرها وقد تعلّمتها في طفولتها الأولى مع أمها التي كانت ما تزال على قيد الحياة قبل حادثة العربة. أطفأ دانيال السيجارة في كعب الحذاء، واحتفظ بعقبها في جيبه حتى لا يترك أثراً. وعاد يمـــدّد رأســـه علـــى بطن الصغيرة، فأحست بخصلات شعره الأشقر فوق البساط الأسود وامتزج الشعور في رغبة شديدة وغفا دانيال على مداعبة تريزا لجلدة رأسه.

تجاهلـــت تريزا غفوة الملاك الذي هو أجمل في حضوره منه في ألوان الصورة الشمـــسية، وفكّـــرت في عـــدة أشـــياء، في حين كان نائماً، تذكّرت المنحرف، وتذكّـــرت سيسون وجاسيرا والأولاد واللعب، لعبة المواجهة والحرب، وتذكّرت عمّـــتها مـــع غـــرباء في الفـــراش، وعمّها روزالفو بعينيه المتعبتين، عيني السكير، والاضـــطهاد في الهواء الطلق بينما العم يسلّمها، والعمة فيليبا تضع في يدها الخاتم والسفرة في الشاحنة والزنزانة في بيت المزرعة، والهروب والمسطرة والسوط والحزام ومكوى الجمر.. وفجأة كل شيء أصبح ماضياً وكأن كل شيء أصبح فقط أحزان نفوس وقصة رعب ترويها السيدة بريجيدا، وتعدّ ضروب جنون من ضروب الأرملة العجـــوز.. تلك الليلة من المطر رطّبت الأرض القاحلة الضحلة، وقد وضعا الفرح

والعطف فوق الوجع الماضي والخوف. مقابل أي شيء في هذا العالم، فإنها لن تعود إلى آلام النقيب.

الآن تستطيع أن تموت، ولكي تموت فلا ينقصها شيء؛ إنّها حزينة في الوحدة والخــوف: الموت أفضل من أن تعود إلى سرير النقيب. في المزرعة شاهدت تريزا الفتاة إيزادورا معلّقة بحبل في باب الغرفة، ولسانها الأسود خارج من فمها المفتوح، وعيناها جاحظتان. لقد شنقت نفسها عندما علمت بموت زوجها جواريز في عراك بــين السكارى مطعوناً بخنجر. حبال كثيرة في المخزن، بين انطلاق الملاك وعودة النقيب، وعندها الوقت الكافي لتعدّ ربط الحبل.

36

في تلــك اللــيلة الــتي لا عدَّ لها، بلا بداية أو نهاية، من اللقاء والفراق، من طلعات الفجر المتتالية، تريزا، المحكومة بالموت، هربت من حبل المشنقة على حصان من نار.

كــان هــو نائماً، وكانت هي تدغدغ نوم ملاك السماء، ولكنها أرادت أن تكــون بــين ذراعــيه مرة واحدة، مرة أخرى، تحسّ به ضد صدرها قبل الوداع الأخــير. تمــسّ وجهه بخوف الملائكة الذين ينــزلون إلى الأرض لينفّذوا مهمات مــوكَلة إليهم، ثم يعودون ليقدّموا الحساب كله، وفقاً لما تقوله السيدة بريجيدا التي تعــرف عــن الملائكة والشياطين. أرادت تريزا أن تموت بين ذراعيه السماويتين، تموت وحيدة، على المشنقة، معلّقة في الباب ولسانها في الخارج.

عند لمسة يد الصغيرة المترددة صحا دانيال ورآها حزينة، "لماذا أنت حزينة يا حبيــبتي، ألم يكــن طيــباً، ألم تحبِّيه؟" لا، لست حزينة، بل فرحة بالحياة، فرحة بالمــوت، ليل لا مثيل لــه من المغامرة التي لا نهاية لها، مرة أولى لا ثانية لها، دون مــرة تالــية، دون أخرى، دون مقبلة، وتفضّل أن تموت قبل أن ترجع إلى عبودية المــسطرة وحــوض الماء والفراش الزوجي وصفعة جوستنيانو دوارتي دا روزا؛ لا ينقص حبل في المخزن، وتعرف كيف تربط العقدة.

يا حمقاء، لا تقولي حماقات، لماذا لا يكون هناك ليالٍ أخرى، مثل هذه، وربما أحــسن؟ بالتأكيد سيكون هناك أخرى. جلس دانيال، والآن، تريزا تريح رأسها

علـــى عنقه، تحسّ بالعصفور على عريها وبالرغبات تتجدّد. استريحي واستمعي يا حبيـــبتي: يدا الملاك تغطّيان صدرها، وتضغطان عليه بهدوء، وصوته يطفئ الحزن، يمـــزّق الآفـــاق، وينقذ تريزا من المشنقة المحتّمة عليها. ألم يكن عندها علم بسفرة النقيب إلى باهيا، وعن التاريخ المحدّد لذلك؟ سفرة أعمال ومتعة، دعوة من المحافظ لحـــضور حفلـــة الثاني من تموز، والأبله لا يعرف أن العيد عام وأن أبواب القصر مفـــتوحة للـــشعب في ساعة الاستقبال، وأن بطاقة الدعوة قد طبعت شكلاً، وقد تكـــون مفـــيدة فقط للشرطة لتتحقق من الشخص المنطلق تبغداداً واعتزازاً بحكمته بيـــنما هو في الحقيقة كلب فرح: جلسات في قصر العدل، زيارات إلى سكرتيرات المحافظـــات وإلى مجهزي المخزن بالمواد، ومع كتاب يقدمه إلى روزاليا فاريدا مغنية الـــتانغو في التباريس: "في يوم يا حبيبتي، سأعلّمك، لذّة لا مثيل لها، عندما يكون النقيب في باهيا وكل الليالي ستكون احتفالات بالعيد".

"المهـــم أن يكون عندك صبر، أن تتحمّلي صبر عدة أيام أخرى من المتطلبات وغلاظـــة النقيب، وأن تكوني ناعمة كالسابق، ولا تظهري شيئاً"، ولكنه بالتأكيد سيأخذها إلى الفراش، وهذا لا، أبداً لا يهمّ! لماذا؟ لا أهمية له إطلاقاً ما دامت تريزا لا تشارك، وما دامت تبقي نفسها غائبة كما فعلت دائماً، لا تتجاوب لا تساهم، ولا ترتجف بين ذراعي النقيب، فبين ذراعي النقيب تشتعل تريزا اشمئزازاً، ما يجب فعلـــه الآن هو الخضوع كما في السابق: الآن من السهل جداً تحمل العبء الثقيل، الفظّ، لينتقم من كل ما سبّبه لها من ألم: "سنضع له القرنين الأكثر بروزاً في المدينة، وسترين النقيب برتبتين تجعلان منه جنرالاً".

قـــال لها كيف يجب أن تتصرّف، إذ كانت لديه الخبرة والمعرفة وهو بنفسه، وبقـــدر ما سيكلفه الأمر، فإنه سيذهب في اليوم التالي إلى بيت الأخوات موررايس ليأكل كانجيكا العيد، ويشرب الليكور، ويوزّع اللطافات، مسألة مزعجة، ولكنها ضـــرورية مع ذلك، وكان النقيب قد أقنع نفسه بأن دانيال سيضمّ إليه واحدة من الأخوات وهي الأصغر سناً، وبسبب هذه الحجة الواعية يستطيع أن يبقى مزروعاً في المخزن يرى تريزا دون أن يثير الشبهات. وأكثر من ذلك، من يعرف، فقد تأتي قبل السفر فرصة أخرى ليلتقيا؟ في ليلة القديس بطرس، مثلاً!! "لا تتكلمي عن قتل نفـــسك، لا تكـــوني مجنونة، صغيرة، إن العالم ملكنا، وإذا حدث يوماً أن داهمنا

الجلاد، فلا تخافي، لأن دانيال سيعطيه أمثولة قاسية حتى يتعلّم تحمُّل القرنين بالمجاملة اللازمة والتواضع الوقور".

مـــن كل ما سمعته، شيء واحد بدا لها مهماً حقاً: النقيب كان سيقوم بسفرة طـــويلة إلى العاصمة، عشرة أو خمسة عشر يوماً وهذا يعني عشراً أو خمس عشرة لـــيلة مـــن الحب... أخذت يدي دانيال وقبّلتهما شاكرة.. بالنسبة إلى دانيال فإن النقطة الأكثر حساسية هي مشكلة شيكو نصف الكعب. كيف يفعل؟ هل يشتريه برشوة كبيرة؟ رشوة، لا يا ملاك السماء..!! ولا أيّة رشوة تشتري إخلاص شيكو لجوســـتنيانو، ولكـــن لا يعدّ الرجل مشكلة: كان ينام في المخزن خلال سفرات النقـــيب، وما بقي من البيت كان يسلّمه لعناية تريزا.. فإذا دخل دانيال من الباب الخارجي الكبير، واستعمل الحبيبان الغرفة الزوجية الأبعد عن المخزن فإن شيكو لن يعـــرف بـــشيء. "هل رأيت؟ كل شيء في مصلحتنا، يكفي ألا تتركي في ذهن جوســـتنيانو أدنى الشكوك.. الأدنى، هل فهمت يا تريزا؟" كانت تفهم: لن تعطيه سبباً ليسيء الظن.

مـــن منتصف المحادثة إلى آخرها كانت يدا دانيال قد عادتا تطوّقاها، مع كل لمسة أو دخول، رجفة في جسدها، تولد ارتباكاً خفياً. وإذ ما تزال منـــزعجة من الأفكار والكلمات، كانت تريزا تغلف نفسها وتفتحها بالخوف والكره والاحتقار والأمـــل والحـــب. وإذ قال ما هو ضروري، فإن دانيال حمل فاه وألقاه على صدر تريزا مطلقاً العنان للسانه، وتقدّم به نحو الرقبة فالعنق ليتوغّل إلى الأذن، ثم الشفاه، "ولن أتعب منك أبداً". "ليالٍ أخرى آتية كم هو رائع يا حبيبـــي"، قالت تريزا.

37

عند منبلج الفجر استأذن دانيال عند الباب الكبير بقبلة اشتركت فيها الأسنان واللّـــسانان والتنهدات. ولدى عودتها إلى البيت وحيدة، ذهبت تريزا تضع الماء في صـــندوق الحمـــام إذ كـــان جسدها ما يزال معطراً بعرق دانيال وغسلت نفسها بصابون الكوكو. ومن يعطيها الحق بأن تحتفظ على جلدها بتلك الرائحة العطرة! النقيب كان عنده حاسة شم صياد وكان عليها أن تخدعه حتى تستحق مرة أخرى زيـــارة الملاك.. تخلصت من الرائحة ولكنها احتفظت بطعم الشاب في فمها، على

صـــدرها، وفي شـــحمة أذنها، وقبل الحمام، قلبت تريزا الفراش المسطح، وبدلت الشرشف تاركة الباب مفتوحاً لنسيم الصباح حتى يبدِّد رائحة التبغ وأضواء أفراح الليل، وفرح الفراش القاسي وذكرى الحزن الذي أضاء قوس قزح.

كلمـــات، حركات، أنغام، ملامسات، عالم من الذكريات، في غرفة النقيب التي ما تزال مظلمة، ومتمدّدة في الفراش الزوجي، تذكّرت تريزا كل لحظة. يا إلهي كـــيف يمكن أن يكون طيباً ما كان بالنسبة إليها نزاعاً مؤلماً؟ وعندما دخلها دانيال بعـــد أن أيقظ فيها المعاني وأشعل الرغبة، عندما نالها وأعطاها نفسه وارتعصا معاً، فقـــط عندها عرفت تريزا لماذا، عندما كان العم روزالفو يشرب كاشاسا في خمارة مانويل أدورينيا ويلعب بأحجار الدومينو، كانت العمّة فيليبا دون حاجة أو سبب، مقـــبلة وسعيدة، تقفل الغرفة على نفسها مع رجال آخرين معروفين في المعرض أو من المزارع المجاورة أو مجرد عابرين بسيطين. كانت العمّة تهدِّد تريزا: "إذا أخبرت عمّـــك، سأضربك ضرباً يربّى به الحيوان وأتركك صائمة. ابقي في الباب وانظري إلى الطريق، وإذا ظهر فاركضي وأخبريني بالأمر"، وكانت تريزا تصعد إلى شجرة المانجا وتجيل بطرفها في أبعاد الطريق. وعندما كان باب الغرفة يفتح ويأخذ الرجل طـــريقه، كانـــت العمّة فيليبا بكل لطف ونشاط ترسلها لتلهو وتعطيها حتى قطع الحلوى.. خلال السنوات في بيت النقيب، عندما تتذكّر الحياة في مزرعة الأعمام، كانـــت تعمل على النسيان ولكنها في ليالي الوحدة، في ليالي النوم والراحة كانت الـــصور والأحداث تأتي لتسرق منها النوم، كانت تريزا تسأل عن السبب في عادة عمّـــتها الغـــريبة، وفي أن تكون قد فعلت ذلك مع آخرين في عمل شاق كهذا، فلمـــاذا؟ لم يكـــن أحـــد يجبرها بالضرب وبسوط الجلد. لماذا إذاً؟ أخيراً فهمت السبب: بقدر ما يمكن أن يكون الأمر سيئاً يمكنه أن يكون طيباً، ويتوقف الشعور على هذا الشخص الذي تتمدّد معه المرأة.

لم يعد النقيب إلا بعد ظهر اليوم التالي، وبينما كان يترجّل عند المخزن كانت الأبـــواب مقفلة بسبب عطلة عيد القديس حنا، سمع ضحكات في دارة الأخوات مـــورايس. نظـــر من الشباك:غرفة الاستقبال الكبيرة كانت مفتوحة وفي داخلها الـــشاب دانـــيال تحيط به الأخوات الأربع، ويبدو رقيقاً جداً ومسلياً وهو يروي أخـــباراً عـــن العاصـــمة، ويحكي عن أزمات المجتمع. وشاهد جوستنيانو الرفقة

الفرحة.. يقتضي الأمر أن يقول للشاب أن يأخذ احتياطات أكيدة. فلا يترك ولداً لتياو إذا كان قد قرّر أن يقطف براعمها. إذا أكلها في السرّ، وكونها بالغة فلا يجب أن يسبِّب الأمر تورطاً فتقوم ومع الجنين في الرحم وتطالب بالزواج وتضع فمها في العالم وتقوم بفضيحة من تلك الفضائح الكبيرة، فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بابن قاضي الأمور المستعجلة؟ إن الأخوات موررايس هنَّ من عائلة محافظة وماجدة عظم رقبة كما يقول قارع الطبل وهو يمثّل الإرهاق في مركز الشرطة بينما يهدِّده العتيق. ثم أعطى كتفيه.

38

في غرفة الطعام تكوي تريزا الغسيل، وفي المخزن شيكو نصف الكعب يقضي على كاشاسا الغروب، عندما لا يكون المعلم حاضراً فلا يبقى أبداً في البيت وحيداً مع تريزا.. تيس قوي يكتفي ببضع ساعات من النوم ويجدِّد نشاطه بحفلة الشرب الأسبوعية التي لا يقبل تفويتها أيام السبت وأماسي أيام الإجازة وأعياد القديسين، ومع ذلك فإنّه بعيد عن أن يقارن نفسه بجوستنيانو دوارتي دا روزا القادر على أن يشرب أربعة أيام وأربع ليالٍ دون أن يغمض جفناً، وفي الوقت نفسه يجندل الإناث ثم يخرج للسفر على حصان: إنها مقاومة حديدية، في المخزن، شيكو يغطُّ في النوم، والنقيب واثق من نفسه ولا يبدو عليه أنّه شرب ورقص طيلة الليل، وعند الصباح انطلق إلى المزرعة وهو يقود الشاحنة، فلقد كان ترتو كاشوخو قد انهار مخموراً تحت المقعد الذي كان يجلس إليه العازفون، وفي المقعد إلى جانبه فتاة محمرة، صغيرة السن، بوجه فتي، وبشعة، وكان رايموند أليكاتي عندما رآه يصل إلى الحفلة قد جاء راكضاً يسلِّم عليه، حاملاً معه الفتاة وعيناها في الأرض.

- ارفعي رأسك ليرى النقيب رقبتك الضائعة.

جديدة مخضوضرة، وهي تناسب عقد النقيب، هذا إذا كانت باكراً.

- حجزتها لسيادتك يا نقيب، بالحفاضات كما تشتهي.. ولن أخدعك بالقول إنها عذراء "فالعشرينات الثلاث" قد أكلوها، إنهم جماعة المصنع، إنها شبه باكر والبرعم ليس قاسياً، ولكنها طريّة ونظيفة، لم تنطلق في الحياة العامة بعد، ليست مريضة، ولكي تكون عذراء ينقصها القليل.

أولاد الــزانية آل غــويدس هــؤلاء!! دائماً هناك واحد متأهب في المصنع، والاثـنان الباقــيان يطوفان في باهيا في الريو، في سان باولو عندما لا يكونان في أوروبــا أو أميركــا الشمالية، يجهدون أنفسهم في العمل وفي قطف العذارى؛ بين الـثلاثة، فإن الأكثر فعالية في إدارة الأعمال هو الأستاذ إميليانو وهو الآمر النّاهي، كمــا أنّــه الأكثر تطلباً عندما يتعلق الأمر بالمملوكات فلا يقبل أياً كانت، وهو يخــتارهن بإصبعه، وحتى لو كان في المصنع بدلاً من أن يكون مستأنساً بأجنبيات فرنــسا، فلــن يــنادي على تلك الجلفة ذات الأنف المزعج. لقد كان النقيب مخدوعاً.

– من قام بخدمتك؟

– السيد ماركوس..

– ماركوس ليموس؟ ابن الزانية!!

عندما لا يكون واحد من أرباب العمل موجوداً، فإن الموظفين كانوا يقومون بالخدمة. حتى حافظ الكتب والوثائق، وها هو النقيب سيأكل الفضلات، فضلات المصنع، سكراً مكرّراً، ودبساً بشوائبه. في البيت، بل في المدينة، لديه مملوكة يفتخر بهــا وذات وجــه وجسد لا يستطيع أحد أن يجد فيهما شائبة، إنها أجمل فتاة في المكان كله، ولا يوجد في المدينة في الدارات الريفية الكبيرة وفي المصنع غنية، فقيرة أو متوسطة الحال، عذراء، كاعب فتاة أو بنت هوى، بجمال مملوكته.. وليس مهماً مــا يتــركه هذا الأمر في نفس النقيب من انزعاج، فبالنسبة إليه لا يهمّ أن تكون جمــيلة أو بشعة بل إن الجديدة هي التي تفتح قابليته، ولكن ما يعجبه هو أن يعرف أن الأستاذ إميليانو غويدس أكبر الإخوة سناً، شيخ القبيلة، سيد الأرض، المعتز على صــهوة جواده الأسود بمهمازي الفضة مستعدّ أن يصرف الكثير من أجل الحصول عليها ولا تهمّه مسألة المال؛ والأرستقراطية في الحركات، وفي بحّة الصوت "ألا تريد أن تبــيع هــذه الخادمة؟" لم تكن هذه الجملة كافية لتغطية الاهتمام: "سعرك هو ســعري، مــن تخــصّ هذه الجميلة والشهية المرشحة على لائحة الانتظار في نزل غابــي وعند صف الزبائن أمام المخزن؟"

"إنها تخصّ جوستنيانو دوارتي دا روزا الملقّب بالنقيب جوستو، كونه صاحب الأراضــي الواسعة، وقطعان الماشية، والمخزن المليء والديوك الهراتية". وفي يوم ما

عندما تزداد فراسخ الأرض، والإيداعات في المصرف، وبيوت الإيجار، والامتيازات السياسية، فإنه سيصبح العقيد جوستنيانو، وسيصبح وجهاً سياسياً حقيقيّاً غنيّاً وذا تـــأثير بقـــدر آل غويدس.. في يوم ما سيتحدّث إليهم ندّاً لند وعندها يستطيع أن يناقش في الخادمات والباكرات، وحتى أن يبادل الفتيات دون أن يحسّ في فمه طعم الفضلات المر. أجل، في يوم، ولكن حتى الآن، فلا.

- تريزا، تعالي إلى هنا.

بيـــنما مكـــوى الجمر معلّق بيدها، سمعت النداء، يا إلهي، هل يكون لديها الشجاعة لتتحمّل؟ الخوف ما يزال يغلّفها كالشرشف، وملتفّة بشرشف هربت في المرة الأولى، لماذا لا تهرب مع دانيال إلى البعيد من هنا، بعيداً من الفراش الزوجي، مـــن صوت وحضور النقيب، بعيداً من المسطرة، من السوط، ومن مكوى الجمر؟ ومـــن جديـــد ســـينتقل من وشم الثيران بالنار إلى وشم تلك التي تجرّأت يوماً أن تخدعـــه، ولكن ما الذي يعيقه إذاً أراد أن يفعل؟ وأمسكت تريزا نفسها. وضعت مكوى الحديد، طوت قطعة الغسيل، وعملت من أحشائها قلباً.

- "تريزا!" إنه صوت التهديد.

- إني آتية.

مدَّ لها رجليه فنـــزعت الحذاء ثم سحبت الجوربين وأتت بحوض الماء. رجلان سمينـــتان معطّنتان برائحة العرق، أظافر وسخة، عفونة قاتلة، وكعب مخشب، أما رجلا دانيال فجناحان للطيران، ليحملاها في الهواء، ضعيفتان، نظيفتان، ناشفتان، معطـــرتان، ولا تصلح أن تكون صاحبة له أو خادمة تخدمه ولديه في المدينة أكوام مـــن النساء وفق اختياره. ولكن كان يقول لها يا حبـــي، حبيبتي، لم أرَ أبداً امرأة أخـــرى بجمالك، لن أتعب منك أبداً، أريدك للحياة كلها، لماذا يقول لها كل ذلك إذا لم تكن هذه هي الحقيقة؟

غـــسلت رجلي النقيب بفعالية وانتباه، إذ يقتضي الأمر أن تبقيه دون انفجار وعلى الأخص دون أن يفقد ثقته بها حتى لا تتبدّد سفرته إلى باهيا فلا يضع رجالاً في الكمـــين، ولا يـــأتي بالجديـــد الملظـــى لوشم الخراف والبقر والثيران والنساء الخائـــنات. وكانت تريزا قد سمعته يقول في أحد عراكات الديوك الهراتية، حيث أخذها ليعرضها على الملأ:

- إذا تجرأت تعيسة ما في يوم من الأيام على خداعي، ولن يكون هناك امرأة واحدة تتجرّأ، فإنّي قبل أن أقضي على الشقية سأشمها في وجهها وفرجها بالحديد الملظى المخصص لوشم القطيع لأعلّمها باسم السيد، فتموت عليمة.

نـــزع النقيب السترة وأخذ من الحزام الخنجر والمسدس. في ذلك الصباح من عـــيد القـــديس حنا أكل من فضلات المصنع، بعد رقصة فولكلورية حيوية ورغبة حب في التهادي على الأنغام المعزوفة.. وفي يوم، عندما يتعب من المملوكة تريزا، ولا بد من استبدالها عاجلاً أو آجلاً، فسيرسلها هدية إلى الأستاذ إميليانو غويدس، من وجيه إلى وجيه، احلم وكل يا أستاذ فضلة النقيب. الآن، لا، فهو بالمقارنة مع آل غـــويدس مجهـــول، ولا أحـــد متعباً هكذا، ويصل من ليلة صاخبة من الرقص والكثير من الكاشاسا، وطيلة الصباح مع الأنثى المتجاوبة اللينة، وما إن يضع عينيه على تريزا حتى يصطخب بالرغبة فيستجيب.

- إلى الفراش بسرعة.

أيـــام مـــن الحزن ونفاد الصبر سبقت انطلاق النقيب إلى باهيا. مرة واحدة بادلـــت تريزا دانيال القبلة عند منتصف النهار، وقال لها كلمة بحيوية: "لقد تأكد تـــاريخ السفر". وعند المساء ترك زهرة على الشرفة، ومن أوراقها الذابلة عاشت تريزا الأيام الخمسة من ذلك الانتظار القاتل.

وكـــان دانـــيال يأتي يومياً، مع جوستنيانو دائماً يتحادثان ويضحكان برفقة حمـــيمة، وكانـــت تريزا ترافق كل حركة بقلبها الخافق، وكل نظرة من الظهور الـــسماوي، تـــريد أن تتكهّن برسالة حب. عندما لا يكون النقيب حاضراً، كان الشاب يدخل بقدم ويخرج بقدم أخرى، صباح الخير، إلى اللقاء، وسجائر أميركية إلى الباعة، وينظر إلى تريزا بنظرة منكسرة، ولحسة لسانه لشفتيه يعني بها قبلة، قليلة مع ذلك، على الجوع الكبير المتطلب.

بالمقابل، وفي كلّ الأمسيات، كان يتفكّه مع الأخوات موريس، طاولة غنية بالحلـــويات، وأفـــضلها في العالم: حلوى الكاجو، والمانجا، والكرز، والغويابا، والزعرور، والخوخ الأحمر، والأسود الباذنجاني، المستدير منه والكبير، ومن تخونه ذاكـــرته يـــرتكب أعمالاً غير عادلة، فينسى على اللائحة حلوى الأناناس مثلاً وحلـــوى الـــزفير، ويا الله من حلوى الموز الملهبة! وكل التنويعات المصنوعة من

الــذرة الخالــصة، هذا دون التكلم عن الكانجيكا والهريسة مع رقصات السبارا الشعبية والإجبارية في شهر حزيران، ولا تتكلّمن عن الأوميزادا والجنيبابادا وقطع اللحــوم الرخيــصة اللذيــذة، والأجبان ومرطبات الكاجا والبيتانكا وليكورز الفاكهــة. "وليمة متواضعة"، كانت الأخوات يقلن؛ نساء فاتنات لإغراء دانيال الــساحر.. في الــصالون البيانو المغطّى بشرشف إسباني مطرّز، المرتبط بذكرى العظــائم الماضــية، كان ينطلق مع أصابع ماجدة بمعزوفات بريما كاريزا والمارش التركــي وبحيرة البجع وبقلم ملوّن كانت برتا تحاول أن ترسم جانب رأسه "هل تــرى أنه يشبهك؟". "إلى حدٍّ كبير، إنك فنانة"، وتصفيق للمغنية أماليا المستعدّة لكــل شيء، ثم يطلب منها دانيال أن تكرِّر عندما ترتجف انفعالاً وهي تبدأ أغنية إن إكــستريميس "الفم الذي لو استطاعت أن تقبّله هو فمك القاسي".. وبحجّة الاعتناء بأظافره كانت تيودورا تأخذه من يديه، ومفاصلها متداخلة بمفاصل يدي الــشاب، والصدر دائماً في عرض إغرائي وذهبت إلى حدّ أن عضّت إصبعاً من أصــابعه، الأخوات بصوت واحد يعترضن على صبغ الأظافر، فهو إخفاء وعدم رهافة. أما تيودورا فهي متصالحة مع نفسها، مع المقص، والمبرد وقنينة الأسيتون، فهي لم ترَ قط يدين ناعمتين كهاتين اليدين. نظيفات مسرّحات الشعور، غارقات في الكولونــيا ومستخلصات العطور، كانت الأخوات الأربع شبه ضائعات. في المديــنة، العمّــات مقــسومات إلى أجنحة: جناح يعلن قريباً خطوبة دانيال وتيودورا، إذ إنّ الشاب المسكين أسير الخدمة في الدارة الكبيرة والتي توقعه فيها الأخــوات الذكــيات، واتجــاه آخر أضعف تأثيراً من الأول وتترأسه السيدة بونسيانا دي أزفيدو المراهنة على دانيال: إنه يأكل تيودورا إلى جانب الحلويات والوجبات الطيبة، ولا يأكل الأخوات الثلاث الباقيات إلا لأنه لا يريد.. النقيب شــاهد العــيان، والذي كان الطالب بالنسبة إليه محدثاً مسلياً وطريفاً، النقيب الذي على الرغم من بعض عاداته السيئة إلا أنه رجل كامل، لفت انتباه دان إلى خطــورة جعل تيودورا حاملاً. ودانيال رداً عليه، روى له سلسلة من النكات الطريفة حول مسألة تجنُّب إنجاب الأولاد، وكل نكتة أكثر طرافة من الأخرى، فذلك القدير كان يعرف أن يقول نكتة كما لا أحد غيره. وقد بقي للنقيب ألا يموت ضحكاً.

في يــوم القديس بطرس صباحاً، ذهب جوستنيانو ليأتي بدانيال من بيت القاضـــي ليأخذه إلى حفلة عراك ديوك هراتية فذهبا في الشاحنة، تناولا الغداء هناك، عند المساء عاد النقيب. كانت تريزا ما تزال مشتعلة على أمل أن يكون قــد ذهـــب إلى حفلـــة رايموند أليكاتي، ليكون عندها وعند دانيال ليلة حرية للاحـــتفال.. لم يكن النقيب قد غيّر ملابسه، وهكذا، كما كان، خرج لتناول بعـــض البيرة في نزل غابـــي، وقد عاد باكراً لينام، بينما تريزا، متثاقلة القلب، غـــسلت قدميه؛ تنتابها رغبة في الهرب تفتيشاً عن دانيال في الشوارع، في بيت القاضـــي أو في دارة موررايس، حتى تذهب معه في سكة نهاية العالم. ولشدّة ما كانـــت تعيسة ومجروحة في الصميم لم تنتبه فوراً إلى معنى كلمات جوستنيانو: "غـــداً ســـآخذ القطار إلى باهيا، أما الآن فاهتمّي بالحقيبة وبالملابس"، "الآن، حـــالاً"، قالـــت، وهي تنتهي من تجفيف قدميه، "الآن، لا، غداً باكراً، فهناك متّـــسع مـــن الوقت". عندما عادت من تفريغ الحوض من الماء، كان قد أصبح عارياً وبالانتظار، لم يحسّ النقيب أبداً أنه سجين الفراش الزوجي، فراش تريزا. لم تـــبقَ هناك أية واحدة أخرى طيلة هذه المدة وبمثل هذا الإغراء، فقد أكملت الـــسنتين وقريباً الثالثة واهتمامه بها كان يزداد بدلاً من أن يخمد. ألأنها جميلة؟ ألأنها متجاوبة؟ ألأنها صغيرة؟ ألأنها صعبة؟ من يعرف، إذا كان النقيب نفسه لا يعرف؟

خلال السنوات العشر التي عاشت فيها بعد موت زوجها، فإن دونا أنكراسيا نيفياس دي موررايس الزوجة القوية والمغرمة بالأعياد، كانت تكرِّم القديس بطرس شـــفيع الأرامل، في الكنيسة صباحاً، وفي صالون الدارة الكبيرة ليلاً. كومة حطب كبيرة تشتعل في الشارع، وفي البيت توضع الطاولة الغنية بالمأكولات ويحضر الأهل المشهورون، والأصدقاء العديدون؛ وكان يأتي شبان يرقصون مع فتيات البيت، مع البـــنات الأربع في طور الزواج: ماجدة، أماليا، برتا، تيودورا، والبنات العزباوات، اللواتي أصبحن عوانس تقريباً، احتفظن بالتقليد.

فخـــلال القدّاس أشعلن الشموع عند قدم صورة الرسول بطرس، وفي الليل فـــتحن الدارة الكبيرة: بعض الأهل الفقراء، أصدقاء قليلون، ولا شاب، ولكن في عـــيد القـــديس بطرس ذاك فقد أخذت حفلة آل موررايس طابعاً جديداً: عمّات

بالأكـــوام يلهثن وراء الغيبة والأخبار والتّكهّنات، والشاب دانيال بعينيه الحزينتين وضـــحكته العذبة، ولكنّ فكره هو حيث تجعل تريزا من أحشائها قلباً في الفراش الزوجي لجوستنيانو دوارتي دا روزا.

في الـــيوم الـــتالي أعدّت تريزا الحقيبة للنقيب ووضعت فيها، كما أمر، بدلة الكشمير الأزرق النيلي المصنوعة أصلاً للزواج والمستعملة مرات قليلة، لذلك بقيت عملياً جديدة، إنها طقم احتفال مخصص للثاني من تموز في قصر المحافظة. ووضعت كـــذلك الـــبدلات البيـــضاء وأفضل القمصان وبكمية كبيرة حتى يبقى طويلاً في سفرته.

وقـــبل أن يخـــرج ليـــستقل القطار، أعطى الأوامر إلى تريزا وشيكو نصف الكعب: "كل الانتباه للمخزن، وراقبا البائعين جيداً" عندما يكون المعلم في السفر فالـــبائعان يمكن أن يسرقا لمصلحتهما وأن يأخذا زوّادة إلى البيت، وكالمعتاد عندما يتغـــيّب النقيب، فإن شيكو نصف الكعب ينفّذ أوامره وينام في المخزن، في فراش الهـــواء لينتبه إلى البضاعة ويقوم باحتياط أمني، ولكن أيضاً، وبالتأكيد، ليبقيه ليلاً خارج حدود البيت الفعليّة ودون إمكانية الاتصال بتريزا.

أمـــا فـــيما يتعلق بتريزا، فإنه محظور عليها أن تضع رجليها خارج البيت أو المخـــزن أو أن تشجّع الزبائن على المداعبة، وأن تكون محادثاتها مقتصرةً على ما لا بدّ منه. بعد العشاء، فإن شيكو في المخزن المغلق، وهي في البيت في فراش النوم. إن النقـــيب لا يريد أن تكون امرأته مضغة في أفواه الناس، بسبب أو من دون سبب، فذلك سيّان عنده.

ودون أيـــة كلمـــة، دون "إلى اللقاء"، ودون "إلى العاجل"، ودون أية حركة وداع، مشى إلى المحطة ومعه شيكو نصف الكعب يحمل الحقيبة. في جيب السترة، بطاقة دعوة المحافظة، وكتاب التقديم إلى روزاليا فاريلا، فتاة هوى تمارس العمل في باهيا، ومغنية في ملهى ومتخصصة بالتانغو الأرجنتيني، لامعة في الأدب والموسيقى: "فمك الداعر فم عاهرة..".

قـــبل أن يخرج بقليل، وفيما كان يبدّل ملابسه، وقد رأى تريزا في المرآة تدير ظهـــرها، أحسّ النقيب بتلك الرعشة في الأسفل، فرفع لها الفستان وفعل ما يريد بسرعة مخالفاً الطبيعة.

39

وكانـــت ثماني ليال كاملة في فراش النقيب الزوجي، وواحدة منها امتدّت إلى صـــباح يوم الأحد بينماً كان شيكو نصف الكعب يعاني آثار الليلة السابقة. فهو، يوم السبت يشرب زجاجتين من الكاشاسا، أما في المخزن، والمعلم في سفر، فهو لا يهمل مقابل أي شيء في العالم البضائع المؤتمن عليها.

مباشـــرة بعـــد أن يقرع جرس كنيسة القديسة حنة معلناً التاسعة ليلاً، بداية حياة العشاق، لتنتهز الصبايا الفرصة في المحلة. دانيال يصل إلى باب المخزن الخلفي الكـــبير، وكان يذهب قبل شروق الشمس في الظلمة الأخيرة من الليلة، وكان بعد الظهر (كان ينام من بزوغ الفجر حتى ساعة الغداء) يذهب ليستنكه مع الأخوات مـــورايس، ويصل إلى المخزن بحجة سؤال شيكو عن أخبار النقيب: "لم يبرق بعد ليعطـــي تـــاريخ الوصـــول، يا أستاذ". سجائر أميركية إلى بومبيو وبابا موسكاس وقطعـــة نقود إلى يكو، وعيناه المكسورتان ترتميان على تريزا. إنه يسمن بفعل أكل الحلـــوى والكانجيكاس، ويُغرق الأخوات الأربع بالمحادثات المغرية وبالحكايات غير المعـــتمدة نهائـــياً الاختـــيار، الأخوات الثلاث الكبيرات يتنهَّدْنَ، وتيودورا لم يعد ينقـــصها ســـوى أن تجرّه عنوة إلى الفراش، ومن يعرف؟ فلولا العاصفة التي تجتاح تريزا ودانيال لقام بالخدمة لتيودورا مجاناً.

ولكـــن من يعاشر تريزا، ومن يحملها إلى أبواب الفرح ويعلّمها لون الفجر لا يـــستطيع أن يفكّر في سواها. مغتصبة منذ أكثر من سنتين ونصف، مملوكة للنقيب كـــل الأيام، مغلّفة بالخوف، ظلت بريئة، طاهرة وغبية، وفجأة استيقظت امرأة في تلـــك اللـــيالي الـــسريعة؛ وبالمحاضرات المكثّفة انشقّت عن بئر لا ينتهي من المتع، وأزهـــرت جمالاً؛ من قبل كانت صغيرة رائعة مراهقة ناعمة وبسيطة، أما الآن فإن زيـــت اللذّة يمسح وجهها وجسدها، واللذة والفرح بالحب أشعلا في عينيها تلك الـــنار الـــتي لاحظ بريقها منذ أشهر مضت، الأستاذ إميليانو غويدس. وأكثر من ذلك، فقد تعلّمت أيضاً بعض كلمات المجاملة وتنوع القُبل وسر بعض الملاعبات، ولـــيس ذلـــك بقليل لمن لم يكن عنده شيء، ولم يكن كثيراً لأن كل شيء مرّ في ومـــضة زمنـــية، بسرعة فائقة؛ وشباب دان لا يسمح لها بمعرفة واسعة وكاملة في المهـــنة، ذلك التمدُّد في المتعة، الرهافة الكبرى، الأخذ تدريجياً، على مهل وببطء،

مـؤلم وبـلا رحمة، فدانيال كان يعرف المدة القصيرة لتلك المغامرة من عطلته في منطقة الـداخل، ويعرف وقت تريزا القصير. تريزا لم تكن تعرف شيئاً ولم تكن ترغب في التكهن والنقاش واستجلاء الأمر.. أن يكون إلى جانبها، أن تلتفّ أسيرة بين ذراعيه، وأن ترضي رغباته وأن تدفع بالعملة نفسها، عبدة وملكة، ماذا هنالك أكثـر لتريده؟ تذهب معه الآن، بالتأكيد؛ ولكن الاتفاق في هذا المجال قد تمّ وأقفل الموضـوع، ومـا عاد يسمح بالأسئلة والنقاش، دانيال، هو ملاك من السماء، إله صغير، هو الكمال.

وعـد بأن يأخذها معه محرِّراً إياها من أغلال النقيب، ولماذا لا يفعل في الحال ما دام جوستنيانو مسافراً؟ كان عليه أن ينتظر مالاً من باهيا، العملية تستغرق بعض الـوقت، وعـد غـامض، وتوضيح أكثر غموضاً وما كان واضحاً هو تأكيدات الرجولة: "ضعي في ذهنك أن النقيب حيوان وأنك تعلّمتِ مَن هو الرّجل الحقّ وما الفرق بين الشجاعة والاعتداد بالنفس".

مشاريع الهرب، تصاميم حياة المستقبل لم تشغل مساحة كبيرة من زمن ليالي مـسرّات الفراش القصيرة. لم تصل تريزا إلى حدود الشك في الشاب، فلماذا عليه أن يكـذب؟ في اللـيلة الأولى من الليالي الثماني، عند العودة من الانخلاع المجنون الأزلي، عندما كان دانيال ما يزال معها، مدّد رأسه على عنق تريزا الرطب فقالت له متأثرة: "خذني من هنا، أستطيع أن أذهب معك خادمة لك، معه لا أستطيع أن أعـيش بعد اليوم.." شبه متردِّد، وعدها دانيال: "ستذهبين معي إلى باهيا، كوني مرتاحة.." ووضع طابعاً على الوعد بقبلة من تلوينات لسانه.

كـل ما كان في السابق قذراً ومؤلماً مع النقيب، كان مع دانيال لذّة من عند الله.

هكذا ماتت من الرعشة ورأسها وقع فوق بطن الملاك، ثم قالت: "فكّرتُ أنني سـأموت، ومـن يدري فقد أموت إذا لم أذهب إلى باهيا، سأقتل نفسي، سأشنق نفسي في الباب، ومعه لن أعيش أبداً. إذا كنت لا تريد أن تأخذني فلا تكذب، قل لي الحقيقة".

للمـرة الأولى والوحيدة رأته غضبان. "ألم أقل لك سآخذك معي؟ أوَتشكّين فيَّ؟ هـل أكون رجل أكاذيب في ذهنك؟" طلب منها أن تسكت، ألاّ تكرر أبداً

مـــسائل كهذه. فلماذا تمزج في تلك الساعة بين التهديدات والأحزان؟ لماذا تقلّص الفـــرح وتقضي ليلة المتعة وهي تتحدث عن الموت والشقاء؟ لكل موضوع ساعته ولكل حديث مكانه.. ذلك أيضاً تعلّمته تريزا مع الطالب في الحقوق دانيال غوميز حـــتى لا تنـــساه بعد اليوم. لم تعد تسأله عن الهرب المتفق عليه ولا تفكّر في حبل المشنقة.

دانيال لم يقل لها دوري، على الأربعة، مثل جوستنيانو دوارتي دا روزا، الذي يهوي عليها بالحزام فما تزال حتى اليوم تحتفظ بآثار الجرح.

هكذا ولدت من جديد تلك التي ماتت تحت وطأة المسطرة والحزام والسوط وكي الجمر. طعم الفلفل وعلامات الوجع والخوف تلاشت كلها واحدة واحدة، وإذ اســتعادت كل مفصل من مفاصل كينونتها، في الساعة الضرورية، ودون ظل الخـــوف، انتفضت بكليتها تلك المدعوة تريزا باتيستا، الرائعة، المصنوعة من العسل والشجاعة.

40

لا دانـــيال ولا أحد لاحظ الوقت قبل أن يقرع جرس الساعة التاسعة، حين جـــاءت بـــرتا أبشع الأخوات الأربع بماجدة، إلى قاعدة الاستقبال، في العتمة التي تسيطر على الدار الكبيرة حتى تتسمّر الاثنتان على حافة النافذة في الكمين:

- "إنـــه يأتي من هناك، انظري". قالت برتا ذلك وهي تعلم بالتأكيد الذي لا يقـــبل الجـــدل، لأنهـــا عندما كانت تحسّ بوجوده، كان يصيبها البرد في الأسفل وتذهب بسرعة إلى الحمام لتبوِّل.

وبيـــنما هما مختبئتان وراء النافذة، رافقتا بنظرهما شكل الرجل وخلفه الطريق. فشاهدتاه، يدور حول الركن، وسمعتا وقع أقدامه القوي والبعيد في الزقاق.

- لقد وصل إلى الباب الكبير، يجب أن يكون داخلاً.

كانت ماجدة، مقتنعة بمسؤولية الفتاة البكر فسهرت حتى الفجر وعرفته: إنه الجميل والسعيد عند بزوغ الفجر يعود من ليلة تريزا. لقد استعمل الحقير الأخوات الأربـــع واقية ريح وغطاء مثالياً وصلباً ليخفي عن جوستنيانو دوارتي دا روزا وعن المديـــنة كلـــها ذلـــك التهتك الفاضح مع مملوكة المخزن، صاحبة النقيب البارع.

وطبيعي أنّ السافل شيكو نصف الكعب قد اغترّ ببعض من مال الكاشاسا، وفقط بدائـي مـثل جوستنيانو يستطيع أن يوكل أمواله وامرأته إلى لص على الحضيض، ولكن وليكفل التغطية الكاملة فقد استغل حسن النية والصداقة والعواطف والمائدة الغنـية عند الأخوات الأربع: ماجدة، أماليا، برتا، تيودورا؛ والأربع اللواتي صرن حديـثاً دائماً على ألسنة الناس وفي خلوة العمّات، بينما المملوكة في الفراش، إنها مسألة كبيرة وكبيرة جداً.

في المدرسـة، ربحـت ماجـدة جوائـز عديدة في الكتابة ولكنها في بعض المراسـلات تفـضّل استخدام حرف الطباعة، وفقاً لنصيحة السيدة بونسيانا دي أزفيدو، ولكن أثناء الحادثة العظيمة وجدت فرحاً واحداً، فرحاً كئيباً، فرح عانس، إنهـا تـستطيع أن تكتب تلك الكلمات السيئة التي يُمنع استعمالها على الفتيات والـسيدات المتميـزات: أبـو قرون، رُجيل، ذو القرنين، جيكولو البراز، العاهرة المملوكة، أجل، العاهرة المملوكة.

غفت تريزا بعد الهبوط من السماء وبينما كان يدخّن سيجارة، راح دانيال يفكّـر في أفضل طريقة ليُعلمها برحيله الوشيك إلى باهيا، إلى الكلية والملاهي، وزمـلاء الدراسـة ورفقـاء البوهيمـية، وإلى الـسيدات العجائز، والفتيات الرومنطيقيات: "سأرسل في طلبك فيما بعد، يا حبيبتي، فلا تقلقي، ولا تبكي، وعلـى الأخص لا تبكي ولا تحزني، فلدى وصولي إلى هناك سأهتمّ بالتدابير". ربـع ساعة صعبة ليقنعها، مسألة مزعجة، دانيال يرتعب من المشاهد التمثيلية، ومن الفراق، ومن التملص، ومن التذمر والبكاء.. سيتمتّع بالليلة الأخيرة ويقول لهـا ذلـك في الـبرهة الأخيرة، مع الفجر عند الباب الكبير بعد قبلة الشفتين واللسان والأسنان.

نـصح نفسه أنّه ربما من الأفضل ترك الأمر لليوم التالي. يأتي عند الصباح إلى المخـزن ليودّع الجميع معاً: "نداء مستعجل، غير متوقع، من الكلية، إذا لم أحـضر سأضيع العالم كله، عليَّ أن آخذ أول قطار، ولكن غيابـي لن يدوم طويلاً. أسبوع واحد على الأكثر". ولكن إذا انزعجت تريزا، ووجدت نفسها مخدوعـة وفـتحت فمها للناس وقامت بفضيحة بوجود شيكو نصف الكعب والـبائعين، مـا عـسى أن تكون ردة فعل المستزلم الأمين؟ عندها يأخذ علماً

بالقـــرنين المـــركّبين لسيده وحاميه، وعملياً وأمام عينيه. مجرم حتى القتل، فإن شيكو سيخبر دانيال بأنه سيحتفظ بالعقوبة لجهود وأفعال النقيب. الأفضل إذاً أن يـــذهب الآن دون أن يقـــول شـــيئاً. انحطاط أخلاقي، بلا شك، وفاضح، الصغيرة بسيطة وسريعة التصديق وعمياء من الوله تعدّه ملاكاً هابطاً من السماء وها هو يهرب خفية دون كلمة اعتذار أو وداع؟ لا يجب التفكير في هذا، لم يمر في رأســـه جـــنون إلى هذا الحدّ، وهو سيتكلم في الموضوع حتى يمنع الشكوى والبكاء وأحاديث الشنق.

صـــوت جوستنيانو دوارتي دا روزا يخرج دانيال من الفراش في قفزة واحدة، وتستيقظ تريزا. وقف النقيب في باب الغرفة، آخذاً قبضة سوط الجلد الخام بقبضة ذراعه اليمنى، وتحت السترة المفتوحة الخنجر والمسدس الألماني.

– "أيتها الكلبة النكراء، معك سأصفّي الحساب بعد قليل، لن تنتظري طويلاً. هل تتذكّرين مكوى الجمر؟ الآن سيكون مكوى اللظى لوشم النيران، أنت نفسك ستُـــشوَيْنَ اليوم". وضحك ضحكته القصيرة البشعة: "وها هو العقاب الذي لا بدّ منه".

إلى جانـــب الحـــائط وقف دانيال، شاحباً مرتجفاً، ملتزماً بالقلق، فأعطى النقيب ظهره لتريزا، كان عنده الوقت الكافي للاهتمام بالمتسكعة، ويكفيها الآن أن تفكّـــر بالحديد الملظّى، وبخطوتين أصبح دانيال بمتناول يد النقيب فسدّد له صـــفعتين على وجهه فسال الدم من فمه، كانت أصابع جوستنيانو دوارتي دا روزا مليـــئة بالخـــواتم. ومرتعباً، مسح دانيال زاوية شفتيه بيده، ونظر إلى الدم وتنهّد.

– "يا ابن العاهرة، يا كلب الأجنبية لولو الفرنسية، كيف تستطيع أن تتجرّأ؟ هـــل تعرف ماذا عليك أن تفعل لتبدأ لتبدأ..." ردّد: "إنك ستلكح.. وكل النساء هنا وفي باهيا سيعرفن".

"افـــتح الـــسحاب وأخرج الأشياء". دانيال يبكي واليدان مرتجفتان. أمسك النقـــيب بقبـــضة الـــسوط، وهزّه في الأعلى، الحبال الحمراء، والرعب قاتل، وقع الطالب، ولوى مفاصله، وانحنى بكلّيته.

– هيا يا كلب.

رفع ذراعه من جديد، فراح سوط الجلد يدور في الهواء: "هيا ستفعل أم لا يا ابن الزانية؟" دانيال يبلع ريقه والسوط يدور، وكان مستعداً أن يطيع عندما أحسّ النقيب بالسكين تخترق ظهره ببرد النصل المسنون وحرارة الدم. استدار النقيب فرأى تريزا واقفة ويدها ترتعد وشعاع في عينيها من الجمال المثير والكراهية العضوض. الخوف حيث هو والاحترام الذي لقّنها إياه تعلّمته تريزا جيداً.

– اتركي هذه السكين، يا شقية، ألست تخافين أن أقتلك؟ هل نسيت؟

– لقد انتهى الخوف! لقد انتهى الخوف يا نقيب!

صوت تريزا الحرّ يملأ سماء المدينة، ينطلق فراسخ وفراسخ ويطوف طرقات الداخل، وتصل أصداؤه إلى شاطئ البحر. في السجن، في الإصلاحية. في نزل غابي أطلقوا عليها اسم تريزا انتهى الخوف، وبعد ذلك أسماء عديدة أعطتها الحياة، وكان ذلك الاسم أولها.

النقيب يتفحّصها ولكنه لا يعرفها. إنها تريزا، بلا شك، ولكنها ليست التي دجّنها بالسوط، وليست تلك التي علّمها الخوف والاحترام، لأنه من دون الطاعة، كيف يكون العالم؟ إنها تريزا أخرى هنا تظهر تريزا انتهى الخوف! عجيب أمرها، تبدو أكبر، وكأنها أزهرت في أمطار الشتاء. هي نفسها وهي أخرى. ألف مرة قلّبها عارية ونالها في الفراش الأرضي، بسوط الجلد، في سرير المزرعة العريض، وهنا أيضاً في الفراش الزوجي هذا ولكن عريها الآن مختلف؛ ويلمع جسد تريزا البرونزي، جسد لم يلمس قط، لم يمتلكه قط جوستنيانو دوارتي دا روزا. لقد تركها صغيرة فوجدها امرأة، تركها عبدة الخوف فانتهى الخوف لقد تجرّأت على أن تخونه، ويجب أن تموت بعد أن توشم بالحديد الملظّى بالأحرف العريضة. يسيل الدم من الجرح في ظهر النقيب، ورغبة غير مطاوعة تعتريه.. إنه يحسّ بالرغبة تشتدّ، تصعد إلى صدره، ويجب أن ينالها مرة أخيرة ومن يعرف ربما تكون المرة الأولى.

جوستنيانو دوارتي دا روزا، الملقّب بالنقيب جوستو، وتلقّبه السيدة بريجيدا بالخنزير، أُصيب بإحدى أسوأ النوبات، فأهمل دانيال وأعطاه إشارة بالتقدم، فانتهز المدلّل الفرصة وبصرخة مخيفة، عارياً، دخل دارة آل موررايس. وتقدّم

جوســتنيانو إلى الأمــام وفي نيّته أن يلتقط الملعونة ويخضعها في الفراش ويحطّم لها خالدها، وبرعمها الأخير، ويدخل في المسافة الضيقة ويمزّق أحشاءها، ويشمها بهذا الحديــد الملظّى، في الداخل، ويدقّ عنقها، وفي لحظة الرعشة يقتلها؛ ولكي يفعل كــل ذلــك، انحــنى فوقها. وبينما تتلوى تحته. طعنت تريزا باتيستا النقيب، مرة أخرى، بسكين قطع اللحوم المجفّفة.

القسم الثالث

ألفباء
الحرب بين تريزا باتيستا والجذام

– أ –

أمـــيغو اسمـــح لي أن أقـــول إنك قليل الحياء، تصمّ آذان الناس دون تحفُّظ وانقطاع: كأس كاشاسا فاخر، وسيل منهمر من الأسئلة. ألم تتعلّم أن لكل امرئ الحق في أن يعيش حياته الشخصية بسلام ودون أن يتدخّل فيها أحد؟

هـــل كانت ربة بيت صالحة؟ أجل يا سيدي، لقد وُلدت حرّة، ثم بيعت كعبدة، وعـــندما وجـــدت نفـــسها يوماً في بيتها المكوّن من غرفة نوم وصالة محاطاً بالأزهار وبستان من الأشجار المثمرة، الوارفة، ومسيجاً يتفيّأ ظلالاً كثيفة، كان جميلاً أن ترى تريـــزا باتيـــستا مـــنظمة، منسجمة مع نفسها، وهي في اهتماماتها المنـــزلية ورهافتها العذبـــة، دار نظـــيفة مهفهفة، ذات موقع جميل، ازدادت بين يدي تريزا فرحاً وكرماً! ومـــع رائحـــة القراصيا وركن الجنادب فإن أشتانسيا أرض النـــزق والحياة المرفّهة لم تعـــرف داراً يمكـــن تـــشبيهها بهذه، وهنا أعطي الصديق رأيي المخلص المشابه لآراء الآخرين الذين عرفوها وتعاملوا معها في زمن الأستاذ؛ وإني أعطي الرأي مجاناً دون أن أطالـــب مقابل الخير بأي شيء سوى هذه الجرعات الرخيصة من الكاشاسا. إذا كان المزيد من التساؤل، أيها الفارس، كما يرى الكثيرون، قد غدا مزعجاً وأنه من الأفضل عـــدم الإجابة عن أسئلة الفضوليين الآتين من الخارج، فما هو الغرض من هذا التحقيق المـــستفيض؟ في اعتقاد زوجتي أن العزيز قد جاء بنيّة المصادقة، ولهذا فإنه يتدخّل كثيراً، ويـــستجلي التفاصيل الدقيقة في حياة هذه المخلوقة. يمكن أن يكون الاعتقاد صحيحاً، ولكني لا أنصحك بالاستمرار فلا تتوغّل واترك تريزا بسلام.

لماذا كان عليها أن تقبل بغريب، وأن ترفض أثرى رجال المال وأكثرهم وجاهة، الناهـي الآمـر في السياسة وتبقى مستجيبة لكياسة الأستاذ وطيبته؟ سواء بالتدخل الشخصي أو باستراق الأخبار من أي وجيه منتفخ وإن كان صناعياً مصرفياً، أباً للوطن، وغنياً فاحش الثراء؟ الصديق من أنذر، فلا تتمادَ في مخططك، من الآن فصاعداً، وإذا تماديت فيه فإنك ستواجه بركاناً منفجراً. لكي تحصل على الطيبة واللطف والرفقة الطيبة التي انقطعت، عليك بمعطف الحب وحده، يا صديقي العزيز، مثلما كتبت فتاة ملهى في غيليوس مدينة الكاكاو والقحط الشعري: "إن الحب هو معطف من المخمل يغطّي عيوب الإنسانية". ومتدثرة بمعطفها المخملي، فإن تريزا قد فعلت ما تستحق عليه التقدير والاحترام فاترك الفتاة بسلام، أيها الفارس.

من مهمات ربة المنزل مهمة واحدة لم تستطع إجادتها، هي إعطاء الأوامر للموظفين والتعامل مع الخادمات عبر المسافة المفروضة، والتقليل من الطيبة المتحفظة إزاء الخدم والفقراء بصورة عامة.

كانت قد تعلّمت الكثير مع الأستاذ وعلّمته أشياء كثيرة وهي تبرهن له مع توالي الأيام أن كل تمييز قائم بين البشر على أساس المركز الاجتماعي وقياس الإنسان ووزنه بالمال هو تمييز باطل وخاطئ. إن الفروقات تقوم، تقاس وتوزن وتُعطى قيمتها الحقيقية عندما تكون المعركة مع الموت في سهل منبسط وعلى أساس مبدأ واحد هو الإنسان بكليته. ومن هنا إنّها لا تعير أكبر السخافات اهتماماً، ولا مكان لحقوق المال والمعرفة الفاسدة عندها. أقل شأناً ممن ولماذا؟ لقد كانت تريزا مساوية للغني والفقير فقد أكلت بملعقة الفضة وبتهذيب رفيع، وأكلت بيدها وكان الطعام أطيب. لقد خصّص لها الأستاذ حارساً للحديقة وللبستان ليحرس بابها. ولكن في البدء، ولأنه لم يكن يعرف تركيبتها المستقيمة، فإن الحارس كان مختاراً ليحافظ أيضاً على الشرف والعفاف، ووضع لها خادمة للأعمال المنزلية والمطبخية، وناداها بيا مليكتي وأغرقها بالعطف، ومع ذلك كانت هي أكثر من تعمل في البيت ولم تصبح قط سيدة متثاقلة عاطلة عن الحركة، أو قليلة الإحساس، وعشيقة لورد متعجرفة تسمن في متع الأمر والنهي.

إذا كنت تفكّر في مصطلحات، فتوقف أيها الفارس، ودع المتعبة من العالم متدثرة بمعطف الحب. إن الكمال واحد في كل شيء، وفي كل لحظة، ولا يكرِّر

نفـــسه.. حتى تريزا باتيستا لم تفكّر بتكرار مصادقة كاملة، مكتفية بذكريات تلك السنين وبذكرى الأستاذ.

وفـــيما يتعلق بالطبيب الذي حدّثتك عنه، أيها الصديق العزيز، فإنه لم يكن أبداً عشيقها: كان رفيقاً في الأعياد والاحتفالات، هذا بصورة خاصة ليقتل الوقت ويهرب من الفتيات اللواتي قد يهدّدنه بالزواج بسبب وعوده. وفي معرض الحديث عـــن نصف الطبيب ذاك، فانظر كم كانت تريزا باتيستا على حق في عدم التمييز بـــين الفقراء والأغنياء. فقط في ساعة الخوف يمكن قياس الناس ووزنهم ومقارنتهم بعـــضهم بالبعض الآخر، بمقياس الحقيقة وميزانها. لقد وقع حامل الدبلوم الطبـــي خارج مكانه حين كان واجبه بوصفه طبيباً أن يبقى في طليعة الجميع وقائداً، ولكن لمـــن؟ عـــندما ألقـــى الجذام رحاله في بوكين لم يبقَ لمواجهته إلا العاهرات، أيها الفـــارس، تقودهن تريزا باتيستا. كانوا قد سمّوها سابقاً تريزا قرص العسل، تريزا النسيم العليل، ولكنها فيما بعد أصبحت تريزا أومولو، تريزا الجذام الأسود؛ كانت مصنوعة من العسل فانسال عليها الصديد.

– ب –

بـــووا بوندا، ماريكوتا، ماودي فادا، بولوة فوفو العجوز غريغوريا الستينية، كابـــريتا ابـــنة الأربعـــة عـــشر عاماً ومنها عامان في الدعارة، كلهنّ، حفنة من العاهرات، يا رفيقي: وحيدات واجهن الجذام الأسود وانتصرن عليه، حيث هاجم أراضي منطقة بوكين وأخذ يقتل بلا رحمة؛ وقادت تريزا باتيستا المعركة إلى جانب الشعب.

حـــرب ضروس! لو أن تريزا لم تبادر إلى قيادة عاهرات شارع كانكرومولي، لمـــا بقـــي أحد في محلة موريكابيبا ليروي الحكاية... لم يعد بمقدور السكان حتى الهـــروب، مـــثل هذه الرفاهية ظلت وقفاً على متخمي مركز المدينة، من أصحاب المـــزارع الكبيرة والتجار وكبار الأساتذة، ابتداء من الأطباء الذين كانوا أول من أطلقوا أرجلهم للهرب، هاربين من ساحة المعركة، واحد منهم إلى القبر والآخر إلى باهـــيا، في ذلك القرار الجبان والركضة المجنونة دون أمتعة أو استئذان، فإن الطبيب الوحيد بحجة الذهاب إلى أراكاجو للمجيء بالنجدة، قد استقلّ القطار الخاطئ غير

مكتـــرث بوجهـــته ومـــصيره، فبقدر ما يذهب القطار بعيداً يكون هو بمنأى عن الخطر.

وصل الجذام متكالباً، يحمل كرهاً عضوضاً قديماً ضد المكان ومن فيه، متعمّداً القتل الذي يقوم به باحترام وبرودة وشر مستطير، وبدا الجذام قوياً، بشعاً سيئاً: إنه الجـــذام الأشرس فتكاً. قبل وبعد الطاعون، ستة اشهر قبله أو ثلاث سنوات بعده، هكذا ظلّ الشعب حتى اليوم يوزّع الزمن بتقويمه الخاص متخذاً من الحدث الرهيب مـــنطلقاً لتوقيت الماقبل والمابعد... ومن الذي لم يرتعب من هجمة الموت الذي لا رقيب فيه؟

وحـــدها تريزا باتيستا لم ترتعب ولم تظهر أي خوف، وإن تكن قد أحسّت بالخـــوف فقـــد كظمته في صدرها: ولم يكن ممكناً بغير تلك الطريقة أن تستحث حـــيوية نـــساء الحياة العامة، وأن تأتي بهنَّ معها لمواجهة مهمة النضال ضد القيح والـــرعب... هـــذه هي الرجولة يا رفيقي، وليست الرجولة في أن يثير المرء أحداً ويـــستحثّه للـــشجار متـــبادلاً معه اللكمات وطلقات الرصاص، وليست في الحزّ بالخنجـــر أو الـــسكين الـــبرنامبوكية، فهذه الأمور يستطيع أي حي أن يقوم بها، ويـــتوقف الأمـــر على المناسبة والضرورة. ولكن لمعالجة مصاب بالجذام الأسود، ومـــواجهة العفـــونة والـــبكاء في الشوارع الملوثة بالوباء وفي المحجر الصحي، فإن شـــجاعة شاربـــي العرق لا تكفي: فأبعد من المهمات الشاقة يقتضي وجود معدة وقلب، وفقط النساء التائهات امتلكن القدرة اللازمة لممارسة العمل الشاق.. وسط أمراض العالم تعوّدن على القيح واحتقار الأفاضل، ومن المراكز العالية والمواقع المُرّة تعلمـــن كم أن الحياة تساوي القليل وكم يساوين هنَّ غالياً. إن في أفواههن آثار جـــراح وفي جلدهن قساوة، ومع ذلك فهنَّ لسن قاسيات وغير مكترثات بأوجاع غيرهـــم، إنهن رجال بشجاعة فائقة. نساء الحياة العامة: اسم يقول كل شيء. في تلك الأيام تحوّل الفحل إلى مخنّث جبان واختفى هارباً؛ الرجولة وحدهنّ العاهرات امتلكـــنها، عجائز وفتيات في مقتبل العمر، ولو كان لدى شعب موريكابيبا المال والسلطة لأقام في محلة بوكين تمثالاً لتريزا باتيستا والنساء اللواتي جاهدن على قدر الحـــال، أو لأقامه لأومولو الإله الوثني الذي يشفي من الأمراض وعلى الأخص من الجـــذام الأسود. وهناك من قال إنه هو نفسه أومولو الإله الوثني الأفريقي، والذي

يشفي من الأمراض كان متجسداً بجسد تريزا وقد قضى على الجذام، ولم تكن هي أكثر من جواد القديس في المعركة الخالدة.

أمـــور كهذه لا يجب مناقشتها، إنّها مصطلحات إيمان تستحق الاحترام، وســـواء كانـــت هي سيدة نفسها وأفكارها وأعمالها، مستعملة الأمثولة التي تعلمتها وهي صغيرة مع فتيان هنود المزرعة في لعبة الجندي واللص، وقد شدّت تجـــربة الحياة من عضدها في كل ما شوهد وما بقي لمشاهدته، أو أنها ارتدت شـــجاعة أومولـــو شفيع المصابين بالجذام الأسود، فإن من حمل العبء وواجه الـــوباء كانت تريزا باتيستا. وهل أن شجاعة الآلهة وجمال الملائكة والقديسين وســـوء أعمال الكلاب غير انعكاسات لشجاعة وجمال وطيبة وسوء عمل بني الإنسان؟

– ت –

ترحّل الجذام الأسود في بوكين من قطار شحن سكة حديد ليستي البرازيلية، يـــصيب العيـــنين بالعمى بعد تفريغ الحدقتين، ويجعل الأصابع تتقطّر صديداً؛ إنه جراح مفتوحة تفوح منها العفونة. وقد جاء من ضفتي نهر سان فرانسيسكو المكان الذي هو يعدّ من أمكنة إقامته المتعددة والمفضلة: ففي تلك الضواحي كانت الأوبئة تتقـــيّد بالمعاهدات والاتفاقيات، عاقدة المؤتمرات وملقية المحاضرات. التيفوس ترافقه إلى هـــناك العائلة القاتلة من أنواع حمى التيفوئيد والبارا تيفوئيد والملاريا والبرص الجـــادع، وفي كـــل مرة تبدو أكثر شباباً الحمى الصفراء ومعها الزحار المتخصص بقـــتل الأطفال، والطاعون الدبيلي العجوز الذي ما يزال يصل في الطليعة، والسل، وأنواع الحمى المختلفة وعلى الأخص منها أبو الجميع وبطريركهم: الجهل. وهناك علـــى ضـــفاف سان فرانسيسكو في داخل الولايات الخمس، كان للأوبئة حلفاء طبيعـــيون ومقتدرون: أسياد الأرض، العقداء، مفوضو الشرطة، قادة قوات الفصل العامـــة، الزعماء، الآمرون، السياسيون، وأخيراً الحكومة العليا. أما حلفاء الشعب فيعدّون على الأصابع: يسوع الصالح، بعض المتضرّعين وقسم من الإكليروس وقلّة مـــن الأطـــباء والممرضـــين، وبعض المعلمات ذوات الرواتب القليلة، وكلهم لا يشكلون غير كتيبة صغيرة ضد جيش المستفيدين من أنصار الطاعون.

ولـــو لم يكن الجذام الأسود، والتيفوس، والملاريا، والأمية، والبرص، ومرض الجـــروح المتقـــيّحة، والجراشة الحكاكة وغيرها من الأوبئة اللعينة لتقفز إلى ساحة المعـــركة، فكـــيف يمكن المحافظة على حدود المزارع الواسعة سعة بلدان برمتها، وبالـــتالي كيف يمكن تربية الخوف وفرض الاحترام واستغلال الشعب؟ ومن دون الـــزحار، والخـــناق، والكـــزاز، والجوع بمعناه الحرفي، فهل يمكن أن نتصوّر عالم الأطفـــال الـــذين سينمون ويصبحون راشدين، وأجراء وعمالاً وشركاء وكتائب عديـــدة مـــن الأزلام الـــذين سيأخذون الأراضي ويتقاسمونها؟ إنهم ليسوا كهؤلاء اللـــصوص المغلوبـــيـــن علـــى أمـــرهم، والذين ينتهون في الطرقات على صوت مكـــابـــح الـــشاحنات، إنهـــا أوبـــئة ضرورية وكلية، من دونها يكون مستحيلاً الاســـتفادة مـــن صناعة القحط المربحة، ومن دونها كيف يمكن الإبقاء على المجتمع مـــنظّماً بحيث يمكن إحصاء الشعب الذي هو أسوأ لعنة من كل اللعنات المذكورة؟ تخـــيّل أيها العتيق هؤلاء البشر ذوي الصحة القوية الذين يعرفون القراءة: أي خطر مرعب هم!

– ث –

ثآليل الجذام الأسود انطلقت من الغرف المحصنة بالحجارة البيرانية الزائفة على ضـــفاف سان فرانسيسكو مبحرة من بروبريا لتستقرّ في بوكين. ولكي تختبر فعالية الأســـلحة دون أن تـــضيع الوقت أصابت الإطفائي والمهندس الميكانيكي، ولكنها نالت منهما ببطء وأعطتهما الوقت الكافي ليموتا في باهيا تغطّي نبأ وفاتهما الأخبار المـــثيرة في الصحف. بعد عدة أيام فإن برقيات آتية من منطقة الداخل تحوّلت إلى عناوين كبيرة من سبعة أعمدة على الصفحات الأولى: النخ يقتحم مرة أخرى. لماذا جـــاء وبهذا القدر من العنف؟ لم يكن ممكناً معرفة ذلك بالدقة والبراهين.. نسبت المعارضة سبب اللعنة الصماء على الرحمة إلى الاحتفالات المغرضة والتحريضية. من الآن وصاعداً يجب التعامل مع التأكيدات السياسية (المعارضة خاصة) بريبة وشك، وبتحفظ طبيعي دون أن تمنح مصداقية كبيرة، وعلى كل حال فهذا ما ورد في هذه الأغـــاني الشعبية التي تصف المعركة الخالدة الرواية التي رواها المحتفلون... ما عدا ذلـــك لا أحد يعلم شيئاً عن أي تفسير ذي قيمة، ما عدا تفسير مقياس احترازي

حقيقي يقاس به تمويه سلطات الصحة العامة للأمر، ونقصان الاحتياطات للأوبئة المجتاحة والمستوطنة في الأرياف، وابتلاع أصحاب الاختصاص لما يعرفونه؛ والرواية قد كذبت على كل حال على ألسنة المسؤولين المتخصصين! المحتفلون كانوا يتوجّهون بالتصفيق وبإظهار الامتنان العام للإعلان عن القضاء التام على الجدري الأبيض والزحار والتيفوس والبرص والأوبئة المجتاحة مستفيدين للقيام بتلك الاحتفالات من الزيارة الرسمية التي يقوم بها إلى بوكين مدير الصحة العامة في الدولة مع قافلته السعيدة.

احتفالات، ألعاب نارية، فرق موسيقية تعزف مع المسيرات الحماسية، أحاديث وأحاديث تتناول باستفاضة النيّة في تطوير المنطقة على أساس ما قد أعلن عنه سابقاً، وقبل كل شيء التطهير من الجذام الأسود وفي الحال، وفقاً لما تذكره البيانات الحكومية وإلى حدّ أن الوباء الواسع الانتشار، قد اختفى في الاحتفالات والطرقات وأركان الشوارع العريضة، والأزقة الضيقة وإلى الأبد، نظفت منطقة الداخل من الجدري الأبيض والزحار والتيفوس والأوبئة المستوطنة التي انتشرت مع الحكومات السابقة وفق معلومات الجميع. وليعش محبوبنا الحاكم العام المدافع بلا كلل عن صحة الشعب، ليعش، وليعش المحبوب مدير الصحة العامة، الموهبة الفذّة المتفانية من أجل راحة أبناء الولاية الأعزاء، وليعش أخيراً رئيس بلدية المدينة المحامي روجيريو كالداس الذي كان أقل من أكل من الشعارات الموجّهة للنضال ضد الأوبئة المستوطنة في الريف، إذ إن الشعارات كانت قد التهمتها فئران كبيرة وأحسن مركزاً، طيلة الحملة البيروقراطية وعلى طول الطريق من العاصمة إلى الداخل، ومع كل تلك القابلية في أكل الشعارات فقد بقي منها جزء كبير للإداري الغيور.

من بين الخطب البليغة، كانت خطبة رئيس البلدية المتحدث باسم السكان الكثيري الامتنان (عصابة من العاقين، المتشككين ومثيري الشغب، كانت قد أطلقت على رئيس البلدية لقب أبو التلقيحات) الخطبة الأكثر عنفاً واستنتاجاً، بالتأكيدات المطلقة التي وردت فيها، ومع القضاء المبرم على الأوبئة، فإن البلدية كانت ترتع في العصر الذهبي من الصحة والازدهار. لقد كان الوقت قد آن. وأخذ الكلمة أيضاً الشاب الموهوب الدكتور أوتو أشبينيرا الجديد في إدارة مركز

الصحة في بوكين الذي قال إنّه وكونه مزوّداً بالأجهزة والمعدات الكافية فإنه كان قادراً على مواجهة أي مرض معد، ويساعده في ذلك جهاز بشري مؤهل ومخلص في العمل، الشاب الظريف وريثٌ تقاليد وامتيازات عائلة أشبينيرا كان يهيِّئ نفسه للسياسة وعينه على النيابة؛ خطاب يفتح القابلية، فالتهموا الهتافات.

لم ينقضِ أسبوع على الذكرى الوطنية والاحتفال بالقضاء على الجذام الأسود، حتى كان الأخير قد ترجّل من قطار شحن سكة حديد ليسيّ، صدفة أو عمداً، وقضى أول ما قضى على رئيس البلدية أبو التلقيحات وكان قد لقِّب بهذا اللقب لأنه تورّط مقابل الدعم السياسي في عملية تلقيحات معقدة، تلقيحات للدواجن اختفت من البلدية وبيعت بأسعار بخسة إلى مزارعين في الجوار. كانت حقيقة التلقيحات المختفية ليست كما جاء في التقرير المتعلق بفقدانها في مركز الصحة الذي كان مجهّزاً بطريقة جيدة كما ادّعى أشبينيرا، والذنب في ذلك لم يكن ذنبه ولا ذنب أحد بالتالي ما دام قد قضي على الجدري بصورة تامة، ولأن أحداً هناك لم يسافر إلى الخارج، إلى البلاد الأوروبية المتخلفة التي ما تزال عرضة للوباء، "فلماذا التلقيحات، قولوا لي؟".

ما كاد الجذام الأسود يلقي برحاله حتى قضى في اليوم نفسه على رئيس البلدية، وجندي في الشرطة، وزوجة القسيس (الزوجة الحقيقية لا العشيقة والحمد لله)، كذلك قضى الجذام على سائق عربة وأجيرين في مزرعة العقيد سيماو لاميغو، وقد انطلق الجذام يحصد حياة الناس بدءاً بالأهم وصولاً إلى ثلاثة أطفال وعجوزاً طاعنة في السن والسيدة أورينيا بنتو التي كانت الأولى في سلسلة الموت. إلاّ أنّ تطوّر المرض لم ينتظر تفجر الجراح في الوجه واليدين والرجلين والصدر المستهلك لأنه لم يكن غبياً ليبقى مهترئاً في الفراش مع الوجع الأليم، فقد اكتفى يومها بزهرة من القيح في الصدر الواسع، وكان مشهداً بشعاً لمن يراه.

– ج –

جذام أسود خيّم منتصراً على المدينة والريف. استؤصلت شأفته؟ هراء! أليس نبخ الزنج بشحوب فقر الدم والجدري الأبيض الشائع رفيقي الشعب الدائمين. في الأحراج وزوايا الشوارع، وبالجملة والمفرق، في المعارض، يهبان نفسيهما مجاناً؟ عندما تنشف البثرات الخبيثة، فإن الجدري يصبح أشد سرياناً، في الطرقات،

والأســواق، والاحتفالات، والشوارع. تلوث جراثيم الجراح الهواء وتقود خلفها جدري الزنج كافلة له البقاء الدائم في أرياف الداخل.

الجـــذام الأبيض خطر محدود، فهو قلما يقتل كبار القوم، إنه يقتل دائماً عدواً مـــا لـــيقوم بواجبه بوصفه مرضاً، ولكن إذا ما تأخر في المنطقة ينتهي الشعب إلى الـــتعود عليه ويقيم معه قواعد التعايش، وعائلة المصاب بالجذام الأبيض لا تتلقّح، ولا تتنكّـــر ولا تأتي بطبيب وتستعمل وصفات رخيصة من أوراق الشجر، ولكنها تأخـــذ الاحتـــياطات للمحافظة على الأعين، أما الباقي فلا أهمية له! مكتفياً بتلك الأمـــور فإن النبخ يقابلها بوضع علامات على الوجه وثقوب في الجلد وينشر لعدّة أيام الحمى والوهن... ولكن أبعد من بشاعة الوجه المنقور والأنف المجدوع والشفة الشائهة، فإن الجذام الأبيض يجب أن يأكل نور الأعين، أن يعمي، كما أنه يفيد في قـــتل الأطفـــال مـــساعداً الزحار في مهمته التنظيفية. جذام تافه، أخطر بقليل من الحمـــاق والحـــصبة، ولكن في هذه المرة لم يكن هو ذلك الجذام الخجول الخفيف الـــوطأة الـــذي يصل من ضفاف نهر سان فرانسيسكو في قطار سكة حديد ليستي البرازيلية، بل كان ذلك الجذام الأسود الذي يأتي ليقتل.

ودون إضاعة وقت فقد التحق بعمله توّاً.. وبالعمل المكثف في مركز بوكين بـــدأ بتنفـــيذ المنهاج المقرّر انطلاقاً من بيت رئيس البلدية وبيت الرعية حيث يقيم الكاهن مع زوجته الشرعية. المرض اللعين على عجلة من أمره. لقد أتى معه بخطط طمـــوح: القضاء التام على سكان المدينة والأرياف دون أن يبقي على حي ليخبر عـــن الحـــدث. وبعد عدّة أيام تمّت ملاحظة النتائج الأولية: معاينة الموتى، الدفن، نعوش الأموات، لطم وبكاء.

حكـــاك، يـــصبح الجسم بعده مكسواً بالثآليل، ثم تتحوّل الثآليل إلى جراح مفتوحة وترتفع الحمى وتتحوّل إلى احتراق فيسيل القيح ليغشى العينين، ووداعاً يا ألـــوان العالم؛ ويتمّ تجهيز كل شيء لتكفين المصاب بعد أسبوع من إصابته؛ متسع من الوقت للبكاء والصلاة. وفيما بعد قلّت الصلوات ولم يعد من وقت لها.

ســـريعاً ومفترساً انتشر الجذام في كل الحي السكني، ووصل يوم السبت إلى موريكابيبا مقيماً في البيوت المنتشرة خارج المدينة حيث يعيش أفقر الفقراء، ومنهم العاهـــرات القلـــيلات ذوات المهنة المحدّدة والمقيمات في شارع كانكرومولي. ففي

بوكين المدينة الصغيرة المتخلفة ذات الدخول المحدودة، فقط نصف دزينة من نساء الحـــياة العامة كنَّ قد تفرّغن للدعارة وسكنّ المنطقة هناك، أما الأخريات فقد قمـــن بأعمـــال الفراش إلى جانب أعمال المطبخ وغسل الملابس، هذا دون أن تدخل في الحساب خياطة جميلة ومعلمة ابتدائية شقراء ذات نظارتين جاءتا معاً مـــن أراكاجـــو وكلتاهما مرتفعتا الثمن ودون قدرة الأكثرية فبقيتا وقفاً على الوجهاء.

المـــيدان ملائـــم: مستنقع المياه العذبة الملوث، التجيّف، النّفايات، لذا ازدهر الجـــذام في موريكابيـــبا معزّزاً قوته في المعركة التي ابتدأت منذ فترة قصيرة. كان الأطفـــال والكلاب يقلبون جبال النّفايات بحثاً عن الطعام، وبقاياه على طاولات مركـــز المدينة؛ النسور الكواسر تحلّق فوق الأكواخ حيث كانت العجائز المسنّات يتلهين عند المساء بقتل القمل وهي التسلية الوحيدة والمثيرة، الرائحة تفوح في الهواء ملوثة مصيبة بالعدوى... بالنسبة إلى الجذام: إنه العيد..

وســـكتت في مجتمع الفقر الأغاني الشعبية وأنغام الهرمونيكا والكمان، وكما حـــدث في المركز، في شوارع الوجهاء، كذلك في موريكابيبا، فإن أوائل المنتقلين إلى رحمة الله تمّ دفنهم في المقبرة وفيما بعد كان ما كان...

- ح -

حي على خير العمل...

بالإضـــافة إلى محـــضِّر الأرواح ماكومبيرو أغنيليو، في صومعته المقدسة، في موريكابيـــبا والمـــشعوذة أردوينا، وكلاهما من أصحاب الزبائن الكثيرين والشهرة العريـــضة، فقد كان يعتني بصحة السكان في بلدية بوكين طبيبان: الدكتور إيفالدو ماســـكارينياس والدكتور أوتو أشبينيرا والممرضة غير المجازة جورسسي التي هربت مـــن أراكاجو وأصبحت شديدة اللهفة إلى العودة... وكذلك مكسيميانو، الملقّب بماكـــسي الـــزنجيات، فبالإضافة إلى كونه ممرضاً فقد كان، مراقباً، ورجل ثقة في المركز الطبـــي، والصيدلي كميليو تيزورا "المقص المسنون"، هو الآخر ذو سمعة في الطـــب مـــشهود لها، يتفحّص الوصفات ويصف الأدوية ويقرِّر حياة الآخرين من شرفة صيدلية الرحمة.

كان الدكتور إيفالدو ماسكارينياس، بتشخيصه ووصفاته المحدّدة، وقد تجاوز السابعة والسبعين من عمره يتوقف لزيارات المرضى، نصف أصم، وأعمى تقريباً، وعاجزاً عن فهم أمور الصيدلة. وعندما ترجّل الجذام الأسود من قطار ليسيي فإن الطبيب الصيدلي لم يندهش، فهو يعيش في بوكين منذ خمسين عاماً وقد سمع أكثر من مرة، وعلى لسان السلطات الحكومية بخبر استئصال شأفة الجذام، وكل مرة كان يرى الجذام عائداً وهو يتأبّط ذراع الموت.

أما الدكتور أوتو أشبينيرا المتخرج من كلية الطب منذ عام ونصف والشاب العصري، فلم يكن قد نال ثقة السكان في بوكين بسبب السن (لم يكن قد بلغ الثلاثين ولكن شكله كان يوحي أنه في العشرين: ذقن خفيفة، شكل فتى صغير، ووجه لعبة) وبسبب كونه عازباً يصاحب فتاة عامة، ومثل هذه الأمور تعدُّ فضائل بالنسبة إلى المحامين، وأخطاء بالنسبة إلى الأطباء؛ ومن السهولة معرفة الأسباب المنطقية، ولكنه لم يكن يقلق لعدم وجود زبائن، فهو من عائلة ميسورة وذات امتيازات خاصة، وقد عُيِّن طبيباً في الصحة العامة ما إن أنهى دروسه في الكلية، وهو يقوم في بوكين بمرحلة التدرج لمدة ستة أشهر، دون الحاجة إلى يوم إضافيّ واحد، هي الوقت الدقيق اللازم للترقية؛ ولم يكن الطب يغويه بل تداعب مخيلته نوايا أعلى من نوايا أطباء الريف: اقتحام ميدان السياسة بأن ينتخب نائباً فدرالياً ثم يمتطي الحكم ويضرب رحاله في الجنوب حيث يمكن أن يعيش حياة مرفهة، في حين أنه في منطقة الداخل ينمو بلا إرادة منه، كبعض النباتات، على حدّ تعبير المجربين من أهل الحياة الحلوة، أو وفق ما يقوله الأطباء المؤهلون أو البسطاء الخبثاء.

عندما أخذ علماً بحالات الجذام الأسود الأول في المدينة، وقع متخبّطاً في الهواجس: كان قد صدق الخطب الاحتفالية، ومعالجة الجدري ومحاربته، ولكنه تذكّر بشكل غامض جداً بعض تصريحات أساتذة كلية الطب. مقابل ذلك كان عنده رعب من الأمراض بشكل عام، ومن الجذام الأسود، بشكل خاص، هذا المرض المخيف الذي عندما لا يقتل فإنه يشوِّه؛ وتخيّل وجهه متآكلاً، ذلك الوجه الأسمر المستدير المغري الذي هو العنصر الأساسي في نجاحه مع النساء... فهو لن يستطيع أن يحصل على واحدة منهن تستحق العناء إذا أُصيب به.

في سنوات الدراسة الجامعية في باهيا اعتاد على معاشرة الفتيات العاميات وهكذا، عندما كانت تريزا باتيستا قد عادت من رحلتها الفنية في الأغواس وبرنامبوكو، فقد ظهرت من جديد في أراكاجو (حيث كان الدكتور هارباً لعدة أيام من بوكين بحجة مناقشة مشاكل الصحة العامة المحلية مع الزعماء والمديرين) مسافرة وحدها بلا حقائب، ومتفرغة، فقد تعرّف عليها وراح يغازلها، أما أنيدا التي كان قد أتى بها من باهيا رفيقة مسلية في رحلات الشوق، فلم تستطع أن تتحمل الهدوء في منطقة الداخل أكثر من عشرين يوماً.

وكانت تريزا تسير مطأطئة الرأس، منهمكة، لا تجد في أي شيء رضى أو تعزية.. حتى تغيير المناخ ومنظر الأراضي الجديدة، والمدن المجهولة وكنائس بينيدو وشواطئ ماسيو ومعرض كاروارو وجسور ريسيفي والتصفيق لملكة السامبا، والقلوب المستسلمة لها، والتنهدات المولهة، والعروض والتصريحات، كلها لم تستطع أن تكون دواء لآلامها، وبالقدر نفسه لم تفعل بعض الأزمات التي كانت تتدخل فيها كعادتها في مواجهة الظلم، متدخلة في ما لا يعنيها، رغبة منها في تخفيف آلام الآخرين، وهي لا تستطيع أن تخفّف من وجعها! فالويل من الوجع المستوطن في الصدر!

هذه المرأة المتدخلة في ما لا يعنيها ولدت لتكون رجل دين أو سلطة لتزعج الآخرين في أفكارهم. قال المتشرِّد ماريتو فارلينيا في الأغواس إنّه عندما وجد نفسه بصورة غير متوقعة خاوي الوفاض، جاءت تريزا تشجِّع رفيقته المنتحبة أليزتا وتعطيها المال لنفقات الولادة. وبلهجة ركيكة رطنة لقبها بتريزا العناية الإلهية بعض المخدّرين الذين واجهتهم تريزا في إحدى الليالي على شاطئ ريسيفي وتصدّت لسورة الغضب التي أصابتهم.. كان فضول إحدى الشابات قد تحوّل إلى خوف فاستنجدت بمساعدة العناية الإلهية بصرخات استغاثة سمعها الكثيرون من الناس ولكن أين هي الشجاعة لمواجهة عصابة الأنذال ذوي السمعة السيئة؟ من الأفضل عدم التدخل، فهذه المسائل خطيرة، نصح المتحفظون الحذرون الموجودون في السهرة، ولكن تريزا لم تكترث بالتحذيرات، وإذا الأشخاص القذرون قد بدأوا، وبحركات الهزء والوقاحات والشتائم التي لا مبرّر لها: "انظروا إلى العناية الإلهية حارسة توأمها، المصطادة في الماء العكر"، وانتهى الجبناء إلى ترك الفتاة المحرجة التي

كانـــوا يزمعون على الاعتداء عليها، واختفوا مع قذاراتهم، كل ذلك لم يكن تعزية لتريـــزا في حـــزنها الدائم: فلا النـــزهات ولا الإباحية ولا الرحلات الطويلة، ولا العوائـــق الكـــثيرة كانت تستطيع أن تقتل الحنين الذي يستوطن في صدرها، ففي البحر وعلى اليابسة يطاردها ظل جانواريو جيريبا الذي اختفى عند الفجر وعادت تريزا منكسرة الخاطر لا طاقة لها على شيء..

فلوري باتشولا الصديق وصاحب ملهى باريس الليغري كان هو الآخر يجتاز مـــرحلة من القلق والهموم فيما يتعلق بسير الأعمال: حركة ضعيفة ونقص عام في العائدات المالية، وليس من إمكانيات للتعاقد في الوقت نفسه مع نجمتين لحلبة الملهى المـــضاءة؛ اثنـــتان، أجل، إذ إن الأعمال التي كانت تسير بشكل سيئ كانت من الناحـــية الغـــرامية والإباحية تسير بشكل جيد: كان قلبه يخفق أملاً بوجود الفنانة الجديـــدة راشيل كلاوس ذات الشعر الأحمر الطويل المتعثكل، والعنق المتعدد البثور الـــذي بفـــضله تمكّن فلوري باتشولا من أن يتغلب على غرامه اليائس لتريزا، فهو خـــلال أشهر متتالية استهلك آلام الانحناءات اللطيفة، وتوجّه بعينيه المتوسلتين إلى فـــتاة الـــنحاس يسألها ويرجوها بينما هي دائمة اللطف والتعقل تستنكر الخضوع للامتحان الجنسي. ومن الأحزان والاكتئاب والمشاعر الثقيلة الناتجة عن تخلي تريزا باتيـــستا عن العمل، وعن مغادرتها المكان، تم إنقاذه في الوقت المناسب مع وصول راشيل كلاوس إلى المدينة، مغنية البلوز، الجنوبية الباردة، المرشحة لتقديم عروضها في بـــاريس الليغـــري وللاستدفاء بين ذراعي السيد الكئيب: مخلوقة من جديد من رمـــاد تريـــزا. والآخـــرون، أميغو؟ الشاعر سارابيفا كان يجتاز سيراً على الأقدام الداخل تفتيشاً عن مناخ أفضل ليموت فيه، والرسام جنر أوغوستو ذهب إلى باهيا لـــيقطف المجد، والطبيب جراح الأسنان جميل نجار قد خطب وكان سيتزوج من غنـــية وارثـــة كان قد أجرى عليها خمس عمليات أسنان كبيرة. أما لولو سانتوس وكـــان الأحبّ بين الجميع إلى تريزا فقد سقط ميتاً بشكل مفاجئ غير مألوف في المحكمة القضائية بينما كان يدافع عن أحد حملة المسدسات في منطقة الأغواس.

وفي أراكاجـــو وجـــدت تريزا نفسها بلا أصدقاء أو عمل، محبطة المعنويات، وطـــريدة تلاحقهـــا عـــروض ذلـــك الثري الذي أشير إليه سابقاً، أغنى رجل في سرجيبـــي حسب آراء المتخصصين في ثروة الآخرين والصناعي والسيناتور، وزير

النـــساء... وبدا ملحاحاً لأنه غير معتاد على الانتظار للحصول على رغباته، وغدا تصرفه غير لائق وهو يهدد بجعل حياتها جحيماً إذا لم تستسلم لوعوده الكريمة على كـــل حال. و لم تكن القوادة فنراندا تترك لها مجالاً للموافقة أو عدمها:"فقط مجنونة هاربة من مستشفى الأمراض العقلية ترفض حماية الوجيه".

مجنونة من مستشفى الأمراض العقلية وفي البيت الذي لا حول له ولا قوة ومع الـــسحنة التي لفتت انتباهها قليلاً في الطبيب الشاب المتحدث اللبق، الحسن المنظر، ومـــع قرارها النهائي بعدم الاستسلام لرغبة أب الوطن، لأنّها لن تخاطر بعد اليوم بـــصحبة رجل كبير السن، قررت تريزا أن تقبل دعوة الطبيب الصغير لمرافقته إلى بـــوكين دون أي اتفاق على مدة الإقامة، أو على المطارحة الغرامية، والخوض في مغامرة قليلة النتائج.

ومع أنها لا تنتظر رؤية جانواريو جيريبا قبطان المركب الشراعي الذي ربما يكون قد وجد بديلة عنها في مرفأ أراكاجو، وراح قلبه الميت يلد من حرارتها مـــن جديد بحب لا أمل فيه كأنه الخنجر المطعون في الصدر، فإن تريزا باتيستا تحتفظ له بنوع من الإخلاص الاستثنائي، ولا تحاول أن تقيم اتفاقاً على ارتباط أو صـــحبة رجـــل آخـــر قد تهدد في أن تكون ذات طابع نهائي... مجنونة من مستـــشفى الأمراض العقلية؟ أجل يا فنراندا، ولكنها حرّة في أن تبحر إلى أي مكان إذا اقتضى الأمر.

- خ -

خطـــوبة، فـــزواج، أمر لا بد منه إذا عاد وحيداً إلى منطقة الداخل، وعلى الأخـــص مع رغبات الأمهات القوية في التفتيش عن صهر؛ مازحها أوتو أشبينيرا بـــذلك وهو يدعوها إلى أن تنقذه مما لا نيَّة له فيه. و لم يعدها بغير العطلة المريحة... وإذ كان قد عيّن موعد الرجوع إلى بوكين وسمعها تقول إنها كانت تعبة من المدن الكبيرة كريسيفي وماسيو وأراكاجو وأن في نيتها أن تسافر إلى الداخل، فقد عرض علـــيها في الحال أن ترافقه في فترة نقاهة قائلاً: "إن بوكين هي الهدوء التام والسلام المطلق ولا يحدث شيء هناك سوى مرور القطارات اليومية، قطار إلى باهيا والآخر إلى أراكاجو وبروبريا".

بهـــذه الطريقة يكون في حالة ملائمة من الناحية النسائية، فهو لن يجازف بعلاقة مـــع صـــبية متـــزوجة في المدينة الميتة، يرى نفسه خطيباً بصورة غير متوقعة، والأطباء أصـــحاب حظوة كبيرة في سوق الزواج المزدهر، ولن يكون مضطراً إلى معاشرة بنات الهـــوى المريضات، إذاً فهو لن ينتهي بالمثول أمام القاضي والكاهن ولن يصاب بمشكلة مرض الزهري، وبطيبة وجهه الأسمر وبكلامه المنمق الجميل، فإن الطبيب قد ذكر تريزا بـــدان الذي كان أول من أحبت تريزا وأعطته نفسها كلياً، ولكن دون أن يقدّر ذلك لأن دانـــيال كان منحلاً فاسداً منحطاً لا مثيل له، كذاباً ومزوراً، كحجر الخاتم الذي باعـــتها بـــه العمة فيليبا إلى النقيب. كانت الذكرى المحزنة قد جعلت تريزا تتردد لدى تلقـــيها الدعوة، ولكن مع كون أوتو أشبينيرا متحدثاً لبقاً وذا مظهر أخاذ. فإنه كان متناقضاً مع دان وعكسه تماماً بطبيعته المرحة وتصرفاته الصريحة ووعوده القليلة وانتهت تريـــزا إلى القبول. مع كونه جباناً خبيثاً فإن دان قد أظهر نفسه بمظهر الطيب الشجاع الـــشريف والمستقيم، وأقسم لها بحبّ أبدي ووعدها بأن يأخذها معه إلى باهيا ويحررها مـــن عـــبودية المسطرة الكبيرة وسوط الجلد الخام، ولكنه في الحقيقة كان مستعداً أن يتـــركها تغـــرق دون أن يـــستأذن منها على الأقل. لقد عرفت كل هذه الأمور في الـــسجن، ولم ينقـــصها من يخبرها بالحقيقة ابتداء من غابـــي.. أفلم تسمع قراءة إفادة دان في المحكمـــة؟ إنـــه مدافـــع عـــن نفسه بشكل مثير لا مثيل له، فقد اتهمها بالمكر والإجرام، وأكد أنها كانت هي الداعرة الفاسدة التي أخذته إلى غرفة نوم النقيب بحجة حمايـــته مـــن المطر، وهناك عرضت نفسها بإغراء! وكون دانيال ليس من حديد فقد حـــدث ما لا مفر منه بعد أن أقسمت له اللئيمة أنه لم يكن بينها وبين النقيب منذ سنة أيـــة علاقة جنسية، وأنها لا تعدو كونها خادمة ولا شيء أبعد من ذلك؛ ولو أن دانيال عـــرف أنها ما تزال عشيقة جوستينيانو، لكان تنكر للعرض الملح كونه صديقاً للنقيب ويحتـــرم المـــسكن الشخصي وملكية الغير. كانت تريزا قد عاشت في تلك المدة الألم الكـــبير، ولكـــنّ أكثر ما آلمها وساءها في تلك المرحلة المعيبة، كانت قراءة الإفادة التي أدلى بها دانيال، حتى الآن لم تعرف إلا القوم السيئين ولكن دانيال فاق الجميع سوءاً إنه ربما أكثر مدعاة للاشمئزاز من النقيب نفسه.

لذلك فإنها في السجن انقلبت إلى حشرة متمددة في غرفة ذات فراش أرضي، مقفلـــة علـــى نفـــسها، ولا تـــثق بأحد. وعندما ظهر لولو سانتوس مرسلاً من

سرجيبـــي من قبل الأستاذ فإنها لم ترد الإصغاء إليه واعتقدت أن اللّسن واحد من الآخرين، ومن في عالم الوجع والجبن يمد يد المساعدة؟ ثلاثة رجال اجتمعوا عليها مدججين بالسلاح، وجنديان ورقيب، ليأسروها! وحتى المحامي الذي أرسل إليها لم يتمكن من إخراجها من السجن، فأدخلها إلى الدير وأوكل بها إلى الراهبات لإعادة تأهيلها.. ومع ذلك استمرت تريزا تشكك في نوايا لولو لأنها تنتظر طويلاً دون أن يفي بالوعود التي وعد بها، واللّسن، تستراً ما عاد يتلفظ قط باسم الأستاذ.

فقـــط في زمن الأستاذ الذي كانت في البدء تشكك به أيضاً، كان على تريزا أن تـــستعيد الـــثقة بالحياة والكائنات البشرية. لماذا قبلت بأن تذهب مع إميليانو غـــويدس عندما ذهب ليأتي بها من منـــزل غابـــي، وبينما يأخذ بيدها، قال لها: "انـــسي ما حدث، والآن ستبدئين حياة جديدة!" هل كان ذلك لتهرب من طابور الـــزبائن الـــذي كان يزداد كل يوم، ومن دون انقطاع؟ لو أنّ ذلك هو السبب فحـــسب لكان بإمكانها أن تفعل ذلك من قبل، عندما راح ماركوس ليموس كل يـــوم ودون اســـتثناء يعرض عليها شيئاً واحداً وهو أن تذهب معه لتعيش عشيقة متحـــررة من الزبائن. مرة واحدة وهي ما تزال في المزرعة كانت قد رأت الأستاذ، ومـــع ذلـــك فإنهـــا لم تناقش و لم تستوضح لماذا؟ ألأنه من بين كل الرجال الذين عـــرفتهم كان الأكثر جاذبية؟ لم يكن أكثر من دان حسناً، ولكنه كان أكثر هيبة يمتلك قدرة داخلية هي بالنسبة إلى تريزا رجاء لا تستطيع تحديده أو تفسيره؟ ألأنه كـــان ذا قوة في الأمر وزعامة في مجاله؟ لماذا؟ تريزا لم تعرف قط: فهي على الرغم من الخوف من أن تنخدع مرة أخرى فقد رافقته و لم تجد أبداً سبباً للندم، فنسيت الماضـــي وابتدأت حياة جديدة مثلما قال لها، ومع الأستاذ تعلمت في ما تعلمته أن تتصرف دون أحكام مسبقة.

هكذا استطاعت تريزا أن تحكم على الطبيب أوتو أشبينيرا فهو، خلافاً لدان لم يكن يستعمل الشفة المغرية ليجتذبها واعداً إياها بالسماوات والأرض مع ملاطفة دائمـــة وحنان عميق ومطول؛ و لم يتحدث عن الحب، لقد دعاها فقط إلى ذهاب ممـــتع، إلى رحلة بسيطة في منطقة الداخل ربما كانت مسلية. ولأنه وعدها بالقليل انـــتهت تريزا إلى القبول. فلن تكون عندها أسباب لصدمة جديدة، ولأنها لم تكن تغـــذي الأوهـــام مع رفيق الدرب، الظريف، اللطيف، ولأنّه كان يساعدها على

مغـــادرة أراكاجـــو هاربـــة من الطوق البشري حولها ومن توسلات وتهديدات الصناعي المليونير الكبير الذي كان يرسل إليها بإغراءات المزرعة والمصانع والجواهر الثميـــنة، وأعادت تريزا اللطافات والعروض بحجة أن الأستاذ إميليانو لا يحب أن يراها في فراش السيناتور وبين يديه.

– د –

دون أن يبدو على الأستاذ أنه كان معلم تريزا، فقد لفت انتباهها عند سكينة المساء إلى تفاصيل البناء الدقيقة والهندسة الرائعة لدار قديمة كانت موجودة في مدينة أشتانسيا منذ زمن الاستعمار، ولكن الدار المصبوغة كلها بالأزرق أصبحت شوهاء بفعـــل الـــزمن والإهمال، وقصد الأستاذ بذلك أن يجعل تريزا تستوعب ما لم تكن قـــادرة وحدها على التعرف إليه وتقديره؛ وما عاد الأستاذ يبقي على تريزا مخفية، بل على العكس فقد أخذ يتعمد الظهور معها وهي إلى جانبه.

عـــبر الـــصناعي الذي لم يكن قد انتخب سيناتوراً بعد، الطريق بخطوة وئيدة وقامة قصيرة وشعر مسرّح، معتنى به، ليسلم على الأستاذ إميليانو غويدس، وتأخر في المحادثـــة بكلمات غير مستقرة خيالية، وهو يعري تريزا بعينيه الشبقتين، فقطع الأســـتاذ المحادثـــة بلباقة مختصرة، وبنبرة ذات وتيرة غير مبتذلة، فبادله إياها الآخر بحـــركة تعبيرية تاركاً تريزا على هامش اللقاء كأنه لم يرد أن يلمسها بغير رؤوس أصـــابعه، وبجملة واحدة، وبكلمات وبحركة ثري متعال، وعندما شاهده الأستاذ ذاهباً علّق بقسوة مراقبة:

– إنه مثل الجذام الأسود يقضي على كل ما يلمسه، عندما لا يقتل فإنه يترك بصماته؛ إنه جذام أسود معد. وهرباً من عدوى الصناعي المكروه جاءت تريزا إلى بـــوكين ضمن أمتعة طبيب مركز الصحة العامة، متقنعة بقناع فتاة هوى، في حين أن الجذام الأسود الآخر، الجذام الحقيقي كان قد حطّ رحاله هناك لإفناء الشعب.

أســـوأ من التعفن والموت هي الحياة مع إنسان آخر لا تربطها به إلا المصلحة المالية. إن ممارسة العهر لا تفرض موجبات ولا تستدعي الخجل ولا تترك بصمات، أمـــا الممارسة الأخرى، حياة العشيقة والبقاء الدائم إلى الطاولة وعلى الفراش، ومع أكاذيـــب العشيق وتباهيه فإنها مسألة مختلفة تماماً... "صديقة" كلمة جميلة تعلمت

معـــناها مع الأستاذ، صديق وصديقة، فقط أحست بذلك وبصورة تامة وهي مع الأســـتاذ غـــويدس. ولم تكن لها صداقة مع أي رجل آخر، حتى مع أوتو أشبينيرا الدكـــتور الصغير ذي المعرفة القليلة والخبرة المحدودة... "إيه، جانواريو جيريبا أين تسير؟ صديقي، حبـــي، لماذا تتركني أنطفئ في مسافات العفونة؟"

– ذ –

ذهـــبت تريـــزا بعلاقتها مع الدكتور أوتو أشبينيرا مذهب المعايشة السطحية التي قـــضت علـــيها الأحداث بعد قليل، هل كان ذلك مخجلاً؟ لا، ولم يكن ذلك حباً... فكـــرت تريزا وحيدة بمواجهة الجذام الأسود المنقض كأنه القضاء والقدر، وأن تكون الأمور كذلك فأفضل من العقاب الذي تحسه في الفراش الخطأ؛ إنها لا تشاركه الفراش بوصـــفها عاهـــرة أو عشيقة... إنها عاجزة عن الرفاهية الجنسية المحض، ولكي تعطي نفسها بانسجام وتفتح نفسها للرعشة، فإنها كانت تحتاج إلى الكثير من العطف العميق والحب، وحين تشتعل فيها الرغبة وتصبح هذياناً وحمى فلم يكن من امرأة كتريزا.

كانت جد مخطئة في أراكاجو عندما توهمت أنها ستجد متعة وفرحاً في فراش الطبيب الصغير ذي وجه اللعبة، الحسن، اللئيم، والذي لم تحس قط بأية خفقة قلب تجاهـــه؛ لقـــد توقف قلبها عن الخفقان منذ أن انطلقت الطوافة فنتانيا حاملة على متنها المعلم جانواريو جيريبا إلى مرفأ باهيا. حرّة كالهواء، ولكن البحار كان يحمل في يديه الأغلال وفي رجليه القيود. لقد جاءت تريزا مع الطبيب هرباً من تهديدات الثـــري الكـــبير وتجنباً للاضطهادات، وحتى لا تتعرض من جديد للضرب والجلد معـــتقدة باحـــتمال هدوء العاصفة دون أن تترتب عليها واجبات أو أية اتفاقيات كـــبيرة. وكـــان من الأفضل لها لو أنها عادت إلى ماسيو أو ريسيفي لممارسة مهنة امـــرأة عامة، ولم تنقصها عروض كهذه في رحلتها، فإن صاحب فنادق وسيدات بـــيوت العزّاب والقوادات بأعداد غفيرة كن خلفها، ورفضت العروض محاولة أن تعـــيش بعائـــدات عملـــها كراقصة، ولكن، في الملاهي، فإن المرتبات بخسة وشبه رمزية، والراقصة ليست أكثر من عاهرة أغلى سعراً وأقل شهرة، لأنها تتلطى وراء الرقصة والأغنية اللتين تؤديهما؛ ومن السخف أن تسعى إلى العيش مستخدمة لقبها كفنانة وكفي اليدين للحصول على الأكثر من المال الحرام.

في أراكاجـــو كان فلوري يدفع لها مرتباً فوق العادة على أمل إقحامها بالتولّه المجـــنون. وهو الآن يفعل الشيء نفسه مع راشيل كلاوس ويخسر مالاً. ولكنه في هـــذه المرة يدفع ويأكل على الأقل؛ خلال رحلتها كان أصحاب الملاهي يعرضون علـــيها أجوراً متواضعة، ولأنّها كانت تعدها قليلة فقد كانوا ينصحونها لاستكمال المـــرتب المطلـــوب بما يجود به رواد الملهى الكرماء: لقب فنانة واسمها على لوحة الإعلانـــات الـــصحفية، مـــا يعطي المرأة قيمة أكبر، والنساء القادرات على إدارة شـــؤونهن بشكل صحيح، يشعن في الملهى النجاح ويحصلن على عائدات مرتفعة.. وهكـــذا كـــان على تريزا أن تمارس الحياة العامة، مع أناس آخرين، مع تعب يؤلم جسدها، وحنين يأكلها من الداخل.

لـــماذا فكـــرت في أنه كان ممكناً أن تكون سعيدة مع الطبيب الصغير، وأن تحس بالمتعة وهي تتمدد معه؛ لماذا ظنت فجأة أن بإمكانها أن تمنح نفسها رغبة ولذة؟ لقد رأته جـــذاباً، فظنت أن باستطاعتها أن تطفئ برفقته ذكرى قبطان المركب الشراعي محاولة بـــذلك أن تنتـــزع الخنجـــر المغروس في صدرها... حب بلا أمل، وكانت تحتاج إلى الخـــلاص منه.. من السهل التفكير لكن التنفيذ مستحيل؛ لقد كانت تحمله في جلدها وقلبها، إنه يلفها ويجعلها غير قابلة لأية رغبة أو شعور. السخيفة، ذات الرأس الفارغ...

عـــندما تمـــددت في بـــوكين مع الطبيب الصغير، وعندما أخذها بين ذراعيه أحست بالبرد، لأن معطف الثلج ذاك يغطيها في فراش الدعارة، ويحاول أن يجعلها دافـــئة وهي بعيدة، تبيع الجمال والخبرة ولا شيء آخر... إنها بلهاء، قالت لنفسها، كانـــت تأمل في أن تكون قادرة على الاستئناس وعلى الشعور باللذة التي تطلع من رؤوس الأصـــابع وتـــؤلم البطن والصدر وتجعل الجسد والقلب ينسيان طعم الملح ورائحـــة البحـــر وصدر الرخام، السخيفة ذات الرأس الفارغ، ألف مرة سخيفة، الجسد بارد وبعيد، ويكاد يكون عدوانياً لشدة انكماشه، كأنها عذراء من جديد، ولهـــذا فهـــي تحظى بالتقدير أكثر من سواها... أما الطبيب فكالمجنون: "لم أرَ قط امـــرأة ضـــيقة إلى هذا الحد ولا يمكن لأية عذراء أن تقارن نفسها بها؛ شيء أكثر إثـــارة مـــن هذا لا يمكن أن يكون". بالنسبة إلى تريزا كانت المسألة هي الإزعاج التقلـــيدي الـــدائم: "آه كـــيف أمكنك أن تفكري هكذا أيتها البلهاء... آه منك جانواريو جيريبا يا من أقفلت إلى الأبد صدري وقلبـــي وعواطفي".

- ر -

رغبة الطبيب المتقدة لم تعد تتحملها تريزا، ففي كل لحظة ودون كلل وفي أية ساعة من اليوم كان الطبيب يرغب ويدعوها إلى الفراش معتقداً أنها كانت تشاركه وتبلغ معه تلك الأمجاد الجنسية. هكذا كانت مع النقيب الذي اتخذها عبدة في تصرفه دون أي اعتبار للساعة والمناسبة والمكان. ولم يكن لدى الطبيب شيء آخر يفعله في بوكين، ولم يكن ينقصه السبب الوجيه الذي يتذرع به، كونه مديراً لمركز الصحة العامة: "لنقتل الوقت احتراقاً يا ملهبتي الرقيقة"... ولو عاد الأمر إلى الطبيب لجعل ليلته تمتد طيلة اليوم وهما يقيمان في الفراش دون أية قابلية أخرى أو عمل آخر ما عدا الجوع. كان يعتقد أوتو أنه جوع يمسك بالاثنين في حين كان يمسك به وحده، فبالنسبة إلى تريزا كان الأكل واجباً متعباً. ولكن كيف تقول له "إني ذاهبة الآن، ولا شيء يلزمني هنا، وإني متعبة من التمثيل، ولا شيء يتعبني أكثر منك، فقد جئت رفيقة بخدعة محزنة، وأستطيع أن أكون عاهرة، ولكني لا أعطي نفسي صديقة وعشيقة؟" كيف تقول له إنها إذا كانت قد قبلت بالمجيء، وإذا كان يعاملها بلطف وببعض الأساليب الراقية الناتجة عن الرفاهية مما يجعله أقل مثاراً للهزء، فقد قبلت دون قيد أو شرط؟ كيف تتركه هنا في المدينة الصغيرة دون أية تسلية، ودون أي شيء لملء الوقت؟ كان عليها أن تفعل، مع كل ذلك، ولم تعد تستطيع أن تتحمل القناع على الوجه المختنق.

دام ذلك أربعة أيام هي الوقت الذي تفجرت فيه البثرات المتدملة في المدينة المغزوة، المحكوم عليها بالموت.

- ز -

زين البارات، يافطة بدائية معلقة فوق باب المشرب الوضيع الذي يستحق أكثر من إعلان كهذا على قطعة من الخشب خربشت عليها الأحرف بالحبر الأسود، والمشرب مع ذلك لم يكن مضاءً بالضوء الكهربائي، بل بواسطة مصباح آلي شاحب النور.

بعـــض الرجال يشربون الكاشاسا ويمضغون عجينة التبغ برفقة امرأتين كانتا تبدوان جدة وحفيدة، ولكن العجوز غريغوريا والصغيرة كابريتا الضعيفة وهي في مقتـــبل العمـــر، كانتا في الحقيقة فتاتي هوى بانتظار الزبائن؟ بانتظار نحاسية مهما كانـــت قيمـــتها ضئيلة، فهما لا تحصلان يومياً على زبائن، تجاوز الباب زكرياس الفتى الأجير في الأراضي المجاورة، وفي مزرعة العقيد سيماو لاميغو. ثم أسند ظهره إلى الـــبار بينما القنديل يضيء وجهه. فرفع ميسو سيد المكان السبابة والوسطى في تساؤل أبكم.

– إصبعان من الكاشاسا الصافية.

صـــبّ ميسو الكاشاسا على حساب العامل الأجير الذي كان يمتحن الصغيرة الواقفة عند الحائط، لقد جاء من أجل أن يجندل فتاة هوى، وهو لم يفعل ذلك منذ شهر لقلة الموارد، مسح فمه بظاهر يده قبل أن يرتشف العرق؛ هبطت عينا ميسو من الوجه إلى يد الزبون... رفع زكرياس الكأس الكبيرة، فتح فمه، فبانت البثرات بـــصورة أوضح فوق الشفتين وتحتهما؛ ويعرف ميسو الجذام الأسود بشكل أكيد، فلقد أصيب بأسوأ أنواع الجدري وهو نبخ الزنج، ونجا بحياته، ولكن آثار المرض ما تـــزال تسم وجهه وجلده وكل جسده؛ أفرغ زكرياس الكأس في جوفه، ووضعها علـــى البار، ثم بصق على الأرض، فدفع ثم عادت عيناه تحدقان في الصغيرة. تناول ميسو قطعة النقود وتكلم:

– لا تـــواخذني علـــى إساءة السؤال، ولكن هل يعرف الصديق أنه مصاب بالجذام الأسود..

– الجذام؟ الجذام الأسود، لا شيء من هذا... إن ما تراه ليس أكثر من بعض الثآليل.

كانـــت العجوز غريغوريا قد اقتربت من العامل وفي رأيها أنه إذا لم يعجب بالصغيرة فقد يختارها هي وقد أصبح من الصعب أن تتدبر زبوناً في اليوم... ولكنها عندما سمعت ميسو، تأملت في وجه الشاب، وهي الأخرى تفهم الموضوع أيضاً إذ إنها كانت قد عاصرت انتشار الجدري دون أن يصيبها المرض، ومن يدري لماذا؟

"لا شـــك"، قالت، "إنه الجذام الأسود". ابتعدت مسرعة إلى الباب وأخذت الصغيرة كابريتا من ذراعها وذهبت بها معها.

لكن زكرياس ما زال يطالب:

– إيه، إلى أين تذهبان؟ تعالا إلى هنا، اللعنة.

اختفت المرأتان في الظلمة. قرّب العامل وجهه إلى الرجال وهو يحني رأسه، ويمضغ التبغ، وقال للجميع:

– إنها ثآليل، شيء لا يذكر...

– "بالنسبة لي هو الجذام الأسود"، أجاب ميسو "ومن الأفضل أن تذهب حالاً إلى الطبيب وترى إذا كان لديك الوقت الكافي بعد".

جال زكرياس بنظره في المكان الصغير فوجد الرجال كلهم صامتين، وعاد يتأمل في يديه، فارتجف، ثم خرج من الباب... من مسافة بعيدة كانت العجوز غريغوريا تشد بقوة الفتاة كابريتا التي تقاوم دون أن تعرف السبب الذي جعلها تمنع الصغيرة عن التجاوب مع الشاب وتربح بعض المال الذي يزداد شحاً كل يوم، ولأنه ليس الوقت المناسب لاحتقار زبون ما... بين أديم الأرض واتساع السماء الساطعة النجوم، رائحة العفونة، زكرياس المنحني وهو يسير مسرعاً باتجاه مركز المدينة.

– س –

سنّ القانون ليطاع، قانون وتوقيت: هذه هي القاعدة.

كان توقيت مركز الصحة مبيناً على الباب، واضحاً للنظر: من التاسعة صباحاً حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً، ومن الثانية وحتى الخامسة مساء. نظرياً، فإن جوراسي مثل ماكسيميانو لم تكن تتحمل الإزعاج في أثناء الوقت المخصص لكتابة مذكراتها اليومية ورسائلها المؤثرة إلى خطيبها، بينما ماكسيميانو، بالشعور نفسه، لم يكن يتحمل أن يقطع عليه أحد الوقت المخصص لدراسة وتحضير لائحة مراهنات السباق. أما بالنسبة إلى الطبيب فإنه لم يكن يتقيد كلياً بالتوقيت، وكان يحضر بأفضل صورة يمكن أن تغطي على مخادعته في هذا المجال، صباحاً أو مساء، ولكنه دائماً على عجلة من أمره، وفي الحالة الطارئة جداً كان يكفي الممرضة أن تجتاز الطريق – كون بيت الطبيب يقع مقابل المركز – لتناديه ولتسحبه في أغلب الأحيان من فراشه حيث، إذا لم يكن يضاجع تريزا، فإنه كان يغط في نوم عميق ناسياً حتى المطامح السياسية ومشاريع تنظيم نواة انتخابية في البلدية.

زكـــرياس متماد في ضرب راحتيه الواحدة بالأخرى، وفي الصراخ: "من في البـــيت؟" وكان يهز الباب بالضرب بقبضتي يديه.. كان الصيدلي تيزورا غائباً عن المدينة وفي سفرة إلى أراكاجو، بينما الدكتور إيفالدو في بيت أحد المرضى و لم يبقَ إلا المركز الصحي والطبيب العصري.

زكـــرياس يهـــدد بخلـــع الباب، والخوف يضج في صدره.. خرج رجل من الركن، أسرع في خطوه، ووقف أمام العامل:

- ماذا تريد؟

- هل يعمل السيد هنا؟

- أعمل، نعمل، وماذا بعد؟

- أين الطبيب؟

- ماذا تريد من الطبيب؟

- أريد أن يفحصني.

- في هذه الساعة؟ هل أنت مجنون؟ ألا تعرف القراءة؟ انظر إلى التوقيت هنا، من الساعة...

- هل تظن، سيادتك، أن للمرض ساعة؟

الصوت مختنق، ورفع زكرياس يديه إلى أعلى عيني ماكس:

- انظر. كنت أظن أنها ثآليل، يبدو أنها الجذام الأسود...

تـــراجع ماكـــسي إلى الوراء دون أن يعي، فهو الآخر يعلم الكثير عن الجذام الأسود ويعرفه في الحال. إنه النبخ الزنجي أو الطاعون الأسود.

العاشـــرة مساء. والمدينة تنام، والطبيب يجب أن يكون في الفراش الوثير مـــع المــيحة المجلوبة من أراكاجو، خلاسية، تتوقف من أجلها الأعمال، وإلى واحـــدة كهـــذه يحتاج ماكسيميانو.. هل تستحق المسألة عناء إيقاظ الطبيب والمجازفـــة بإزعاجـــه؟ هل يسحبه من الدفء وفورة الشبق، برفقة السيدة التي معه؟

وتـــردّد ماكسي إذ لا يجب أن يقلق راحته أحد عندما يكون مقتحماً. ولكن إذا كـــان الجـــذام الأسود فكيف العمل؟ عاد يتأمل في وجه الأخير فألفى الثآليل كستنائية، قاتمة، إنها علامات المرض اللعين، الطاعون القاتل. خلال ثماني عشرة سنة

في إدارة الصحة العامة، وكان قد خدم في منطقة الداخل كلّها، لم يتعلم ماكسيميانو إلا شيئاً واحداً.

– دعنا نذهب يا ابن عمي، فبيت الطبيب قريب، هنا على الحد المقابل.

من أجاب على ضرب راحات الأيدي، هذه المرة، كانت المرأة المدعوة تريزا باتيستا، وكان المساعد قد سمع الاسم وحفظه.

– أنا، ماكسيميانو، يا حضرة السيدة. قولي للطبيب إنّ في المركز هنا رجلاً مصاباً بالجذام: إنه الجذام الأسود.

– ش –

شيء لا يمكن تعلمه، بغير الممارسة، هو الطب، أكد البروفيسور هيلينو ماركيز في كلية الطب في باهيا، بينما يقدم لمادة الجراثيم المستوطنة الآخذة في الانتشار في منطقة الداخل. وفي مركز الصحة في بوكين، كان الدكتور أوتو أشبينيرا، الطبيب المتدرج حديثاً، يقضي ليلة ليلاء، وعرق بارد ينبع من جبهته، وقلبه هارب من مكانه، يسعى جهده ليتعلم بالممارسة ما لم يتعلمه بالنظرية... والممارسة هي الأخرى أصعب من النظرية، إنها مقرفة ومخيفة. إن المسألة هي بالتأكيد أسوأ أنواع النبخ الجدري، إنه النبخ الزنجي، وأسوأ أنواع الأخير الجذام الأسود كما يسميها الشعب، وللتعرف إليه ليس من حاجة إلى الدراسة الجامعية طيلة ست سنوات في الكلية، ويكفي التحديق قليلاً في وجه المصاب ذي العينين النافرتين من موضعيهما، خوفاً، والإصغاء إلى الصوت القلق:

– قل لي، دكتور، هل هو الجذام الأسود؟

هل هي حالة خاصة أم بداية الوباء؟ أشعل الطبيب سيجارة وكم كان قد أشعل منها حتى الآن، ومنذ أن جاءته تريزا بالنبأ، وكانت أعقاب السجائر قد أصبحت كوماً على الأرض.

لماذا قبل المجيء إلى بوكين، بحق الشيطان، أمن أجل الترقية، أم لتأسيس قاعدة انتخابية؟ لقد أحسن برونو، زميله في المهنة، والشاب المجرب: "ليس من إغراء يجعلني أترك أراكاجو، فهذا الداخل معجون بالأمراض والنكد، إنه الموت، يا أوتو". لقد تغلب على النكد وقضى عليه بأن أتى معه بتريزا الرائعة، ولكن كيف

يقضي على الجذام الأسود؟ رمى السيجارة أرضاً وسحقها بقدمه وغسل يديه بالكحول مرة أخرى.

وقع خطى في الشارع ويد تقرع الباب: دخل إلى صالة المركز الدكتور إيفالدو ماسكارينياس يحمل بيديه الحقيبة المهترئة بفعل سنوات الاستعمال الطويلة، ويفتش بنظره القلق عن المدير الشاب الذي استطاع أخيراً أن يحدد مكانه:

– لقد رأينا الضوء مشتعلاً فدخلت لأعلمك بأن روجيريو، روجيريو كلداس، مديرنا، هو في نزاعه الأخير، لقد أصابه النبخ الجدري وهو وضع خطير جداً وليس عندي غير بصيص أمل... الأسوأ أنه ليس الوحيد، فكذلك ليسيا، هل تعرف من هي؟ إنها زوجة الكاهن وليست عشيقته، فعشيقته تدعى شوكا، وهي الأخرى تنازع المرض؛ إنه أسوأ أنواع الجذام، وعسى ألا يكون الوباء الجرثومي؛ ولكنني أرى أن الزميل العزيز قد اطلع على الأمر وهو يفتح المركز في هذه الساعة بالتأكيد، لأخذ الاحتياطات، لأن المسألة تستدعي ذلك، وطبيعي أنه سيبدأ بتلقيح كل السكان.

كل السكان، يعني بضعة آلاف شخصٍ؟ ثمة أربع، خمسة آلاف نسمة هي عدد سكان المدينة والأرياف؟ ما هو مخزون التلقيحات الموجودة في المركز؟ وأين يحتفظون بها؟ هو، الدكتور أوتو أشبينيرا، مدير مركز الصحة لم تقع عيناه أبداً على أنبوب واحد ولم يسمع أبداً بأي شيء عن هذا المخزون اللعين. ولو أن هناك احتياطاً كبيراً من التلقيحات فمن الذي سيقوم بالعمل؟ أشعل سيجارة أخرى ومرَّ بيده على جبهته: إنه العرق البارد. يا لهذه الحياة القذرة، كان بإمكانه أن يكون في أراكاجو، في الدفء والرفاهية مع فتاة شهية، مع تريزا نفسها أو أية واحدة أخرى من النوعية الجيدة، ولكنه يجد نفسه في أرض الجذام الأسود متعاقداً مع الخوف. إن الجذام حين لا يقتل فإنه يشوه؛ وتخيل نفسه تنهش البثور وجهه، وجهه الأسمر الشبيه بوجه اللعبة وجاذبيته الرئيسة للنساء.. ويلاه.. يا إلهي! ثم عاد فتخيل نفسه ميتاً محمولاً مع الدمامل المتقيحة إلى القبر.

تقدم الدكتور إيفالدو ماسكارينياس إلى داخل الغرفة بخطى وئيدة، ووقف إلى جانب زكرياس محاولاً أن يتعرف إليه: "هل هو ممرض المركز ماكسيميانو؟" لقد أصبح زكرياس غير معروف من وجهه المكسو بالثآليل... حدّق: "إنها ليست ثآليل، إنها دمامل، هو الجذام!"

- هـــذا الآخر قد أصيب أيضاً... انظر، إنه الوباء العام يا زميلي العزيز. إن الـــناس تعرف البداية ولكن لا أحد يعلم من يبقى ليرى النهاية. لقد شاهدت ثلاثة أوبـــئة من البداية إلى النهاية، ولكن لن أُفلت من هذا الوباء، هذه المرة، ومع الجذام لا يـــستطيع أحـــد شيئاً. الدكتور أوتو أشبينيرا يرمي السيجارة أرضاً ويحاول أن يقول شيئاً فلا يجد الكلمات. زكرياس يريد أن يعرف:

- ماذا أفعل، دكتور؟ لا أريد أن أموت، لماذا عليَّ أن أموت؟

ووصلت أخيراً الممرضة جوراسي إلى المركز بطلب من الدكتور أوتو. كانت تحلـــم بخطيبها عندما أيقظ ماكسي كل أهل البيت الذي استأجرت فيه جوراسي غـــرفة تقـــيم فيها وتدفع بدل التغذية اليومية؛ وجاء صوتها لدى وصولها معاكساً متعدياً:

- دكتور، لماذا أرسلت في طلبـــي في هذه الساعة؟

إنـــه طبـــيب صـــغير دائم الفوران الجنسي ولا يأتي إلى عمله خلال ساعات الدوام، ومع ذلك يرسل في إيقاظ الناس ليلاً. ثم، ارتفع صوتها من جديد:

- أي أمر طارئ هو هذا؟

الطبيب ظلَّ صامتاً. وعلا صوت زكرياس مقاطعاً من جديد بلهجته القاسية:

- "أنجـــدني يا دكتور، حباً بالله، لا تتركني أموت". كان صوت زكرياس قد توجّه إلى الدكتور إيفالدو المعروف في كل المنطقة.

الممرضة جوراسي ذات معدة حساسة، ويا للويل، إنّ في وجه الرجل شيئاً! لم تعـــد إلى الـــسؤال عن السبب الذي من أجله سحبوها من بين الشراشف في تلك الساعة المتأخرة وكرّر الدكتور إيفالدو بشكل رتيب:

- إنه وباء يا زميلي العزيز. إنه الجذام الأسود.

خـــلال معاناته الأوبئة الثلاثة الماضية التي كتبت له النجاة منها، كان قد عالج معـــوقين، وعـــزى بمصابين، وساعد في الدفن، وتمكّن من إنقاذ البعض من الموت. فهـــل يجـــتاز الوباء الرابع؟ "لا يهم أن يموت الدكتور إيفالدو"، قال الدكتور أوتو أشبينيرا في نفسه، ولكن هو، أوتو، الشاب الذي يكاد يبدأ الحياة!! ويلاه.

الدكـــتور إيفالـــدو على الرغم من أن أوتو كان يعده عفناً ملوثاً منسياً ولا يفيد بـــشيء، فإنه يحب الحياة ويناضل من أجلها مع موارده المحدودة بوصفه طبيب أرياف.

وبــين جميع الموجودين، وحده، هو، وزكرياس من يفكران بمواجهة المرض. الممرضة جوراســي تحــس بــدوار ورغبة في التقيؤ، وماكسي الزنجيات يحاول أن يتذكر المرة الأخيرة التي تلقح فيها منذ عشر سنوات ولا بد أن يكون التلقيح قد فقد مفعوله.

الدكتور أوتو يشعل ويطفئ السّجائر.

صوت في الباب يسأل:

- الدكتور إيفالدو هنا؟

- من يفتش عني؟

- أنــا، فيتال حفيد السيدة أورينيا، دكتور. لقد ماتت جدتي ورحت أفتش عنك من مكان لآخر حتى وجدتك هنا. لقد جئت من أجل شهادة الوفاة.

- القلب؟

- يمكن أن يكون القلب، دكتور.. لقد ظهرت عليها مجموعة من الطفحات العرقية ثم اعترتها الحمى.

- "طفحات عرقية؟" طلب الدكتور إيفالدو التفاصيل وهو مذبذب الثقة.

- في الــوجه واليدين، دكتور، وفي كل الجسم. ثم انحنت وماتت مع ارتفاع الحرارة. لقد سجل محرار الجار أكثر من أربعين درجة.

توجّه الطبيب العجوز إلى المدير الشاب في مركز الصحة:

- الأفــضل أن يــأتي الزميل العزيز معي. لقد تأكد الوباء الجرثومي وها هي شهادة الوفاة الأولى.

ســيجارة أخــرى، وجبهة مبتلة بالعرق، وفم بلا كلمات، وإيماءة من الرأس بالموافقة! فما الذي يفعله الدكتور سوى الموافقة؟

وتأهــبت جوراسي لمرافقتهما إذ ليس من قوة تبقيها في الغرفة الملوثة بذلك الــرجل الــرهيب الذي يحمل الجذام على وجهه. وإذا هي، جوراسي، ماتت في حــصاد الطاعون فإن المذنب هو مدير الصحة العامة في الدولة، واعرفوا كلكم إنه يــضطهدها لدوافع سياسية وضيعة، وقد أرسلها إلى الموت في بوكين لأنها عذراء ومعارضة وهو لا يتحمل هذه المزايا.

وقــبل الخروج، ذكّر الدكتور إيفالدو ماكسي أن يعطي زكرياس محلول حــامض البرمنجانيت ليمسح به جسمه، والأسبيرين لتخفيض الحرارة.. وأنت

أيهـــا الشاب ارجع إلى بيتك ولفّ نفسك بأوراق الموز، وتجنب الضوء، تمدد، وانتظر.

– ماذا أنتظر، دكتور؟ أعجوبة من السماء، أو الموت؟ وماذا غير هذا؟

– ص –

صـــمت الجمـــيع! الدكـــتور إيفالدو والطبيب في مركز الصحة والممرضة جوراســـي وهـــم يتأملون جثة المرأة الطاعنة في السن أورينيا بنتو، والممددة فوق طاولـــة في غرفة مفرغة من الأهل وقطع الأثاث الأخرى وهي تنام في نوم حلمها الأخـــير، وقـــد ذهبت على أول سفينة من سفن الحمى التي جاءت لتبحر بالناس، وسط الصراخ والنحيب.

– "لقـــد ماتـــت من الجذام، إنه الوباء!".. صرّح الدكتور إيفالدو وهو يصرّ علـــى أســـنانه وكأن العمر والتجربة لم يفيدا بشيء. ارتعد وأغمض عينيه لكي لا يرى.

إن أورينـــيا بنـــتو لم تمت، لقد أراحت جسدها المتعب، لقد ظلت حية وقد أصـــابها المرض الذي انتشر ببطء، البثور تحولت إلى ثآليل وهذه إلى دمامل فانتفخ الجلد وانخسف ثم بدأت الدمامل بالتقيح والجروح بالسيلان متفجرة عن دهن أسود تفوح منه العفونة، وهو الجذام القاتل بلا رحمة، وبعده الموت بسلام.

الممرضة جوراسي ذات المعدة الحساسة تقيأت في الصالة.

– ض –

"ضـــاقت بـــــي الحـــيلة، فأنا مدير المركز والمسؤول عن صحة السكان في الـــبلدية، لم أتوصل بعد إلى العثور على هذه التلقيحات اللعينة التي في لحظة خاطفة أصـــبحت ضـــرورة ملحـــة! فأين هي يا سيد ماكسيميانو سيلفا داس نيفراس إن حفظتموها بهذه الصورة الدقيقة إلى هذا الحد؟ يا إلهي لماذا لم أفتش عنها من قبل؟ عندما قبلت بتحمل مسؤولية كهذه، أكدوا لي أن في بوكين مناخاً متميزاً وشروطاً مثالـــية للـ راحة وظروفاً تامة للصحة العامة، وأن الناخبين بكميات هائلة وأقسموا الـــيمين علـــى أن بوكين هي الجنة، هي الفردوس المفقود في منطقة الداخل، وهي

الـــسلام أخـــيراً. وأنّ شأفة الجذام الأسود قد استؤصلت، وليس هذا فحسب، بل شأفة كل الأوبئة بفضل التطور العلمي، فلتعش حكومتنا الأبوية! ولكنهم خدعوني بهـــذا، خدعوني! أين هي التلقيحات يا سيد ماكسي؟ فعلينا أن نقوم بالتلقيح حالاً ما دام هناك وقت وشعب".

الآن وقد خدعك الناصحون، يا طبيباً كيفما اتفق في أراكاجو، وأنت تعيش حـــياة الشاب الجميل ذي المكانة المحمية من قبل المحافظ، في شوارع المدينة، فلكي تترقـــى قريباً فإنك ستسجن في شوارع بوكين، الجنة، نهاية العالم، وإذا ظهر الجذام فيجب أن تظهر نفسك طبيباً ورجلاً حقيقياً.

وفيما يتعلق بالتلقيحات، فإن بقية من الكمية المسلمة أخيراً يجب أن تكون في خزانة الموادّ الطبية التي تكاد تكون فارغة من الأدوية، والمفتاح مع السيدة جوراسي الجاهلة التافهة ذات الوجه الشبيه بوجه من أكل الأوساخ فلم يستطبها.

"عجلـــي يا سيدة جوراسي، تدخلي، افعلي شيئاً ما، لا تنتحبـــي، لا تهددي بفقـــدان الوعي، يكفي تذمراً وتقيؤاً، اجلبـــي التلقيحات أو هيئي أنت وماكسي الـــزنجيات، نعـــم يا صاحبة السيادة وفخامته، لتخرجا إلى الشارع وتلقحا، فلهذا تدفـــع لكمـــا الدولة مال الخيرين. احملا صندوق أنبوبات التلقيح فإن التجهيزات المتوفـــرة والباقية يمكنها أن تكفي الجميع ابتداء مني أنا لكي أكون مثالاً من الصحة والحـــيوية للـــشعب. ولكني لا أذهب معكما لأن واجبـــي أن أبقي هنا، في قيادة العمليات".

"إن المخـــزون المتبقي، اعلم يا نصف الأبله، لا يكفي لتلقيح أطفال المدرسة، وبـــضعة وجهاء هنا وإليك بالباقي. ارفع ردن القميص لألقحك فعسى أن يكون الـــوقت مـــا زال مناســـباً. سنرى فيما بعد، وتنفيذاً للأوامر أستطيع أن ألقح هذا المتدخل الشجاع. أنا شخصياً لست محتاجة، فقد تلقحت في أراكاجو قبل المجيء، إذ كـــان خطيبـــي قد أخبرني إنّ الحديث عن القضاء على الجدري لا يعدو كونه ادعـــاء مـــن جانـــب المدير الذي يضطهدني كون أبـــي من المعارضة وكوني أنا مخطـــوبة... هـــنا، قـــريباً من المكان، في منازل العائلات الغنية، وذات الأعمال التجارية، أستطيع أن ألقح ولكن لا تتكل عليَّ في الخروج إلى الأكواخ والمجمعات الـــشعبية لتلقيح المجموعات البشرية الملوثة! أن أمسّ المصابين بالجذام وأرى القيح،

فلست أياً كان مثل متشردتك فتاة الهوى التي جئت بها من أوسخ الأمكنة ووضعتها في الشارع النظيف في مواجهة أشرف بيوت بوكين. إذا كنت تريد أن تلقح الفئة الوضيعة فما عليك إلا أن تنادي على المتشردة وتذهب معها".

"بالله، كفي عن النقاش يا آنسة، لا تشتكي، لا تهاجميني، فأنا لا أستحق، لقد عاملتك دائماً بتهذيب ولكني أفرض الطاعة، فتقيدي بالأوامر، فأنا الطبيب هنا، مدير المركز، فاحترميني وأسرعي، ألا ترين أني خائف؟؟"

"عندما يفتح البريد، أرسل يا سيد ماكسي الزنجيات برقية رسمية إلى أراكاجو واطلب مزيداً من التلقيحات بصورة عاجلة وملحة، فالجذام قد وصل وبدأ يقتل...".

– ط –

طلباً للنجاة، فإن أول الهاربين كانت الموظفة جوراسي، الممرضة من الدرجة الثانية في سكرتيرية الدولة للصحة العامة.. قبل ذلك كانت تعمل في غرفة انتظار أحد الأطباء الاستشاريين، دون اختصاص، ودون شهادة، ودون أية ممارسة، ولكن كونها ابنة أحد المفاتيح الانتخابية في الحكومة السابقة، فقد تمّ تعيينها موظفة في الدولة، وإذ تحولت الحكومة السابقة إلى موقع المعارضة، فإن الحكومة الجديدة، انتقاماً، أرسلتها للعمل في أبعد مسالك بوكين الجبلية.

و لم تكن ذات معدة قادرة على تحمل النتانة والعفونة! وخلال أيام قليلة فإن المدينة كلها ستتلوث.

في الليلة التالية ارتفع عدد المصابين بالجذام إلى سبعة، فإلى اثني عشر مصاباً في صبيحة اليوم التالي، ثم بلغ عدد الذين سقطوا أمواتاً سبعة وعشرين في اليوم الخامس على التوالي. وهكذا فإن من تطور وارتقى في نموه كان القيح وعدد الأموات. وكانت البيوت المصابة تعرف من الستائر التي غطيت بالورق الأحمر لمنع الضوء من الوصول إلى الغرفة خلال النهار لأن الجذام يعمي البصر قبل أن يقتل. ومن المداخن كان يتصاعد دخان روث الثيران المحروق الذي يبدّد التلوث وينظف المنازل من تعشش الطاعون. المصليات في محلة ماتريز يحرقن الشموع تضرعاً من أجل زوجة الكاهن الشرعية، الكاهن الذي سيصبح فيما بعد حراً في أن يعيش

بـــسلام مع العشيقة، إذا لم يقض عليهما هما الآخران الجذام الأسود. المتضرعات يطلـــبن من الله أن يضع حداً للوباء الذي أرسله عقاباً للخاطئين من الرجال الذين وهـــبوا أنفسهم للملذات من أمثال مدير مركز الصحة العامة الذي يحتفظ بصاحبة دائمة عنده.. ومن مركز المراقبة الممتاز في الكنيسة لُمحت جوراسي في طريقها إلى القطـــار تحمل حقيبة وهي متجهمة الوجه تتمتم: "أقيلوني إذا كان في نيتكم ذلك، ولكني لن أبقى هنا دقيقة واحدة مجازفة بحياتي، وإذا أراد الطبيب فليذهب هو نفسه للتلقيح وليأخذ معه العاهرة لتساعده".

في الـــيوم التالي لليلة ملاحظة الحالات الأولى، فإن الممرضة وماكسي كانا قد خـــرجا إلى مجموعة الطلاب حاملين صندوق التلقيحات معهما. وصفّت المعلمات الأطفـــال في صف واحد، وكان هنالك ثلاثة تلاميذ غائبين وأخبارهم سيئة: ففي الـــبدء ظـــنت أمهاتهم أنهم أصيبوا بالحماق أو الحصبة، ولكنهن الآن تبيّن حقيقة الثآلـــيل ذات اللون الخمري. وشاع النبأ في المدينة ومعه تفاصيل أخرى عديدة عن المصابين.. ومع فائض في التلقيحات فإن الموظفين الاثنين ذهبا إلى الطريق الرئيسي للتلقيح في بيوت الأغنياء.

لم تنتظـــر الممرضة جوراسي لمساعدة الفقراء والأكواخ: وارتعبت إذ انتبهت إلى أنهـــا لمست في بيت السوري سكاف، التاجر القوي البنية، مصاباً بالجذام وهو في أسوأ مراحله.. وفي ثلاثة بيوت أخرى إلى الأمام تكرر الشيء نفسه.. "إذاً، خذ صندوق التلقيحات أيها الطبيب، أعطه للمتشردة، وهي التي تذهب مع قيح حياتها إلى قيح الموت، وليس أنا العذراء، الفاضلة، والمخطوبة".

تقلـــص إلى النـــصف عدد الأفراد في المركز مع هرب الممرضة، أما الدكتور أوتـــو، فـــرفع يديه إلى السماء وهتف: "والآن؟ برقية جديدة إلى أراكاجو تطالب بمـــساعدين متفرغين وقادرين: أرسلوهم في أول قطار". في البيت، يغسل الطبيب يديـــه بالكحول، يشعل السجائر ويطفئها، خائفاً، مستسلماً للإحباط، إنه لم يولد من أجل كل هذا.

وفـــاتح تريزا في أنّه إلى أن يتم توزيع الموظفين وإرسالهم، في أراكاجو، فمن الـــذي يـــستطيع أن يـــساعد في أعمال التلقيح؟ وهو سيحتاج إلى أربع أو خمس مجموعات ما إن تصل التلقيحات المطلوبة. حتى الآن، كانوا يحاولون إنجاز الأعمال

بوجـــود ماكسيميانو والممرضة جوراسي، ولكن دون الأخيرة ماذا يفعلون؟ هو، أوتو مدير مركز الصحة لا يستطيع أن يخرج إلى الشارع ليقوم بالتلقيح كمستخدم وضـــيع، وليس قليلاً حتى الآن الطلب إليه المجيء إلى المركز صباحاً ومساء لإعطاء التفـــسيرات والنـــصائح ومعاينة المشكوك في حالاتهم الجديدة، "آه، إن الدمامل يا تريزا هي أفظع الأشياء!!".

كانـــت تريـــزا تصغي بصمت، محتقنة ومنتبهة، تعرف أنه خائف، ميت من الخوف، وينتظر منها فقط أية إشارة ليحذو حذو الممرضة. لو أنها تقول له: "دعنا نـــذهب مـــن هنا، ولماذا نموت شباباً، يا حبيبـــي؟" وهكذا فإن الدكتور ستكون عنده الحجة للهرب! "لقد ورطتك معي، سآخذك من هنا في الحال، علينا أن ندافع عن حبنا. فهنا لا حب، ولا صداقة، ولا لذة في الفراش".

وفي حين كان يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، فإن الدكتور أوتو أشبينيرا كان يجد نفسه عصبياً ومعانياً أكثر فأكثر!

– هـــل تعرفين ماذا قالت ابنة الزانية عندما هددتها إذا لم تقم بالتلقيح؟ قالت لي أن أوكل إليك الأمر، تخيلي..

صوت تريزا ثابت وشبه سعيدة!

– لا بأس، أنا أذهب.

– ماذا! أنت! ماذا!

– إني سأخرج لتلقيح الناس. يكفي أن تعلمني العمل.

– وهل أنت مجنونة؟ لن أدعك تفعلين.

– لم أسألك أن تدعني أو لا. ألست تحتاج إلى أناس؟

مـــن محلـــة ماتريز، شاهدت المصليات تريزا تمر برفقة ماكسي الزنجيات، مع أدوات التلقـــيح، فـــرفعن رؤوسهن ليتحسسن الأمور بصورة أفضل، ومع ذلك، أوقفـــن الأناشيد... الصلوات تكاد لا تصل خارج الكنيسة، لأن المؤمنات العجائز ما عدن يمتلكن القوة في الصدر لمناجاة اليأس.. إلى أين تذهب صاحبة الدكتور مع معدات المركز؟

في ساعة دفن زوجة الكاهن الشرعية سمعت الأجراس تقرع.. "أقوى فأقوى، يـــا سيد فيكاريو، اقرع بعنف، دع الضرابة تذهب بالقرعتين قرعة واحدة، لتعلن

للسلطات للجميع عن الوباء، عن الجذام الأسود الذي ينتهك مدينة بوكين. بكل قوتك يا سيد فيكاريو اقرع الأجراس واجعل الضرابة تجعل القرعتين قرعة واحدة".

- ظ -

ظروف تستحق التساؤل يا رفيقي! من يستطيع أن يشرّف الأموات ويخشع لهم عندما يكون هو نفسه مشروع موت يتفحص يديه في كل لحظة، وينظر إلى وجهه في المرآة ليرى إذا كان قد وصل إنذار البثور الأول.

إن التأمل في الموت يقتضي الهدوء والتفرغ والنظام ووجود ميت لائق، أما إحراق البخور والجناز الاحتفالي فوق ميت منسي فليسا مهمة يجب القيام بها وقوفاً على الأرجل ووسط رعب الجذام ومع الميت المتعفن.

في مرحلة بدء الوباء، كان ما يزال في الإمكان دعوة الأصدقاء، وعمل الطعام، وفتح زجاجات الكاشاسا. ولكن عند مجرى الوباء السريع وكثرة أعمال الدفن لم يعد ذلك ممكناً، إذ كان يضيق الوقت وتفقد الحيوية والتألق الضروري للمحادثة، وهنا لا تعود كلمات الإطراء على الميت متوفرة، أما أهل الفقيد الخائرو القوى والمستسلمون للإحباط فما عادت عندهم الطاقة لتذكر الأناشيد الدينية عبر روائح البخور، وتذكر البكاء والابتسام، حتى في بيوت الفقراء، لأنه في الساعات الحاسمة يقتضي القيام بجهد كبير لتشريف الفقيد وتقديم الاحترام والتقدير له. فمع الوباء، وأي وباء! الجذام الأسود، يستحيل القيام بأي جهد.

أين البشر والمال للتأمل في الموت وحفر الرخام مع موت اثنين أو ثلاثة كل ليلة وفي الشارع نفسه؟ ولا يمكن الاحتفاظ ساعات معدودات بالجثة المهترئة التي تحمل سريعاً إلى الخارج وبالضرورة الحتمية، لأنها الساعة الملائمة لانتقال المرض بالعدوى. ثم تأتي اللحظة التي لا يعود فيها وقت ورغبة للدفن في المقبرة ويكتفي المودعون بحفر مقابر على سطح الأرض وعلى حافات الطرق وحيث يكون الأمر أسهل.

عندما يأتي الطاعون والرعب، يصبح إحراق الروث وغسل القيح، وفقء الدمامل واحدة واحدة، والصلاة إلى الله أموراً شبه مستحيلة، فكيف العناية بمراسيم الموت، قل لي، يا رفيقي؟

- ع -

عصر يوم أحد صفت فيه السماء، تمّ دفن روجيريو كلداس رئيس البلدية الملقب بأبي التلقيحات، وهذا اللقب المضحك يوحي بالعلاقة الوثيقة مع الجذام الذي يجتاح المدينة وقلة التلقيحات فيها. ونظراً لصعوبة الظروف، فإن بوكين كانت قد أضاعت عادة مراسيم الدفن الفخمة على أنغام الفرقة الموسيقية والجموع الحاشدة وحضور طلاب المدارس واستنفار جنود مركز الشرطة العسكرية وتوافد أعضاء الجمعية الخيرية كونفراريا، وجمعية لوجا ماسونكا، ووجود الشخصيات الكبيرة وإلقاء الخطب البليغة التي تبيّن فضائل الفقيد، ولا يؤاتي الحظ دائماً لحمل رئيس بلدية إلى المقبرة وهو ما يزال في أوج ممارسته للمهنة. المرافقون قليلون واختصر رئيس غرفة تجارة البلدية كلماته: "إنّه ضحية الواجب الاجتماعي"، أكد رئيس غرفة التجارة مشيراً إلى النهاية المفجعة للإداري البارع الذي كان خلال أيامه الأخيرة مؤلماً للنظر، ومزعجاً لحاسة الشم بسبب تفشي الدمامل التي انتشرت مع البثرات النبخية على امتداد جسده مكونة جروحاً متفتحة ملوثة، ومكونة ما يسمى بالجذام الناسوري الذي يسمى الجذام الأسود عندما يفضي إلى الموت. بالنسبة إلى الشعب فإن الجذام الناسوري كان نوعاً من الجدري هو أسوأ من الجدري الزنجي، لا بل أكثر الأنواع رعباً ويسمى بأم الجذام، وأكثر رعباً من كل ما وجد: الأسود، والأبيض، والزنجي وغيره. وبالتأكيد، وفي رأي رئيس غرفة التجارة، فإن رئيس البلدية المنتقل إلى رحمته تعالى، استكمالاً لواجبه الاجتماعي فإنه قد اختبر الجذام عسى أن يتم اكتشاف دواء فعال له قبل أن تسلم إليه مهام العناية بالسكان في البلدية والجذام هو وباء من الدرجة الأولى، والجذام الأكبر، الجذام الأسود، والجذام الناسوري أم الجذامات كلها.

وكان الدكتور إيفالدو ماسكارينياس هو الأخير الذي استحق بعد عدة أيام مرافقته إلى القبر والبكاء عليه، أصم، شبه أعمى، نصف منهار، يطوف الشوارع، ولم يقفل على نفسه قط، ولم يهرب جزعاً، فعندما كان قلبه ما يزال قادراً على الصمود اهتمّ بالمرضى، بمرضاه وجميع الآخرين الذين أعطوه علماً بمرضهم - وبينهم مصابون بالجذام ومحجوزون في المحجر الصحي - دون أن يوفر جهداً من

الجهــود التي يستطيع القيام بها. لقد عمل بقدر ما استطاع وليس بالإمكان عمل الكــثير ضــد الطاعــون. وكان هو من اتخذ الاحتياطات اللازمة لتجهيز المحجر الــصحي، ومن نفذ تلك التلقيحات. كانت تريزا باتيستا ذراع الدكتور اليمنى في تلك الأيام الشاقة قبل أن يتوقف قلب العجوز عن الخفقان.

كاد يكون لديه الوقت الكافي ليرسل مع تريزا رسالة إلى زميله أوتو أشبينيرا مدير مركز الصحة، فإما أن يصل المزيد من التلقيحات، وإما أن يموت كل السكان بالجذام الأسود. وبعد ذلك قصّر للمرة الأولى مع مرضاه.

- غ -

غانــية، عشيقة، فنانة ملهى، هذه هي مهن تريزا، وهي بصورة عرضية معلمة أطفــال وراشدين، وبالنسبة إلى رجال الشرطة في الولايات الفدرالية الثلاث، فإنها مــشاغبة ومحترفة عراك ومشاجرات؛ تريزا باتيستا تلك تمكنت في أيام معدودة من الــنجاح في بــرنامج تمريض كامل قام به كل من الدكتور إيفالدو ماسكارينياس وماكــسي الــزنجيات، وذلك لأنها كانت مخلوقة سهلة التعلم. هكذا قالت عنها الــسيدة مرســيدس لــيما معلمة الأحرف الأولى. لم تتعلم غسل المصابين بالنبخ واســتعمال الكحول والبرمنجنات لتنظيف الثآليل والتلقيح وحسب، فقد تعلمت أيــضاً كــيف تقنع أكثر المصرين على الامتناع عن التلقيح خوفاً من أن يصيبهم المــرض عند إعطاء الحقنة. وفي الحقيقة فقد كان ممكناً أن يحدث، وقد حدث فعلاً وعــدة مــرات، أن الشخص الملقح كان يتعرض لردة فعل عنيفة على اللّقاح من الحمى والبثور والثآليل، وإعاقة جامحة، ومن الجدري الأبيض الخفيف. ماكسي بدأ يفقد صبره، ويريد أن يحل مشكلة الفتاة العنيدة نفسها، ويقصر التلقيح على البعض دون الــبعض الآخر، نظراً للأزمات، ولصعوبة تنفيذ المهمة. ولكن تريزا، حكيمة صــبورة، كانت تشرح له وتريه آثار التلقيحات التي قامت بها لنفسها، في ذراعها الأسمر، وقد حقنت نفسها من جديد لتبرهن على عدم وجود أي خطر. كل شيء كــان يجــري على ما يرام، وأصبح المواطنون يأتون ليتجمعوا أمام المركز بانتظار الملقحين. عندما كان مخزون التلقيحات قد نفد أرسلت برقية جديدة إلى أراكاجو تطالب بإرسال دفعة جديدة على جناح السرعة.

بدا الدكتور إيفالدو أكثر قلقاً مع تفشي المرض المتزايد يوماً بعد يوم، وحصل من السوق التجارية على هدية من عدة فرشات للمحجر الصحي حيث كان يجب عـــزل المعـــوقين الذين لا أمل في شفائهم من الحالة، أولئك الذين يشكلون الخطر الأكـــبر في تفـــشي الجراثيم. وقبل وضع الفرشات في المحجر، كان من الضروري القـــيام بعملـــية تنظيف منهجية في المكان المتخفي في الغابة، بعيداً عن المدينة، لأنّ السكان كانوا يخجلون منه.

بـــرفقة ماكـــسي الـــزنجيات، وكل منهما يحمل المعقمات والمياه في صفائح البنـــــزين، فإن تريزا باتيستا دخلت في الطريق الممنوع! كانت الغابة قد ازدادت كثافة، وكان ماكسي يستريح واضعاً الصفيحة أرضاً ليفتحها بواسطة قطعة صغيرة من الخشب، ويتنشق منها. حيث يقصدون، منذ سنة، كان المحجر الصحي فارغاً.

كان آخر من أقام في المحجر اثنان من المصابين بالبرص! رجل وامرأة ربما كانا متـــزوجين، كانـــا يأتـــيان إلى معارض يوم السبت لتسول بعض حفنات الدقيق والفاصـــولياء والبطاطا الحلوة والقرع، وبعض النقود المعدنية القليلة التي تلقى لهما أرضاً، وكانا في كل مرة عرضة لتآكل البرص الذي حفر فيهما حفراً مكان الأنف والفم وأصاب الأذرع والأرجل بالبقع المرضية الملفوفة بالخرق والأقمشة. كانا معاً بالتأكيد أو بفارق زمني قليل، ثم كفا عن الذهاب إلى المعارض في أيام السبت، وإذ لم يهـــتم أحـــد بدفنهما أو بالذهاب إلى المحجر، فإن النسور والغربان قد احتفلت بالبقايا، وكان الاحتفال هزيلاً، وتركت العظام على الأرض نظيفة من البرص.

كـــان ماكـــسي الـــزنجيات ينظر بتعجب وباحترام إلى الأنثى الجميلة، صاحبة الدكـــتور، لأنها دون حاجة إلى مساعدتها، ودون أي موجب ومن أي نوع، وأردانها مـــرفوعة، وقـــدماها عاريتان، كانت تغسل أرض الأسمنت في المحجر الصحي وتجمع عظـــام الأبرصـــين حتى تحفر لهما قبراً. وفي حين أن الموظفة "لا تلمسني" هربت بعيداً وأهملـــت المركز الصحي غير مكترثة بالواجبات والنتائج "أقيلوني، لا يهمني، لن أموت هـــنا" فـــإن فتاة الهوى، دون أجر، ودون سبب، كانت تذهب من بيت إلى بيت، لا تكـــلّ ولا تملّ، ودون توقيت أو خوف تغسل المرضى، تدهن جروحهم بالبرمنجنات، وتفقـــأ الـــدمامل بشوك البرتقال عندما كانت تتحول البثور حمراء كالخمر، وتأتي من زرائب الحيوانات بروث الثيران لتحرقه في داخل البيوت السكنية.

هو نفسه ماكسيميانو المعتاد على بؤس منطقة الداخل القاحلة، الخبير بأمراض الشعب وشقائه، الأعزب، بلا أهل أو أقارب، سيد حياته وموته والموظف للقيام بذلك العمل والمدفوع له أجر طفيف في نهاية الشهر، مع كل ذلك، فإنه في أكثر من مناسبة في تلك الأيام، فكّر في التخلي عن كل شيء، ومتّعظاً من الممرضة جوارسي فكّر في إعلان الاستقلال: "أيتها القدمان لماذا أريدكما؟"

أخيراً، وصلت التلقيحات التي جلبها الصيدلي كميليو تيزورا، الذي عندما كان في أراكاجو، جاءه نبأ الجذام القاتل فذهب بمبادرة منه، إلى مديرية الصحة حيث أعطوه الأدوية المطلوبة ووعدوه بالدعم القريب بالأفراد "قل للدكتور أوتو كي يذهب بنفسه لتدبر الأمر مع سكان المدينة إلى أن يتم التزويد بالأشخاص الأكفاء وليس سهلاً تقرير ذهاب أحدهم ليجازف بحياته مقابل مرتبات طفيفة" قال ماكسي الزنجيات:

- من المؤسف أن ليس من أشخاص مثلك يا حضرة السّيدة. لو كان هنالك ثلاثة أو أربعة لكان ممكناً القضاء على الوباء اللعين.

رفعت تريزا باتيستا رأسها فبانت علامات التعب في زوايا عينيها وعلى شفتيها، ولكن توقد النحاس، والنور المضيء، أطفأ التعب في العينين: "أعرف أين أجد الأشخاص، اترك الأمر لي".

- ف -

في المساء وصل الصيدلي ومعه بلاغ مديرية الصحة في سرجيبي: الطبيب الصغير لم ينتظر دفن الدكتور إيفالدو، فالتقى مع كميليو تيزورا في المحطة... "لو كنت متعقلاً لكنت الآن بعيداً، ولكنت مسافراً في قطار شحن الساعة الخامسة من صباح الليلة التي أطلعني فيها زكرياس في المركز على البثورات في وجهه". فكّر جيداً، ووزن كل أمر محتمل، فوجد أن الذنب هو ذنب المرأة الشقية، وبحق الشيطان، ما الذي جعلها تخرج لتلقيح الشعب، ولتهتم بالمصابين بالجذام؟ امرأة سخيفة جداً تريزا تلك... ومهما يكن عندها من جمال وطيبة فإن في عقلها اختلالاً، إنها ليست امرأة، بل حيوان متوحش، بلا عواطف، عاجز عن التفكير والإدراك، وعن تقدير الحياة حق قدرها، أما هو، الشاب وذو المستقبل المرموق

الدكـــتور أوتـــو أشـــبينيرا فإنه يجد نفسه مهدداً في أن يرى وجهه الطفولي الذي تتبارى من أجله الإناث متحولاً إلى وجه مقلق مخيف، هذا إذا لم يفقد الحياة.

إنـــه صاحب رسالة ومن عائلة سياسية، وهناك سيحصل على إيفاد ليستبدل مـــرة واحـــدة بلـــد الجذام الأسود والفقر بأراضي الجنوب النظيفة، الغنية، حيث الاحتفالات الكبيرة، والحدائق والمسارح والأضواء والسيدات العصريات، والمواعيد من الصنف العالمي، ولكن لن يكون هناك امرأة أجمل وأطيب من تريزا، امرأة؟ إنها ليـــست امـــرأة، لا، بل رعب، إنها ملكة الجذام... وأكثر من ذلك، ظلّ يعيش في الخوف، مقفلاً على نفسه في داخل البيت، يغسل يديه بالكحول كل دقيقة، يمسح صـــدره بجرعات الكاشاسا، يدخن بلا تعب، ولديه الحاجة الدائمة إلى التبول وإلى تفحص نفسه في المرآة وجس وجهه تفتيشاً عن البثور، فإنه وسط ذلك الرعب فقد قـــناع التـــربية والطمـــوح السياسي والاحترام الذاتي والعقل، ولم يعد الناخبون يـــستهوونه ولم تعـــد أصوات بوكين الانتخابية ولا صفات تريزا وجمال جسدها وحضورها المهيب ولا فتحة الملقط الضيقة تعني له شيئاً.

عـــندما أجـــرى معها المحادثة المتعلقة بهرب جوراسي فإن تريزا خرجت إلى الشارع لتلقيح الناس وبقي الطبيب طويلاً: لقد أشار إلى وقاحة الممرضة ليستحصل من تريزا على إشارة للهرب، دعوة للذهاب، نصيحة، تعليق، كلمة واحدة. وبدلاً مـــن أن تعطيه التفسير الجيد، فإن التافهة لعبت دور أخت العزاء، وأجبرته على أن يذهب إلى المركز بدلاً من الذهاب إلى المحطة.

في المركـــز اســـتقبل زيـــارة رئيس غرفة التجارة في المدينة، وتحدث التاجر، المزارع، الزعيم السياسي وصديق عائلة الدكتور الصغير بصراحة: "إن السياسي يا طبيبـــــي الشاب، يجب أن يتصرف سياسياً، وإن وسط الاجتياحات التي أسوأها الجـــذام. إن المرض المفترس الذي يهدد سكان البلدية بالموت له وجه إيجابـــي غير الوجه الجرثومي بالنسبة إلى مرشح يريد أن يشق لنفسه طريقاً سياسياً سريعاً، وعلى الأخص إذا كان طبيباً، وأكثر من ذلك مديراً لمركز الصحة العامة".

وعلـــيه أن يتحمل مسؤولية القيادة في طليعة الموظفين، أياً كانوا - في إشارة دقـــيقة إلى أنه كان قد شاهد صاحبة الدكتور تقوم بالتلقيح - لاجتثاث الجذام من آخـــر جرثومة في كيانه وتحرير البلدية من الوحش الذي لا رحمة عنده، ولا توجد

فرصـــة أنـــسب مـــن هذه، يا عزيزي، حتى تستحق الاعتراف بالجميل وأصوات الناخـــبين في بـــوكين. إن الـــشعب يدفع بصورة مستقيمة وهو يعبد طبيباً متفانياً وقديـــراً. يكفي أن ترى امتياز الدكتور إيفالدو ماسكاريناس، فهو لم يعين مراقباً عامـــاً، أو رئـــيس بلدية، أو نائباً حكومياً لأن المراكز بالنسبة إليه والمسؤوليات لم تكن تعني شيئاً. ولكن الدكتور أوتو أشبينيرا، إذا أمسك بالمناسبة من شعرها، ومع الامتياز العائلي الكبير ومع طرد الجذام الأسود من المدينة، فإنه يستطيع أن يقيم في بـــوكين قاعـــدة سياسية لا يمكن القضاء عليها، وستتوزع القاعدة بين البلديات المجـــاورة حـــيث سيصلون بالتأكيد إلى الجدري وشهرة الطبيب، ولشيء كهذا يا صديقي العزيز، يجب أن تقوم بمواجهة الوباء.

"اشـــكر ربك، يا حضرة الطبيب، اشكر الذي أعطاك فرصة أن تقطف من الأرض ما تعطيك إياه واستفد، انطلق في النضال، وقم بزيارة المصابين واهتم بهم، أغنـــياء وفقراء، واجعل من المحجر الصحي مكان إقامتك، وإذا أصبت بالجذام فلا يهـــم، فكونك ملقحاً فلن تموت بسهولة، تعتريك الحمى عدة أيام ويمتلئ وجهك بآثار البثور، وهذه الآثار شهادة لا أفضل منها لطبيب جذامي مرشح للانتخابات. وهناك خطر ما، واضح، وقد حدث أن أخذ الجذام معه أطباء ملقحين وكل شيء، ولكـــن من لا يزرع لا يقطف، وفي النهاية فإن الحياة هي لمن يلعبها في كل لحظة ويدفـــع لـــيرى.." وفيما أنهى نصائحه إلى تلميذه واستأذن بالانصراف، عند نهاية الطريق كانت فتاة الدكتور تلقح في باب أحد المنازل، جميلة إلى حدِّ الإخافة وعلى الأخـــص بالنـــسبة إلى رجل فاضل مثله، يخاف الله، ومتزوج، كما لو أن الجذام الأسود لا يكفي.

– ق –

قدمت تريزا في نهاية النهار عرضها التمريضي لتجد مفاجأة في انتظارها: لقد وجدت أوتو مستسلماً للوضاعات: اللهاث يفوح كاشاسا، والفم مرتخ، والكلام ثقـــيل، فبعد استعراض المنظور الانتخابـــي ووجهة نظر الرجل الكريم الذي يفتش عـــن الـــتدابير الاحترازية المتخذة في المركز، فإن الطبيب الصغير حاجزاً نفسه في البيت، أفرغ في فمه زجاجة كاملة من الأبيض النقي: وهو ذو مقاومة ضعيفة ضد

الكحـــول، ويـــسكر بـــسهولة، فعندما رأى تريزا تدخل بحيوية مستعدة لوصف تطورات التلقيح، ابتعد عنها متهاوياً:

- "لا تلمسيني، رجاء. اغسلي أولاً بالكحول، اغسلي جسدك كله". واستمر في الـــشرب بيـــنما كانت تستحم، لم يرد أن يأكل فبقي غارقاً في الكرسي وهو يتمـــتم. وظلّ يبتعد عن تريزا إلى أن انحشر في الزاوية، فوضعته في السرير بملابسه مـــثلما كان. في اليوم التالي خرجت قبل أن يستيقظ، ومنذ ذلك الوقت لم يعودا يـــتحدثان تقـــريباً، لم يعـــد يمسها قط، وخلال الأيام التي ظلّ فيها هناك مناضلاً بالكاشاســـا بين الرغبة والخجل من الهرب، كان أوتو ينام وحيداً على الأريكة في الغرفة بانتظار أن تذهب هي وتتركه وحيداً ومن دون ذلك الحضور الاهامي. أجل إنـــه حـــضور اهامي، لأنها كانت تخرج كل يوم صباحاً لمساعدة الدكتور إيفالدو وماكـــسيميانو وتعـــود مساء محنية من التعب، في حين أنه كان كل يوم يقلل من حضوره في المركز الصحي حيث يزداد عدد المرضى تفتيشاً عن البرمنجنات والكينا والكحول الأثيلية؛ بالنسبة إلى الطبيب كانت الكاشاسا الدواء الوحيد.

عـــندما أيقظـــته تريزا من غطيطه ذات يوم لتخبره بانتهاء مخزون التلقيحات وضرورة خروجه لفحص المرضى، كان الدكتور إيفالدوا يجهل أن الطبيب الصغير كان قد أعدَّ خطته: يذهب إلى أراكاجو بحجة المجيء بالتلقيحات وهناك يتمارض، يتظاهـــر بأنـــه مـــصاب بالأنفلونزا، بالقضاع الكلوي أو الصفراوي، بفقر الدم الأنيمـــي، بحمى مسعورة، فأي مرض يمكن أن ينقذه، وعندها يطالب بمن يحل محله في إدارة المركـــز الـــصحي في بوكين. يذهب إلى هناك منخفض المعنويات: يرخي ذقـــنه، يهـــدل عينيه، يتوجع بصوته، ويستخدم الأساليب الناعمة. عندما قالت له تريـــزا بـــبعض القساوة أن يترك الزجاجة جانباً ويخرج إلى الشارع ليقوم بواجبه بوصـــفه طبيـــباً ويحذو حذو الدكتور إيفالدو، ويزور المرضى في البيوت والمحجر الصحي، أجاب بانفعال شديد:

- اخرجي حالاً من هنا، اذهبـــي إلى الجحيم أيتها العاهرة القبيحة.

- لن أخرج من هنا. إن لديَّ الكثير لأفعله.

أدارت لـــه ظهرها وذهبت لتنام متعبة. إنها حرّة على الأقل من رغبة الطبيب الصغير الذي لم تعد تستهويه مفاتن تريزا، وهو سكران مرتجف خوفاً من الجذام.

وعندما سقط الدكتور إيفالدو ميتاً، يعوزه القلب لا الشجاعة، وهو في ساعة الموت يطالب بالتلقيحات، فإن الطبيب الشاب لم ينتظر إلى أن يتم دفن زميله، "إني ذاهــب لآتي بالمعــونة، لأجلــب التلقيحات، سأذهب وأعود، سأذهب سريعاً، راكــضاً، سأذهب، ودون حقائب، وخفية"، وعند صفير القطار تسلل إلى المحطة وانطلــق إلى باهــيا. إن القطار إلى أراكاجو لا يمر من هنا إلا في الساعة الرابعة، ولكنّه لم يكن مجنوناً لينتظر، ليبقى دقيقة واحدة في أرض الموت تلك، أرض الموت الأسود وعالم المرأة الشقية المجنونة التي ستنال جزاءها وسيأكلها الجذام بالكامل.

كــان أهالي بوكين قد شاهدوا في تلك الأيام من الجذام الأسود أشياء مرعبة هــي الأخرى. لقد شاهدوا مدير مركز الصحة الطبيب الشاب المتخرج من الكلية يقــوم بهروبه الجبان إلى حدٍّ أنّه استقلّ القطار الخطأ، وقام بالسفر إلى أراكاجو عبر باهيا وكأن الجذام قد طرده من المدينة... وكانت مسألة ركضته مستعجلاً الهرب، والــتي وصــفها الــصيدلي عند باب الصيدلية، قد أثارت الضحك وسط البكاء والنحــيب علــى الأموات؛ "إلى أين تذهب بهذه السرعة يا طبيبنا الأوحد؟" "إني ذاهب إلى أراكاجو لآتي بالتلقيحات"، "ولكن هذا القطار لا يذهب إلى هناك، إنه آت مــن أراكاجو وذاهب إلى باهيا"، - "أي قطار يحل مشكلتي، أي طريق، لقد ضــاق الــوقت". "ولكن التلقيحات قد وصلت، إنها معي هنا وقد جلبتها، وهي كمــية كافية لتلقيح الكبير والصغير في كل منطقة سرجيبــي؛ كافية وتفيض عن الحاجــة"؛ "إذاً استفد منها، وأبقها مع الناخبين في بوكين، وإذا أصبح عندك مال ومقدرة، فابق مع الفتاة، إنها من الطراز الأول".

لقد شاهد أهالي بوكين أشياء مرعبة في تلك الأيام من الجذام الناسوري. لقد شاهدوا عاهرات موريكابيبا يؤلفن كتيبة وحيدة صغيرة بإمرة تريزا باتيستا متوزعة بين المدينة والأرياف للقيام بالتلقيحات.

بوا بوندا ذات الهيكل الضخم، والنحيلة ماريكوتا التي تعجب مقدّري النوع العظمــي مــن النــساء ماودي فادا السمينة للمعجبين بالنوع الممتلئ أو بالفراش اللحمي الوثير، وهناك من يحب هذا النوع. والعجوز غريغوريا ذات الخمسين سنة مــن النــضال معاصــرة للدكتور إيفالدو وقد وصلا إلى بوكين في التاريخ نفسه، والــصغيرة كابريتا ذات الأربعة عشر ربيعاً ومنها ربيعان في ممارسة الدعارة وذات

الابتسامة الطفولية.. عندما دعتهن تريزا إلى العمل، امتنعت العجوز لأن من الجنون إلقاء أنفسهن وسط الجذام، ولكن كابريتا قالت: "أنا أذهب"؛ وكان النقاش حاداً فماذا عندهن يخسرنه غير الحياة؟ وحياة عاهرة في منطقة الداخل، تموت جوعاً، ما قيمتها؟ حتى الجذام لا يريد حياة رخيصة إلى هذا الحد وحتى الموت يرفضها.

وذهبت العاهرات الستّ، وتعلمن من تريزا وماكسي ومع الصيدلي كيف يقمن بالتلقيح وتم التعلم سريعاً، فبالنسبة لمن تحترف العهر مهنة، ليس من أمر يصعب عليها، صدقوني، ورحن يغسلن الملابس الملوثة بالطاعون، ويمسحن جروح المصابين بالبرمنجنات، ويفقأن الدمامل، ويحفرن القبور ويدفن الموتى.. العاهرات، وحدهن العاهرات.

لقد شاهد أهالي بوكين أشياء مرعبة في تلك الأيام من أم الجذام. لقد شاهدوا المصابين يسيرون في الطرق والشوارع، وقد طردوا من المزارع وهم يفتشون عن المحجر الصحي ويموتون وهم يمشون. وشوهد الناس يهربون تاركين بيوتهم خوفاً من العدوى ودون اتجاه، ودون هدف. وأصبح حي موريكابيبا شبه مهجور.

هاربان ذهبا يطلبان الراحة في موقع عمل كلاوديو فقابلهما العمال هناك والبنادق بأيديهم ورموهما خارجاً قائلين "اذهبا إلى الجحيم"، ألحا على الدخول، فأمطرت البنادق رصاصاً، فسقط واحد قتيلاً وأصيب الآخر، ولم يعرف كلاوديو أنه كان قد تلوث.. هو، وزوجته، ووالده ووليد جديد، فلم يسلم أحد منهم من مقبرة الجذام.

وأخيراً شاهد الأهالي المدعوة تريزا باتيستا تحمل في الطريق مصاباً بالجذام، بمساعدة غريغوريا وكابريتا وقد وضعته في كيس من الخيش ورفعته على كتفها. كان المصاب زكرياس، ولكن لا العجوز ولا الفتاة الصغيرة عرفتا الزبون في تلك الليلة.

وكان قد طرد من أراضي العقيد سيماو لاميغو مع ثلاثة من المصابين... فلم يكن العقيد يريد تلوثاً في أراضيه، وليذهبوا ليموتوا عند الأم التي خلفتهم وليس هناك حتى لا يلوثوا العمال الآخرين وأفراد العائلة الكريمة. عندما كان زكرياس وتابيوكا قد أصيبا بالجذام كان العقيد مسافراً، لذلك بقي الاثنان هناك وحدث أن مات تابيوكا بعد أن نقل المرض إلى ثلاثة آخرين. ومع وصول السيد انتهت المسألة

عندما تلقى السركال الأوامر الصارمة فتم إبعاد الأربعة إلى خارج الحدود عبر باب المـــزرعة الكبير، ثلاثة دخلوا في الغابة يفتشون عن مكان يموتون فيه بسلام ولكن زكـــرياس كان متعلقاً بالحياة. الجراح المتشققة ظاهرة في جسده العاري، ووجهه كأنه وجه مسخ: إنه الجذام الناسوري. منظر جهنمي، وحيث يذهب أو يمرّ، كان الناس يهربون، وخائر القوى سقط أرضاً أمام الكنيسة.

وجـــاءت تريزا، وبمساعدة العاهرتين - إذ لا رجل في المحلة، حتى ماكسي الـــزنجيات، تجرأ على لمس جسد العامل المدود - ولفته بكيس الخيش، ثم حملته على كتفها ناقلة إياه إلى المحجر حيث كانت امرأتان قد ذهبتا سيراً على الأقدام وشـــاب ريفـــي بالإضافة إلى الأربعة الآتين من موريكابيبا. وبينما تجتاز تريزا الـــدرب الكثيف المشجر، سال قيح زكرياس على فستانها ثم وصل إلى جلدها النحاسي.

- ل -

لم يـــبق لإدارة المركز الصحي غير ماكسي الزنجيات، ولأعمال التمريض غير عاهرات المنطقة، كان يضحك الصيدلي كميليو تيزورا متندراً وهو يعلق على هرب الطبيب، مفصلاً حياة الآخرين في غمرة الوباء.

حتى إنّ طويل اللسان كان قد انتهى بوضع لسانه في الكيس عندما وصل إليه ماكسيميانو بوجهه الذي بدأ الجذام الأسود يغزوه بالبثورات الأولى على الرغم من تلقـــيح نفسه مرة ثانية عند بداية الوباء فقد انتهى بالحصول على حصته. وعندها قامت تريزا بقيادة المعركة، فوضعت المصاب ماكسي في محل إقامة الطبيب الصغير وفي سريره ما دام المنـــزل خالياً، في حين كانت تريزا قد عادت إلى موريكابيبا مع الفتيات الأخريات.

وتحـــت إمرة تريزا كانت الفتيات قد لقحن أغلب سكان المدينة وقسماً من ســـكان الأريـــاف. وإذ كن معروفات في المنطقة كلها حيث كنّ يعشن ويمارسن عملـــهن فقد تمكّن بسهولة نسبية من إقناع الممتنعين عن التلقيح بالقبول به... في الريف، واجهت تريزا سيماو لاميغو الذي كان ممنوعاً على الملقحين أن يدخلوا إلى ملكياته إذ بعد التلقيح يأتي الجذام، كما كان العقيد يعتقد ويردد أمام الناس.

لم تكتــرث تريــزا بالمــنع، ودخلــت دون أن تطلب إذناً تتبعها ماريكوتا وبوابــوندا، وبعــد الكثير من تراشق الألفاظ وإظهار المعايب البشعة الواحد ضد الآخر انتهت تريزا إلى تلقيح العقيد نفسه. و لم يكن العقيد من النوع الذي يضرب امــرأة ليــسيطر عليها، وعلى الأخص جميلة جهنمية، و لم تكن هي تتراجع خطوة واحــدة عن إصرارها على أن لا تعود قبل أن تلقح كل الأجزاء. وكان العقيد قد سمع عنها، وعرف عن المصابين الذين حملتهم على ظهرها إلى المحجر، وعندما رآها مستعدة لكل شيء، تواجهه بهدوء، كما لو أنها لم تكن واقفة أمام العقيد لاميجو، فقــد فهم أن كل وقاره لا يعدو كونه غروراً باطلاً وجباناً إذا ما قورن بشجاعة هذه الأنثى. "أيتها الصبية، إنك كلبة مسعورة وربحت الجولة".

لم يكــن التلقــيح شيئاً مهماً: صعوبة هنا، أخرى هناك، تهديدات بالطعن، شــتائم من مكان لآخر، وحوادث قليلة؛ أما شجارات عنيفة بقبضات اليد تهوي ثــلاث أو أربع مرات على الوجه، فلم يحدث منها شيء. ولكن الصعوبة القاسية كانــت في الــذهاب إلى البــيوت والمحجر الصحي لمعالجة المرضى، في حين كان الــصيدلي يقوم غالباً بأعمال الطبيب، وهن يقمن بكل الباقي: يضعن البرمنجنات والكحــول الأثيلــية على المرضى، يفقأن الدمامل بأشواك الليمون، ينظفن القيح، ويبدلن أوراق الموز الموضوعة تحت جسد المريض وفوقه في الفراش؛ و لم يكن هناك حاجــة إلى شرشــف وغطاء؛ وكن يحفرن في الجلد المكان الذي يسيل منه القيح المتفجر من الدمامل. ومن المزارع والإسطبلات والزرائب كن يأتين بروث الثيران ويضعنه أرضاً ويحرقنه، ثم يوزعن منه على البيوت التي فيها مصابون بالجذام لتحرق علــى الأرض وفي الغرف وينظف دخانها الهواء الملوث من الجراثيم الجذامية. وفي تلك الساعة الحاسمة كان روث الثيران عطراً ودواء.

متأزرة بمنديل رسمت عليه وردة حمراء وسوداء، كان الأستاذ إميليانو غويدس قــد أهداها إياه في زمن الراحة والسلام عندما كانت تقيم في بيت نظيف وتعيش حــياة الرفاهية والأنس، ها هي تريزا باتيستا تسير الآن في أزقة موريكابيبا الضيقة. تعــيش في كوخ مع ماودي فادا بجوار الأخريات في المنطقة الأكثر شقاء وفقراً في العــالم، وفي أقبح المقاود البشرية. ولكن في تلك المرحلة ولا واحدة منهن مارست عملــها التقلــيدي، ولــيس ذلك تعالياً أو امتناعاً، بل لأنهن كن قد أقفلن المكان

وأعطين الوعود بالشفاء، وببساطة، كان، الرجال يمتنعون عن لمس نساء كهؤلاء. إنهن آبار الجذام الممتلئات به إلى درجة القدرة على تخطي الوباء الذي لا يوفر أحداً وعلى مواجهة العدوى باستمرار في بيوت المرضى ورعب المحجر الصحي والاقتراب من الجروح المتقيحة وفي جمع الموتى ودفنهم في المقابر.

كم من المقابر كن قد حفرنها وقلما يساعدهن أحد العمال المتضامنين في المعركة المدهشة. كان الجذام قد قتل بسرعة فائقة وفعالة من لم يكن لديه الوقت ولا الطريقة ليحمل ميتاً إلى المقبرة. أما الموتى الأكثر إهمالاً، فإنهن أنفسهن كن يحفرن لهم القبور في الأرض ويدفنهم. وفي بعض الحالات كانت النسور والغربان تبدأ عملها ولا تترك للدفن غير العظام.

اثنتان منهن أصيبتا بالجدري، ولم تصب واحدة بالجذام الأسود، لأن تريزا كانت قد لقحتهن في بداية العمليات... ومع الحمى القوية، مع أنها غير قاتلة، فإن بولوفوفو أخذت إلى بيت الطبيب الصغير الذي أصبح الآن مليئاً بالمصابين وغدا محجراً رفاهياً على حدِّ التعبير الساخر للصيدلي. وكانت تريزا تأتي صباحاً ومساء لتهتم بالمرأة الضخمة، التي أصبحت جلداً وعظاماً وتحول لحمها إلى قيح، وكذلك لتهتم بماكسي. وكذلك بوابوندا التي ظهرت فيها الحمى وأصيبت بالبثور في جسدها مع دوار قليل، شيء لا يستحق الذكر، ولم يجعلها أسيرة الفراش فتابعت الاهتمام بأهالي موريكابيبا حيث سجل عدد الموتى رقماً قياسياً في المدينة. لقد كانت بوابوندا ذات قدرة قوية وطاقة فعالة لا يبلغها أحد في التعامل مع الرفش وحفر القبور.

لم تمت إحداهن وعشن جميعاً ليروين الحكاية، ولكنهن ألزمن بمغادرة بوكين لكسب العيش في مناطق أخرى إذ لم يعد لديهن زبائن في بوكين، لا زبائن لمن يحمل في جسده جذاماً أسود بهذا القدر. وأصبحن تائهات فضلاً عن كونهن عاهرات... وكذلك تريزا باتيستا غيرت مكان إقامتها في بوكين عندما انتهى الوباء ولكن ليس لنقص في العروض، بل على العكس، وإذ رآها تجتاز مركز المدينة، على رأسها الإزار، دائمة الانشغال بالمعقمات والأدوية والبرمنجنات، وأكياس الخيش، والمرضى والموتى، فإن رئيس غرفة تجارة البلدية الفاضل، والذي هو في مركز المسؤولية كونه رئيساً للبلدية، وصاحب مزرعة ودكان وناخبين ومال

يقرضـــه بالربا إلى أيد أمينة، وزعيم العائلة المؤلفة من زوجته وخمسة أولاد، والذي لا يـــنازعه منازع حتى الآن، فإن رئيس الغرفة التجاري ذاك متأثراً بذلك القدر من الطيبة والجمال الموضوعين في هذا العمل المقرف، بدا مستعداً لأن يحذو حذو الناس الكثيرين وأن يتّخذ صاحبة وبيتاً عسكرياً لأنه، وكرئيس البلدية يحتاج إلى الاهتمام بالمظاهر: سيارة، دفتر شيكات، وصاحبة.

وترشـــح لتريزا أيضاً العقيد سيما لاميجو المتعود على المصاحبة، وألحوا إليها بالتركـــي ســـكاف التاجـــر بالجملة والمفرق، وكذلك ترشح الصيدلي سيد حياة الآخرين والطبيب في ساعات التفرغ وقلة العمل.

مـــصاحبة؟ أبداً. لا مصاحبة بعد اليوم. من قبل كانت عاهرة مفتوحة الباب لعفونة موريكابيبا حيث لا ينتهي الوباء هناك كلياً، وعاد الجذام الأسود أبيض، وأم الجـــذام ابـــنة؛ وظلّ هناك الجدري، المرض اللعين في منطقة الداخل يصيب البعض بالعمـــى ويسبب الزحار الفعال في قتل الأطفال ويقتل راشدين في بعض الأحيان حتى لا يفقد العادة وليقوم بالواجب.

– ن –

الـــنون حرف رقيق في الأبجدية، حرف الحكماء من أصحاب الحياة الصاخبة وســـوء الطالع. ولكونها كتاباً مستعملاً يرغب الجميع في قراءته، ولتعرضها لكلام الـــناس وتعاطيها التضميد، لقبوها بتريزا النون والسبع حبات. وفي الاحتفال الديني لاستحضار الأرواح لدى الزنوج أعلنوها تريزا أومولو.

– هـ –

... وهكـــذا عـــندما وصل أخيراً الفريق الطبـــي من أراكاجو، والمكون من طبيـــبين وســـتة ممرضين متخصصين لاستئصال شأفة الجدري وجدوا أنه كان قد استؤصـــل كلياً: حتى ذلك الحين لم يبق إلا معوقان يتقلبان في المحجر الصحي؛ منذ أســـبوع لم تـــسجل حالات جديدة، ولا أموات برسم الدفن؛ الصدفة لم تمنع أن يكون المؤهلون في الفريق الطبـــي الواصل حديثاً كما هو مفروض، هم، في البيان الرسمي الحماسي الصادر عن مديرية الصحة العامة، من تمكنوا من القضاء التام على

الجـــدري الـــذي استفحل في ولاية سرجيبـــي، وذلك بالشجاعة والتفاني اللذين بذلهما الفريق الطبـــي.. وقد أنصف البيان الرسمي أيضاً وعلى قدم المساواة الطبيب الـــشاب أوتـــو أشبينيرا الذي يكفي أن يكون قد تسلم إدارة المركز الصحي في بـــوكين واتخذ الاحتياطات الأولية الحاسمة ليقطع الطريق على الوباء، وذلك بفضل مؤهلاته الكبيرة وتعمقه في رسالته الإنسانية المشهود لها من الجميع، وبفضل تنظيم النضال وخوضه المعركة الطاحنة ضد الشر.

– "فقـــط أريد أن أرى؛ إذا لم يزل لدى الطبيب الصغير الشجاعة ليعود إلى هـــنا"... ألمح الصيدلي كميليو تيزورا، ولكن كونه معروفاً بلسانه السليط فلم يعره أحد سمعاً: وبعدها حصل أنّ مدير المركز الموجود في إجازة في باهيا قد نال الترقية الموعـــودة، الموعـــودة والمـــستحقة. وإذ إن والد جوراسي قد انتمى إلى الحكومة الجديـــدة، فـــإن ابنته قد ترقت هي الأخرى وانتهت إلى ممرضة من الطراز الأول، بفـــضل الخـــدمات الجليلة التي قدمتها لمجموعة السكان خلال اجتياح الجذام لمدينة بـــوكين، وتزوجت بعد ذلك، و لم تكن سعيدة لأن الطبيعة الزراعية لا تتمكن من توفير التعايش مع الفرح بالنسبة إليها. فقط ماكسي الزنجيات لم يحصل على الترقية واســـتمر مطبباً بسيطاً، سعيداً أن يكون قد نجا بحياته وخرج بقصة يرويها وذكرى جديدة.

وعاد الأهالي إلى بيوتهم، وشاهدوا من جديد الأطفال والكلاب يعبثون في أكـــوام النفايات في موريكابيبا تفتيشاً عن الطعام. الغربان المبعثرة في السهول كانـــت مـــن وقت لآخر تنبش جثة مدفونة عند سطح الأرض تقريباً، تقتل بها الجوع.

ذكـــريان دينيتان احتُفل بهما شكراً وحمداً: في حي إغنيلو من موريكابيبا فإن الإلـــه الزنجي أومولو كان له عيد، ورقص وسط الشعب على أنغام الأوبانيجي. في البدء رقص إجيشيه فانتقلت العدوى إلى أومولو الذي مات ثم ولد من الجذام وفي يـــده الحربة وعلى وجهه المدمل غطاء من الحرير، ثم رقص جاغون، المحارب وعلى وجهـــه اللون الكستنائي الشبيه بلون الجذام، وأخيراً رقص الآلهة معاً وحيا الشعب العجـــوز الـــذي يرفع يده ويردّد: أوتوتو يا أبي! وجاء الإلهان أومولو عانقا تريزا ومسحا جسدها ومنعاه عن كل أنواع الطاعون إلى الأبد.

وخـــرج موكب آخر من ماتريز يتقدمه رئيس الغرفة التجارية ورئيس البلدية بالـــوكالة، ويحمـــل الوجهاء صور القديس روكز والقديس لازارو وهما أوبالويه وأومولـــو عند القوم البيض، وسارت في الموكب حشود شعبية واسعة.. وكانت الأناشيد والصلوات والتضرعات، وقرعت الأجراس ابتهاجاً.

ولكـــي تـــذهب من بوكين حيث لم يعد لديها ما تفعله، فقد اضطرت تريزا باتيستا إلى أن تبيع بعض مصاغها إلى التركي سكاف المرشح لأن يصاحبها لو كان ذلـــك ممكـــناً، ولكنّه لم يكن... لم يعد من عشق بعد اليوم ولا حتى رفقة مغامرة تفتيشاً عن المتعة والهدوء. أبداً تريزا التي لم يرغب فيها الموت، والتي رفضها الجذام الأســـود، هي من الداخل مسعورة محمومة، في صدرها خنجر مغروس عميقاً، إنّها ســـتذهب في اتجاه البحر حيث تطفئ نفسها... "آه، جانواريو جيريبا، أيها الطير العملاق، أين تسير الآن؟ حتى الموت لم يردني عندما رحت أفتش عنه يائسة وسط الجذام الأسود، من دونك جانو الحب، ماذا تعني الحياة؟

أريد أن أكون حيث تكون، أقتفي آثارك في الخفاء، وأنظر إلى جانب رأسك في الـــسفينة وأنا بعيدة، وأتألم لغيابك في البحر، إلهي، في أية ساعة يمر القطار إلى باهيا؟" تريزا تريد هي الأخرى أن تهرب، تهرب من الشوق القاتل ومن اليأس.

وبينما المصليات المتضرعات يعدن من الكنيسة شاهدن تريزا باتيستا تسير باتجاه المحطة وحيدة. واحدة منهن قالت ووافقتها الأخريات: "الوعاء السيئ لا ينكسر أبداً! أناس مستقيمون كثيرون ماتوا وهذه المتشردة التي حشرت أنفها في المحجـــر الـــصحي لم يصبها شيء. كان بإمكان الجذام أن يأكل وجهها على الأقل".

يجهـــل زكرياس كيف بلغ المحجر الصحي، وإذ كان شديد التعلق بالحياة فقد شـــفي. وعدا ما تمّ الاطلاع عليه في بعض النشرات الإذاعية فإن حكايات كثيرة حـــول الجـــذام الأسود قد طافت الدنيا وأصبحت تروى غناء وأناشيد وترنيمات حول ما سببه الموت من الحزن.

عـــدة نـــشرات كتابية حول الموضوع كانت قد وزعت في معارض المنطقة الشمالية الشرقية. ولكن ليس من نشرة أو رواية أنصع حقيقة وأكثر صحة من هذه التي انتهت الآن إذ لم يبق شيء ليروى.

وقبل أن أنهي الحكاية، فإنني أكرر، وصدقوا إن شئتم: إن من قضى على الجذام الأسود الذي اجتاح شوارع بوكين هن العاهرات، عاهرات موريكابيبا وفي طليعتهن تريزا! بأسنانها الحادة ومنها السن الذهبية، فإن تريزا باتيستا قد عضّت على الجذام وامتصته ثم بصقته في الغابة، وخرج الجذام طائراً إلى القطار، في هروب خفي إلى نهر سان فرانسيسكو أحد محلات إقامته المفضلة، في حين أن الشعب كان قد بدأ يعود إلى المنازل المهجورة.. وفي مغارة خفية فإن الجذام ينتظر الانقضاض مرة أخرى. آه! إذا لم يحتاطوا فإن الجذام سيعود يوماً ليجهز على ما تبقى، والويل للشعب! فأين يجد مرة أخرى لقيادة المعركة تريزا الجذام الأسود؟



القسم الرابع

الليلة التي نامت فيها تريزا باتيستا مع الموت

1

تلـــوى الأســـتاذ إميليانو غويدس، وقد انفك فمه المطبق تقبيلاً: "الويل لي يا تريـــزا"، ثم ألقى رأسه الفضي على كتف عشيقته. وبينما هي مسترسلة في التوقد الجنـــسي ذاقت في شفتيها طعم الدم وأحست في ذراعها بشدة قوية من أصابعه، وهـــوت جبهته تلامس كتفها، وبان في فمه نصف المفتوح الريق الأحمر، فأحست بـــثقل الموت فوق جسدها العاري. الموت يعانق تريزا باتيستا، يجثم فوق صدرها وبطنها، بين فخذيها وفي داخلها، ويمارس معها الحب، تريزا باتيستا في الفراش مع الموت.

هكذا إذاً؟ الأعرج يتكلم عن المُقعد والعاري عن المستتر بورق التين. الانتقاد ســـهل وليس أبسط وأمتع من أن تنسب الأخطاء إلى الآخرين يا بني.. ولا يكلف جهداً القول إن تريزا باتيستا لم تنفذ الوعد وتركت الجميع في اللحظة الحاسمة بينما الاحتفال جاهز ليبدأ، والأطعمة موضوعة على الطاولة، وزجاجات الكاشاسا تملأ المكـــان. ولكـــن التفتيش عن الأسباب التي حدت بها إلى القيام بهذا العمل هو ما يستدعي الجهد، وعند ذاك، لن يكون إلقاء القول على عواهنه.

يـــا بني إن في قعر حساء الأنغو لحماً، ومن يفتّش يحظى بالقطع الجيدة. ومن يريد أن يعرف حقيقة، إذا كان حدث ما بهذا الحجم قد وقع فعلاً، وما هي جوانبه وملحقاتـــه، فعلـــيه أن يخلط أوراق اللعب ويوزعها على المنهمكين والمهتمين في الأمـــر، وأن يخرج سائلاً الجميع، تماماً كما تفعل أنت الآن. ولا يهم إذا حدث أن

أدار أحد قليلي الأدب ظهره لك و لم يُعرك انتباهاً و لم يجبك إلى طلبك، فاحتقره... اذهـــب من جديد ونقّب في حساء الأنغو وضع يدك في البشع والجميل، في القذر والنظـــيف، وضـــع أنفك في كل مكان. إذا لمست بقرة أو قملة فلا تحزن، فهذا يحصل غالباً. ولكن لا تصدق كل ما يخبرونك به، وانتبه إلى من يجيبك، ولا تخرج من هناك وأنت تصدِّق بشكل رخيص، فأناس كثيرون يحبون أن يعرفوا من حيث لا يعـــرفون، وأن يخترعوا ما لم يكن له وجود.. لا أحد يريد أن يعترف بالجهل، وهـــو يعد عدم معرفته بكل دروب حياة تريزا، نقصاً. انتبه، لكونك شاباً عصرياً فمن السهل أن يخدعوك وأن تخدع نفسك.

فـــيما يتعلق بـــي يا بني، فإني أقول لك: ما حدث لاحقاً في مرفأ باهيا، في الميناء الذي ولدت فيه، وضعْت فيه، وفيه موطئ قدمي، فإنهم يُصغون وينتبهون إلى مـــا أقول وإني أستطيع أن أفيدك بعدة أمور متعلقة بتريزا وأزماتها، وبنظام التهدئة والإضراب وجهل الشرطة، والسجن، والزواج والبحر اللامحدود، والعيش بالنضال والحب... إني عجوز ولكني ما أزال قادراً على أن أنجب ولداً، ولقد أنجبت خلال حـــياتي المظلمة أكثر من خمسين، وأثريت، وكان عندي عشرات من المراكب المُبحرة عبر الخليج، وإني اليوم فقير ولا أملك شيئاً، ولكني حين أدخل في مقاطعة الإله شانغو، فإن الجميع يقفون ويطلبون أن أباركهم، وهناك أُدعى ميغيل سانتا أوبا أريه، وفيما يتعلق بتريزا فإني أضع يدي في النار دون أدنى خوف، صادقاً فيما أقول.

لم تحمـــل تريـــزا في صدرها الخيانة أبداً و لم تستعمل الغش... ولكن، معها، أجـــل، فقد استعملوا الخيانة والغش واستغلوها بهما. وليس بسبب ذلك واجهت القدر السيئ، و لم تدَّع سوء الطالع، معلنة نفسها ضحية العبث أو أمراً واقعاً، فاقدة الأمـــل، مستسلمة. أبداً؟ لا أستطيع أن أجزم يا بنيّ، فاعلم كم هو صعب إعطاء النـــبأ الأكـــيد. ولكـــن بعد الإمعان في التفكير أعتقد بأنها وصلت، وبعد تفاقم الإضـــراب وأخبار البحر السيئة الآتية من البعيد، إلى التعب وعدم الاكتراث، وإلى موانئ أمان غير أكيدة حيث تبلى سفن مهملة كمراكبـــي... جد متعبة ومكتفية مـــن الحياة، فقد انتهت دفعة واحدة إلى القبول بالعرض وأمرت بالاحتفال.. زواج تريـــزا باتيستا ذاك أستطيع أن أخبرك به يا بني، وكوني كنتُ العرّاب فإني أعرف الحبكة.. وكوني صديقاً من ناحية أخرى فإني أعطي الفتاة حقاً، فانظر جيداً.

سارت منطفئة الروح، مستسلمة للقدر، دون أمل، وتعبة إلى حدٍّ يكفي معه أن أقــول لـــك إنها سمعت احتقار الشاب يشتمها بلغة وضيعة فلم تعره انتباهاً و لم تخرج وراء الجبان لمقاتلته كانت تعبة جداً من كل شيء حتى من القتال. ولكن أن حدث أن أحست بذلك الإحساس، فإن المسألة لم تكن إلا مرحلية. وكان يكفيها أن تتغلب على نكسة ريكونكافو لكي تعود تريزا كلية، تبتسم رافعة أشرعتها من جديد.

أســتطيع أن أحــدثك عــن الزواج، أيها الشاب، عن إضراب سوق البغاء والــتوقف عــن العمل، وعن النساء العاملات هناك مجتمعات أمام الكنيسة، وعن مهمة الشرطة وسواها، عن كل هذا سأعلمك بالحقيقة، وكوني فقيراً ولكنّي كنت غنياً فيما سبق، فإني أدعوك إلى أكلة سمك حارة من الطراز الأول في مطعم الراقية ماريــا دي ســان بيدرو في أعلى السوق، ولكن، فقط، لا أستطيع أن أخبرك بما تطلــب مني وتريد أن تعرفه عن حياة تريزا في مدة معاشرتها الأستاذ وموته. وليس عــندي علم بهذه القصة، وما أعرفه عنها إنما سمعته سمعاً. وإذا كان الشاب يريد أن يعرف كيف حدثت الأمور فليذهب إلى أشتانسيا حيث حدث كل شيء. السفرة قصيرة، الناس طيبون، والمكان جميل، وهناك يلتقي النهران: بياوي وبياوتنغا ليكونا نهر ريال ويفصلا بين سرجيبــي وباهيا.

ليختتم الحديث الطويل غير المنتظر في تلك الليلة من يوم الأحد، همس الأستاذ إميليانو غويدس:

- "ليتني، ليتني كنت عازباً لأتزوجك. لا، لأن الزواج يمكن أن يغير شيئاً مما تعنين لي" كانت الكلمات غزلاً، وموسيقى خفية، والصوت الأليف يغرق في الحياء بصورة غير متوقعة، ويبدو الصوت أيضاً أكثر خجلاً في سمع تريزا: "امرأتي..".

خجــل مراهق يظهر بشكل مفاجئ، وحزن مهيمن، وكائن بلا حماية. هكذا بــدا، كأنه في تناقض كلي مع شخصية الأستاذ القوية، المعتاد على الأمر والنهي، الواثــق من نفسه، المستقيم الصلب، الوقح والمتطلب عندما يقتضي الأمر أن يكون في أغلب الأحيان لطيفاً ذا قلب دافئ كأنه سيدة في تصرفه المرهف، إقطاعي كبير، وصاحب أرض ومقاصب كثيفة ومصنع سكر ولكنه أيضاً رأسمالي مديني، مصرفي، رئيس مجلس إدارة عدة شركات وخريج كلية الحقوق، و لم يكن يخجل بقول هذا.

إنّــه الأســتاذ إميلــيانو غــويدس أكبر آل غويدس أصحاب مصنع كاجازيراس والمــصرف الإقليمــي في باهيا وسرجيبــي وشركة إكزمبورتكس. ش. م. وهو السيد الحقيقي لكل هذا، المقاول، الشجاع، الآمر الناهي، الكريم، أياً كان الكلام عنه، فإن الصوت هو الذي فعل في تريزا فعله.

2

هــناك في حديقــة القراصيا، وقمر أشتانسيا ينساب ذهباً فوق شجر المانجا والأباكــاتي والفستق، وعطر الياسمين يطير مع نسيم نهر بياوتنغا، وبعد أن قال لها بمــرارة لم تتخــيل أن تسمعها تريزا في يوم، وإن كانت قد تكهنت بأمور كثيرة، وشيئاً فشيئاً على مرِّ الأيام، فقد غمرها بين ذراعيه وقبَّل شفتيها ثم خلص بصوت متأثر مرتجف: "تريزا، حياتي، حبــي، ليس لي سواك في هذا العالم...".

ثم وقــف، كأنــه شــجرة باسقة: شجرة كثيفة الأوراق وذات ظل مغرٍ، طيلة السنوات الست تلك فإن شعره الرمادي وشاربه الكث قد غديا فضيين، ولكن وجهه مــا يزال منبسطاً وأنفه مشرئباً، وعيناه نافذتين وجسده قوياً، ولا تبدو عليه السنوات الأربــع والــستون الكاملة من عمره، وبابتسامة خجلى مختلفة عن ضحكته العريضة حــدّق في وجه تريزا على ضوء القمر كأنه يطلب منها الصفح عن الإيحاء بالخشونة، والحزن، وحتى عن بعض الغضب الذي وسم الحديث، علماً أنه حديث حب نقي.

وبيــنما هي ما تزال ممدّدة في الأرجوحة، مصابة في العمق، في أعمق أعماقها إلى حــدٍّ أحست معه بعينيها مبللتين وبقلبها مفعماً بالصيغة اللبقة التي صاغها، فإن تريزا رغبت في أن تقول له أشياء كثيرة وأن تعبّر له عن حب كبير، ولكن، وعلى الرغم من الكثير الذي تعلمته بصحبته خلال هذه النصف دزينة من السنوات، فإنها لم تجد الكلمات المناسبة. أخذت يده التي مدَّها إليها ورفعت نفسها عن الأرجوحة لترتمي بين ذراعي الأستاذ وتمنحه شفتيها من جديد، ماذا تقول له زوجي، عشيقي، أبــي، صديقي، ابني؟ "ضعي رأسك على عنقي واستريحي يا حبيبتي". جبل من الأحاســيس والمــشاعر، والاحتــرام، والعرفان بالجميل، واللباقة، والحب، ولكن الــشفقة، أبداً... الحب؟ أجل... الحب والإخلاص، كيف يقول لها كل هذا دفعة واحدة؟ "ضعي رأسك على عنقي واستريحي يا حبيبتي".

أكثر من رائحة الياسمين التي تعطّر المكان، فقد اشتمَّت تريزا في صدر الأستاذ رائحـــة ذلك العطر السري، الخشبيَّة الناشفة، والتي تعلمت أن تحبَّها، لقد تعلمت معه كل شيء. عند انتهاء القبلة لم تقل إلا: إميليانو، حبيبـــي إميليانو! كان ذلك كافـــياً له، وكان يعرف كم كان يعني ذلك لأنها كانت دائماً قد نادته بالسّيّد و لم تقـــل له قط أنت أو أنتم وحتى في ساعة المطارحة الغرامية إذا سمح بأن تعبّر له مرة عن حبها، لقد تجاوزا العقبات الأخيرة.

– لن تناديني أبداً بالأستاذ بعد اليوم وحيثما كان.

– "أبـــداً لـــن أناديك بغير إميليانو"، ست سنوات كانت قد مرّت منذ أن انتشلها من سوق البغاء.

وبقوة الأربع والستين سنة من العمر التي قضاها حافلة، فإن إميليانو غويدس، ودون جهـــد، رفع تريزا بين ذراعيه وأخذها إلى الغرفة من بين ضوء القمر ورائحة الياسمين.

مرة، حملت كذلك تحت المطر، في بيت النقيب، وكما تحمل العروس في ليلة عـــرس، ولكـــن عرســـها هناك كان تزويراً وخيانة، واليوم، فإن من يقودها هو الأســـتاذ، وهـــذي الليلة من الحب كأنها ليلة المسرات الأولى وقد سبقتها سنوات طويلة من التعايش اللبق ومشاركة فراش الملذات والمصاحبة بمعناها الكامل. "ليتني كـــنت عازبـــاً لأتـــزوجك". إنها لم تعد عشيقة وصاحبة غير شرعية على الطاولة والبيت الموضوعين في خدمتها، إنها زوجة والزوجة الحقيقية.

خـــلال السنوات الست تلك لم يكن عندها في الفراش مع الأستاذ إلاّ لحظة مـــتعة كاملة ومطارحة عشق بمعناها الكامل. منذ الليلة الأولى عندما ذهب الأستاذ لـــيأتي بهـــا من نزل غابـــي حين وضعها وراءه على صهوة جواده وخرج بها من هناك. أثبت أنّه معلم رفيع الحس. بين يديه الخبيرتين الصبورتين أزهرت تريزا امرأة لا تدانيها امرأة، ولكن، في تلك الليلة من الياسمين المتفتح، والأسرار والخجل التي لا حـــدود لهـــا، والتي فتح فيها الأستاذ قلبه وغسل صدره وكسر طين الكبرياء فيه، وعندما غدت تريزا سنده على حياته المرتبكة وبلسماً لجرحه وفرحاً، وزوجته التي يـــشتاق إليها في تلك الليلة الوحيدة من السلم مع الحياة، فإن الاهتمام كسا المتعة كساء ذهب بها إلى أبعد الحدود.

وخـــلال وقـــت الاسترخاء تبادلا مسرات العشق، وألاعيب العرسان في ليلة الفـــرح، قـــبل أن يذهبا في رحلة خبب: الفارس والمطية، الأستاذ إميليانو غويدس وتريـــزا باتيستا. وعندما همَّ الأستاذ بامتطائها، فقد تلقفّته تريزا تماماً كما رأته في مـــزرعة النقيب وقبل أن تأتي لتعيش معه: ممتطياً مهراً أصيلاً وفي يده اليمنى رسن الفضة، وبيده اليسرى يفتل شاربه ويخترقها بعينين ثاقبتين، فعلم أنها أحبته منذ ذلك الـــوقت عـــندما كانت عبدة تموت من الخوف، فقد تجرأت أن تنظر إلى رجل... كانت المرة الأولى.

عاريـــة مـــن الملابس ومن كل غطاء ولكنها كانت مكسوة بالقبلات، تلفُّه بذراعيها من أعلى، تأسره برجليها وتشده إلى بطنها، وتنتهي المطيّة إلى ميادين بلا حـــدود مطلقـــاً لهـــا عنان اللذة... حصان لا يتعب عبر الجبال والأنهار، يصعد، يـــنحدر، يأخـــذ طرقاً فشعاباً ضيقة ويجتاز المسافات ماضياً عبر الغسق والشفق، والظل والشمس، آه، إميليانو، حبـــي، ويصل الاثنان معاً إلى خلية العسل... التفّ اللـــسانان علـــى بعـــضهما وأصبح العناق هو المسيطر عندما انفتح الجسدان على الرجفة: "ويلي يا تريزا"، قال العشيق متعجباً، ثم سقط ميتاً.

3

وهـــي تقفـــز عـــن الفراش أحست تريزا بثقل الموت فوق صدرها وبطنها وبشخرة العشيق الأخيرة وارتعاصته العميقة؛ هل كانت ارتعاصة ألم أم لذّة؟ "ويلي يا تريزا"، قال ذلك ومات وهو في غمرة الحب. الآن أصبح رفيقُها في الفراش غير ذي حـــركة، وهـــي ما تزال في أوج توقّدها الجنسي تحترق شبقاً وترخي نفسها للنـــشوة إلى أن أحـــست بثقل الموت. لا تستطيع أن تصرخ ولا أن تطلب النجدة مأخـــوذة من صدرها وحنجرتها ومن فمها الملطخ بالدم الآتي من الفم الآخر. حتى في الموت أحست بطريقة اختيار الأستاذ لساعته الأخيرة في السرّية المطلوبة.

مـــضت عدة دقائق أحست خلالها تريزا بنفسها مجنونة ملعونة، وقد اتخذت الموت عشيقاً ورفيقاً في الفراش واللذة. عينان جاحظتان، خرساء، ضائعة، جامحة، أمـــا الفراش ذو الشراشف المغسولة بماء الخزامى، فلا تستطيع أن تستوعب الأستاذ الـــذي خانـــه قلبه المتعب من الكبرياء وخيبات الأمل: هو الموت متمدداً في حالة

العــشق، وتريزا باتيستا قد تلقته صدراً إلى صدر بين ذراعيها، وساقيها وفخذيها وشدته إلى بطنها فدخل الموت آخذاً إياها ومعطياً نفسه لها.

انتهى الاحتفال. وفجأةً كان الموت، وحده الموت، يمتد في الليل ويتمدد على الفراش ويبسط نفسه على بطنها ويسم بميسمه قدر تريزا باتيستا.

4

بجهــد جهــيد استطاعت تريزا أن تضع على نفسها فستاناً وتهرول لإيقاظ الــزوجين الموظَّفين لولا ونينا، ولمظهرها، وكأنها أصيبت بالجنون، تساءلت الخادمة متعجبة:

– ماذا حدث يا سيدة تريزا؟

ووقــف لولا في باب الغرفة وقد انتهى من ارتداء قميصه، فتمكّنت تريزا من أن تقول له:

– اذهــب ســريعاً وقل للأستاذ إماريليو ليأتي إليَّ بأقصى سرعة لأن الأستاذ إميليانو بحالة سيئة.

خــرجا من الغرفة راكضين، لولا خارجاً إلى الشارع ونينا داخلة البيت شبه عاريــة وهــي تحاول أن تمسك بنفسها، وفي الغرفة، لمست وتفحّصت الشراشف الملطَّخــة والموت، ووضعت يدها على فمها وهي تشهق: "ويلي لقد مات العجوز وهو يمارس الجنس مع هذه الملعونة".

وعــادت تريزا بخطوات بطيئة، وهي ما تزال دون القدرة على السيطرة التامة على رجليها وانفعالاتها، وغير متماسكة التفكير في نتائج الحدث... نينا راكعةً أمام الفراش، تتمتم صلاة، وبأسفل عينيها تتجسَّس على وجه السيدة المتحجر، السيدة هي امرأته بينما هي موظفة لدى الأستاذ. لماذا لا تركع اللعينة، هي الأخرى، جاثية تــصلي وتطلب الغفران من الله لها وللمرحوم؟ أجهدت نينا نفسها في التفتيش عن الدموع، وكونها شاهدة على نزوات الصبا لدى الثري العجوز، فإن الخادمة لم تجد أيــة مفاجأة في تلك الطريقة المتفردة في الموت. كان لا بد للعجوز أن ينتهي هكذا نتيجة عسر هضم. قالت نينا مرة وكررت قولها لولا المرأة المكلفة بغسيل الملابس: "في يوم من الأيام فإنه سينتهي في الفراش وهو يعلوها وجهاً لوجه".

خـــلال المـــدة الأخيرة، لم يكن الأستاذ يغيب أكثر من عشرة أيام ليعود إلى أشتانـــسيا، وعندما كان يضطر إلى التأخر نتيجة المشاغل الكثيرة، فإنه كان يعود ليمكث وقتاً مضاعفاً وطيلة الأسبوع ويقضي ليل نهار في حجرة تريزا الخاصة وهو يعـــبث في ثديـــي التائهة وصولاً إلى الرجفة. عجوز أحمق، ودون أن يقيس قوته ويتأمل في طاقته معتنياً بنفسه، فإنه راح يفرط في قواه مع شابة ملتهبة دون أن يرى غيرهـــا أمامه بين كل اللواتي عرضن أنفسهن عليه ابتداء من نينا، بينما هو متعلق بالمـــر الـــضيّق، دون أي اعتبار لسنّه المتقدمة وللعائلات الوجيهة، ولم يكن قط راضياً عن الاستقبال في بيت عشيقته لرئيس البلدية ومدير الشرطة والسيد القاضي وحـــتى للأب فينيسيوس، وكان يخرج معها في الشارع ممسكة بذراعه ويذهبان إلى جسر نهر بياوى ليسبحا معاً في كاشويرا دي أورو في بياوتينغا، وقليلة الحياء تبدو بالمايوه مظهرة جسدها، وهو عار يستر شجرة التين وثمارها الناضجة بواسطة لباس صـــغير؛ كل ذلك كان خلاعات غريبة تدمّر العادات الصالحة في أشتانسيا. وهذا عـــارٌ، فـــإن العجوز كان ما يزال يبدو فتياً جميلاً، ورجلاً ما زال في تألق حسن، ولكن من ناحية السن، فقد كانت تفصله أربعون سنة عن تريزا. كان لا بد من أن ينتهي نتيجة كل ذلك، فالله صالح ولكنه قبل كل شيء عادل ولا أحد يستطيع أن يتكهن بساعة العقاب.

عجـــوز ملـــتهب شـــبقاً... ومع ما كان يبدو عليه من القدرة والعافية كان ســـيكمل الخامسة والستين من عمره، وقد سمعته نينا يتحدّث عشية قبل أمس مع الأســـتاذ إماريلـــيو، عن العمل والمتعة، أما عن المشاكل والمصائب فإنه لم يتكلم، وكأنه لم يعرفها... رجل مرتاح يوزع الورق كشاب عصري وهو يتبجَّح بنفسه، لقـــد كـــان في الفراش، أو على أريكة صالة الاستقبال، أو الأرجوحة، أو في أي مكان وفي كل ساعة، صاحب المتعة المستمرة كما لو كان عمرهُ ثمانية عشر عاماً، والأبعد من ذلك فإن ما يقل في السن المتقدمة لم يكن يقل عنده هو، ذلك الخاطئ المتحجّر.

في الليالي الساطعة بالنجوم، والقمر ينساب ذهباً وفضَّة، عندما كان لولو ونينا يأويان إلى الفراش، فإن الرذيلين، الفاجر وقليلة الحياء، كانا ينصبان شبه خيمة تحت أشـــجار المانجا الكثيفة، وهناك كانا يقومان بكل شيء تاركين السرير المصنوع من

خشب الجاكاراندا والفراش الوثير وشراشف الحرير الناعم في الغرفة المطلّة على مجرى النهر. وكانت نينا تشق الباب المطل عليهما قليلاً، وتنظر عبر ضوء القمر تقلّب الجسدين وتصغي في صمت الليل إلى التنهدات والآهات والكلمات الفالتة شعراً. كان لا بد للأستاذ أن ينتهي بجلطة إذ كان دمه حاراً وقوياً. كان هادئاً، وقلما كان يثور، ولكن الدم كان يصعد إلى رأسه إذا حدث أن ثار أو غضب: فيحمّر وجهه، وتتّقد عيناه ناراً، ويزأر صوته فيصبح قادراً على ارتكاب أي عمل، لقد رأته نينا هكذا، مرة واحدة، عندما قلّل أحد بائعي القرع والبطاطا الحلوة من احترامه: فقد أخذ البائع من رقبته وراح يصفعه دون توقف؛ اكتفى بعدها عند حركة وكلمة من تريزا جعلته يوقف العقاب ويستعيد هدوءه، أما الوقح، وعنقه ملطخة بعلامات تركتها أصابع الأستاذ، فقد هرب تاركاً سلة الخضار؛ أمرت تريزا بالإتيان بكأس ماء، وعندما جاءت بها الخادمة وجدته غارقاً في العناق والقُبل ورأسه مسند إلى عنق فتاة الهوى؛ أما المخلوق المسكين فقد عاد ليأخذ سلة القرع ويعتذر عن عمله الأحمق، وقد استمر اشمئزاز الأستاذ منه بادياً على ملامحه، هذه المرة أخذ أمثولة وأكثر.

5

لماذا تبقى تريزا واقفةً هناك، ولا تأتي للصلاة على روح المرحوم؟ رجل صالح ومستقيم، بلا شك، ولكنه في رحيله الأبدي مع خطيئته المميتة، فوق العشيقة، وكونه متزوجاً وأباً وجدّاً، فإن إنقاذه لا يتم إلا بالصلاة الكثيرة والقداسات والنذور والمزيد من أعمال البر والإحسان؛ ومن الذي يجب أن يتضرع أكثر من سواه إلى الله غير هذه المنحرفة الأخلاق؟ يجب أن تصلي وتندم على الحياة الخاطئة التي عاشتها مع زوج المرأة الأخرى، وعلى الرذائل التي بها فرضت عليه المستحيل وبدّدت قوى العجوز، إنّ العقاب الذي استحقه يقع عليها هي وحدها.

عجوز مرح، يحاول أن يظهر نفسه بمظهر القدير، وعلى مستوى قدرة امرأة عشرينية في البيت، ملتهبة، لا تكتفي، وهو يلعب دور الذكر الشاب القوي، المرة تلو الأخرى. لماذا لم تتدبر صاحباً من شباب المدينة لتوفّر على الحمار العتيق قواه؟ إنها وسخة إلى حدٍّ المحافظة على نفسها غير قابلة للمسّ أمام القاسي العود،

المـــستقيم، المناضل في استهلاكها، من يدري، فقد تكون الفنانة في الهوى قد قتلته بالإصرار على الخطيئة وبهذه السرعة لتضع يدها على المبلغ الكبير دفعة واحدة.

لمـــاذا لا تـــركع على ركبتيها لتصلي على روح الخاطئ؟ إنه لا يحتاج فقط إلى الـــصلاة، بل يستحق الأناشيد والزياحات والقداسات وأفعال الإيمان. لقد تعودت نينا أن تسترق الأحاديث عندما تقلب البيت مرتّبة إياه هنا وهناك منتبهة إلى كلّ ما يحدث وهـــي تقوم بالعمل؛ فعند بداية الليل، وبينما تصل إلى الحديقة مع صينية القهوة سمعت إشـــارة إلى وصية في حديث الأستاذ مع الصاحبة. لماذا لا تشتكي القذرة، ولا تغطي وجهها بالسواد، ولا تتلوّى صراخاً وتنهداً، ولا يظهر عليها شيء من كل هذا؟

باقـــية هـــناك واقفـــة، بعيدة، صامتة. إنّ عليها، في الحدّ الأدنى، أن ترضي الموجـــودين بينما تنتظر الوصية، ومن ثمّ تذهب للتمتع بالحياة في أراكاجو وباهيا، وهي تبدد ثروة الأستاذ مع شاب عصري قادر أن يتحمل متطلباتها الجنسية التي لا تـــرتوي. إن الثـــروة التي ستضع يدها عليها قد جمعت بالاحترام حتماً، وستسرق قلـــيلة الشرف المال من الأولاد والزوجة الشرعية التي من حقها الحصول على كل الميراث. إن العليمة، المتفننة، الحرّة، سترتكب خطيئة جديدة من الخطايا المميتة.

المخادعـــة، اللاأخلاقـــية، التي لا قلب لها، بعدما قضت عليه وامتصته حتى المـــوت، فإنهـــا لا تـــشكر حتى أفضال ونفقات المليونير الفقيد ذي اليد المفتوحة، مجنونها، وحتى الوصية لا تذكرها بصلاة أو بذرف دمعة. في عينيها الناشفتين ضوء غـــريب، وفي عمقهما فحم أسود، وتستمر نينا باستنكار أعمال العجوز والملعونة وهي تصلي موجوعة الضمير.

6

بعـــدما ذهبت نينا لتعتني بهندامها وتغلي ماء، بقيت تريزا وحيدة في الغرفة، تنتظـــر الطبـــيب، وجلست إلى حافة الفراش وأخذت يد إميليانو اليابسة تقول له بصوت ذي لهجة حنين كل ما لم تعرف أن تقوله في بداية الليل، في الحديقة، تحت ظلال الشجر، والقمر المنير، وفي الأرجوحة المتحركة خفيفاً، حيث تحدث الاثنان، وكان الحد ث اللامحدود بالنسبة إلى تريزا غير منتظر ومفاجئاً، بينما كان الحديث الأخير بالنسبة إلى الأرجوحة.

كـــان دائماً متحفظاً عند ذكر عائلته، وفجأة أفصح عن كل شيء في تقرير شـــفهي مـــن الأحـــزان، والاشمئزاز الكثير، بسبب عدم وجود التفاهم والعطف والـــوحدة القاتلة في بيت لا حنان فيه، وكان صوته مجروحاً، حزيناً، محموماً. ليس له في الحقيقة غير تريزا الفرح الوحيد الذي اعترف أخيراً بأنه إزاءه عجوز متعب، ولكـــن دون أن يتخيّل نفسه مع ذلك يقف عند عتبة الموت. لو عرف لكان تكلم بـــذلك الحـــديث من قبل ولكانت الوعود منفذة الآن. ولم تطلب تريزا شيئاً ولم تطالب بأي شيء، كائناً ما كان، وتكتفي بحضور الأستاذ ولباقته.

"الـــويل لي، يـــا إميلـــيانو، كيف أستطيع أن أعيش دون أن أنتظر وصولك المفاجـــئ، دون أن أركـــض إلى بـــاب الحديقة عندما أتبيّن خطوك الثابت وأسمع صـــوتك السيد، ودون أن أرتمي على صدرك العريض وأتلقى قبلتك وأحس على شـــفتيّ لهفـــة شاربك ودفء لسانك؟ كيف أعيش من دونك، إميليانو؟ لا يهمني الفقر والبؤس والعمل الشاق والعودة إلى سوق البغاء وحياة الضياع. ما يهمني هو غـــيابك فقـــط، ألا أسمـــع كلامك بعد اليوم، وضحكتك العريضة تجوب أرجاء المنـــــزل والحديقـــة وغرفتنا، ألا أحس بملمس يديك الثقيلتين الخفيفتين البطيئتين الـــسريعتين واللـــتين هما الآن باردتان برد الموت، وألا أشعر بدفء قبلتك وثقتك الأكـــيدة والامتـــياز بالعـــيش معك، إن امرأتك الأخرى ستكون أرملة، أما أنا فسأكون أرملة ويتيمة".

لقـــد عرفتُ اليوم وحسب، أن ما أحسستُ به تجاهك كان حباً من النظرة الأولى، فانتـــبهتُ فجـــأة. عندما رأيتك تصل إلى مزرعة النقيب متجلبباً بالفضة، وأنت المتكلم اللبق في الأرجوحة إميليانو غويدس صاحب مصنع كاجازيراس فقد نظرتُ يومها إلى رجل ووجدته جميلاً ولم يحدث لي هذا قط من قبل، الآن لم تبق لي إلا الذكرى، الذكرى ولا شيء آخر، إميليانو".

وهـــو يمتطـــي حصاناً أسود مسرجاً بالفضة البراقة في وهج الشمس، منتعلاً الجزمة مع موهبة الأمر والنهي، هكذا رأته تريزا وهو يقترب من بيت المزرعة وهي حيـــنذاك طفلة بسيطة جاهلة، مستعبدة، لاحظت المسافة التي تفصله عن الآخرين، في غـــرفة الاســـتقبال صبَّت له القهوة المصنوعة لتوها، بينما هو إميليانو غويدس واقف وبيده السوط ويفتل باليد الأخرى شاربه، وهو يتأمل فيها ويقيسها من أعلى

إلى أسـفل... بجانـبه فإن النقيب الرهيب لم يكن شيئاً، بل خادماً غبّ الأوامر، متملقاً... عندما أحست بنظرة عيني الصناعي الثقيلة اشتعل في تريزا أتون نار أحس الفـارس بوهجه. وبينما هي تذهب بصرّة الملابس باتجاه النهر الصغير كان ما يزال مطلقـاً عنان حصانه للريح عبر الشمس اللامعة على الفضة، وعند الرؤية الأخيرة غسلت تريزا عيني البساطة من حولهما.

بعـدها، عـندما تعرَّفت إلى دان وتولّهت به حتى الجنون، وبعقل سلبها إياه الـشاب الجميل المغري، تذكرت صورة الصناعي، وماثلت بين الوجهين دون أن تنتبه. وكل ذلك حدث في وقت يؤسف عليه وعندما طلع عليهما النقيب في الغرفة بـصورة مفاجئة وهو يحمل على رأسه القرنين وبيده السوط، فإن الأستاذ إميليانو غـويدس كان يتجوّل سائحاً في أوروبا مع عائلته، وعندما عاد إلى باهيا بعد عدّة أشـهر، عرف بكل الأحداث في كاجازيراس الشمالية. فقد جاءته إحدى قريباته، السيدة بياتريز، مفتشة عنه فور وصوله، يائسة وهي تقول "إنك زعيم العائلة يا ابن عمي". إنّها أنثى لا تتعب من الحياة كان قد ضاجعها أوشتاكيو في أعياد آذار قبل أن يتزوجها. لقد كانت في ورطة، وجاءت تطلب تدخُّل الأستاذ ومساعدته:

- إن دانـيال قـد وقـع في ورطة محرجة يا ابن عمي.. تورُّط؟ لا، لقد تمّ تـوريطه، يـا ابن عمي إميليانو، وإذا به ضحية عاهرة من أسوأ العاهرات، أفعى حقيقية.

كانت تريد أن تمنع المحاكمة عن ابنها الذي وضع القاضي السافل الجديد اسمه في الدعوى كونه شريكاً، وفي وضع مضحك، وكانت تعني بالقاضي ذلك المرشح لوظـيفة قاضي الأمور المستعجلة في كاجازيراس، الوظيفة التي جاءت من نصيب أوشـتاكيو نزولاً عند طلب الأستاذ إميليانو، هل تذكر يا ابن عمي؟ والآن لكي ينتقم من الشاب المسكين، المجرد من ذاته، فقد طلب من المدعي العام توقيف دانيال مـع الداعرة، وكانت تريد أيضاً، فيما تريد، أن يتم نقل زوجها إلى محكمة أخرى لأنه لم يعد ممكناً أن يخدم في كاجازيراس الشمالية بسلام بسبب العدالة ولم يستطع أن يـنظم شـعراً؛ أوشتاكيو لا يرغب في العودة، وهو على حق، ولكنه أيضاً لا يـستطيع أن يبقـى في العاصمة في إجازة دائمة، جاعلاً من حياة العائلة جحيماً. وتستطيع السيدة بياتريز، أخيراً، أن تطلب من ابن عمها الحبيب منديلاً نظيفاً حتى

تمسح به دموع الزوجة والأم، فمع هذه الأمور الباعثة على الاشمئزاز ليس من شيء بقادر على أن يفي بالغرض، "يا ابن عمي".

عـــندما تبـــيّن هـــوية تريزا في التقرير الغامض الذي سردته السيدة بياتريز، فإن الأســـتاذ، وقبل أن يهتم بموضوعات قريبته، اتخذ الإجراءات اللازمة للتأمين على الفتاة فاتـــصل من باهيا بلولو سانتوس الموجود في أراكاجو. صديق موثوق، وصاحب براعة ثابتة، فإن اللّسن كان عليماً قديراً في أمور القانون وكيفية التلاعب بها:

"أخــــرج الفتاة من السجن وأنقذها من كل تبعات القضية وضعها في مكان أمين وأقفل الملف".

لم يكـــن صعباً إخراج تريزا من السجن؛ قاصر، ولا تزيد على خمس عشرة ســـنة، وسجنها في معتقل عام يشكل خرقاً فاضحاً للقانون، وهذا، دون التحدث عـــن أعمال التعذيب؛ وتجاوب القاضي في الحال وغسل يديه من أعمال التعذيب وقـــال إنّه لم يأمر أبداً بالضرب، وإن يكن قد حدث مثل هذا فبأمر مدير الشرطة، صـــديق النقـــيب. ولكـــن فيما يتعلق بإقفال القضية فلا! إذ إن ذلك سيظل غير مستوف الشروط، وهو مستعد لأن يبقيها قائمة حتى النهاية. لم يرد اللّسن أن يلح كـــثيراً كـــونه من منطقة سرجيبـــي، وكون كاجازيراس الشمالية تقع في منطقة باهـــيا، وبعـــدما وضع تريزا في عهدة الراعيات في الدير، اتصل بالصناعي وأخبره برفض القاضي البديل إقفال القضية ومكث في أراكاجو ينتظر الأوامر الجديدة.

وإذ كانـــت تجهـــل تدخل الأستاذ، وبالاتفاق مع غابـــي التي راحت تفتش عـــنها في الـــسجن محاولـــة أن تضعها تحت رعايتها، فقد هربت تريزا من الدير وانخرطت في سلك الحياة العامة.

7

بدين ومتقدم في السن، تميزه الجدية والشراهة في الأكل، يصغي في الاجتماع إلى الجمـــيع وهو يلتهم من كل شيء بلا خجل، إذ إن الدكتور إماريليو هذا جعل مـــن نفـــسه خلال السنوات الست الأخيرة صديقاً حميماً للأستاذ المترئس طاولة الطعـــام الغنـــية التي تزيدها تريزا بهاء؛ وكان الطبيب يأتي ليتذوق الطعام عند كل وليمة، ظهراً ومساء على السواء، تقام على شرف إميليانو. ففي أشتانسيا كلها لم

يكـــن ممكـــناً أكــــل طيـــبات كهذه إلا في دار جوان ناسيمنتو فيليو، أمّا الخمور واللـــيكورات الفرنسية الآتية في حقائب الأستاذ، فما أطيبها؛ لم يكن يماثلها شيء أبـــداً وتعدّدت زيارات الصناعي إلى أشتانسيا وتمدّد وقت الإقامة أيضاً: "في يوم يا عزيـــزي إماريليو، سآتي لأبقى إذ ليس من أرض أطيب من أرض أشتانسيا ليمضي الإنسان شيخوخته بهدوء وتمهل".

على الباب وقع ضربات يد قوية. ودخل الطبيب دون أن ينتظر دعوة الأستاذ إلى الدخـــول، لأن الرســـالة الشفهية التي أرسلت إليه خطيرة: إن هؤلاء الرجال الأقـــوياء، العصاة على المرض والتوعك، كأنما صنعوا من الفولاذ، عندما يمرضون فـــإن المسألة تكون دائماً خطيرة. عندما سمعت بضربات يد الطبيب، خرجت تريزا من الغرفة، وجاءت لمقابلته. فاستنفر الدكتور إماريليو أكثر عندما رأى الصبية:

- "هـــل المسألة بهذه الخطورة يا عرّابتي؟" كان يناديها بالعرّابة ملاطفاً إياها، وكـــونه طبيباً رسمياً للعائلة فقد عالج تريزا بعد عملية الإجهاض، ومنذ ذلك الحين أصبح هو العرّاب.

مـــن ناحية المطبخ وصلت صرخات لولا ونينا المتأوهة، بينما أخذت تريزا يد الطبيب الممدودة:

- لقد مات الأستاذ إميليانو.

- ماذا؟

هرول الدكتور إماريليو إلى الغرفة، أشعلت تريزا الضوء القوي قرب الكرسي الوثير ذي الذراعين حيث كان يجلس إميليانو ويقرأ بصوت عالٍ على مسمع تريزا المستمددة علـــى الأرض عند قدميه. لمس الدكتور الجثة فوجد الشرشف مبتلاً "آه الويل لي"؛ بعيدة، صامتة، كانت تريزا تتذكر دقيقة إثر دقيقة السنوات الماضية.

8

كانـــت ردّة فعـــل الأســـتاذ مرتبكة وعصبية. عندما وصل إلى كاجازيراس الـــشمالية وعلـــم بوجود تريزا في نزل غابـــي، قرّر أن يرسل الأخيرة إلى الجحيم لكـــنّه فكّـــر أنّها لا تستحق العناء. هو، الأستاذ إميليانو غويدس يتدخل ويزعج صديقه طالباً منه القيام باللازم، صديقه المحامي القدير، البارع، يأتي به من أراكاجو

ليخـــرجها من السجن ومن الدوامة التي هي فيها، ويضعها في مأمن، وهي البلهاء، بـــدلاً من أن تنتظر فإنها تخرج إلى سوق البغاء كأنما هي ذات دعوة إلى الدعارة لا تقاوم، فلتمارس الدعارة إذاً.

في أعماق نفسه رأى الأستاذ نفسه منـــزعجاً من طريقة تريزا في التصرف ولكنّه كان أكثر انزعاجاً لأنه خُدع في حكمه عليها عندما عدّها جديرة بالاحترام والحماية. حين قابلها في مزرعة جوستنيانو، رأى في عيني الصغيرة السوداوين لهباً نادراً وذا معنى. وكذلك فإن الأحداث اللاحقة، على الرغم من غموضها وانحيازها كما سردتها بياتريز وأوشـــتاكيو، أكّدت له ذلك الانطباع الأول الذي كونه. لقد أخطأ، بأكثر مما يمكن تـــصوره، واعتقد نفسه إزاء واحدة من أسوأ العاهرات، وأعطى مع ذلك الحق لقريبته بياتريز الأم الوفية، إن توقد العينين لم يتعدّ كونه شعاع شمس أضاء وجهه: "صبراً".

وكون الفراسة في معرفة الأشخاص، وتمييزهم، عنصراً أساسيّاً في القيادة التي يمارســـها الأستاذ، الإقطاعي، الصناعي، المصرفي، فإنه كان يشعر بالاعتزاز عندما يحكـــم على شخص من النظرة الأولى، ولهذا أيضاً، كان صعباً عليه أن يخفي خيبة الأمـــل عندما يخطئ في حكمه... وجعلته خيبة الأمل يعود إلى القاضي البديل وهو بحاجة إلى أن يفرغ في أحد الخيبة التي تولّد طعم المرارة في حلقه.. واتجه إلى مركز الـــبلدية حيث تقع المحكمة في الطابق الأعلى... ووجد هناك المسجل الذي عندما رأى الأستاذ لم يبقَ له سوى أن يطلب منه البركة: "أي شرف هو هذا، أستاذ! إن القاضـــي لم يـــصل بعد ولكنّي سأنادي عليه في الحال حيث يقيم سيادته في نزل أغـــرينا، قريباً من هناك"، "واسمه؟" "الأستاذ بيو ألفيز، مساعد قضائي منذ سنوات عديـــدة وقد أصبح قاضي الأمور المستعجلة في باراكاسياو": وبينما ينتظر، وقف الأستاذ عبر النافذة يتأمل في الشارع الحزين ما زاد خيبة الأمل فيه، فهو لا يحب أن يناقَش، فكيف بأن يخدع؟ خيبة أمل أخرى: ومن الآن ستزداد متاعبه النفسية.

كـــان وحيداً، غارقاً في ظل المشاكل الظاهرة في عينيه، مع رجفة عصبية في شـــفته، عندما دخل القاضي البديل الأستاذ بيو ألفيز مليئاً باللياقة والترحيب، كان يعـــد نفسه ضحية المظالم الدائمة وهو يتقهقر دائماً مخلياً مكانه ودوره للمحميين، ويظـــن نفسه دائماً ضحية مؤامرة يدبرها له رجال الإكليروس والحكومة والشعب مجـــتمعين معـــاً ليجندلوه أرضاً لدى كل خطوة يخطوها.. حاكم مريض، يد ثقيلة في

إلقـــاء الأحكام، لا حساسية عنده تجاه أي دليل أو برهان سوى كلمة القانون. عندما كانـــوا يأتون ليحدثوه عن الليونة، والتفهم، والشكوى، والصفح، والمشاعر الإنسانية، كان يجيب متباهياً:

– إن قلبـــــي هو بيت القانون وفيه حفرت الحكمة اللاتينية: "دور أليكس ســـاد لـــيكس". ممتلئاً غيرةً وحسداً، جعل من نفسه شريفاً ومسؤولاً ورأسمالاً ذا فائدة قليلة. وكان يخاف من الأستاذ إميليانو، ويضمر له الكره محملاً إياه مسؤولية بقائـــه طـــويلاً في المساعدة القضائية الوضيعة: إذ كان قد ترشح لرتبة قاضي أمور مستعجلة في كاجازيراس الشمالية حيث كانت زوجته قد ورثت مروجاً واسعة لتربية القطعـــان، ولكنّه بقي مساعداً قضائياً، بينما أسندت الرتبة لمحام من العاصمة كان لقبه الوحـــيد الـــزوج المقرن لإحدى قريبات آل غويدس وكان قد تمّ تعيينه هو بالذات في المنصب عندما تدخل إميليانو للحصول على اللقب لأبـــي القرنين ذاك؛ وبعد زمن طـــويل وبـــثمن باهظ تمكن من الحصول على مرتبة قاضي الأمور المستعجلة وهو يخدم في محكمة باراكاو في البلدية الرئيسية، ولكن هدفه كان ما يزال كاجازيراس الـــشمالية حـــيث يـــستطيع أن يوسّع نفوذه. والآن، وقد أرسل ليكون بديلاً عن الأســـتاذ أوشتاكيو في القضية موضوع النقاش، ظنَّ أن ساعة الانتقام قد أزفت، وفي رأيـــه أن دانـــيال سيكون المتهم الرئيسي وليس فقط الشريك، ولكن مع الأسف: "دورا ليكس سيدا ليكس" فمن رفع السكين كانت الفتاة.

بعـــد القاضي دخل الكاتب وهو يكاد يموت فضولاً، وبحركة أرسله الدكتور إميليانو إلى الخارج وبقي وحيداً مع القاضي.

– "أتـــريد أن تـــتحدث معي، أستاذ؟ إني في تصرفك" أجهد القاضي نفسه محاولاً أن يحافظ على نفسه قوياً وجديراً ولكن شفته خانته قليلاً بحركة عصبية.

– "اجلس، سنتحدث"، أمر إميليانو كما لو كان هو القاضي، والسلطة العليا هناك، في المحكمة.

احـــتار القاضـــي أيـــن يجلس؟ فجلس في الكرسي العالي ذي المسند الكبير الموضـــوع في أعلـــى المنـــصة في إشـــارة إلى الرتب التسلسلية وفرضاً للهيبة على الموجـــودين، واضعاً نفسه بذلك في موضع أعلى من الأستاذ الواقف، ونظره شائح خارج النافذة، والذي تكلم بصوت لا يبدي أيّ انفعال:

- الأستاذ لولو سانتوس جاءك برسالة مني، ألم تستلمها؟

- إن الوكـيل كـان معي، طلب مني وقد قمت باللازم، فأرسلت مذكرة طلبت فيها إخلاء سبيل الفتاة القاصر التي أبقيت سجينة بأمر من مفوض الشرطة. وقد وقع الوكيل على التعهد بالمسؤولية.

- هل يمكن ألا يكون قد نقل إليك كل الرسالة؟ لقد أرسلت أطلب منك أن تقفل القضية. فهل وثقتها يا حضرة القاضي؟

تـضاعفت أمارة الغضب على شفة القاضي، وفتّش القاضي عن القوة وسط الحرارة التي يحس بها:

- توثـيق؟ مستحيل! إن القضية هي قضية جريمة قتل ارتكبت شخصياً ضد مواطن مهم في هذه المحكمة..

- مهـم؟ كلام مضحك، مستحيل؟ لماذا يستحيل الأمر؟ لقد ورد في القضية اسم طالب شاب هو قريبـي وابن القاضي غوميزنيتو، ويقولون إن حضرتك تريد أن تورد اسمه في القرار الظني انتقاماً.

- "بـصفة شريك"... خفض صوته.. "وفي الحقيقة، برأيي، إن المسألة أكبر من هذه وأخطر لأنه هو مسبب الجرم".

- إلى الـرغم من كوني اختصاصياً في القانون، فإني لم آت إلى هنا محامياً ولـيس لديَّ وقت أضيعه. اسمع أستاذ: يجب أن تعرف من الذي يحكم في هذه الأرض هـنا، وقد جاءك البرهان سابقاً. لقد قيل لي إنك تريد أن تكون قاضياً في كاجازيـراس. والمـسألة بين يديك، لأني ما زلت أحسب أن لولو لم يأتك بالرسالة كاملة. ضع الآن، حالاً، المسألة في الأرشيف، وسطران منك يكفيان، ولكـن إذا كـان ضميرك يعذبك فإني أنصحك بالعودة إلى باراكاو في أسرع وقت، وأترك القضية للقاضي الذي سأختاره على ذوقي. إن المسألة بين يديك، فاختر.

- إنها جريمة خطيرة..

- "لا تجعلـني أضيّع المزيد من الوقت إذ أعرف جيداً أن الجريمة خطيرة ولهذا أعـرض عليك مركز قاضي الأمور المستعجلة في كاجازيراس. قرّر في الحال، ولا تجعلني أضيّع عقلي والمزيد من الوقت"، وضرب بالسوط على فخذه.

رفـــع القاضـــي بـــيو ألفيز نفسه قليلاً ومضى يفتّش عن البواعث. لا يفيده الاعتـــراض. فإذا لم يفعل فسيعود إلى باراكاو ويأتي مكانه قاضٍ آخر سيوقّع على إحالة القضية للحفظ مستفيداً من نعم الأستاذ الكثيرة. في الحقيقة فإن هذه القضية مليئة بالأمور غير القانونية، ابتداء من السجن وتعذيب القاصر التي استجوبت دون وجـــود محقق قدير ودون محام معيّن من قبل المحكمة ليحافظ على مصالحها وذلك لغاية تدخل لولو سانتوس الأخير، فضلاً عن عدم وجود أدلة شهود جديرين بالثقة، فهـــي إذاً قضية ينقصها الكثير من العناصر ويساعد في ذلك وجود أسباب عديدة أخرى ترجح كفّة تحويل القضية إلى التوثيق. إن قاضياً شريفاً لا يسمح لنفسه بأن ينجـــرف بمشاعر ثأر بدائية غير لائقة بقاضٍ كبير. إضافة إلى ذلك، أية أهمية تُعطى لتوثيق قضية أخرى في قصور عدل منطقة الداخل؟

لا أهمـــية بالتأكـــيد. لقـــد تعلم الأستاذ بيو حكاية عالمية وهو يقرأ زيفاكو ودوماس وهي أن باريس تساوي قداساً. أفلا تساوي كاجازيراس الشمالية والحالة هذه، عقاباً واحداً؟

عـــندما انتهى من الكتابة بحرف أنيق وبطريقة بطيئة مستعملاً ألفاظاً لاتينية، رفع عينيه إلى الأستاذ الواقف عند النافذة وابتسم:

– لقد فعلت ذلك احتراماً للأستاذ وعائلته.

– شكراً وتهاني الحارة يا حضرة قاضي كاجازيراس الشمالية.

تـــوجّه إميليانو إلى الطاولة فتناول أوراق التحقيق وتفحصها. قرأ هنا وهناك مقاطـــع من الاتهامات والتحقيقات والإفادات التي أدلت بها تريزا وأدلى بها دانيال هـــو الآخـــر، يـــا للحقارة! ترك أوراق التحقيق على الطاولة، أدار ظهره وذهب خارجاً:

– اعـــتمد على التسمية الجديدة يا حضرة القاضي ولكن لا تنسَ أن كل ما يجري في هذه الناحية يعنيني.

وإذ كـــان ما يزال مرتبكاً عاد إلى المصنع ولكن، عند ذهابه إلى أراكاجو ليلقي نظـــرة على فرع المصرف هناك، التقى بلولو، ومن خلال المحادثة عرف أن تريزا كانت تجهـــل كلـــياً تدخله في الأمر واهتمامه بها. آه، إذا إميليانو لم يخدع في الحكم عليها: لهيب العنين تؤيده قراءة التحقيقات فهي، إلى جانب كونها جميلة، كانت شجاعة.

استبق موعد الرجوع، ولم يشأ أن ينتظر قطار اليوم التالي، فسافر إلى المصنع في السيارة مستعجلاً السائق، وفي بعض الأماكن لم تكن الطريق أكثر من معابر قطعان الحمير وعربات الثيران. وصل ليلاً، وفي الحال ذهب ممتطياً حصانه إلى كاجازيراس إذ لم يمكث أكثر من الوقت الذي استغرقه الحمام وتغيير الملابس واتجه مباشرة إلى نزل غابي. وقد ترجل، واجهته معارض السوق العمومية، حدث لم يسبق له مثيل، إذ لم يكن قد وضع قدميه هناك سابقاً. وعندما رآه الخادم أرودا ترك المشروبات والزبائن وخرج راكضاً لينادي على غابي. وجاءت القوادة مسرعة، ولفرط ما أصابها من الحماس لم تستطع أن تتكلم:

- إنه شرف لا مثيل له، أعجوبة.

- مساء الخير. لقد توقفت هنا فتاة اسمها تريزا..

لم تتركه غابي يختم حديثه، يا لتريزا الأعجوبة، إنها لا تقدر بثمن، لقد وصلت شهرتها إلى مسامع الأستاذ وجعلته يأتي إلى هنا زبوناً:

- أجل صحيح يا سيدي، إنها فتاة رائعة الجمال، ولا تزيد على خمسة عشر عاماً من العمر، إنها شيء ثمين وفي خدمة الأستاذ.

- "إنها ستأتي معي"... سحب من محفظته بعض الأوراق النقدية وناولها إلى القوادة المتوقدة المشاعر: "اذهبي وجيئي بها".

- هل سيأخذها الأستاذ لهذه الليلة أو لعدة أيام؟

- مرة واحدة، إنما لن تعود. هيا أسرعي.

كان الزبائن يتأملون بصمت وهم جالسون إلى طاولاتهم، وعاد أرودا إلى البار ولكن، منفعلاً، توقف عن الخدمة. وبلعت غابي اعتراضها وأسبابها وتفسيراتها وأخذت المال، عدة أوراق من فئة الخمسمائة، ولن تربح شيئاً من النقاش، ولم يبق لها سوى انتظار عودة تريزا عندما يتعب منها الأستاذ ويسرحها من الخدمة... إنما ستتأخر قليلاً، شهراً أو شهرين على الأكثر..

- تفضل بالجلوس، أستاذ، تناول شيئاً ريثما تجهز حقيبتها وترتب هندامها..

- ليست بحاجة إلى حقيبة يكفي أن تضع رداء على جسدها ولا شيء آخر.. ولا تحتاج إلى أن ترتّب هندامها.

وضعها خلفه على كفل حصانه وعاد بها.

9

أنهى الدكتور إماريليو الفحص الطبـــي وغطّى الجثة بالشرشف:

- ألم يكن أمراً مثيراً؟

- "قال: "ويلي"، ومات، حتى إنني لم أعرف أنه مات..." تريزا ترتعد وتغطي وجهها بيديها.

وتمادى الطبيب في السؤال غير الملائم:

- كيف حدث الأمر؟ هل أكل كثيراً؟ وهل كان الأكل ثقيلاً، فذهب بعده في الحال إلى... أليس كذلك؟

- أكـــل فقـــط شريحة سمك وقليلاً من الأرز وقطعة من الأباكاتي. كان قد تناول وجبة العصر في الخامسة، وهي عبارة عن قطعة حلوى الباموتياس. بعد ذلك خـــرجنا نتمشى حتى الجسر، وبعد عودتنا جلس في الحديقة وتحادثنا طيلة ساعتين وأكثر، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما أوينا إلى الفراش.

- هل تعلمين ما إذا كان عنده مشكلة كبيرة في الآونة الأخيرة؟

لم تجب تريزا، فهي ليس لديها الحق في أن تثير حنق الأستاذ وأن تعيد المحادثة والتذمـــرات والـــشكاوى، وإن على مسامع الطبيب، لقد مات فجأة وماذا تفيد معرفة ما إذا كان قد مات من مرض أم بسبب حالة نفسية؟ فهل سيتمكن الطبيب من أن يعيد إليه الحياة؟ وتابع الطبيب:

- يقـــال إن جايـــرو ابنه قد ارتكب عملية اختلاس في المصرف؛ مبلغ كبير جداً، وعندما علم الأستاذ بذلك...

وتوقف عن التمادي لأن تريزا تظاهرت بعدم الاستيعاب، وبدت غائبة وغير متماسكة وهي تنظر إلى وجه الفقيد، وبعدها استمرّ مستفسراً:

- فقط أريد أن أعرف السبب في توقف القلب عن الخفقان. لقد كان رجلاً ذا صـــحة جيدة، ولكن، لكل واحد منا أسباب تدفعه إلى السأم والكدر، وهذا ما يقـــتل الناس. قبل أمس قال لي إنه هنا في أشتانسيا كان يستعيد قواه ويريح نفسه من الإزعاج، ألم تلاحظي أنه كان مختلفاً؟

- بالنسبة لي كان الأستاذ هو نفسه دائماً منذ اليوم الأول.

قالت ذلك لتقطع المحادثة.

- "لا، ليست الحقيقة. كان يتحسن كل يوم، ومن كل النواحي، فقط أستطيع أن أقول إنه لا ندَّ له، لا تسألني أكثر".

خيّم الصمت لحظة. تنهّد الدكتور إماريليو؛ إن تريزا على حق، إذ لا يفيد شيئاً التنقيب في حياة الأستاذ، وفي هذه المرة فلا هدوء أشتانسيا ولا حضور الصديقة تمكنا من أن يعطيا قلبه القدرة على الاستمرار.

- يا ابنتي، إني أفهم جيداً ما حدث لك، وما تحسّين به. لو كان الأمر متعلقاً بي لكنا أبقيناه هنا حتى ساعة الدفن ونحن، أنت وأنا، والمعلم جوان والذين نريد لك الخير في الحقيقة كنا رفعناه إلى المقبرة. ولكن المسألة ليست متوقفة عليَّ.

- أعرف، لا أتذمر، ولم تكن من دقيقة واحدة غير مليئة بالذكرى الطيبة.

- "سأحاول الاتصال بالأهل؟ إن ابنته وصهره موجودان في أراكاجو. إذا لم يعمل الهاتف فيجب إرسال أحد مع رسالة". وقبل أن يخرج استفهم: "أمن الضروري إرسال أحد ليغسل الجسد ويلبسه أو أن لولو ونينا يفيان بالغرض؟"

- أنا سأهتم به، وهو حتى الآن ما زال ملكي.

- عندما أعود سأجيء معي بشهادة الوفاة وبالكاهن.

ولكن لماذا الكاهن ما دام الأستاذ لم يكن مؤمناً بالله؟ ولكن ليس من أجل إيمانه بالله كان الأستاذ يترك المجال للاحتفالات الدينية، ويأخذ الكاهن إلى المصنع ليقيم القداس في عيد السيدة حنة. إن الكاهن فينيسيوس، وقد ذهب إلى روما لدراسة اللاهوت فإنه تعلّم شرب الخمر. وكان أفضل رفيق على طاولة العشاء.

10

كان لدى الأستاذ متعة حقيقية في أن يجمع حول مائدة العشاء التي تترأسها تريزا باتيستا مرتدية بنزق الملابس القطنية المجلوبة من باهيا، كلاً من صديقه ناسيمنتو فيليو زميله في كلية الحقوق، والأب فينيسيوس، ولولو سانتوس الآتي خصيصاً من أراكاجو بالإضافة إلى الطبيب.

كانوا يتحدثون قليلاً بكل شيء، مناقشين السياسة وفن الطبخ، إضافة إلى الأخلاق والدين والفن والأحداث العالمية والبرازيلية، وآخر الصرعات السائدة والموضة التي تصبح فاضحة أكثر فأكثر يوماً بعد يوم، وتبدل العادات المقلق وتقدم العلم.

أمـــا فـــيما يتعلق ببعض الموضوعات كالأخلاق، والفن، وعلم الطبخ، فقد كان الأســـتاذ وجوان ناسيمنتو وحدهما يبديان الآراء، لأن الطبيب كان يجد الفن الحديث أمــــراً فظيعاً ويعده خربشات لا قيمة لها ولا معنى، ولأن الكاهن كان ذا حساسية ضد أكثر الكتّاب المعاصرين أرباب العري الجنسي والانزلاق الأخلاقي، بينما لولو سانتوس يؤكّد أن ليس في العالم صحن طيب يمكن تشبيهه بصحن اللحم المصنوع مع الملفوف المسلوق بالحليب، تأكيداً ليس مقبولاً أبداً. بالمقابل، وكونه قارئاً لا يرتوي من القراءة، مـــتأدباً، متعلماً، وعجوزاً طيباً، وقد ترك دراسة الحقوق في منتصفها ليتماثل للشفاء في أشتانـــسيا مـــن مرض في صدره فأقام هناك ولم يعد يخرج أبداً، يعيش من مدخولات تـــدار جـــيداً ويعلم البرتغالية والفرنسية في المعهد فقط ليملأ وقته، فإن جوان ناسيمنتو فيلـــيو كان يعرف آخر كتاب يطرح في السوق، وآخر لوحة تبصر النور، وكان يحلم بأكـــل اللآك دي شين الآتي من بكين. وكان الأستاذ يأتيه بالكتب والمجلات ويمضيان ســـاعات وســـاعات منـــسيين في تـــذوق أمتع أنواع البسكويت في الحديقة. وكان الفـــضوليون في المدينة يتساءلون عن تبادل الأستاذ المواطن صاحب المسؤوليات الكبيرة والأعمال الكثيرة الأمور التافهة مع المعلم ناسيمنتو فيليو مضيعاً وقته في أشتانسيا.

من ناحية أخرى، عندما كان الحديث يدور حول السياسة الوطنية، فلم يكن يـــنقص ســـوى تكبيل انطلاقة اللّسن والطبيب في تقييم المثل الحزبية، والأزمات الانتخابـــية، بينما كان الأستاذ يكتفي بالإصغاء غير مكترث، فبالنسبة إليه، كانت الـــسياسة مهـــنة عـــوجاء هي من شأن الناس ذوي الصفات المنحطة والقابليات الوضـــيعة والمـــادة الرخيـــصة، وهؤلاء هم دائماً في خدمة الرجال القادرين حقاً والأســـياد الـــشرعيين في البلاد، أما الأخيرون، فإنهم كانوا يأمرون وينهون وكل واحـــد يحكم في القطعة التي يملكها من الأرض بوساطة رتبة النقيب المتوارثة، هو مـــثلاً في كاجازيـــراس الشمالية حيث لم يكن أحد يحرّك قشة من مكانها دون أن يأخـــذ موافقته، وكان يشمئز من السياسة ولا يثق بالسياسيين: "يجب إبقاء الأعين عليهم لأنهم محترفون في التزوير".

أمـــا المناقشات الدينية، فقد كانت تتأجج ناراً نظراً للموضوع الممتع والمادة الواسعة. حيث يكون قد شرب قليلاً، فإن لولو سانتوس كان يعلن نفسه فوضوياً وتابعاً من اتباع كروبوتكين الذي لم يكن أكثر من عدو للإكليروس على الطريقة

القديمة، ويحمل شيطان الأب فينيسيوس مسؤولية التخلف في العالم، ذلك التخلف الذي هو العدو الشخصي تقريباً للخير. كان السجال مستمراً بينه وبين الأب الذي ما يزال شاباً متحمساً ومالكاً لبعض المعرفة والبراهين الملهبة، وكان ينتهي إلى توريط جوان ناسيمنتو فيليو ليلقي بعض الأبيات الشعرية عن حرب جونكيرو التي يعقبها تصفيق اللّسن. وكان الأستاذ، متلمظاً بالنبيذ المعتق، يتسلى بتبادل الحجج والاعتراضات والشتائم. منتبهة، كانت تريزا ترافق المناظرة محاولة إثبات وجودها مهتمة لحظة بهذا وأخرى بذاك، تستنكه الجمل المتلمظة المفخمة الخطيرة التي يرددها الكاهن، وتلك الجمل الساخرة المسلية التي يقذفها اللّسن ذو الفم المحقون بالشتائم والتجديف. وكان الكاهن ينتهي إلى رفع يديه إلى السماوات متضرعاً إلى الله وسائلاً الغفران لأولئك الخاطئين الظالمين الذين، بدلاً من أن يقدموا لله الشكر على العشاء الإلهي والخمور الفاخرة، فإنهم يتلفظون بالتجديف والكفر، واضعين وجود الله موضع الشك! في بئر الخطيئة هذا، كان الكاهن يقول: فقط ينجو الطعام والشراب وسيدة البيت من الخطيئة، أما الباقون فإنهم كفرة، كفرة بالجمع، كما تقول أبيات الشعر التي يذكرها ناسيمنتو فيليو، وكما جاء في بعض عبارات الأستاذ الذي أكد بها أن كل شيء يبدأ وينتهي بالمادة، وليست الآلهة والمعتقدات سوى ثمار خوف الإنسان ولا شيء آخر.

في الليلة التي تلفظ فيها بتلك العبارة، بعد العشاء والنقاش الحاد، فإن الأستاذ على مرأى من تريزا توجّه إلى الكاهن قائلاً:

– يا أبانا، إن السيد سيكسر ضلعاً من ضلوعي. إن الأب سيريلو من كاجازيراس ما يزال سيئ الصحة بسبب الروماتيزم الذي ألم به، ولا يستطيع أن يخدم المدينة في احتفالات القديسة حنّة، ولا يستطيع أن يقيم قداساً في المصنع كما هي العادة في كل سنة. ألا تريد أن تأتي للقيام به؟

– مع سروري الكبير، أستاذ!

– سأرسل بمن يأتي بك نهار السبت، والمحترم سيقيم القداس صباح الأحد في البيت الكبير، ويعمد الأطفال، ويزوج المخطوبين والمتعايشين ويتغدى مع الناس، وإذا أراد بقي لحفلة الرقص في منزل "رايموندو أليكاتي"، إنه احتفال راقص يعجبك، وإذا لم ترغب فسأرسل بمن يأتي بك إلى هنا.

11

لـــو لم يكـــن يؤمن بالله، فلماذا كان يخصص المال للكنيسة، ويذبح الذبائح ويـــتعاقد مع الكاهن للاحتفال بالقداس في المصنع؟ وكانت تريزا تعرف أن كلمة لولو سانتوس الثقيلة والإعلان عن كفره لم يكونا أكثر من استعراض كلامي، إذ لا يـــوجد أحد أكثر منه وسوسة في طلب بركة الله قبل الدخول إلى حرم المحلفين أو إلى قاعـــة الـــدفاع في المحكمـــة، ولكن، فيما يتعلق بالأستاذ فقد كانت تستغرب التناقض الموجود في شخص عادي متعاطف إلى هذا الحد مع طريقة تصرفه.

لم تقـــل لـــه شيئاً، ولكنه بنفسه لاحظ أو تكهن بالتأكيد، في البدء اعتقدت تريـــزا أن الأستاذ كانت لديه موهبة التكهن بالأفكار. وعندما خرج الكاهن برفقة ناسيمنتو فيليو، فقد طلب الأستاذ من جديد أن يصغي إلى شعر حرب جونكيرو ثم أشعل لولو سانتوس آخر سيجار، وألقى تحية المساء ثم انسحب تاركاً إياهما معاً في الحديقة، وبينما الأستاذ يأخذها من ذراعيها، قال:

– دائماً اسأليني عندما لا تفهمين شيئاً، ولا تخافي من أن تثيريني يا تريزا. إنك تثيريني فقط عندما لا تكونين صريحة معي. إنك متعجبة ولا تفهمين كيف لا أؤمن بـــالله، وفي الـــوقت نفسه أتعاقد مع كاهن ليقيم قداساً في المصنع وفوق ذلك أقيم احتفالاً، أليست هذه هي الحقيقة؟

ابتسمت وألقت برأسها فوق صدر الأستاذ ورفعت عينيها إليه:

– لا أفعل ذلك لنفسي، أفعله من أجل الآخرين، ولأني أنا لهم. هل فهمت؟

– "أريـــد بهـــذا أن يعتقدوا وأن يفكروا في أنني أؤمن. إن الشعب يحتاج إلى الدين والعيد، لأنه يعيش حياة حزينة، وأين رأيت مصنعاً بلا قداس يترأسه كاهن؟ وأين رأيت مصنعاً دون عمادة أطفال وعقد قرانات وإن لمرة واحدة في السنة؟ إني أقوم بواجبـــي". قبّل فمها ثم تابع:

– هنا في أشتانسيا، في هذا البيت إلى جانبك، أنا نفسي فقط، أما في الخارج فإني سيد المصنع، مصرفي، مدير شركة، زعيم العائلة، إني أربعة أو خمسة أشخاص، إني كاثوليكي، بروتستانتي، يهودي...

فقط في الليلة الأخيرة، بعد حديث الحديقة، علمت تريزا علماً أكيداً ما أراد أن يقول لها.

جـــاءت نينا بالحوض ولولا بوعاء الماء الساخن... وأبديا استعداداً لمساعدها إلا أن تريزا صرفتهما: "إذا احتجت فسأناديي".

وحيدة غسلت جثة الأستاذ بالقطن والمياه الفاترة وبعد أن نشفتها من الرأس حـــتى القدمين فقد عطرتها بالكولونيا الإنكليزية التي كان يستعملها. وبينما كانت تأخـــذ الكولونـــيا من المكان الموضوعة فيه في الحمام، تذكرت القصة التي حدثت علـــى أثر بداية الصداقة بقليل. الآن لم يعد عندها إلا الذكرى. في كل مرة، طيلة تلك السنوات، كانت تتذكر ما حدث، فإنها كانت تشعر مع الذكرى بأنها مثارة: مـــع أنّ الساعة غير ملائمة. ذكريات كتلك، عطور وأدوات تجميل، كلها انتهت إلى الأبـــد، وماتت مع الأستاذ، انطفاء تام، وعبء ثقيل لم تتخيل تريزا أنه سيولد فيها يوماً من جديد شيء اسمه الرغبة.

ألبـــسته قطعة قطعة، مختارة له القميص والجوارب وربطة العنق والبزة الزرقاء الغامقة، ملائمة بين الألوان. كما كان يرغب الأستاذ، وكما علمها. ونادت على نينا ولولا فقط لترتيب الغرفة. أريد أن يكون كل شيء نظيفاً ومرتباً. بدءاً بالفراش وبيـــنما كانـــا يغيران الشراشف واللحفان، فقد أجلسا الميت على الكرسي ذات الذراعين قرب الطاولة المكدسة عليها الكتب المختلطة بعضها ببعض.

في الكرسي، وبينما يداه موضوعتان من مرفقيهما فوق ذراعي الكرسي، فقد بدا الأستاذ متردداً في اختيار الكتاب الذي كان سيقرأه في تلك الليلة على مسامع تريزا.

آه، لـــن تسمع تريزا بعد اليوم صوته الدافئ الذي يقودها إلى دروب مظلمة، وهـــي جالسة عند قدميه ورأسها ملقًى فوق ركبتيه، يبيّن لها كيف تتلمس الطريق في الظلمـــات، عارضاً عليها الحلول، طالباً منها الإجابات. يقرأ ويقرأ عندما يكون الأمـــر ضـــرورياً، حـــتى تمسك بمفتاح اللغز محاولة إدخاله في كل شيء وحتى في التفاصيل، رافعاً إياها شيئاً فشيئاً إلى مستواه.

12

مـــا كادا يصلان إلى أشتانسيا حتى نبتت موضوعات طارئة أجبرت الأستاذ على أن يذهب إلى باهيا تاركاً تريزا تحت حراسة ألفريدو وبصحبة الخادمة وكانت فتاة من المحلة.. منطوية على نفسها مع إحساس بعدم الثقة، وفي جسدها آثار إساءة

معاملـــتها، وفي قلبها ذكرى كل دقيقة من وقت قريب مذلّ من الضرب والشتائم الـــتي لحقـــت بها من جوستنيانو دوارتي دا روزا ومن دان، من السجن والنـــزل، تعيش لتعيش دون أي أفق أو هدف، وحتى الآن لم تكن تريزا قد ألقت برأسها قطّ لاستراحة. لقد جاءت مع الأستاذ تحت رحمة الأحداث وبفعل الاحترام الذي أبداه لهـــا. ترى هل انتهى الاحترام؟ وهنالك أيضاً الجاذبية القوية إلى حدٍّ جعلها تعطي نفـــسها للمداعـــبة عندما قبلها عند باب النـــزل قبل أن يضعها خلفه على كفل الحـــصان. هكذا أتت دون أن تعرف ما هي نهاية كل هذا. وبينما غابـــي تعلمها بحضور الأستاذ. فقد أثارت انتباهها حول ملخص الكلام الذي اختصر به العشيق الصناعي الأشياء، إنه وجيه نزِق، وتمنت لها عودة سريعة إلى السوق العمومية. متى شاءت، فإن أبواب النـــزل مفتوحة لها دائماً: "هنا بيتك يا ابنتي".

لقـــد احتلت مركز أنثى الأستاذ لا مركز العشيقة. وفي الفراش، كانت تتقد كالجمـــر لـــدى التأمل البسيط في وجه إميليانو غويدس وبعد أقل لمسة من أصابعه العليمة، إنّه الحب الثابت والمتنامي الذي حملته بإخلاص.

العفـــوية سبقت اللباقة، وفقط مع الوقت امتزجا وذابا عواطف، ومع ذلك، فقد استمرت بالتصرف، كما لو كانت بصحبة النقيب، وكما لو أنها كانت تعيش وضـــعاً شـــبيهاً بالوضع السابق: منذ الصباح الباكر تبدأ العمل حتى ترتّب وتنظّم ذلـــك البـــيت الواسع آخذة لنفسها أقسى الخدمات وأثقلها، في حين أن الموظّفة كانـــت قـــد تركت نفسها للرخاء، ناظرة إلى الحلل في المطبخ، متبخترة في البيت والريش بيدها تنفض به الغبار، ودون أيّة فائدة، أمّا الصامت والنشيط ألفريدو ذو الـــشعر الأجعد الآخذ في الشيب، فكان قد جيء به من المصنع بصفة مؤقتة للعناية بالبستان والحديقة المهملين، وكان يقوم بالمشتريات ويحرس البيت وعفّة تريزا. ومع تكهّـــن الأستاذ بالحقيقة مع أنّه كان يعرفها قليلاً، فإن الاحتياط ضروري، ولكن تريـــزا كانـــت تتدخل حتى في شؤون ألفريدو، عندما كان يذهب لرفع النفايات تكـــون هي قد فعلت ذلك، وبرفقة العامل والخادمة أكلت في المطبخ واستخدمت أصابعها، في حين أن الأدراج كانت مليئة بملاعق الفضة.

وأصبح المنـــزل بهيجاً: شاليه وثيرة وسط أرض واسعة مزروعة بالأشجار المثمرة ذات صالتين كبيرتين، الصالة الأمامية وغرفة الطعام وأربع غرف أخرى مطلة على نهر

بياوتيـــنجا مـــع مطـــبخ واسع مجهز بالكامل، بالإضافة إلى الناحية حيث الحمامات. والغـــرف الأربع الخاصة بالموظفين، والاحتياطية، وتلك المعدة للرياح للزوّار. "لماذا كل هـــذا القدر الكبير من المساحة؟" تساءلت تريزا وهي تنظّفها، "ولماذا كل قطع الأثاث وهـــذه الأمـــور فوق العادة؟" كانت تكلف وقتاً وعرقاً ومشقة عملية والعناية بذلك الأثـــاث القـــديم، الثقيل، المصنوع من خشب الجاكاراندا والذي أُسيء استعماله مع الـــوقت ونتـــيجة الإهمال. وفق ما عرفته تريزا فيما بعد، فإن الأستاذ قد اشترى البيت وقطـــع الأثاث والأواني والزجاجيات دون أن يناقش السعر الذي، كان رخيصاً، ومع الأســـف فـــإن بعـــض الأشياء كساعة كبيرة، ومنبر، وصور قديسين قد أخذت إلى الجنوب بواسطة هواة جمع التحف، ومقابل أوراق من فئة العشرين.

سُـــرَّ الأستاذ بالشجر والأثاث، وكذلك بموقع البيت عند نقطة الخروج من المديـــنة، بعيداً عن المركز، وسط هدوء تام عادة، عندما لا تكون هناك حركة. في إحدى الليالي وقفت شاحنة أمام البيت وبدأ السائق مع مساعدين بتفريغ الصناديق والعلـــب، بأحجـــام مختلفة وبكميات كبيرة، على بعض منها كان مكتوباً (سريعة الكـــسر)، مطبوعة أو مكتوبة بالحبر. وفجأة امتلأ الشارع بالعمات والعاطلين عن العمـــل راكضين مواكب مواكب، ووقف الجميع في الممر المتاخم يتبينون الأحجام الكـــبيرة: ثلاجة، راديو، مكنسة كهربائية، ماكينة خياطة، وسلسلة لا تنتهي من الأشياء، فالأستاذ لم يكن ليحسب حساب النفقات: "إنه لن يتأخر في الوصول مع زوجته"، ووقفت العمات عند مكان مرتفع ونظّمن حلقات بينهن، ولكن الأستاذ الـــذي يعـــرف هـــذه الأمـــور وصل بالسيارة عند الفجر؛ أما الحلقة الأخيرة من الفضوليات فكانت قد انتهت في التاسعة عندما قُرِع جرس ماتريز.

عـــندما اســـتيقظ في الثامنة صباحاً - عادةً يصحو في السابعة ولكنه في تلك اللـــيلة كان قد بقي مستيقظاً حتى انبلج الفجر وهو غارق في العمل المفرح واللهو اللذيذ - فإنه لم يجد تريزا تحت الشراشف. فقام ليجدها تحمل خرقة بقبضة يدها، في حين كانت الخادمة في الصالة، ولم تتحرك إلا لتبتسم وتلقي عليه تحية الصباح؛ لم يقم إميليانو عندها بأي تعليق، واكتفى بأن دعا تريزا إلى تناول القهوة.

- "لقد شربت منذ حين". إن الفتاة ستخدم السيد. "اعذرني، فإني متأخرة.." وتابعت القيام بالعمل التنظيفي الرتيب.

وبينما يفكر، تناول الأستاذ القهوة بالحليب ورقيق الذرة المحمص والموز وحلوى البيجوس مرافقاً بنظرة حركة تريزا في البيت. لقد قلبت غرفة النوم رأساً على عقب بغية تنظيفها، وجمعت النفايات وخرجت بالمبولة لتفرغها في المرحاض. ووقفت في باب المطبخ وألقت نظرة سريعة على السيد بانتظار أن ينتهي لتأخذ الصحون، وبعد إفطار الصباح ذهب الأستاذ للجلوس في أرجوحة الحديقة محملاً بالكتب و لم يبرح مكانه إلا قبيل الظهر ليستحم، وعندما رأته قد بدّل ملابسه سألته تريزا:

- هل أستطيع أن أعدَّ طاولة الطعام؟

ابتسم إميليانو:

- بعد أن تكوني قد استحممت، وجهزت نفسك وارتديت ملابسك للغداء.

لم تفكر تريزا أن تستحم في تلك الساعة مع الكثير من العمل الذي يجب أن تقوم به بعد الظهر.

- أفضل أن أبقي الحمام إلى حين أكون قد انتهيت فيه من أعمال الترتيب، وما زال عندي الكثير من الأشياء لأقوم بها.

- كلا يا تريزا. إنك ستأخذين حمامك الآن بالذات.

أطاعت، لقد تعودت أن تطيع. وبينما هي تجتاز الردهة عائدة من الحمام إلى داخل البيت، رأت ألفريدو يحمل زجاجات إلى الحديقة حيث وضعت طاولة صغيرة أمام المقعد المصنوع بدقة ومهارةٍ فنيّتين، وكانت الطاولة أحد الأشياء الكثيرة الواصلة في الشاحنة. وهناك كان الأستاذ ينتظرها، فجاءت مرتدية فستاناً نظيفاً وأرادت أن تعرف:

- هل أستطيع أن أجلب الطعام؟

- "بعد قليل، اجلسي هنا، معي" أخذ زجاجة وقدحاً: "سنشرب نخب بيتنا".

لم تكن تريزا تشرب. كان النقيب قد أعطاها مرة جرعة من الكاشاسا فبالكاد تذوّقتها وقامت بحركة امتعاض، ولكن وبشراسة، أجبرها جوستنيانو أن تفرغ الكأس في جوفها، ثم أعاد ملء الكأس. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يعرض عليها الشرب "هذه المملوكة واهية، لم يكن ينقصها سوى أن تبكي في عراك الديوك وكادت أن تختنق من تناول جرعة الكاشاسا". في نزل غابي عندما كان

أحد الزبائن يجلس في المشرب ويدعو امرأة لتشرب برفقته، كانت المرأة مجبرة على طلب الكونياك والفرموث، وكان المشروب الذي يقدمه أرودا إلى النساء في مثل هذه الحال في كؤوس كبيرة لا يعدو كونه شاياً مغلفاً بالورق وليس له من الكونياك الفرموث سوى اللون والسعر، وكان ذلك نظاماً ممتازاً، صحياً ومربحاً.. بعض الأحيان كان الزبون يفضل زجاجة بيرة، وكانت تريزا تأخذ منها جرعة دون حماس، لم تتوصل قط إلى أن تحبَّ البيرة، حتى عندما تعوَّدت المذاق المر كالبيترز التي كان يفضلها الأستاذ.

أمسك بالكأس وارتجل الدعاء:

- ليكن منزلنا مليئاً بالسعادة.

مع تذكُّر الكاشاسا قرَّبت الكأس من شفتيها بما فيها من الشراب الصافي كلون الذهب، ذاقت مندهشة الطعم الطيب فعادت تتذوقه من جديد.

- "إنه نبيذ بورتو" قال الأستاذ "أحد أكبر اختراعات الإنسان، وهو أهمّ اختراع عند البرتغاليين، اشربي دون خوف، فالشراب الجيد لا يسيء؛ ليست الساعة الأكثر تلاؤماً لتناول ليكور، ولكن في هذه الحال ما يهم أكثر من الوقت هو طعم الشراب".

لم تفهم تريزا كل العبارة، ولكن فجأة أحست بنفسها مطمئنة كما لم تحس من قبل. وكلّمها الأستاذ عن نبيذ بورتو، وكيف يجب تناوله بعد وجبة الطعام، بعد القهوة أو بعد الظهر وليس قبل الطعام. لماذا يعطيها إذاً لتشرب في الساعة غير الملائمة؟ لأنه ملك كل المشروبات، فلو أنه عرض عليها منذ البدء بيتر أو جين فإنها ربما ستستغرب الطعم، واستمر إميليانو في التحدث إليها عن الخمور وأنواع الليكوز وأنّها مع الوقت المناسب عليها أن تميز بينها وأن تجزم ما إذا كانت موسكاتل أو جيريز أو ماديرا أو مالاغا أو توكابي، وحياتها لم تكن إلا لتبدأ الآن... "انسي كل ما حدث لك، امحيه من ذاكرتك وابدئي هنا حياة جديدة".

قرَّب الكرسي إلى تريزا لتجلس إلى الطاولة، وكونها لا تعرف كيف تصبّ الطعام فقد قام هو بالعمل، بادئاً بتجهيز الصحن للفتاة التي لا تصدّق عينيها: أين يمكن رؤية سخافة كهذه؟ شربا مرطب المانجابا وكرّر الأستاذ المشهد الاحتفالي مقدّماً لها الكأس الأولى. مرتبكة، فإن تريزا كانت تنقر نقراً الطعام وهي تصغي إليه وهو يتكلم عن عادات فن الطبخ الغريبة وفي كل مرَّة بصورة أغرب.

مع الأخبار القليلة، جعل الأستاذ تريزا منطلقة الروح، وجعلها تقفز تعجباً وهـو يـصف لها بعض المأكولات الغربية: بيض السمك، والزعانف، وأنواع الجـراد، كانت تريزا قد سمعت أن هناك من يأكلون لحم الفئران فأيّد الأستاذ ذلـك: "لحم ممتاز"، كانت قد أكلت مرة لحم جرذ القمح الذي قتله وسلخه شـيكو نصف الكعب، وأحبّت لحم الجرذ. "كلّ ما يُصطاد هو طيب الطعم"، قـال إميليانو، "وله مذاق خاص ونادر، هل تريد تريزا أن تعرف عن حشرات الأرض وأطيبها؟"

- ما هي؟
- الحلزون أو ما يسمى بالبزاق.
- بزاق؟ ويلي كم هو مقرف...

ضحك الأستاذ ضحكة واضحة رنّت مفرحة في مسامع تريزا.

- إني إذاً سـأعد صـحناً من البزاق يا تريزا وستلحسين أصابعك بعده. هل تعرفين إنني طباخ ماهر؟

هكـذا بدأت تريزا بالترفيه عن نفسها، وبعد الطعام، ولدى تناول الحلوى. ضـحكت مـتمادية في ضحكها عندما سمعته يصف كيف أن الفرنسيين يضعون الحلزونات طيلة أسبوع في صندوق مليء بطحين الذرة الذي يغدو الطعام الوحيد لها، ويغيرون الطحين كل يوم إلى أن تغدو الحيوانات نظيفة كلياً.

- والجراد؟ يأكلون الجراد؟ أين؟

"في آسـيا، ممزوجة مع العسل، وفي كانتاو يعشقون أكل الكلاب والأفاعي، وأين الغرابة، ألا يأكلون في منطقة الداخل الأفاعي السامة؟" وعندما قاما عن المائدة أخذ الأستاذ بيد تريزا فابتسمت له ابتسامة مختلفة، لقد بدأت اللياقة.

في الحديقـة من جديد، وعلى المقعد القديم نفسه، المزخرف ببعض الحبيبات الرخامية الزرقاء، قبَّل خفيفاً شفتيها المبتلتين بخمر بورتو الذي سكبه ثانية، عارضاً عليها جرعة صغيرة تساعد على الهضم:

- "يجـب أن تتعلمي شيئاً قبل سواه يا تريزا، يجب أن تضعيه في رأسك مرة واحـدة وإلى الأبد" كان يلاعب شعرها الأسود "ولا تنسي في لحظة واحدة أنّك هـنا الـسيدة الأولى ولست خادمة، وهذا البيت بيتك، إنكِ سيدته. وإذا كانت

خادمة واحدة لا تكفي، فاستخدمي أخرى، أو أكثر إذا احتاج الأمر، ولا أريد أن أراكِ أبداً بعد اليوم غارقة في تنظيف الأثاث أو حاملة أي شيء ثقيل".

وجدت تريزا نفسها مرتبكة، لقد اعتادت على سماع الصراخ والإهانات، وعلى تلقي الصفعات والضرب بالمسطرة والسوط عندما لا تنتبه إلى العمل وعندما لا يتم تنفيذ أمـــر ما في حينه، وكانت تنام في فراش النقيب، ولكن ليس من أجل ذلك تركت نفسها تكون آخر ضحاياه. وفي السجن أمروها بتنظيف ثلاث زنزانات والمراحيض، وفي نزل غابـــــي كانـــت تبقى نائمة حتى ساعة الغداء كأكثرية الموجودات هناك. "إنك ربة البـــيت، فلا تنسي هذا، لا تستطيعين أن تمشي وسخة، مهملة، ومرتدية بشكل سيئ. أريـــد أن أراك جميلة... مع ذلك فإنك وإن كنت وسخة وترتدين الأسمال تبقين جميلة ولكني أريد جمالك في أحلى حللك، وأريد أن أراك نظيفة، سيدة".. وكرّر "سيدة".

- "ســـيدة؟ لن أكون أبداً..." فكرت تريزا وهي تسمعه، وبدا الأستاذ كأنه يقرأ أفكارها كما لو كان ذا موهبة في التكهن.

- إنـــك لـــن تكوني سيدة في حال واحدة: إذا لم تريدي، إذا لم يكن عندك الإرادة لتكوني، إذا لم تكوني ما أعتقد أنا أن بإمكانك أن تكوني.

- سأبذل جهدي..

- لا يا تريزا لا يكفي أن تبذلي جهدك.

نظرت إليه تريزا فرأى إميليانو في عينيها ذلك الوهج الماسي:

- لا أعـــرف كيف تكون السيدة، ولكن لن تراني بعد اليوم وسخة ومهملة، أكفل لك هذا.

- فـــيما يتعلق بهذه الموظفة التي تركتك تشتغلين عندما كانت لا تفعل شيئاً فإني سأصرفها في الحال...

- ولكـــن لا ذنـــب لها، من راح يفعل الأشياء هو أنا، أنا معتادة على ذلك وعملتُ...

- حـــتى وإن لم يكن لها ذنب، إنها لم تعد تنفع، فبالنسبة إليها لن تكوني أبداً الـــسيدة؛ فقد رأتك أحياناً كثيرة تقومين بعمل خادمة، وهي لن تكنّ لك احتراماً، أريـــد أن يحترمك الجميع؛ إنك هنا ربّة البيت ولا يوجد أحد سواي أعلى مكانة منك، أنا ولا أحد آخر.

13

بقيت تريزا في الغرفة مع الميت أطول وقت ممكن. مدَّدوه فوق السرير، كتفوا يديـــه فوق صدره، ووضعوا رأسه فوق المخدة. وذهبت تريزا إلى الحديقة فقطفت وردة متفتحة حديثاً، حمراء قانية، وعادت تضعها بين أصابع الأستاذ.

عندما كان يترجل من السيارة واصلاً من المصنع إلى أراكاجو، كان الأستاذ بعـــد قـــبلة الترحيب الطويلة يعطيها القبعة والباستون الفضي، بينما ألفريدو يحمل رزماً من الوثائق والكتب، وربطات كبيرة إلى الصالة والمطبخ.

كـــان من عادة الأستاذ أن يستعمل باستون الفضة خارج البيت، وليس فقط في الحقـــل عـــندما كان يمتطي حصانه راكضاً من قصبة إلى أخرى ومن مرعى إلى آخـــر يعـــاين قطعانه، ولكن في المدن أيضاً، في باهيا وأراكاجو المصرف ورئاسة مجلـــس إدارة إكزومبورتكس ش. م، ... لقد كان الباستون زينة، ورمزاً، وسلاحاً ولكـــنه بـــين يدي الأستاذ كان سلاحاً مخيفاً: في باهيا، كان قد حمل على الهرب شابين منحرفين بمجرد أن لوّح بالباستون، وكانا قد أخطأا في تقديرهما وحسبا أن بإمكانهما أن يأخذا الأستاذ على حين غرة. ويوماً، عند مركز المدينة جعل الكاتب الـــصحفي هارولدو بيرا يبتلع مقالاً في الجريدة. وكان الكاتب الذي قد استأجره أعـــداء آل غويدس قد كتب مقالاً اتهامياً عنيفاً في إحدى المجلات الأسبوعية ضد الزمـــرة المتـــسلطة، ونسب إلى إميليانو زعيم العائلة أفظع التهم: ساحر القاصرات العـــذارى مـــن بنات الأرياف، ممول بلا روح، ومستغل تعب الأجراء والمياومين، ولص أراض، ومهرب كبير للسكّر، مراب وسارق صناديق مال الشعب بالتآمر مع عـــصابة المـــراقبين الماليين في الدولة. أما أخواه ميلتون وكريستوفاو فقد شملتهما الرقـــصة الـــصحفية وصنفتهما عاجزين مذبذبين وجاهلين غير مؤهلين ودون أن يهمـــل الـــصحفي الإشـــارة إلى شاندو ابن ميلتون والمعروف بألكسندر غويدس باللوطـــي ذي الميول الجنسية الانحرافية، الذي أرسل إلى الريو دي جانيرو ومنع من المـــثول في المصنع لكونه معجباً بالعمال العبيد الرياضيين.. إن المقال الصحافي إذا قرئ بإمعان لعُرف أنّه يحتوي على حقائق عديدة وإن تكن قد كتبت بالقيح، كما يؤكد أحد السياسيين المبتدئين في منطقة الداخل عند مدخل القصر الحكومي، وما كـــاد ينهي جملته حتى نظر حوله فوضع النائب يده على فمه؛ كان الأستاذ يصعد

إلى هناك وبيده الباستون، بينما كان الصحافي بيرا صاحب المقال يترل بخطوة واثقة من النجاح. لم يجد الوقت للهرب، وإذا بالكاتب المجيد يبتلع المقال ناشفاً وبقي على وجهه أثر ضربة الباستون.

هنا في أشتانسيا، ومع ذلك، فإن الأستاذ عندما كان يخرج في نزهته اليومية بعد العشاء، فقد كان يحمل بيده زهرة بدلاً من الباستون. في تلك النزهات لم يكن الصناعي يظهر بعد في الشارع برفقة تريزا، وكان يقوم وحيداً بنزهات الليل إلى الجسر القديم، ومرفأ نهر بياوي، وتبقى هي في البيت، مخبأة عن الأنظار، ولم يكونا قد شوهدا قط معاً "إن الأستاذ على الأقل يحترم العائلات، وليس كالباقين الذين يداعبون الفتيات على مرأى من الناس". هكذا كانت السيدة جانين حبيب الموظفة في البريد والهاتف، السمينة وذات اللسان السليط، تطري على فضائل الأستاذ.

وحدث ليلة، أن قال لها بعد أن قبّلها: "إلى اللقاء العاجل، تريزا، سأعود في الحال، سأحرك رجلي قليلاً لتيسير عمليّة الهضم". ركضت إلى الحديقة وقطفت زر ورد كبير ذا لون أحمر قاتم وقدمته للأستاذ متمتمة:

- لكي تتذكرني وأنت في الطريق...

في اليوم التالي اكتفى بالقول:

- وأين زهرتي؟ إني لا أحتاج إليها لأتذكرك، ولكن يبدو الأمر كما لو أنني حملتك معي.

في الفراقات المتتالية، وفي تجدد الحزن، عندما كان يهم بأن يستقل السيارة ويذهب، كانت تريزا تقبل وردة ثم تعلقها بدبوس على ياقة السترة، وفي يد إميليانو من جديد الباستون الفضي.

الباستون في اليد، الوردة على السترة، وقبلة الوداع: دفء الشارب، ورأس اللسان يمر على الشفتين، ومن هناك يذهب الأستاذ إلى حياته المتنوعة بعيداً عن تريزا. وعندما يعود إلى حدود أشتانسيا، للإقامة مدة قصيرة موزعاً وقته بين البيوت الأخرى، وبين مواعيد عديدة ومصالح وانشغالات، كانت تريزا تكتفي بأن تنتظر وردة تتفتح لتقدمها في وقت العشق القصير.

في الغرفة، بعد أن وضعت الزهرة بين أصابع العشيق الميت، حاولت تريزا أن تقفل عينيه الزرقاوين النقيتين، الباردتين، غير الواثقتين في بعض الأحيان فكأنهما

تـــريدان أن تريا ما حولهما مركزتين في تريزا، تعرفان عنها أكثر مما تعرف هي عن نفسها.

14

في ســـياق تعلـــم الخمور المكررة والمقطرة، انتقلت تريزا إلى الجزء الأصعب المـــتعلق بخمـــور المائدة، القوية المقطرة المقبلة والمساعدة على الهضم، وفي إحدى الغـــرف الخارجـــية رتّب الأستاذ غرفة جعلها نوعاً من مستودعات الخمور المعتقة يعرضها متباهياً أمام جوان ناسيمنتو والكاهن فينيسيوس، وقد استودع فيها أنواعاً محترمة امتحنها جيداً قبل إيداعها وعليها التواريخ الموضوعة بدقّة ووضوح. أما لولو ســـانتوس فكـــان وفـــياً للبيرة وبينما كان يصبها متظاهراً بالغضب، كان يردد: "بربري، لا ذوق له من يعتبر الويسكي أرقى المشروبات".

لم تقـــم تريـــزا بشق طريق واسع في كهف الخمور وظلت وفية لمكتشفاتها الأولية:

خمـــر بورتو، كوينترو، الموسكاتل، وقد أصبحت الآن تقبل الخمور المرة قبل الطعام. وفيما يخص خمور المائدة، فإنها كانت تفضل الحلوة الطعم منها ذات اللذعة الخاصة التي تعطر الفم..

وكـــان الأســـتاذ يعرض الخمور الناشفة النبيلة، والحمراء الشهيرة، أنواعاً مختارة، بينما جوان ناسيمنتو والكاهن يقلبان أعينهما مبدين التعجب. ولكن تريزا انتبهت، مع اســـتمرار ولائـــم العشاء إلى أن المعلم ناسيمنتو المعروف بخبرته والشهير بذوقه الرفيع، كـــان يفضل الخمور البيضاء الأقل نشافاً والأخف مفعولاً وذات النكهة الخفيفة على الـــرغم مـــن إطراءاته للخمور الناشفة والحمراء التي، وهو يسكبها، كان يمسح شفتيه بلسانه. و لم تخف تريزا أبداً و لم تدعه ينتبه إلى اكتشاف مخادعة الرفاهية:

- "هل يرافقني السيد جوان بكأس بورتو وإن لم يكن الوقت مناسباً الآن؟"
- بسرور يا تريزا. إنه يليق بنبيل كبير.

ليس عندها كالمعلم ناسيمنتو موجبات للذوق الرفيع، وليست مضطرة إلى أن تكـــذب حـــيث لا ضـــرورة إلى ذلك، إنّها كانت تفصح للأستاذ عن اختياراتها المفضلة بينما إميليانو يبتسم لها ويقول: "تريزا قرص العسل".

منشغلاً في التفكير بملء وقت تريزا الذي تعاني فيه الفراغ خلال غياباته الطويلة والمتتالية، فقد اشترى لها ماكينة خياطة وصنارات صوف:

- هل تجيدين الخياطة يا تريزا؟

- أجيد الخياطة؟ لا أعرف إذا كنت أجيدها، ولكني في المزرعة كنت أقوم بتصليح ملابس كثيرة على ماكينة المرحومة.

- ألا تريدين أن تتعلمي؟ هل سيكون عندك ما تفعلينه أثناء غيابي؟

كانت مدرسة سيدة النعم للخياطة العالية تقع في شارع صغير خلف موقف تريستي. ولكي تصل إلى هناك، كانت تريزا تجتاز مركز المدينة، وكانت المعلمة الآنسة سافالينا (سالفا لأن أباها من السلفادور، ولينا اشتقاقاً من اسم أمها هيلينا)، فتاة ذات أرداف عريضة وصدر من البرونز، وأنثى رصيف ذات خبرة عريقة، قد دبرت لها بصورة استثنائية وقتاً خاصاً للتعليم بعد الظهر، وتلقت أجورها مسبقاً عن الدروس الكاملة وعددها خمسة عشر درساً. خلال الدرس الثالث تخلت تريزا عن الدرس وتركت المقص والمقياس المتري والإبرة والمسطرة، لأن المعلمة المحترمة كانت قد ألمحت منذ الدرس الأول إلى إمكانية أن تربح تريزا مبالغ كبيرة إذا ما تساهلت مع بعض السادة الأغنياء من مستوى الأستاذ وطرازه وشركاء في مصانع النسيج و"كلهم كتومون وذوو ترفع"؛ وإذا بالتلميحات تتحول إلى عروض مباشرة؛ إن المكان ليس مشكلة واللقاءات كان ممكناً أن تتم هناك، "في الغرفة الأخيرة، آمنة وممتازة وفيها فراش وثير إنه من الإسفنج اللّين يا عزيزتي"، إن الدكتور براودليو هو شريك في إحدى الشركات وكان قد رأى تريزا تمر في الشارع وتختفي..

وضعت تريزا سترتها، ودون أن تستأذن أدارت ظهرها وخرجت. ووجدت سافالينا نفسها مجروحة ومتعجبة فراحت تتمتم وهي منهمكة بأزرارها:

- "متعجرفة... سأرى ماذا سيحل بك عندما يضع الأستاذ رجله في قفاك.. ستأتين إلى هنا لاهثة لأجلب لك زبوناً"... لكن تفكيراً مزعجاً قطع الشتم: هل عليها أن تعيد مالاً بدل اثني عشر درساً لم يتم إعطاؤها "لن أعيد شيئاً، إنها ليست غلطتي إذا كانت المتمسكة بالشرف التافهة قد تخلت عن الدرس...".

عندما عادت، أراد الأستاذ أن يعرف التقدم الذي أحرزته تريزا في مدرسة الخياطة العالية. لقد تخلت عن الدرس، إنها لم تحب ذلك وقد تعلمت ما فيه الكفاية

للقيام بالأمور الضرورية وكفى. كان الأستاذ ذا موهبة في التكهن، فمن كان يستطيع تحمل تلك العيون النقية الزرقاء.

- تريزا، إني لا أحب الأكاذيب، فلماذا تكذبين؟ هل كذبت عليك في يوم؟ أخبريني بالحقيقة، ماذا جرى؟

- لقد جاءت تعرض عليَّ رجلاً..

- إنه الدكتور براودليو، أعرف. لقد راهن في أراكاجو أنه سينام معك وسيركّب لي قروناً. اسمعي يا تريزا: لن تنقصك عروض كهذا فإذا أردت في يوم ولأي سبب أن تقبلي، فقولي لي أولاً. سيكون ذلك أفضل لي وعلى الأخص أفضل لك.

- "إن السيد لا يعرفني جيداً وإلا كيف يستطيع أن يفكر فيَّ سوءاً؟" ورفعت تريزا صوتها بغضب، والشكوى ارتفعت، والعينان لمعتا، ولكنها ما لبثت أن خفضت رأسها وصوتها وأكملت: "إني أعرف لماذا تفكر هكذا: لقد ذهبت لتأتي بي من المنطقة المعروفة وأنت تعلم إنني حين كنت مع النقيب عاشرت آخر غيره. لقد عاشرت فعلاً آخر ولكني لم أكن أحب النقيب، لقد أخذني بالقوة، ولم أكن معه أبداً بإرادتي، إني أفضل منطقة الدعارة، على أن أعيش غير موثوق بي، مع الخوف مما يمكن أن ينتج عن ذلك".

أخذها الأستاذ بين ذراعيه:

- "لا تكوني حمقاء. أنا لم أقل إني أشك فيك، أو إنّي أعتقد بقدرتك على الغدر، فعلى الأقل ليس هذا ما أردت أن أقوله... لقد قلت، إذا تعبت يوماً مني وكان لك اهتمام آخر فتعالي وقولي لي، فهكذا يتصرف الناس المستقيمون. لم أفكر بالاعتداء عليك وليس عندي سبب لذلك، ولكن فقط عندي الأسباب لأراك مستقيمة وأنا سعيد بذلك". ودون أن يتركها من ذراعيه، ابتسم وتابع:

- أنا أيضاً أريد أن أكون وفياً، وسأخبرك بكل الحقيقة. عندما سألتك عما حدث، فقد كنت أعرف كل شيء، ولا تسأليني كيف. هنا، كل شيء يعرف يا تريزا، وكل شيء يحكى عنه.

في تلك الليلة، بعد العشاء، دعاها الأستاذ للخروج معه لمرافقته في النزهة حتى جسر نهر بياوي ولم يكن قد فعل ذلك من قبل. ومعاً في تلك الليلة، العجوز

والصغيرة، ولكن لا هو كان يوحي بأنه قد تجاوز الستين، ولا تريزا كانت تبدو في السادسة عشرة، لقد كانا رجلاً وامرأة عاشقين متشابكي الأيدي عشيقين دون ارتباك، يسيران معاً فرحين. في الطريق، كان المشاة القليلون ليلاً، يجهلون الأستاذ والعشيقة ويرون أنهما زوج وزوجة مولهان. بعيداً عن المركز والحركة لم يعودا يثيران الكثير من الفضول، ومع ذلك فإن عجوزاً وقفت لتنظر إليهما يمران:

– أسعدتما مساء يا أحبائي أمضيا بأمان الله!

بعد عودتهما إلى الشاليه بعد أن شاهدا النهر والسد وميناء الزوارق، تركها الأستاذ في الغرفة ومضى يفتش في الثلاجة عن زجاجة الشمبانيا التي وضعها هناك لتبرد. وعندما سمعت السدادة تتطاير في الهواء وقد أطلقت صوتاً، ضحكت تريزا وصفقت بكفيها بفرح طفلة صغيرة، وصبّ إميليانو غويدس في قدح واحد لكليهما وشربا معاً فاكتشفت تريزا طعم الشمبانيا الذي لا مثيل له. كيف تفكر برجل آخر، غنياً كان أو فقيراً، شاباً أو ناضجاً، جميلاً أو بشعاً، إذا كان عندها العشيق الأكثر كمالاً والأكثر روعة ومعرفة؟ وكل يوم كان يعلمها شيئاً جديداً، يعلمها قيمة الوفاء وطعم الشمبانيا، مقياس المتعة الأطول والأعمق.

– ما دام السيد يرغب فيّ فلن أكون لأحد آخر.

حتى مع انطلاقة الشمبانيا لم تكن تقول له "أنت" ولكن في الساعة الأخيرة، عندما كان العسل يتدفق، خجلة، خائفة، كانت تقول: "آه، يا حبيبي".

15

ظهرت نينا عند باب الغرفة تسير على أعلى أخمصيها متجلببة بالأسود الذي بدت معه كأنها صورة كاريكاتورية أو عاهرة وضيعة في سوق بغاء رخيص؛ ولكي لا تزعج أحداً، أو لكي تظهر بصورة مفاجئة مسترقة من تريزا تعبيراً أو حركة أو أي ملمح خفيف يظهر على وجه تريزا لأن "النذلة لا تستطيع أن تخفي إلى ما لا نهاية سرورها". إنها – أو تريزا – ستفوز الآن بالمبلغ الكبير وستتمكن من التمتع بحياتها مهما تكن متكتمة، متخفية التعابير، فإنها لا بد أن تكشف القناع عن وجهها في النهاية. حتى الآن ومع خبثها العضوض، لم تستطع أن تذرف دمعة

واحـــدة من عينيها الناشفتين، علماً أن ذرف الدمع مسألة سهلة وبإمكان أي كان القيام بها، وعند الباب، ذابت نينا إجهاشاً في البكاء.

كان الخادمان، الزوج والزوجة، سيكملان السنتين في وظيفتهما في بيت تريزا ولـــو عاد الأمر إلى الأستاذ لصرفهما منذ زمن بعيد لا بسبب الزوج لولا المسكين بل بسبب نينا التي لم يكن يحبها إميليانو:

– هذه المرأة ليست كائناً صالحاً يا تريزا.

– إنها جاهلة، مسكينة ربّما، ولكنها ليست سيئة.

وكـــان الأستاذ يضرب بالمسألة عرض الحائط، وهو يعلم السبب الحقيقي في صـــبر تريزا في أن تغطي على الحقيقة وتستمر في التغاضي عن أكاذيب هذه المرأة: فالصغيران لازينيو وعمره تسعة أعوام وتكينيا وهو في السابعة، هما تحت حماية تريزا وعنايـــتها وتربطها بهما مظاهر أمومية مقنعة. وإذ إنّها كانت معلمة مجانية ومولهة بالتعلـــيم، فإن تريزا كانت تشغل وقتها بإعطاء الدروس لقسم من الأطفال خلال تغـــيّب العشيق الذي لا ينتهي، وكانت تختار الأطفال بطريقة عشوائيّة من الشارع وتـــأتي بهم إلى هناك. وكان الصغيران لازينيا وتكينيا، بعد ساعة التدريس اليومية يقـــضيان قسماً طويلاً من الوقت مع المعلمة ويحصلان على الألعاب ووجبة العصر الغنـــية بالطيـــبات إلى درجة أن تلك المعاملة كانت تصيب نينا القاسية في عقاب الأطفـــال والـــضرب، بالارتباك. وعندما كان يحضر الأستاذ، فإن الأطفال كانوا يأتـــون فقط ليطلبوا بركة المعلمة. وكان الوقت يمر سريعاً بسبب الفرح والحيوية اللـــذين ينتجان عن حضور الأستاذ، وكونها برفقة إميليانو فإن تريزا لم تكن بحاجة إلى أي شـــيء آخـــر. ولكن، في أثناء غيابه، فإن أطفال الشارع، وعلى الأخص الـــصغيران الموجودان في البيت، كانوا ضروريين لرفقة تريزا ليخففوا عنها العبء الثقيل من الوقت الطويل الذي تقضيه منتظرة عودة العشيق، وليمنعوها من التفكير في المستقبل البعيد، إذا جاء الغياب نهائياً وإذا تعب منها الصناعي يوماً.

لم تكـــن تفكر بالموت، ولم يكن الأستاذ يتراءى لـــه موضوع الموت الذي كان يرى أنّ شأنه مع الآخرين وليس مع الأستاذ نفسه.

بـــسبب الأطفـــال كانـــت تريزا تتحمل عدم اكتراث نينا ومشاعر العدائية المزعجة التي كانت تظهر بوضوح أحياناً على الخادمة. وكان الأستاذ، كونه يشعر

بالذنب إذا ما رأى طفلاً مرمياً في الشارع أبداً، يتغاضى عن أساليب نينا: حسود، حقـــود، تحاول أن توغر صدر الأستاذ عند كل مناسبة. عند الصباح. عندما خرج من الغرفة، لمح إميليانو غويدس تريزا في الحديقة، موزعة بين الطفلين تلهو معهما، وعندما لمحاه طلبا منه البركة وجريا راكضين إلى البستان، إنها الأوامر المحددة.

على باب الغرفة قامت نينا بعمليات الحساب الصعبة: متى تضع العشيقة يدها على وصية المليونير العجوز؟ وكانت نينا تشك كلياً في الإخلاص والوفاء ولا تعتقد بحب تريزا للأستاذ، ولا يعدو الإخلاص والصراحة والعطف عن كونها خبثاً وتمثيلاً بهدف وضع اليد على الميراث. إنها الآن غنية ومستقلة وستمارس المعرفة التي علمها إياهـــا على أحسن وجه. وبالتزامن مع هذه الشكوك، ملأت نينا صوتها بالأسف والحزن:

- مسكينة السيدة تريزا لقد كانت تحبه كثيراً..

- نينا أرجوك اتركيني وحدي.

"الأمر واضح لقد بدأت المرأة الوضيعة بشحذ أظافرها وصقل أسنانها لتعض".

16

في يوم من الأيام جاء ألفريدو يستأذن بالانصراف:

- إني ذاهـــب لـــتوي يا سيدة تريزا. إن ميزابل سيبقى في مكاني، إنه شاب طيب.

كانت تريزا قد عرفت من الأستاذ بطلب ألفريدو: لقد جيء به لمدة شهر في حالـــة طارئـــة، وبقي ستة أشهر بعيداً عن العائلة والمصنع حيث عاش دون خدمة محددة بتصرف إميليانو، إنه رجل كل الأمور ويجيد العراك. ولولا أحفاده لبقي في أشتانسيا أرض الناس الطيبين التي يحبها، وأكثر محبته لتريزا:

- إنها امرأة مستقيمة يا حضرة الأستاذ، ليس من امرأة مثلها، ومع كونها عصرية فـــإن عقلها عقل إنسان ناضج، تخرج من البيت فقط في حاجة، وفي الشارع لا تنظر إلى أحـــد، تعـــيش وعينها على الباب تنازع الوقت ريثما يعود الأستاذ وفي كل ساعة تـــسألني: هل تعتقد أنه يصل اليوم يا ألفريدو؟ أنا أشهد على ذلك وهي تستحق حماية الأستاذ. وعندما لا يكون الأستاذ موجوداً فإنها لا تفكر إلا بتثقيف نفسها.

إنها مسألة أساسية للحكم النهائي على تريزا، وألفريدو قد زوّد الأستاذ بكل المعطـيات والمقاييس والأوزان والأمور الطارئة في غيابه: منذ عرض معلمة الخياطة العالـية، كـان ألفريدو قد طارد المحاسب المدقق أفيو أولر مطاردة ما تزال موضع الأحاديث حتى اليوم. كان ذلك المدقق من نوع دانيال وممثلاً لنقابة التجار، غارقاً، مع صبغ شعره بالبريق اللماع والعطور الرخيصة، في الإغراء المبتذل للفتيات، وكان قـد نقـل مـن باهيا إلى سرجيبـي والأغواس وقد سحر بالفتيات الجميلات في أشتانـسيا اللـواتي كـن جميعاً عذارى مع الأسف. ولكنه كان يسير مفتشاً عن الـصحن الأفضل والأكمل، عن امرأة جميلة الفراش، لا خطر معها من الخطيب أو الـزوج، ولديـه الـوقت الحـر والصدر المرتبك، على أن تكون عشيقة غني من الأغنياء.. أخيراً، علم بتريزا، ثم لمحها تخرج من أحد الدكاكين بروعتها تلك، فجد خلفهـا وقال لها المجاملات التي ترافقها الحركات الإغرائية. وكان يمتلك طرقاً من الإغـراء لا تـنفد لكثـرتها وكل طريقة أكثر وقعاً من الأخرى. عجلت تريزا في الخطو، ففعل ساحر النساء الشيء نفسه، وإذ صارا وجهاً لوجه وقف أمامها مانعاً إياها عن المرور، وإذ كانت تريزا تعلم كم أن فضيحة كهذه يمكن أن تكون ذات وقـع سيئ على الأستاذ، فقد حاولت تريزا أن تحيد من أمامه، ولكن النجم اللامع وقد فتح ذراعيه، لم يترك لها مجالاً للمرور:

- لن تمري إذا لم تقولي لي اسمك ومتى نستطيع أن نلتقي...

بـذلت تريـزا جهداً للمحافظة على هدوئها فأرادت أن تجتاز الشارع، فمدَّ الـشاب يده محاولاً الإمساك بها لكنه لم يتوصل إلى لمس ذراعها. ولم يدرِ أحد من أيـن ظهر ألفريدو في تلك اللحظة، فسدّد له لكمة على أنفه جعلت اللكمة الثانية غير ضرورية، فانبطح ساحر النساء على وجهه أرضاً ثم لملم نفسه راكضاً في الحال إلى الفـندق حيث اختبأ حتى ساعة وصول باص أراكاجو. كان ينقص أفيو أولر الخبرة العميقة في اقتحام العشيقات. من يرغب في التعامل مع نساء مصاحبات يجب أن يعـرف قـبل كل شيء طبيعتهنّ النفسية ووجهات نظرهنّ في الشخص الذي يـضعهنّ تحـت حمايته. وإذا كانت غالبية المصاحبات قد أعطين أنفسهن للمتعة والمجازفـة بوضع القرون لمن يصاحبهن، فإن أقلية منهن جديات ومخلصات للعهود وبعض رجالهن ذوو دماغ حساس في هذه الأمور ولديهم حساسية للقرون.

وبواســطة ألفريدو عرف الأستاذ سبب تأخر تريزا مع كتب القراءة ودفاتر الخط، لقد التحقت بالمدرسة قبل أن تباع إلى النقيب، خلال سنتين ونصف أعطتها المعلمــة مرسيدس ليما ما استطاعت من المعرفة التي لم تكن شيئاً يذكر، وأرادت تريزا أن تقرأ الكتب الموزعة في البيت فانكبت على الدراسة.

وبالنــسبة إلى إميلــيانو غــويدس كان عملاً ممتعاً أن يتابع ويوجه خطوات الــصغيرة تريزا، مساعداً إياها على التمكن من القواعد والتحليلات اللغوية، وكان الأستاذ قد علم تريزا أموراً كثيرة في الحديقة والبستان والبيت والشارع وإلى طاولة الطعــام وعلى مرّ الأيام، ولكن بالنسبة إلى تريزا لم يكن شيء أكثر فائدة ومتعة لها مــن ذلك الدرس المميز. وقبل أن يذهب كان الأستاذ يترك لها واجبات لتقوم بها ومــوادّ للدراســة وتمرينات لغوية. لقد ملأت الكتب والدفاتر وقت تريزا الفسيح مانعة عنها السأم والقلق.

وكــان جــوان ناسيمنتو قد جلب لها طباخة شهيرة هي العجوز أيولينا، المتأففة المتذمــرة مــن الحياة وذات المزاج السيئ، ولكن أية فنانة في الطبخ هي! إنها في إعداد الطبخ المعقد والصحون الشهيرة في سرجيبــي وباهيا وفي إعداد سمكة الأغواس الحارة موهــوبة تستحق التقدير. وتعلمت معها تريزا أن تضع كمية الملح اللازمة، وأن تمزج البهارات، وأن تطلع على الإعداد الدقيق للطبخ، وأن تتعلم قواعد وضع السكر والزيت وكمية الكوكو والبهار والفلفل في الطعام. وعندما كانت العجوز أيولينا تجلس ورأسها مــثقل بالهموم وصدرها مشحون بالألم، كانت تترك كل شيء وتذهب في الحال غير راضية، وكانت تريزا تشغل المكان الفارغ أمام موقد الحطب الكبير "من يريد أن يأكل لذيذاً وأفضل ما يكون، فلا يوجد لإعداد ذلك ما هو أنسب من فرن الحطب".

- "هــذه العجوز أيولينا في كل مرة تجيد أكثر صنع الطعام..." قال الأستاذ ذلــك وهــو يكــرر وضع شريحة من الدجاج في صحنه "إن شواء دجاجة معدة بالتوابل لتكون صحناً بسيطاً هو من الأمور الأكثر صعوبة. لماذا ضحكت، تريزا؟"

- أخبريني، هيا.

لم تلمــس العجوز الدجاجة و لم تهتم بالشواء لأنها كانت قد اختفت في نوبة مــن نوباتها المزاجية. أما الحلويات فأجل، حلوى الكرز والجاكا والأراسا، كانت من صنع أيولينا. "بالله، يا تريزا كيف أصبحت طباخة، متى، ولماذا؟".

"هــنا في بيتك يا سيدي، ولأعجبك أكثر. تريزا في المطبخ وفي الفراش وفي الدرس".

رجوع ألفريدو إلى المصنع وضع حداً لمرحلة من مراحل حياة تريزا وإميليانو، وكانــت المــرحلة الأصعب. لقد كان ألفريدو صامتاً، هادئاً، ومزيجاً من جنيناتي ومــستزلم، رجلاً شجاعاً وصديقاً وفياً، وبعنايته أثمر البستان وأزهرت الحديقة وفي ظــلّ مــا تــركه تبادلا الثقة واللباقة والعطف. تعودت تريزا على صمت ألفريدو ووجهه البشع ووفائه.

بوجــود الأستاذ كان الوقت لا يتعدى المقبلات، الغداء، العشاء، الأصدقاء الكــتب، النــزهات، وحمامــات النهر، والمائدة، والفراش، الشبكة الأرجوحة الموضــوعة في الحديقة، أريكة الصالة الكبيرة حيث يتفحص الوثائق ويخط الأوامر، والمنــبر في الغــرفة حيث تخيط وتدرس، والحمام حيث يستحمان معاً وكان ذلك واحــداً من اختراعات الأستاذ الأكثر جنوناً. هنا وهناك وهنالك وأينما كان، فهو طيب.

17

حــوالى الثانية صباحاً عاد الدكتور إماريليو ومعه شهادة الوفاة وأخبار أهل الأســتاذ، ولكــي يعــرف مكانهم في حفلة أياتي كلوبــي، كان قد أيقظ نصف أراكاجــو عــبر سلــسلة من المكالمات الهاتفية إلى أن توصل إلى التكلم مع الابن الأصــغر كريــستوفاو الذي يظهر السكر في صوته؛ كان نضالاً استغرق أكثر من ســاعتين. لحسن الحظ أن عاملة الهاتف بيا توركا لم تتذمر من تجاوز الوقت المحدّد للعمــل، فهــي كانت فضولية وذات اهتمام بمعرفة الأخبار وتفاصيل موت الثري الكبير. والحقيقة أن الطبيب ولكي يحصل على رضى عاملة الهاتف، أطلعها على أن مــوت الأســتاذ جاء وهو عار وفي ظروف خاصة جداً. ولم يستلزم الأمر إعطاء التفاصــيل لأن بــيا توركا، ربما بفضل المهنة والاختبارات، كان عندها لاقطات هوائية ذات قدرة عجيبة.

– لقـ د تعلقت بيا توركا بالهاتف إلى أن تمكنت من الحصول على أراكاجو وكانــت مــتعاونة جداً، وعندما علمت بمكان العائلة انتهت إلى القول "فيفا". في

الحقـــيقة لم يكن بالإمكان سماع شيء بسبب الموسيقى الصاخبة في الاحتفال ومن حـــسن الحـــظ أن هاتـــف أيابي يقع في المشرب وكان كريستوفاو هناك يشرب الويسكي، وعندما أعلمته النبأ اعتقد أنه فقد صوته لأنه ترك الهاتف وتركني أصرخ إلى أن جـــاء شـــخص آخـــر وذهـــب لينادي على الصهر الذي قال إنهم كانوا سيغادرون المكان في الحال.

ومـــع الطبيب كان قد وصل جوان ناسيمنتو حزيناً متأثراً متخوفاً: "ويلي يا تريـــزا أية مصيبة! لقد كان إميليانو أصغر سناً مني بثلاث سنوات ولم يكمل بعد الخامسة والستين. لم أفكر قط أنه كان سيرحل قبلي. كان قوياً ولا أذكر أنني رأيته مرة يشتكي من سبب صحي".

تركتهم تريزا في الغرفة وخرجت لإعداد القهوة بينما كانت نينا في حالة هستيرية متشكية باكية لا يستطيع أن يعزيها أحد وكأنما كانت حفيدة، أو قريبة أو نسيبة.

لـــولا ينام جالساً إلى طاولة المطبخ ورأسه فوق ذراعيه، وذهبت تريزا بنفسها لتقديم القهوة.

في فـــراش الـــشراشف النظيفة مرتدياً كما لو أنه كان سيرأس اجتماعاً لمديري المـــصرف الإقليمـــي في باهيا وسرجيبـــي، رقد إميليانو غويدس وعيناه الوضاءتان ما تـــزالان مفتوحـــتين ومركّزتين على الحياة والأشخاص تريدان أن تريا كل شيء وأن تـــرافقا منذ البدء رحلة جسده الطويلة في بيت العشق حيث مات وهو يشهق بالرجفة الجنسية. وإذا جوان ناسيمنتو برموش عينيه المبللتين يعود بالكلام إلى الطبيب:

- لا يـــبدو ميتاً عزيزي المسكين إميليانو. إن عينيه مفتوحتان ليأمر كلاً منا كما فعل منذ كان طالباً في الكلية. الوردة في اليد ولا ينقصه غير الباستون. القاسي والكريم، أفضل صديق، وألد عدو إميليانو غويدس سيد كاجازيراس.

- "لقـــد قـــتله الاشمئزاز" كرّر الطبيب تشخيصه "لم يفتح قلبه لي قط ولكن الأخبار سرت، وعرفت ذلك دون أن أسأل. كان صديقك إلى هذا الحد، ألم يقل لك شيئاً أبداً يا جوان؟ حتى قبل أمس؟ ألم يقل شيئاً متعلقاً بابنه أو بصهره؟"

- لم يكن إميليانو شخصاً يتحدث عن حياته لأصدقائه. لم أسمع قط من فمه غـــير الإطـــراءات علـــى العائلـــة، فكـــل أفرادها صالحون، كاملون، إنها العائلة الإمـــبراطورية. لقد كان متكبراً جداً فلا يتحدث إلى أحد كائناً من كان عن أي

شـــيء غير لائق بحقّ عائلته. كان عنده ضعف تجاه ابنته كما أعلم، عندما كانت عـــزباء كان في كل مرة يأتي إلى هنا يتكلم عنها طيلة الوقت، عن جمالها، ذكائها، وأفعالها الطيبة، بعد أن تزوجت لم يعد يتكلم...

- مـــاذا يقول؟ يتكلم عن القرون التي تضعها في رأس زوجها؟ لقد شابهت أباهـــا، فـــإذا هي حارة الدم وشهوانية، ملتهبة، ويقولون إنها تمعن فساداً في بيوت أراكاجـــو. هـــي من جهة، وزوجها من جهة أخرى، وهو ليس أقل منها فحشاً، وكل واحد يعيش الحياة التي يرغب فيها.

- "إنهـــا الأزمـــنة الحديثة والزيجات الاعتباطية.." انتهى جوان ناسيمنتو إلى القـــول "مسكين إميليانو، كان مجنوناً بعائلته وأولاده وإخوته وأحفاده يساعد حتى آخر أقربائه. وها هو يبدو حياً ولا ينقصه إلا الباستون في اليد..".

عادت تريزا وصينية القهوة معها:

- الباستون، لماذا يا سيد جوان؟

- لأن إميليانو كان يستعمل في الوقت نفسه الوردة والباستون الفضي.

- "ليس معي يا سيد جوان، ليس هنا" وكانت تلك الحقيقة.

- "في بعـــض الأشـــياء، يا تريزا، إنك تشبهينه، أنظر إليك وأرى إميليانو. مع التعايش أصبحت مماثلة بالوفاء، والكبرياء، وأعرف ماذا بعد..." صمت برهة ثم تابع:

- أردت أن أراك الآن وأســـتأذن مـــا دام برفقتك، ولا أريد أن أكون هنا حاضراً حين يصل أهله. لقد جاء إلى أشتانسيا بسببك وأعطى بعض وقته المليء لنا ونقل إلينا حبه للحياة. عندما وصل كنت قد استسلمت للشيخوخة بانتظار الموت، فبعـــثني من جديد. أريد أن أستأذن منه أمامك، أما الآخرون فلا أعرفهم ولا أريد أن أتعرف إليهم.

خيّم الصمت من جديد، بينما الميت منفتح العينين. ثم تابع المعلم جوان:

- لم يكـــن عندي قط إخوة يا تريزا، ولكن إميليانو كان بالنسبة لي أكثر من أخ، ولم أفقد كل ما تركه والدي إلا بفضله هو لأنه كان يهتم بأعمالي ومع ذلك لم يفتح فمه يوماً بشكوى لي. حتى في هذه اللحظة كنت أقول لإماريليو: الكبرياء، والكـــرم، والباســـتون والوردة. لقد جئت لأرى إميليانو وأراك أنت يا تريزا. هل أستطيع أن أخدمك بشيء؟

- شــكراً جزيلاً يا سيد جوان. لن أنسى قط السيد ولا الدكتور إماريليو، ففي هذا الوقت الذي عشته هنا كان لي أصدقاء وهبني إياهم.

- هل ستبقين في أشتانسيا يا تريزا؟

- من دون الأستاذ لا أستطيع يا سيد جوان.

ارتــشفا آخــر جــرعة من القهوة وبقيا صامتين. جوان ناسيمنتو يفكر في مــستقبل تريزا، المسكينة تريزا، يقولون إنها عانت معاناة قاسية قبل أن تأتي لتعيش مــع إميلــيانو، لقد عاشت سابقاً عيشة الكلب. الطبيب، محزوناً، ينتظر الكاهن لاســتقبال الأهــل الــذين هم في هذه الساعة على الطريق في سباق جنوني إلى أشتانسيا: الابنة، الصهر، الأخ، الكنّة، والمرافقون.

يخــاف الدكتور إماريليو من لقاء العائلة مع العشيقة، إنها مشكلات حساسة، ولا يعــرف الطبيب كيف يحلها. لا يعرف جيداً بعض أقارب الأستاذ إميليانو. من يعرفهم جيداً هو الكاهن غينيسوس إذ كان قد ذهب سابقاً عدة مرات إلى المصنع لكي يقيم القداس... أين هو الكاهن، لماذا تأخر حتّى الآن؟

تأمــل جوان ناسيمنتو صديقه الميت طويلاً، وبدا عليه التأثر فلم يخف دموعه وخوفه من الموت:

- لم أفكّــر قط أنه سيرحل قبلي، ولم يعد دوري متأخراً... تريزا يا ابنتي أنا ذاهب في الحال قبل أن يصل هؤلاء البشر. إذا احتجت إليّ في يوم...

غمــز تريزا، ولمس جبهتها بشفتيه قليلاً، وبدا أكبر سناً في تلك اللحظة من الساعة التي وصل فيها ليرى صديقه الميت ويستأذنه بالانصراف. "إلى اللقاء العاجل يا إميليانو".

18

ألم تحــسي يا تريزا أبداً بضربة الباستون، والألم الأليم، وقلة الطراوة فيه؟ ألم تلمسي الباستون من الناحية الأخرى من ناحية قبضة الفولاذ؟

قــبل تلــك اللــيلة التي شيعنا بها جثة المواطن الرفيع الشأن الأستاذ إميليانو غويدس في بيته غير الشرعي، ألم تكوني يا تريزا مدخولة بالموت ولم تكوني من قبل قد رأيت الموت متمدداً فيك تمدداً مادياً حقيقياً مع رغبة متقدة ناراً وبرداً في بطنك الأملس؟ ألم يحدث لك هذا يا تريزا؟

أجل، حدث، يا معلم جوان؛ إنما بيد الموت نقلت إلى حدود الفهم واللباقة. ولم تعش تريزا مع الأستاذ حياة ناعمة دائماً، فقد عرفت أوقاتاً من الحزن والنضال، والشعور بالموت. ولقد امتد الموت داخلها قبل الموت وتغلغل في أحشائها في رحلة من رحلات المرارة. وأحست بنفسها ميتة، ولكنها ولدت من الحب من جديد ومن معاملة العشيق لها: عطف، رفاهية، وفاء، كلها كانت أدوية عجائبية. الموت والحياة، الوردة والباستون.

ولكنك لن تسمع الحكاية من فم تريزا النظيف والوفي يا معلم جوان.

وبين أصابع الميت وضعت فقط وردة الوداع. ولكن. شاءت أم أبت، فإن الذاكرة تسجل. تجلب وتمدّد إلى جانب جثة الأستاذ جثة من لم يمت ويدفن، جثة من لم يصل بعد إلى الموت، جثة من انطفأ قبل أن يولد، الجثة التي تبعثرت بالدم، جثة الجنين. إنهما الآن جثتان فوق الفراش، فراقان، موتان، وكلاهما نما في داخلها. مع تريزا، إنهم ثلاثة أموات، لقد ماتت هي اليوم للمرة الثانية.

عندما تأخرت عادتها الشهرية الدقيقة ذات الثمانية والعشرين يوماً، ومع علامات أخرى بدت عليها، فإنها أحست بقلبها يتوقف: لقد كانت حاملاً. الشعور الأول كان تألقاً نفسياً، لقد كانت تظن أنها عاقر ولن يكون عندها ابن. ابنها هي والأستاذ، يا للفرح الذي لا حدود له.

في مزرعة النقيب، لم تكن السيدة بريجيدا تسمح لها بالعناية بحفيدتها، لا بالعناية ولا بملاعبة الطفلة، إذ كانت ترى في تريزا عدوة، تكيد المكائد والمؤامرات لتتفرد بميراث ابنة دورس، ذلك الميراث الذي سيشتمل على كل أملاك جوستنيانو دوارتي دا روزا عندما يهبط من السماوات إله الثأر وبيده سيف النار. بعد ظهر يوم أحد، وبدعوى من ماركوس ليموس، كانت تريزا قد خرجت من نزل غابي في كيا داغو لتشاهد عرضاً سينمائياً في مركز مدينة كاجازيراس الشمالية. وبينما كانت تجتاز محلة ماتريز، شاهدت السيدة بريجيدا مع الطفلة في باب دارها الخاصة التي كان قد اشتراها الدكتور أوبالدو ورهنت، وكادت تضيع ثم استعادتها في النهاية، جدة وحفيدة في الرفاهية والرضى، لم تكونا تبدوان كما في السابق العجوز المجنونة ذات الدماغ المنحل والطفلة الملائكية، صحيح ما يقولون إنه ليس لبعض أوضاع السوء من علاج أحسن فعالية من المال. في المزرعة، كانت السيدة بريجيدا

قد منعت تريزا عن لمس الطفلة وكذلك عن لمس اللعبة هدية العرّابة السيدة بياتريز أم دانـــيال. لم تحبل من دان في فراش المتعة. وأكثر من سنتين مع النقيب لم تستطع الحـــصول علـــى طفل وذلك دون أن تحتاط، مع أن النقيب لم يكترث بالأمر ولا يعترف بالأبوة. وعندما كانت إحدى الفتيات تبدو حاملاً كان النقيب يصرفها بلا رحمـــة. أجهـــضي، أولدي، افعلي ما تريدين، فالنقيب لا يهتم بهذا.. وإذا جاءت إحـــداهن وابـــنها على ذراعها تطلب مساعدة كان يرسل ترتو كاشوخو يركض وراءها ليطردها... ابن شرعي، فقط، من دورس.

"إنهـــا عاقـــر وأرض بوار"، قالت تريزا ذلك للطبيب عندما كانا قد وصلا حديثاً إلى أشتانسيا، فأوصاها بالاحتياط واتباع أساليب منع الحمل.

– لم أضع طفلاً قط.

– أحـــسن. لا أريـــد طفلاً في الشارع، كنت دائماً ضد الفكرة، إنها مسألة مبادئ. ليس لأحد الحق في أن يضع طفلاً في هذا العالم ويتركه في وضع غير لائق. وأكثـــر مـــن ذلـــك فإن من يتحمل مسؤولية عائلية، لا يجب أن يكون عنده ولد خـــارج نطـــاق البـــيت. إن الابن الشرعيّ يؤتى به من زوجة في البيت. الزوجة وجـــدت لـــتحمل وتلد وتربـــي الأولاد، أما العشيقة فلمتعة الحياة، وعندما تبدأ بالاهـــتمام بالطفل تصبح كالزوجة وأي فرق بينهما حينئذ؟ أولاد في الشارع، لا، هكذا أفكّر. أريد تريزا لراحتي، لتجعل حياتي فرحة في الأيّام الباقية لي، وليس من أجل الأولاد والذوبان من أجلهم. هل أنت موافقة يا قرص العسل؟

غرست تريزا عينيها الوضاءتين في الأستاذ كأنهما صفيحتا فولاذ زرقاوان:

– لا أستطيع حتى أن أنجب.

– هكذا أفضل إنّ أخوي ميلتون وكريستوفاو قد أنجبا أولاداً في الشارع، أما كريـــستوفاو فعـــنده عائلتان وسلسلة من الأولاد وهذا هو الأسوأ. الزوجة شيء، والعشيقة شيء آخر ومختلف. أريدك لنفسي ولا أريد أن أتقاسمك مع أحد، فكيف بالحـــري مع طفل، بالإضافة إلى هذا هنالك مسألة سني. لم أعد في السن الملائمة لإنجـــاب طفل صغير، ولن يكون عندي الوقت لأجعل منه رجلاً. أريد أن أكرّس لـــك كـــل وقتي الباقي..." ثم أخذها بين ذراعيه، "إن العشيقة هي لهذا يا قرص العسل..".

ولكـــنها لم تكن عاقراً، آه فإن طفلاً من الأستاذ ينمو في أحشائها، هاليلويا! وتجاوزت انفجار الفرح الذي لا يمكن وصفه، ثم راحت تفكر، لقد تعلمت التنكر في السجن، إن الأستاذ كان على حق: وضع طفل طبيعي في هذا العالم هو الحكم على البريء بالألم. في نزل غابـــي شهدت على أكثر من حالة: ابن كاتارينا مات في الـــشهر السادس بسبب المعاملة السيئة التي عاملته بها المربية التي جيء بها لتعتني به. ابنة فيفي بقيت تعاني من الضعف في صدرها وتنـــزف دماً بسبب سوء التغذية الـــذي ســـببته للطفلة العجوز اللعينة الموكل إليها أمر تربية الصغيرة، والتي كانت تصرف على الكاشاسا المال الذي تعطيها إياه فيفي لتعيل ابنتها. النساء في السوق العمومـــية والأولاد في كنف الإهمال. كان أسوأ ما في تلك الحياة العامية هو الحزن على الأطفال.

19

كـــان قد مضى على غياب الأستاذ ثلاثة أسابيع وهو يعالج مشاغل مهمة في باهيا في حرم المصرف، فذهبت تريزا إلى عيادة الدكتور إماريليو: امتحان نسائي، أســئلة، تشخيص سهل إنه الحمل. "والآن يا تريزا؟" ظلَّ ينتظر الجواب بينما عينا تريـــزا تائهتان، غائرتان: آه، ولد يولد منها ومن الأستاذ، ينشأ جميلاً ومدللاً، وله عيـــنان زرقـــاوان بحـــريتان ويقوم بحركات لطيفة ولا ينقصه شيء في هذا العالم، ويصبح وجيهاً مثل أبيه! أو ربما فتاة هوى من زقاق إلى زقاق ومن يد ليد؟

– إني أريد أن أجهض، دكتور.

كان للطبيب وجهة نظر ثابتة وتحفظات مناقبية في هذا الصدد:

– إني لا أوافق على الإجهاض يا تريزا. لقد قمت سابقاً ببعض الإجهاضات ولكـــن في ظروف خاصة وللضرورة القصوى، ولكي أنقذ حياة النساء اللواتي لم يكـــن قادرات على الحمل. إن الإجهاض هو دائماً خطر للمرأة جسدياً ونفسياً. ليس لأحد الحق في أن يتصرف في حياة...

حدقت تريزا في الطبيب، فهذه الأشياء سهلة لتقال ولكنها صعبة لتسمع:

– "وعـــندما لا يكون للأشياء حل؟ أنا لا أستطيع أن أنجب طفلاً فالأستاذ لا يريد" ورفعت صوتها لتكذب "وأنا كذلك لا أريد. ولد دون أب، لا أريده. إذا لم

يكـــن الـــسيد راغباً في عملية الإجهاض، فإني سأدبر من يقوم بالعملية ولا يعوز أشتانـــسيا أشخاص كهؤلاء؛ القابلة توكا قامت حتى الآن بعمليات إجهاض كثيرة وتقريباً تقوم بعملية في الشهر. سأتكلم معها".

ولد دون أب، مسكينة تريزا. إن الطبيب يخشى المسؤولية:

– لـــن تتسرعي في ارتكاب حماقة يا تريزا، وليس من داع لكل هذه العجلة. لقـــد سافر الأستاذ منذ وقت طويل، أليس كذلك؟ لن يتأخر في الرجوع. سننتظر إلى أن يأتي ليقرر. وإذا لم يرد أن تجهضي؟

وافقـــت. لا تريد شيئاً آخر غير الاحتفاظ بالأمل: آه، ولد، ابنة، وفوق ذلك ابن الأستاذ:

ووصـــل إميليانو بعد عدة أيام في ساعة الغداء، ولكن لشدة اشتياقه إلى تريزا وقـــبل أن يذهب إلى المائدة الجاهزة، حمل العشيقة إلى الغرفة وابتدأ بالاحتراق مع الـــضحك والمزاح "إني جائع إليك، جوع وعطش إليك يا تريزا". لم يرها كذلك عـــصبية قط، فرح غامر وسحنة انشغال ذهني. ومرّت الرغبة الأساسية فتمددا في الفراش ويده فوق بطن تريزا، فأراد أن يعرف:

– إن لدى حبيبتي تريزا شيئاً تقوله، أليس كذلك؟

– أجل، لا أعرف كيف حصل الأمر ولكني حامل.. إنها بشرى سعيدة جداً إذ كنت قد اعتقدت أنه لن يكون لي ولد قطّ.

عـــتمت غيمة وجه الأستاذ، وأصبحت يده ثقيلة فوق بطن تريزا وأصبحت عيـــناه الوضاءتان قطعتي فولاذ زرقاوين باردتين. صمت لثوان مرّت كأنها الزمن، وكأن قلب تريزا قد توقف:

– يجـــب أن تجهضي يا حبيبتي، إني لا أريد ولداً في الشارع وقد شرحت لك سابقاً السبب، هل تذكرين؟ ليس من أجل هذا جئت بك إلى قربـــي.

كانت تريزا تعلم علم اليقين أن القرار لن يكون غير هذا، ولكن ليس بسبب معـــرفتها هـــذه كان سماعها للأمر قاسياً. لقد انطفأ في داخلها النور. وصارعت قلبها:

– أذكـــر وأظن أن السيد على حق. لقد قلت للدكتور إماريليو أنني أريد أن أجهـــض بـــأي طريقة، ولكنه طلب مني أن أنتظر عودتك لتقرر. بالنسبة لي فقد

قـــررت وأريـــد أن أجهض. مع صوتها الواضح والأكيد، شبه العدائي، لم يستطع الأستاذ أن يبتلع شيئاً أكيداً كهذا.

- لقد قررت أن لا يكون عندك طفل مني.

نظـــرت إلـــيه تريزا متعجبة، فلماذا يسألها هذا السؤال إذا كان هو نفسه قد قـــال، عـــندما كانـــا قد استقرا في أشتانسيا، إنه لا يريد ابناً في الشارع، والابن تـــستطيع الزوجة وحدها أن تحمل به، وإن فراش العشيقة هو للمتعة، وإن العشيقة هـــي لتمضية الوقت؛ ألم ير كيف سيطرت على نفسها لتتمكن من الإدلاء بالقرار بصوت ثابت ودون أن ترتجف شفتاها؟ إنه يقرأ أفكار تريزا. فكيف لا يعرف كم هي راغبة في طفل وكم تكلفها الشجاعة التي تبديها؟

- "لا تسألني هذا، إنك تعرف أنها ليست الحقيقة. إني سأجهض لأنني لا أريـــد طفلاً يعيش ما عشته أنا. ولو كان الأمر مختلفاً لما فعلت وحتى لو كان ضـــد إرادة الأســـتاذ". رفعت تريزا عن بطنها يد الأستاذ الثقيلة، ونهضت من الفراش واتجهت نحو الحمام. وترجل إميليانو بسرعة وأمسك بها وأعادها، إنهما عاريان، وجهاً لوجه. وجلس الأستاذ إلى المنصة حيث تعوَّد أن يقرأ وتريزا على عنقه:

- ســـامحيني يـــا تريزا. لا يمكن أن يكون الأمر غير كذلك. أعرف كم هو صـــعب ولكـــني لا أســـتطيع أن أفعل شيئاً، فلديَّ مبادئي وقد كلمتك سابقاً. لم أخدعك أبداً. إنّ لديّ مشاعر أيضاً، ولكن ليس من الممكن الاحتفاظ به.

- "كـــنت أعـــرف. مـــن قال إن الأستاذ ربما كان يريد طفلاً هو الدكتور إماريلـــيو والجـــدباء أنا". بدت ككلب يضربه سيده، صوتها المرتجف عبّر عن ألم؛ تريزا باتيستا على عنق الأستاذ والعشيقة لا يحق لها إنجاب طفل... انتبه الأستاذ إلى الحزن الذي لا نهاية له:

- "أعـــرف ما تحسين به، تريزا، ومع الأسف لا يمكن أن يكون الأمر بطريقة أخـــرى، لا أريـــد ولن يكون لي ولد في الشارع، لن أعطي اسمي. إنك تتساءلين بالتأكيد ما إذا لم يكن عندي الرغبة في طفل مني ومنك. كلا يا تريزا ليس عندي. إني أريـــدك أنت وحدك دون أحد آخر. لا أحب أن أكذب وإن لتعزية الأحزان". واتّخذ وضعيّة كما لو أن ما سيقوله سيكلفه الكثير:

– "اسمعـــي يا تريزا وقرري أنت بنفسك. إني أريد لك كل الخير إلى حدٍّ أنني مستعد لأن أتركك تأتين بطفل إذا كنت تريدين وأن أعيلك ما دمت حياً، ولكن لن أعترف به ابناً، ولن أعطيه اسمي، وبهذا تنتهي حياتنا المشتركة. إني أريدك أنت، تريـــزا، وحـــدك، دون ابـــن، ودون أحد ولكني لا أريدك رغم إرادتك، حزينة مجروحة، وسيكون سيئاً ما كان حتى الآن جيداً، قرري يا تريزا واختاري بيني وبين الطفل. لن ينقصك شيء، أكفل ذلك، ولكن لن يكون لك شأن وإياي". لم تتردد تريزا، وبينما تضع ذراعيها حول عنق الأستاذ أعطته شفتيها ليقبلهما: إنها مدينة له بأكثر من الحياة، مدينة له بحب الحياة.

"بالنسبة لي فإن السيد قبل أي شيء".

جاء الدكتور إماريليو ليلاً وتحدث على انفراد مع إميليانو في الصالة. ثم ذهبا لملاقـــاة تريزا في الحديقة وعيّن الطبيب صباح اليوم التالي موعداً للعملية، في البيت، هـــناك بالذات.. أين هي التحفظات المناقبية المتشددة، ووجهة النظر التي لا تقبل الجـــدل يـــا دكتور إماريليو، وأية نهاية حملتها؟ لقد اختفت كلها يا تريزا فطبيب الـــريف لا يحق له بوجهة نظر ورأي مستقيم، ولا يعدو كونه أداة بتصرف أسياد الموت والحياة.

– نامي مطمئنة، يا تريزا، إنها عملية إجهاض بسيطة، شيء لا يذكر.

شـــيء لا يذكـــر وحزين، دكتور. اليوم بطني خصب وغداً مرعى للموت. إن الدكـــتور إماريليو لا يفهم النساء. لم تذهب تريزا باتيستا إلى العيادة لغرض الإجهاض، ومـــا دام الأستاذ لا يفعله فإنها كانت لتذهب إلى أية فضولية أخرى من أولئك النساء اللـــواتي يرســـلن إلى الملائكة في السماء الأجنة التي يجهضنها، فلماذا إذاً النّظرة الحزينة والـــوجه المـــتألم؟ لماذا؟ لأن الطبيب كان أمل تريزا الأخير في النضال من أجل طفل، وربمـــا كانـــت تحفظـــات الطبيب ووجهة نظره التي لا تقبل النقاش حول أنّ لا أحد يـــستطيع التـــصرف بالحياة المقررة ويقرر موت الآخرين. لعل كل هذه الأمور كانت تـــستطيع أن تبدل مبادئ الأستاذ... ولد في الشارع؟ لا. فاختاري بين الطفل وبيني. وداعاً يا ابني الذي لن أعرفه، وداعاً أيها الطفل الذي أريده، وداعاً.

الـــشيء الذي لا يذكر مرَّ دون مضاعفات! وظلت تريزا في الفراش فقط عملاً بنـــصيحة الدكـــتور تحت وإصرار إميليانو الذي لم يتركها وحيدة لدقيقة واحدة وهو

يقـــدم لها الشاي والقهوة والمرطبات والفواكه والشوكولاته والملبس ويقرأ لها ويعلمها الخـــدع بورق اللعب متوصلاً إلى جعلها تبتسم طيلة تلك المرحلة الكئيبة. على الرغم مـــن المكالمات الهاتفية المتكررة والضرورية من أراكاجو وباهيا بسبب مشاغل مهمة، فقـــد تأخر الأستاذ أسبوعاً كاملاً في إقامته مع عشيقته. أيام دلال وغنج ولباقة تصرف وتفـــان لا حـــدَّ لها ريثما تحس تريزا بنفسها نظيفة من كل شعور بالاشمئزاز، مدفوعة بالتضحية، وسيدة في أن تعيش دون أن يبقى فيها أية علامة واضحة.

هكذا كان الأستاذ، الباستون والوردة.

20

في بـــاب الحديقة التقى الكاهن فينيسيوس بجوان ناسيمنتو فتصافحا ومعهما الجمـــل المعدة للمناسبة: "ما هذا؟ إن صديقنا حتى قبل أمس كان ما يزال في صحة جـــيدة، هكـــذا هـــي الحياة، لا أحد يعرف ما يحدث غداً، وحده الله يعرف كل شـــيء". واختفى المعلم جوان في الشارع الذي ما يزال مظلماً. دخل الكاهن إلى الحديقة ومعه الشماس الأحدب العجوز النحيف وهو يحمل أشياء خاصة بالطقوس الدينية وجاء الطبيب لملاقاة المحترم:

– أخيراً وصلت يا أبانا. كنت قد أصبحت عصبياً.

– إن إيقاظ كليرينسيو ليس مسألة سهلة وكان عليَّ أن أمر بالكنيسة.

أنزله كليرينسيو إلى داخل البيت، وهو يعرف نينا منذ سنوات طويلة. النجوم تـــشحب في السماء، والليل يتقدم ولن تتأخر علامات الفجر الأولى. وتأخر الأب فينيسيوس في الحديقة يتحدث مع الطبيب وهما يجلوان النبأ جيداً، وكان الكاهن ما يـــزال يغالب النعاس عندما ألقى الدكتور إماريليو الحكاية على مسمعه، وهو الآن يريد التأكيد:

– فوقها؟

– أجل فوقها.

– في الخطيئة المميتة!

– إذا كـــان في المـــسألة خطيئة، يا أبانا، فنحن كلنا شركاء فيها، أجل لقد اشتركنا في حياهما وعشنا معهما..

- لا أقــول غير هذا يا حضرة الدكتور العزيز، ولكن ما الذي يمكن عمله؟ وحده الله هو القادر على كل شيء، له الحق في أن يحكم ويغفر.

- أبانــا! أنــا أعتقد أن الأستاذ إذا ذهب إلى الجحيم فليس لهذا السبب بل لأسباب أخرى...

دخلا معاً إلى غرفة الطعام حيث كان الشماس يتمتع بالطعام مع تنهدات نينا.

في الغــرفة، وهــي تجلس إلى كرسي إلى جانب السرير كانت تريزا ممتقعة. وعندما سمعت الخطى أدارت رأسها، وتكلم الأب فينيسيوس:

- تعــازي يــا تريزا، من كان يعتقد؟ ولكن حياتنا هي بيد الله، فليرحم الله الأستاذ وليرحمنا جميعاً.

- "آه، كل شيء إلاّ الشفقة يا أبانا، لو سمع الأستاذ لغضب، لقد كان يكره الشفقة".

وجلــس الأب فينيــسيوس حــزيناً كما يجدر به أن يكون. كان يحب الأستاذ القديــر، ولكــن المحــبوب والمثقف أيضاً قد مات، ومع موته انتهت أساليب الضيافة الحــضارية الوحيدة والرفقة الفرحة، والسجالات الحيوية، والخمور الممتازة المستوردة، والمعيشة الحلوة، ربما سيستمر في الذهاب إلى المصنع ليقيم القداس في عيد السيدة حنَّة، ويعمِّــد الأطفال ويزوِّج أبناء الشعب، ولكن من دون الأستاذ لن تكون هناك الحيوية نفــسها. إنــه يحب تريزا أيضاً، الكتوم، والذكية التي تستحق أفضل حظ، فإلى أية أيد ستذهب بعد اليوم؟ ولكن لا أحد منهم يمكن تشبيهه بالأستاذ. وإذا بقيت هنا فستظلُّ من واحد لآخر مرتمية بين أيدي نصف دزينة من الوجهاء والأغنياء.

من يدري إذا كانت ستسافر إلى الجنوب حيث لا يعرفها أحد هناك، وكونها جمــيلة ومحبوبة فقد تتمكن من الزواج. ولِمَ لا؟ إن حظ كل واحد بيد الله القادر علــى كل شيء. وكان حظ الأستاذ أن يموت هنا، هنا فوق العشيقة، في الخطيئة المميتة، الرحمة يا الله، له ولها.

إن عــيني الأســتاذ النافذتين المفتوحتين تراقبان الكاهن فينيسيوس، إنهما لا تــبدوان عيني ميت. إن خطيئة الأستاذ الكبرى لم تكن هذه والطبيب على حق في ذلــك، كافر، فاحش، وإذا اقتضى الأمر، فهو بلا رحمة وغارق في الكبرياء! هذا العالم، من يستطيع أن يفهمه؟

- ساعدك الله في هذه المحنة يا تريزا.

أهملـــت عينا الكاهن الحزينتان النظر في عيني الأستاذ المنقبتين وطافتا الغرفة، على الطاولات كتب وأشياء متعددة وخنجر فضي، في الحائط رسم نساء عاريات بين أمواج البحر، والمرآة الكبيرة لتعكس صورة الفراش عليها، وفقط وردة واحدة بـــين يدي الميت، غرفة فارغة من كل ما يشير إلى الإيمان، ومجردة كقلب إميليانو غـــويدس، هكذا حافظت عليها تريزا كما يحبها الأستاذ، ولكن العائلة ستصل، يا تريزا، في أية لحظة، وهم قوم متدينون، فحاولي أن تأخذي بعين الاعتبار إجراءات الطقـــوس الدينية والمظاهر.. فهل سنسمح لأهل الفقيد أن يجدوا جثة زعيم العائلة مـــن دون أيـــة إشارة إلى كونه مسيحياً؟ على الرغم من أنه كان كافراً، فقد كان مـــسيحياً يا تريزا، عليك أن تأمري بإقامة قداس في المصنع وأن تحضريه إلى جانب الزوجة والإخوة والكنّات والأولاد والأحفاد والأهالي والناس الآتين من بعيد. أمام الجميع، وهو واقف ليعطي المثل.

- ألا تـــرين يا تريزا أنه من المستحسن إشعال شمعتين على الأقل عند قدمي صديقنا؟

- كما تريد يا أبانا، أعطِ بنفسك الأوامر بذلك.

- "إيه تريزا، لا تطلبين الشمعات بفمك ولا تضعينها بيديك! أنت والأستاذ، بئران من الكبرياء. الرحمة يا الله!" يتململ الكاهن ويرفع صوته:

- كليرينسيو! كليرينسيو! تعال إلى هنا. اجلب شمعاً.

- كم؟

نظـــر الكاهن إلى تريزا فوجدها ممتقعة مرة أخرى، بعيدة، غير مكترثة بعدد الشمعات، وهي ترى، وتسمع وتحس بالأستاذ وحده وبالموت.

- اجلب أربعاً...

في ظلمة الليل تحرك الشماس إلى معدات الطقوس.

21

لم تـــبقَ علامة ظاهرة، وقد بذل الأستاذ جهده. فإن شخصاً واحداً لم يتبين أبـــداً أثر المرارة في تصرف تريزا، وكأنما كانت قد استؤصلت من ذاكرها ذكرى

الحـــدث. و لم يعـــودا هي وإميليانو يتحدثان في الموضوع. نادراً ونادراً جداً، بعد ذلـــك، كانت عينا تريزا تضيعان في الفراغ، ويذهب تفكيرها بعيداً، وعندها كان الأستاذ ينتبه إلى الهرب القاتم الذي تغطيه فوراً ابتسامة! آه.

إن الغـــياب الثقـــيل هو غياب ذلك الذي لم يشهد النور، والذي أحست به فقط عندما اغتصبته آلات الطبيب الحديدية من بطنها وانتزعته بأمر من الصناعي.

لم يعـــرف إميلـــيانو غـــويدس قبل ذلك وجعاً في ضميره لعمل قام به. وفي مناســـبات لا تحصى، وفي أعماله اليومية بوصفه إقطاعياً وصاحب مصنع ومصرفياً ورجـــل أعمال متشاجراً، آمراً، مرتكباً المظالم والسطو والأعمال المشينة، لم يحس بعـــذاب الضمير لأي شيء من كل ذلك، و لم يتذكر ما يؤسف القيام به أو إعطاء الأوامـــر بتنفيذه. كل تلك الأعمال كانت ضرورية وعادلة وحتى عملية الإجهاض فقـــد دافـــع عنها بحجة الدفاع عن مصالح عائلة غويدس وراحته الشخصية، هو إميليانو، فلماذا إذاً يؤلمه العمل القبيح ويشعره بشعور متعب وملح؟

تريـــزا في الفراش، يابسة في باطنها، والأستاذ يبذل جهده في أن يجعلها تبتسم وسط ذلك الألم. في ذلك اليوم من اللف والدوران عرفت العلاقات بين العشيقين شـــيئاً من التبدل: لم تعد تريزا باتيستا لعبة بين يدي الأستاذ إميليانو غويدس، ولا نـــبعاً للـــذة ولا تسلية للعجوز الغني يمارسها عبر شغفه بالكتب والخمور ومراهنته باعتـــباره سيداً نبيلاً على أن يحوّل بنت مزرعة صغيرة في منطقة الداخل إلى سيدة كاملـــة بـــصبغها بصباغ التصرفات الحلوة والرهافة والذوق والأناقة. وكذلك في الفـــراش، فإنـــه كان قد وصل بها إلى الانفجار الجنسي الغرائزي لخبرته بالمداعبة الطـــويلة، وبتكرير المتعة وتنقيتها في كل لحظة، وفي جعلها تكتشف وتقتحم سلّم اللـــذة درجـــة درجة. وفي الوقت نفسه يحاول أن يجعل من تريزا أنثى فوق العادة وامرأة وسيدة. إنها تسلية مولّهة، ونزق.

حـــتى ذلـــك الـــيوم من الرماد، عدّت تريزا نفسها قبل كل شيء جزءاً من الأســـتاذ وكـــان إقـــرارها بالفـــضل يحتل المكانة الأولى في عواطفها التي تربطها بالصناعي. لقد أصدر أمراً لإطلاقها من زنزانة السجن، ثم ذهب شخصياً ليأتي بها من غرفة السوق العمومية الكئيبة، وجعل منها عشيقته ثم عاملها كما لو أنها كانت أحداً ما، شخصاً ما، وبطيبة واهتمام، ووهبها حرارة إنسانية ولباقة، ووقتاً وانتباهاً

ورفعها من الضعة، ومن عدم اكتراث القدر بها، معلماً إياها أن تحب الحياة؛ وعملت تريزا من الأستاذ قديساً، وواحداً هو أعلى بكثير من الآخرين وهذا ما جعلها دائماً تشعر بالحياء، أمامه. لم تكن نداً له، لا هي ولا أي شخص آخر؛ وفقط في الفراش، في ساعة الممارسة، كانت تراه رجلاً من لحم وعظم، ومع ذلك أيضاً كانت تراه متفوّقاً على الآخرين بالأخذ والعطاء.. بالمقياس العاطفي، أو بالعاطفة نفسها، لا يوجد بالنسبة إليها من يمكن تشبيهه بالأستاذ.

لكي تختار بين الأستاذ وبين الحياة التي تحملها في بطنها فإن تريزا، ودون أن تعي، اختارت أن تقسّم نفسها. لم يكن بإمكانها أن تتردد، ولم تتردد في اللحظة الباردة والقاسية التي تخلّت بها عن جنينها وتصرَّفت بحياة وموت الآخرين. وفي برهة سريعة كان عليها أن تزن القيم الكبيرة ووضعت حب المرأة فوق حب الأم. ولا شك في أن الإقرار بالفضل لعب الورقة الأقوى في الاختيار. ودون أن تلاحظ، فإنها دفعت ثمن التقسيم في نفسها ونالت مصداقية لا حدود لها بالنسبة إلى العشيق. ووجدا نفسيهما قريبين جداً الواحد من الآخر، وغدا كل شيء أسهل من تلك اللحظة فصاعداً.

كان الأستاذ يعلم أن المصالح المالية لا تؤثر بشيء في القرار، فكفل لتريزا النفقة والحاجات الأخرى كاملة، وللطفل أيضاً، ولم يلزمها في الوقت نفسه بأي واجب أو اتفاق. "ما دمتُ حياً، فأنت والطفل سيكون لكما كل ما تحتاجانه، ولكنه لن يحمل اسمي، وأنت لن تكون لك علاقة بي"؛ المال يعني لها القليل، وإميليانو ظلَّ متمسكاً بفكرة أَنّ شيئاً لن ينقص العشيقة لأنها لا تسأل، لا تطالب ولا تحاول أن تستفيد. وخلال السنوات الست الماضية من المصاحبة لم تطلب تريزا أي مصلحة آنية. وإن كان قد وصل ليلة الوفاة، فقد أعطاها الأستاذ كالعادة أكثر مما تحتاج لتصرف على حاجاتها وحاجات البيت، لم يكن عندها نفقات شخصية، وعملياً كان الأستاذ يأتيها بكل شيء: فساتين على الموضة، أحذية، والقشدة والمراهم الملطفة والعطور والجواهر وصناديق الشكولاته لتتقاسمها مع أطفال الشارع.

لم تكن تريزا جاهلة، غير مكترثة بالأشياء الطيبة والجميلة، بل على العكس تماماً، فكونها ذكية مرنة، كان عندها تقدير، وإعجاب بالأشياء الحلوة، وتعلّمت أن

تميز بينها وأن تقدّرها حق قدرها، ولكنها لم تجعل نفسها عبدة الانشراح، وصوليّة، ومتمسكة بالرفاهية. كانت تقدر كل غرض، وكل تذوق، وكل دلال، ولكنها تستطيع أن تعيش من دونها، لن ينقصها شيء سوى حسن المعاملة، وحرارة العواطف والانتباه الدائم، والصداقة الأليفة والحب.

وإن تكن قد اختارت العشيق في ساعة الاختيار، فإنها قد فعلت لأنها كانت تضعه فوق كل أشياء الدنيا بما في ذلك ولدها: "بالنسبة لي فإن السيد يأتي قبل كل شيء".

في اليوم التالي على الإجهاض، تفقّد الدكتور تريزا ليسمح لها بمغادرة السرير والمشي في الحديقة "ولكنّها"، قال الطبيب، "ما زالت بحاجة إلى راحة القلب والجسد":

- "لا تخرجي من هنا لتشتغلي، يا عمَّة، لا تستغلي قواك ولا تجهديها"، وقد ناداها عمة ليشد من عضدها ويظهر لها التقدير: "أريد أن أراك قوية وفرحة".

- كن مطمئناً دكتور، لم أعد أحس بشيء أو أنك تظن أنني مدللة؟ كل شيء انقضى، تستطيع أن تطمئن.

متأثراً بشجاعة تريزا ورغبةً منه في منحها المساعدة المطلقة، فإن الطبيب نصح إميليانو، بينما يستأذن الأخير بالانصراف عند مدخل الحديقة:

- عندما يذهب الأستاذ إلى باهيا ليأت معه بلعبة من هذه اللعب الكبيرة التي تتكلّم وتمشي، إلى تريزا، فهذه تعزية لها.

- أو تظن، يا إماريليو، أن لعبة تستطيع أن تغني عن طفل؟ أنا لا أظن، سأجلب معي أشياء كثيرة، كل ما أجد من أشياء جميلة، ولكن لعبة، لا، تريزا يا عزيزي ليست فقط جميلة وشابة، إنها حساسة وذكية، إنها صغيرة السن ولكن عواطفها عواطف امرأة ناضجة مليئة بالخلق العميق. وقد أعطت لتوها البراهين على ذلك. لا يا صديقي، فأنا، إذا جئت بلعبة لتريزا فلن تحبَّها، لو كان بإمكان لعبة أن تحل محل ولد فكل شيء في الدنيا يصبح سهلاً.

- ربما كان الأستاذ على حق. غداً أعود لأراها. إلى اللقاء، أستاذ.

من باب الحديقة رأى الأستاذ الطبيب ينعطف عند الركن وبيده الحقيبة. "إن ما خسرته تريزا يا إماريليو وما أخذتُه منها عنوة مستخدماً الخدعة في ذلك، واضعاً

إياهـا بـين الـصليب والعطش، يمكن تعويضه بالعطف والحنان وحسن المعاملة والصداقة. الثمن يُدفع بالحب وحده".

عطـف، حـنان، حسن معاملة، صداقة، مال وتقديمات، هذه هي بالتأكيد العملة القوية في معاملة العشيقات ولكن يا إميليانو ماذا عن الحبّ؟

22

أشـعل الـشماس شمعتين عند أعلى الفراش وأخريين عند أسفله، بينما كان يـدخل إلى الغـرفة وهو يمضغ صلاة ويرسم إشارة الصليب، كان نظره النـزق موضوعاً في تريزا يتخيلها في ساعة موت الأستاذ وهي تتلقى في حلقها الدم وقُبلة المـوت، هـل يمكن أن تكون هي قد بلغت الرجفة؟ شيء مشكوك فيه، فهؤلاء الفتـيات المقـيمات مع رجال مسنين، لا يفعلن في الفراش غير التمثيل ليخدعن العفنين تاركات اللهيب الجنسي للآخرين، للفتيان والزبائن.

لم تكن نينا تعتدي على أحد، وعلى العكس، فمع كل ذلك أكدت أن تريزا حافظت على نفسها بشرف، وليس عندها أية سابقة معروفة ولا تستقبل آخرين في الخفـاء. بالتأكيد بسبب الخوف، فآل غويدس هؤلاء هم صنف من الظالمين... أو لـتكفل لنفسها الرفاهية والراحة، فقد ضربت رجل شرف قوية في الأرض.. يمكن أن تكون شريفة ولكن ليس هذا بالأمر المؤكّد. هؤلاء المغرضات يخدعن القادرين، فكيف بالحري بعجوز أحمق مولّه بها وخادمة أمية؟

جالـت عينا الشماس من تريزا إلى الكاهن فينيسيوس! "من يدري، الكاهن ربما؟" هو كلاي أسيو الشماس المنتبه، المتيقظ، لم يأخذ قط الكاهن في وضع مشين يهـز رجله أو يرفع رداءه الكهنوتي. أما مع الكاهن فريتاس المرهف فالحديث كان مخـتلفاً: ففـي البيت كانت الخادمة دائماً مباغتة، وكم جئنه من الشارع إلى هنا. كانـت أيامـاً جميلة بالنسبة إلى الشماس الذي كان يقوم بمهمته في الخفاء ووراء الأقنعة، الكاهن فينيسيوس شاب رياضي ذو لسان سليط قليل الصبر مع السيدات ولم يفسح المجال أبداً لتعليقات ثقيلة على الرغم من جد العمات في الشّك في أمرها معـه. ومع تلك العفة والترفع، فإن الكاهن لم يمتنع عن ارتياد منـزل تريزا حجر العـشق وبيت الخطيئة حيث كان يتخم نفسه بالطعام والنبيذ متمتعاً بطعم الشص

الملقى له، طعم الشص فقط؟ ربما. في هذا العالم العتيق يمكن العثور على كل شيء حتى على كاهن بكر، مع كل ذلك فإن كليرينسيو لم يكن ليتعجب لو اكتشف أن الكاهن والفتاة كانا يأكلان نقراً نقراً كما السنونو. كاهن وفتاة سهل وصولهما إلى الجحيم، ومن عرف هذا فهو كليرينسيو الشماس والخبير. تريزا ممتقعة في الكرسي. ألقى كليرينسيو عليها النظرة الأخيرة: "امرأة رائعة لو كان بإمكانه الحصول عليها. آه، أية متعة! ولكن ليس الليلة، ما دامت قد عاشرت الموت فيها. وارتعد الشماس: إنها نموذج كريه". رسم إشارة الصليب، وكذلك الكاهن، وخرج الاثنان، كليرينسيو ليتابع الحديث مع نينا ولولا، والكاهن لينتظر عائلة غويدس في الحديقة.

طلع الفجر مع رذاذ المطر. في الغرفة ما يزال هناك ظلام وأربع شمعات ونداء متردد تافه بين تريزا والأستاذ.

23

أصبحا يظهران معاً في الشارع خلال النهار. في البدء، يظهران في نزهاتهما إلى مسبح النهر حيث الحمّام هناك كان متعة من متعات الأستاذ. ومنذ أن أقام بيت مصاحبة في أشتانسيا، أصبح الصناعي زبوناً دائماً لحمّام كاشويرا دو أورو على نهر بياو تينغا، وحيداً أو بصحبة جوان ناسيمنتو كان يذهب إلى النهر في الصباح الباكر:

- هذا الحمّام صحي يا معلم جوان.

- عندما عاد من سفرته الأولى بعد عملية الإجهاض جاء الأستاذ بألف تذكار لتريزا ومنها مايو سباحة:

- لكي نذهب معاً إلى حمام النهر.

- "لكي نذهب؟ نحن الاثنان معاً؟" أرادت تريزا أن تعرف.

- أجل يا قرص العسل، نحن الاثنان معاً.

كانت تريزا ترتدي المايوه تحت الفستان بينما الأستاذ يتحفظ بسترة قصيرة جداً تحت لباسه، ويجتازان أشتانسيا في اتجاه النهر، وعلى الرغم من الساعة الصباحية المبكرة، فإن الغسالات كن ينفضن الملابس وينشرنها فوق الحجارة وهن يمضغن التبغ المعجون، وكانت تريزا والأستاذ يبدأان بأخذ دوش بارد في كاشويرا

دو أورو. ولكـــون المكـــان خالياً: كانا يركضان عبر ظلال الأشجار الكثيفة إلى حيث كان النهر يتسع وتتجمع في حوضه المياه النظيفة، إلى هناك كانا يذهبان بعد الدوش وهما يجتازان قطع الملابس التي نشرتها النساء.

كانـــت المـــياه في أعمق نقطة منها تصل حتى كتف الأستاذ. هناك كان يمد ذراعـــيه ليمـــسك بتريزا ويعلمها السباحة. مع المزاح، والضحك المتعالي، والقُبل المتـــبادلة بـــدلال؛ ويملّ الأستاذ تحت الماء ويمسكها من خصرها بيد ويده الأخرى داخـــل المايوه أو على ثديها، الرغبة تشتعل في حمام نهر بياوتنغا. عند العودة، كانا يكمـــلان في البيت صحبتيهما السعيدة في الحمام والفراش. صبحيات أشتانسيا لن تكون بعد اليوم.

في البدء أثارا فضول الجميع؛ وراء الشبابيك، المستطلعون والعزباوات يأسفن لتـــصرف الأستاذ الجديد وإن كان سابقاً تصرفاً وقوراً وحذراً؛ لقد أضاع الأستاذ التكـــتم مـــع مرور الوقت، وأصبح عجوزاً مرحاً يريد أن يرضي نزوات الفاجرة الشابة. و لم تكن الخليعة تريد شيئاً آخر سوى التباهي بعرض العشيق الغني تتعلق به علـــى مرأى من السكان مع عدم احترام العائلات. عند أعلى مستوى من الماء في النهر كان يقف عارياً لا ينقصه سوى أن يدخلها هناك على مرأى من النساء. على مـــرأى من الغسالات لا، لا، إنهن لا يستطعن أن يرين، وحدث ذلك عدة مرات؛ تريـــزا متعلقة بالأستاذ، على عجل، وخوفاً من أن يطلع أحد هناك، ولكن العمات لم يتخيَّلن قط أن تريزا كانت قد أبدت مقاومة ما عندما دعاها.

– معاً؟ إن الناس سيتكلمون، وسيتدخلون في حياة الأستاذ.

– "دعيهم يتكلمون يا قرص العسل" وبينما يأخذها من يديها أضاف: "لقد حان الوقت...".

أي وقـــت؟ ذلك الوقت في البدء كان وقت عدم الثقة والتفاهم؟ هي تعطي نفـــسها بعنف ومع الجوع إلى الملاطفة وهو يوجّهها شيئاً فشيئاً بصبر. كان وقت الاســـتعداد والتمرن، بينما ألفريدو يتعقبهما في الشارع. يصغي وينقل الأحاديث ويحـــرس الباب ويركض وراء ذوي الإغراء والمتدخلين في ما لا يعنيهم. وكان وقتاً تبقـــى فـــيه تريـــزا مختفية في الحديقة والبستان وداخل البيت ومنهمكة بمتطلبات المـــسؤولية الـــتي ألقاهـــا الأســـتاذ على عاتقها، وعلى الرغم من المجاملة والراحة

والاهتمام الدائم والحنين المتزايد، فإن بداية ذلك الوقت كان لها جدران وزنزانات السجن. وكانت تريزا مرتكبة، خائفة، منسجمة ترى في طريقة التصرف تلك ثقل ذكـــريات الماضي القريب، وكان الأستاذ يتأمل في المواد الأولية الضرورية ليجعل منها عشيقة مثالية: الجمال، الذكاء، الأخلاق، وذلك البريق في العينين السوداوين، إنهـــا ماسة خام يجب صقلها، وطفلة يجب تحويلها إلى امرأة. في ذلك الوقت كان مستعداً أن يضيع معها الوقت والمال والصبر، إنها تسلية مثيرة، ولكنّه لم يكن يحسّ نحـــوها بشيء باستثناء التسلية والرغبة: رغبة ملحة، لا سيطرة عليها، ولا حدَّ لها، إنهـــا رغـــبة رجـــل عجوز في فتاة صغيرة؛ وقت التمرين كان سجناً ذا زنزانات وجدران، وامتحاناً صعباً.

أي وقـــت؟ أذلك الذي خلاله فتحت زنزانات السجن وانطلقت الضحكة؟ عـــندما انتهت التمارين وعرف فيها الأستاذ امرأة مستقيمة جديرة بالثقة والتقدير، وليـــست فقـــط ذات مصلحة، وعندما انتهت شكوك تريزا وأعطت نفسها دون تحفـــظ جسداً وروحاً ورأت في الأستاذ سنداً وارتمت على قدميه عشيقة له ولكن ليـــست نـــداً مثيلاً في أي وقت؟ أوقت الحذر والتكتم؟ كانا يخرجان معاً فقط في اللـــيل، بعـــد العشاء، يشقان طرقاً غير مزدحمة، ولم يكونا يستقبلان في البيت غير الدكتور إماريليو وجوان ناسيمنتو بالإضافة إلى لولو سانتوس الصديق الأول.

لقـــد ولّـــت تلـــك الأوقات، أجل، ولكن وقتاً آخر بدأ في يوم الرماد، يوم الموت، لم يكن وقت الوحدة مع ذلك؟ ففيه كان ينتهي كل شيء دفعة واحدة أو ينكسر الحب الكبير مظفراً.

وأصبح الأستاذ يأتي غالباً إلى أشتانسيا ممدداً مدة بقائه في الشاليه الذي أصبح فـــيما بعد مقر إقامته حيث كان يقضي أكثر أوقاته. وأصبح يستقبل فيه ليس فقط الأصدقاء على العشاء والغداء والاحتفالات بل أيضاً وجهاء المدينة: القاضي، رئيس الـــبلدية، المطـــران، المدعـــي العام، ومفوض الشرطة، وكان يدعو إلى أشتانسيا، مـــسؤولي المـــصرف الإقليمي وشركة إكزومبورتكس المساهمة، لمناقشة الأعمال والبت النهائي بالقضايا.

ولم تعـــد تريزا ابنة المزرعة الريفية الصغيرة التي أطلقت من السجن والسوق العمومـــية، وذات الجـــسد والقلب اللذين يحملان آثار الحديد والنار، لقد اختفت

الآثـــار، وبعناية الأستاذ نمت بروعة، وكبرت بالأناقة والنعمة وأصبحت امرأة تبهر بـــشبابها. مـــن قـــبل كانت وحيدة مستوحشة وأصبحت عقلانية ومنفتحة على الآخرين، كانت مقفلة، فانفتحت على الفرح.

كـــان وقت حب عندما أصبحا مكملين الواحد للآخر، حب فارس يسابق الـــريح، حـــب كائن متفوق، سيد، وحب صغيرة ريفية، ابنة مزرعة رباها لتكون عشيقة، وجعل منها صبية، مصبوغة بالتربية والرهافة صبغاً، ولكنه كان حباً عميقاً وخالداً، تكتنفه الرغبة.

بالنـــسبة إلى إميلـــيانو أصبح كل وداع أصعب من سابقه؛ بالنسبة إلى تريزا أصـــبحت أيام الانتظار أطول فأطول. قبل عدَّة أشهر من وفاة الأستاذ، كان أحد مديري المصرف قد لخَّص الوضع لزملائه الذين يثق بهم في الإدارة:

- نظراً لمجرى الأمور، ففي القريب العاجل سينتقل مقر المصرف من باهيا إلى أشتانسيا.

24

من كان ليغامر بإظهار شجاعة عندما كان الأستاذ حياً وبيده الباستون؟

لا أعرف رجلاً ذا صدر يتسع لمثل هذه المغامرة بين من أنا على علاقة بهم أو غيرهم. فمن هم في ميادين الفضائح، حيث المزاحمة على أشدها كون أمة المنتهكين الآن هـــي الأمـــة الأكثر عدداً في الشمال الشرقي ومع الكثير من المحررين الذين يملأون الصحف، فإن كسب العيش مسألة صعبة يا حضرة النقيب المحترم. اعذرني علـــى الخطأ يا حضرة الميجر. لا نقيب ولا ميجر، لست عسكرياً إنك مجرد فلاح. إنك تتحرق إلى المعرفة ولكن لا تستعجل فإذا منحوك بزّة عسكرية ورتباً فاضرب باقتدار واستمتع بالملذات.

أين هو الإلهام وأين تجد القافية لو كان الأستاذ حياً؟ مهما تكن الشجاعة في مجال الكـــتابة، ومهما يكن من أهمية للدّخول في تفاصيل الأحداث، فلا أحد كان مستعداً لأن يتلقـــى ضـــربة علـــى وجهه أو أن يبتلع ورقة مطبوعة وإن تكن كلماتها مملَّحة وممـــزوجة بالـــبهار. إن الكمـــان هو سلاح العيد ولم يصنع ليواجه الفأس والخنجر والمـــسدس. مـــع الفضّة في الباستون التي تتبختر في طرقات منطقة الداخل، وهنا، في

جـــادات باهيا العريضة، باهيا العاصمة الأولى لهذه البرازيلات العديدة، ليس من مجنون ليخرج في الحديث عن الأستاذ والعشيقة، ولا أرى رجلاً بمثل هذه المقدرة.

عـــندما تمّ تسجيل الحدث، فإن النبأ راح ينتقل من فم إلى فم، وكل من كان مغنـــياً راح يغنّـــي الفضيحة، إذ منذ زمان طويل لم يظهر موضوع مثير لمزاح سمج كهذا. فمن باهيا إلى سيارا حيث نهاية العالم، ترددت الأنشودة نفسها:

"مات العجوز الغني

فوق فتاة الهوى

وسط ماخور الزنى".

هل فكرت يا حضرة النائب ماذا سيحصل لو سمع الأستاذ قلّة الاحترام تلك: عجـــوز غني، فتاة هوى، ماخور زنى؟ كيف شاعت الحكاية، وكيف أصبحت نبأ من حق الجميع أن يعرفوه، ومن حق كل الأخصاء؟ من أشاع النبأ؟ هل هم الخدم، الطبـــيب، الكاهن المعلم، الشماس؟ كلهم أشاعوه، ولا أحد أشاعه، فهذه الأمور يمكـــن التكهن بها، ولا يفيد بشيء نقل الجسد الآن لإثارة مشاعر زبائن آخرين في بيت العائلة، ولاختراع قصة موت لائقة، ولمخادعة كل الإنسانية؛ لتحرير الأخبار لا يحتاج الأمر إلى الكثير من التفاصيل. فحين ينكشف الشيء الرئيسي، الأساسي، فإن الناس تخترع التفاصيل وفق متعتها في نظم القوافي.

مقـــالات كـــثيرة كتبت غير الثلاثة التي عرفت بها يا حضرة السيناتور، ففي باريبا ظهر مقال بعنوان "الثري الذي مات وهو يأكل عذرية عذراء"، ومن العنوان يعرف حضرة الرئيس أن الكاتب يكون قد سمع صياح الديك ولكن لا يعرف أين سمعـــه. وفي المقـــال المشار إليه هنا لم تتم الإشارة إلى اسم الأستاذ واستُعيض عن الاسم بالثري بالمليونير، بفلان وعلان، والذي كان ولكن كيف عرف محرر كامبينا غراندي باسم تريزا الكامل؟ لم أرَ قط مقالاً أوسخ من هذا، وكل القوافي فيه تنتهي بالروي.. نية – .. رة.. قطة... باء... طة... فهل رأى المحرر، نائباً؟ ألستَ محرراً، نائـــباً؟ ألستَ سيناتوراً، ولا مرشحاً؟ يا للأسف: إن السياسيين يخبئون دائماً بعض المال الكثير، ويحدث أيضاً أنهم لا يصرفون مالهم بل مال الشعب البرازيلي.

إذا لم يدبر لك طونينو صاحب المكتبة نسخة فلن يستطيع أحد الحصول على عـــدد واحد من قصة العجوز الذي مات وهو يدخل الخلاسية منتشياً والتي كتبها

في أراكاجـــو الأعمى هيليو دورو ذو الاسم البشع، ولكن وصفه للعملية الجنسية قبل الموت وصف ملهب إلى حدٍّ أن أي قارئ يقرأها وقربه امرأة فإنه سيشدها إلى صـــدره وسينسى كمية الكروزيرو التي أنفقها على شراء القصة. إن وصف الموت من الجمال والإثارة إلى حدٍّ يجعلك تتمنى الموت بالطريقة نفسها. وإن هيليو دورو لا يرى أقل من سواه لأنه أعمى ويبدو أنه رأى الحدث يحدث فعلاً.

ربمـــا يستطيع طونينو أن يجلب لك إحدى الصحف التي طبعت هنا في باهيا: "العجوز الذي تشنج عضله في لحظة النشوة" وهي قصة قصيرة وكلها شعر حديث ذو أبـــيات غير مقفاة بل إن قوافيها مرسلة، وأيضاً "موت السيد فوق الخادمة" التي كتـــبها بوســـيدونيو دي الأغوينـــياس. إنه روائي ذو قيمة ولكنه لم يوفق في هذا الكتيب الصغير المليء بالأخطاء، إذ جعل من السيد إنساناً سيئاً، وجعل منها خادمة قـــذرة، وأدخـــل الزوجة في الحبكة وجعلها تطلع عليهما في اللحظة الحاسمة لتقتل العجـــوز المـــسكين قلقـــاً؛ ولا تـــبدو الرواية خارجة من الحقيبة الذهنية للمعلم بوســـيدونيو؛ ولكـــي يكمل السخافات فقد ركّب للأستاذ في وصفه ذقناً مروّسة كـــذقن تيليران وحول شعر تريزا الأسود إلى شعر زنجية أجعد. وقد دفعت العائلة مـــبلغاً من المال بدلاً من طبعات هذه القصة، ولكن العليمين أخفوا بعض الأعداد ليبـــيعوها بهدوء فيما بعد، لا تستحق القراءة العناء لأن الكتابة لم ترفع العصا و لم تجعل الناس يضحكون.

ولكـــن مـــا حـــدث معي كان أسوأ لأنني كنت قد أعطيت اسماً للثيران و لم أتوقـــف عـــند قـــصة مـــوت الأستاذ، فقد وصفت كل موبقات العائلة والقرون والانحـــرافات والـــشيكات من دون أرصدة والتهريب وإلى ما هنالك، وصفاً أدبياً رفـــيعاً، صدقني، ووقفت مع السجناء ولكي أطلق نفسي من هناك، كان عليَّ أن أتخلـــى عن الطبعة الكاملة مقابل لا شيء، وجاء محامي العائلة إلى بيتي يرافقه مدير الشرطة فنقّب وأتلف بعض الأعداد المخفية تحت الفراش والتي كنت قد احتفظت بهـــا خدمـــة لبعض الأصدقاء المتميزين كسيادتك. وقد هددوني بأكثر من السجن والضرب إذا ظهر أحد الأعداد للبيع. فانظر كم يجازف روائي مسكين، بحياته.

ومـــع ذلك إذا كان المحترم يرغب في قراءة "الممارسة الجنسية الأخيرة للأستاذ الـــذي مـــات في الـــساعة س" فعليك أن تدفع ثمن الأبيات وثمن المجازفة الخطيرة؛

احـــصل على الحب مقابل ورقة من فئة الخمسمائة، وأنا أسهّل لك الحصول على نـــسخة، النسخة الأخيرة الباقية، خدمة للأستاذ لا من أجل المال. في قصتي رويت كـــل شـــيء كما حدث ولم أضيّع الوقت بالتفاهات، أخبرت بالحقيقة ولا شيء آخـــر: بالنسبة إلى الأستاذ، فإن الموت في تلك الساعة وتلك الطريقة هو بركة من عند الله؛ إن ثقل الموت بقي عبئاً على كتفي تريزا، وهو الحمل الأكثر إزعاجاً!

هكذا كتبت لأني أفكر وأفهم أنا كويكادي سانتو أمارو، أنا الذي، بمعطفي وقبعتي أقف أمام مصعد عمارة لاسيردا أسجّل وحيي وأبياتي المقفاة.

25

عجـــباً! كم يشبه ذلك الرجل هناك الأستاذ إميليانو غويدس، فكأن الاثنين توأمان... قال ذلك متعجباً فاليريو غاما التاجر في إيتابونا الذي كان قد هاجر من أشتانسيا يافعاً وعاد أربعينياً جيد الحال ليزور أهله.

- "إنـــه ليس توأم الأستاذ، إنه الأستاذ بعينه، يتنـــزه مع صاحبة الفخامة فتاة الهوى" وأوضحت ابنة عم الزائر ذات يوم خُصّص للأخبار المحلية وبلسان مـــنطلق: "إن الأستاذ منذ عدة سنوات يقيم مع عشيقة هنا مُعطياً بذلك شرفاً للمدينة..".

- لا تمازحي...

- "ألم تـــسمع قـــط يـــا ابن عمي أن مياه بياوتنغا عجائبية لاستعادة القوة والنـــشاط؟ إن العجـــوز هنا يعود إلى صباه" كانت تلوك ذلك بلغة شارع ركيكة ولكـــن بعـــيداً من سوء النيَّة. في أشتانسيا، المدينة المضيافة والشريكة في كل هذا، حتى العمات المسنات يتأملن في الأحباب والعشاق بانسجام.

وقـــام العائد من المدينة بعدة مسيرات طويلة ليستجلي الخبر الذي أخبرته به الثـــرثارة، والـــذي لا يُـــصدَّق! كان الأستاذ وتريزا يصعدان الطريق بخطى بطيئة يتمتعان بنسيم المساء. وعندما التقى بهما فإن التاجر فتح فمه متعجباً: والله إن ابنة العـــم لم تستنبط النبأ عن الأستاذ إميليانو غويدس ولا عن أي كان، ها هو برفقة امـــرأة جديدة شهية وبكل حرية في شوارع أشتانسيا. وبينما هو فاغر فاه مرتبكاً رفع قبعته ويده ليحيي المصرفي. وأجاب الأستاذ على التحية:

- "مـــساء الخير، فاليريو غاما العائد لرؤية الأرض!" كان إميليانو يحفظ دائماً أسماء وأشكال الأشخاص الذين كان له معهم أي نوع من العلاقات، وكان فاليريو زبوناً في المصرف.

- نعم أستاذ، هنا وهناك خادم لك.

في ظهوره بمظهر الأبله، فقد أثار ضحك تريزا وتعليقها:

- كأنه رأى العتمة..

- العـــتمة هي أنا! إن فاليريو هذا قد رآني فقط في المصرف وأنا بربطة العنق أنـــاقش أعمالاً، وفجأة شاهدني وجهاً لوجه في أشتانسيا أسير في الشارع بقميص رياضي وبرفقتي امرأة جميلة، وهذه مفاجأة كبيرة حتى بالنسبة إلى تاجر في إيتابونا. عندما يعود إلى هناك فسيكون لديه ما يتحدث عنه.

- كان من الأفضل لو أن السيد لم يظهر معي كثيراً.

- "لا تكـــوني حمقـــاء يـــا قرص العسل. لست مستعداً لأن أتخلى عن متعة النـــزهة معكِ بسبب قيل وقال وزيد وعبيد. لا يهمني ولا يمر في ذهني أمر كهذا. كل ما يحدث يا تريزا ليس أكثر من غيرة لأنك لي. إذا أردت أن أقتل نصف العالم حـــسداً فمـــا علـــيَّ إلا أن آخذك معي إلى باهيا أو الريو وهناك، أجل، سأكون موضوع كلام لا ينتهي". ضحك وحرَّك رأسه: "ولكني أناني مفرط لكي لا أخرج عارضـــاً علـــى الملأ شيئاً أقدره، شخصاً كان أم غرضاً. إني أريد هذا لنفسي فقط".

- في الحقيقة، إني أرتكب معك مظلمة ممسكاً بك هنا في أشتانسيا منعزلة بين جدران الشاليه شبه سجينة. أليست هذه الحقيقة يا تريزا؟

- هنا عندي كل شيء وبقدر ما أريد، إني سعيدة.

هل يمكن أن يأخذها معه للتباهي؟ لا، حباً بالله يا أستاذ، لا...

كـــان النقـــيب يحـــب أن يثير غيرة الآخرين وهو يقتني ديوك عراك هراتية وأحـــصنة مـــسرجة ومـــسدساً ألمانياً وعقداً من العذريات. وأخذ تريزا إلى عراك الديـــوك الهراتية لكي يرى في أعين الأزواج هناك بريق الحسد الشديد. ولكن هل يكون الأستاذ مثل النقيب؟

- إني أريدُكِ لنفسي فقط.

كـــان يكفـــيها الأصدقاء على العشاء، والحمام في نهر بياوتنغا ونزهة العصر والمـــسيرة الليلـــية وجسر نهر بياوي ومرفأ الزوارق، حتى لو اقتضى الأمر أن تبقى معتكفة في البيت فلم تكن لتهتم.

أكثـــر من مرة خططا لرحلات إلى أمكنة قريبة. الذهاب في الزورق البخاري إلى مـــصب نهر ريال عند الحدود بين باهيا وسرجيبـــي ليشاهدا البحر مندفعاً عند شـــاطئ مانجـــي سيكو مع امتدادات من الرمل واسعة، والزيارة لأهل ساكو قرية الصيادين. ولكنهما لم يخرجا قط من المدينة و لم تعرف تريزا البحر في تلك المرحلة، وإن تكـــن قد رغبت جداً في القيام برحلة إليه، و لم يفِ الأستاذ بالوعد و لم يكن مهمـــاً ألا ينفذه. كان يكفيها حضور الأستاذ وأن تكونَ معه في البيت وتتحدث إلـــيه وتضحك وتتعلم وتخرج معه إلى الشارع وتتمدد إلى جانبه. آه من التمدُّد إلى جانبه!

كـــان وقـــت تفـــرّغ الأستاذ لتريزا قصيراً جداً، مسروقاً من وقت المصنع والمـــصرف والأعمـــال ومن وقت العائلة، وكانا يقضيانه كاملاً جنباً إلى جنب في الخفـــاء بـــين جـــدران الشاليه. ذلك الوقت كان بالنسبة إلى الأستاذ وقت راحة واسترخاء، وبالنسبة إلى تريزا كان الحياة كلها.

وتعودت المدينة على حضور الأستاذ المتكرر والمؤقت، وتعودت على ستره في حـــوض النهـــر، وعلى الزهرة في اليد، ورفقة العشيقة، وتوقف الاثنين أمام المباني القديمـــة ابتداء من باركي تريستي ووقوفهما على الجسر غير مكترثين بالألسنة التي تقبّح عملهما. وأضاع الأستاذ كلياً التستّر، إن للرجل الغني - والجميع يعرفون - الحـــق في إبقاء عشيقة في البيت المفتوح مع حساب مفتوح وهذا شرط إلزامي في هذه الحال، ولكن كونه متزوجاً فليس جيداً أن يعرض صديقته على الملأ مسيئاً إلى العادات الصالحة لأن العظمة هي في أن تملك لا أن تعرض ما عندك.

ومع مرور السنين فقدت ألسنة الناس قوتها وزخمها ونكهة المعرفة الجديدة، وكان ضـــرورياً وصول ابن البلد الجديد إلى هذه الأرض لينتشل من النسيان موضوع ثرثرة كـــان في الـــسابق موضوع إثارة، الأستاذ إميليانو غويدس وعشيقته الرائعة والعلنية! الوطنـــية المخلـــصة دادا تعلـــي من شأن مواهب أشتانسيا أرض الزهور وسماء النجوم والقمر المنير المجنون فرحاً والشعب المضياف المتغاضي، والملجأ المثالي للعشيق السري:

– من قال إني أختلق الأمور بنفسي يا ابن عمي انظر إلى الميجر أتيليو: لقد جاء إلى هنا عندما تقاعد كهلاً متعباً، ولم يكن ينظر إلى امرأة منذ سنوات، وكان قد نسي كيف تكون الممارسات الغرامية. ومع هواء أشتانسيا ومياه نهر بياوتنغا فإنه خلال أقل من شهر وضــع في بيته فتاة هوى وجاء منها بولد. هو نفسه يخبر هذا لمن يشاء. وحتى صاحبة الأستاذ فقد انتفخ بطنها ولكنها أجهضت الجنين، إنها المياه العجائبية هنا يا ابن عمي.

– آه يا بنت عمي إن صبية الأستاذ تجترح المعجزات. تكفي نظرة منها ليقوم الميت.

26

عيــنا الأســتاذ المفتوحتان بدتا حيويتين على ضوء الشمعة الباهت، ومليئتين بالخــبث كما لو كان يرافق بهما أفكار تريزا. لم يكن من حاجة إلى مياه بياوتنغا العجائبــية، وقــوة الفعل، والقدرة، وتكفي نظرة، ابتسامة، حركة، لمسة وإظهار الــركبة حتى يذهبا إلى اللهيب الجنسي مستهلكين أكبر وقت المصرفي في أشتانسيا وجاعلين منه وقتاً قصيراً للمتعة.

لا تنظــر إليّ هكــذا يــا إميليانو، لا أريد أن أتذكر مثل هذه الأمور في ليلة مــوتك. ولِــمَ لا يا تريزا؟ لو متُّ في غير ذراعيك، وفي غير داخلك وأنا أُمارس الحب؟ ألم نعش حبيبين مميزين، واحد منا مكرَّس لتفسير المعاني والآخر للعواطف، وقــد كــان حــباً فريداً من اللياقة والوجد. إذا لم تكوني راغبة في الذكرى، فأنا أتذكر، أنا إميليانو غويدس معلم المتعة الكبير، وللمتعة استعملت الموت نفسه.

عينا الخبث بنفسيهما، والنظرة النافذة نفسها التي كان ينظر إليها أثناء العشاء علــى المائدة المحاطة بالأصدقاء، ويريها رأس لسانه. منذ الليلة التي أخذها فيها من نــزل غابـــي، وقبل أن يضعها على كفل جواده، كشف لها عن قدرة قديرة في رأس لــسانه الخارج من بين شاربيه ليفتح شفتيها، وكان يكفي أن يبيّن لسانه من بعيد، حتى تحس تريزا أنه يخترقها في كل مطارحها.

لا يا إميليانو، لا تتذكر أكثر. أشح بعينيك عني، لنتذكر أوقاتاً أخرى. كل ما بينــنا كــان مثالياً وأكثر مما يمكن التفكير فيه. يا قرص العسل لا تكوني بلهاء لقد ولــدت مثاليتــنا في الفراش وفيه انتهت. منذ قليل، عندما كنت أهيئ نفسي للقاء

رهبة الموت الذي لا مفر منه، ماذا تذكرت عندما شممت رائحة الكولونيا للذكور؟ آه إميلـــيانو هذه الذكريات والعطور والممارسات انتهت كلها بالنسبة لي. كلا يا تريـــزا، الفرح والمتعة هما البهجة الوحيدة التي تركتها لك. فلتستغلّي الوقت للمزيد منها.

لكـــي تعجـــبه، يـــوماً، وبعد حمام العصر فإن تريزا أخذت زجاجة كولونيا العـــشيق وعطّـــرت نفسها بها. ثم جاءت تلقاه عند أسفل السرير. ووقف إميليانو لكي يتناولها، وعندما شمّ رائحة العطر منها ضحك ضحكة عريضة:

– ماذا فعلت يا تريزا؟ هذا العطر للرجال.

– لقد رأيت الأستاذ يستعمله برغبة شديدة، فاستعملته أيضاً ظناً مني...

كانت ما تزال فتاة هيفاء ذات جسد يتكون من ردفين وقحين فرفعها الأستاذ وضـــمها إلى صـــدره. من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين ومن زهرة الروض إلى الجنينة المعلقة فإن جسد تريزا بكامله كان ملك الأستاذ وحقل عمله.

مع الوقت أصبحت تريزا تعرف العطور وطريقة استعمالها. وفي ساعة حلاقة الـــذقن كانـــت هـــي نفسها تمسح له الوجه والشارب وشعر الصدر الأبيض بماء الكولونيا، كل حركة، كل كلمة، كل عطر، كانت لها قيمتها الخاصة.

آه إميلـــيانو لا تتذكـــر الآن لحظات كهذه، ودع الموت يجلس كلياً في بطني لكي أستطيع بعدها أن أستعيد بهجة الفرح والمتعة.

27

وحـــدث أن أخبر الأستاذ تريزا حكاية جعل منها مادة تسلية وضحك وكانا بطليها.

إن لفيفاً من العمات قد حوّل مرآة موضوعة إلى حائط غرفة النوم مقابل عـــدة مـــرايا مقابلـــة، إلى أعمال إثارة. كانت المرآة تعكس بالتأكيد الفراش والجـــسدين العـــاريين والملامسات، ومن أجل هذا فإن الأستاذ اختارها كبيرة ووضـــعها في المكان اللازم. وكانت الدروس التي تعطيها تريزا لأطفال الشارع تثير بحسبانها موضوع نقاش مثير: على وشك أن يهملها الصناعي، كانت تريزا كمـــا تعـــتقد العمـــات، تتهيأ لكسب الحياة وهي تتمرن على المهنة الشريفة.

ومتناقضات فيما بينهن كانت العمات يناقشن بالتالي أسماء الأغنياء المرشَّحين ليحلّوا محل الأستاذ بين ذراعي العشيقة عندما تصل النهاية التي لا بد منها وهي الضجر الذي لا مفر منه.

متهمة إياه بالتجسس، ممازحة، سألت تريزا الأستاذ كيف حصل على مثل هذه الأخبار ما دام غائباً أكثر الوقت عن أشتانسيا. وإذ كان ألفريدو قد عاد إلى المصنع فإن الأستاذ كان ما يزال على علم بكل ما يُقال.

- أعرف كل شيء يا تريزا فيما يعني كل الذين أهتم بهم. ليس فقط عنك يا قرص العسل. أعرف كل شيء عن كل واحد من أخصائي، وماذا يفعلون وثم يفكرون وحتى عندما لا أقول شيئاً وأتظاهر بعدم المعرفة.

- إن الأستاذ يخبرني بهذا العدد من المرشحين كما لو أنه يريد التخلص مني..

- "يا قرص العسل لا تقولي هذا وإن مزاحاً، إني أمنعك" قبَّلها في عينيها: "إنك لا تعرفين مدى الشوق إليك إذا ذهبت يوماً. أحياناً أخاف أن تتعبي مني لأنك دائماً وحدك وحياتك ضيقة، ومحدودة، حزينة".

تخلت تريزا عن نبرتها المفتعلة وعادت جدية:

- إني لا أعد حياتي حزينة.

- أهي الحقيقة يا تريزا؟

- لا ينقصني ما أفعله عندما لا يكون السيد هنا: البيت، مجموعة الأطفال، الدروس، وأجرب بعض وصفات الطعام في المطبخ ريثما يعود الأستاذ، وأسمع الإذاعة، أتعلم الموسيقى، وليس عندي دقيقة فراغ واحدة...

- حتى للتفكير فيَّ؟

- أفكّر في الأستاذ طيلة اليوم. وإذا تأخر في المجيء إلى هنا أصبح حزينة. هذا هو الشيء السيّئ الوحيد عندي، ولكني أعلم أن لا حل للمشكلة بطريقة أخرى.

- هل تريدين أن أبقى باستمرار يا تريزا؟

- أعرف أنك لا تستطيع أن تبقى، وماذا ينفع أن أريد؟ لا أفكّر في هذا، وأكتفي بما عندي.

- إن مـــا أعطيك قليل، يا تريزا؟ هل ينقصك شيء؟ لماذا لا تطلبين مني أبداً شيئاً ما؟

- لأنـــني لا أحب أن أطلب، ولأن شيئاً لا ينقصني. إن ما يعطيني الأستاذ هو أكثـــر مـــن حاجتي ولا أعرف ماذا أفعل بأشياء كثيرة إلى هذا الحد. ليس هذا ما أطلبه، والسيد يعرف جيداً.

- أجـــل، أعرف، يا تريزا، وأنت؟ هل تعرفين أنتِ أنه محزن بالنسبة لي هذا الـــذهاب والإياب؟ اسمعي جيداً يا قرص العسل: أعتقد أنني لن أتعود أن أعيش من دونك. عندما أكون بعيداً فإن الرغبة الوحيدة عندي هي أن أكون هنا.

ســـت ســـنوات، حياة، وأشياء كثيرة للتذكر، أشياء كثيرة؟ ولكن لم يكدر الحـــياة حدث مأساوي خطير، ولم يحدث حادث مثير يستحق صفحة جديدة من رواية، وفقط كانت الحياة تمر بسلام.

- إن حـــياتي روايـــة لا ينقصها سوى أن تُكتب... أكدت الخياطة فاوستا العاطفية، ومذيعة أخبار سيدات المدينة.

وليست حياة تريزا باتيستا في أشتانسيا العريضة، السعيدة، هي ما يستحق أن يكـــون مـــادة لكـــتابة رواية. ففي أكثر الحالات يمكن أن تستخدم حياتها لتأليف قـــصيدة حب أو قصة قصيرة. فأثناء غياب الأستاذ كان عندها آلاف من المشاغل الـــصغيرة لتملأ وقت الفراغ، وعندما يكون موجوداً فهو وقت الفرح. إنها مثالية عشيقين لم تتطور إلى ما يستحق أن يُروى عنه. على الأقل في الظاهر. يوماً، وهي تـــضحك علـــناً، أطلعت الأستاذ على أبيات شعر مكتوبة نظمها الشاعر أمينتاس ورفو في دكان أبيه البورجوازي الذي لا مثل أعلى له.

- إذا وعد الأستاذ بأن لا يغضب فسأريه شيئاً. لقد احتفظت به حتى أريه إياه.

لقد وصل الظرف بالبريد موجهاً إلى السيدة تريزا باتيستا، شارع جوزي دي دومـــي، رقـــم (7) وفي نهاية الصفحتين المكتوبتين توقيع وألقاب الكاتب؛ أميناس فلافـــيو روفـــو، شاعر موله وفاقد الأمل، وبينما يضع رأسه على عُنق تريزا، قرأ الأستاذ مقاطع الشاعر المسؤول عن الصندوق في الدكان:

- إنك تستحقين شعراً أفضل من هذا يا قرص العسل.

- حتى إن بعض الأبيات جميلة..

- جميلة؟ هل ترين أنها جميلة؟ حين يرى أحد شيئاً جميلاً فإن الشيء يكون فعلاً جميلاً. ولكن هذه الأبيات سيئة للغاية. تافهة: سنذهب فيما بعد للقيام بجولة في الشارع وسندخل الدكان الذي يعمل فيه شاعرك..

- قال السيد إنه لم يكن يريد أن يفعل شيئاً.

- لن أفعل شيئاً. ولكن أنت ستفعلين، وستعيدين إليه أبيات الشعر حتى لا يكرر الجرعة.

فكرت تريزا والأوراق بين يديها:

- كلا أستاذ، لن أذهب، لا، إن الشاب لم يفعل أي شيء يسيء إليّ، لم يرسل لي بطاقة أو رسالة، ولم يعرض عليّ ممارسة الحب ولا النوم معه، لم يعد بشيء، فقل لي إذاً لماذا يجب أن أذهب شخصياً لأعيد إليه الأبيات؟ فضلاً عن الذهاب مع السيد نفسه، أنا لأؤذيه، والسيد ليهدده في الدكان على مرأى من العالم. إن هذا لا يعود عليّ ولا على الأستاذ بشيء مفيد.

- سأقول لك لماذا. إذا لم نقطع في الحال أجنحة هذا الأبله فسيستمر في التجرؤ، والتدخل كالبهيمة، وأنا لا أسمح لأحد بأن يستغلك. أو يمكن أن تكوني أنت تقدرين هذه الأبيات إلى درجة أنك ترغبين في الاحتفاظ بها.

- قلت إني أرى الأبيات جميلة، إني أراها كذلك حقاً، لن أكذب، فبالنسبة إلى معرفتي القليلة فإنّ أي صفيحة براقة هي ذهب. ولكني قلت أيضاً إنّني احتفظت بها يوماً لأريها للسيد، وسأعيدها بالبريد كما تلقيتُها، وهكذا لن أسيء إلى من لم يسئ إليّ.

وإذ تحرر من كل ارتباك، ابتسم إميليانو غويدس:

- رائع يا تريزا. إن عندك عقلاً أحسن من عقلي. لن أتعلم فقط السيطرة على نفسي. إنك على حق. اتركي الشاعر يكتفي بهذا. كنت سأذهب إلى الدكان لإذلال المسكين. ولكن من كان سيذل هو أنا.

وارتفع صوته منادياً لولا وآمراً بالمجيء بالثلج والمشروبات:

- كل ذلك لأنني أرى أن لا حق لأحد بأن يضع عينيه عليك، إنه سخف. تريزا، لقد تصرفت كسيدة. إننا سنتناول الآن كأساً ونشرب نخب قصائد شعراء أشتانسيا إلى قرص العسل، خاصتي.

سـيدة؟ إثر بداية الصداقة قال لها: أريد أن أراك سيدة. ولن تكوني سيدة إلا إذا أردت أن تكوني. كان ذلك تحدياً فوضعت ظفرها على البيدق.

لم تكـن تعـرف كيف تكون السيدة. كانت السيدة بياتريز أرملة الطبيب والسياسي، سيدة في زمن زوجها، ولكن حين عرفتها تريزا وتعاملت معها وجدتها أشـبه بمجـنونة ذات دماغ مائع. وفي ليالي الكاشاسا كانت غابـي تتباهى بأنها كانـت يوماً السيدة غرابينا كاسترو زوجة إسكافي قبل أن تصبح غابـي الكاهن وتنتهي إلى صاحبة ماخور، ولم تكن يوماً امرأة راقية أبداً.

28

عبر الستائر المتدلية تسلّل نور قليل إلى الغرفة منعكساً على وجه الميت، وظهر الدكـتور إماريليو عند الباب عصبياً فأجال بنظره في المكان ليجد تريزا جالسة في الوضع نفسه.

- "إنهم لن يتأخروا في الوصول..." تمتم الطبيب.

لم يظهـر على تريزا أنها سمعت. بقيت ثابتة في الكرسي وعيناها ناشفتان لا شفافية فيهما. ودون أن يثير أية ضجة انسحب الدكتور ببطء. كان يرغب في أن ينتهي كل شيء قبل أوانه.

لقـد اقتربت الساعة يا إميليانو، ساعة مغادرتنا نحن الاثنين أشتانسيا إلى الأبـد. مديـنة جمـيلة ومضيافة كهذه لا يوجد في العالم كله. الصباحات في مياه النهر الجارية والمتسعة المكان، وغسق اللهفات القديمة، والأيدي المتشابكة في الطـرقات، واللـيالي المعطـرة بالقمر والياسمين، هذه، يا إميليانو لن تعود أبداً.

الرجال لن يغاروا من الأستاذ العجوز المرح بعد اليوم، والنساء سيكففن عن نقـد العشيقة الفتاة المحظوظة! لن يروهما في الشوارع يجاهان المناقب بخطى وئيدة وضحك عال.

أما حزنُ الثرثارات فقد انتهى إلى السجال الكلامي المفتوح حول تعيين أحد وجهـاء المـصانع والمعامل والمزارع الكبيرة ليشغل المنصب الشاغر في فراش تريزا عندما انتهى الأستاذ إلى الموت.

لا تخف يا إميليانو لم أتحول إلى سيدة كما كنت تريد: ربما لأنني لم أتوصل، أو ربما لأنني لم أرد أن أكون. أية فائدة من سيدة كبيرة؟ إني أفضل أن أكون امرأة مـستقيمة، ذات كلمة. حتى الآن كنت فقط عبدة، امرأة عامية، عشيقة، فلا تخش شـيئاً: هؤلاء الأثرياء هنا، أبداً يا إميليانو! ولا واحد منهم سيمس طرف فستاني، إن كبرياءك هو أيضاً ميراثي.

إن أهلـك لـن يتأخـروا في الوصول، لقد خرجوا من الحفلة ويسرعون في الطـريق، إنهم آتون ليأخذوا الزعيم. وقد انتهى عيدنا أيضاً، وقد كان وقتاً قصيراً لكي تتفتح وردة وتذبل، لقد انتهت أشتانسيا يا إميليانو فدعنا نذهب في الحال.

لقـد جاؤوا يأخذونك ويرفعون جثتك، أما أنا فسأحمل في أحشائي حياتك وموتك..

29

كـان الأستاذ قد وصل بعد ظهر يوم الخميس. وعندما سمعت هدير السيارة جاءت تريزا راكضة من وسط البستان وذراعاها ممدودتان ووجهها مشرق فرحاً، وبدت كذلك كأنها لوحة أسطورية تخرج فيها من غابة ميتولوجية امرأة عصفوراً، فـرآها إميلـيانو تجتاز الحديقة وفي عينيها بريق الفحم المشتعل وعلى فمها ابتسامة المياه الجارية ينضح منها الحب، وإذ رآها اطمأن قلبه المنقبض.

لاحظـت تريـزا في وجه عشيقها آثار التعب واضحة على الرغم من الجهد الـذي بذلـه ليخفيها. قبلته في وجهه، وشاربه، وجبهته وعينيه، وفي كل وجهه لتمـسح عـنه السأم والإرهاق والحزن. هنا لا مجال للأعباء ومشاعر المعركة غير الأكيدة والوحدة، يا حبيبـي. عندما وصل إلى باب الحديقة فكأنه رسا عند مرفأ سـحري في عالم اخترعه حيث لا شيء هناك سوى السلام والجمال والمتعة. هنا تنتظره الحياة مع الابتسامة في العينين، وبين ذراعي تريزا باتيستا.

دخلا البيت يتغازلان في حين كان السائق يساعده لولا ينقلان الحقيبة الكبيرة والصندوق والرزم والتجهيزات والدراجة الصغيرة التي أوصت عليها تريزا لتهديها إلى لازيـن الـذي اقتـرب موعد عيد ميلاده. وجلسا على حافة الفراش لقبلة الترحيب الطويلة والمتكررة.

- "لقد جئت مباشرة من باهيا، لم أمر بالمصنع، فالطرقات بسبب الأمطار أضحت جد سيئة"، قال ذلك حتى يفسر التعب الظاهر ولكنه لا يخدع تريزا.

من قبل لم يكن الأستاذ قد أتى مباشرة من باهيا مرّة، إذ كان يتوقف دائماً في المصنع أو في أراكاجو لمعالجة أمور العمل المالية ويبقى مع الأهل. ولكن منذ تسلّم صهره مسؤولية إدارة المصرف، أصبح نادراً ما يذهب إلى أراكاجو، في حين كان يجب أن يذهب ليرى الابنة المفضلة أكثر فأكثر، إنه تعب من السفرة ولكنه أكثر تعباً من الإزعاج. خلعت تريزا حذاءه من قدميه ثم سحبت الجواب؛ في وقت منسي مضى، كان عليها أن تغسل كل ليلة رجلي النقيب وقد كان عملاً عبودياً ثقيلاً. النقيب، المزرعة، المخزن، والزنزانة مع صورة مريم وسوط الجلد، ومكوى الجمر، كل ذلك اختفى في المسافة البعيدة وذاب في زمن الأستاذ وانسجام هذه اللحظة. إنها تتمنى أن تخلع حذاء وملابس العشيق البهي النظيف العليم. العمل هو نفسه، ومن الأفضل القول إنه عمل الانتماء والخضوع نفسه. ولكن في وقت النقيب كانت عبدة وأسيرة الخوف ولكنها عشيقة الأستاذ وعبدة الحب معه. تريزا سعيدة كلياً. كلياً؟ لا، لا إنها تراه متكدراً مجروحاً ومرارته النفسية تنعكس عليها وتكدرها ولكنها تجرح الأستاذ أكثر في محاولة إخفائه لما يحس به. سأجهز حماماً حاراً لكي يرتاح السيد من السفر.

بعد الحمام ذهبت إلى الفراش مليئة بالسرور. وفي ساعة الغروب وعند نسيم المساء المنعش عادت تريزا والأستاذ إلى الحديقة. وهادئاً ناعماً بدا ليل أشتانسيا يمتد فوق الشجر ومجمع البيوت والناس. من المطبخ تمتمت العجوز أيولينا بعدم رضاها وبتمتمات لا تفيد شيئاً، وأطلقت كلاماً يفيد دعوة إلى التمتع بالطيبات، إنها تهيئ شكاوى ملتهبة للعشاء. وجاء لولا بالطاولة والقناني والثلج، وبعد أن خدم إميليانو في إعداد الشراب تمدّد الأخير في الأرجوحة ومن ثمّ في البيت.

ودون أن يشير إلى الحادثة حدثته عن الكرمس:

- سيتم نهار السبت بعد غد. وقد جاؤوا يطلبون هدية فاستفدت من السانحة وأهديت مظلة الضوء ذات القوقعات المصبوغة التي لم يكن السيد يستطيع تحملها، هي تلك التي أهديت لك في أراكاجو، هل تذكر؟

- أذكر! ساعة!.. تاجر من زبائن المصرف أهداها لي:

- الأســتاذ دقيق الملاحظة ويجد في كل شيء عيباً. لا أعرف كيف أحبني أنا النكرة التي لا تفيد بشيء.

- قرص العسل، لقد ذكرتني الآن بزوجتي الأولى إيزادورا. لم أخبرك، أنني ولكي أتزوج، فإنني تقريباً تشاجرت مع والدي العجوز الذي كان ضد الزواج منها كونها كانت فتاة فقيرة من عامّة الشعب، وخياطة. كانت أمها تصنع الحلويات للأعياد ولكنها لم تر أباها أبداً. كنت أكاد أنتهي من تخصصي وكان حباً مفاجئاً إذ حين وقعت عيني عليها أعجبتني. وخلال أقل من شهرين قمت بالخدمة التقليدية لها وإذ كنت أحبها فقد تزوجتها. وكان عليَّ أن أذهب للإقامة في المصنع والعمل إلى جانب والدي متخلياً عن مشاريعي التي كانت مختلفة. و لم أندم فقد كانت تستحق. وانتهى والدي إلى محبّة عارمة لإيزادورا. وكانت هي من أقفلت عينيه ساعة الموت. جميلة، متفانية، خلابة ومثيرة. بقينا متزوجين طيلة عشر سنوات ولكنها ماتت بالتيفوئيد خلال أيام من إصابتها به. لم تحمل قط ولذلك كانت تقول: "إني عاقر لا نفع مني يا إميليانو فلماذا تزوجتني؟" وفعلت المستحيل لأرزق طفلاً وأخذتها إلى الريو وساوباولو و لم يستطع الأطباء شيئاً، لا الأطباء ولا المعالجات غير الشرعية. ورغبة منها في الحصول على طفل فقد قامت بوعود سخيفة ونذور في باهيا وكانت تتناول الجرعات المرقية وكل شيء يعلمونها إياه، المسكينة. لقد ماتت وهي تطلب مني أن أتزوج من جديد لأنها كانت تعرف كم كنت أتمنى طفلاً. هي، أجل، تستحق العناء. هي وأنت يا قرص العسل.

وبدا متشككاً فيما إذا كان يجب أن يستمر أم لا. هزَّ برأسه ودفع عنه الأوهام وغيّر الموضوع:

- إذاً نهار السبت هناك كرمس في محلة ماتريز؟ هل ترغبين في الذهاب يا قرص العسل؟

- لأفعل أي شيء وحيدة؟

- من قال لك إنك ستذهبين وحيدة. وحيدة، لا أسمح، ولن أجازف بهذا مع كل هذه النسور الجائعة وراءك. إني أدعوك إلى أن تذهبي برفقتي المتواضعة.

ولشدة المفاجأة صفقت بكفيها بحركة طفولية:

- "نحن الاثنان؟ وتسألني إذا كنت أقبل؟ لا تسأل". ولكن فجأة حلّت المرأة المفكّرة مكان الشابة المتحمسة: "إن ذلك سيكون مدعاة للكلام الكثير ولا يستحق الأمر العناء".

- أيهمك أنت أن يتكلموا؟

- ليس من أجلي بل من أجل السيد. يستطيعون أن يتكلموا عني أنا شخصياً بقدر ما يروق لهم.

- وعني أيضاً يا تريزا. اسمعي يا تريزا واعلمي مرة واحدة وإلى الأبد: لم يعد لديَّ أي سبب لأخفيك عن أحد كائناً من كان. انتهت المناقشة، سنشرب لنحتفل.

- لا لم ننته بعد. أليس نهار السبت هو اليوم الذي يأتي فيه السيد جوان والدكتور إماريليو والأب فينيسيوس إلى العشاء؟

- سنقرّب موعد العشاء لنهار الغد، هم أيضاً لا بد أن يذهبوا إلى الكرمس فالكاهن لا يستطيع أن يتغيب. نرسل لولا ليعلمهم بالأمر.

- إني مسرورة جداً..

بعد القبلة وملء الأقداح من جديد، وإذ كان قد عاد إلى عنق تريزا في الأرجوحة العريضة، أخبر إميليانو:

- تعرفين يا تريزا، هذه المرة جئت بنبيذ سيجعل دموع التأثر تنهمر من عيني المعلم ناسيمنتو، نبيذ يعود إلى أيام شبابنا، كان يباع في ذلك الوقت في باهيا ثم اختفى كلياً، ويدعى كونستانتيا، وهو من إنتاج أفريقيا الجنوبية. سترين العجوز جوان يهتز من أعمق أعماقه.

خلال العشاء، في اليوم التالي، رافقت تريزا جهود الأستاذ ليكون هناك جميع الضيوف التقليديين وليبقي على المائدة حيوية وقلبية. الأكل الشهي، الخمور المختارة، سيدة المنزل الرائعة الأنيقة اليقظة، كل شيء هو الأفضل ولا ينقص غير الشباب، والقوة، وفرح إميليانو في العيش. إنها أمراض معدية. وفي تلك الليلة لم تتمكن تريزا من أن تنتزع المشاكل من رأس الأستاذ وتبعده الأمور التي تطارده، والأحزان العميقة، ولم تتمكن من جعله ينسى العالم الواقع خارج حدود أشتانسيا.

وانتهـــى الأستاذ مع ذلك إلى الانتعاش والضحك. الضحكة العريضة لرجل راضٍ عن الحياة. عندما انتهى العشاء، وبعد القهوة أشعل السيجار و لم يعد ينقص غـــيرَ الليكورات والكونياك والمشروبات المساعدة على الهضم. اختفى الأستاذ من غرفة الطعام وعاد معه بقنينة وفي عينيه الوضاءتين الحماسة، وعلى فمه ابتسامة:

– ســـيد جوان، امسك نفسك حتى لا تغيب عن الوعي، إن لديَّ مفاجأة.. هـــل تعـــرف ما هذا الذي في يدي؟ انظر: زجاجة كونستانتيا، كونستانتيا، أيام زماننا.

ارتفع صوت جوان ناسيمنتو وأصبح فجأة صوت شاب:

– "كونستانتيا؟ لا تقل..." وقف، مدَّ ذراعه!

– دعـــني أرى: يداه ترتجفان. وضع نظارتيه ليقرأ التاريخ، ثم حدّق بحنان في الزجاجة أمام الضوء في لون النبيذ الذهبـــي واستطرد:

– إنك عفريت يا إميليانو. أين تدبرتها؟

إزاء انفعال صديقه، بدا الأستاذ أخيراً كأنه نسي المشاغل التي تقض مضجعه.

حين أصبحوا أمام الكؤوس، ذهب والمعلم جوان عبر الخمر في رحلة في عالم الذكـــريات. في يـــوم معمـــودية إميليانو كان الخمر الذي قدم بعد الاحتفال هو كونستانتيا. أبطال بلزاك يشربون كونستانتيا، وفي الكوميديا الإلهية تذكر ناسيمنتو الـــذي أتعب عينيه في القراءة. "فريدريكو الكبير لم يكن يستطيع التخلي عن هذا الخمـــر"، أضـــاف الأســـتاذ، "وكذلك نابليون ولويس فيليب وبسمارك"، إنهما عجـــوزان يـــشعران بطعم الشباب في النبيذ القاني. كان الكاهن والطبيب يصغيان بصمت وكأساهما مليئتان.

– "في صحتكم!" صاح إميليانو "صحتنا نحن يا معلم جوان!"

أطـــبق جـــوان ناســـيمنتو عينيه ليتذوق الطعم بصورة أفضل: كان شاباً في شـــوارع باهـــيا وفي كلية الحقوق، مليئاً بالطموحات الأدبية قبل أن يقع مريضاً. ويجـــبر علـــى التخلـــي عن دروسه وعن دروبه البوهيمية. وشرب الأستاذ بتمهل مـــتذوقاً: كـــان شـــاباً غنـــياً يجري وراء العشيقات والاحتفالات مهتماً بالمحاماة والصحافة، شاباً موجهاً في وجهة المهنة البراقة. وضحى بالمخططات والآمال تولّهاً بإيزادورا و لم يندم. وفتّش عن تريزا بعينيه فوجدها تحدق فيه مرتاحة لأن تراه أخيراً

غير منشغل التفكير ويضحك مع صديقه. مشى نحوها. أي حق لـــه في أن يجعلها تشاركه أحزانه ومتاعبه؟ إنها لم تعطه غير الفرح ولا تستحق غير الحب.

- هل تحبين كونستانتيا يا قرص العسل؟

- أحبه، أجل، ولكني ما زلت أفضل نبيذ بورتو.

- إن نبيذ بورتو هو الملك يا تريزا. أليس كذلك يا معلم جوان؟

وضـــع الكأس من يده على الطاولة، ولفّ بيده خصر العشيقة، ولا يستطيع أن يكون شاعراً بالفراغ والحزن من يملك تريزا. وفيما بعد شربا الكأس الأخيرة في الفراش.

30

لـــيلة السبت انبعثت الحيوية في محلة ماتريز، وكان الكرمس قد نظمته النساء المـــتطوعات لمصلحة بيت العجزة ودار الإحسان، وكانت الخيم الواسعة قد أقامها شـــباب وفتيات من المجتمع الراقي، وأقيم مشربان مع مرطبات، ومشروبات باردة وبـــيرة وســـندويش وهـــوت دوغز ساخنة وكوكتيلات الليمون والأموندوين، والماراكاجـــو والطنجـــرينا والحلويات المتعددة مع مكان للتسلية محاط بالحبال... وفجـــأة ظهر الأستاذ والعشيقة تتأبط ذراعه. للحظة واحدة وقف الجميع لينظروا. وكانت تريزا رائعة وأنيقة إلى حدٍّ أجبر السيدات أنفسهن على الاعتراف بأن ليس في أشتانـــسيا امـــرأة يمكـــن أن توازيها حسناً وجمالاً. واجتاز عجوز الفضة وفتاة النحاس الشعب وراحا يطوفان من خيمة إلى خيمة.

وبدا الأستاذ فتى يافعاً فاشترى نفاخة زرقاء لتريزا وربح جوائز بالتصويب إلى الهـــدف مـــن ربطة عنق إلى كشتبان، ثم شرب مرطب المانجايا وراهن في الروليت وخسر وتقدّم إلى الأمام حيث اليانصيب على الهدايا، ودون أن يعرف الشيء الذي عـــرض في المـــزاد العلني والذي دُفِع فيه عشرون كروزيرو، دفع دفعة واحدة مائة كروزيـــرو، وحـــصل في الحال على حاملة الضوء ذات القوقعات المصبوغة، ذلك الـــشيء البشع. لم تستطع تريزا السيطرة على ضحكتها عندما تناول المسؤول عن المـــزايدة الورقة النقدية ومع حركة شكر أعطى الأستاذ الجائزة. ضحكت تريزا إلى أن تخلـــصت مـــن عبء نظرات العمات والسيدات، وواجهت بهدوء التطلعات والوشوشات غير مكترثة بالفضوليين. وذراعها بذراع الأستاذ سعيدة بالحياة.

في الكـــرمس، بعض المتعنتين، وبعض المصطادين في الماء العكر كانوا بعيون مباشـــرة يتجســـسون علـــيهما، وعـــدة سيدات وعمات جازفن برفع أعناقهن ليـــشاهدهما. وشـــدّ الأستاذ بجسد تريزا إليه فأرخت الأخيرة رأسها على كتفه. وداعـــب إميلـــيانو شعرها الأسود ولمس وجهها وقبلها في فمها قبلة طويلة عميقة وعلنية: فضيحة! التجرد من القناع لذة رائعة، آه من المحظوظين.

وهـــي مـــا تـــزال في ظلمة الغرفة وصمتها، سمعت تريزا هدير سيارات في الـــشارع، كم؟ أكثر من سيارة بالتأكيد. لقد وصلوا يا إميليانو، أهلك، عائلتك، قـــومك، سيأخذون جسدك ويرفعونه، ولكن ما دمت في هذا البيت فسأبقى فيه، ليس عندي أي سبب لأختفي أو أهرب من أي كان، وأنت قلت هذا، اعلم أنه لا يهمـــك أن يروني، وأعرف أنك لو كنت حياً ووصلوا هم فجأة لكنت قلت لهم: "هذه هي تريزا، امرأتي".

31

ذلـــك الأحد من أيار مضى برتابة. كانا قد بدآ بحمام النهر الصباحي الذي عـــادا مـــنه بـــسرعة، إذ كان المطر قد بدأ يهطل وراحت حبّات الماء تغسل وجه الـــسماء. وظلا في البيت طيلة النهار وإلى ما بعد العشاء. الطبيب في تكاسل ملائم له يذهب من الفراش إلى الأريكة ومن الأريكة إلى الأرجوحة.

وظهـــر عند المساء رئيس البلدية، إذ كان قد جاء ليطلب مساندة إميليانو في قـــضية مالية للبلدية لدى السلطة التنفيذية في الدولة: "إن كلمة واحدة من مواطن أشتانسيا الأول – ونحن نعتبر سيادته واحداً منا – إلى الحاكم يمكن أن تكون دون أدنى شك حاسمة". أرادت العشيقة أن تغادر المكان لتتركهما على راحتهما، ولكن إميلـــيانو أخذها من يدها ولم يسمح لها بالخروج. ونادى على لولا وأرسله ليأتي بالمشروبات وبالقهوة المعدة في الحال.

وإذا لم يكـــن قـــد بدا جيداً بالكامل، فقد بدا على الأقل متوازناً مع نفسه، وعـــاد إلى الحيوية السابقة. يضحك، يتحدث، يناقش مشاريع رئيس البلدية، يأمر، وإذا هـــو خـــارج من التعب والمرارة، الأيام القليلة التي مضت في أشتانسيا برفقة العـــشيقة بدت كأنها لأمت جراحه وقضت على الكآبة. ابتسمت تريزا وهي إلى

طاولة العشاء؛ يوم راحة ملائم يعقب ليلة أمس التي لا تنسى في الكرمس، ليلة رائعة، سطحية، وكانت أسعد ليلة في حياتها.

ليلة لا تنسى ليس فقط بالنسبة إليها، بل بالنسبة إليه أيضاً. بعد العشاء خرجا في نزقهما إلى الجسر والمرفأ القديم. وتحدث إميليانو:

- "منذ سنوات لم أتسلّ كما حدث أمس، إن عندك موهبة الفرح يا قرص العسل". وكان ما قاله هنا بداية آخر حديث بينهما.

تذكرت تريزا ما فعله الأستاذ عندما ترك حاملة الضوء ذات القوقعات المصبوغة تقع وتتحطم معلقاً على ذلك تعليقاً هزلياً: "استرح بسلام يا ملك قلّة الذوق ووداعاً إلى الأبد". ولكن إميليانو لم يضحك، فقد غرق في القلق من جديد وبدا وجهه منقبضاً ورأسه مريحاً من الأحزان والاشمئزاز.

غرق الأستاذ في صمت ثقيل، وحاولت تريزا أكثر فأكثر أن تسحبه من مشاغله وتعود به إلى الضحك إلا أنها أخفقت. وتوقف الحديث عن فرح الأمس حتى بداية ليل ذلك الأحد من أيار.

وبقي الجزء الأخير: الفراش، فإلى الحب دون عقبة، إلى امتزاج الجسدين والرغبة واللذة والانطلاق الذي لا نهاية له لكي تقتلعه من الحزن المتراكم وتخفّف عنه العبء، آه، لو كان بإمكان تريزا أن تتحمل عنه كل ما يحزنه ويتعبه. إنها متعودة على الحياة الشاقة، وقد أكلت من الناحية العفنة بوفرة، أما الأستاذ فقد حصل دائماً على ما أراد وكيفما شاء، والآخرون يطيعون، يحترمون وينفذون الأوامر صاغرين، وقد شاخ وهو يتمتع بالحياة الطيبة: المسألة بالنسبة إليه هي أصعب، في الفراش، من يعرف، فقد يهدأ وهو داخل تريزا.

ولكن، بعد إغلاق الباب، أعلن إميليانو:

- أريد أن أتحدث معك يا تريزا، لنبق هنا، في الأرجوحة، قليلاً.

يوم الخميس كان على وشك أن يفتح قلبه عندما تحدث عن الزواج الأول وأشار إلى إيزادورا؛ وكان العبء لا يطاق حتى بالنسبة إلى كبرياء الأستاذ، وقد جاءت الساعة ليقسم الحمل، ويخفّف عنه العبء، وسارت تريزا باتجاه الأرجوحة:

إني مستعدة يا حبيبي. فقال إميليانو:

- تمددي قربي هنا واسمعي.

فقــط في بعض اللحظات يقول لها "أنت"، عندما يريد أن يجعل الألفة بينهما أعمق مما هي. "أنت تريزا، قرص العسل خاصتي".

هــناك في حديقة البتانجا، والقمر ينتشر فوق أشتانسيا منساباً كالذهب فوق الـثمار، وعطر الياسمين يملأ الأنفاس عبر نسيم الليل، كان صوته غضوباً فأخبرها بكــل شيء.. تحدث عن خيبة الأمل، عن الضعف، عن الوحدة في حياته العائلية، إن إخوته عاجزون، والزوجة تعيسة، والأولاد كارثة.

لقــد بــدّد حياته في العمل الشاق والمتواصل لمصلحة عائلة غويدس وإخوته وكــل قومه، وعلى الأخص، الزوجة والأولاد، الأستاذ إميليانو غويدس أكبر آل غويدس أصحاب مصنع كاجازيراس وزعيم العائلة. حمل الآمال، وخطط المشاريع، وحلــم بالنجاح والأفراح، ومن أجل تلك الآمال الدافئة، وتلك المشاريع الجبارة، والنجاحات الرائعة ضحّى بنصف العالم، بكل الأشخاص الآخرين بمن فيهم تريزا.

احتقــر حق الغير، حقّر العدالة، وتجاهل كل حق ما لم يكن في مصلحة آل غــويدس وظلوا دائماً غير راضين، ودائماً يطلبون المزيد، ومن أجلهم قاتل إميليانو دون كلــل وفي يــده باســتون الفضة. الرجال تحت إمرته، السياسيون، مسؤولو الــضرائب المالية، القضاة، رؤساء البلديات وكل السلطات في تصرفه، وتعامل مع الجمــيع بالرشــوة والمــال، وبالتباهي والاحتقار. كل ذلك من أجل آل غويدس وبالدرجة الأولى من أجل جايرو وآباريسيدا، ولديه.

آه. تريــزا، لا أحــد منهم يستحق العناء، العناء الشاق، لا الإخوة ولا قومه هو – لا يستثنى أحداً – لا الزوجة ولا الأولاد، وقت ضائع، وطاقة هدرت في غير مكانها، ونضال عبثي. الجهد والمصلحة والحنو والصداقة والحب لم تكن كلها ذات قــيمة، المظالم، والسحق والعنف ودموع الكثيرين، وبأس العديدين والدم المراق، كلــها لم تكن ذات جدوى "حتى دمك أنت، تريزا، هدرته من أجلهم فقد دمرت أحشائك لأقتل طفلنا، كل هذا من أجل أي شيء يا تريزا؟؟"

32

صوت الدكتور إماريليو ينطلق متحبباً ليدل على الطريق:

– من هنا، رجاء.

بـــرز في بـــاب الغرفة شاب أسمر يكاد يكون بطول الأستاذ، حسن الشكل ومـــتأنق مثله، ولكن، في الوقت نفسه، هو نقيضه، في العينين المتمددتين بريق شر، وفي الفـــم ابتسامة تشرد، قوي ولكنه يبدو سريع العطب، وضيع يجعل نفسه نبيلاً، مـــنطو ويظهر الصراحة، يرتدي بزة سموكينغ مصنوعة عند خياط أسعاره مرتفعة، وبدا كأنه أعطى كيانه كله للحفلات الصاخبة، والرفاهية، والحياة الحلوة. ونصف مختف وراء الواصل الجديد، قال الدكتور مقدماً:

- تريزا، هذا السيد هو توليو بوكاتلي، صهر الأستاذ.

بلى، كنت على حق يا إميليانو، يكفي إلقاء نظرة عليه حتى تتعرف فيه على صـــياد مهـــور النساء، وعلى الانحراف الأخلاقي. ألم ترَ تريزا قط واحداً كهذا في المجـــتمع الراقي؟ وكائناً ما كان مستوى المنحرفين الاجتماعي، فإن عندهم غرضاً مشتركاً وعلامة لا تحدد ولكنها سهلة الانكشاف لدى من مارست الدعارة.

- "مساء الخير..." بلهجة إيطالية مع محاولة تصحيح فاشلة للفظ.

تأخـــرت عينا الشاب الأرنبيتان محدقتين في تريزا، تحسبان القيمة والسعر، إنها أجمل بكثير مما وصفوها، سيدة ذات مواهب؛ إن العجوز اللعين كان يجيد الاختيار والاحتـــياط: لسبب ما أبقيت مخفية هنا، في أشتانسيا، وتأمّل في عمه والد زوجته، إنه ميت وعيناه مفتوحتان، كأنما ما يزال حياً، إن عيني الأستاذ كنصل سكين بارد قاطع يستقران في داخل الأشخاص، ولم يتمكن توليو أبداً من أن يخدعه. لقد عامله إميلـــيانو دائمـــاً بمنتهى اللباقة، ولكنه لم يكنّ له أبداً أقل احترام حتى عندما أعلن نفـــسه إدارياً قديراً على إدارة الأعمال وربح المال، ومنذ اليوم الذي قدم إليه لم يرَ الـــصهر في عـــيني الأســـتاذ غير الاحتقار وعدم التقدير. عينان براقتان، زرقاوان، مهـــددتان، لا رحمة فيهما. وفي المصنع، لم يحس توليو قط أنه في أمان: فلماذا إذاً أرسل العجوز القدير أحداً من أولئك الأزلام ذوي الصوت الأبح والجرائم العديدة لتـــصفيته؟ حـــتى الآن فإن العم ما يزال يحدجه بنظرة اشمئزاز، الاشمئزاز هو التعبير الصحيح.

- "سميرا فيفو الباتروني"..

يـــبدو حياً ولكنه ميت. لقد انتهى السيد، وأخيراً ها هو توليو بوكاتلي رجل غني، غني عفن؛ لقد كلّفه الغنى الكثير من التعرض للاحتقار والسخرية والصبر.

وصـــلت مـــن الـــصالة الواسعة أصوات رجال ونساء وبينها صوت الكاهن فينيسيوس. دخل توليو إلى الغرفة مفسحاً المجال لمرور آباريسيدا غويدس بوكاتلي. قبة فستان الاحتفال تعرض نهديها المغريين، وينفتح الفستان من الوراء حتى منحور القفـــا. آبا صورة عن أبيها، الوجه المعبّر نفسه، جمال صاعق، عدائية تقريباً، والفم مـــتألم كفم إميليانو، ولكن، في فمه هو، كان الشبق مغطى بلون الشارب الكث الرمادي. في الحفلة شربت قليلاً، وكانت مهتمة بالرقص مع أولافو بيتنكور طبيب أمـــراض نفسية شاب وحب جديد لأن آبا تحب التغيير، ولكن خلال رحلتها إلى أشتانسيا فقد جرعت تقريباً زجاجة ويسكي كاملة.

اســـتندت على ذراع أولافو. وعندما، بعد ذلك، لمحت جسد الأب الذي لم يكـــن مـــضاء كفاية ببقايا الشمعات الأربع ونور القمر الضئيل، وقعت راكعة إلى جانب الفراش قرب الكرسي الذي تجلس عليه تريزا:

- آي. بي. بابـــي.

حـــتى وإن تكـــن ابنـــتك يا إميليانو، فإنك لم توفرها واستعملت لها الاسم الـــصحيح الخـــام عندما وصفتها بالعاهرة، ولكنك لم تلق اللوم على نفسك و لم تقاصص دمك ونوعية الإنسان فيك. آه، لو أنها ولدت رجلاً على الأقل.

التنهدات تتجمع في صدر آباريسيدا، "أي. بي. بابي!" مدَّت يديها ولمست جسد الأب، "لقـــد ذهبت حزيناً، لقد توقفت عن أخذي من عنقي، وأنت تداعب شعري بحنان، وعن أن تسميني ملكة وتشعل أحلامي، حلمك مصيري. أي. بي. بابـــي".

منحنـــياً فـــوقها، وحيداً، فإن خبير العقل الباطني والعقد النفسية الشاب بدا مـــستعداً لـــنجدتها بإعطائها حبّة مسكن، أو يجعلها تبتلع حامض البربيتوريكو، أو بحقـــنها بإبرة وبمنحها يده ونظرة مؤاساة وقبلة كريمة. من زاوية الغرفة، كان توليو يـــرافق انفعال آباريسيدا باهتمام ولكنه يمتنع عن التدخل، لا لأنه غير مكترث بألم الزوجة، ولكن كونه رجلاً مجرباً وذا مستوى رفيع، فإنه يعرف أنه في ساعة كهذه يكون الطبيب أو العشيق أكثر فائدة وإراحة من الزوج. وأفضل من ذلك إذا كان الطبـــيب والعـــشيق قد ذابا في شخص واحد يرافقها في الرقص، وهو كناية عن نمـــوذج متطفل وغير قادر على المقاومة. وفي موضوعات حساسة كهذه فإن توليو بوكاتلي كامل الرهافة وحسن التصرف.

مــع ذلــك، فإن عيني آباريسيدا المبللتين عندما ارتفعتا طلباً للنجدة وطلب الإمــساك بأحد لم تفتشا عن العشيق بل عن الزوج. إذا كان في العائلة من يقدر علــى قيادة دفّة السفينة وتحمل مسؤولية القيادة وتأمين استمرار الاحتفالات، فإنه ابــن بــواب قــصر الكــونت فاسيني في روما، توليو بوكاتلي، الوحيد. فابتسم لآباريسيدا، لأن رباطاً قوياً يجمعهما وهو المصلحة القوية بقدر قوة الحب.

مجمــوعة صاخبة تتجادل في غرفة الطعام مع الكاهن. وارتفع صوت نسائي منازعاً:

– لا أدخــل ما لم تخرج تلك المرأة من الغرفة. إن حضورها قربه هو صدمة للمسكينة إيريس ولنا كلنا.

– "هــدوءاً يــا ماريــنا، لا تثوري..." صوت رجل مهدئ يكاد لا يكون معروفاً سابقاً.

– ادخــل أنت إذا أردت لأنك معتاد أن تعيش مع العاهرات، أما أنا فلا. يا أبانا أخرج تلك المرأة من هناك.

إنها زوجة كريستوفاو بالتأكيد. الزوج عربيد، وهي مارينا لاعبة الورق، من تــضطهد الآن فتاة الهوى وأولاد الزوج الطبيعيين، مستعملة ورق اللعب لأعمال الــسحر القاتلــة، وكذلك الكتابة السحرية لكي ينتهي الجميع بكارثة، وكذلك لاجئة إلى الهاتف لتصب البصاق والشتائم، هي تعيش من أجل هذا، وتريزا بالنسبة إليها امرأة صغيرة جاء بها من زاوية الشارع..

وقفــت تريــزا، بــوجه حجر مصقول، فوق السرير: "إلى اللقاء العاجل يا إميلــيانو". لمست رموشه بأصابعها، وأقفلت عينيه، ومرّت بين الأهل خارجة من الغــرفة. رفعت آبا هامتها لتراها، لترى عشيقة الأب التي حكي عنها الكثير، عضّ توليو شفته السفلى، مشتهياً: إنها أكلة طيبة.

الآن، أجــل، ففــي الفــراش جسد الميت ليس إلا، إنها جثة الأستاذ إميليانو غــويدس، ســيد كاجازيــراس السابق، وقد أغمضت عيناه إلى الأبد. "أي. بي. بابــي"، وتلوّت آباريسيدا.

وتنفّس توليو بوكاتلي عميقاً، توليو الإيطالي ابن بواب قصر الكونت فاسيني زعيم كاجازيراس الجديد.

33

- كل هذا من أجل أي شيء يا تريزا؟

متموجاً خجلاً، مهتزاً غضباً، ذا وجد لا يوصف ملتفاً بالمرارة، فإن صوت الأستاذ تحوّل مع كل ذلك إلى تذمر من سوء الطالع وإلى نكد. نكد؟ لا يا تريزا. إنه لسيل العبارات اللبقة، وقسم يمين الحب، والمثالية! إلى هنا وصلا معاً، ولكن فقط، بعد اجتياز طريق صحراوي شاق وعبر رمال الكراهية والمرارة. مسيرة شاقة، وبالنسبة إلى تريزا هي امتحان صعب، في نعومة أيار، بين روائح الياسمين وشجر البينانجيرا، في ليل أشتانسيا، تصارع الموت والحياة ليمتلك أحدهما قلب العجوز الفارس، بينما تريزا تنزف قربه؛ هناك، وصلا إلى حدائق المثالية ولكن في وقت متأخر.

في البداية لم يكن هناك غير الغضب والحزن، والقلب المفتوح عارياً تشققه الجروح:

- هل تعرفين كيف أحس بنفسي؟ كأني مكسو بالطين، وقذر.

قذر من كان نظيفاً كالفجر، حتى في ممارسة العنف والتأديب. كان مرعباً الإصغاء إليه، وهمسه وهو يتحدث عن العائلة، دقيقاً في تحليل الأشياء، نيئ التعبير، متأسفاً، لا يرحم، قال:

- لقد نزعتهم من قلبي يا تريزا.

هل يكون صحيحاً؟ هل يستطيع أحد أن يفعل ذلك ويظل حياً؟ أليس أمراً قاتلاً عندما ينزع أحدهم قلبه من صدره؟

- وحتى مع ذلك لم أكف عن النضال وعن الصراع من أجلهم، أنا أبدو السيد ولكني في الحقيقة عبد، حتى قلبي يظل يخفق من أجلهم، وإن فارغاً... حتى ضد إرادتي. هل هو فقط واجب الزعيم أو حب الأب والأخ المقاوم لخيبة الأمل، والاشمئزاز، وهو ينازع البقاء، إلى أين، يا إميليانو؟ يلعب الكبرياء دوره في عذابك الأليم ووحدتك القاتلة؟ البرد والحمى يعصفان في جسد تريزا في اجتياز سلسلة السقوط وعدم وجود العزاء.

كان عمل الإخوة الوحيد، باستثناء إنفاق المال، شغل مراكز إدارية في الشركات، والمصرف الإقليمي، وكانوا باستمرار نواب رؤساء مجالس لا فائدة منهم، ولم يكونوا سيئين وحسب بل عاجزين بالقدر نفسه.

الأخ ميلتون في المصنع يظن نفسه سيداً إقطاعياً كاملاً، لا عمل له غير الفتيات، مهملاً العمل لا ليختارهن جميلات، فأية واحدة كانت تفي بالغرض، وكلهن برسم الحمل منه. أما زوجته إيريني، فكانت ضخمة الجثة تعيش على الشوكولاته والصلاة، وقد ولد لها ابن فقررت الأم أن تكون مهنته كهنوتية؛ ففي عائلة غويلس كان هناك دائماً شاب مكرس لخدمة الله، وكان الأخير في ذلك هو العم جوزي كاريلوس الشهير بضلوعه في اللغة اللاتينية، وقد مات في التسعين في أنقى مراحل القداسة، وسمكة القرش الضخمة إيريني زوجة ميلتون أوجدت كاهن المستقبل في رحمها بعيداً عن الوضاعة والأولاد والخطيئة.

- "ولكنه لم يصلح لأن يكون كاهناً بل كان منحرفاً جنسياً. وكان عليَّ أن أرسله إلى الريو قبل أن يأخذه المسكين ميلتون بالجرم المشهود. ومن دفع الثمن كان أنا يا تريزا" وارتجف صوته غضباً: "لقد رأيت بعيني أحد آل غويلس يرضى أن يكون مطيّة ويقوم مقام امرأة. أضعت عقلي عندها و لم أقتل الشقي ضرباً بالباستون لأن إيريس وإيريني ساعدتاه بالصراخ وأخذتاه بعيداً. ما زالت يدي تؤلمني حتى اليوم وأحس بالتقزز عندما أتذكر.

إن بنات أخي ميلتون الطبيعيات مرميات في السهول، والكثيرات منهن يمارسن الدعارة في كياداغوا وكاجازيراس الشمالية، والمنطقة العامة! أما أبناؤه فهم في الحقول يزرعون ويقطفون قصب السكر ويشربون الكاشاسا دون أب معلن؛ وأما أولاد كريستوفاو، فيعرفون أباهم ويطلبون منه البركة، ويتقاضون مرتبات الحد الأدنى في المصرف الرئيسي وفي الفروع الأخرى، ويعملون حجاباً وبوابين أو عاملي مصاعد، بالمقابل فإن ولديه الشرعيين يتقاضيان رواتب مرتفعة فهما متخصصان في القانون، وأحدهما مساعد قضائي في شركة إكزومبورتكس والآخر في الأنترشتادول، وواحد عازب والآخر متزوج وكلاهما لا ينفعان لغير الحياة العذبة.

- في مرة من المرات يا تريزا أجبرت صحفياً في وسط الشارع على ابتلاع مقال مكتوب ضدي وضد عائلتي. ابتلعه على الناشف وهو يبكي ويتوسل؛ ابتلعه كله وكان مقالاً طويلاً وحقيقياً.

"شيء مؤسف"، وألقت تريزا بنفسها على صدر العشيق المتألم، وغزت أشتانسيا رياح موسمية وأطفأت غيمة سوداء ضوء القمر.

34

اختفـــى ظهـــر تريزا، باتجاه غرفة الاستراحة فاندفعت مارينا إلى داخل غرفة الميت مع زوجها.

- "إميلـــيانو، ســـلفي، أي شقاء هو هذا" ركعت على ركبتيها أمام فراش الميت، بصراخ امرأة محترفة الطحن والتليين، بنبرة متهدجة، تلطم صدرها.

- آخ يا إميليانو، يا سلفي!

كريـــستوفاو يتأمل أخاه، لم يصح بعد من الصّدمة، ويكاد لا يعترف بالموت الموجـــود أمامه. لكثرة الشرب والسكر لم يبق له غير صوت متقطّع: بدا متماسكاً بخوف! دون إميليانو يحس بنفسه يتيماً، فبعد موت الأب، وهو صغير، كان مرتبطاً بأخيه.

كـــيف ســـتكون الأمور الآن؟ فمن يأخذ المكان الشاغر ويتحمل مسؤولية القـــيادة؟ ميلتون؟ إن ميلتون لا طاقة له ولا خبرة لديه بمهمة كبيرة كهذه، ولو أن الأمر كان متوقفاً فقط على المصنع لكان الأمر ممكناً، ولكن في الأعمال المصرفية، والـــشركات والاستيراد والتصدير، وفي النقل وسفن الشحن، فإن ميلتون لا يفقه شيئاً، لا هو ولا كريستوفاو، وليس جايرو أكثر منهما معرفة، فهذا لا يعرف غير الجياد، وإذا وضعت ثروة آل غويدس بين يديه، فإنها لن تمكث طويلاً مهما كانت! جايرو، أبداً، ومن يعرف جيداً بهذه الأمور سواه؟

- "آخ آخ يا سلفي ذي الحظّ العاثر" لقد قامت مارينا بواجبها كنسيبة قريبة فصراخها ينطلق مؤلماً.

مرَّ توليو من أمام كريستوفاو خارجاً من الغرفة. وبقيت آبا عند قدمي أبيها، ورأسها متكئ فوق الفراش يأخذها النعاس لأنها كانت قد شربت بإفراط.

35

من إقطاعي في منطقة الداخل، جعل إميليانو غويدس من نفسه حامل مسدس متحضراً، وما كان فضيلة زراعية انحدر إلى رذيلة في عالم الإسفلت، وانتهت عظمة آل غـــويدس في كاجازيـــراس إلى لا شيء! هكذا كتبت جريدة هارولدو بيرا في مقالها الهجومي، وقد أعاد الأستاذ التأمل في الكلمة الخبيثة عدة مرات.

– ربما لم يكن عليَّ أن آتي إلى المدينة، ولكن عندما أنجبت الأولاد تولد لديَّ طموح في أن أجمع لهما مالاً أكثر وأن أزيد من غنى العائلة، فمن أجلهم كل شيء كان قليلاً.

كان إميليانو قد تزوج مرة أخرى، وهو رجل ناضج وقد اختار خطيبته هذه المرة من عائلة مهمة ذات أراض واسعة. إنها وريثة غنية، فأضافت إيريس ملكيات جديدة إلى ملكية الأستاذ وأعطته ولدين: جايرو وآباريسيدا.

جهد الأستاذ في أن يقيم مع زوجته علاقات حنان وصداقة إذ لم يكن بينهما حب، فلم يتمكن، فاكتفى عندئذ بأن يزودها بأسباب الراحة والرفاهية، ولم تكن تطلب أكثر من ذلك، وقد بادلت الأستاذ القليل ولم تعطه غير الأولاد... وأن تبقى شريفة فإن المسألة لا تكلفها أي جهد أو تضحية، لأن ملذات الفراش لم تكن تعني لها شيئاً، ولا يتذكر إميليانو المرة الأخيرة التي ضمّها بين ذراعيه، وكانت جامدة بلا روح. حملت وولدت وهذا كل شيء. باردة، غير مبالية، في الحقيقة لم تهتم إيريس بشيء كائناً ما كان. حتى إنها لم تهتم بولديها اللذين تحمل إميليانو مسؤولية مراقبتهما: "سأجعل منهما قائداً وملكة".

الأولاد: آه نبع مستمر من الأفراح، دغدغة أحلام، ومن أجل الأولاد عاش الأستاذ وناضل.

– من أجلهما أمرت بالقتل وقتلت نفسي يا تريزا.

خيبة أمل عظيمة! تخرج جايرو من كلية الحقوق، مثل أبناء عمه، ولم يكتف بتبديل النساء في باهيا، وبحجة إكمال برنامج قانون في السوربون، فقد أبحر إلى باريس ولم تطأ رجلاه أبداً أرض الجامعة، ولكنه تعرف تعرفاً عميقاً على ميادين السباق وكل كازينوهات القمار في أوروبا، وورث الولع بالقمار؟ وفي النهاية تعب إميليانو من ذلك التبذير للمال سدى وجعله يعود؛ ومع تعدد الاختيارات فقد اختار جايرو إدارة المصرف العامة في ساوباولو؛ وبعد سنة تمّ اكتشاف عملية الاختلاس وهي كناية عن عدة ملايين بددها على الجياد وغواني السباق، والباكارا والروليت. شيكات دون رصيد تمّ تجميدها في مصارف أخرى: عمليّة لاأخلاقيّة محض. وتمت السيطرة على الفضيحة ولكن لم يستطع أحد أن يمنع النبأ من التسرب، ولم لم يكن المصرف قوياً وكذلك مستوى التغطية لفقد امتيازه، ولفقد الأستاذ تلك القلعة من الحياة والحماسة.

– لا أعــرف أن أقول لك يا تريزا ما أحسست به: مستحيل... وتقهقر إلى المــصنع ثم أخــذ جايــرو يقــضي يومه في العبث عندما لا يجد في الوصول إلى كاجازيراس وراء شجارات الديوك الهراتية.

– ماذا أفعل به، تريزا، قولي؟

وأســوأ من الجميع آباريسيدا المفضلة، تزوجت في الريو خفية عن العائلة ثم أعلمــت أبويها بالاحتفال ببرقية طلبت فيها المال لشهر عسل في نيكاراغوا. زواج مليــونيرة باهيائــية وكونت إيطالي، أشارت الأعمدة الاجتماعية في الصحف إلى الــزواج، حــتى الــباردة إيريس اشمأزت من الدم الأزرق الآتي من شبه الجزيرة الإيطالية.

وعمــل إميليانو لمعرفة من كان ومن أين أتى الصهر غير المنتظر، ولمعرفة أصل ذلــك الذي يفترض أن يكون نبيلاً إيطالياً. لقد ولد توليو بوكاتلي فعلاً في قصر كونت حيث كان والده يعمل بواباً وسائقاً. وكان ما يزال صغيراً عندما تخلى عن مجمــع السكن المليء بالرطوبة وانطلق ساعياً وراء ثروة سهلة، ومرَّ بأوقات عصيبة ودخل السجن، وكان عنده ثلاث فتيات أرصفة يمارسن الرذيلة ليكسونه ويطعمنه عــندما أكمل الثامنة عشرة من عمره، وعمل بواب ملهى، وأسد مزرعة صغيرة، ودليلاً سياحياً للعروض السينمائية الجنسية التي تعرض السحاقيات واللوطيين، ولمع بصفة جيغولو مع العجائز الأميركيات الشماليات. وكان يعيش حياة سهلة ولكنه لم يكــن يــشعر بنفسه سعيداً، إنه يريد غنى حقيقياً وثابتاً وليس فقط بعض المال الــذي هو دائماً قليل وغير أكيد. في الثامنة والعشرين من عمره جاء إلى البرازيل يقــدم رجــلاً ويؤخر أخرى إثر ابن عم لــه من أفراد عائلة ستورونى الذي قام بالانقلاب الرائد متزوجاً من فتاة غنية من الساوباولو، ومن هناك، ولكي يثير غيرة الأهل الفقراء، كان ابن العم يرسل صوراً لمزرعة القهوة والجياد الأصيلة والجوائز في المديــنة مع قصاصات من الصحف تحمل أنباء ولائم العشاء والاحتفالات. هذه، بالــضبط، أحــلام توليو والثروة الأمينة والحقيقية: مزرعة، قطعان ماشية، بيوت، وحــساب مصرفي. وترجل إلى اليابسة من الدرجة الثالثة في سفينة رست في مرفأ السنتوس ومعه بدلتان وختم ولقب كونت. وبعد ستة أشهر من الإقامة في البرازيل قدمــته زوجــة ابــن العم إلى آباريسيدا غويلس في إحدى الحفلات في الريو دي

جانيرو، الحب، والخطوبة، والزواج تعاقبت كلها بسرعة فائقة، لقد كان الأوان قد آن لأن ستوروني لم يكن مستعداً لأن يأوي متشرداً، وإن يكن مواطناً وابن عم.

منذ عودته من الولايات المتحدة، ولدى وصوله إلى باهيا للتعرف على عائلة الزوجة فتح توليو يد الدم الأزرق، وتخلى عن لقب كونت لأن كل روماني نبيل كما هو معروف؛ وخانته الشجاعة لأن عيني إميليانو سببتا له خرساً بارداً، وقدّم نفسه شاباً متواضعاً فقيراً، ولكن مستعداً للعمل بنشاط بانتظار فرصة مناسبة.

– كنت قد قررت إرسال من يقتله في المصنع، ولكني إذ رأيت ابنتي سعيدة وتذكرت إيزادورا المسكينة والمستقيمة، قررت أن أعطيه الفرصة وقلت لألفريدو بأن يعيد سلاحه إلى غمده، لأن العمل قد تمّ تأجيله إلى حين يتصرف بصورة سيئة مع آبا فيجعل ابنتي متألمة.

وكانت هي من بدأ بالتصرف السيئ، وراحت تركب له القرون كيفما اتفق، وهو، معتزاً بنفسه، دفع لها بالعملة نفسها، وأخذ كل واحد يتصرف كما يروق له. ولكنهما، وهذا أمر غريب، صديقان، فرحان، متحدان، يعيشان بانسجام لا نهاية له. وبقدر ما يجهد في معرفة السر فإن إميليانو لا يستطيع أن يفهم:

– تيس غنم للتناسل وقرنان كبيران.

الصهر ذو قرنين، وماذا عن الابنة؟ آبا، الابنة الوحيدة، المفضلة. "إني سأجعل من جايرو قائداً ومن آباريسيدا ملكة"؛ ولكن القائد أصبح كلباً والملكة غدت عاهرة، انحطت إلى درجة الوقوع في يد هذا الشخص المنحط، اللامناقبي، المجرد من أي أصل، هل يرسل من يقتله؟ لماذا، ما دامت الابنة لا تستحق زوجاً أفضل، وما داما يعيشان مسرورين الواحد مع الآخر؟

إن ما يجمعهما هما الولدان الصغيران، والمصالح المالية والتقنع.

أكثر من ذلك، إذا قتله، فمن يبقى لقيادة السفينة عندما يموت الأستاذ؟ إنّه ليس أبله، إنه عليم بالأعمال، وقادر على أن يديرها، ومن المؤسف أن يكون عفناً وقد لوّث آباريسيدا بعفونته! لوّث آباريسيدا! ألم تكن هي تحمل في دمها العفونة؟

– الويل لي يا تريزا مما انحدر إليه آل غويدس الكاجازيراس.

في صوته المنكسر اشمئزاز تحول إلى غضب، إلى نصل سكين بارد في العينين يعكس التعب ولا شيء آخر. لن يبقى غداً من آل غويدس حتى الاسم، غداً سيصبح اسمهم البوكاتلي.

- إن دمي يا تريزا دم فاسد، ملوّث.

36

في غرفة الطعام كانت نينا تقدّم القهوة الساخنة وأذنها مصغية. لقد رأت في صوت توليو وحركاته سيداً كبيراً وشاباً جميلاً، إنه زوج ابنة الأستاذ! وبينما تمر كانت تستجليه وعيناها منخفضتان.

وبينما يقوده الطبيب، طاف توليو كل أرجاء البيت يزن المحتويات، ولم يعد ينقص غير الاطلاع على غرفة الاستقبال وغُرفة الاستراحة القديمة ليكمل الجرد.

- هل هذا البيت ملك أم إيجار؟

- "البيت؟ ملك. لقد اشتراه الأستاذ مع الأثاث وأكثر المحتويات الموجودة فيه" واستسلم الدكتور إماريليو للذكريات: "كان يصل دائماً والسيارة مليئة، مليئة بكل شيء. هذا البيت كان سيكون بسعر أصغر ما فيه تلك الخزانة، هل تراها؟ لقد اكتشفتها مهملة على بعد ثلاثة فراسخ من هنا في موقع أحد المرضى وتحدثت إلى الأستاذ إميليانو، فأراد أن يذهب ليراها في الساعة نفسها وذهبنا في اليوم التالي على الحصان؛ إن صاحبها فقير يائس، ولم يرد أن يعطي ثمناً لأنّه عدّها شيئاً قديماً مهملاً في زاوية بعيدة. ومن وضع الثمن كان الأستاذ فدفع سعراً مرتفعاً.

ومهما يكن السعر الذي دفع مرتفعاً فهو بالتأكيد يبقى بخساً، لأن سعر الخزانة ثروة في أي معرض تحف قديمة في الجنوب. لاحظ توليو اهتمام عمّه الميت في كل تفصيل من التفاصيل، لا بريق قصر باهيا ولا الدار الكبيرة التابعة للمصنع تحتفظ بطابع إميليانو غويدس المتميز كما في هذا البيت الذي يطوف فيه متفقداً، إذ لا شيء فيه نافر أو في غير محله، إنه ليس منزلاً مريحاً ومقدراً فحسب، بل هو أكثر من ذلك، عش راق وملجأ سحري! سمع توليو الكثير من الكلام عنه عندما كان صغيراً. هكذا كان بيت أحد عمومته في فلورنسا: شخصياً وحميمياً.

- كم من الوقت دامت هذه العلاقة، هل يعرف السيد؟

فكّر الدكتور إماريليو وحسب:

- أكثر من ستة أعوام.

فقط في آخر حياته استأثر العجوز الأكبر بعش غرام كهذا اعتبره بيته الحقيقي ومــن يدري، ربما اعتبرها امرأته الحقيقية. لم يحس توليو أبداً بضرورة توفير مسكن شخــصي، مع هدوء، وطمأنينة وسلام متوفرة هناك حتى في الموت، أما فيما يتعلق بامرأته فهو راضٍ دائماً عن آبا ذات الغنى والأمان والرفقة الفرحة؛ إنها تعيش وتدع الآخرين يعيشون؛ إنها القسم الآخر من توليو بوكاتلي. وفقط، من الآن وصاعداً، يقتضي أن يراقب النفقات. كان أخوها الأكبر قادراً أن يكون مبذراً فقد ولد غنياً وكــان جــدوده قد ملكوا أراضي وعبيداً و لم يتذوق قط طعم البؤس. لكن توليو جــاع يوماً وهو يعرف قيمة المال الحقيقية وهو سيمسك بالنقاط الحساسة بيد من حديد..

- ووثيقة الملكية باسم من؟ باسمه؟ باسمها؟

- باسم الأستاذ. لقد وقعت شاهداً. أنا، والمعلم جوان..

- بيت جميل. لا بد أنه يساوي مالاً كثيراً.

- هنا في أشتانسيا العقارات بخسة الثمن.

لــو كانــت قائمة في ضواحي أراكاجو لكانت مكاناً رائعاً للقاءات الحب. ولكــن في أشتانسيا، لا فائدة منها؛ من الأفضل بيع الدار أو تأجيرها.. ولا بد من أخذ الأثاث إلى باهيا. يفكر توليو باستعماله في بيته هو، في العاصمة، فبالنسبة إليه انتهت أراكاجو.

قدّم له الدكتور إماريليو شهادة الوفاة. فاحتفظ بها توليو في جيبه:

- هل مات نائماً؟

- نائماً؟ يعني... في الفراش ولكن ليس بالتحديد وهو نائم...

- ماذا كان يفعل إذاً؟

- ما يفعله رجل وامرأة في الفراش...

- وهو يفعل؟ مات فوقها؟ يا للحدث!!

إنــه مــوت العادلين، ولكن وبالمقابل بالنسبة إلى امرأة، فهو الكارثة، عندما كنت قواداً يا توليو عرفت حادثة كهذه فجنت المرأة و لم تعد أبداً كما كانت.

- المسكينة... ما هو اسمها الكامل؟ تريزا أي شيء؟

- تريزا باتيستا.

- هل يعقل أنها تفكر في البقاء هنا؟

- لا أظن. قالت إنها ذاهبة في الحال من أشتانسيا.

- هل يعتقد السيد أن أسبوعين أو ثلاثة كافية حتى تغادر البيت؟

طبيعـــي أن العائلة تريد أن تبيع أو تؤجر البيت حتى ينسى الناس بالتالي هذا الموضوع.

- أظن أنه الوقت الكافي. أستطيع أن أتكلم معها.

- أنا نفسي سأتكلم...

وقفـــا واتجهـــا إلى غرفة الاستقبال التي كان قد حوّلها الأستاذ إلى مقر عمل ينفـــتح على غرفة الاستراحة القديمة حيث الكتب وأغراض تريزا وحيث هي الآن تجهز حقيبتها. ألقى توليو عينيه على الصبية وراح يتفحصها من جديد معجباً، إنها أنثى رائعة، فمن الذي سيرثها عن العجوز الأكبر؟ واقترب منها:

- اسمعـــي يا جميلة. نحن في الأيام الأولى من أيار، وتستطيعين أن تستمري في السكن في البيت حتى نهاية الشهر.

- لا أحتاج.

انطفـــاء في العينين السوداوين العدائيتين بقدر ما في عيني الأستاذ الزرقاوين. وفقد توليو شيئاً من ثقته المعتادة، ولكنه ما لبث أن جمع قواه، فهذه لا تستطيع أن ترسل من يقتله في أراضي المصنع. والآن من يستطيع أن يفعل، أن يحل ويربط، فهو نفسه توليو بوكاتلي.

- هل أستطيع أن أفيدك بشيء؟

- بلا شيء...

ومـــن جديد يقيسها من أعلى إلى أسفل ويبتسم لها، نظرة وابتسامة مليئتان بالمعاني المضمرة:

- مـــع كل هذا، مري بالمصرف في أراكاجو، فسنتحدث عن حياتك، ولن تـــضيعي وقـــتك... وقبل أن ينهي عبارته أقفلت باب الغرفة في وجهه. وضحك توليو.

رفـع الطبيب يديه بحركة غير دقيقة، فلا شيء من كل هذا يعجبه، إنها ليلة سـيئة، وعبء، يرتاح من كل هذا بعد انطلاق سيارة الإسعاف بالجثة، وفي البيت زوجـته الـسيدة فـيفا تنتظره مغالبة النعاس حتى يخبرها بالباقي، ورافق الدكتور إماريلـيو توليو إلى الحديقة متعباً حيث ينام طبيب الأمراض النفسية أولافو بيتنكور في الأرجوحة.

في غـرفة الطعام وهي مبدية التعجب ومتعطشة، أصغت مارينا إلى وشوشة الخادمة نينا التي فصلت قائلة:

– إن الـشرشف ملطـخ كله... إذا رغبت السيدة أن ترى فإني أستطيع أن أريها إياه فقد احتفظت به لما بعد...

وبينما راحت الخادمة لتأتي بالشرشف، ركضت مارينا إلى باب الغرفة ونادت على زوجها:

– كريستوفاو، تعال إلى هنا، بسرعة.

الـشرشف مفروش فوق الطاولة والخادمة تشير إلى اللطخات فلمسته مارينا بظفرها:

– يا للقذرة!!

ووصل كريستوفاو والكاهن فينيسيوس إلى الغرفة.

– أي شرشـف هذا؟ الكاهن لا يحتاج إلى جواب ليعلم، فالشرشف لا يمكن أن يكون غيره، وبالتأكيد... وقد أحس بالحرج قال:

– "نينا، خذي هذا الشرشف من هنا في الحال فوراً"، وتوجّه إلى السيدة مارينا:

– من فضلك سيدة مارينا.

وقـد استرعت الأصوات انتباههما، فقد انضم توليو والدكتور إماريليو إلى المجموعة.

– ماذا يحدث؟ أراد الإيطالي أن يعرف.

ارتعشت مارينا وهي في مناخها النفسي المعتاد:

– هـل كـنت تعلم أنه مات فوقها؟ إنها إباحية مخيفة... هل رأيت المرأة في الغـرفة؟ ما الذي يجب أن تفعله لكي يسكت هؤلاء الناس وحتى لا يعرف أحد؟ فإذا شاع النبأ فسيكون مدعاة للسخرية: إميليانو غويدس يموت في ساعة..

- "إذا استمرت السيدة بالصراخ بهذه الصورة الهستيرية فستعرف المدينة كلها في الحـــال ومن فمها هي"، ثم توجّه توليو بالحديث إلى كريستوفاو: "عزيزي، خذ زوجتك من هنا وضعها قرب آبا الوحيدة في الغرفة".

إنها أوامر، الأوامر الأولى التي أعطاها توليو بوكاتلي.

- "تعالي يا مارينا" قال كريستوفاو.

وشرح توليو للكاهن والطبيب:

- سنضعه في سيارة الإسعاف كما لو كان مريضاً وحسب، بحجة أنه التهاب أو انهـــيار، كمـــا تريد يا دكتور إماريليو. إنه لم يمت فوق أحد، فرجل في مركزه يجب أن يموت بصورة مشرّفة على طريق المستشفى آتياً من المصنع...

سمعـــت في البعيد صفارة الطوارئ توقظ الناس وفضول أشتانسيا، ولن تتأخر سيارة الإسعاف في الوقوف أمام الشاليه، وترجل الممرضون ومعهم حمالة جلدية:

- الأفضل يا دكتور إماريليو أن تأتي في سيارة الإسعاف حتى أراكاجو لأجل المظاهر.

لـــن تنتهـــي أبـــداً هذه الدوامة! ولكن الدكتور فكّر في ورقة الحساب التي سيقدمها ووافق. وبينما يمر، قام بقفزة إلى البيت ليهدئ فيفا زوجته الفاقدة الصبر، وأيقظـــت صـــفارة الإسعاف الأطفال والجيران والطبيب النفساني أولافو بيتنكور الذي خرج مسرعاً ليتفقد آبا المهملة وحيدة. كيف أخذه النوم بحق الشيطان، جاء ليدخن سيجارة فغفا في الأرجوحة، فهل ستغفر له؟ وبينما يركض التقى بتريزا في غرفة الطعام.

دخلت تريزا الغرفة وبدت كأنها لا ترى الأهل والمعزين. ومشت قرب فراش الميت وبقيت برهة صامتة وهي تحدق في وجه الحبيب.

- "خذوا هذه اللعينة من هنا..." صرخت مارينا.

- "فينيسلا بوركا مادونا! أقفلي فمك!" صرخ توليو منفجراً.

كـــأن تريزا لم تسمع، وكأنها كانت وحيدة هناك، فانحنت فوق جثة الأستاذ ولمـــست وجهـــه وشـــاربه وشفتيه وشعره. "إنها ساعة الذهاب يا إميليانو، إنهم ســـيأخذون فقـــط جثتك ولكنك ستذهب معي أنا". وقبّلت عينيه وابتسمت له، وأمسكت العشيق من كتفيه، الحبيب، الصديق، حبيبها، وخرجت. وعلى الحمالة

الجلدية وضع الممرضون جثة الصناعي، مدير عام المصرف، رجل الأعمال، صاحب الفراسخ والفراسخ من الأراضي، المواطن الأول لكي يموت ميتة مشرفة في سيارة الإسعاف على طريق المستشفى بسبب التهاب أو انهيار كامل، أو كما يفضل الدكتور إماريليو.

37

– دم فاسد هو دمي يا تريزا. دم ملوّث هو دمي ودم عائلتي.

ساعتان أو أكثر قليلاً، كأنهما أبدية من الأسف. روى خلالها إميليانو وعلّق تعليقات قاسية بكلمات خام دون أن يختارها كعادته. لم تتخيل تريزا أنها ستسمع من فم الأستاذ وصفاً يتناول أموراً إلى هذا الحد، وأن تسمع مثل هذه العبارات فيما يتعلق بالإخوة والابن والابنة. في بيت الهوى، لم يكن يتكلم أبداً عن العائلة، إن تكن قد أفلتت منه في هذا الصدد أية إشارة خلال هذه السنوات الست إلى أمر عائلي فللإطراء عليها والرفع من شأنها. لقد أراها مرة صورة لابنته آبا تبدو فيها صبية ذات عينين زرقاوين كعيني أبيها وفم شهواني جميل. "إنها كاملة" قالت تريزا واستطرد هو: "إنها كنزي". وفي ليل ذلك الأحد من أيار أدركت تريزا مدى امتداد الكارثة التي هي أبعد بكثير مما استطاعت أن تتخيله عبر الإيحاءات والكلمات الفالتة والعبارات التي يلقيها الأصدقاء والغرباء عبر صمت إميليانو. لا بد أن محافظته على نفسه فرحاً في التعايش معها ومع الأصدقاء قد كلفته الكثير ليبقى حميماً، حكيماً، ومحتفظاً مع ذلك لنفسه بالتجربة المرة، بل بالفلفل الحارّ الذي يستهلك كيانه، وفجأة نضح الإناء بما فيه.

– دم فاسد، عرق فاسد، جنس بشري منحط.

فقط شخصان من عائلته لم يصدماه، ولم يخونا ثقته ولم ينخدع معهما: تريزا وإيزادورا، وراح يفكر في إيزادورا، الخياطة المسكينة، الزوجة النموذج، الرفيقة التي لا تنسى والتي من أجلها علّق الصناعي الأوامر المعطاة إلى ألفريدو للقضاء على توليو بوكاتلي، لكي لا يقتل الصهر ويعطيه فرصة أخرى.

– إن دم عائلتي يا تريزا دم صالح، ليتني ما زلت شاباً لكي أنجب منك أولاداً حلمت بهم.

وعبر طرقات وعرة ومسالك عميقة وصلا إلى قسم الحب وإلى المثالية الرفيعة. فبعد أن قال لها كل ذلك بمرارة وغضب وتولع، وكما لم يفكر قط بأن يقوله لإنسان، أو شريك أو صديق، فإن الأستاذ أخذها بين ذراعيه وقبل شفتيها وأبدى أسفه:

– تأخرت أكثر من اللزوم، يا تريزا، تأخرت لكي أعرف، تأخرت في إنجاب الأطفال الذين حلمت بهم، ولكني لم أتأخر لكي أعيش، ليس عندي سواك في هذا العالم يا قرص العسل، فكيف استطعت أن أكون ظالماً ووضيعاً إلى ذاك الحد؟

– ظالماً؟ ووضيعاً؟ معي؟ لا تقل هذا، ليست الحقيقة. لقد أعطاني السيد من كل شيء، ومن أنا حتى أستحق أكثر من هذا؟

– عندما كنت أمشي معك منذ قليل في طريق المرفأ، انتبهت فجأة إلى أنني إذا مت اليوم فستبقين بلا شيء لتعيشي، لا بل ستكونين أكثر فقراً مما كنت عندما وصلت إلى هنا لأن حاجاتك الآن أكبر؛ كل ذلك الوقت، وطيلة ست سنوات، لم أفكر أبداً بهذا. لم أفكّر، فكرت فقط في نفسي، وفي المتعة التي تعطينني إياها.

– لا تقل هذا، لا أريد أن أسمع.

– غداً صباحاً سأتصل هاتفياً بلولو طالباً منه المجيء في الحال ليضع هذا البيت باسمك وأن يضيف فقرة إلى وصيتي، فقرة تكفّل لك حياتك بعد موتي. إني عجوز يا تريزا.

– "لا تتكلم هكذا، أرجوك..." وكررت: "رجاء، أتوسل إليك".

– حسناً، لن أتكلم أكثر، ولكنني سأتخذ الاحتياطات اللازمة، فلأصحح على الأقل جزءاً من الظلم: لقد أعطيتني الأمان، والحب، وأنا بالمقابل أبقيتك سجينة هنا، مرتبطة بإراحتي، كأنك شيء، غرض، أو أسيرة، أنا السيد وأنت الخادمة، وأنت حتى اليوم ما زلت تعدينني السيد. لقد كنت سيئاً معك وبقدر ما كان النقيب نفسه. لقد كنت نقيباً من نوع آخر يا تريزا، ولكني مصبوغ، نظيف من الخارج، أما من الداخل فقد كنت الشيء نفسه، إميليانو غويدس وجوستنيانو دوارتي دا روزا متساويان، يا تريزا.

– آه! لا تشبّه نفسك به! ليس من رجلين مختلفين بهذا القدر، لا تسئ إليّ بالإساءة إلى نفسك بهذه الطريقة. لو كنتما متساويين، لماذا كنت سأبقى هنا، لماذا

كان عليَّ أن أبكي من أجل عائلتك ما دمت لا أبكي على نفسي؟ لا تشبّه نفسك بـــه فهذا يسيء إليَّ. لقد كان الأستاذ دائماً صالحاً بالنسبة لي وقد علمني أن أكون امرأة مستقيمة وأن أحب الحياة.

وولد إميليانو من رماده من جديد على صوت تريزا المتولّه.

– لقـــد تعلمت خلال هذه السنوات من أكون، لقد تعرفت على الجانب الجـــيد فيَّ وعلـــى الجانب السيئ الذي أستطيع أن أكون. لقد وضعت يدي في قلبــــي واقتلعته ولكن قلبـــي لم يبقَ فارغاً و لم أمت، لأنني أملكك، أنت ولا أحد آخر.

وبخجـــل مـــراهق طارئ، ومع حزن ملح، بدا الأستاذ مخلوقاً لا حماية عنده، متناقضاً مع السيد المتعود على الأمر والنهي، المستقيم، الحازم الوقح والصلف عندما يقتضي الأمر. بينما صوته يرتجف ويكاد يختنق.

– أمـــس، في الكرمس، بدأت حياتنا الحقيقية، يا تريزا. الآن فإن الوقت الكامـــل هو لنا والعالم كله ملكنا، لن أتركك وحيدة بعد اليوم، وسنكون من الآن وصـــاعداً معـــاً، هنا وحيثما كنت، ستسافرين معي، لقد انتهى الخيال يا تريزا.

وقـــبل أن يقـــف كشجرة باسقة ويأخذها بين ذراعيه منهياً الحديث المروع ومحادثة الحب الناعمة، قال إميليانو غويدس:

– ليـــتني كنت عازباً لأتزوجك. لا لأن الزواج يبدل شيئاً مما تعنين لي. إنك امرأتي.

وعندما انتهت القبلة، تمتمت:

– آه. إميليانو، حبيبـــي.

– لن تناديني أبداً بالأستاذ. وحيثما كنا.

– أبداً، أبداً، يا إميليانو.

ســـت ســـنوات مرّت على الليلة التي أخذها فيها من سوق البغاء. فأخذ الأســـتاذ تريزا بين ذراعيه وقادها إلى غرفة الملذات. كانا قد تجاوزا المصاعب الأخـــيرة، وأصـــبحا، إميليانو غويدس وتريزا باتيستا، عجوز من فضة وصبية من نحاس.

38

انطلقـــت سيارة الإسعاف، وظلّ الفضوليون متجمعين أمام الشاليه ينتظرون معلقين، واختلطت نينا بهم وهي تبلع لسانها بعدما أمسكت بالأولاد.

في الغـــرفة، انتهى الكاهن من استعادة المبخرة وقرامي الشموع وألقى نظرة حـــسد أخيرة على المرآة الكبيرة، "آه، من الخليعين! اذهب الآن لتوك". واستأذن الكاهن قبل أن ينصرف:

– ليساعدك الله يا تريزا.

انتهت تريزا من إعداد الحقيبة، وعلى طاولة عمل إميليانو باستون الفضة فوق بعـــض الأوراق. فكـــرت في أن تأخذه معها، ولكن لماذا تحتاج إلى الباستون؟ من الأفـــضل أن تأخـــذ وردة. غطّت رأسها بإزار أسود مطعم بالورود الحمراء، آخر هدايا الأستاذ لها، وقد أتاها به يوم الخميس الماضي.

قطفت من الحديقة الزهرة الأكثر احمراراً وحيوية، كأنها من لحم ودم، أحبت أن تقـــول وداعاً للأطفال وللعجوز إيلينيا ولكن نينا أخفت الأولاد، والطباخة لا تصل قبل السادسة.

الحقيـــبة بيدها اليمنى والوردة باليد اليسرى والشال على الرأس، فتحت تريزا بـــاب المدخل، مرّت عبر الفضوليين كأنها لا تراهم؛ خطوة واثقة، عينان ناشفتان، وتـــوجهت إلى نقطـــة توقـــف سيارات النقل التي تنطلق في الخامسة صباحاً إلى سلفادور من حيث يمر قطار سكة ليستي البرازيلية.

القسم الخامس

تريزا باتيستا ترمي الموت في البحر

1

أهـــلاً وسهلاً. تفضل بالجلوس، وتصرف كما لو كنت في بيتك وأنت في مرتع الإله شانغو، ريثما أكون قد جهزت المائدة وجئت بالأبواق لتراها. إنك تريد فقط أن تـــستوضح أمـــراً بسيطاً لا غير. لقد وصلت إلى هنا مع توصية من صديق عزيز، وإني أضـــع نفسي تحت أوامرك، أجل، تستطيع أن تسأل عن أي شيء في هذا المرتع الإلهي، حـــيث، باســـتثناء الآلهة، لا أعرف سيداً آخر يأمر وينهى غير الصداقة. إنك تريد أن تعـــرف حقيقة القديس الذي يقرر حياة تريزا ويحميها من الشر، الملاك الحارس الذي يكلـــل هامتها. وتقول إنك سمعت، هنا في رواحك ومجيئك إلى باهيا، أموراً غامضة، غـــير مـــتوافقة، ومتضادة. إن هذه البلبلة في الأخبار، طبيعية، وتحدث غالباً، إذ في هذا الـــزمان، كـــل واحد يعرف كل شيء ولا يعترف أحد بالجهل، كما أن الاستنباط لا يكلـــف شيئاً. بالمقابل فإن كلفة حراسة الآلهة هي الحياة برمتها، والويل ثم الويل من أم الآلهـــة إذا تمّ اختـــبارك ولم تستطع أن تفي بالوصية، وأردت أن تخدع النور والظلمة وأوراق الغابـــة وأمـــواج البحر وقوس قزح والسهم الضائع. لا أحد يستطيع أن يضل النافخين في الأبواق، ومن ليس عنده المؤهلات فليأخذ دفة السفينة في ساعة ريح البحر المؤاتية، ومن لم يتلق الأمر مع مفتاح السر وجواب التكهن، فمن الأفضل له ألا يتدخل فـــيما لا يعنيه، فهذه الأشياء ليست ألاعيب، إنها خطر مميت. أشياء أخرى أستطيع أن أخبرك بها في مناسبة أخرى عندما يكون عندك متسع من الوقت والصبر لتسمع.

لكـــي تأخذ الأبواق عن المائدة يكفي أن تكون عندك يد وشجاعة. ولكن، لكي تقرأ ما هو بأيدي النافخين، فمن الضروري أن تعرف عن النور والعتمة، عن

الليل والنهار، عن الولادة والموت وعن الكراهية والحب. لقد حملت اسمي قبل أن أولد وبدأت أتعلم منذ صغري، وعندما ترعرعت وقسا عودي بكيت خوفاً، ولكن الآلهة أعطتني القوة وأضاءت تفكيري. تعلمت من جدتي وخالاتي العجائز، ومن أمي أنينسيا، ألا أحترم في باهيا غير يالوريشا، الراقصة الإلهية في احتفال غنتويس الصغيرة، وأختي ومثيلتي في المعرفة والقدرة، لأنني أعتني بالنافخين في الأبواق، وأجتاز النار فلا تحرقني.

أما فيما هو متعلق بتريزا، فدعني أقل لك إن هناك سبباً للغموض، وحتى لمن يعرف الكثير في هذا الأمر فهناك ارتباك في قراءة الأبواق الموجودة فوق الطاولة. أناس كثيرون مروا من هنا و لم يتفقوا: القدماء حكوا عن يانسان، والحديثون عن يمانجا وسموها أوشالاً، شانغو، وأوشوسي، أليست هي حقيقة؟ وإيوا، وأوشو ماري؟ ولا تنسى أوغون ونانيا وأومولو.

كذلك إن لعبت اللعبة ونظرت في العمق! سأخبرك: لم أرَ قط شيئاً كهذا وقد مضى عليَّ خمسون سنة وأنا في هذا المرتفع أخدم شانغو منذ أكثر من عشرين سنة.

من تقدم شاهراً سيفاً براقاً هي يانسان وهي تصرخ: "إنها شجاعة وجميلة العراك، إنها، ومع أوشوسي جاءت تريزا من الغابة اللامتناهية، من السفح الأجرد، ومن البوار المقفر، ومن القحط والجفاف". حياة حرب منذ البدء وحتى النهاية، ليساعدها في العراك البشع والدموي، ما عدا يانسان الأولى، فإن شانغو وأوشو ماري وإيوا ونانيا وأوسين جاؤوا بالأوراق. وبإله المعرفة أوشولوفا، أوشالا العجوز، والدي، انفتح أمامها الطريق الأكيد، حيث عبرت.

ألم يكن أومولو مقيماً في رحم تريزا في مدينة بوكين عندما شاع وباء الجذام الأسود؟ ألم يكن هو من مضغ الطاعون بسن الذهبِ وجعله يهرب؟ ألم يعلنها تريزا أومولو في احتفال الراقصين في موريكابيبا؟ وماذا؟ لقد جاء أومولو موهلاً متشقق الجراح يطالب بحصانه. وانظر إلى أية بلبلة عصفت. لم يكن هناك مخرج غير المناداة على أوشوم لكي تمنح الهداية للسادة المهتمين. لقد وصلت بقلائد الدلال والملابس الصفراء تشع بأنوار الذهب، وفي سجود الآلهة عند أقدامها عشقاً، إناثاً وذكوراً، ابتداء من أوشوسي وشانغو زوجيها، وعند قدمي أوشوم، وحول

روعـــتها، فإن تريزا أخذت من أوشوم سطوة الحب ونكهة العسل، وحب الحياة ولون النحاس. لقد كان بريق العنينين السوداوين مع ذلك بريق عيني يانسان الذي لم ينتزعه أحد.

وإذ رأيت تريزا باتيستا محاصرة ومهاجمة من كل النواحي، تساندها الآلهة فقد قلـــتُ لهـــا مختصراً اللعبة: حتى في أسوأ أزمة وفي أضنى تعب لا تستسلمي، وثقي بالحياة، واستمري سائرة إلى الأمام.

ومـــع هذا هنالك دائماً لحظة إحباط تام عندما يظن أشجع الناس أنه انتهى، فيقـــرر إلقـــاء السلاح والتخلي عن النضال. وهذا الإحباط حدث معها في مرحلة لاحقـــة، فاسأل هنا، وهناك وستعرف. أكثر من هذا لا أستطيع أن أقول لك لأنني لم أستجل الأمر.

بالنسبة لي، على كل حال، فإن من قاد خطوات تريزا هو إيشو الوحيد. ومن أحـــسن منه يعرف الدروب والشعاب ومن أكثر منه حباً لإحياء الاحتفالات؟ لم ينته العيد، وأبعد من برنامج حفلة الزواج، كان هناك حفلة زواج أخرى في البحر عندما مدّت الآلهة جانايينا لبدها الخضراء للحبيبين.

"بالنظـــر إلى طلب فرجيه هل يعرف السيد أن بطرس كان ساحراً؟ لقد قلتُ كـــل ما أعرف، وأنا جالسة هنا على عرش يالوريشا تساعدني حاشية الأوباس، أنا الـــسيدة الأم إيإناســـو، أم القـــديس إشي دواوبو أفونجاه، المعروف بصليب سان غونسالو دو رتيرو المقدس حيث أوجه الآلهة وأحتوي في صدري بكاء المعذبين".

في حـــياتها دائمـــاً موضوع شائك. فللمرة الثانية تلقت تريزا عرضاً بالزواج ولكـــن المرة الأولى لا تعد، لأن المرشح للزواج كان ثملاً جداً في اللحظة الحاسمة. ظلـــم، ربمـــا، لأن مارسيلو روزاد لم يكن ينقصه الشوق والتفرغ ليقع في الحب، ولكـــن كانت تنقصه الجرأة لمواجهة تريزا وطلب يدها للزواج؛ تناول فوق ما في استـــطاعته من الكاشاسا، وإذ لم يكن معتاداً وقعت الكارثة: ففي اللحظة الحرجة مـــن الاعتراف تقيأ في بيت عزّاب التاميرا، في ماساو، حيث جاءت تريزا لملاقاته عدة مرات، ومن وقت لآخر، وحسب توفر المال. لم تمتنع تريزا ولكنها لم تصدق عـــروض حافظ الوثائق في شركة موس ومينيزيس الكبيرة و لم تكلف نفسها العناء لإظهـــار أسباب جدية في الرفض، واكتفت بأن تأخذ الأمور مأخذ المزاح وانتهى

الأمـــر. ونتـــيجة الصدفة فقد اختفى مارسيلو في ذلك العالم حاملاً معه الذكرى وحب تريزا ولم يستطع أبداً أن ينساها.

وظلـــت تريزا تعمل راقصة سامبا في الملهى، وإذ لم يكن عندها نفقات كبيرة ولم تكن تقامر، وتتخذ عشاقاً، فإنها كانت تمارس بأقل قدر ممكن في بيت العزّاب رغـــم الطلبات الكثيرة والثابتة. وكانت مهنتها تلك قديرة، بسبب تكوينها الرائع وتربيتها الرفيعة وحركاتها المرهفة، ولكنها كانت تظل بعيدة عن كل مصلحة سواء كانـــت جنسية أو عاطفية، وهي غير مبالية بالرجال. وتقلص زبائنها إلى عدد قليل من السادة الأغنياء الذين كانت تختارهم تافيانا صاحبة بيت العزّاب بأصابعها وهم مـــن الـــزبائن القدامى وذوي العملة الصعبة. ولكن لم يستحق أحد منهم أبداً أن تفكـــر فـــيه تريزا. وقد أرادها البعض خاصة بهم، وحدهم، وهم يعرضون أمامها المحفظـــات المالية الكبيرة بعروض مغرية للصداقة. صداقة؟ أبداً!!! لن يتكرر الخطأ المرتكب عندما جرّبت مدير المركز الصحي في بوكين وذهبت تعيش معه.

ومـــنذ أيام أراكاجو البعيدة، لم تعد تحس بالدم يفور في عروقها ولا تريد أن تـــبادل أحـــداً النظرات بعينيها المضيئتين القاتمتين بحرارة عاطفية، لقد كانت فقط تـــسعى إلى الحب. لا، لا، لقد كان الحب يخرق قلبها وخنجراً مسدداً إلى صدرها وشـــوقاً قاســـياً وأملاً منهاراً. إيه جانواريو جيريبا يا بحاراً يمخر الآن عباب المحيط اللامتناهي، أين تسير؟

كـــأن عمرها خمسون جيلاً من العهر قضت نصفها في تسهيل الدعارة، فإن العجوز تافيانا التي تعرف كل شيء عن المهنة والطبيعة الإنسانية، عندما تعرفت إلى تريـــزا، وجدت فيها مصنعاً للمال، ورأتها امرأة من الجمال والإثارة بحيث تستطيع أن تشـــري بيـــتاً للعزّاب وقوادته وأن تجمع فيه ذوي النفوذ والقدرة. وصممت أن تقـــدمها للمسنين على أنّها متزوجة، شريفة، ولكنها فقيرة، وقد جيء بها إلى بيت العـــزّاب لمصيبة في حياتها المؤلمة، وحاجة ملحة ويأس مرير، وقصة محزنة. وكانت تافـــيانا تـــستطيع أن تروي حكايات كثيرة ومتعددة تحفظها في وثائق ذاكرتها وفي مخـــزن لا ينضب، ولكنها حكايات حقيقية وكل حكاية أكثر تأثيراً من سابقتها. ومـــع هذه الخدعة الصغيرة ازداد كرم واهتمام الزبائن الفاضلين، فبالنسبة إليهم لا يمكـــن أن يكون هناك شيء أكثر راحة من حماية امرأة متزوجة، شريفة، ومحتاجة،

ممارســين الملاطفة، ومركبين مع ذلك القرون للزوج، مستجيبين في ذلك لإرضاء الروح والمادة.

ورفــضت تريزا، فهي لا تريد أن تجعل مهنة الدعارة المظلمة تزيد من ألمها. ومع الوقت، أصبحت الاثنتان صديقتين، ولكن تافيانا ظلت تهز برأسها وتستمر في تكرار التشخيص الذي شخّصته آنذاك:

- أجل يا تريزا، فأنت لا طاقة لك على هذا، ولم تولدي لمثل هذه الحياة.

لقد ولدت لتكوني سيدة بيت، وأماً لأولاد. إنك بحاجة إلى أن تتزوجي.

لغــرض ما، من يدري، حبّذت تافيانا معرفة تريزا باتيستا بألميريو داس نيفس المــواطن المحبوب، والمتحدث اللبق وصاحب مخبز في بروثاس. لم يكن غنياً ولكنه كــان في وضع مزدهر وقد ربطته بالقوادة روابط صداقة قديمة. فمنذ خمسة عشر عامــاً تعــرف في بيت العزّاب إلى الصبية ناتاليا الملقبة بناتادي ليتي بسبب بشرتها البيضاء، وتعلقها بالموضة، وحداثتها في المهنة، وهي واحدة من اللواتي ولدن ليكن ربــات بيوت حسب تعبير تافيانا. وإذا كان قد بدأ حياته تاجراً في ذلك الوقت، فــإن ألميريــو كان يناضل ليل نهار ليجعل مخبزه المتواضع يزدهر على وفق طلبات الأحوال الحاضرة. وبعد عدة لقاءات مع ناتاليا عرف منها وبالوصف المحزن كيفية طــرد والــدها لها من البيت عندما علم أن حبيبها افتضّها، بعدها ضمّها الطالب الجامعــي إلى صدره في غرفته البوهيمية، ثم غيّر مكان إقامته، دون أن يترك عنواناً ودون أن يودعها. وأحس ألميريو أنه موله بالصبية الشابة الساحرة وضحية الاعتداء فنــشلها من بيت العزّاب وتزوج منها ولم يكن من زوجة أكثر منها استقامة حتى بــين راهبات الدير. وكان مجداً في العمل ومستقيماً ولكن زوجته لم تمنحه أولاداً. وفي الحقيقة، كان الشيء الوحيد الناقص في الزواج هو الأولاد وما عدا ذلك فكل شيء كان أكيداً. وبعد عدة سنوات تحسنت الأحوال وأصبحت ناتاليا قادرة على أن تتخلى عن العمل كمسؤولة صندوق في المخبز حيث كانت تجد نفسها مغروسة طــيلة الــنهار، وبعدها قررا أن يتبنيا طفلاً يتيم الأب والأم، إذ إن الأم كانت قد توفــيت بعــدما منحت الطفل نور الحياة، وبعد ستة أشهر من ذلك مات الأب، مــساعد الفــران، ضحية مرض وبائي، وتكفل ألميريو وناتاليا الطفل وفي مكتب الأحــوال المدنــية أعطــياهُ اسم أبوين جديدين ولقباً جديداً. وإن تكن السنوات

السابقة قد انقضت بسعادة هادئة، فإن العامين الأخيرين، وبعد ما شبّ الطفل عن الطـوق كانـا أكثـر سعادة وولهاً، ولكن قدراً عائلياً مفاجئاً قضى على السعادة العائلـية بـسبب سيارة شاب ابن زانية من عائلة غنية كانت تسير بسرعة جنونية للوصـول إلى مكـان ما، والشاب كان على عجلة من أمره دون سبب موجب لـذلك، فدهس ناتاليا أمام المخبز وترك ألميريو في اليأس وجعل الطفل للمرة الثانية يتـيم الأم. وبحثاً عن العزاء فإن الأرمل الجديد قد فتّش عن تافيانا، الصديقة القديمة ليجد بعض العزاء فتعرّف على تريزا.

وكانـت تريزا تأتي إلى بيت العزّاب في موعد محدّد سابقاً ملبية طلبات بعض الـزبائن القليلين الذين تختارهم القوادة النشيطة. وعندما تنتهي الجولة كانت تريزا تـصرف القاضي أو المصرفي وتتأخر أحياناً في الصالة لتبقى برفقة تافيانا للتحدث، وفي إحدى المرات تلك قدمت إليها الصديق ألميريو داس نيفس "الشخص الذي له عندي مودة خاصة منذ كان شاباً بينما أنا متقدمة في السن". فكم هو عمر تافيانا إذاً؟ لعل لا عمر لها.

كـان خلاسـياً فاتح اللون، سميناً أنيقاً، يبدو عليه التفاؤل، مرتاحاً في عيشه ومتحدثاً لبقاً مع بعض الجهد في العثور على الكلمات الملائمة، وكان كل شيء في ألميريـو ذاك يوحي بالأمان والطمأنينة. ولكي تقوم بخدمة لتافيانا، فإن تريزا قبلت لقـاء معه وعيّنت لـه موعداً بعد ثلاثة أيام مخصصة له فترة كاملة من بعد الظهر. "اهتمي بصديقي قليلاً يا تريزا، لقد فقد زوجته منذ زمن ليس بالطويل ولم ينـزع ثوب الحداد بعد".

سأحمل الحداد في نفسي إلى الأبد.

طـويل الباع، قريب من النفس فهو بعد الجولة الثانية من المهمة (كان زبائن تريزا التقليديون يتمكنون بعد معاناة طويلة من القيام بالجولة الأولى والوحيدة) فقد بقـي ألميريـو يتحدث ويروي خصائص حياته المتعلقة بناتاليا والولد والمخبز الذي أصـبح ينـتج الحلويات وأصبح أكبر مما كان سابقاً وقادراً على مزاحمة المحتكرين الإسـبان أسـياد السوق. وفي اليوم التالي، قال باعتزاز، إن المخبز سيصبح شركة أفران كبيرة

– وماذا سيكون اسمها؟

– معجنات سيدنا دوبونفين.

جلساً للحظ وتشريفاً للإله أوشالا، فإن ألميريو لا يرتدي إلا الملابس البيضاء ومنذ وقت طويل. وأصبحت تريزا على علم بكل شيء مع مرور الأيام، لأن التاجر أصبح زبوناً دائماً. المرحلة الشعرية الجميلة من علاقتهما استمرت بين بيت العزّاب وعلى طاولات ملهى فلور دي لوتوس. وإذ لم تكن تريزا قادرة على أن تخصص له أكثر من فترة بعد الظهر واحدة في الأسبوع، فقد راح ألميريو يرتاد الملهى في الطابق الأول من أحد مباني شارع دويتجولو حيث كانت تريزا سيدة الإثارة في السامبا البرازيلية. وطبقاً لعقد العمل الشفهي مع صاحب الملهى أليئور بينيرو، كان على تريزا أن تبدأ في العاشرة ليلاً وألا تغادر المكان قبل الثانية صباحاً. كانت تقوم بتقديم عرضها حوالى منتصف الليل بملابس مختارة، مفصلة بأناقة وتبرج على الطريقة الباهيانية. ولكن قبل العرض وبعده كانت تقبل دعوات الرقص والجلوس إلى بعض الطاولات المفرطة في استهلاك الشراب، طالبة لنفسها روح النعناع، أو شاياً داكناً، ولم تكن مهمتها في فلور دي لوتوس تبلغ أبعد من ذلك، وهناك تأنف عن المهنة التقليدية ولا تقبل الخروج مع الزبائن إلى الفنادق القريبة. وكانت تذهب من الملهى مباشرةً إلى الغرفة المؤجرة في عمارة دونافينا صديقتها وعزيزتها المرفهة. الغرفة نظيفة ومتواضعة: "استقبلي الرجال حيثما تريدين ولكن ليس هنا، لأني أرملة شريفة"، نبهتها السيدة فينا العجوز المتقاعدة ذات العينين اللامعتين المتعبتين التي تهوى الإصغاء إلى قصص الراديو وتربية القطط ولديها منها أربع.

بينما الخبازون يخلطون العجين ويسخنون الفرن، كان ألميريو يظهر في ملهى فلور دي لوتوس لرقصة سامبا، أو بلو، أو رومبا، واحتساء كأس من بيرة وإلقاء بيتين من الشعر. وقد رافق تريزا عدة مرات حتى باب بيتها قبل أن يعود إلى المخبز. وكانت الصبية تقدر حق التقدير مرافقته لها وحديثه الهادئ الطيب وأساليبه المستقيمة.

ولم يطلب قط أن يقضي الليل معها محولاً بذلك العلاقات الطيبة من المجاملة إلى علاقة جديّة. أما الفراش فكان فقط فراش المهنة ومرة واحدة في الأسبوع في بيت العزّاب، ولكن أغلب الوقت كانت العلاقة تعايشاً منسجماً وكان هو صديقاً ودوداً.

في الليلة السابقة على يوم طلب الزواج تأخر ألميريو في ملهى فلور دي لوتوس حتى ساعة خروج تريزا وهو يرقص، ويجهز على بعض كؤوس الكوكتيل متحدثاً. وعند باب الملهى دعا تريزا إلى مرافقته حتى بروتاس لتتعرف إلى المخبز الذي يبعد مسافة قصيرة جداً في التاكسي. وقال إنّه خلال نصف ساعة يعيدها إلى البيت. وفي الحال استغربت تريزا الدعوة، ولم تجد سبباً لترفضها إذ كان قد كلمها كثيراً عن الفرن الكبير وعن واجهات الفورميكا، ولم يعد ينقص سوى أن تتعرف على المؤسسة.

وبكبرياء الملاك الواثق من نفسه قال: "لقد بدأت من لا شيء أبيع الخبز متنقلاً من بيت إلى بيت" أطلعها على التأسيسات وعلى قسم الإنتاج والخبازين والمساعدين الذين يخلطون العجين والفرن المشتعل وألواح الخشب العديدة والواجهة والأبواب الأربعة المفتوحة على الشارع حيث يقف الزبائن، وكان المخبز مفتوحاً ومضاء خصيصاً لتريزا.

- ومع كل هذا سيتحول المخبز إلى شركة. آه. لو أن ناتا حبيبتي لم تمت! إن الرجل يشتغل باجتهاد فقط عندما تكون عنده امرأة يبادلها الحب ويعمل من أجلها.

ومدحت تريزا، كما يجب، المعمل والواجهات وتلقت مبتسمة جزءاً من بعض الخبز الأول المصنوع عند الفجر طازجاً. وكانت تهم بالمسير إلى التاكسي ولكن ألميريو طلب منها أن تدخل أولاً، ولدقيقة واحدة، إلى مسكنه المجاور. كان مصبوغاً بالأزرق والأبيض وذا شبابيك خضر ونخلتين في الحديقة تفصحان عن اهتمام المقيمين بهما:

- عندما كانت حيّة كان البيت والحديقة يستحقان النظر إليهما. أما الآن فقد أصبح كل شيء مهملاً.

لم يدعها لرؤية الأغراس المتسلقة في الحديقة، واجتازا الممر الداخلي باتجاه غرفة الطفل. كان الصغير نائماً في مهده وهو يمسك بيده دباً اصطناعياً مكسواً بالوبر والمصاصة واقعة فوق صدره.

- زيكس.. كان اسم الطفل جوزي وينادى بزيكس غنجاً.

- "يا حبّي!" قالت تريزا وهي تمس وجه الطفل بيدها وتلاعب شعره المجعد.

تأخرت في تأمل الطفل متأثرة وخرجت على رؤوس أصابعها حتى لا توقظه. وفي التاكسي أرادت أن تعرف:

- كم له من العمر؟
- لقد أكمل السنتين. سنتين ونصف..
- إن المهد صغير عليه.
- صحيح يجب أن أشتري سريراً. سأشتريه اليوم بالذات.

وعرفت تريزا في اليوم التالي لماذا كان كل ذلك. ففي بيت العزّاب وقد أشعل سيجاراً بعد الممارسة الجنسية الثانية، دعاها للقيام معه بنزهة. "في هذه الساعة المتأخرة؟" أجل كان عنده شيء يطلعها عليه ولكن ليس هنا بين جدران السوق العمومية.

كانت الدعوة مثل دعوته لناتاليا منذ خمسة عشر عاماً. ناتادي ليتي كانت ذات البشرة البيضاء وأساليب الدلال، أما الآن فإن من يدعوها، ذات لون نحاسي لا يرحم، وكان ولهه كبيراً في الحالتين وكلماته متشابهة:

- أنا بحاجة إلى إلهام الطبيعة.

عند الأصيل، شوهدت تريزا غارقة في الحزن وهي تجلس فوق الجدار العريض أمام كنيسة سيراث التي تقسم مدينة باهيا المزروعة بين الجبل وخليج المياه الهادئة، تتأمل في أشرعة المراكب. وجلس إلى جانبها ألميريو واثقاً من نفسه. إنه الركن المناسب للإفصاح عن الحب، فهناك طلب ونال يد ناتاليا وكان مشهداً مؤثراً يكرر نفسه الآن.

- اسمحي لي أن أقول لك يا تريزا ما يختلج في صدري. إني أجد نفسي تحت رحمة صاعقة من العواطف. إن الرجل ليس سيد إرادته والحب لا يطلب إذناً ليدخل في صدر معذّب.

"كلماته جميلة"، فكّرت تريزا، "صادقة". ومن يعرف ذلك جيداً... إنما هي: إن الحب لا يطلب إذناً، إنه يتفجر عنيفاً ويسيطر ثم لا يعود من أمر إزاءه. تنهدت؛ بالنسبة إلى ألميريو داس نيفس، فإن تلك التنهيدة يمكن أن يكون لها معنى واحد. وإذ بدا أكثر حيوية، تابع:

- "إني أحب يا تريزا، إن نيران الحب تلتهمني". نغمة الصوت ومحاولة أخذ يد تريزا أيقظتاها من شرودها. فحولت عينيها عن المشهد وفكرها عن جانو وحدجت ألميريو، فوجدته متحولاً وعيناه تحدقان فيها:

- إني مـــولّه بك إلى درجة الضياع يا تريزا، ضعي يدك على قلبك وأجيبيني بصدق: هل تعطيني شرف الزواج منك؟

وبينما تريزا تصغي إليه، وفمها مفتوح، تابع يقول ما لاحظه فيها في اليوم الأول مـــن الـــتعارف، وهـــو أنه وقع أسير حبها في الحال لا لجمالها وحسب بل لأساليبها وتـــصرفاتها، وقد جعله الحب ضائعاً فإنه لم يعد قادراً على أن يكتم عواطفه في صدره. "هل تريدين أن تجعليني سعيداً فتسمحين لي أن أذهب بك إلى الكاهن والقاضي؟"

- ولكن يا ألميريو إني لست أكثر من امرأة عامية...

كونها قد عاشرت بيت عزّاب تافيانا لا يعني شيئاً، فهناك التقى بناتاليا التي لا تنسى والتي لم تعط امرأة لزوجها ما أعطته هي من حسن الحظ والتوفيق، والماضي كائـــناً مـــا كان لا يُحسب ولا يوزن فحياة جديدة تبدأ في تلك اللحظة وهناك بالـــذات، حياة جديدة بالنسبة إليها وإليه، وعلى الأخص بالنسبة إلى زيكس. وإذا كـــان اعتـــراض تريـــزا الوحيد هو ذلك فليس من مشكلة وكل شيء بالنسبة له طبيعي. ومدَّ يده إلى تريزا فلم ترفضها بل أخذتها بين يديها وقالت:

- لا ليس هذا هو الاعتراض الوحيد فهناك اعتراض آخر. ولكن، وقبل كل شـــيء أريد أن أقول لك إنني متأثرة جداً من طلبك. وكأنك قد وهبتني هدية ثمينة وتقديـــرية ولا أعرف كيف أشكرك. إنك رجل طيب وأقدرك كثيراً. ولكن ليس لأتزوج منك. اعذرني، لا أستطيع، لا...

- ولماذا، إذا لم يكن من سر؟

- لأني أحب رجلاً آخر، وإذا عاد يوماً وما زال يريدني وحيثما أكون وأفعل مـــا أفعل فسأتخلى عن كل شيء وأذهب معه. وكون الأمر كذلك، قل لي، كيف أســـتطيع أن أتزوج؟ لو لم يكن عندي اعتبار لك لارتكبت هذا الخطأ ولكنت أنا زائفة حتى وإن كنت أمارس الحياة فإني أحتفظ بإخلاصي لنفسي.

ظـــلّ الخـــباز جامداً حزيناً وعيناه ضائعتان في المسافات. وهي الأخرى صامتة حـــزينة تحدق في المراكب التي تشق مياه الخليج في طريقها إلى ريكونكافو. فأي اسم يكـــون قـــد أعطى المالك الجديد لمركب فلور داس أغواس؟ وهبط الشفق على المدينة والبحر واحترق الأفق دماً، وأخيراً وجد ألميريو الحائر كلمات ليكسر الصمت البارد:

- لم أفكّر قط بوجود أحد ما في حياتك. هل هو شخص أعرفه؟

- لا أظـــن. إنه ربان مركب شراعي، أو كان هكذا على الأقل. وهو الآن يبحر في سفينة كبيرة لا أعرف أين ولا أعرف إذا كان سيعود.

كانت ما تزال تأخذ بيديها الاثنتين يد ألميريو بهدوء وبحركة صداقة.

- سأخبرك بكل شيء.

وأخـــبرته عـــن كـــل شيء من البدء حتى النهاية. من اللقاء به في ملهى باريس الليغـــري في ليلة العراك في أراكاجو، إلى التفتيش اليائس عنه في باهيا والفراق، وأخيراً انـــتهت إلى تفـــصيل رســـالة الربان كايتانو غونزا العائد من سفرة طويلة متأخرة من كانافـــييرا في الطوافة فنتانيا. وعندما أنهت حديثها، كانت الشمس قد ذابت في المياه، وفي المراكز البحرية أشعلت القناديل ولكن المراكب الشراعية ظلت عائمة في البحر:

- عندما أصبح أرمل جاء يفتش عني فلم يجدني، وعندما وصلت إلى هنا كان هو قد رحل لتوه، ومكثت أنا منتظرة عودته، لهذا أنا هنا في باهيا. وبلطف تركت يد ألميريو:

- يجـــب أن تفـــتش عن امرأة تكون زوجة لك وأماً للصغير، مستقيمة كما تستحق. إني لا أستطيع أن أقبل، فاعذرني رجاء، ولا تأخذني بمأخذ السوء.

تـــناول ألميريو الطيّب منديلاً ليمسح عينيه المبتلتين بالدموع، بينما عينا تريزا كانـــتا ناشـــفتين كأنهما جمرتان منطفئتان. ومع كل ذلك فهو لم يعتبر نفسه كلياً خارج الرهان و لم يعتبر اللعبة خاسرة:

- لـــيس هناك ما أعذرك عليه، فالقدر هو هكذا دائماً. ولكني أيضاً أستطيع أن أنتظر. من يعرف، ربما في يوم...

لم تقـــل تريزا نعم أولاً، فلماذا تجرحه وتعذبه؟ إذا لم يعد جانو يوماً على دفة مـــركب شـــراعي أو على رفّة بيرق أسود غريب، فإنها ستحمل في صدرها طيلة العمـــر نـــضال الأرملة. في فراش بيت العزّاب أو النـــزل؛ لا بأس أن تمارس المهنة اللعينة ولكن ليس ممكناً ممارستها في فراش العشق أو الزوجية، فهذا الأمر مستحيل. ولماذا تقول كل هذا فتؤذي أحاسيس من قام بتشريفها وميّزها عن سواها؟

بعـــد ظهـــر ذلك اليوم الذي طُلبت فيه يدها للزواج ورفضت، كانت تريزا باتيستا قد كررت لألميريو داس نيفس، كلمة كلمة، وصف البحار كايتانو غونزا. وعلى الرغم من الأحداث الحالية غير الممتعة فإن هناك براهين على الحب والأمل:

- في يــوم من الأيام ودون أن يخبر أحداً، فإن الصديق سيصل إلى الميناء ليرسو. هكـــذا قـــال البحار غونزا وهو على متن الطوافة يدخن غليون التبغ المعجون. وتعيش تريـــزا باتيـــستا على ذلك الأمل. أما ألميريو داس نيفس الرومنطيقي الشجاع فقد سمع بعيـــنين دامعتين وحنجرة مختنقة الرواية: إنها وصف مؤثر وتبدو كأنها قصة إذاعية تشد الـــسمع وترهف الإصغاء! كان الخباز قد أراد الزواج من تريزا باتيستا وعند رفضها لم يعـــد الرفض خسارة له، ففي يوم ما قد تقبل ومن يدري؟ ولكن لو عاد الأمر إليه في تلـــك اللحظة وإذا جاء جانواريو جيريبا من الخليج عند الشفق عائداً ليأخذ بيد الحبيبة الـــضائعة ويقترن بها في كنيسة سيراث وفي احتفال سحري غريب، فإن ألميريو سيكون أول مـــن يهنـــئهما. إنه يتمثّل ببطل إحدى الروايات التي كان قد قرأها وهو في سن المـــراهقة، شـــهم كريم وذو قلب نظيف ومستعد للتضحية من أجل سعادة الحبيبة. إن حركات وأوهاماً كتلك تخدم جيداً... وتريح للتعزية في ساعة من المرارة كتلك.

عـــبارات فـــضفاضة تضيع مع ريح الجنوب في الليلة العاصفة، وعبر الأحزان المنتشرة في عباب المحيط الثائر. كان جانواريو جيريبا مبحراً على متن سفينة الشحن البانامـــية وفي صوت البحار كايتانو غونزا أصداء صماء من التأثر العميق، إنه يريد الخـــير لصديقه ورفيق طفولته وأخيه في الرقص، ويتودّد بلطف وصداقة إلى الصبية الجميلة المنتظرة عودة حبيبها.

كـــان الـــبحار غونزا قد علم بأن الصبية الجميلة تكاد تجنّ لتعرف عن أخبار جانواريـــو شيئاً، ففرح لمعرفته بأنها ما تزال حية إذ كانوا قد أخبروا صديقه كذباً بأنها ماتت فيمن ماتوا بالجذام الأسود. خبر مفرح!

وظلـــت تريزا طيلة شهر، تأتي يومياً إلى سوق موديلو البحري أو إلى الرامبا، لتعـــرف ما إذا كانت السفينة فنتانيا قد عادت من سفرتها، وكانت تفتش في المرفأ عـــن الطوافة، والطوافة بمشهد جانواريو الأخير عليها، كأنما ترسو في عينيها عند جـــسر أراكاجو تتلقى أحمال السكر؛ إن تاريخ العودة غير محدّد فالبحارون يتوقف مـــصيرهم علـــى الشحن والريح والدوامات وأنواء البحار، وعلى الإلهة يمانجا حين تمنحهم الوقت المناسب للإبحار.

ذلـــك الانتظار وسم بداية حياة تريزا باتيستا في مدينة باهيا بميسمه، وحدّد العلاقات الأولى التي أقامتها وهي تتسقط أخبار القبطان، جانواريو جيريبا ومركب

فلـــور داس أغواس الذي كان يمتلكه؛ وكان الجميع لطفاء معها ومن المستحيل أن ترى شعباً أكثر تهذيباً من ذلك الشعب الذي بدأت علاقتها به. ولكن الأنباء، مع ذلـــك، لم تصل. لقد جاءت إلى العاصمة لتعرف عن جانواريو فخرجت إلى الميناء لتسأل. وقد حصلت من هنا وهناك على أجزاء من حكايات ولكن البحار كايتانو وحده هو من أخبرها بكامل الرواية.

على أثر وباء الجذام الأسود في بوكين، بدأت تريزا تطوف منطقة الداخل من مديـــنة إلى مديـــنة ومـــن مقاطعـــة إلى أخرى شيئاً فشيئاً، وقد عرفت في تجوالها أشـــبلانايا، ســـيبو، الأغونياس، وفيرداي سانتانا, رحلة طويلة وشاقة كانت تريزا خلالهـــا دون مـــورد مالي ملزمة بأن تمارس المهنة في أسوأ الظروف، وخلال تلك الأشـــهر أكملـــت معرفتها العميقة بالحياة العامية، وتعاطت مع أناس عاديين جداً ولكنها كانت تستهدف من كل ذلك الوصول إلى بحر جيريبا فتابعت بإصرار حتى النهاية.

وفي باهـــيا بدأت التفتيش. كانت في البدء خجولة وهي تتخيل أن جيريبا ما يزال متزوجاً، لم تأت لتنغص عليه الحياة وتسبب له المشاكل ولم تكن تريد سوى الاســـتقرار في المكان حتى تستطيع أن ترافق خطواته دون أن يراها. فقط؟ كانت تحـــب أيضاً أن تتأمل مركب فلور داس أغواس وإن من بعيد، من بعيد؟ من يعرف بالـــتحديد ماذا كانت تنتظر تريزا وما الذي كانت ترمي إليه إذا كانت هي نفسها لا تعرف؟ كانت تفتش عنه ولا شيء آخر.

في محلـــة الـــرامبا والسوق التجارية البحرية كان الجميع يعرفونه، ويقدرونه، ولكن أحداً لم يعط أي أخبار عنه، كان الجميع يعطون عنه أخباراً ولم يكن أحد لا يـــرغب في الحديث عن صاحب المركب الشراعي، والأخبار لا تفي بحاجة عندما تكون متناقضة، ولكن شيئاً واحداً أكيداً مع كل ذلك: لقد ماتت زوجة جانواريو منذ وقت طويل.

بعد مراسيم دفن زوجته، ذهب جانواريو ينظّف جسده قبل أن يقوم برحلة ذات أهمـــية كبيرة كما قيل. إني ذاهب إلى ربوع أراكاجو حيث ينتظرونني، أضاف، "من كـــان ينتظره هو أنت أليس كذلك؟" سألتها إحدى النساء؛ بعد ذلك لم يظهر أبداً من جديد. هل يمكن أن يكون قد عاد من تلك الرحلة وبدأ رحلة أخرى؟

رحلة؟ رحلتان؟ هل هو حي أم ميت؟ مفقود؟ أين؟ وحدها تريزا تمكنت من معـــرفة الحقـــيقة عـــندما في النهاية عادت السفينة فنتانيا من جنوب الولاية محملة بالكاكـــاو. وتمت المحادثة على متن الطوافة الراسية أمام أضواء المدينة. تضرب فيها ريـــح الجـــنوب فوق مياه الخليج اللامتناهية. إنها ليلة خطيرة في البحر، ليلة سيئة للملاحـــين، "لقد اتخذت الإلهة جانايينا شكل عاصفة مفتشة عن خطيب لها تلهو معـــه في أعمـــاق المحيط"، قال الملاح غونزا ذلك وهو يضع أصابعه في الماء وكان القبطان قد رحّب بتريزا بحرارة، ولكن دون فرح.

لقـــد علـــم أنك في باهيا ففتّش عني ليسأل. إنني هنا الآن لأنني غداً سأفرغ سفينة الشحن مباشرة.

جلسا، وراحت الريح تعبث في شعر تريزا الأسود، وتطلع من عنابر التحميل رائحة الكاكاو المجفف، وسألت تريزا وهي خائفة من الجواب:

- مـــاذا حدث لجانو؟ أين يسير؟ إني في باهيا منذ أكثر من شهرين و لم أعلم بعـــد شيئاً أكيداً عنه، كل واحد يقول شيئاً مختلفاً. وليس من خبر أكيد سوى أن زوجته قد توفيت.

- مـــسكينة. كان مؤلماً في النهاية النظر إليها، لقد أصبحت خيطاً رفيعاً جلداً وعظمـــاً. لم يبتعد عنها جانواريو خطوة واحدة إلى أن أقفل عينيها، خلال الأيام الأخـــيرة جاء أبوها ليتفقدها وينقلها إلى المستشفى وكان الوقت متأخراً جداً. لم تعد هي آنذاك امرأة وتألم هو ألماً شديداً.

أصغت تريزا بصمت، وكانت الريح والحزن تكمن خلف صوت غونزا، وكأنها تـــصغي إلى جانواريو جيريبا يحدثها في ظلمة بحر أتالايا: "التي أحببتها وأردها وسرقتها من عائلتها كانت قوية جميلة وفرحة، وهي اليوم مريضة، بشعة، حزينة وكل ما عندها هو أنا فلن أتركها في الشارع تعاقر البؤس، إنه رجل مستقيم، جانو...".

- بعـــد ذلـــك، أخذ شحنتين أو ثلاثاً ليكسب بعض المال وترك المركب في عهـــدتي وجـــدّ يفـــتش عنك. "هل تتذكر تريزا باتيستا تلك الصبية السمراء في أراكاجو؟ سأذهب للمجيء بها لتعيش معي، سأتزوج من جديد..." هكذا قال لي.

وأشـــعل المـــلاح غونـــزا الغليون الذي أطفأته الريح، الطوافة تصعد وتهبط والأمـــواج تتزايد وريح الجنوب، تزمجر، تنادي على الموت لمساعدتها في الحصاد.

تريزا صامتة تتخيل جانو يفتش عنها متحرراً، من الأصفاد والأغلال وطائراً عملاقاً مستعداً لأن يحملها معه إلى البيت والمركب الشراعي. آه من الفراق!

– قضى أكثر من ثلاثة أشهر يفتش عنك في الخارج. ووصل إلى هنا وليس معه فلس واحد، وفي شاحنة اشترط صاحبها مساعدته ليأتي به. وأخبرني بكل سفرته ووصل إلى سرجيبي واجتاز الأغواس، برنامبوكو، وبارايبا، وأدرك ناتال وتوقف في سيارا وتعرف إلى أراض واسعة وأناس كثيرين، ولكنه لم يجد ضالته التي كان يفتش عنها، وعاد من جديد إلى أراكاجو وتوغل في سرجيبي حين أخبروه عن موتك بالجذام الأسود، وأعطوه تاريخ الوفاة والساعة ووصفوك له وصفاً دقيقاً. ولكنهم لم يعرفوا أن يحددوا المكان الذي دفنت فيه. إن عدد الأموات كان مرتفعاً جداً، ولم يكن هناك وقت لمراسيم الدفن إذ كانوا يدفنون كل خمسة أو ستة أشخاص معاً في القبر الواحد. كان ذلك ما أخبروه لصديقي.

أجل، كانت تريزا قد خرجت لملاقاة الموت ومواجهته يأساً من أن لا تكون معه، ولأنها حاولت أن تنساه في الطبيب الوضيع أوتو أشبينيرا مدير المركز الصحي وملك الجبناء، ولكن الموت لفظها وحتى الجذام الأسود لم يردها. في ليلة الضياع تلك لم يعد إلا وجه تريزا المحجَّر، وجمرة غليون الملاّح كايتانو غونزا، والعاصفة التي تعبث في البحارين والإلهة جانايينا تفتّش عن عشيق.

– إن صديقي جانواريو قد تغيّر، ولم يعد هو نفسه، وحتى إنه لم يعد راغباً في العناية بالمركب الشراعي، كان يبقى جالساً هنا على متن السفينة فنتانيا، صامتاً ولا يفتح فمه إلا ليقول لي: "كيف ماتت؟ كنت أفكّر في أن أعيش معها يوماً!" هكذا كان يقول عندما يتفوّه بكلمة وغالباً ما يظل صامتاً. وذهب فيما بعد عندما وصلت إلى هنا سفينة شحن بانامية كبيرة ودخلت المرفأ لتترك في المستشفى ستة مصابين بداء الكلب. كان كلب على ظهر السفينة قد أصيب بالمرض، وقبل الإجهاز عليه تمكّن من أن يعضَّ ستة بحارة وينقل إليهم المرض، ولكي تتابع السفينة رحلتها استأجر قائد السفينة عمالاً من هنا وكان جانواريو أول من تمَّ استخدامه، وقبل أن يغادر طلب مني أن أبيع مركب فلور داس أغواس وأُبقي معي المال إذ لم يكن عنده أحد في هذا العالم، ولم يكن يريد أن يبقى مركبه مهملاً في الماء. وبعتُه

وأبقيت المال في المصرف ليعود عليه ببعض الفائدة وهكذا إذا عاد يوماً فسيتمكن من شراء مركب جديد. هذا كل ما حدث.

واكتفت تريزا بالقول:

– سأبقى هنا إلى أن يعود. إذا كان ما يزال يريدني فسيجدني هنا بانتظاره. ما هو اسم السفينة، هل تتذكّر؟

– بالبوا، وكيف أنساه؟ لقد خرج ليلاً من الميناء ومنذ ذلك الحين لم أعد أعرف شيئاً عنه، في يوم ما، سيرسو هنا من جديد.

بعد رفض عرض الزواج عرفت العلاقات بين تريزا باتيستا وألميريو داس نيفس تبدلاً حساساً ودقيقاً..، حتى ذلك الحين كان صاحب المخبز زبوناً بالنسبة إلى تريزا، وكان متميزاً جداً عن سائر المسنّين ليس فقط عمراً، فهو لم يكد يتجاوز الأربعين بينما الآخرون من الزبائن، وهم خمسة، كانوا في حدود الستين، ولكن الطريقة التي تراه فيها وتتعامل بها معه خارج جدران بيت العزّاب كانت مختلفة فتقابله في الملهى حيث بالتأكيد لم يكن يأتي إلى هناك أي أحد من الآخرين. وكان ألميريو يتحدث عن الأعمال وأسعار الطحين والفقيرة التي تعيش في ذاكرته وشؤون الطفل الصغير، وكانت تريزا تصغي إليه باهتمام وتراه زبوناً ظريفاً ولطيفاً وقد حجز دوره في يوم محدّد وساعة محددة من الأسبوع.

عند غروب شمس ذلك اليوم الذي أشعل الأحزان فوق البحر، أصبحت تلك العلاقات حميمة بشكل أو بآخر، في الظاهر سارت تلك العلاقات في اتجاه معاكس. ففي حياة النساء العاميات تحدث أشياء غريبة وغير مرتقبة لا معنى لها. ولم يعد ألميريو يراها عارية في الفراش تمارس مهنتها بجدارة وتعرض روعتها كاملة. لقد خسر صفة الزبون ولم يعد أحد من الاثنين يعود إلى بيت العزّاب كل يوم خميس في الرابعة عصراً، على الرغم من أنهما لم يتناقشا حول الموضوع وقد فهم كلاهما استحالة وجود اتفاق على ممارسة الجنس من الآن وصاعداً، ولكنهما ظلا صديقين تربطهما روابط قوية من الثقة والتقدير التي تعمقت في ذلك المكان في القلبين المنفتحين على الحقيقة.

وظلّ ألميريو يتردد على ملهى فلور دي لوتوس باستمرار ليحتسي البيرة ويرقص الفالس ويرافق تريزا حتى باب دارها... كما ظلّ مرشحاً مولهاً للحصول

على يد راقصة السامبا، ولكنه الآن لا يمس يدها ولا يعبّر بنظراته عن الأحزان ولا يـــزعجها بالتوســـلات والعروض. لم يعد هناك غير الحضور والمرافقة... لقد حمل الـــوله في صـــدره كما كانت تريزا تحمل معها حب جانو الضائع في بحر السفن الواســـع. وكان يسألها أحياناً: "أما زلت دون أخبار، ألم تعرفي شيئاً عن السفينة؟" وكانـــت تريزا تتنهد، وفي مناسبات أخرى كانت هي من تريد أن تعرف إذا كان الـــصديق لم يجـــد بعد خطيبة توافق مزاجه، أو امرأة قادرة تتحمّل مسؤولية مركز ناتاليا الشاغر إلى جانب الطّفل وألميريو في البيت والمخبز في الفراش والقلب؟ وكان الأرمل يتنهد.

ولم يكن يستغل تريزا، أو يظهر رغبته في الانتظار الطويل ليعرض نفسه بديلاً عـــن جانواريو، بل على العكس كان يفتش عن وسائل للترفيه عنها داعياً إياها إلى الاحـــتفالات والنـــزهات. لم يجدد عرضه ولم يعد يتكلم عن الحب. وكان ألميريو دائمـــاً محيطاً بتريزا، يساعدها كي لا تشعر بنفسها وحيدة مهملة، وانتهت هي إلى الـــوفاء للصداقة المخلصة والاعتراف بالجميل. وفي أوقات الشوق واليأس التجأت تريـــزا إلى حـــرارة بعض الأصدقاء كالربان كايتانو غونزا والرسام جنر أوغوستو وألميريـــو داس نيفس وغير هؤلاء كانت فيفيانا، ماريا بيشكو، والزنجية دومنغاس، ودولـــسينها، وأناليا، وكلهن من المنطقة، واعتمدت أيضاً على لطف سكان محلة رامبادو مركادو، ومحلتي أغوادوس نينوس وبرتودا لينا.

كـــان بطبيعـــته فرحاً ومنطلق الروح، فلا الترمل ولا التولّه تمكنا من إحباط حـــيوية ألميريو داس نيفس وجعله معتكفاً في بيته، كان يحب جداً الاحتفالات على الـــرغم من أساليبه الهادئة، وكان عنده دائماً دعوة يوجهها إلى أحد ما عندما يأتي متماســـكاً ومبتسماً إلى ملهى فلور دي لوتوس، وكان عاطفيّاً في تعامله إلى أقصى الحـــدود، وحاضـــراً في الحـــياة الشعبية في المدينة ويعرف نصف سكان باهيا حق المعرفة. وفي إحدى الليالي عندما أرادت تريزا أن تعرّفه بالرسام جنر أوغوستو الذي جـــاء إلى الملهى ليراها ويتعاقد معها لتكون نموذجاً لإحدى لوحاته، فإنها أصيبت بالتعجب: إن صديقيها يعرف أحدهما الآخر، وهما صديقان ورفيقان في احتفالات بنـــسيون دا بـــرايا إي دو بونفيس وفي الاحتفال الراقص بعيد السيدة... ودار بين المدعوين حديث استهله الرسام جنر أوغوستو:

- هل نسيتني يا ألميريو؟ وماذا عن الحفلة التقليدية في بيتك؟

- لقـــد فقدت زوجتي الحبيبة يا صديقي جنر، إنه القدر المأساوي. وقبل أن أنهي الحداد لن أستطيع أن أقيم احتفالاً في بيتي.

- لم أعرف، اعذرني. اقبل تعازي.

ونظر إلى تريزا حذراً، أما التاجر المتواضع المنطلق الروح والمبتسم دائماً الذي يـــنفث دخان سيجاره، فكان رجلاً بما فيه الكفاية لينقذ تريزا من ملهى فلور دي لوتـــوس ويأخـــذها إلى البيت، فهل تقبل الصبية؟ لقد كانت تبدو شابة تعيش في الحـــزن العميق، وفي حياتها ملامح مبحر، ولكن ألميريو كان شبيهاً بقبطان متأمل: "انتظر صامتاً، فالزمن يعمل لمصلحتك". وقربه تجلس تريزا مطمئنة.

التقـــى بهـــا الرســـام صدفة، منذ وقت قصير مضى، في السوق، حيث كان يـــتحدث مع كامافيو دي أوشوسي وشخصين آخرين يبدوان غريبين: أحدهما ذو ذقـــن وشـــارب كثيف، والآخر ذو عينين مستديرتين يرتدي معطفاً مفتوحاً من الخلـــف. وعـــندما رأى كامافيو تريزا تقدم ليتحدث إليها، إذ كانا قد تعرفا على بعضهما منذ وقت بعيد.. وتقدم الرسام هو الآخر:

- ولكن، ها هي تريزا باتيستا! هل تعمل هنا؟

وظلّ يرتاد ملهى فلور دي لوتوس حيث كانت تريزا تجالس الزبائن في الصالة وتقدم برنامجها الراقص نفسه الذي كانت تقدمه في أراكاجو مع بعض التعديلات، وظهر في الملهى وحيداً في البدء، ثم مع زمرة من البوهيميين الفنانين من قليلي المال والكـــثيري الحيوية. وكلهم ترشحوا لمضاجعتها استلطافاً وتحبباً، ومجاناً، ولكنها لم تقبل أية علاقة مع أحد منهم فلم يغتاظوا لذلك.

لقـــد استخدمها البعض نموذجاً مستعملة مهنة أخرى من المهن التي تدر عليها بعـــض المال. ومن ينظر إلى عيني الإلهة يمانجا كما نحتها ماريو كرافو على الخشب ذات إنـــسانية عمـــيقة عشيقة وزوجة وأماً، يستطيع أن يتبين بسهولة وجه تريزا وشعرها الطويل في تلك المنحوتة التي يمتلكها أحد أصدقاء الفنان. وكذلك لوحات الخلاسيات التي رسمها جينارو دي كارفاليو، فمن الذي أوحى بها؟ إنها تريزا بتلك الـــسحنة الغائـــبة الـــضائعة في مسافات البحر اللامتناهية... كثيرون من الفنانين والراغبين في تريزا استخدموها نموذجاً من أمثال كالا ودوريغال كلايمي. وبرفقتهم

تذكـــرت تريزا عدة مرات أيامها في أشتانسيا مع الأستاذ وتلك الرغبة العارمة في الحياة.

هكـــذا تعرفت تريزا على الكثيرين وحضرت عدة احتفالات وتنـــزهت في النهـــر الأحمـــر حيث كان يقيم الرسام فكانت له نموذجاً لعدة رسوم مختلفة، وفي مدرســـة الباليه علّمها المدرّب باستنيا رقصة السامبا الأنغولية، وفي الطوافة حدّثها المـــلاح غونـــزا عـــن الرياح والعواصف ومرافئ ريكونكافو، وتلقت الكثير من العروض وارتادت الاحتفالات الدينية الراقصة في أماكن متعددة.

ولكـــن المـــشوار اليومي والإلزامي الذي كانت تصرّ عليه، كان ذهابها إلى رامبادو مركادو، ميناء الزوارق في مرفأ باهيا. وعندما تكون الطوافة فنتانيا راسية، كانـــت تريـــزا تأتي إلى هناك لتتحدث إلى الربان غونزا لتحفر بالخنجر في جرحها عندما تتحدث عن جانواريو جيريبا.

وأصـــبح الـــناس يعرفونها في المرفأ من خلال أسئلتها المتكررة والمرتبكة.. من يعطـــيها علماً عن سفينة بانامية تدعى بالبوا، سفينة شحن سوداء؟ فيها أبحر ستة ملاحين من باهيا، فأي عباب يمخرون؟

وبمساعدة الملاح غونزا اكتشفت مركب فلور داس أغواس الذي أصبح الآن ملـــك الـــبحار العجوز المعلم مانويل وقد أطلق على المركب اسماً جديداً... اسم القـــديس جورجـــيوس تشريفاً لزوجته ماريا كلارا ابنة أوشوسي. وتأخرت تريزا جالسة قرب الدفة تمسك قبضتها بيدها، وعندما رأت ماريا كلارا الصبية السمراء غائـــبة مـــضطربة وعيـــناها شاخصتان إلى الفراغ أرادت أن تقطع عليها الذكرى والحركة وحرارة يد جانواريو. قالت لها:

– ثقي بأنه سيعود. سأنذر نذراً إلى الإلهة يمانجا.

مـــا عـــدا قـــارورة العطر والمشط العريض لتسرّح شعرها، فإن يمانجا طلبت دجاجـــتين غينيـــتين لتأكلهما وحمامة بيضاء تطلق فوق البحر. في ملهى فلور دي لوتـــوس وبيت عزّاب فيفيانا، تعرفت تريزا إلى فتيات كثيرات وأقامت صداقة مع بعـــضهن وأصبح اسمها يلفظ باحترام منذ وقوفها في وجه نيكولاي بيشي كاساو، رجـــل أمـــن من شرطة المحافظة على التقاليد الذي كان يفرض الإتاوة على النساء العامـــيات في كل الرقعة الواسعة التي تنتشر فيها محلات الدعارة من باروكينيا إلى

بيلورينـــيو ومن ماسيل إلى لاديرا دا مونتانيا ومن تاباو إلى كاريي - سيكا، وكان يـــصدف أن تتـــناول الغداء في دار أناليا في بيلورينيو، وفي بيت الزنجية دومنغاس وماريا بيتسكو في باروكينيا.

أما ماريا بيتسكو، فقد كانت شابة خلاسية جميلة، ذات قامة هيفاء وابتسامة دائمة، وكانت سريعة البكاء وسريعة الوقوع في الغرام إلى حدٍّ أن كان لها في كل أســـبوع عـــشيق بسبب قلبها المتذبذب، وقد حدث أن أنقذها تريزا من الوقوع ضحية، بل الأفضل القول، من خنجر الإسباني رافاييل فيورا.

ففـــي لـــيل الثلاثاء، ومع حركة رواد الملهى القليلة كانت المدعوة تتحدث جالـــسة إلى إحدى الطاولات في عمق المكان حيث النساء جالسات بانتظار دعوة إلى الـــرقص أو الشراب، فاقتحم المكان أحد ديوك المزابل الجنسية وقد جاء حديثاً مـــن فيفو وما يزال مرتدياً الأسود وملتفاً بالمأساة ليظهر نوبات غيرته، وكان كل شيء قد مرَّ بأسلوب أرجنتيني هادئ وأطوار حب سريعة وملتهبة:

- أيتها العاهرة الملعونة!

شـــهر رافاييل خنجره فوقفت الفتاة صارخة من الرعب، ولكن تريزا سددت إليه ضربة في الوقت المناسب فانحرف الخنجر مستوياً في كتف ماريا بيتسكو فانهمر الدم الكافي ليغسل الشرف الإسباني الرفيع.

عـــندها ركـــض جمع غفير من الرجال والنساء وكان ذلك اللغط. وفي هذه المناســـبات يظهر دائماً متطوع ليخبر الشرطة، وهو بالإجمال شخص لا علاقة له بالموضوع وقد وجد نفسه فيه بمحض صدفة أو أنه يقوم بذلك بدافع فطريّ إلى أن يكـــون مخبراً. حملوا ماريا إلى غرفة في الطابق الأعلى حيث كانت النساء يمارسن المهـــنة بالتعـــريفة المعلقة هناك، وقد تبعها اللغط تاركاً القاعة الكبرى شبه فارغة. واســـتفادت تريزا من ذلك لتسهل الهرب للمنتقم قبل أن تصل الشرطة وتضعه في السجن وتبدأ المحاكمة.

- اخـــرج أيها المجنون ما دام هناك وقت. أليس عندك مكان تختبئ فيه عدة أيام؟

كان عنده أهله الذين استوطنوا في باهيا، فأهمل الخنجر وتخلى عن الغرام وجد في الـــشارع ثم اختفى في الأزقة ووصلت الشرطة بعد نصف ساعة متمثلة بحارس

واحد لم يستطع أن يلم بشيء عن الحادث، و لم يعرف أحد إعطاء أية معلومة عن الخنجــر والمجرم والضحية. وكأن النبأ لا يعدو كونه مزحة ثقيلة قام بها أحد الذين يتمــتعون في تضليل السلطة. أما صاحب الملهى في الطابق الأعلى فقد فتح زجاجة بيرة مثلجة للحارس الذي وقف خلف البار.

أمــا المــصابة التي كادت تكون ضحية فقد نقلها ألميريو وتريزا فيما بعد إلى باروكينيا حيث اعتنى بها طالب صيدلية كان ثملاً بشكل محتمل في تلك الساعة وقد وقعت المصابة مغرمة به في الحال و لم يعد غرامها مختلفاً عن سابقه.

بعــد قلــيل من الوقت على الحادثة مع رافاييل، ذهبت تريزا إلى بيت ماريا بيتــسكو للغداء فوجدتها متبدلة وكأنها شخص آخر. لم يبقَ في كتفها إلا أثر قليل لطعــنة الخنجر، ولكن أين الابتسامة والفرح الدائم واللامبالاة والإيحاء بالمتعة وكل الــصفات الأخــرى الــتي تجعلها شعبية في المنطقة؟ فقد بدت ذات وجه متجهم منشغل، وملبد بالهموم، لم تكنَ وحدها كذلك بل الزنجية دومنغاس أيضاً ودوروثيا وبيكينوتا رفيقاتها في الشقة، وكذلك أسونتا صاحبة السوق العامة. وكانت أسونتا على رأس المائدة تتأمل في الطعام شاردة الذهن.

– ماذا ألمّ بهن؟

– ماذا ألمّ بهن؟ بل ماذا ألمّ بنا جميعاً؟ إنهم سيغيرون مكاننا ألم تسمعي بالنبأ؟

– "في الأســبوع المقــبل. إذا أردت أن تأكلي معنا فعليك أن تذهبــي إلى كودي جودا" أجابت أسونتا بمزاج سيئ.

– ما هذا الموضوع؟ لم أعرف شيئاً.

– اليوم صباحاً بيشي كاساو والتحري كوكا دخلا من بيت إلى بيت هنا في باروكينيا منذرين "جهزن أمتعتكن، سيكون هناك تغيير" أجابت ماريا بيتسكو:

– "لقــد أعطونا مهلة أسبوع، نهار الاثنين المقبل، أي منذ اليوم وحتى الثامن من الشهر، فإن تغيير المكان يجب أن يتم". وكان صوت أسونتا مهتزاً تعباً.

– قال إنه سيغيّر مكان الجميع ابتداءً من هنا، ثم أفراد سوق باسيل ثم بورتاس دو كارفو ثم بيلورينيو وبالتالي كامل المقودة.

– وإلى أين؟

لم تستطع أسونتا أن تبتلع ذلك، فإن غضبها قد تمادى:

- "هـــنا أسوأ ما في الموضوع. إلى أين؟ إلى حفرة تعيسة في الجزء الأسفل من المديـــنة قرب كارفي سيكا في لاديرا دو باكاليو، إنه مكان متعفن وضيع. لم يكن أحـــد يقـــيم هناك منذ زمن طويل. لقد ذهبت إلى هناك لتفحص المكان فوجدته مبكياً". وبينما النساء يمضغن بصمت ويشربن البيرة استنتجت أسونتا:

- يـــبدو أن أصـــحاب المكـــان هنا هم من الوجهاء وأقرباء مدير الشرطة كوتـــياس. إنهم جماعة محمية وتعرفين كيف. إن بيتاً مهدماً يتسرب المطر إلى داخله لا يساوي شيئاً. أؤجره للفتيات وأربح منه ثمناً مرتفعاً. هكذا يتصرفون في مديرية الشرطة.

- زمرة من الغربان.

- وأنتن هل ستغيرن المكان؟

- وأي حل! أليست الشرطة هي التي تأمر هنا في المنطقة؟

- أليس هناك طريقة؟ تقديم شكوى، أو مطالبة؟

- المطالـــبة إلى من؟ أيتها المخلوقة! هل رأيت في حياتك امرأة عامية لها الحق في المطالبة؟

- إنه استغلال، ومن الضروري عمل شيء.

- وماذا تستطيع الفتيات هنا أن يفعلن؟

- أن لا يخرجن من هنا وأن لا يغيرن مكان إقامتهن.

- أن لا يغيّرن مكان إقامتهن؟ وكأنك تجهلين حياة المرأة العامية، إن العاهرة لا حق لها بالمطالبة، إن لها الحق فقط أن تتعذّب، يجب أن تبقى صامتة وإلا فأمامها السجن.

- هل يمكن ألا تكوني على علم بهذا حتى الآن؟ ألم تتعلّمي بعد؟

فلـــيعلم من لم يعلم بعد، ومرةً واحدة: ليس للعاهرة أي حق، إنها فقط لمتعة الرجال وتتقاضى من أجل ذلك التعريفة المحددة، هذا ولا شيء آخر، وما عدا ذلك فإنهـــا تتلقّى؛ تتلقى من القواد، وحامي النساء، ورجل الأمن والحارس، والجندي، والخـــارج على القانون والسلطة؛ إن الرذيلة والفضيلة معاً ينكرانها، إنها تتلقى من الذين يسندون ظهورهم إلى الكراسي ومن شاء صفعها على وجهها... ولا عقاب على ذلك.

فليخـــبرني رجاءً السيد المكلف بمعالجة القضايا الشعبية صاحب الاسم المُبجَّل في الصحف، إذا كان قد كلّف نفسه عناء التفكير في العاهرات؛ طبعاً لا، باستثناء المرات التي لا يمكن الاعتراف بها والتي اندس خلالها في فراش بعضهن ليتمتع باللحم تلبـــية للمتطلبات الغرائزية.. إنه سرير وضيع في نظر العالم كله ولحم قاس، وغرائز منحطة.

هل يعرف الزعيم الذي لا يُقهر أنه عمل تجاري رابح أن يمتلك الإنسان بيوتاً يؤجـــرها في أسواق البغاء؟ والشرطة تحدّد مكان الأسواق العامة على وفق المصالح السياسية والتي في طليعتها مصالح الأهل فالأصدقاء ثم الزملاء؟ إن بدل إيجار دار إلى عاهـــرة هو أكثر من إيجاره إلى العائلات، هل كان يعرف بطل الاستغلاليين هذه الميزة؟ وأكثر من ذلك فأي شيء بالنسبة إلى العاهرات هو أصعب منالاً وأغلى ثمناً والجميع يرون عدالة في هذا فلا يعترض عليه أحد. لا أحد، حتى المدافع النبيل عن الشعب. ألم تكن تعرف؟ إذاً اعرف الآن. واعرف أكثر أن التصرف بحياة العاهرة هو خارج التحديد القانوني. إذ يكفي للشرطة أن تقرر بأمر من مديرها، أو مفوض فـــيها، أو أي رجل أمن، حتى يقرر تغيير حياة العاهرة إذ ليس بمتناول يدها اختيار المكان الذي تقيم فيه وتمارس مهنتها.

وعندما تنعتق العاهرة من كل شيء وتتمدد في الفراش لاستقبال الرجال ومنحهم اللـــذة مقابل تعريفة ما. فهل يعرف المناضل في سبيل العدالة الاجتماعية كم من الذين يأكلـــون مـــن هذه التعريفة؟ من صاحب البيت المؤجر، من الباطن ومن القوادة، إلى مـــندوب الـــشرطة ومـــن حامي النساء إلى التحري ومن الحكومة إلى المعارضة، ليس للعاهـــرة مـــن يدافع عنها، فلا ينتفض من أجل حقوقها أحد، والصحف لا تخصص أعمـــدة لتصف مآسي أسواق المهنة، إنه موضوع ممنوع، إن العاهرة هي موضوع في صفحات الجريمة متهمة بكل شرور العالم ومسؤولة عن ضياع الرجال؛ وعلى من تقع مسؤولية ما يحدث في هذا العالم من شرور؟ على العاهرات، نعم سيدي.

وهـــل أخذ محامي المقموعين علماً بوجود ملايين النساء اللواتي لا ينتسبن إلى أيـــة طبقة، واللواتي ترجمهن كل الطبقات الاجتماعية وتضعهن على هامش النضال والحـــياة موشومات بالنار والحديد؟ فلا كتاب مطالبة لهن، ولا مظاهرة ولا علم، ولا وقـــت لديهن لغير المهنة، ومليئات بالأمراض، ولا طبيب معهد لهن ولا فراش

في مستـــشفى، جائعات عطشات ولا حق لهن في ضمان غذائي أو اجتماعي أو في إجـــازة ســـنوية أو في إنجاب الأطفال ولا حق لهن في المساكنة والحب، هن فقط عاهرات ولا شيء آخر. هل تعرف أم لا؟ إذا كنت تجهل فاعلم مرة واحدة.

إن العاهـــرة هي قضية من قضايا شرطة الدعارة والأمن، ولكن هل فكّر يوماً أبو الفقـــراء العطوف ماذا سيحصل إذا قررت العاهرات في العالم يوماً القيام بإضراب عام فأقفلن أمكنتهن ورفضن العمل؟ هل فكّر في الفوضى التي ستعم العالم ونهاية الأزمنة؟

إن أســـفل السافلين يجد من يدافع ويناضل عنه ما عدا العاهرات. إني الشاعر كاســـترو ألفـــيس الذي مات منذ مائة عام، أنا أقوم من الموت في المحلة التي تحمل اسمـــي وتمـــثالي وأعتلي الخشبة التي أعلنت منها تحرير العبيد في مسرح سان جوان الذي التهمته النيران لأجعل العاهرات يقلن بصوت واحد: كفى.

استحـــصلت شـــركة هـــ. ساردينيا للتوظيفات المالية والتمويل والإنشاءات وبيع وشراء العقارات العامة، على مساحة أرض واسعة عند قمة الجبل المشرفة على الخلـــيج، مستفيدة من التسهيلات التي منحتها الحكومة للأعمال المخصصة لتطوير الـــسياحة، وقد خصص المكان لقيام مجمع حديث ومتطور من العمارات السكنية والفـــنادق والمطاعم والمحلات التجارية ودور السكن المختلفة والأسواق، بالإضافة إلى الحدائـــق وأحواض السباحة والحمامات التركية ومواقف السيارات. وباختصار كل ما ينقص المدينة لتأمين الرفاهية للذين سيقيمون هناك ولمتعة الزائرين عامة.

ووزعـــت إعلانـــات ملـــونة دعي فيها الناس للمشاركة بالمشروع العملاق والتوظـــيف فيه والحصول على الفوائد خلال أربعة وعشرين شهراً، لأن المخطط مـــثالي والأربـــاح مـــضمونة، والاستفادة لا حصر لها. "كن أنت الآخر صاحب مـــشروع باهـــيا دي تودوس سانوتس الذي هو أكبر مشروع سكني في الشمال الـــشرقي، قـــم بالسباحة دون أن تغادر باهيا: ولكل شريك الحق بعشرين يوماً في العام من الضيافة في فندق من فنادق المجمع ولا يدفع مقابل ذلك أكثر من 50% من الأسعار المبينة التي يدفعها الزبائن العاديون".

أمـــا في القسم الأسفل من المساحة المخصصة للمشروع الذي يسكنه بعض الهامشيين وأزلام قبضايات المنطقة، فقد أمرت الشركة بهدم الأكواخ الخشبية وطرد المقيمين فيها.

وبيـــنما يتفحص المكان برفقة بعض المهندسين، فإن العجوز هيبوليتو سردينيا الـــسيد الأكـــبر القـــادر على استحصال الحليب من الحجارة، حسب رأي عالم الأعمال، قد تأمل طويلاً في المراحل الواجب اتباعها.

ففـــي المرحلة الأولى سيتم تجهيز التصاميم والانتهاء من التنظيم والإعلان عن مصالح الجمهور والحصول على المال اللازم للتمويل، في حين أن المهندسين المدنيين والمـــصممين والفلاحـــين وسكان المدينة على السواء يدرسون ويرفعون المداميك الأولى للمشروع العملاق، أما الأعمال الحقيقية فلن تبدأ إلا بعد عامين.

"خـــلال عامين هل تبقى هذه الأكواخ قائمة؟" تساءل العجوز هيبوليتو، "أم يجب هدمها في الحال لتنظيف المنطقة كلياً حسبما يطالب به أحد المهندسين؟"

- لـــو لم تكن هذه الأكواخ مخصصة للدعارة من الصنف العامي، لا أعرف لأي شيء يمكن استخدامها؟

أصغى العجوز صامتاً: "هنالك مال ليربحه".

لم يكـــن قـــرار نقل السوق العمومية من المنطقة العليا في المدينة إلى المنطقة الساحلية أمراً مفاجئاً بقدر ما بدا لأسونتا والمقيمات معها. ولو أنهن قرأن الصحف بانتـــباه لما تفاجأن بقرار التحويل الذي نقله إليهن شفهياً، بيشي كاساو والتحري دالمـــو كوكا خلال زيارة الأخيرين الصباحية، ولكنهن كن يكتفين بقراءة صفحة الحوادث والأعمدة الاجتماعية، حيث كن يجدن المؤونة الكافية من الاختلاجات، فمـــن جهة السرقات والجرائم وأعمال العنف والشذوذ والبغاء، ومن جهة أخرى الاحتفالات والاستقبالات والولائم والابتسامات والعشق والشمبانيا والكافيار.

- "يجـــب علـــيَّ في يوم من الأيام أن أتذوق هذا الذي يسمونه كافيار..." أكدت ماريا بيتسكو بعد قراءة الوصف المثير في الصحيفة للعشاء الذي أقامته مدام تـــيتي موســـكات، وقـــد حرّر تغطية الخبر الصحفي اللامع لولو زينيو، وزاد من التـــنهدات وعلامـــات الـــتعجب "إن الشمبانيا لا تغريني فلقد شربت منها حتى الانتفاخ".

- "الشمبانيا الوطنية يا عزيزتي لا تفيد، إن الشمبانيا الطيبة حقاً هي الفرنسية وهذه لا يمكن أن تصل إلى حلقك" وضحت دوروثيا واضعة النقاط على الحروف.

- وهل تناولت منها أنت يا أميرتي؟

- مـــرة واحدة على مائدة العقيد جارباس في إيتابونا في بالاس، أيام اللعب، ولكنها فقاقيع فكأنما تشربين رغوة ذائبة.

- ســـأتدبر عقيداً لي يوماً يكون متمكناً وأروي همي إلى الكافيار والشمبانيا الفرنسية. فرنسية إنكليزية أميركية يابانية، سترين.

وبيـــنما يتناقشن فيما بينهن في الشمبانيا والكافيار غير مكترثات بالصفحات النظيفة والآراء والافتتاحيات، فإنهن لم يقمن أي حساب للمذلة المفاجئة التي أحس بها أصحاب الصحف كون منطقة السوق العمومية تقع عملياً وسط المدينة.

وفي مـــنطقة باروكينيا إلى جانب محلة كاسترو ألفيس على مقربة من شارع تـــشيلي، الوســـط الـــتجاري النابض الذي تقع فيه دكاكين الأجواخ والملابس والأحذيـــة والمجوهرات والعطور الأكثر أناقة، كانت نساء المجتمع المخملي الآتيات للـــشراء ملـــزمات بالمرور في أوساط العاهرات، وكان يمكن رؤية الدعارة في كل وســـط المديـــنة. وفرض الحل نفسه: تغيير المنطقة وتحويلها إلى مكان سري وبعيد وكونه من المستحيل القضاء على الدعارة، الشر الذي لا بد منه، فعلينا على الأقل أن نخفـــيها عـــن أنظار العائلات الكريمة وفضول السياح وللبدء في ذلك لا بد من تنظيف باروكينيا من وجود الداعرات المعدي.

وأحست الصحافة بأنها مهانة كما يمكن ملاحظته مع هذه التعليقات، وعلى الأخص عندما كان يشار إلى الأسواق العمومية الواقعة في باروكينيا على أنّها وكر الدعارة الذي لا بد من إتلافه واقتلاعه من جذوره بصورة طارئة وملحة.

أمـــا الـــسلطات المختصة بالمحافظة على العادات والتقاليد فإنها لم تكد تسمع بالـــصرخات الوطنـــية في الـــصحف، حتى سارعت بقرار عاجل إلى نقل النساء العموميات من باروكينيا إلى لاديرا دي باكاليو.

- إنهم آلاف من البحارة يدفعون بالدولار. هل فكرتم؟

الاثـــنان الآخـــران يتفحصان الخبر في الصفحة الأولى من جريدة المساء، ولا شك في النبأ، إن الفكرة تبدو جيدة.

- وماذا تقترح بالتحديد؟

من يدخل مسرعاً لشراء السجاير أو الثقاب من بار دو أليتي المعروف من قبل الزبائن ببار العاهرات، ووقع نظره على السادة الثلاثة بربطات العنق والقبعات على

الـــرؤوس، وهم يتناقشون بحيوية في حجم رأس المال، ووضع السوق الاستهلاكية، ومـــراحل تسويق المادة، ومدة التفتيش واختيار المساعدين القادرين وتحديد نقاط العـــرض والبيع وحساب الربح، يستطيع فوراً اعتبارهم رجال أعمال وهم في طور تأسيس قواعد الشركة المالية، وبطريقة ما، لا يخطئ في اعتباره.

مـــا لبث الاثنان اللذان يحتسيان البيرة إلى طاولة قريبة ويعيران الانتباه إلى الشركاء الـــثلاثة أن تبيّـــناهم على حقيقتهم، وتبيّنا مهنتهم الحقيقية إذ إن التحري دالمو غارسيا والمحقق نيكولاو رامادا جونيور والمفوض لاباو أوليفيرا كانت تفوح منهم رائحة شرطة إلى مسافة كيلومترات، وكونهم رجال شرطة لم يكن شيء يمنعهم من تحقيق مكاسب كـــبيرة عندما تسنح فرصة استثنائية كتلك؛ ثلاث سفن حربية من الأسطول الأميركي في مـــناورات في جنوب الأطلسي تتوقف في مياه باهيا، وتتأخر هناك عدة أيام وليال راســـية في المرفأ وآلاف من البحارة سينتشرون في المدينة وجميعهم بحاجة إلى واقيات جنـــسية والدفـــع بالدولار، فكيف يستطيع دماغ بيشي كاساو الصغير أن يستوعب فكرة ممتازة كهذه؟ "انظر إلى أي حدٍّ يمكن أن يقودك حب المال"، فكّر المفوض لاباو، الـــذي بلغ هو الآخر مبلغ الحصول على بعض المال السهل: التمعت الفكرة في رأسه الجامد وأصبحت أكبر تفاهة في العالم طاقة ذكاء براقة.

- "وماذا لو أننا وسعنا قليلاً أعمالنا؟" ألمح التحري دالمو.

- توســـيع أعمالنا؟ ولكن كيف؟ هل ستبيع التين والبارمباوس في المنطقة، إن هذا من اختصاص أهل السوق ولا يستحق العناء.

لم يـــدرك المفوض إلى أين أراد التحري أن يصل، ولم يكن الأمر سهلاً على كل حال.

- من تكلم عن التين والبارمباوس؟ إني أتكلم عن بعض السّجائر.

- "سجائر؟" بذل بيشي كاساو جهداً كبيراً ليدرك ما يعنيه رفيقه، وظنَّ أنه فهم الأمر: "آه. لقد عرفت، إنك تريد أن تستبدل بعض قمصان فينوس بكروزات مـــن السجائر الأميركية، أليس كذلك؟ إن المسألة مفيدة، فالسجائر الأميركية هي مال في الجيب، أعرف أين يمكننا أن نضع الكمية".

بديهي أنه من غير المعقول انتظار فهم سريع من بيشي كاساو، ولكن المفوض كان رجلاً ذكياً ومجرباً، ونبع العرق من جبهة التحري فأخفض صوته:

- سجائر حشيش، ماريجوانا.

- "آه، إن هـــذه البـــضاعة تفرض تجارة سرية، إنها عمل معقّد وأكثر جدية وليس مناسباً مناقشة الأمر في البار أو في أي مكان عام". ووقف المفوض.

- سنخرج من هنا، يجب أن ندرس الأمر بهدوء.

وقف بيشي كاساو وصرخ في صاحب البار:

- "هون ياواد".

إنها مكاسب صغيرة لمن يدافع عن المناقب ويحافظ على الأمن العام. آه. آلاف من البحارة! ولشدة فرحه، كان بيشي كاساو يرغب في الرقص. وبينما الأخير يمر أصاب بكتفه أحد الزبائن الداخلين فكاد يوقعه أرضاً. ثم ضحك في وجهه:

- ألم يعجبك؟ إذن افعل ما تشاء.

كـــان قد لقب بيشي كاساو لأنه أكل الابنتين القاصرتين بالإضافة إلى شقيقة الـــزوجة، القاصـــر هي الأخرى. يأكل النساء بقدر ما يستطيع، لأن حبه للعائلة يشعل صدره هو نيكولاو رامادا جونيور، وهذه الممارسات ضمن العائلة أصبحت شائعة عند الملأ عندما أطلقت شقيقة زوجته لسانها معلنة:

- إن بيشي كاساو يعتدي على ابنتي الاثنتين. لقد اعتدى عليَّ أنا الأخرى في فراش شقيقتي.

إنها مخلوقة عاقة تثير الفضائح وتنقل إلى جميع الناس أسرار بيتها الخاص بسبب الغـــيرة.. وكانـــت قد أعلنت عن رغبتها في إهمال العائلة والتخلي عنها لمصاحبة موظـــف كبير في أمانة سر وزارة الزراعة، وعندها طالب نيكولاو بتعويض له عن الـــنفقات التي أنفقها على أم زوجته خلال السنوات الخمس الأخيرة: نفقات إيجار وطعـــام وملابـــس وتـــربية كاملة. ولكنه مقابل المال الذي بدّده عليها والتفاني والإخلاص والعطف الذي أظهره في الفراش، لم يتلق غير الشتائم وغير اللقب الذي سيرافقه طيلة العمر ولا يحق لأحد أن يكون عاقاً، أليس كذلك؟

إنـــه خمـــسيني سمين، ذو شكل خشن، وقبعة سوداء وملابس أنيقة، أما بيت المـــسدس فـــدائماً تحت سترته ليفرض الاحترام، وكونه موظفاً في الشرطة مع كل هـــذه السوابق فأين يمكنه هو نيكولاو بيشي كاساو أن يخدم في غير مركز الشرطة لمراقبة بيوت القمار والمحافظة على التقاليد ليفرض القانون ويكافح الرذيلة؟

كــان واحــداً من صغار الفتوّات في المنطقة، ينتزع المال انتزاعاً من القوادين والقــوادات ومن أصحاب وصاحبات بيوت الدعارة والملاهي والمحلات التجارية، وكــان يأكــل ويشرب مجاناً ويختار المرأة التي يريد مضاجعتها مهدداً ومضطهداً. والويل لمن ترفض دعوة بيشي كاساو، فإنها تدفع غالياً ثمن ترددها، وتلك المدعوة تريــزا باتيــستا، مــثلاً، ستلقى جزاءها، لأنها لم تكتف برفض مجاملات "القوي" ولكنها أيضاً عرضته للسخرية في ملهى فلور دي لوتوس أمام الزبائن:

- "احترم نفسك، لو أردت أن أضاجع خنــزيراً فإني أفتّش عنه في الحظيرة"

وإذ كانت قد تعبت من عروض وتهديدات مفتش الأمن ذاك، فإن تريزا قد فقدت أعصابها مستعدة لكل شيء وفي عينيها ذلك الوهج الماسي الحاد.

ومقابــل بيشي كاساو فإن التحري دالمو الملقب بكوكا غارسيا، كان يظهر كأنه عارض أزياء ورجل لطيف... يبدو شاباً ذا ملابس أنيقة وعلى الموضة ويعتمر قــبعة رماديــة ويحمــل سلاحاً سرياً وذا سلطة تبدو واضحة في تصرفاته الفوقية ونظــراته الثاقبة. ولكنه على الرغم من الحيوية والشباب والأناقة، فإنه كان الأسوأ بين الاثنين وكانت ردود فعله العنيف غير مرتقبة.

أما ما هو متعلق بالكوميسير لاباو أوليفيرا، فإنه على الرغم من مرتبه المتواضع قد أصبح ثرياً. وحسبما هو معروف عنه لم يكن يمتنع عن القيام بعملية مالية مربحة أياً كانت. وكان قد تعرض مرتين للتوقيف بسبب إساءته استخدام وظيفته، ولكنه خــرج بــريئاً لأن التحقــيق عجز عن إثبات الإساءة وتقديم البراهين ضد شرفه الشخصي وسلوكه المهني.

و لم يكن لتريزا أي حق في التدخل في موضوع تحويل مكان سوق البغاء، لقد كانــت تمــارس العمل في السر وفي بيت عزّاب فيفيانا، ولكنها لم تكن تمارسه في الــسوق العمومية ذات الأبواب المشرّعة لأي كان، كما أنها كانت تقيم في دار لا شــبهة عليها تقع في شارع محافظ وليس في نزل فتيات هوى. ومع ذلك شاركت في المعــركة وكانــت حسب إفادات الشهود واحدة من أكثر القائمات بأعمال الــشغب والإخلال بالأمن وأكثرهن صخباً ونشاطاً؛ وهي في رأي بيشي كاساو المسؤولة الرئيسية عن أعمال الشغب، وانصبّ غضب رجال الأمن عليها بالدرجة الأولى، وألقيت عليها المسؤولية عندما كان كل شيء قد انتهى.

كانت تريزا قد جاءت معها من منطقة الداخل بشهرة بنت شارع، وعرفت بأنها امــرأة مطلقة شعرها للريح وذات تربية سيئة، لم يدعها أحد للمشاركة و لم يــسألها أحــد رأيها فلماذا تدخلت في ما لا يعنيها؟ كانت ذات طبيعة تدفعها إلى تحــسّس معاناة وآلام الآخرين، ولا تستطيع معها تحمل المظالم وهي لا تقوى على الرضوخ والاستكانة. وكأن المرأة العامية يجب أن تكون حيواناً خنوعاً، فكيف يحق لها أن تعصي السلطات وتواجه الشرطة وتعلن الإضراب، إن هذه الأمور هي نهاية العالم.

"لقد تمّ فرض سلطة القانون بفضل التحرك الفعال والدقيق لرجال الشرطة"، كان هذا هو تصريح مفوض عام الشرطة هيليو كوتياس في مقابلة صحافية أضاف فــيها: "إذا كانــت الدقــة في العمل قد وضعت موضع الشك فإنّ حيوية رجال الشرطة كانت متوفرة كلياً، وهناك من يتكلم عن القساوة والعنف غير الضروريين مستــشهداً على ذلك بالفتاة التي أصابتها رصاصة في عنقها وبالجروح التي أصابت الطّــرفين؛ فإذا كانت قد حدثت أعمال متطرفة فعلى من يقع الذنب؟"... ثم سأل كوتــياس زملاءه الصحافيين: "لو لم نضرب بيد من حديد فإلى أين كنا سنصل؟" مــع هذا السؤال وبعض الصور التي التقطت انتهى اللقاء الصحافي العام، وتمّ تناول الموضــوع في صــحف ريو دي جانيرو الصباحية التي خصصت تحقيقات واسعة لأحداث الليلة الماضية مع نشر صور عديدة شوهدت تريزا باتيستا في واحدة منها وقــد ألقــى عليها القبض ثلاثة من رجالات الأمن، وإذ إن مصيرها متوقف على حكــم القضاء، فلم تبق من القضية إلا أن تقدم الدعوى المقدمة من مؤسسة هــ. سردينيا وشركاه ضد الدولة مطالبة بالتعويضات عن الأضرار التي لحقت بممتلكاتها، إذ إن المسؤولية في هذه الحال تقع على الدولة بسبب تخليها عن المحافظة على الأمن العام، والدعوى رابحة سلفاً ولا شك في ذلك...

لم يستطع جنتلمن الشرطة هيليو كوتياس أن يخفي حيرته:

- أين كان يسير السادة في تلك اللحظة، وماذا كانوا يفعلون؟ بحق الشيطان!

بيــشي كاساو يقدم الاعتذارات، والمفوض لاباو يؤثر المحافظة على الصمت وهــو يرمق مدير عام الشرطة بنظرة هي في الظاهر ليست ذات معنى ولكنها باردة وثابتة، مما يثير المدير العام: "لا ترفع صوتك أمامي فإني لا أحتمل. إذا فعلت ذلك

فإني سأردّ لك الصّاع صاعين، أنا لست موظفاً في شركة خاصة وحتى الآن لم يقل لي أحد كم سأربح في نقل سوق البغاء"، لم يبدل مدير عام الشرطة نبرة صوته عند إعطائه الأوامر:

– أريد كل النساء هنا وفي الحال. كلهن، سنرى إذا كن سينتقلن أم لا.

انـــسحب المفوض برفقة بيشي كاساو، وقبل أن يصل إلى الباب بدأ بالمسير بشكل طبيعي بعد أن كان قد هرول عند تلقيه الأمر.

وجئن جميعهن، وعددهن ست نساء و لم تدم المقابلة أكثر من دقائق، وكبداية حـــوار أخذن يصغين إلى مدير عام الشرطة وهو يضرب الطاولة بقبضة يده، "بماذا كنتن تفكرن؟ أبأنه لم يعد في باهيا سلطة؟ لقد تلقيتن أمراً بالانتقال وبالعنوان الذي يجـــب أن تنتقلن إليه مع أمتعتكن لتقمن فيه. وكأنكن لم تتبلغن الأمر واستمررتن بتلويث محلة باروكينيا، أي نوع من الجنون هو الذي أصابكن؟"

– "لا يـــستطيع أحد أن يقيم في مثل تلك الزنزانات القاتمة الضيقة، لا يمكن الإقامة هناك ولا استقبال رجل" قالت أكاسيا ذات الشعر الأبيض، العوراء، وسيدة أحد البيوت حيث كانت ثماني نساء يقمن ويمارسن الدعارة.

– معي هنا مندوب وزارة الصحة العامة، وهو يفيد بأنه تتوفر في الغرف كل الـــشروط الصحية الضرورية. أو أنكن ترغبن في أن تقمن في قصور محلات فيتوريا ودابارا ودا غراسيا؟ بماذا تفكرن؟

– "ولكن يا أستاذ..." حاولت أسونتا أن تضيف.

– اقفلـــي فمـــك! لم أرسل بطلبكن للقيام بحديث ودي. إن المكان صحي وتوافـــق علـــيه دائرة الصحة العامة والشرطة. لم يعد من شيء يمكن مناقشته، إني أعطـــيكن فرصـــة حتى يوم غد لكي تنتقلن، وحتى مساء الغد إذا بقي نزل واحد مفـــتوحاً في محلـــة باروكينيا فإن العصا ستأكل من أقفيتكن... وليس عليكن أن تشتكين فيما بعد وقد أعذر من أنذر.

عـــند مـــروره مـــساء بمديرية الشرطة، كان هيليو كوتياس يفتش عن بعض المعلومات المتعلقة بقرار نقل البيوت.

– أين هو المفوض لاباو؟

– يقوم بالخدمة في الشارع، أستاذ.

- ونيكولاو؟

- هو أيضاً. لقد خرجا معاً.

بالتأكـــيد لمراقبة العملية التي كلفا بالقيام بها. على كل حال فإن المهلة تدوم حتى اليوم التالي، في هذه الأثناء كانت كارمن تنتظر في السيارة واضعة على رأسها قـــبعة بيضاء، إذ كانا ذاهبين إلى دارة النائب في الجمعية العمومية ليلعبا البيريبا مع بعض المتزوجين من أصحاب الوجاهة، فابتسم مدير عام الشرطة وهو يفكر ببادا. أمـــس قال لها إنك تمثال تاناغرا وسيقول لها اليوم إنك جوكوندا دي ليوناردو. إنه في كل الحالات لا يشرب الويسكي المقلد ويكتفي بكأس من البيرة، ولكي يختصر الوقت أمر السائق باختصار الطريق فهما متأخران، ودخلت السيارة عبر أزقة ضيقة بينما الأضواء الأمامية تنعكس على النساء اللواتي يلهثن في صيد رجل بينما بعضهن عاريـــات، كمـــا خلقـــتني يا رب، عند أبواب دور الدعارة، وتلصصت كارمن بفضولية.

- إنـــك الآن من يأمر هؤلاء القوم أليس كذلك؟ يا صغيري هيليو أنت الآن ملك القحاب. فيا لك من سعيد الحظ.

- إني لا أرى أيـــة ســـعادة في هذا المركز الحساس الذي يقتضي الكثير من المسؤولية.

وخـــرجت الـــسيارة من الأزقة عند أسفل محلة دوس سابا تيروس وانعطفت باتجاه نازاريه.

في متعـــرجات الأزقـــة القائمـــة كانت النساء يفتشن عن زبائن، فينادين، ويـــوجهن الدعـــوات، ويـــستعملن كلمـــات تشير إلى استعدادهن للقيام بأشياء خاصـــة... وعـــند الأبواب والنوافذ كان بعضهن يعرضن البضاعة للبيع، كالأثداء والأفخـــاذ والأقفية والفروج كمواد رخيصة... وبعض آخر كن يظهرن حسنات الهندام وذوات أوجه مصبوغة ويحملن الحقيبة التقليدية فيتوجهن إلى شارع تشيلي حـــيث في الفنادق هناك، كان يستضاف عادة أصحاب المزارع والتجار القادمون من الداخل.

في المـــشارب كان الزبائن العاديون والطارئون منهم يحتسون البيرة والكونياك والكاشاســـا والكوكتيل، وبينهم القوادون، وبعض الفنانين، والمحدثون من شعراء

المدرســـة الرومانسية، وفي ملهى فلوري دي ساوميغيل، كان الألماني هانسن بقامته الطـــويلة وشـــعره الأشقر يرسم مشاهد ووجوهاً وأجواء عامة، بينما يتحادث مع الفتيات وكلهن صديقاته ويعرف قصة حياة كل واحدة منهن.

الحـــياة هـــنا تتعرض للعفونة في حمأة الساعات الطويلة، ويزداد الزبائن بين التاســـعة والحادية عشرة ليلاً حيث تأخذ الحياة بعدها بالعودة إلى التقلص. الشبان والشيوخ والرجال المكتملون، الفقراء وأصحاب الدخل المحدود، وغني فاحش الغنى وأصـــحاب المهـــن والجنود والعاطلون عن العمل والطلاب وأناس من كل المهن ومحتـــرفو البوهيمـــية، جمـــيعهم يشيخون هناك على طاولات المشارب الرخيصة والملاهـــي الكئيـــبة في أحضان الفتيات، ويبدو الليل هناك صاخباً، متعباً، وتسمه أحياناً سمات الارتباك والوله.

وفي ســـاعة الصخب الكبرى تمر من هناك النساء الفضوليات برفقة أزواجهن وعشاقهن، مجتازات شوارع المنطقة فتعتريهن الإثارة لرؤية حركة الدعارة الناشطة فيشاهدن النساء العاريات، وينظرن إلى الرجال داخلين إلى بيوت الدعارة ويسمعن الكلمـــات الشاذة، آه! كم هي طيبة ممارسة الحب في هذه البؤر في فراش عاهرة! ويصيبهن صقيع في نصفهن الأسفل.

وعـــند مـــرور سيارة مدير عام الشرطة، وفي منعطفات هذه المملكة الواسعة من الدعارة، شوهد بعض المارة من النساء والرجال يحثون خطاهم: تريزا باتيستا والتحري دالمو غارسيا آتيان من نقطتين مختلفتين فيصلان معاً إلى باب بيت الدعارة الواسع الذي يملكـــه فافا. وبينما يلهث تعباً وهو يرتقي السلم، وقف رجل الأمن ينظر إلى المرأة: إنها راقـــصة الـــسامبا في ملهـــى فلور دي لوتوس، يا لها من قطعة من الجمال الأسمر! هل انـــتقلت إلى العمل لحساب فافا؟ محافظة وعنيدة حسب إفادة زميله بيشي كاساو وهي تعمـــل الآن في أكبر بيت دعارة في باهيا. ماذا سيحدث إذاً؟ في يوم ما، وبهدوء، فإن التحـــري دالمـــو كوكا سيستجلي حقيقة تأكيدات كاساو، إذ ليس لديه اليوم الوقت الكافي لذلك، إنه موضوع مهم يستحق أن يأتي من أجله لزيارة فافا. وتقدم مستمراً في ارتقاء السلم بينما انتظرت تريزا في الشارع بعض دقائق.

علـــى الرغم من الإتاوة التي يدفعها شهرياً وبانتظام إلى مفوض الشرطة لاباو وإلى طابـــور كامـــل مـــن رجالات الأمن، فإن صاحب المنـــزل فافا قد تعرض

لعمليات ابتزاز عديدة نتيجة ابتداع رجال الشرطة التهم لابتزازه. لذا غدت الشرطة بالنسبة إليه مجموعة من البشر لا كلمة لها ولا عهد يمكن الركون إليه.

وإلى جانب سوء أعمال الشرطة فقد عانى فافا من خيانة النساء. إنه لا يقع في شراكهن بسهولة، ولكن عندما يحصل له أن يقع في الحب فإنه يفقد عقله ويتحول إلى طفل. ففي البدء يعشق، ثم تكبر القصة الرومانسية. ثم يجعل العشيقة المختارة تتنقل إلى غرفة الطابق الأول مانعاً إياها من ممارسة الدعارة ثم يغرقها بالهدايا والطيبات، ولكن كم منهن انتهين هناك إلى سرقته؟ جميعهن تقريباً.. فيا لهن من صنف تافه وعاهرات بلا قلوب.. لقد كن يضاجعنه بغية انتزاع أكبر قدر ممكن من المكاسب ولكنه يثور عند ذكر واحدة: إنها أنونسياسو دي غراسا الشقراء السمينة الطويلة ذات الابتسامة الدائمة. لقد كانت تبدو كأنها الطيبة بعينها، وذلك حتى اليوم الذي كان فيه مقعداً في فراشه وعاجزاً عن النهوض دون مساعدة، فجاءت تعلمه برغبتها في العودة إلى منطقة الداخل في ذلك الصباح الباكر وفي الحال أخذت المال المحفوظ في الدّرج وهو حصيلة عمل اليوم السابق وابتسمت له متهتكة إذ لا يفيده بشيء الصراخ في تلك الساعة المبكرة حيث ينام الجميع في المنزل الموصد الأبواب، وشاهدها فافا تعبث في الدّرج وهو في فراشه. أين وجد القوة والوسيلة، لكي ينزل من فراشه ويزحف أرضاً؟ كيف تمكّن من الإمساك بها؟ وعندما تدخل مرافقه جيكي ودخل الغرفة مسرعاً، كان هو قد ألقاها أرضاً وأمسك بخناقها. نجت منه بأعجوبة! فمن أعطاه القوة؟ يا له من سؤال!

"أريد أن أكلمك على حدة" قال له التحري دالمو غارسيا. ففكّر فافا بأن المحادثة ترمي إلى انتزاع ماله. إن هذا التحري ليس مدوناً في مفكرته التي يدفع المال بموجب الأسماء التي تحتويها: فهو يعمل في قطاع المخدرات ويهتم بالمهربين بينما فافا يحافظ على نفسه بمنأى عن عالم المخدرات... لقد كان اسمه على كل حال دالمو كوكا وهو السيئ الأخلاق بطبيعته، ويعرف فافا هذا لأن كل ما يحدث في المنطقة يصل إلى سمعه.

كان التحري كوكا الأقل جهلاً والأكثر حماقة بين الشركاء الثلاثة في الشركة الجديدة، والمكلفين باستقبال وحماية المدافعين الأبطال عن الحضارة الغربية لدى رسوهم العابر في مرفأ باهيا، وبالدفاع عن سلامة صحتهم بغية تقوية طاقاتهم الجنسية وإفساح المجال لأحلامهم الكبيرة.

وجلس كوكا على الكرسي ذي المرفقين إلى جانب الدّرج الذي يضع فيه فافا ماله، وراح يخبر القواد بكل شيء دون أن يطلب انسحاب أماديو ميستري جيكي الشاهد على الحوار. إن بائعين متجولين سيتم توزيعهم في طول المنطقة وعرضها ليبيعوا إلى البحارة الأميركيين مخدرات كان قد صنعها هارون مادروغا أحد أصدقاء بيشي كاساو... ولتلك المرحلة من العمل لم يكن كوكا بحاجة إلى مساعدة فافا، ولكنه كان بحاجة إليه في مسألة أكثر فائدة: ففي حين تؤخذ الاحتياطات في الشوارع ويوزع مسؤولو الأمن ذوو الثقة في بيوت الدعارة، فإن على فافا أن يعرض على الضيوف الطارئين من البحارة الأميركيين وبسعر معقول سجائر من أفضل أنواع الحشيش الوطني.

- أتريد أن تبيع الحشيش هنا في بيتي؟

"ليس هذا وحسب يا سندي. ستكون مسؤولاً عن كمية الحشيش وعليك أن تتسلمها في مساء اليوم لأن دالمو كوكا يفتش عن مكان آمن ليحتفظ بها إلى حين الشروع بالبيع بالمفرق" إن سفن الأسطول الأميركي قد تصل في أية لحظة والمكان الآمن للبضاعة هو دهاليز فافا. أليس عند فافا خزانة حديدية موضوعة في الجدار؟ أجل، عنده مثل هذه الخزانة منذ حادثة عشيقته أنونسياسو دي غراسا، وإن تكن صغيرة فإن خزانة كتلك الموجودة في الغرفة تفي بالغرض على أن يغيّر المفتاح والقفل؛ إن بيت دعارة واسعاً وذا حركة دائمة من الرجال والنساء هو المكان المثالي، ومن هنا يمكن توزيع المادة بهدوء على رجال الأمن المكلفين بالبيع.

- "أتريد أن تحتفظ بالحشيش في بيتي؟ في غرفتي؟" وكادت عينا فافا تخرجان من حدقتيهما:

- "إنك مجنون! هنا في بيتي لا يمكن فعل ذلك. لا. أبداً".

اكتفى دالمو كوكا بالتهديدات. "فكّر مرتين قبل أن ترفض لرجل الأمن خدمة صغيرة. ألم يكن موعد نقل السوق العمومية قد حان؟ سيتم نقل نساء سوق البغاء من باروكينيا إلى لاديرا دو باكاليو وكل المكان سيختفي من هنا، من مركز المدينة إلى منحدر الجبل في أسفل المدينة، ومن كانت الشرطة راضية عنه فسيكون له امتيازات، ولكن الويل لمن هو على اللائحة السوداء!" وكونه ربّ عمل كبير كهذا ومزدهر، فإن فافا يجب أن يحافظ على السلم مع رجالات

الأمن. وسيعود دالمو كوكا غداً مساء ليدخل في التفاصيل وقد يعود معه بكمية الحشيش.

- كانـــت علبـــتان من السجائر الأميركية موضوعتين فوق الدّرج فوضعهما التحري في جيبه وانصرف، وأطرق فافا رأسه مفكراً وهو لا يعرف ماذا يفعل.

وخلافاً للنساء في محلة باروكينيا، فإن فافا كان يقرأ المجلات وأخذ منها علماً بالحملة المتعلقة بتحويل المنطقة، ولكنه لم يكن قلقاً إذ يكفي أن يثار الموضوع حتى تنهمر الصحف بنشر الفضائح حول القضية. ولكنه مساء أمس علم بأن مدير عام الشرطة كان قد أعطى مهلة ثمان وأربعين ساعة لإخلاء محلة باروكينيا وأعلن حالة الطوارئ. والآن وقد سمع فافا التحري يؤكد ذلك فإنه اقتنع بما هو أسوأ.

إن قـــرار الـــتحويل يعني بالنسبة إليه خسارة لا حدَّ لها. وربما يكون المخرج الوحيد من المأزق هو بالاحتفاظ بكمية الحشيش لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وسط هذه المعمعة الجديدة المرتقبة. هذا إذا لم تكن كل العملية مسألة خيانة وعملاً من أعمال الشرطة كأن تضع هذه الأخيرة الحشيش في غرفته وتغزو المكان، وتضع حداً لحياته بغية الخروج بمدخراته.

وبينما هو في هذه الحال ظهرت غريتا غاربو أمام باب غرفته:

- يوجد هنا امرأة تريد أن تتكلم معك تدعى تريزا باتيستا.

ألقـــى نظـــرة على تريزا فكأنما انفجرت فيه كل كوامن الحب دفعة واحدة فأصـــبح متولّهاً بها. إنه وله مفاجئ فهل يكون حباً من النظرة الأولى؟ يمكن القول "أجـــل": هـــي المرة الأولى ويتأمل فيها لحماً وعظماً واقفة إلى الباب وهي تبتسم بسنها الذهبية.

كـــان قـــد سمع الكثيرين يتكلمون عن تريزا باتيستا. وكان قد عرف بقضية خنجـــر تولـــيدو وغـــضب الإسباني رافاييل فيورا وتدخل تريزا لإنقاذ حياة ماريا بيتـــسكو، وفي الـــوقت نفسه إفساح المجال لهرب القائم بمحاولة القتل غيرة. فكان الحـــدثان مدعاة تقدير في كل المنطقة، ونقل إليه أيضاً ردّ تريزا العنيف على بيشي كاساو حين بصقت في وجهه، وقالوا عنها إنها كانت جذابة المظهر ولكن ما قالوه هو دون الحقيقة بكثير. وفي اضطرابه العاطفي نسي فافا زيارة دالمو كوكا غارسيا واشمئزازه وقلقه.

- تفضلي واستريحي.

اجتازت تريزا الغرفة سريعة مرنة، فيا سبحان الخالق! وجلست على الكرسي الـــذي كـــان يجلس عليه التحري. أخذت يدا فافا المقعد تدوران بعجلتي كرسيه الطبـــــي متقرباً منها. "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ إنك ترتادين بيت عزّاب تافيانا صـــاحبة الزبائن المختارين اختياراً من الأغنياء فلن تأتي للعمل في دار دعارة مشرّع الأبـــواب لجماهير الناس العادية. هناك في ليلة واحدة وبممارسة جنسية واحدة مع عجـــوز حسن التربية، نظيف وكريم تربح تريزا ما لا تستطيع أن تربحه أية فتاة هنا في بيت فافا خلال يومين وليلتين من العمل تستقبل الرجال واحداً إثر واحد".

وبحركتها الصريحة والعزم دخلت تريزا في صلب الموضوع:

- هل سمع السيد بضرورة نقل مكان المنطقة؟

الصوت الدافئ يكمّل صورة الحلم الهارب مع ضوء الفجر الأول. وبدا فجراً آخـــر تكـــوين عينيها السوداوين في وجهها الهادئ ذي المسحة الكئيبة، وشعرها المـــسبل المـــسترسل علـــى كتفيها، ورشاقتها، ولونها النحاسي ورهافة حركاتها الجديـــة...، لم يفهـــم فافا مع كل ذلك معنى السؤال... ولم ينتبه إلا إلى المعاملة المهذبـــة التي تعامله بها، فهو لم يجد في كل باهيا من يناديه يا سيد، حتى الأشخاص الذين كانوا يخافونه وكانوا كثيرين. كيف يعاملها؟

- ناديني بفافا حتى أستطيع أن أناديك بتريزا فهذا أفضل؛ عمّ سألتني؟

- بسرور. سألت إذا كنت قد سمعت عن نقل المنطقة.

- كل الناس يتكلمون عن هذا النقل.

- إن لدى المقيمين هنا مهلة حتى الصباح ليذهبوا إلى محلة لاديرا دو باكاليو. هل تعرف شيئاً عن زنزانات لاديرا؟

- سمعت أشياء.

- وهل تعرف أن من لا يحتويهم المكان الجديد سيتم نقلهم إلى ماسييل؟

- الآن وقد سألتني الكثير دعيني أسألك: لماذا كل هذا؟

- إن المقيمين في باروكينيا لن ينتقلوا.

- هيه؟ لن ينتقلوا؟

وكرّر السؤال مشغوفاً:

- كيف لن ينتقلوا؟

- بأن يبقوا حيث هم في باروكينيا.

- مـــن قال لك هذا؟ العجوز أكاسيا؟ أسونتا؟ ميرابيل؟ ما تقوله ميرابيل لا يمكن كتابته. والعجوز أغاسيا سترفض تنفيذ القرار؟

- أجل! لن ينفذ أحد القرار.

- إن الشرطة ستتحول إلى شيطان مصبوغ.

- الناس يعرفون هذا.

- إن الشرطة قادرة على إخراجنا بالعصا.

- حـــتى مـــع العصا فإن المقيمين هنا لن ينتقلوا. لن يذهب أحد إلى بيوت باكاليو وحتى إن استلزم الأمر البقاء في الشارع.

- أو في السجن.

- ولن يبقى أحد في السجن طيلة الحياة ولهذا جئت إليك.

- ولماذا؟

- يقولـــون إنه بعد باروكينيا سيأتي دور منطقة ماسييل. قل لي، وإن لم يكن فضولاً، هل السيد... عفواً: هل ستنتقل؟

حافظ فافا على عينيه محدقتين في تريزا، ويا لتلك العينين الحذرتين المشككتين! فلماذا لا تكتفي بأن تكون جميلة؟ إنها جميلة جداً، سبحان الخالق:

- إذا استطعت أن أتخلص من الانتقال بطريقة ما فسأفعل.

- وإذا لم تجد طريقة؟ ها هي ميرابيل قد أعطت كل ما كانت تمتلكه من مـــال إلى المفـــوض لابـــاو، فقـــبض المبلغ ومع ذلك توجّب عليها أن تنتقل كالأخريات تماماً.

- وإذا لم تكن من طريقة؟ فإني لا أريد أن أفكّر.

- ولكـــن إذا لم ينـــتقل أحد؟ فهل تظن أن الشرطة قادرة على إجبار الناس عنوة؟ لا أظن؟

إن عصيان أوامر الشرطة هو أسخف الأفكار وأكثرها جنوناً، ولكن إذا كان بإمكان المق ن هنا أن يجدوا المكان الذي سينتقلون إليه أو يحافظوا عليه حيث هو منذ سنين فسيكون الأمر رائعاً... وعوضاً عن أن يجيب عن السؤال، سأل هو:

- قـــولي لي رجاء: هل تصدقين أن الشرطة ستتطاول على بيت تافيانا مع ما عندها من الوجهاء الذين يحمونها؟

- لا أعرف.

- إني أشـــك... تستطيع الشرطة أن تنقل أياً كان عدا تافيانا، وما دام الأمر كذلك فلماذا تتدخلين، وتتكلمين كأنما تعيشين في باروكينيا أو هنا؟ لماذا؟

- لأني إذا كنت أرتاد الآن بيت تافيانا، فإنني قد مارست المهنة سابقاً في بيت دعارة مشرّع الأبواب وقد أعود من جديد.

وصمت فافا برهة ورأى في عينيها ذلك الوهج الشعاعي:

- لقـــد مـــررت بمـــشاكل كثيرة، وتعلمت أن الناس الذين لا يعاركون لا يتوصـــلون إلى شيء في هذه الحياة... إن مقاومة أوامر الشرطة هي الفكرة الأكثر جنوناً وسخفاً ولكن من يدري؟ الأمر يستحق العناء.

- غداً ظهراً سأبلغك بقراري، سأفكّر...

- سأعود غداً في تمام الثانية عشرة ظهراً. تصبح على خير يا فافا.

- ستذهبين الآن؟ ألا تريدين أن تتناولي شيئاً؟ جرعة ليكور؟ لديَّ الجيد منه من صنع الراهبات.. ليكور كاكاو... إن الوقت مبكر سنتحدث قليلاً.

- لديَّ ما أفعله قبل أن أذهب إلى ملهى فلور دي لوتوس.

- غداً ظهراً إذاً؟ تعالي لتناول الغداء معي. قولي لي ماذا تحبين أن تأكلي؟

- ما هو متوفر. شكراً جزيلاً.

- نهـــضت، فراح فافا يتأمل في لحمها وعظمها: سبحان الخالق! فاستأذنت وهـــي تبتـــسم.. وانتهـــى إلى أنها جميلة جداً ولكنها لا تستفيد من ذلك بسبب أفكارهـــا السخيفة. يا فافا لا تكن مجنوناً، انتبه إلى نفسك، وتذكر أنونسياسو دي غراسا... إن في صدره نيراناً مشتعلة فكيف يستطيع فافا أن ينتبه لنفسه؟ لقد وقع في الحب وأصبح مولهاً بشكل أفقده رشده.

عـــندما ظهرت تريزا في اللحظة غير المنتظرة، بينما كانت السيدة باولينا تهم بتجهيز الحقائب وصناديق الأمتعة للانتقال، فإن تريزا لم تستأذن للدخول وأصغت إلى باولينا تقول:

- ابقي بجانبـــي وقولي ماذا تريدين؟ هل أنت بحاجة إلى المال؟

- شكراً. لم أجئ من أجل هذا. غداً يجب أن ينتقل المقيمون في باروكينيا.

- إنه استغلال وحكم اعتباطي، لقد كان المدعو بيشي كاساو هنا ويطلب مالاً من المقيمين من أجل الانتقال.

- ولكن المقيمين في باروكينيا لن ينتقلوا.

وبدا التعجب في عيني السيدة باولينا دي سوزا:

- هل سيعصون الأوامر؟ ومن يكفل النتائج؟

- كل واحد يستطيع أن يكفل النتائج إذا قرّر الجميع ألا ينتقلوا، لقد تكلمت في الأمر مع فافا وأظن أنه سيلعب اللعبة.

- أفصحي يا عزيزتي...

وأعادت تريزا الشرح مرة أخرى. إن إجبار الشرطة الناس على الانتقال مسألة بسيطة، ولكن كيف ستنتقل منطقة بكاملها إذا لم يرضخ أحد لقرار التحويل؟ إن المقيمين في باروكينيا قد قرروا ألا ينتقلوا.

- ألا يطيعوا؟ آه، إن الشرطة...

- أجل إن الشرطة ستستخدم العنف وتعتقل وستفعل كل شيء.. ولكن حتى بهذه الطريقة سترفض النساء الانتقال ولن تذهب واحدة منهن إلى زنزانات باكاليو، وإذا لم يستطعن استقبال الرجال في باروكينيا، فسيستمررن في الممارسة هنا وهناك في بيوت الصديقات. إن صاحبات بيوت العزّاب يستطعن المقاومة عدة أيام حتّى تتخلى الشرطة عن قرارها... فمع الانتقال سيكون العطل والضرر أكبر بكثير من التوقف عن العمل عدة أيام.

- هذا صحيح.

إذاً؟ إن المقيمين في ماسيل لن ينتقلوا هم الآخرون، وفافا سيعطي جواباً غداً.. ولكن تريزا تراهن على خضوعه. وكذلك بيوت بلوريتيو وتاباو إذا كانت السيدة باولينا موافقة، وكل شيء متوقف عليها.

- جنون! أفضل طريقة هي الدفع وملء جيوب رجال الشرطة. وبيشي كاساو الحقير قد بدأ يجني الأرباح.

- وإذا لم يفد الدفع؟ لقد دفعت ميرابيل فلم يحل الدفع المشكلة؟

كانـــت باوليـــنا إحدى ملكات الكارنفال، وذات سلطة في المنطقة فذهبت تستشير أمها التي استقبلتها بالعناق، ثم تكلمت الأم بصوت ثابت لتجعل الموضوع منتهياً. "من أراد الذهاب يذهب ومن لم يرده يرسل رسولاً فيخسر الوقت والمال".

- "وهل الصبية تريزا موضع ثقة؟"

- "أجـــل! لقـــد كانت واضحة كل الوضوح: سلطوية، محاربة، ابنة يانسان يحرسها الإله أوغون وينجيها الإله أوشالا من العواصف".

مـــساء اليوم الثاني كان ألميريو داس نيفس يرقص مع تريزا في ملهى فلو دي لوتـــوس ويحـــس بهـــا قلقة... مضت أربعة أيام دون أن يفتش عنها، إذ ظلّ أسير الفـــراش بسبب الأنفلونزا الحادة التي أصابته، وما كاد يغادر الفراش حتى جاء إلى الملهى فاستقبلته تريزا مسلّمة عليه بحرارة.

- لقد اختفيت عن أنظاري لأنك بدأت تتكبّر علينا ربما.

وكان القلق يختفي وراء تلك الممازحة. وعلى حلبة الرقص سألها إذا كان قد وصـــلها أي نـــبأ جديد عن جيريبا. "كلا، لا يوجد مع الأسف". لقد اكتشفت عـــنوان مكـــتب الـــشركة الـــتي وظفت البحارة بطلب من قائد سفينة الشحن، ووعـــدوها هـــناك بأنـــباء يأتونها بها فيما بعد، وما إن يحصلوا على الأخبار حتى يـــزودوها بهـــا، "ومن الأفضل أن تودعي هنا رقم هاتفك". لم يكن لديها هاتف ولكن ستمر من حين لآخر بمكتب الشركة. وقد ذهبت إلى هناك مرتين وحتى الآن لم تحـــصل على شيء، ولا بد أن السفينة بالبوا قد اتبعت خطاً بحرياً جديداً، لأن هـــذه السفن الباهيانية لا تسلك أبداً خطوطاً بحرية منتظمة، وتذهب إلى حيث تجد حمولة فكأنها سفن غجرية، وأوضح لها الإسباني غونزالو مدير أعمال الشركة، وهو ينظـــر إليها نظرات عادية باردة، ولم تجد تريزا إزاءها إلا التحلي بالصبر والرّضوخ إلى مشيئة الخالق.

وأراد ألميريو أن يعرف ما فعلته خلال هذه الأيام، آه، أشياء كثيرة، وهو ليس علـــى علم بالتطورات ولديها الكثير لتخبره. وبدت أكثر اضطراباً لا يهدئها رقص ولا محادثة.

- هـــل تعـــرف مع من تناولت وجبة الغداء اليوم؟ دجاج محشوّ مشهود له. أشك بقدرتك على التكهن.

- مع من؟
- مع فافا.
- فافا محلة دون ماسييل؟ إنه شخص خطير. منذ متى تختلطين به؟
- تعرفت إليه منذ فترة بسيطة... سأشرح لك الأمر...

لم يكن هناك وقت لتشرح! فقد دخل أحد الزبائن الملهى راكضاً وأعلن عند الباب دون أن يلتقط أنفاسه:

- في محلة باروكينيا بدأت عصا الشرطة تأكل الأفقية.

قفـــزت تريـــزا من بين ذراعي ألميريو، واتجهت إلى السلم المؤدي إلى أسفل وخـــرجت مهـــرولة إلى الشارع. وهرول التاجر هو الآخر دون أن يفهم شيئاً مما يحدث، ولكنه لم يكن يريد أن يترك تريزا وحيدة. وبدأت الشائعات الشعبية تجذب الـــناس، بعـــضهم كان محتاراً، والبعض الآخر مناقشاً... وازداد عدد المتجمعين في محلة كاسترو ألفيس. وكانت صفارات سيارات الشرطة تصل إلى هناك. وانتزعت تريزا نعليها لتسرع في الركض دون أن تلاحظ ألميريو وهو يلحق بها مقتفياً آثارها.

مـــرّت بالقرب من تريزا شاحنة معبأة بالسجناء تعقبها شاحنة أخرى، بينما شاحنتان بقيتا في محلة باروكينيا لتكملا الحمولة.

لقد انتهت المقاومة وكانت الأزمة قصيرة وعنيفة. وترجل من حاملات الجنود الكـــثيرون مـــن الحراس ورجال الأمن، فأقفلوا الشارع وغزوا المنازل وقللوا من الصخب. وهوت العصي على أكتاف الثائرات، والبعض من الرجال والزبائن الذين كانـــوا يقومـــون بالعمـــل هناك، حاولوا منع العنف فتلقوا نصيبهم من الهراوات واعتقلوا.

نساء كثيرات قمن بردود فعل. فقد عضّت ماريا بيتسكو التحري دالمو كوكا وأدمـــته، كمـــا أن الـــزنجية دومنغاس بقوة الثور، ظلت تقاتل إلى أن استسلمت. وأوثقهـــن رجال الأمن ورموا بهن في السيارات المخصصة لنقل المساجين. حصاد كـــثير ومـــنذ وقـــت طويل لم يتم سجن مثل هذا العدد من العاهرات في معركة واحدة. أما الليل في السجن فسيكون ذا صخب كبير.

عـــند وصولها إلى بداية الشارع، لمحت تريزا رجلي أمن سريين يمسكان بأكاسيا. العجـــوز التي كانت تطلق الشتائم وتحاول التخلص منهما فانضمت تريزا إلى المجموعة:

"إنهـــا تريزا الجميلة العراك" وبينما المسدس في يده ميّز بيشي كاساو راقصة ملهى فلور دي لوتوس. آه! لقد أتت ساعة الانتقام وستدفع الكلبة غالياً ثمن نباحها.

وقـــرب تريزا كان أحد رجال الأمن يطلب من المجتمعين أن يتفرقوا وإذ سمع صراخ بيشي كاساو يشير إلى الفتاة:

- هذه الموجودة هنا: امسكها ولا تدعها تهرب. هذه بالذات.

رمت تريزا نعليها فأصابت رجل الأمن ومرّت أمامه تريد أن تصل إلى أكاسيا قبل أن يضعوها في شاحنة المساجين. فتقدم بيشي كاساو فوجدت تريزا نفسها بينه وبـــين الـــشرطي المجروح الوجه وهو يزمجر ويبصق غضباً: "ستدفعين الثمن أيتها العاهـــرة البائسة!" من أين ظهر فجأة العجوز الذي وقف بينها وبين بيشي كاساو بيـــنما تمـــر شاحنة المساجين؟ كان العجوز متعافياً يرتدي بزة بيضاء وقبعة تشيلية وسلسلة ذهبية تتدلى على صدره.

- "اذهب من أمامي أيها العجوز القذر" هدّد بيشي كاساو وهو يصوّب إلى العجوز فوهة المسدس.

العجوز لم يكترث وظلّ واقفاً أمامه لا يسمح له بالمرور. وحاول التحري أن يدفعـــه فلم يستطع أن يحركه من مكانه، وفجأة وصل أليريو ودفع تريزا إلى سيارة التاكسي. ولكنها اعترضت:

- إنهم سيأخذون أكاسيا.

- لقـــد أخـــذوها وانتهى الأمر. هل تريدين أن تذهبـــي أنت الأخرى. هل جننت؟ وعلّق السائق:

- لم أرَ في حياتي حقارة كهذه. إن ضرب النساء جبن.

حاول بيشي كاساو ورجل الأمن عبثاً أن يعرفا أين اختبأت الشقية. واختفى العجـــوز دون أن يترك أثراً. أي عجوز؟ ابن عاهرة قد سدّ الطريق... لم يرَ أحد عجوزاً، لا الآن، ولا قبل ولا بعد.

وغادرت شاحنة المساجين الأخيرة محلة باروكينيا، بينما صفارتها تلعلع وسط الفضوليين المتجمعين في محلة كاسترو ألفيس.

جاء رجال الأمن والشرطة من داخل بيوت العاهرات ببعض الأثاث الموجود في كـــل بـــيت، وهو كناية عن فرش وكماليات وملابس وصورة قديسة ومرآة

صـــغيرة، وتمّ تجميع تلك الأشياء أمام الأبواب؛ فيما بعد جاءت شاحنة شرطة فتمّ تحمـــيل الأطمـــار والخـــرق البالية ووضعت في محلة دا لاديرا دوبا كالياو. لقد تمّ الانـــتقال الرمزي، أما نساء المجمّع الجديد عندما يطلق سراحهن، فسيدفعن إلى نقل مـــا تبقـــى من قطع الأثاث الكبيرة الحجم والأشياء المستعملة، هكذا أبلغ المفوض لابـــاو المظفر مدير الشرطة العامة هيليو كوتياس عند انتهاء العاصفة، وخيّم الهدوء التام على المقودة الكبيرة: إن العصيان غير المسموح تمت تصفيته كما تمّ إطفاء نار الغضب الشعبـــي. إذا أراد الأستاذ الكبير أن ينام بهدوء فليضع السجناء من رجال ونساء في عهدة المفوض في السجن؛ "أستاذ، سيكون الليل ليل متعة خاصة".

في حـــين ذهـــب مديـــر الشرطة لينام مسترسلاً للهدوء، كانت أنباء العنف والـــسجون تجوب الأنحاء متسارعة في الأزقة والشوارع وبيوت العزّاب والنـــزول وتختـــرق أســـواق البغاء والملاهي والبارات. وأصغت السيدة باولينا دي سوزا إلى تقريـــر مأساوي من فم أحد الزبائن فتذكرت كلمات الأمس: "من لا يجازف لا يحصل على شيء". وفوراً أعلمت الفتيات الموجودات هناك:

- مـــن يـــصادف امرأة من محلة باروكينيا، فليعلمها بأنها تستطيع أن تمارس مهنتها هنا ما دامت الأمور سائرة على هذا المنوال.

أما فافا هو الآخر فقد أصبح مهتماً بمتابعة التطورات، وبدا قلقاً وهو ينتظر وصـــول الأب ناتيفيدادي الذي منعته التزاماته المالية من الخروج خلال النهار ليأتي ويرسم اللعبة. وعند ساعة الغداء لم يستطع القواد أن يعطي تريزا الجواب الموعود:

- فقط بعد منتصف الليل، اعذريني. المسألة ليست متعلقة بـــي وحدي.

ومـــن حسن حظه أن التحري لم يأت بعد بكمية الحشيش، ولكن يمكن أن يـــصل في أية لحظة. وإن دالمو كوكا قد اشترك في حملة التأديب في محلة باروكينيا ووصـــل الخبر بالتفاصيل إلى فافا، وكانت هناك المرأة الرائعة هي الأخرى و لم يتم اعـــتقالها بأعجـــوبة. وظـــلّ فافا جالساً على الكرسي الطبـــي تتنازعه أحاسيس متناقضة من طموح وحب واتزان وغضب.

بينما في بار فلوري دي ساوميغيل كانت المدعوة نيليا كاباريه فتاة شعبية في داخل سوق البغاء وخارجها وصديقة الجميع تعلن على الملأ:

- فلـيعلم كـل واحد أن فتيات محلة باروكينيا ما دمن خارج بيوتهن فإنني سأقفل المكان ولن أستقبل رجلاً مقابل أي مبلغ من المال يدفعه، ومن كانت منكن امـرأة مـستقيمة فلتتـبعني ولتقفل مطارحها الجنسية، ولتضع في ذهنها أن هذا الأسبوع هو أسبوع قداسة.

وقـف الألماني هانسن وقبّل نيليا كاباريه في وجهها، وأعلنت ست نساء كن جالـسات إلى الطاولات إنهن متعاونات معها. وخرجن إلى الشارع ورحن يعلنّ القـرار مـن باب إلى باب. ودبّرت نيليا كاباريه مقلباً لصاحب البار فأدركته في الغـرفة العلـيا من المكان وبصحبتها الأجنبـي وبعض الشعراء وبعض المشرَّدين والمـصمم خلـيل عشيق أناليا، وهم بمجموعهم بقايا البوهيميين في عالم يستهلك نفسه سريعاً.

أغلق البار في الحال. لقد ابتدأت الآن روزنامة جديدة وانتهى زمن تولّه العاهرات في الـشوارع، ولـن ينتهـي العقاب إلى أن تعود الفتيات جميعهن إلى محلة باروكينيا وينشدن الهاليلويا لإعادة فتح بيوت الدعارة. وكان الحل أكيداً إذ جاء عفوياً.

وقفـزت النـساء مـن فراش العمل، فأغلقن أنفسهن على الرجال تاركات الزبائن وهؤلاء في قمة التوقّد الجنسي.

في المخبـز، روت تريزا لألميريو إجراءات غزو محلة باروكينيا من قبل قوات مديـرية أمـن الملاهـي والمحافظة على التقاليد، وكان ألميريو قد قرأ عنه الكثير في الصحف واطلع على معارضة نقل مكان سوق البغاء. في رأيه أن تريزا لا يجب أن تعود إلى ملهى فلور دي لوتوس في تلك الليلة لأن الشرطة تستهدفها، ألم تقرأ تريزا في غضب بيشي كاساو ذلك الحقد العارم؟

الأفـضل أن تنام هنا في غرفة الطّفل زيكس وليس في بيت السيدة فينا حيث يمكن أن تكون أيضاً موضعاً لاستغلال رجال التحري القادرين على فعل أي شيء. لكن تريزا رفضت العرض. وبعد أن ألقت نظرة أخيرة على الطفل المتمدد في فراش جديد استأذنت بالانصراف.

- دعيني أرافقك حتى البيت على الأقل.

ولا حتى هذا، فهي لا تريد أن تأوي إلى فراشها الآن. قبل كل شيء يجب أن تنال جواب فافا. إنها الثانية عشرة والربع ليلاً. إذا رفض الجميع، دون استثناء، أن

ينتقلوا فإن الشرطة ستجد أذرعها في الهواء. "هل فكرت في ملامح هؤلاء الرجال المتعوّدين على الأمر والنهي؟" لكن ألميريو لا يشارك تريزا حماستها؛ لماذا يتدخل في أمـــر لا يعنيه؟ وما دام عنده الكثير من المشاكل فلماذا يفتش عن المزيد منها؟ من يــدري فقد تنسى تريزا في العراك أحزانها الأخرى، تنسى السفينة بالبوا والغجري المبحر في المحيط الهادئ وجانو الحب، والبحّار الضائع؟

- إذاً سأتركك عند باب فافا.

عـــندما مدَّ ألميريو بيده إلى تريزا أمام السوق العمومية ليساعدها على الترجل من التاكسي كانت مجموعة من النساء يهتفن هتافاً مبهماً:

- لقد أقفلت الممرات! أقفلت الممرات.

صعدت تريزا السلم:

- شكراً، ألميريو، وإلى الغد.

ولكـــن ألميريو لم ينصرف لتوه وطلب من السائق الانتظار. واقتربت النساء فـــأراد السائق أن يعرف معنى كل هذا. إن النساء في هذه المنطقة قد قررن إقفال أنفسهن على الرجال، هذا ولا شيء آخر.

هـــزَّ الـــسائق برأسه: "تسمع في هذا العالم أموراً غريبة، فأين رأيت احتفالاً بالجمعة العظيمة عند نهاية السنة؟ يا لهن من زمرة من الثملات!"

تأمل في المرأة الرائعة وأصبح عسيراً عليه السيطرة على كلمات الحب الواقفة علـــى شفتيه. لقد تولّه بها تولّهاً صاعقاً والطريق إلى الفراش ما يزال طويلاً. ولكن فافا يحبّ أن يتقدم بتؤدة وهو يعيش متعة الانتظار في كل لحظة، وكل كلمة وكل حـــركة، وهـــذا هـــو العشق الهادئ؛ إن قلبه رقيق رومانسي، ولكن الوضع الآن مختلف، فمع الحب تمتزج المصالح المختلفة. فافا لا يزمع على الإفصاح عن مشاعره قبل أن يصغي إلى إيشو. عيناه تخذلانه مع ذلك، فإنهما تقعان قويتين على الفتاة؛ إن الأب ناتيفيدادي لن يتأخر في الوصول فقد خرج المعلم جيكي في تاكسي ليأتي به.

- اصـــبري قليلاً وانتظري دون أن تؤاخذيني. أعرف أنك كنت في باروكينيا في ساعة اللغط. ماذا ذهبت تفعلين هناك؟ لماذا تجازفين بنفسك؟

- لقد وصلت متأخرة جداً وكان عليَّ أن أكون هناك منذ البداية. ألستُ من قلتُ لهن بألا ينتقلن من المكان.

- لست منطقية، ولكني أحب الناس أمثالك الذين يكونون حركيين.

- هناك أكثر من عشرين امرأة سجينة بين سيدات نزول وفتيات هوى.

- أما زالوا يعتقلون حتى هذه الساعة. انظري، أهذا ما كنت تريدينه؟

- أكان من الأفضل طأطأة الرأس والانتقال للعيش في تلك الحفرة الكريهة؟ ألا تجيب؟ إن الشرطة لا تستطيع إبقاءهن سجينات طيلة الحياة.

وصلت عبر الممرات ضجة غير مرتقبة من الصراخ واللغط والهرج والمرج. خطوات، كلمات، ضحكات، وعدة أشخاص يهبطون الدرج مسرعين معاً.. أعار فافا انتباهه: "ماذا يجري؟" وأصبح الضجيج أقوى فأقوى في الطابق الأسفل كما في الطابق الأعلى. وظهرت غريتا غاربو في باب الغرفة مهتاجة:

- "فافا، إن النساء منصرفات لتوّهن تاركات الرجال في الفراش في غمرة الشّهوة. يقولون إن النساء قد أعلنّ الحداد بسبب مشكلة باروكينيا وقد أصابهن مسّ ما.." كانت تتكلم بانفعال وبصوت مرتجف وحركات عصبية.

وانتقلت عينا فافا مثقلتين بالحذر من النظر إلى غريتا غاربو لتحدقا في تريزا، فهو يرى في كل مكان يحيط به خيانة وتزويراً:

- ابقي هنا، سأعود في الحال.

وبسرعة توجّه بالكرسي الطبي إلى غرفة الانتظار ترافقه غريتا غاربو:

- ما هذا، بحق الشيطان؟ إلى أين يذهبن؟

وتبرعت بعض النساء بالتفسير: لقد أعلنّ الحداد ولن يعدن إلى العمل من جديد قبل أن تعود نساء باروكينيا إلى بيوتهن.

- "هل أنتن مجنونات؟ ارجعن، هيا. هناك زبائن ينتظرون". لم يطعنه، ثم هبطن الدرج كزمرة من الطلاب أهملوا صفوفهم. ووجه فافا الكرسي الطبي إلى الغرفة فسألته غريتا غاربو:

- هل ترى يا فافا أنه يجب أن أعلن الحداد؟ أو أبقى خارج هذه اللعبة؟

- اغربي عن وجهي!

ثم حدج تريزا بعينين غريبتين وانفجر بالكلام:

- "كل هذا خرج من رأسك أليس كذلك؟ أنتِ من اخترع هذا الكرنفال" وأشار إليها بإصبعه مهدداً.

- ماذا تعني؟ عن أي كرنفال تتحدث؟

التعـــبير عن المفاجأة، والعينان الصافيتان الصريحتان، والوجه الهادئ قد قلبت كلـــها قناعة فافا... هل تكون تريزا مزوّرة وخبيثة إلى هذا الحد أو أنها لا تعرف شـــيئاً عـــن الموضـــوع؟ ثم أخبرها بجنون النساء والحداد المعلن، فالتمع وجه تريزا لسماع ما يقول... لم تتركه يكمل فنهضت:

- سآتي فيما بعد لأخذ الجواب.

وهبطت مهرولة إلى الشارع.

للمرة الأولى منذ سنوات طويلة لم ينشط في السوق العمومية وفي تلك الساعة بالـــذات اللهاث الكثيف وفنون ممارسة الشبق؛ ووسط ذلك الهدوء الثقيل كانت غريتا غاربو متردّدة وهي تقلّم أظافرها وتهذبها متسائلة: هل يجب أن تلتحق أم لا؟

في غرفة فافا كان الأب ناتيفيدادي يجهز الأبواق السحرية ليفك اللغز، ووقف أماديـــو مستري جيكي مسنداً ظهره إلى الحائط. وتكلم فافا الحائر في أمره محدداً الوضع المتأزم:

- لقد أرسلت في طلبك يا أبـــي لأن الأمور أصبحت بشعة حولي وأريد أن تسدي إلى النصيحة.

إنـــه يـــريد أن يستوضح سيلاً من الشكوك و لم يجد نفسه يوماً مضطراً إلى المـــساعدة كما هو الآن، إذا أرادت الشرطة أن تنقل فتيات حي ماسيال إلى محلة بيلار وتهدم المكان الحالي، فهل يجب أن يطيع كما هي عادته، أو أنه يجب أن يعمل بنـــصيحة الـــصبية الجميلة ويرفض الانصياع؟ هل عليه أن يستضيف فتيات محلة باروكينـــيا؟ وهل عليه أن يخزن هنا في الغرفة كمية الحشيش التي يريد أن يستودعه إياهـــا رجل الأمن، أم أن القبول بالأمر الواقع مجازفة كبيرة؟ وفوق كل هذا تدور أحداث الحداد المفتوح الذي أعلنته العاهرات وهن يرفضن الممارسة؟ "فماذا تقول في كل هذا يا شفيعي إيشو؟ كيف يجب التصرف؟ إني ضائع ولا أعرف شيئاً".

"وأخـــيراً حدثني عن الصبية هل هي مستقيمة أم مزوّرة وهل أستطيع أن أثق بهـــا أو أنها قادرة على الخداع والخيانة؟ لقد ربيت في صدري الدافئ أفاعي كثيرة، فـــإذا كانـــت هذه الصبية سيئة فنحني منها وأبعدني عنها، ولكنها إذا كانت وفية بقدر ما هي رائعة فإني أسعد رجل في العالم".

حرّك الأب ناتيفيدادي الأقداح ورمى بالأبواق. وأنشد بصوت خفيض:
"بارا أو بيبـــي
تيريري لوفان".
من أعلى قمة في الأرض حيث تقيم الصاعقة أجاب تيريري بفرح:
"إيشو تيريري
بارا أو بيبـــي
تيريري لوفان".

ابعـــدوا جميعاً عن الطريق، فايشو سيمرّ خلافاً للإله أوغون بيشي مانيو فإن الإله إيشو تيريري غضوب وقوي، صديق الحركة، صديق الصخب، ومحرض على اللغط والفوضى.

وعـــادت الأقداح تقفز من يد الأب ناتيفيدادي، تتدحرج ثم تتكلم، "هنا لا أريد مخدرات من أي نوع، فقط الكاشاسا والطعام"، وإذ أصبحت الأبواق أجساداً حيّة في يد الساحر فإنها استمرت تجيب.

"أريـــد أن أرى الأســـواق العمومـــية مغلقة كلها، وسوق واحدة لا تبقى مفتوحة، وأريد أن أرى الرجال مدججين بالسلاح وليس لديهم مكان يفرغون فيه الرغبة والنـــزق، وإذا كانت هناك ضجة ودم مراق فلا يهم، ومن حي ماسييل لا ينتقل أحد لأن الإله إيشو لا يسمح بذلك... لا من حي ماسييل ولا من أي مكان لأن الأســـواق العمومـــية قد أغلقت وأُعلن فيها الحداد إلى أن تكف الشرطة عن اضـــطهاد الشعب؛ من أمر بإغلاق الأسواق وإعلان الحداد هو أنا إيشو ولا أحد آخر".

وقـــرأ والد القديس الأب ناتيفيدادي في أبواق العقاب الأزلي: "الويل للفتاة الـــتي تـــستقبل رجلاً قبل أن تصدح الهاليلويا في باروكينيا، الويل لصاحبة النـــزل ولصاحب سوق البغاء ولصاحبة بيت العزّاب إذا أبقى أحدهم الباب مفتوحاً وأراد أن ينتهك إعلان الحداد.

الفـــتاة تـــصبح مـــتهدلة ينهـــشها المرض، يأكلها السفلس، عمياء، معقدة، وجـــرباء... أما القواد أو القوادة فيموت قبل أن ينقضي شهر واحد، وموتاً شنيعاً يموت وتنهشه الأوجاع".

"ومـــاذا قلـــت لي عن الصبية؟ اسمها تريزا باتيستا، أريد أن أعرف إذا كانت مستقيمة أو أنها تنطوي على السوء والخبث طي هذا الجمال الرائع".

إيشو تيريري أمره بالصمت: "لكي تلفظ اسم تريزا فاغسل فمك أولاً... لا يـــوجد شخص أكثر استقامة منها، لا هنا ولا في أي مكان من هذا العالم. ولكن تـــراجع ما دام لديك الوقت فهي ليست مكتوبة لك... في صدرها خنجر محفور وتريزا تائهة في البحر".

– مرضى أم وجع حب؟

– إن وجع الحب مرض قاتل.

– ولكـــنّ لوجع الحب علاجاً... لم يعش أحد بقدر ما عاش فافا وزمن قد عاشه في الأسواق العمومية هو زمن مضاعف أضعافاً.

ولكـــي يجـــري كل شيء على ما يرام، فإن الإله إيشو يطلب ضحية عجلاً واثنتي عشرة دجاجة سوداء. ثم، أمر أن يبعد الجميع عن الطريق لأنه ذاهب لتوه:

"بارا أو بيبـــي تيريري لوفان".

"أرسل تحياتي إلى الصبية وإني حارس خطاها. والويل لمن لا تعلن الحداد. ومن أعلى القمة حيث تقيم الصاعقة توعد مرة أخيرة: والويل لها!"

الـــويل لها! صلاة ترددها فتيات المنطقة كلها، من باروكينيا إلى كارمو، ومن ماسييل إلى تاباه ومن بيلورينيو إلى لاديرا دا مونتانيا.. من بيت إلى بيت ومن غرفة إلى غرفة، ومن فم إلى فم.

"الـــويل لهـــا!" تهديد يطلقه فافا والسيدة باولينا دي سوزا والعجوز أكاسيا الأسيرة في السجن.

"الـــويل لهـــا!" صـــوت إيـــشو في كل منعطفات المنطقة، إيشو سيد جميع الطرقات، وصاحب كل الأسواق العمومية ومالك المفتاح.

* * *

استيقظ مدير عام شرطة هيليو كوتياس مبكراً وكان له حديث طويل مع عم زوجـــته، أخـــبره فيه مستشعراً بالظفر والاعتزاز بالنفس إن الانتقال قد تمّ عملياً وأصـــبحت محـــتويات الدور السكنية في محلة لاديرا دو باكاليو. وغدت المساكن مقفلة، فقد كانت معركة وكان عليه أن يضرب بيد من حديد. مسكين مدير عام

الشرطة إذ إن قريبه قد صدمه بقوله إن ليس من سبب لهذا الاعتزاز وليس هناك من ظفر في كل ما حدث.

لقد كان من الأفضل لو أنّ النساء انتقلن بهدوء، ودون فضيحة، ودون مهزلة ودون أخبار في الصحف أو مقابلات صحفية بلهاء. هذا ولا تتكلمن عن لقطة شاحنة الشرطة المحملة بمحتويات البيوت وبتعليق العجوز المتذمّر الذي لا يرضيه شيء.

في الصفحات المخصصة لنشاطات رجال الشرطة، فإن الصحف قامت بالهجوم اللازم على أحداث باروكينيا. "أزمة عنيفة في سوق البغاء، لقد بدأ نقل المنطقة بالضرب بالهراوات"، "شاحنات الشرطة تنقل المتشردات إلى باكاليو..." هذه كانت بعض العناوين الرئيسية والثانوية للتحقيقات الصحافية، وأحدها تزينه صورة الشاحنة الرسمية محملة بالأطمار المسحوبة من بيوت الدعارة... أما عن الضرب بالهراوات فلم تكن هناك أية لقطة، إذ كان هناك فقط مصور صحفي واحد هو الملتحي ريفو وقد صادف وجوده هناك أثناء العراك وفي الوقت الذي كان يجب البدء بتوثيق بطولة رجال الشرطة المناضلين ضد النساء وقد أخفضوا أذرعهم وهراواتهم وأعقاب مسدساتهم.. أخذوا منه آلة التصوير وأتلفوا الفيلم وأخذوه شبه أسير.... إن حراس المناقب والأخلاق المباركين هم قوم متواضعون ولا تعنيهم مسألة رؤية أنفسهم في الصحف وهم يقومون بضروب الشجاعة ويأتون الأمجاد بوفاء للقضية العامة، ويفضلون على كل ذلك صوراً عادية بسيطة مأخوذة في مديرية الأمن العامة.

صور كتلك الخاصة بمدير عام الشرطة كوتياس وهو يبتسم ويقول في مقابلة مع مجموعة من الصحافيين الموثوقين: "إننا ننظف مركز المدينة من وباء سوق البغاء جاعلين حملة الصحافة الوطنية حقيقة قائمة. لقد بدأنا بمنطقة باروكينيا وسنتابع الحملة دون هوادة".

- ولن يبقى بيت دعارة واحد في منطقة البغاء كلها.

تصريح ذو قيمة أدبية وبمدنية رفيعة المستوى وجديرة بالثناء والتصفيق. ومع كل ذلك فإن اللاهوادة وتأمين النظافة المرتقبة، والتي تكاد تبدأ، قد شاعت أخبارها لتقوي مساندة القوادين والقوادات، ولحركة إعلان الحداد وإقفال النساء مطارحهن على الرجال.

مـــن جهـــة ثانية لم يكن كل ما قاله جنتلمن الشرطة للمحترفين الصحافيين مستحـــسناً. فـــإن المعلـــق جيوفا دي كارفاليو الذي يؤيد قضية الفتيات والقليل الاعتـــبار لـــرجال التحري، قد انتقد بشدة عنف تصرف الشرطة. وهازئاً في نهاية التعلـــيق في زاويته الشهيرة من أنّ تحويل سوق النساء من باروكينيا إلى لاديرا دو باكالـــيو كـــان جـــزءاً من الحملة الإعلامية السياحية في المنطقة الواسعة التي كان مـــصيرها ســـيؤول إلى أن تكون جنّة لزوار المدينة على وفق ما أعلن عنه بشكل واســـع، ولم يكـــن الشاعر جيوفا بقادر على أن يكون أكثر وضوحاً فقال: "إن الصحف كما تعلم جيداً، تعيش من المال المدفوع لها وليس من عائدات مبيعاتها".

وبينما تنظر إلى وضع مدير عام الشرطة الرجولي في الصحيفة الصباحية، فإن زوجـــته كـــارمن التي ولدت وهي تحمل لقب سردينيا وظلت محافظة على خلقها السرديني علّقت بعصبية:

- رجـــولي، أليس كذلك؟ ملك العاهرات يعاقب مطيعاته! إن الشرطة تفيده جيداً، فيا صغيري هيليو، ها أنت تنقلب رجلاً الآن.

علـــى كل حال وعلى الرغم من التفاصيل الكثيرة المزعجة فإن مدير الشرطة بدا راضياً عن تصرفات مساء الأمس... أما عشيقته بادا وقد قرأت الصحف، فإنها بـــدت متأثـــرة وهي تتكلم بالهاتف: "يا بطلي! هل تعرضت للخطر؟ أتخبرني اليوم مساءً بكل شيء؟ في المكان المتفق عليه عند الرابعة؟ نابوليوني أنت".

* * *

حـــوالى الحاديـــة عشرة صباحاً ترجّل مدير عام الشرطة هيليو كوتياس من الـــسيارة ودخـــل مديـــرية الملاهي والمحافظة على التقاليد، وأمر بالمجيء بالفتيات الموقوفات في النظارة.

كان قد تمّ تأديب الرجال عند الفجر بين اعتراضات ومدافعات، ومنهم اثنان كانـــا قـــد سجنا وهما يرتديان سروالين داخليين فقط، وقد تلقى المسجونون من الـــرجال بعض التأديب حتى لا يعيقوا في المستقبل عمل الشرطة. بعض الصفعات مسألة بسيطة.

أمـــا الـــضرب المبرح المتكرّر فقد استحقته الزنجية دومنغاس التي خاضت المعركة برجولة خلال اللغط الذي توجه به رجال الأمن... لقد عجنها الضرب عجناً، وغدت

هيئـــتها الجمـــيلة والمغرية عجينة بشعة منفوخة، أما ماريا بيتسكو وهي تبصق في وجه دالمـــو كوكا وتعضه فقد أثارت شهية التحري الأنيق، وعند منتصف الليل فإن حارس الأخـــلاق العامة غزا السجن وهو مستعد أن يعتدي جنسياً على الفتاة، هناك بالذات، وعلـــى مرأى من الآخرين؛ وفي ليلة الرعب بين المعاقبات والشتائم فإن مشهد الحارس المخـــدر وهـــو يـــريد أن ينال من ماريا بيتسكو ويرميها أرضاً أمام الموجودين، جعل الآخرين من رجال الأمن يضحكون وهم يحيون البطل. ثم تعبوا وعادوا به من هناك.

كما يمكن ملاحظته بسهولة، وبنظر مساعديه، فإن مدير عام الشرطة قد أفلح في القيام بمهمته وتحمل مسؤوليته، ومع ذلك فإن رؤية الزنجية دومنغاس قد سببت لـــه بعـــض الإحراج... إن جلد الفتاة الغامق يحمل علامات واضحة وانتفاخات كـــثيرة. واحـــدة من عينيها مغلقة، والفم متورم، وبالكاد تستطيع أن تقف على رجلـــيها، وباحتقار واجه المفوض لاباو نظرة المدير العام المترددة! إنه عمل رجال وليس عمل مخنثين.

– "مخلوقة سيئة، بنت شارع. لقد اعتدت في السجن على الجميع وكان الحل بإعطائهـــا أمـــثولة، ولولا ذلك لما استطاع أحد أن يخلد إلى النوم" أوضح المفوض ذلك وأضاف:

– ليس ممكناً الشفقة على همجية كهذه.

وقـــرّر مدير عام الشرطة في قرارة نفسه أنه من الضروري الاعتياد على عدم الشعور بالأسف، وهذه الهمجية لا تستحق الحزن.

القـــرار لا يفيد شيئاً ولأن معدته ضعيفة أمر بإطلاق سراح الفتيات، ولم يبق ســـوى صـــاحبات الدور فراح يستعرضهن الواحدة إثر الأخرى، وفي الحين نفسه يحاول أن يكون صلباً وأبوياً.

– إذا لم تنـــتقلن بالحسنى فستفعلن عنوة، بماذا يفيدكن الامتناع؟ من كانت مـــنكن مستعدة للخروج مباشرة لتكمل الانتقال إلى المكان الجديد فلتتقدم خطوة إلى الأمام وسأعطي الأمر بإطلاق سراحها فوراً.

وما كادت ميرابيل تتحرك حتى سمع صوت العجوز أكاسيا:

– إنـــنا لن ننتقل. وحتى لو متنا في السجن فليس بيننا من تقبل بأن تتعفن في تلك المزبلة المخصصة لنا.

وفقد مدير عام الشرطة الرقابة الذاتية على نفسه، فضرب الطاولة بقبضة يده ووضـــع إصبعه في وجه العجوز وغدا رجولياً كما قالت كارمن كوتياس المولودة سردينيا:

- إذاً ستتعفن هنا؛ أيها المفوض أعدهن إلى السجن.

المفوض وهو بمزاج جيد يقترح:

- عـــدة دزيـــنات من الحلوى لكل واحدة منهن، عند الغداء وعند العشاء، مكان الطعام، إنه ريجيم جيد وسيرغمن على الانتقال قريباً، وسيرى الأستاذ.

ودون أن يستأذن، وهو في قمة الفرحة، وقف بيشي كاساو عند باب النظارة وهو يفرك بيديه:

- إن سفن الأسطول الأميركي قد وصلت إلى إيتابوا. ستمطر دولارات.

لشدة فرحه، بسبب النبأ المرتقب، ذهب المفوض في عجلة من أمره وقد نسي أن يعطـــي آمـــر النظارة أمراً بضرب كل قوادة دزينة من المساطر قبل زوم الحساء والخبز المبلل، وذلك عند الظهر وعند المساء ولم يكن بيشي كاساو دائم الاستقامة في تنفيذ الواجب، وهكذا فإن الممتنعات عن الانتقال قد تخلصن من العلاج ليهزلن ويـــصبحن رشـــيقات. وبيـــنما يمرون باتجاه النظارة أيقظوا التحري دالمو كوكا غارســـيا. ومهتـــزاً، فـــإن الأنيق سمع النبأ. "في إيتابوا شوهد الأسطول الأميركي والـــسفن تـــتجه إلى مرفأ باهيا محملة بالدولارات، يا رفيقي، والتبادل مؤات جداً ثلاث مرشدين سياحيين لبحارة ومدفعيي الأسطول البحري لأمة الشمال الأميركي العظـــيمة والذين يشرف وجودهم المدينة". فعسى أن يجدوا في باهيا نساء جميلات وخـــبيرات ماهـــرات ومطلقات محبوبات؛ وحرصاً على سلامة المقاتلين الواصلين الـــذين لا يقهـــرون فـــإن قوات الأمن القومي ستواكب تحرّكاتهم متمثلة بأبطالنا الـــثلاثة. أجـــل إنهـــم أبطال أيضاً هم الثلاثة... ومع كون الواصلين أبطالاً فإنهم متواضـــعون وهـــم يدافعـــون عـــن الحضارة الغربية بلا تعب أو ملل وذلك ضد الشعارات الحمراء والصفراء واللاأخلاقية والإرهاب والتخريب.

"مـــساء أمس لم يستطع كامويس أن يقوم بما هو متفق عليه بسبب مصاعب غـــير مرتقبة اعترضت إمكانية إيصال كمية الحشيش. لقد عيّن موعداً آخر للقيام بهذا العمل مساء اليوم. وعسى أن ينجح في مهمته! أما في حال محاولته القيام بأي

عمـــل خـــياني فإنـــنا سنفتح ملفه من جديد ونطبق القانون في القضية المحالة على الحفظ.

اذهب وفتّش عنه يا زميلي، يا شريكي، يا رفيقي، وانبش مكان هذا الشخص وانتـــشل الحشيـــشة المقدسة من مكانها، لأنه لن تسنح لنا فرصة أخرى كهذه في القريب العاجل لنربح بعض المال اليسير".

وكما هي الحال في التنظيمات الإدارية المتبعة في إدارة الشركات الحديثة، فإن الشركاء الثلاثة قد وزعوا المسؤوليات والمهمات في ما بينهم. وتعود للمفوض لاباو الـــشريك الأكـــبر والـــرئيس المهاب، مهمة التخطيط العام وتأمين الاحتياجات الضرورية.

واتفـــق مـــع بائعي المفرق وزعماء الشوارع في المنطقة على توزيع جرعات الهلوســـة وســـجائر الحشيش. "كم من البائعين؟" "ستعرف عددهم هناك، جموع حقيقـــية منتشرة في كل المنطقة لتعرض وتستبدل المواد المخدرة بالدولارات". وتمّ درس الموضـــوع مـــن جوانبه كافّة إلى حدٍّ أن البائعين قد تعلموا ترداد جمل باللغة الإنكليـــزية، واتخـــذت احتـــياطات أمـــن لمنع السرقة أو التفريط بالمادة المخدرة والحشيش.. وفي الحقيقة فإن ما يكفل شرف البائعين هو الخوف من المفوض الذي بمجـــرد لفظ اسمه لاباو أوليفيرا، فإن الأرجل تصطك على الرغم من أن مظهره لا يشير إلى أية عدائية. ومع المفوض لا يتجرأ أحد على المزاح في أثناء الخدمة.

إنـــه عقـــل مدبـــر ومالي باهر، لقد حصل من المرابين المعروفين على كمية المال اللازمـــة لـــتمويل العملية، كما قال لرجل الأمن والتحري وهو يقوم بعمل الحسابات ويـــشير إلى الفـــوائد المرتفعة التي يجب أن يدفعها إلى المرابين وانتهى إلى القول إنه في الحقيقة، قد وضع من جيبه الخاص المبلغ الضروري الباقي ليوفر على رفيقيه بعض المال.

في ذلك الصباح لم يخرج من المخفر. وقد أرسل حراساً يثق بهم يفتشون عن المسؤولين وعن بائعي المفرق وعن مسؤولي الشوارع؛ لقد أتى اليوم العظيم!

في وكر من أوكار تابواو كان المفتش نيكولاي رامادا جونيور المشهور ببيشي كاســـاو يناقش الأعمال مع عارون مادروغا أحد كيميائي برنامبوكو المشهورين. وانتهـــى بـــأن دفع له نصف المبلغ المتفق عليه لتزويده بخمسمائة جرعة من المخدر المعروف بكاسيتي ريجو المركّب كيميائياً بطريقة لا تضاهى وان دوز فايف فاكس.

إنّه عالم صاحب امتيازات ومعروف جداً في منطقة الداخل وبعض العواصم، فإنه من كان يقوم بالتحليلات للدكتورين الزوجين دورس وبارلو اللذين يليق الواحد منهما بالآخر، وكان مادروغا يقضي الصباح وهو يجمع كميات البول والبراز والدم من الزبائن، وعند العصر يعيد التحليلات ويجبي الأجور! وكان بالإضافة إلى ذلك يقضي وقت فراغه وهو يتأمل في المواد تتأكسد وتمتزج داخل قناني الزجاج، وفي أنابيب المختبر، يشبع أنفاسه بالروائح القوية، وينظر بمتعة إلى الألوان الغريبة والدخان الأزرق، فيا لها من أمور جميلة!! وبعد ذلك تعلم المصطلحات والمعادلات.

وإذ فقد القناعة فجأة، فإنه لم يمسك نفسه من حين لآخر عن الاحتفاظ بمبلغ إضافي دُفع له بدل تحليل البول، ولكنه ما كاد يسلك طريق الاحتيال حتى افتضح أمره وأقيل من وظيفته.. وتظاهر بالحزن لأنه كان يقدِّر سيدي عمله الطيبين. وفي الوقت نفسه انتبه إلى أنه أصبح مؤهلاً في الكيمياء والصيدلة والطب شرط أن يمارس هذه الأمور في خدمة الإنسانية، ومن الأوضح القول: فقد مارس في بعض المناسبات الطب البيطري ولم يكن سيئاً في ذلك... وانتزع أنياب خنزير هنا وحدوة حصان هناك...

وذاع صيت بعض المواد الكيمياوية التي ركبها عارون على شكل أدوية في الأوساط الريفية الشعبية، وبعض نواحي منطقة الشمال الشرقي حيث بيعت في الأسواق الشعبية والمعارض الأسبوعية... وروج لدواء أطلق عليه اسم لافابيتو الفعّال ضد السعال والتهاب الرئتين والقضاء على الجراثيم، وقد شاع في تلك الأوساط أنه شفى الكثيرين من المصابين بالسل المزمن في منطقة الأغواس. أما دواء مارافيليا دو كابيبريبي فإنه ينظف الجسم ويشفيه من أي نوع من الالتهابات بما في ذلك السرطان والجرب!

أما الدواء المعطر فلور دي ماغوليا فإنه يجعل الشعر أكثر كثافة حسبما تؤكد بعض الصور التي تظهر الشعر قبل الاستعمال وبعده. وعند انتهاء زجاجة الدواء فإن الزبون إذا لم يصبح شعره كلبدة الأسد، فإنه يعيدها إلى مخترعها ويستعيد ماله. وحدث أن أحداً لم يطالب بذلك. "اختر لون شعرك باللون الذي تحب، اشتر جذور شعر أشقر أو أسود أو كستنائي أو رمادي أو أزرق أو أخضر وكيفما تريد شعرك أن يكون، الشعر الأخضر دارج في أوساط البذرات الرقيقة".

أما ما هو متعلق بالمخدر كاسيتي ريجو فهو، كما هو معلوم: هلوسة رائعة... وحسب رواية مخترعه عارون مادروغا في حديثه وهو يقدم المادة العجيبة إلى زبائنه، أخبرهم أن عجوزاً عمره مائة سنة بعد أن تناول جرعة منه نهض من فراش الموت وفضّ عذرية فتاة وقام بأربع ممارسات وفي الخامسة جعلها تحمل بتوأمين. ومات سعيداً من فرحته.

أما العبارة المكتوبة بحروف حمراء على زجاجة المخدر أفرديزياك: "وان دوز فايف فاكس"، فهي من وضع مادروغا أمّا ترجمتها فتبقى على التحري كوكا معلم بائعي المفرق الذين تعلموا منه أيضاً كيف ينالون دولاراً واحداً بدل كل أنبوبة مخدر، ولكن مسؤولي الشوارع لم يكن من الضروري أن يعلمهم كوكا شيئاً فهم يتكلمون كل اللغات ويضحكون ملء أفواههم، إنهم سادة شوارع باهيا الذين ستبقى ذكراهم خالدة.

بعد قليل أرسل المفوض لاباو في طلب البضاعة لأن السفن الأميركية أصبحت على مرأى من منارة إيتابوا كما أخبر بيشي كاساو الكيميائي مادروغا.

- هل سيصلون اليوم؟

- لقد وصلوا تقريباً.

- هل ستفتح النساء أبوابهن الموصدة؟

- ما هذه الرواية التي تقولها؟

فأخبره مادروغا أنه مساء أمس ذهب إلى منطقة البغاء بغية التمتع ولكنه مع ذلك ظلّ متعباً. النزل وبيوت العزّاب فارغة، والغرف مقفلة والأبواب موصدة.. ثم دخل في بار فلوري دي ساوميغيل وكانت الصالة مليئة وصاخبة. على الطاولات نساء عديدات من صاحبات المهنة، ولكن واحدة منهن لم تقبل به، وأخبرنه أن المقودة مضربة عن العمل إلى أن تعود فتيات باروكينيا إلى بيوتهن.

لم يعط بيشي كاساو أية أهمية للحدث: يكفي الشرطة أن تعتقل وتؤدب بنات الشارع كما حدث في باروكينيا، حتى تتعلم المشردات الأخريات كيف يتجمعن في الحانات كي يشربن ويشتمن. وفجأة اعترت بيشي كاساو الدهشة عندما أصغى إلى كارون مادروغا يتكلم عن إحدى الفتيات التي بدت أكثر هيجاناً ولكنها جميلة جميلة، سبحان الخالق!.. اسمها تريزا باتيستا وتلقب هناك بتريزا ذات الرفسة على الخصيتين.

عندما سمع بيشي كاساو بهذا الاسم احتقن حقداً وانتفخت أوداجه:

– أمس تمكنت هذه الملعونة من الإفلات من يدي، وحتى الآن لا أعرف كيف هربت؟ حتى إنّ الأمر بدا كأنه شيء من السحر. ولكنها لن تلبث أن تدفع الثمن وستدفعه في الحال. لقد كان جيداً أن أعرف أنها منطلقة في تحريض العاهرات ضدنا، يا لها من عاهرة!

في الحادي والعشرين من شهر أيلول ذاك كان العنوان الكبير في صحيفة المساء يعلن إلى جميع سكان باهيا:

"المدينة في عيد، الربيع ورجال البحرية".

في بار فلوري دي ساوميغيل، عند المساء، وقبل بلوغ نبأ غزو رجال شرطة مديرية الملاهي والمحافظة على التقاليد لمحلة باروكينيا، وقبل أن تندلع صرخة حرب نيليا كباريه، وقبل أن يلقي إيشو تيريري موعظته، كان الشاب خليل شماس يتحدث بكلمات ملهبة عن الضجة لدى المنسحقين المقلدين للعادات الأوروبية والمحتفلين بوصول الربيع وسط أمطار أيلول:

– ما عاد ينقصهم سوى ارتداء معاطف الفرو، والاصطكاك برداً. سترون غداً الطلاب صفوفاً طويلة ليعلنوا أن الربيع قد قرع أبوابهم، إنه استعمار حقيقي... سينالون ما يستحقون إذا أمطرت دون توقف.

بالإضافة إلى كونه طالباً في العلوم الاجتماعية في كلية الفلسفة، وأمين صندوق محل التحف القديمة الذي يملكه أبوه في شارع روي باربوزا، ومصمماً هاوياً يحلم بصالات العرض والنجاح والشهرة، ووطنياً صلباً، فإن خليل شماس هو العشيق الغيور لأناليا الناعمة... وإلى طاولة البار كان ثائراً ضد الاستيراد التافه للتقاليد الغربية التي لا معنى لها في البرازيل. ففي البلاد المدارية هناك ستة أشهر في العام من الأمطار وستة أشهر حارة والكلام عن الربيع والخريف مسألة تستدعي السخرية. "السخرية!" ووقف مشيراً بإصبعه مكملاً إعطاء الصورة عن التعجب:

– "هنا يسود الربيع الدائم..." أجاب توم ليغيو الممثل المسرحي الذي يفتش عن دور لإظهار موهبته مستفيداً من المناسبة ليبدل من موجات صوته.

عند آخر الليل تنحلّ حلقة البوهيميين، فيذهب البعض ليخلدوا إلى النوم، ويتوجه البعض الآخر إلى أماكن النساء العمومية حيث، بعد يوم من العمل، فإن الفتيات ينتظرن ساعة وصول عشاقهن وأصحابهن.

ولكـــن في لـــيلة إعـــلان الحرب تركت أناليا الوظيفة قبل ساعة وهي ترافق زمـــيلاتها. وذهـــبت مع خليل تجوب المنطقة وتعلن عن إضراب النساء عن العمل وإقفالهن أنفسهن على الرجال، وكانت أناليا فرحة تضرب بكفيها:

– مـــع هـــذه الحكاية عن إقفال السوق العمومية سأستطيع غداً أن أشاهد استعراض الطلاب في عيد الربيع... منذ زمن لم أشاهده. هل تعرف أنني اشتركت في استعراض الطلاب في أشتانسيا؟

– إنك متخلفة!

– يا عزيزي ماذا فعلت بالمبادئ والقناعات؟

– نذهب معاً... سيكون يوماً جميلاً.

العـــنوان الكـــبير في جريدة المساء يشغل المساحة العليا من الصفحة الأولى. وللتعبير عن الحقيقة كاملة فإن رئيس التحرير قد أعاد صياغة العنوان:

المدينة في عيد، الربيع ورجال البحارة والفتيات.

تـــرك التحـــري دالمو غارسيا زميليه ينتظران في سيارة بويك قديمة هي ملك أحـــدهما، والـــذي يعرف في أوساط الهامشيين بكامويس فوماسا، وصعد مسرعاً الـــدرجات المؤدية إلى باب السوق العمومية ليدفئ نفسه قليلاً؛ الباب مقفل، ذلك الباب مفتوح دائماً ابتداء من الثالثة ظهراً هو الآن مغلق أمام جماهير الزبائن.

وقرع التحري الباب بيده وصاح ولكن لم يجبه أحد؛ أمام الباب الموصد انتبه دالمـــو كوكا إلى غياب النساء من محلة ماسييل، وعلى الرغم من أن الوقت ما يزال مبكراً فلا بد أن يكون هناك بعض المرح وبعض الأثداء المعروضة عبر النوافذ... لا شـــيء من كل هذا ولا يمكن مشاهدة فتاة هوى واحدة في أي مكان... إنها سوق بغاء مقفلة.. التحري دالمو كوكا غارسيا لا يفهم شيئاً مما يجري وضرب الباب مرة أخرى ونادى على فافا. لا جواب.

هبط السلم ودخل السيارة. أراد كامويس فوماسا أن يعرف:

– والآن؟

على الرغم من أنه برفقة خادم من خدام الأمن العام هو شرطي متخصص في حقل عمله، فإن كامويس لم يكن يحس بالأمان، ومنذ البدء، لعدم ثقته بدالمو لأنّ التحري لا أخلاق له وحتى إن كان يتعاطى المخدرات:

أيـــن هـــو المال الموعود؟ التحري ما يزال عند وعده وسيحمل إليه مساء في المـــوعد المحدد المبلغ المتفق عليه، ولكنه جاء وليس معه فلساً واحداً إن السفن تكاد تـــصل فـــأين الأرنب؟ قال مسرعاً ومهدداً: "بسرعة إذا كنتما لا تريدان أن تدفعا الثمن غالياً"، أحس كامويس فوماسا بأنه لم يعد في وضع جيد:

- والآن؟

ردَّد السؤال وهو يتوقَّع الأسوأ.

- لا أعرف... لا أحد هنا والنساء اختفين، أين يمكن أن يكنّ؟

كامويس فوماسا ازداد اشمئزازاً وأمر شريكه:

- لنذهب من هنا...

جلس التحري دالمو وهو يردد محتاراً:

- بحق الشيطان أين هن النساء؟

بقـــي بعضهن في النـــزول مستفيدات من الفرصة لترميم الفساتين أو لكتابة الرســـائل إلى أهلهن، رسائل مليئة بالأكاذيب. أو ببساطة لأخذ قسط من الراحة، وضمن حدود سوق البغاء وفي فراش النـــزول أو بيت العزّاب أو السوق العمومية ولإشعار آخر، يمنع على أية فتاة أن تستقبل زبوناً أو عشيقاً، من أرادت أن تستقبل عـــشيقها فلتفعل في الشارع وبعيداً عن المنطقة، ومن يجرؤ على خرق اتفاق مساء الأمس، من يتجرأ؟ لقد هدد الإله إيشو بالمرض والموت والعمى والجرب والأمراض الزهرية.

أمـــا الفتيات اللواتي كنّ قد أطلق سراحهن صباحاً من السجن، فقد حاولن العـــودة إلى بيوتهن المغزوَّة، فإما للاستمرار بالسكن فيها أو لأخذ الملابس والأشياء الشخـــصية. لكن الحراس المكلفين بحماية محلة باروكينيا لم يسمحوا لهن بالدخول، ففتـــشن عـــن ملجأ لهن في بعض النـــزول المعروفة، وفقط السيدة باولينا دي سوزا استقبلت اثنتي عشرة منهن بمقدار أربعة في كل غرفة... ووضعت السيدة يـــدها في حقيبـــتها وأرادت أن ترسل الزنجية دومنغاس إلى سان غونزالو دوس كامبوس.

- "إنـــك بحاجـــة إلى عدة أيام من الراحة يا صغيرة. لقد أساؤوا معاملتك".

ولكن الزنجية لم تقبل بشيء من كل ذلك ورفضت مبارحة باهيا في تلك الساعة.

وقـــررت الأكثـــرية القـــيام بنـــزهة وامتلأت المدينة ضحكاً وفرحاً ونعمة. وظهـــرت هناك موظفات وتاجرات وطالبات وربات بيوت وأمهات عاملات في إجـــازة... للقيام بالمشتريات، وحضور حفلات سينمائية أثناء النهار، ونزهات في الأحـــياء البعيدة زرافات وأزواجاً، أذرعاً متشابكة وكميات من الفتيات اللطيفات والصبايا الملتزمات والسيدات الجديات الهادئات...

وذهـــبت بعض الفتيات يزرن أولادهن الموكولين إلى الغرباء. أمهات طيبات يقـــدن أطفـــالهن باليد أو بالحزام ويفككن أقمطتهم ويملأهم مرطبات وحلويات، ويكسينهم قبلاً وعطفاً.

وكـــذلك بعـــض النساء المسنات ظهرن للاحتفال بالربيع. إنهن ليوم واحد معتوقات من واجبات الماكياج المرعب التي ترمي إلى إخفاء الأخاديد والتجاعيد في نضال غير مجد للحصول على زبون ما، إنهن لسن سوى تعبات مسنات.

ولم يكـــن من المألوف مشاهدة الفتيات وهن يشغلن المدينة بكاملها في عيد نادر كهذا، يركضن حافيات على الشواطئ أو يجلسن على أعشاب الحدائق أو هن في حديقـــة الحـــيوانات أمام الحيوانات البرية أو الطيور أو القرود أو في زيارة إلى كنيسة بونفين يتبركن بالقديس العجائبـــي.

أما اللواتي كن في أعلى القمة يتأملن في خليج باهيا، فقد استطعن أن يشاهدن حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ثلاث سفن حربية تجتاز مدخل الميناء.

قبل الساعة السادسة بقليل استقبل السيد المحافظ في قصر المحافظة قائد السفن الحـــربية الأميركية الشمالية التي ترسو في عرض الميناء. وبينما ترافقه قيادة الأركان العامـــة، فـــإن الأميرال راح يتبادل مع رئيس الحكومة الإطراءات ودعا الأخير إلى زيارة القيادة في اليوم التالي والغداء مع الضباط.

ولمعـــت عدسات التصوير، وبينما المصورون يقفزون من مكان لآخر، كان المحـــتفلون بعـــضهم ببعض من الرسميين يفتعلون الابتسامات والمجاملات.. ثم أعلم الأمـــيرال قـــادة السفن بأن رجال البحرية قد حصلوا على الإذن بالمجيء ليلاً إلى المدينة: إنها الساعة المناسبة.

في نـــشرة أخبار الساعة من محطة أبايتي، الإذاعة الأكثر فعالية، والتي لها أكبر عـــدد من المستمعين، أذيع تحقيق عن السفن الحربية الأميركية الشمالية الراسية في

المـــرفأ "النبأ الدافئ من إذاعة أبابيتي" "بينما يقع الحادث يكون مذاعاً في أبابيتي". إن "ميكروفون أبابيتي هو المسموع في التاريخ"؛ كان يردد المذيعون هذه العبارات طيلة مدة برامج الإذاعة. أما المزاحمون في المحطات الإذاعية الأخرى فكانوا يعلقون: "إذا لم يكن من حدث فإن أبابيتي تخترع الأحداث".

وبعـــد وصـــف الزيارة التي قام بها كبار الضباط إلى المحافظة وإذاعة العبارات المتـــبادلة والدعـــوات الموجهة، فإن الإذاعة وصفت بالتفصيل الدقيق أسماء السفن الـــثلاث وتـــاريخ صـــنعها وعدد الضباط ورجال البحرية والمدافع وقدرة القذف والـــسرعة ومهمات الضباط في مراكز القيادة وكامل المعطيات الأخرى. لقد كان قسم التوثيق والدراسات مرة أخرى على مستوى تقاليد محطة الإذاعة.

وانتهى التحقيق الإذاعي مستنتجاً ومُعلماً جماهير المستمعين بأن رجال البحرية ســـيهبطون إلى اليابسة عند بداية الليل، و لم تعيّن الساعة المحددة لذلك بعد ولكن ربما يكون الهبوط إلى اليابسة حوالى الثامنة.

نـــبأ أخير ومثير للفضول متعلق بطريقة ما بزيارة رجال البحرية الأميركيين: "اعتراضـــاً على عملية تحويل منطقة سوق البغاء التي ابتدأت مساء الأمس بتدخل الـــشرطة بعـــنف في محلة باروكينيا، فإن النساء العموميات قد قررن عدم ممارسة الجنس ما دامت زميلاتهن غير قادرات على العودة إلى منازلهن التي طردن منها وما دام التهديد بالانتقال قائماً".

حـــوالى الـــساعة الخامسة، وفي حين كانت بادا تأخذ حماماً سريعاً لتنظيف نفـــسها من العرق اللزج بعد منتصف نهار حار، فإن مدير عام الشرطة كوتياس، جنتلمن الأمن، العشيق السعيد، فتح المذياع وأراح جسمه على أنغام الموسيقى.

إنهـــا راحة مستحقة بعد ساعة من التمرين العنيف: إن بادا النحيفة هي قطار من الأخطار، مجربة، أنثى شهوانية كيفما تعاملت معها. كان يقول لها من قبل: "يا تمـــثال تاناغرا، يا جوكوندا اللغز"، ولكن اليوم عندما كانت عارية بين ذراعيه فإنه همس في أذنها: "جوزيفين، جوزيفنتي".

- لماذا جوزيفين؟ إنه اسم بشع، اسم عذراء.

- ألست نابوليونك، بونابارتك؟ ألم يكن هو متزوجاً من جوزيفينا؟

- أفضل أن أكون ماري أنطوانيت.

- إنه خطأ تاريخي، يا حبيبتي، أجل، ماري...
- "ماذا يهمني؟" أقفلت فمه بقبلة.
لا جوزيفين ولا ماري أنطوانيت، ولو كان للمثقف كوتياس حيوية لقال لها الآن: ميسالينا.

كانــت بــادا امرأة غضوباً وعنيدة، وكان على مدير عام الشرطة أن يبذل جهــده الأقصى ليبقى على مستوى الوضع، أما كارمن، الزوجة، فقد كانت ذات خلق هادئ، وعندما كانت تحس به مهتماً بامرأة، كانت تقول به باحتقار:

- انتبه إلى تصرفك ولا تكن بشعاً في سلوكك فتتركني في موضع هزء.

كــان ذلك يزعجه ويجعل كل شيء صعباً، ولم يكن غرض كارمن من ذلك ســوى هــذا. مع بادا عرف معنى الراحة، إنها حلوب ولا تشبع، وكانت تريد أن تعــرف عن خصائص منطقة البغاء وليس فقط عن أزمة الأعمال وعن عمل هيليو الــبطولي، ولكن عن حياة العاهرات الشخصية أيضاً، كيف هن وكيف يتصرفن: "آه. إني راغبة جداً في زيارة سوق عمومية" تعض الشفتين، وترتمي عليه ثم تطلب متنهدة.

- ناديني بيا عاهرة، عنِّفني، اضربني يا شرطيّ الخاص.

كانت الشقة تقع في أعلى محلة غامبويا، وعبر النافذة الداخلية يقف مدير عام الشرطة. يسيل منه العرق ويدخن السيجار ويصغي إلى موسيقى أغنية إيطالية هادئة ويتأمل في السفن الثلاث الراسية في المرفأ.

قــبل أن يــأتي لملاقاة بادا، فإن المثقف كوتياس وتأدية للواجب، كان قد مرَّ بالــنظارة حيث أخبره المفوض لاباو أن كل شيء منتظم: البحارة سينــزلون إلى اليابــسة مساء أو ليلاً، وشرطة المنطقة متأهبة، والشرطة العسكرية تدعم الشرطة المدنية درءاً لأية حادثة قد تقع في الشارع، أما ما هو متعلق بالقوادات في باروكينيا فــإنهن مــا زلــن مصرات على رفض تعليمات الانتقال من أمكنة إقامتهن. وما ســيجعلهن مــستجيبات هو عملية جلد مشبعة لكل منهن، وذلك عند الصباح، عــندما تنتهي الحركة في المنطقة.. أما الآن فإنهن سينلن بعض الحلويات ويتعرضن لعملــية الــتجويع. "قليلاً من الصبر، أستاذ، ووضيعات محلة باكايا سيتم تأجيرهن بسعر جيد"؛ ضحك المفوض لمدير عام الشرطة وهو يلقي عليه تينك العينين اللتين

لا شـــفقة فـــيهما، لأنـــه مجرم، فكّر جنتلمن الشرطة: "ماذا يعني وهو يتكلم عن التأجير؟ من يعلم، لعل الشركة جعلت المفوض يفتح فمه للكلام عن هذا؟"

في المـــذياع انقطعت الموسيقى فجأة وعلا صوت المذيع بعد الفاصل الموسيقي الإعلامي: "الانتباه، الانتباه الشديد".

في الفـــراش وغير مكترثة بطلب الانتباه. ارتمت بادا فوق هيليو. وأثناء القبلة الملتهـــبة سمع المثقف المذيع يعلن: "الوضع في سوق البغاء يقلق السلطات وإن إنزال جـــنود البحرية قد تم تأكيده في الساعة الثامنة في ميناء محلة كايرو، وحتى الآن ما زالـــت الأســـواق العمومية مغلقة. المفوض لاباو أوليفيرا الموجود في حي ماسييل لتنفـــيذ الإجـــراءات المتخذة كان قد أكد لنا أن عودة الأمور إلى مجاريها الطبيعية ستتم قبل إنزال رجال البحرية الأميركية. إنهم لن يبقوا هناك لمشاهدة السفن، أكد لـــنا المفـــوض مـــضيفاً: أين سيقف الذين هم مصابيح حضارتنا إذا حدث شيء ســـخيف كهـــذا؟ إن تدابير حازمة ستتخذ عملياً والشرطة تسيطر على الوضع. أصغوا إلى راديو باهيا الأول".

المثقف هيليو كوتياس جال بعينيه وحاول أن يتخلص من بادا. ماذا يعني هذا النـــبأ، ولماذا يقلق وضع سوق البغاء السلطات؟ وعادت الموسيقى مع أغنية إيطالية حزينة. وتوسل مدير عام الشرطة: "لحظة واحدة يا حبيبتي"، وراح يفتش عن محطة إذاعـــية أخرى فوجد أخيراً واحدة: "لم يكن هناك من تبديل لكن قوات الأمن قد ازدادت بوصول الخيالة، الإضراب في سوق البغاء يستمر، إن مندوبنا هو في طريقه إلى المكـــان، وخلال لحظات سنذيع عليكم مباشرة من حي ماسييل حيث تحتشد قـــوات الشرطة. ابقوا على أجهزتكم مفتوحة على إذاعة أبايتي، ففي أية لحظة قد تعود إليكم بأنباء جديدة".

وهي محتارة من أمرها، أخذت بادا جهاز الراديو بعيداً... مدير عام الشرطة يريد أن يـــذهب لأن الواجب يدعوه. أغرته وحاولت لفت انتباهه ولكن لم يفد كل ذلك، فهيلـــيو لا يـــستطيع الآن إذ ينقصه الوقت والقوة والإرادة ويكفي النظر إليه لمشاهدة الأمـــر. يجـــب أن يذهب إلى المديرية العامة ويبقى على مقربة من تطورات الأحداث ويتبـــيّن معنى تلك الأنباء المثيرة ويتحمل مسؤولية المركز الذي هو فيه، فهو لمثل هذه الأمور سمي الأستاذ المثقف مدير عام شرطة الملاهي والمحافظة على التقاليد.

- عليَّ أن أخرج الآن وفي الحال يا حبيبتي. اتركيني رجاء.
إنه لا يعرف بادا ولا يستطيع أن يتكهن بحدود عنف شهوتها:
- خشن!
خـــرجت الكلمة من فمها وهوت عليه فتركها وانصرف: عاهرة ذات شهوة أزلـــية. مـــن الأرض يـــرتفع صوت المذيع ملعلعاً: "إننا نذيع عليكم مباشرة من بيلورينيو. لقد قررت الشرطة فتح الأبواب بالقوة في الأسواق العمومية".
بـــين ذراعـــي خليل شماس وهي تضحك لكل شيء، فإن أناليا كانت تصفق لـــصغار وصـــغيرات التلاميذ في استعراضهم الربيعي. إنها تتذكر أزمنة التجمعات المدرسية قبل أن تعمل في مصنع النسيج، وصاحب المصنع براوليو الذي أطلقها إلى الحياة.
تـــناولا الغـــداء في مطعم بورتو المختص بالطعام البرتغالي، ولكي يشرب مع الباكالـــياو البرازيلـــي، طلـــب نبيذاً أخضر واستسلما لمشاعر الحب الخالد؛ وعند خروجهما من المطعم اشترى لها باقة من البنفسج فعلقتها على قبة فستانها الأبيض، ولكـــي تفعل ذلك توقفت عند تمثال الصحافي جيوفاني غيمارايس وفي ظل حبيب الشعب تركت نفسها لقبلة رفيقها: قبلة عاشقين. وسارا بطيئاً في الشوارع.
لم يكـــونا يعرفان شيئاً عن مجريات الأحداث في المدينة، وعن السفن الحربية الراسية في مرفأ باهيا وعن الشرطة التي تحتل حي ماسييل وبيلورينيو ووصلا المنطقة الـــتي تسمى سوق البغاء السفلى. ودخلا إلى مطعم جانغاديرو حيث تعشيا سمكة حـــارة وشربا البيرة وضحكا دون سبب كان أسعد يوم هو الذي أقفل فيه سوق البغاء في حين أن الربيع بدوره أطاع التقويم وجاء إلى مدينة باهيا.
في مديـــرية شـــرطة الملاهي والمحافظة على التقاليد شرح المفوض لاباو أليفيرا للأستاذ مدير عام الشرطة خطة العمل:
- اتـــرك الأمـــر لي. ســـأعيد بنات الزانية إلى العمل بأية طريقة، سيفتحن مطـــارحهن للعمل خلال ساعة واحدة، وإلا فإن اسمي ليس لاباو أوليفيرا. سأغيّر اسمي إذا لم أفعل.
كـــان اسمـــه يـــصيب بالرعب فتيات الهوى والقوادات والمحتالين والنشالين والمنافقين الهامشيين وكل المواطنين الأبرياء، وكائناً من كان، ممن هم ملزمون على

التعاطي بأية طريقة من الطرق مع حامي حمى الأخلاق والتقاليد الجيدة. وكان الناس يتحدثون عن جرائم تمت في الشرطة ببرودة، وعن جثث مدفونة سراً وعن فظائع لا مثيل لها. وعندما كانت تصل مثل تلك الاتهامات إلى صفحات الصحف لم تكن تجد لها أدلّة.

في تلك الليلة حتى رجال الأمن المستنفرون وهم من رفاق العمل القدماء والذين اشتركوا معه في الحملة، قلقوا عند رؤية المفوض وقد فقد أعصابه وأصبحت هيئته مخيفة، مخيفة إذ ليس من صفة أدق.. الحساسية وصلت إلى خارج جلده بينما مدير عام الشرطة المثقف هيليو كوتياس يجلس ويضحك، وقد وافق رغماً عنه، على مشاريع السلطات المختصة... ولكي يخفّف من عبء المناخ النفسي العام اقترح جنتلمن الشرطة إضفاء اسم عودة مفرحة إلى العمل على عملية الهجوم... ولكنه لم يكن سعيداً إذ إن الشاعر جيوفت دي كارفاليو في تعليق سابق على الأحداث، عدَّ عملية الأعمال وحشية وإنها جديرة بهتلر وبالنازيين في معتقلات الموت.

في بار دا أليتي أو بار العاهرات، فإن صاحب المكان غير منزعج، حيث يجهز المفوض لاباو نفسه للاحتفال مع أركانه بالمحاضرة الأخيرة. وقبل الحملة المفاجئة على قوات الشر الثائرة، فإن كامويس فوماسا المهرب الشرير يحاول أن يتسلم المال الذي يعود إليه نتيجة حمل كمية الحشيش الهائلة التي نقلها، وكان اختفاء فافا قد ترك التحري كوكا دون مكان يحفظ فيه البضاعة ودون أحد يأخذ منه المال ليدفع الخمسين بالمائة المتفق عليها، والمبلغ الباقي يدفع عند نهاية ليل رجال البحرية والدولارات، دولارات تهددها فتيات الهوى الممتنعات عن فتح مطارحهن على الرجال. ألقى المفوض عينيه المظلمتين على المنحرف ولكن الوقح لا يخجل بسهولة، إنه يعيش فوق الخوف في غيمته المدخنة.

في سيارة البويك القديمة التي تدور بلا هدف خطرت للتحري فكرة مضيئة: لماذا لم تخطر له من قبل؟ فأمر بإرسال البضاعة إلى محلة لاديرا دو باكاليو ووضع الحشيش في غرفة من الغرف هناك. "اتجهوا إلى هناك وانتظروا مني خبراً". وما إن يتضح الوضع ومع عودة النظام والفتيات سيرسل خبراً إلى بائعي المفرق فيتجهون إلى المنطقة ويبدأ حصاد الدولارات، "ابقوا منتبهين رجاء. بعد العمل تأتي المكافأة".

وسار كل شيء على ما يرام ما عدا كامويس فهو يريد أن يقبض.

- "اغرب عن وجهي" زمجر المفوض.

أحــس المهــرب أنه لم يعد يستطيع التحمل دون أن يأخذ نفساً. ما عليه أن يفعــل سوى الرجوع إلى باكاليو والانقضاض على الحراس المزروعين هناك، وأخذ كمية الحشيش ووضعها في سيارة البويك وإرجاعها. ولكن قبل أي شيء من هذا لا بد له من مبرر لفعله.

في حين كان المفوض يتفق على تفاصيل العمل الذي يستهدف فتح الأسواق العمومــية وعــودة فتيات الهوى إلى ممارسة المهنة، شاعت في المدينة أنباء تستدعي القلق وقد صدرت كلها تقريباً عن الإذاعات التي تبثها.

المعلّق الرياضي ذو الشعبية القوية نيريو فيرنيك في تعليقه المسائي وبسبب عدم وجود موضوعات رياضية جديدة، وبعد أن فصل أخبار أنواع الرياضة التي يمارسها جــنود البحرية في الأسطول الأميركي، فضح وجود أحد أبطال الملاكمة العالميين مــن الــوزن الثقيل في إحدى السفن الراسية في المرفأ وأن الملاكم قد ثار لمشكلة سوق البغاء المقفلة.

ومأساوياً كأنه قد أضاع ضربة جزاء في مرمى الخصم علّق قائلاً: "إذا تبين أن جهود الشرطة ستكون غير مثمرة وأصرت العاهرات على تصرفهن السلبــي ولم يلجأن إلى التعاون الفوري مع السلطات، وإذا ظلّ رجال البحرية الأميركية وهم لا يرون غير السفن في الميناء، فماذا يمكن أن يحدث؟ آه. كل شيء قد يحدث". وكما هو متعوّد على التعليق على مباريات كرة القدم، فإن نيريو فيرنيك بالطريقة نفسها راح يقتــرح ويــصف ويعطــي الأدلة، محتاراً وقلقاً، إن الإثارة هي سر الإرسال الإذاعي الجيد.

إن تجمــع العسكريين في منطقة البغاء يعني دائماً وجود حوادث دامية، وفيما يخــص الغرباء، فإن الخطر يزداد وخاصة أن العراك بين المضيفات والوطنيين ينتهي إلى مشاكل شارعية خطيرة فإلى أزمات كبيرة ذات نتائج غير متوقعة. وقد استشهد بأمثلة عديدة وذكّر المستمعين بأيام الحرب.

"ومــاذا سـيحدث"، سأل المعلّق الإذاعي الشعبــي، "عندما ينــزل رجال البحــرية إلى اليابــسة يائــسين من وجود امرأة وعدم عثورهم على من يمكن أن

تستجيب لغرائزهم الطبيعية؟ فهل سيعودون إلى سفنهم وإلى وحدة البحر ووحشته؟ إنهم سيغزون المدينة مفتشين عن امرأة في الشوارع الأخرى دون احترام للعائلات، يغزون، من يدري، المساكن؟ لقد حدث ذلك سابقاً والمستمعون يتذكرون بالتأكيد".

إن السؤال التهديدي يظل مطروحاً على موجات الأثير، والخوف يشق له طريقاً، ومطارح النساء مقفلة، واللغط يزداد.

لم يكن رئيس البلدية ريجينالدو بافاو يترك فرصة للظهور إلا ويستغلها ليتردد اسمه ويضيف إلى امتيازاته امتيازاً جديداً. ولم يستطع أن يرى مكبر صوت يجود بالكلام دون أن يكون له يد فيه، إنه عاشق أحاديث، وخطيب أمي، ثرثار، ومتسيس محتال، إنه كالنّسر، حيث هناك جموع من البشر وأياً كان سبب التجمع يظهر ويبدأ العمل؛ في تلك الليلة من إقفال سوق البغاء أين يمكن أن يكون خارج المنطقة؟

حسب حاسدوه أنه توجه إلى هناك لأغراض سرية، ولكنه لا يستطيع أن يفرّغ غرائزه وقد استعمل وجود الصحافيين ومعلقي محطات الإرسال لممارسة ديماغوجيته المعتادة... ألسنة خبيثة: فالأب الشعبي الخدوم قد تصرف مدفوعاً بحكم الضمير ورغبة منه في خدمة السلطات والجماهير الشعبية الواسعة.

عندما وصل إلى بيلورينيو مساء بعد جلسة المجلس البلدي حيث تم الاقتراع بالإجماع على تأمين الرفاهية لجنود الأسطول الأميركي الشمالي، فقد مرَّ كما هي عادته الدائمة على دار السيدة باولينا دي سوزا التي يفضلها نظراً لمستوى نوعية الفتيات ونظافة الغرف وذلك الهدوء الشامل، ولأنه صديق أريوستو ألفوليريو الذي يستحق منه الوفاء والدعم، وبيد تغسل اليد الأخرى، أخبرته صاحبة الدار السمينة بما حدث، "يعذرني الصديق الصدوق على عدم قدرتي، دون مشيئة مني، فليس ممكناً اليوم لأن السوق العمومية مقفلة".

كان معها راقصة ملهى فلور دي لوتوس ذات العينين الإلهيتين كأنها فينوس. لآخر مرة أخذت الأخيرة الكلام فقد استطردت قائلة: "إن السوق مقفلة وستظل كذلك إلى أن تعود نساء باروكينيا إلى بيوتهن، وقد تم سجنهن وأسيئت معاملتهن، وإلى أن تعود الفتيات المبعدات إلى فرشهن انتزعن منها ودون أن يكون هناك

تهديـــدات جديدة للانتقال"؛ مستعدة لكل شيء، حيوية، ومولهة، وقرر ريجينالدو بافاو ارتياد ملهى فلور دي لوتوس وهكذا يمكن للملهى أن يفتح أبوابه.. إن هذه الفتاة بشارة له.

بعـــد ذلك شوهد مسرعاً وهو يسير في المنطقة بين بيلوريتيو وتاباو وماسييل مـــتحدثاً في الـــبارات مع الزبائن ورجال الشرطة، واتجه بعدها إلى مديرية شرطة الملاهـــي والمحافظـــة علـــى التقاليد حيث كان هيليو كوتياس يصغي إليه بتهذيب وطيـــبة.. "وفيما يخص قرار الانتقال فلا يمكن فعل شيء يا عزيزي ريجينالدو إنها أوامـــر علـــيا جاءت من فوق". وبحركة غامضة أشار مدير عام الشرطة إلى منشأ القرار في الأعلى.

أمـــا الباقي فموكول إلى المفوض لاباو، وعليه أن يعيد سوق البغاء إلى العمل مـــن جديد. عليه أن يتصرف بسرعة وقوة. في الثامنة رجال البحرية الأميركية إلى اليابسة.

عـــند هـــبوط اللـــيل أصبحت المنطقة ساحة حرب... فقد أفرغت سيارات الـــشرطة الإمـــدادات التي طلبها المفوض؛ أما عربات المواجهة فقد أقفلت مداخل الشوارع الاستراتيجية والأزقة والزواريب. أما فرق الشرطة العسكرية، وهي تمتطي الأحـــصنة، فكانت تصعد وتهبط من بيلورينيو وتدور حول حي ماسييل وأكثرية الفضوليين فضلت البقاء في تريو دي جيزوس بانتظار نتائج الأحداث.

لا يمكن مشاهدة امرأة واحدة تمارس المهنة؛ اللواتي لم يكنّ يتنـــزهن بقينَ في داخـــل النـــــزول ليسترحن. وأرسل المفوض لاباو رجال الشرطة ليوجهوا إنذاراً أخـــيراً إلى العاصـــيات: "أمامكن نصف ساعة لإعادة فتح المنازل وأخذ أماكنكنّ التقليدية عند الأبواب، وعلى النوافذ، وفي صالات الانتظار". وعلى الرصيف بقين واقفات عند أركان الأبنية دون جواب.

فقـــط كانـــت الـــبارات تعمل، أما بيوت العزّاب والنـــزل وبيوت الدعارة فكانـــت مقفلة ومظلمة؛ لا شيء يذكر بالحيوية التقليدية، ولا تسمع كلمات فظة ولا ضحكات خليعة ولا دعوات إلى الفراش، ولا عروض النساء نصف العاريات، ولم تكـــن تسمع سوى أصداء حوافر الأحصنة على حجارة الأرصفة السوداء، إن الجمعة العظيمة تقع في النصف الثاني من أيلول، فيا للروزنامة المجنونة.

في حي ماسييل وهو يشهر مسدسه، فإن المفوض لاباو أوليفيرا أعطى الأوامر بمسير الفرق، فرق التقاليد الجيدة والمناقب! في محلة بيلورينيو، مع دقيقة تأخر بسبب ساعة اليد التي احتجزها لأحد المهربين، فقد تقدم بيشي كاساو وتبعه الحراس وجنود الشرطة.

وبدأت المعركة: أعلن مذيع راديو أبايتي "حيث يكون النبأ هناك تجد أبايتي، في الماء، في النار، في السلم والحرب"، "لقد أصبحت المنطقة جهنماً مشتعلة"؛ يرتجف على الميكرفون صوت بينتو سكوت الحنجرة الذهبية في إذاعة باهيا الأولى.

تم فتح أبواب بيوت العزّاب والنزول بالعنف، بضربات من الأقدام، وبقوة أكتاف رجال الشرطة؛ الحراس والجنود يغزون البيوت، يعتدون على النساء ويجبرونهن على الخروج إلى الشارع... ودخلت المشهد الهراوات، وأسواط الجلد، وفضل بعض رجال التحري استعمال الأسلاك الحديدية، وأمطرت ضرباً؛ صراخ وشتائم ونساء يهربن خارج الأبواب وأخريات يقاومن فيتم إيقافهن على ذمة التحقيق.. إنها بداية عملية "العودة المفرحة إلى العمل"، أما بالنسبة إلى فرق الشرعية فقد كانت ترفيهاً عن النفس.

في حالات كهذه تصبح مهمة العملاء معقدة وتصبح مستحسنة. في نزل سيرس غريلو غراندي كانت الإنشاءات الصحية دون عمل منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة مما أجبر النزيلات على استعمال المباول المتنقلة، وقد تم تجميعها في داخل الدار فتبين لهن في النهاية أن هذه المباول هي أسلحة فعالة في الحرب، وبدأن باستعمال المباول الممتلئة بالبراز فرمين بها المهاجمين وأجبرنهم على الفرار؛ أما آمر الفرقة التحري دالمو فقد أدركته وهو يرتدي بزته الرمادية محتويات وعاء كبير كانت قد استعملته عدة مرات الفتاة الحديثة العهد في السوق وتدعى زابي وهي مصابة بالإسهال الشديد، وأصبح الأنيق مكسواً بالبراز والبول والكراهية... فأمر بحملة تأديب عنيفة وأعطى المثل على ذلك.

وبينما يشهر مسدسه، فإن المفوض لاباو أوليفيرا قاد بنفسه اقتحام نزل فافا، وقفز السلم دفعة واحدة وهو يقود بعض رجال الشرطة الذين هم موضع ثقته وأمر بخلع الباب وتكسير دفتيه الاثنتين. لم يجد نبضاً ينبض في الطابقين من العمارة الكبيرة. الغرف مقفرة وصمت مطلق يسود المكان "أين ذهب القواد: آه!" لو أن

النقيب وجده فكان يعلم كيف يجبره على إصدار الأوامر المضادة وتقرير فتح الدور العمومية. وكان يعتمد على ذلك ليحصل به على انتصار سريع وحاسم لأن من يأمر وينهي في المنطقة هو فافا، وكلمته قانون. "أين اختبأ ابن الزانية؟"

وبإشارة من لاباو تم خلع باب الغرفة، وغزا الرجال مقر الكسيح فلم يعثروا لفافا على أثر؛ وقد أصابتهم سورة من غضب فمزقوا شراشف الفراش وجمعوا أشياء للاستعمال وأخرى ثمينة وخلعوا قفل الدرج، فمزقوا أوراقاً هناك، وحاولوا فتح الخزانة المخبأة في الحائط فلم يفلحوا.

- ماذا تفعلون واقفين هنا؟ إنكم ستعيدون العاهرات إلى العمل يا عصابة الجبناء. أم إنكم خائفون من النساء؟

نظر إلى ساعة يده. بعد قليل سينزل رجال البحرية الأميركية إلى اليابسة. إن الوقت يضيق.

وقد حُملن عنوةً إلى الشارع، فإن النساء قد أخذن بالركض، هاربات، مختفيات في الأزقة الضيقة. وحاول جنود الخيالة المحافظة عليهن محاصرات ولكن الأمر ليس سهلاً. وانتشر القمع في المنطقة.

زبائن البارات، وفي طليعتهم الألماني هانسن، أخذوا يرمون الزجاجات الفارغة تحت حوافر الأحصنة احتجاجاً على أعمال عنف الشرطة. الشاعر تيلمو سيرا شغل ميكرفون إذاعة باهيا الأولى وراح يلقي كلمة حماسية.

"المنطقة تحترق!" إن جملة أحد المذيعين هذه أخذت تشيع الذعر إذ إن الكثيرين من المستمعين فهموا الكلمة بمعناها الحقيقي لا المجازي وأخذت أخبار الحرائق تسري في شوارع المدينة... وكانت آلات التصوير تسطع على وجوه الفتيات، بعضهن خائفات والبعض الآخر ثائرات. وأما التحري دالمو كوكا غارسيا، فقد تخلى عن الظهور أمام الأضواء. لأنه كان ملطخاً بالبراز والبول وتفوح منه رائحة كريهة.

من أجل دعوة عامة إلى الالتزام بالهدوء في المدينة فإن رئيس البلدية ريجينالدو بافاو شغل كل ميكروفونات إذاعة أبايتي "المزروعة كلها في قلب المعركة، ورئيس البلدية، هذا الرمز الشعبي لحل المشاكل السياسية موجود هنا مواجهاً معنا خطراً جسيماً في محاولته المباركة إيجاد مخرج للأزمة التي أخذ خطرها يتنامى في المدينة".

كـــان صـــوت مفتعل القلق وصياد الأصوات الانتخابية ملعلعاً داخل آلاف المـــساكن، فهو في قصر البلدية كما في المراكز الانتخابية لم يستطع يوماً أن يحصل علـــى جمهـــور غفير كهذا. أجهزة الراديو تعمل في كل المدينة، والسكان مصغون بانتباه إلى أنباء تطورات الأحداث ومصير إقفال سوق البغاء.

بقلـــب دام يوجه ريجينالدو بافاو كلمة إلى مستمعي راديو أبابتي، إلى شعب باهـــيا، ويصف المشهد المرعب الذي يدور أمام عينيه المنكسرتين من هول المشهد مشبهاً إياه بالأحداث التي عصفت بروما القياصرة التي يكلمنا عنها التاريخ العالمي. وترتج الكلمات في الهواء: "إن صوتي تخنقه العبرات".

ثم وجّـــه دعـــوة مؤثرة إلى العاهرات: "إني أثق بوطنية المواطنات اللطيفات اللـــواتي قذفت بهن عواصف الوجود إلى الدعارة، وهن لن يرتكبن عملاً غير لائق بترك أبطال جنوب الأطلسي أبناء الأمة الأميركية المجيدة الذين لا يقهرون وهم... كيف أقول؟ قل: لن يتركنهم ينظرون إلى السفن يا حضرة الرئيس"، استعمل عبارة المفـــوض لاباو أوليفيرا التي أصبحت شائعة الاستعمال على ألسنة المذيعين المختبئين وراء أبواب حي ماسييل وبيلورينيو.. "لن يتركنهم ينظرون إلى السفن، لن يتركن أولـــئك الأبطـــال الـــذين يجازفون بحياتهم من أجلنا لكي نتمتع بعطايا ومواهب الحضارة".

"إن إصـــراركن غير الملائم يهدد بخلق مشكلة دبلوماسية، فتأملن في خطورة الوضع واستجبن للحل يا أخواتي الحبيبات الملزمات بالممارسة".

نجـــاح لا يوصف ناله الخطاب الملتهب لدى مستمعي راديو أبابتي، ولكن مع الأســـف لم يـــصل الخطـــاب إلى أسماع المحترفات من النساء في السوق العمومية المنـــشغلات في إنقـــاذ أنفسهن بالهرب متفرقات في الشوارع يحاولن الخلاص بين حوافر الخيل.

بعـــد ذلـــك توجه ريجينالدو بافاو إلى صاحب الفخامة محافظ الولاية: "مع الاحتـــرام الواجب لشخص الرجل الكبير الموضوع على رأس المسؤولية عن مصير باهـــيا المجـــيد مستنجداً بمشاعر المسيحية وطاقته الموثوقة بوصفه محافظاً للولاية"؛ وتـــرجل رجال البحرية الأميركية إلى اليابسة وفتيات الهوى يقاومن أوامر الشرطة والوضـــع في سوق البغاء من الناحية السفلى أصبح متفجراً، والأزمة يمكن أن تمتد

حتى حدود تهديد راحة العائلات الكبيرة في باهيا. رئيس البلدية الشريف يستنجد بالمحافظ النبيل: "أعط أمرك يا صاحب الفخامة بإطلاق سراح سيدات النزول اللواتي ما زلن سجينات، واسمح لهن بفتح الدور التي أقفلت أمس من قبل الشرطة المستعدة بكل قواها لنقل هذه البيوت من باروكينيا إلى لاديرا دو باكاليو، إن المسألة أصبحت شديدة الخطورة، يا حضرة المحافظ، فعلق قرار النقل وامنع أن تتحول الأزمة التي ما زالت محصورة بحدود المنطقة إلى كارثة وطنية وفضيحة دولية".

في المدينة الهائجة، العائلات تقفل أبواب دورها السكنية؛ وهواتف قصر المحافظة ومديرية الشرطة لا تكف عن الرنين مطالبة بالنجدة.

في داخل سيارة البويك المخفية في غابة كثيفة، كان كامويس ورفيقه يصغيان إلى دعوة رئيس البلدية ريجينالدو بافاو كانا قد فتحا جهاز الراديو بغية الحصول على موسيقى ناعمة يسمعاها مع نفثات دخان الحشيش فأعار كامويس انتباهه:

- لقد فشلت الحملة. لنذهب ونأت بما يخصنا ما دام هناك وقت.

- "هكذا يجب أن نفعل" وافق الآخر القليل الكلام.

أخذ المقود وراح بالسيارة إلى لاديرا دي باكاليو. وأحس الشريكان بارتياح لأنهما سيريان البضاعة من جديد ويعودان بها. منذ البداية سار ذلك الموضوع بصورة سيئة مليئة بالارتباكات.

في الغرفة الموضوعة فيها البضاعة، كان فريق العمل المسؤول عن البيع بالمفرق قد أكمل تقسيم المواد الثمينة بقيادة سينسيناتو غاتو بريتو الذي بقي لحراسة كل هذه الكمية من الحشيش الممنوع عليه استعماله، فيا للوضع الذي لا يحسد عليه.

القسم الأكبر من قطع الأثاث التي جاءت بها شاحنة الشرطة من باروكينيا وتركت هناك كان قد تناهبه المشردون والصعاليك في أثناء النهار، ولم يبق إلا بعض الفرشات التي حملها بائعو الحشيش بالمفرق ليتمددوا عليها منتظرين؛ انتظار طويل، ورائحة سجائر الحشيش التي لا تقاوم، وبسجال قصير اتفقوا فيما بينهم على أن عدم احترام تعليمات التحري دالمو كوكا هو مجازفة خطيرة ولا داعي لها. ولكن لن يسيء إحراق سيجارة أو سيجارتين ما داموا ينتظرون؟ أي سوء في هذا؟ لا سوء بالتأكيد وانتهى سينسيناتو غاتو بريتو إلى الموافقة فهو أيضاً يحتاج نفساً عميقاً.

كانــوا مــستلقين بارتخاء في الفراش يدخنون ويحلمون عندما غزا كامويس فوماسا وبياغوردا الصالة. سينسيناتو غاتو بريتو يحب الهدوء في ساعة الرحيل. رفع رأســه وحــدّق في الواصلين الجديدين وعرفهما. لقد جئتما بالتأكيد برسالة من الريس كوكا:

- هل هذه هي الساعة؟

شــرح كامــويس هــزال العملية التي دبرها التحري. لقد أصبحت المنطقة جحــيماً، ضرب ومطاردات وجنود شرطة؛ ومجنون هارب من مستشفى أمراض عقلــية لا يفكر في بيع الحشيش بوجود الخيالة والشرطة المندسة في المكان، والعصا تأكــل من ظهور الناس؛ لقد سمعوا كل هذا من الإذاعة؛ ومتشككاً فإن سينسيناتو لم يصدق كلمة واحدة من كلمات كامويس الذي انتهى إلى القول:

- لم يدفعوا لنا نحاسة واحدة وسنأخذ بضاعتنا.

- "تأخــذ بضاعتك، يا للحماقة" بذل غاتو بريتو جهده وجلس في الفراش مردداً:

- تأخذ البضاعة؟ حماقة.

كامويس فوماسا تحت تأثير الحشيش يصبح أبا الرجولة:

- الأحمق هو أنت وستدفع الآن ثمن جرأتك.

بعــض المهــربين انتصبوا واقفين وبدأت المشاجرة. القزم تحول مارداً. وترك ســيجارة مشتعلة تقع على الفراش المثقوب وتنال من القش الجاف. امتد الدخان وبعدها اندلع اللهيب.

في بيلوريــيو، حيث قامت جيوش المناقب والقانون تحت قيادة التحري من الدرجــة الأولى نــيكولاو رامادا جونيور بالهجوم، فإن الإطار العام للمعركة كان شبيهاً بما حدث في حي ماسييل: نساء يضربن، ويؤخذن عنوة من منازلهن، ويؤتى بهــن إلى المحلــة مقيدات أو تطاردهن الخيالة... هنا يصبح الاختيار أكثر صعوبة، مداخل الشوارع المؤدية إلى تريو دي جيزوس ودوس سابابيتروس تسدها سيارات الشرطة. الهراوة مطلقة العنان لأن الأوامر هي الضرب إلى أن تقرر المجرمات العودة إلى ممارســة الــدعارة وفتح الأسواق العمومية؛ وتنفيذ عملية "العودة المفرحة إلى العمل" ناشط على قدم وساق.

وكــان غــزو البيت الرئيسي للسيدة باولينا دي سوزا، بقيادة بيشي كاساو شخــصياً، هــو ما جعل تفاصيل المعركة تصبح أكثر إثارة ومضموناً، فالراقصات الممارسات غير متأكدات من قوة الأقفال، فوضعن وراء الباب قطع أثاث ثقيلة مما جعــل مهمــة الشرطة أصعب فأصعب للقيام بالواجب، وجعل غضب نيكولاي الحائر في أمره يزداد أكثر فأكثر.

أخــيراً تم فــتح الباب فانطلق بيشي كاساو عبر الممر إلى الداخل؛ ومن رأى أمامــه؟ لقــد رأى السوء بنفسه، بنت الشارع والموبوءة تريزا باتيستا. عندها فإن الملقــبة بتريزا أم الرفسة على الخصيتين أنالت القائد كاساو بكل ما أوتيت من قوة ومن أعلى حذاء على الموضة تنتعله، رفسة عنيفة على خصيتيه:

- آي بــي ي ي ي.

صرخة التحري شلّت حركة الفرق الغازية، وإذا بتريزا تخترق مسرعة رجال الــشرطة وتخرج معها بعض النساء... بيشي كاساو أرضاً، يداه تمسكان بخصيتيه ألمــاً، ولم يعد يفكر في غير الانتقام وهو متأوه. بعد عدة دقائق، وعندما تمكن من الوقــوف بمــساعدة اثــنين من الشرطة السرية، كان قد مزج بالألم أفظع مشاعر الكراهية.

محاطــة بجنود الشرطة العسكرية، فإن تريزا أكملت هربها من بين أقدام الخيل راكــضة باتجــاه سلم الكنيسة روزاريو دوس نيفروس ثم أسندت ظهرها إلى أحد الأبــواب. فعلــت النــساء الأخريات الشيء نفسه، والجياد لا تستطيع أن تصعد الدرجات ولكن جنود الشرطة اقتربوا لإلقاء القبض عليهن.

خلــف ظهر تريزا انفتح الباب، وعندما دخلت الكنيسة وما تزال قادرة على أن ترى عبر ظلمة قليلة اختفت وراء كرسي عالٍ ثم تسللت إلى مكان لم يعد أحد يستطيع أن يراها... ثم خرجت النساء من نزول بيلورينيو مهرولات، بعضهن بين أيــدي الشرطة ورجال الأمن مأخوذات بعنف، وعجلن في الدخول إلى الكنيسة، نــساء أخريات وصلن من ماسييل وتاباو تفتيشاً عن الأمن وملجأ يبقين فيه. قليلاً قليلاً امتلأ بيت العبادة بالفتيات، بعضهن راكعات، رحن يصلين.

بعــد التهام السمكة الحارة ترافقها البيرة المثلجة، استقل خليل وأناليا الباص باتجاه لارغو داسي. وكانت السيدة باولينا دي سوزا قد أعطت الأوامر إلى فتياتها

بالعـــودة باكـــراً، بغية تجنب المشاكل المحتملة مع زبائن مشكوك في أمرهم، وعند أعلى محلة كاسترو ألفيس ضرب خليل على رأسه ودعا أناليا إلى النــــزول:

- كنت سأنسى من جديد.

- تنسى ماذا يا عزيزي؟

- صورة القديس أونوفري التي طلبتها دونا باولينا.

في الأسواق العمومية والنـــزول التي تحترم نفسها، وفي غرف الطعام بالذات. يجب وضع صورة القديس أولوفري محاطة بالزهور والشموع المضاءة.

ومـــنذ وقـــت طويل كانت السيدة باولينا تفتش عن صورة كبيرة للقديس الـــشفيع لتـــضعها في المكتب حيث تعلق صورتي شفيع البحارة والسيدة العذراء. وكـــوهُا تعلم بتجارة صورة القديسين، المهنة القديمة التي يمارسها والد خليل، فقد طلبت من الأخير أن يحجز لها صورة للقديس أونوفري كبيرة، جيدة الإطار وليأتيها بهـــا بـــأي سعر لأنه لا يوجد في المحلات التي تتعاطى هذه التجارة، مثل الصورة المطلـــوبة. عموماً، في تجارة السيد شماس، الأب، يساوي القديسون ثروات كبيرة، علـــى الرغم من سوء المحافظة على حالة الصور التي تنقصها غالباً الأيدي والرؤوس والأفخـــاذ، وقد وعد خليل السيدة باولينا بأنه ما إن تأتي صورة للقديس أونوفري مـــن مـــنطقة الـــداخل حتى يحملها لها هدية. وقبل أمس وصلت الصورة الكبيرة، الجديدة، من الجفصين، ولكن خليل نسي أن يأتي بها.

تـــرك أناليا عند الركن، وذهب ليأتي بالقديس وعاد به ملفوفاً بجريدة وتابعا السير على الأقدام وهما يصعدان الطريق المؤدي إلى أجودا.

علم فيما بعد أن بعض سيدات النـــزول، من ماسييل وبيلورينيو على السواء، مرتعبات من عنف الشرطة من جهة، وحاسبات الخسارة الناتجة عن امتناع الفتيات عـــن الممارسة في ليلة رجال البحرية الأميركية الذين يدفعون بالدولار؛ لقد فكرن بخـــرق الاتفـــاق وبإعطـــاء الأوامر إلى فتياتهن بالعودة عن الإضراب لفتح السوق العمومية من جديد.

علـــم فافـــا فوراً، من المكان الذي يختبئ فيه، بالتهديد الخياني، فبعث رسالة مستعجلة إلى المنحرفات. "الويل لمن لا تلتزم بالوعد وتعصي أوامر الإله إيشو فهي لـــن تبقى في المدينة، ولا في المنطقة، وعليها أن تخلي المكان محتقرة إذا لم تمت قبل

ذلـــك ميـــتة بشعة. في الساعة نفسها أو في أي مكان آخر خلال شهر واحد فإن عقـــاب الموت الذي وعد به تيريري سينـــزل بها، والويل لها!" التفسير حافظ على التضامن حتى النهاية وأبقى وحدة الأسواق العمومية قائمة.

ومـــع ذلـــك ظهرت فجأة وسط المعمعة فتاة هوى نحيلة وطويلة وفي يدها حقيبة، ذات شعر أشقر، وكعبين عاليين وترتدي اللون الفاتح: كانت قد خرجت إلى الرصيف تفتيشاً عن زبون. فارتعش جنود الشرطة فرحاً وأسرعوا إليها ليكفلوا لهـــا محافظـــتهم على ممارستها المهنة. ثم تبينوا أنها امرأة مستعدة للتعاون في عملية "العودة المفرحة إلى العمل".

وعـــند اقتراب رجال الشرطة منها لاحظوا، ويا للصدمة البشعة، أن المرأة لم تكـــن إلا المنحـــرف الـــشاذ غريتا غاربو الغلام في بيت فافا الذي كان في أزمة وجدانـــية مـــنذ الـــبارحة! فقد فكّر طويلاً وقرر في النهاية أن يستفيد من المناسبة النادرة: إن المدينة مليئة بالبحارة الأميركيين، وخالية من النساء، آه!

قبـــضوا عليه ووضعوه في سيارة السجن وهناك هوت الفتيات على المنحرف ضـــرباً؛ المنحرف الذي كان ضحية الطموح في أن يرضي وحدة البحرية الأميركية الشمالية.

في كـــونهم مطـــيعين لتعلـــيمات المفوض لاباو أوليفيرا الشريك الرئيسي في الـــشركة السياحية التي تأسست لاستقبال رجال البحرية الأميركية، وحوالى الثامنة مـــساء، فإن سوق البغاء وجدت مغزوة بعشرات من بائعي المفرق رؤوساء المنطقة وكل واحد يحتل داراً عمومية ويشرف على زجاجات المخدر كاسيتي ريجو: "وان دوز فايف فاكس".

وفي اللحظـــة نفسها التي كانت قوات الشرطة بقيادة القائد الأعلى المفوض، تـــستعد للهجوم على النساء لإجبارهن على ممارسة الدعارة، فإن الرؤوساء وبائعي المفرق كانوا قد دخلوا السوق بتعبيرات إنكليزية ذات لهجة جهنمية قبيحة.

جهـــلاً منهم بالاتفاق بين قائدهم وبائعي المخدرات بالمفرق، فإن جنود الشرطة العسكرية توجهوا على الجياد باتجاه عصاة الأوامر محاولين تنظيف الشوارع من الوجود غـــير الشرعي والكثيف الذي يزيد البلبلة التباساً؛ كان البائعون قد توقعوا إيجاد زبائن لطفاء من البحارة الذين يمضغون العلكة ويوزعون السجائر ويشترون الأدوية ويدفعون

بالـدولار. وكـل ذلك على مرأى من شرطة المحافظة على التقاليد التي هي كلها على علم بما يدور، ولكن بدل الفتيات والبحارة، فقد واجهوا الخيالة تجتاحهم وتبعدهم عن المكان؛ الرؤوساء ابتعدوا والتجأوا إلى داخل البيوت. في الشوارع ساد الهرج والتساؤل وقـد شـاهد الجمـيع مجموعة البائعين ترتدي كلها قمصاناً من نوع واحد.. وانهزم الضعفاء ورموا أرضاً المواد الكيمياوية التي صنعها للهلوسة الصيدلي عارون مادروغا.

وراحـت النساء تستعمل زجاجات المخدر كاسيتي ريجو أسلحة ضد رجال الـشرطة والأمـن. وبينما يشهر مسدسه بيده حاول المفوض لاباو أن يمنع إفلاس الشركة وانهيار المنطقة الكامل. وسمعت عندئذ أصوات سيارات الإطفاء.

عـند بلوغها بداية محلة داسي انتبه خليل وأناليا إلى الأمر الخطير الذي يحدث في المـنطقة؛ جمـوع بشرية هائلة في محلة تريو دي جيزوس تعلق على الأحداث، والقلـيلون يتجرأون على المرور قرب عربات الشرطة والدخول إلى منطقة الأزمة، ودار الـشاب والفـتاة حول كلية الطب وهبطا إلى ناحية بيلورينيو. أخذت أناليا الصورة من يد خليل:

- الـيوم لا تـستطيع أن تـذهب إلى هـناك. السوق مقفلة، ومشيا بعض الخطـوات معـاً فوجدا نفسيهما في وسط اللغط محاطين برجال الشرطة، وتقدم حـارس مـن حراس باتجاه أناليا، فتدخل خليل، وهربت الفتاة لا تعرف إلى أين تذهب مرتبكة وجاءها صوت من الأعلى يقول لها:

- إلى الكنيسة، بسرعة، يا ابنة بياوتنغا الجميلة.

وهـي تركض اتجهت إلى الكنيسة، ولكن رجال الأمن كانوا يسدون السلم المؤدي إليها، ويمنعون مرور النساء، كيف تمر؟ هي نفسها لا تعرف ولكنها مرّت.

أحست بنفسها بين ذراعي شاب جميل، يشبهها منظراً ولكن من أين تعرفه، مـن هو؟ فجأة أصبحا من ناحية الكنيسة هي ومعها صورة القديس أنوفري أمام باب الكنيسة المفتوح قليلاً، سليمتين متعافيتين. من هناك نظرت من شق الباب إلى خليل وقد أخذه اثنان من رجال الشرطة إلى سيارة من سيارات الأسرى بينما هو يعاركهما. أرادت أن تركض إلى عشيقها ولكن النساء الأخريات منعنها وأوقفنها داخل المعبد وأخذن منها الصورة فرحات. وهي تتنهد من البكاء رمت أناليا نفسها بين ذراعي تريزا باتيستا.

- "لا تبكـــي، يا صغيرة، كل شيء على ما يرام"، واستمرت تريزا بالتعزية: "لـــن يبقـــى طويلاً في السجن السيدة باولينا سجينة هي الأخرى وأناس كثيرون معها. ولكن لم يفتح أحد السوق العمومية".

جلس سائق التاكسي إدغار في سيارته حائراً في أمره في محلة كاسترو ألفيس. الحـــركة بطيـــئة في تلك الساعة، عندما يكون أغلب الناس في منازلهم، يأكلون، يتحدثون ويصغون إلى الإذاعة ويستعدون للراحة أو الخروج. مع سحب الناس من باروكينيا وإقفال النـــزول مساء أمس، فإن تدفق الزبائن قد تدنى كثيراً في الجوار. وما يزال الوقت مبكراً ليفتح ملهى التباريس أبوابه وتبدأ الحيوية من جديد.

وجد إدغار نفسه وحيداً في المحطة، بينما سائر السائقين قد ذهبوا للعشاء و لم يعـــودوا بعد. ووسط الهدوء وفي انشغاله في أن لا يحضر زبون ما، فتح عينيه وتبيّن غياب أهمية شخص مهتم بالانتقال بالتاكسي إلى مكان ما. وقبل أن يعود إلى النوم ألقـــى نظـــرة على المحلة. ليس هناك سوى جاسيرو فروتا باو تبيع الذرة والفستق وجوز الهند. لا أحد تقريباً، إنها ساعة معدومة.

علق نظره في مكان ما فأصابته الدهشة. أين هو تمثال الشاعر كاسترو ألفيس؟ إنـــه ليس في أعلى القاعدة وهو يمد يده نحو البحر الواسع مطالباً بالعدالة للشعب! إلى أين ولماذا نقلوه؟ بالتأكيد لينظفوه، ولكنهم دائماً كانوا ينظفونه وهو في مكانه! ودون حاجة إلى رفعه! غداً، بالتأكيد، ستشرح الصحف السبب الأكيد.

وعـــاد إدغـــار إلى شخيره المتقطع. وقبل أن يخلد إلى النوم انتبه إلى أن المحلة تصبح مختلفة، صغيرة، دون تمثال الشاعر.

بعد اطلاعه على خطورة الوضع، فإن السيد المحافظ اضطر إلى الانسحاب من الـــصالة الـــتي تقدم فيها الويسكي قبل الوليمة التشريفية للأميرال وكبار الضباط الأميركـــيين الشماليين ليتبادل بعض الكلمات مع رئيس البلدية ريجينالدو بافاو.. ريجيـــنالدو مؤيد نشيط، لا شك في ذلك، ولكنه قصاص بلا رقابة ذاتية أو سيطرة علـــى النفس، وقد أبقى صياد الأصوات الانتخابية هذا على مسافة بعيدة، أمر بها زعيم الولاية السياسي ذو الذكاء والحنكة الذي ولد فقيراً في أزقة سان فرانسيسكو وارتقـــى المـــراتب العالية بمخططات مدروسة وشجاعة. إن ريجينالدو ممتاز إذا تم استعماله في مثل هذه الظروف، ولكن يجب أن يتم الاستعمال بحذر لأنه إلى جانب

كونه أمياً فهو جريء. ولكن ضابطَ السجن كان قد أسرّ إلى مسامع المحافظ بأشياء مرعبة تحدث فاستأذن سيادته بأفضل ما عنده من اللغة الإنكليزية ونهض متجهاً إلى الغرفة المجاورة وراح يصغي إلى التقرير والدعوة.

متأثــراً، مــع صوته المخنوق بالعبرات، فإن ريجينالدو بافاو راح يتحدث عن المأســاة اليونانــية. لماذا اليونانية؟ هل قرأ رئيس البلدية أرستوفان؟ أراد أن يسأله صــاحب السيادة، ولكن الساعة ليست مؤاتية للمزاح. لقد اكتفى بإرساله. ينتظر ريــثما يتخذ الإجراءات الضرورية: "انتظر هنا، يا عزيزي بافاو، وستأتيك أخبار جيدة لتنقلها إلى أخواتنا..".

- كــيف؟ كــيف قلت؟ تلك العبارة الجميلة، وكيف قلتها؟ آه! لتنقلها إلى شقيقاتنا في سوق القدر.

- العاهرات ينتخبن هن الأخريات يا صاحب السيادة.

من المقر العام، اتصل المحافظ بمدير عام الشرطة:

- مــا هي هذه القصة لنقل الفتيات عنوة؟ إنهن عاهرات! أين سمعت بشيء كهذا؟ فقط في باهيا وفي عهدي أنا بالذات، ورجال البحرية يا عزيزي ماذا نفعل بهم؟

كــان هــنالك تفسيرات متزاحمة، غير واضحة، وضاع مدير عام الشرطة في إعطاء البراهين؛ إن خداع رجل سياسي بخبرة ودهاء المحافظ ليس أمراً سهلاً. وهل الموضــوع ذو صــفة روتينــية عادية؟ لماذا إذاً تقف الشرطة هذا الموقف الصلف والعنــيف مفسحة المجال لموجة عارمة من الإشاعات؟ بينما هو يفكر على الهاتف فقد قطع في الحال ثرثرة مدير عام الشرطة. المهم الآن هو القضاء على الاضطرابات الناتجة، ووضع نهاية لأعمال الفوضى في السوق العمومية وتجنب خيبة ظن البحارة.

غــداً، بهدوء، ومع الوقت الكافي، سيوضح هذا الموضوع ويضعه في صحون نظــيفة لأن هــنالك هدفاً مشكوكاً فيه وراء قرار النقل السريع. من يدري، فربما أعطــته العاهــرات الحجة المرتقبة من زمن بعيد لإقالة مدير عام الشرطة واستبداله بآخــر. إن صاحب السيادة يجب أن يسير في الطرقات الوعرة، ولو لم يكن كذلك فكــيف ينــشط سياسياً ويتعامل بنجاح مع صغار الرجال وجنون العارفين؟ يجب صاحب السيادة أن يأخذهم من أرجلهم، فأخذهم من أيديهم لا يفيد.

وعاد إلى الصالة حيث رئيس البلدية يحسب للوضع. ابتسم: "ريجينالدو ليس إلا فأراً صغيراً تنعكس أفكاره على وجهه. إنه الرسول المثالي لينقل إلى العاهرات رسالة السلم"، فكّر صاحب السيادة.

- عزيزي بافاو، لقد أمرت بالإفراج عن النساء اللواتي اعتقلن أمس وكذلك بتعليق كل أمر بالانتقال. اذهب لإعلان النبأ السعيد. إذا أردت، مُر بالمديرية العامة وانقل أوامري الشخصية إلى مدير عام الشرطة؛ إنها مناورة صغيرة لاحتقار رأس الشرطة، رافق الفقيرات حتى بيوتهن في باروكينيا وضع لائحة الانتخاب في جيب سترتك، إنها هدية صديق لك.

- إن صوت ناخبي هو صوت لك يا صاحب السيادة! لا غبار على ذلك.

وبينما يمضغ ألاعيب السياسة أتته الأشياء السوداء لتستقر إلى جانبه "إذا لم أقم بواجبي بذكاء فسأختفي عند أول فرصة" فاتصل بمدير عام الشرطة ورئيس قسم الملاهي والمحافظة على التقاليد ونقل إليه أمر الإفراج عن قوادات باروكينيا والسماح لهن بالعودة إلى منازلهن وتعليق قرار النقل.

على الجانب الثاني من الخط، حاول زميله أن يبيّن بعض الأمور، ولكن المدير العام لم يفسح المجال، ومتذمراً قال:

- "لا يمكن استخدام الأصدقاء دائماً كما هو مرغوب. الموضوع لم يفلح، وعلى العكس فقد سار بصورة سيئة مع الأسف. أطلق النساء، واكفل وصولهن إلى بيوتهن، وأعط أوامرك إلى رجالنا بالانسحاب من المنطقة، واترك هناك فقط رجال الأمن العاديين". ولم يعد يطيق فقاطع تذمر المدير العام.

- إنها أوامر المحافظ ولا أستطيع أن أفعل شيئاً. أما العجوز فلا تحزن عليه سأهتم به بنفسي وسأكلمه. ولا تنس أن تطلعني على التطورات ويجب أن أبقي المحافظ على اطلاع على الأمور.

وترك هيليو كوتياس الهاتف من يده، العجوز يبقي عليَّ، ولكن كارمن على من تبقي؟ إن زوجته وعمه سينغصان عليه الحياة. يرغب بالتخلي عن كل شيء ويطلب الاستقالة، ويعود إلى البيت ويقفل على نفسه وينام، إنه خارج عن نطاق القدرة على المحافظة على توازنه.

على حافة الطاولة كفَّ المذياع عن الإعلان عن معركة السوق العمومية ليبث نبأ حريق كبير في أسفل المدينة يلتهم بيوت منطقة لاديرا دو باكاليو. ضرب مدير عام الشرطة يده على فمه، وترك المقر العام وراح يركض أمام الحارس المندهش، لم يكن لديه الوقت الكافي ليتقيأ في المرحاض القيء المر.

هادئـــاً، متجبباً وذا سلطة كما يليق بمندوب صاحب السيادة السيد المحافظ، فقد دخل إلى المقر العام الخالي في قسم الملاهي والمحافظة على التقاليد رئيس البلدية ريجينالدو.

أعلـــنت إذاعة أبايتي أن الحريق الهائل يلتهم الغرف في لاديرا دو باكاليو والنـــبأ هو الآخر يشتعل من مكان إلى مكان. أما الغرف القديمة التي خصصتها الـــشرطة للـــسكن الجديد للعاهرات اللواتي جلبن أمس من باروكينيا فتلتهمها النيران الملتهبة.

ســـيارات الإطفاء تتجه إلى مكان الكارثة وتتبعها سيارات ميكروفونات إذاعـــة أبايتي: "ما زالت أسباب الحريق مجهولة ولكن كما هو معروف فقد تم الآن نقل كميات كبيرة من قطع الأثاث التي تمتلكها النساء العموميات بواسطة شاحنات الشرطة، وتركت هناك، فهل هناك ارتباط بين الحريق الهائل المشتعل أمـــام المرفأ وبين الوضع الذي يزداد تأزماً في منطقة سوق البغاء، حيث قوات الأمن تزداد عنفاً لقيادة العاهرات إلى العمل؟ في هذا اليوم الحادي والعشرين من شـــهر أيار تأريخ الاحتفال بقدوم الربيع تعيش المدينة ساعات قلق واضطراب. إن الـــزوارق التي ستأتي بالبحارة الأميركيين يتم تجهيزها لتتجه إلى ميناء الهبوط إلى اليابـــسة. كل الحذر يبقى قليلاً، ونذكّر العائلات بضرورة البقاء في المنازل وإقفـــال الأبـــواب والشبابيك عند أول إشارة للفوضى.. أودع مدخراتك في مصرف باهيا وسرجيبـــي ونم مطمئناً.. ابقوا معنا على موجات الأثير في راديو أبايتي بانتظار أخبار جديدة مثيرة".

انفعلـــت بعـــض السيدات وتم نقل عجوز إلى الإسعاف الفوري بسبب نوبة قلبـــية. وتنهدت فيراليسي وهي تغلق الأبواب والنوافذ استجابة لإلحاح أم زوجها: الـــويل لمن يمنع غزو البحارة الأميركيين! إني تحت تصرفهم، وسأقول لأي يانكي أشقر وقدير، أقم لي العيد وادخل واكسر كيفما تشاء.

بينما كان مدير عام الشرطة هيليو كوتياس يتقيأ، قبل أن يأمر بإطلاق سراح العجوز أكاسيا وأسونتا وقوادات باروكينيا الأخريات، كانت أبواب كنيسة القديس روزاريو دو نيفروس تنفتح الواحد تلو الآخر، اندفعت النساء عشرات عشرات وتقدمن ببطء.

ركض الصحافيون والمصورون والمذيعون والتمعت عدسات التصوير. واحتلت النساء رويداً رويداً الفسحة العليا التي يؤدي إليها السلم. وكانت صورة القديس أونوفري في طليعة المتظاهرات.

"لقد بدأت العاهرات مسيرة الاحتجاج! مسيرة السوق العمومية المقفلة". قال مذيع محطة أبايتي؛ رافضاً البقاء وراء التطورات فإن بينتو سكوت حنجرة إذاعة غريميو الذهبية نقل الخبر المثير: "العاهرات في المسيرة يزحفن إلى قصر حاكم الولاية!"

كانت صورة القديس أنوفري قد وضعت على حاملة تم العثور عليها في الكنيسة، وحملت على أكتاف أربع فتيات، من بينهن الزنجية دومنغاس التي ما تزال آثار التعذيب بادية عليها، وماريا بيتسكو. من الزوايا الأربع للمحلة القديمة الشهيرة ظهر جنود الشرطة والأمن ورجال التحري والحراس يحملون الهراوات وأسواط المطاط والمسدسات والغضب والكراهية. وأخذت فرقة الخيالة من الشرطة العسكرية مركزاً واستعدت لسحق المسيرة، أو التجمع، أو التقدم أو أي شيء، بحوافر الجياد.

في قيادة قوات النظام والقانون العامة، المفوض لاباو أوليفيرا بعيني أفعى وقلب مسموم يلقي نظره على آلاف الأغلفة التي تحتوي على المخدرات وهي تنسحق تحت الأقدام مع مئات الزجاجات التي كانت قد ملئت بإكسير الهلوسة المسمى كاسيتي ريجو. ورؤوس أموال وديون ترتبت عليه والتزام بالدفع بالدولار ولكن بنات الزانيات دمرن كل شيء: المخططات الرائعة والأحلام الفنية.

في إعلان السلم وخلال ثانية تأهبت النساء معاً. وارتفع صوت فوفو المتعب الإنشاد:

"ظهرت بشكل ملاك

تحمل على جناحيها
ألوان السماء".

خلف الصورة مباشرة تريزا باتيستا. وعندما رآها، نسي بيشي كاساو الوجع في خصيتيه فبدأ يزمجر، في اللحظة نفسها تحديداً خرجت من بار فلو دي ساوميغيل زمرة صاخبة من الزبائن بينهم النجم المسرحي مستقبلاً توم ليفيو، والألماني هانسن الــذي يحفــر على الخشب بالعرق والدم حياة نساء المنطقة والشاعر تيلمو سيرا، والبوهيميون الخالدون الذين عند الصباح وهم يخرجون تراهم يناقشون مصير العالم ويــنقذون الإنسانية من الكوارث والانحلال، وهم حراس الحلم عند الإنسان. بين يــدي النحات القديرتين منحوتة خشبية لنساء نصف عاريات وكل واحدة لديها عــند النّحات سرّ المفوض يعطي الأوامر إلى الجنود ورجال الأمن للقمع والاعتقال والضرب والقتل إذا اقتضى الأمر.

انطلق الخيالة إلى مهمتهم وأنزل الحراس الدروع على وجوههم وسدّد رجال الأمــن مــسدساهم. وضعت صورة القديس أونوفري أرضاً وهي واقفة. بجانب الــصورة ظلت فوفو تردّد النشيد الديني! لها من العمر مائة سنة هي ألف في عالم الدعارة، ويكفي النظر إلى أخاديد وجهها المجعد وفمها الذي دون أسنان ولكنها ما تزال تحب العراك وتكرم القديس:

سلام، سلام، سلام يا مريم.

ركض المفوض لاباو أوليفيرا، ركض لإسكاهًا فتعثر في حفرة ووقع متدحرجاً ولم يقــم، وبيــنما هو على الأرض انطلق الرصاص فأصاب العجوز وتوقفت عن الغــناء وساد الصمت المحلة كلها؛ قرب صورة القديس هوى جسد فوفو النحيل، لقد ماتت وهي تصلي، ماتت وهي تقاتل، ماتت سعيدة.

ركض الجنود إلى المفوض وساعدوه على النهوض، ولكنه لا يستطيع الوقوف فقــد انكسرت رجلاه الاثنتان. المفتش ليربو ثائراً رمى نفسه أرضاً وراح يضرب رأســه على الحجارة، لقد أنذره سابقاً: "أيها المفوض لا تكن مجنوناً لا تتجرأ على الإله إيشو".

اتجهــت الــسيارات إلى مــبنى الــشرطة المركزية مليئة بالأسرى من النساء والبوهــيمين، وعملــياً اعتقلت المنطقة كلها. وبقي لقيادة عملية التنظيف الأخيرة

المفـــتش بيشي كاساو، ولكنه كان على عجلة من أمره: ففي السجن تنتظر تريزا تحـــت حراســـة مشددة. سيحاولون مرة أخرى تعليمها الاحترام والطاعة. وبيشي كاساو يفرك بيديه فرحاً بليلة تسلية كهذه.

عندما وصل رجال البحرية الأميركية إلى مركز منطقة البغاء في بيلورينيو علـــى أمـــل إيجـــاد نساء جميلات فرحات في الغرف التي يعود زمانها إلى أيام الاســـتعمار، فـــإنهم لم يجدوا هناك غير العجوز الطاعنة في السن، غير الصالحة للاستعمال حتّى إذا لم تكن ميتة، وهي متمددة قرب صورة القديس أونوفري شفيع العاهرات.

وأمـــام هول المشهد غير المرتقب، تلقوا الأوامر بالرجوع الفوري والإجباري إلى السفن: إن المدينة في حالة مزرية من الاضطرابات. لقد تأجل الاحتفال بالعيد.

عجائـــب كـــثيرة، في رأي الصديق، اجترحت عبر سلسلة الأحداث. الإله أوريـــشا يـــأتي في كل لحظة بعمل سحري. عجوز ملتح يخرج فجأة ليقفل على الـــشرطة طرقها ويفتح أبواب الكنيسة، وشاعر مات منذ مائة عام ينقذ الفتيات، والإلـــه أوغون يمنح الثقة بالذات، والإله إيشو يعترض المفوض الثائر ويجندله أرضاً كاســـراً له رجليه الاثنتين، والقديس أونوفري يحرس في المنطقة المقفرة جسد فوفو، هـــذه الأمـــور بالنسبة إلى ماديّ هي جرعة وهم، والصديق يريد وصفاً للحقيقة الساطعة وليس لأعمال السحر.

لا تـــنس أن كـــل شيء حدث في باهيا الواقعة في شرق العالم وأرض القوى الخارقة. هنا، أيها الصديق المحترم، السخافات هي الخبز اليومي لهذا الشعب العاجز عن اختراع كذبة وإن حول موضوع شائك كهذا.

ولـــيقل لي الوجـــيه، رجاء: كيف يمكن للعاهرات اللواتي لا مال معهن، ولا سلاح ولا معرفة لهن بالقراءة، أن يواجهن الشرطة ويربحن حرب السوق المقفلة لو لم يـــتكلن على مساعدة القديسين والآلهة والسحرة والشعراء؟ وماذا كان حدث لهن؛ أجبني، لو كان لديهن القدرة والمؤهلات لفعل ذلك.

أأشرح؟ لا أشرح، ولكني أخبرتك لأنك رجوتني بإلحاح والسائق ملزم بمعاملة الركاب معاملة جيدة، يتحدث إليهم ويعلق ليجعل الطريق جميلاً. من يفكر بشرح كل شيء في هذا العالم واضعاً كل أمر على محك التحليل، وأسر الحياة في خطوط

النظـــريات، لـــيس إلا ماديـــاً مزوراً وعالماً عاجزاً وراسماً للقواعد ومؤرخاً لسفرة قصيرة، إنه أبله.

ولكـــي أنهي حديثي، فإن أمراً غريباً حدث لي يضيف إلى كل ما سمعت أنا إدغـــار فريزا المعروف في كل محلة باهيا بالسوري. لقد قلت لك كيف رأيت في تلـــك الليلة القاعدة التي رفع عنها تمثال الشاعر كاسترو ألفيس في المحلة التي تحمل اسمـــه، وحـــيث نقطة وقوفي. أجل إنني حين استيقظت ثانية فيما بعد وعند مرور سيارات الشرطة وهي تحمل النساء أسرى في نهاية العراك، رفعت عيني إلى التمثال، فماذا رأيت؟ تمثال الشاعر وقد عاد إلى مكانه المعتاد وذراعه ممدودة إلى البحر وفي يـــده منحوتة عليها صور نساء وكلمات لا معنى لها: هل فكرت؟ والآن، أتمنى لك ليلة سعيدة، وكن حذراً مع الإله إيشو.

اليوم التالي كان عيداً في المنطقة. لقد أطلقت نساء باروكينيا الهاليلويا وفتحن مطـــارحهن. الفتيات اللواتي تم أسرهن أمس بدأ الإفراج عنهن عند الفجر وكذلك عن البوهيميين المتعاضدين معهن في البار والسجن.

عند الصباح شوهد العجوز هيبوليتو سردينا رئيس شركة الإنشاءات الكبيرة والقائمة بالمجمع السكني السياحي مجمع باهيا دي تودس سانتوس وهو أمام خرائب أمكـــنة لاديـــرا دو باكاليو التي التهمتها النيران. كان قد جاء معه بمحامي الشركة الرئيسي المحاضر في القانون والقدير على الإجابة عن سيل الأسئلة المنهارة عليه. ما عـــدا أجـــور الأمكـــنة ليس من خسائر أخرى يؤسف لها. واتفق القانوني الشهير ورجـــل الأعمال على مسؤولية الدولة عن الحريق بالتهاون في المحافظة على الأمن العام. ولكن في الحقيقة لم يضع شيء في تلك الأمكنة القديمة غير ما كان ثميناً جداً بالنسبة إلى سينسيناتو غاتو بريتو الذي فتح صدره للهواء ولكنه غدا فحماً أحرقته كمية الحشيش التي كانت في عهدته.

وظلـــت تريزا باتيستا وحدها أسيرة، حتى لو أرادوا إطلاقها مع الباقيات فإنه أمـــر مـــستحيل. فبعد زيارة بيشي كاساو لها في السجن، لم تعد في حالة ملائمة للخـــروج إلى الـــشارع. وعلى الرغم من أنه كان متوعكاً بسبب الوجع الذي ألم بخصيتيه، فإن أبا الشرطة لم يكتف بإعطاء الأوامر بالتعذيب بل اشترك هو شخصياً في العمل.

يائساً، فإن أليريو داس نيفس استعان بكلّ ما يملك وسط كل من عرفه للإفراج عن تريزا، فسار من شارع إلى زقاق ومن جادة إلى أخرى بعد ليلة الصخب تلك في معركة بيلورينيو. وكانت سفن الأسطول الأميركي الشمالي قد غادرت مرفأ باهيا حيث بقيت ثلاثة أيام بلياليها، وحملت معها آخر أحلام فيراليسي في أن ينال منها يانكي أشقر ذو طاقة جنسية هائلة؛ وكانت العجوز فوفو قد دفنت في مقبرة داس كينتاس ونسيت هناك، واختفى من صفحات الصحف والمجلات موضوع السوق العمومية المقفلة، وما تزال تريزا باتيستا في السجن.

وحتى الرسام جنر أوغوستو مع ما له من امتيازات لدى بعض الشخصيات في الحكومة، لم يتمكن من الحصول على الإفراج عنها. وليس هو وحده ولكن فنانين كثيرين كانت تقف لهم نموذجاً فصادقتهم، تدخلوا هم أيضاً وطالبوا بالإفراج عنها. وعود فوعود: "اليوم بالذات سيتم الإفراج عنها، اذهب وارتح"، حديث رتيب بلا جدوى، سجينة بأمر نيكولاي رمادا جونيور وفي خدمته؛ عليها أن تبقى في السجن إلى أن تعود إلى نشاطها الجنسي والفني الكامل.

لم يكتف بالضرب في ليلة الاعتقال. يستعمل العنف وأربعة رجال يضربون ويشاركهم بيشي كاساو الذي كانت خصيتاه تؤلمانه وتمنعانه من أداء مهمته بكمال. والآن مع عودة قواه لم يعد يريد الرجوع إلى الضرب، ولكنّه يريد أن يجعلها دون قدرة على الدفاع ليجعلها تتأسف على شتمها إياه في فلور دي لوتوس.. بأن يفعل فيها كل ما يمكن تخيله.

وتعب الرسام من التأجيل فسلم القضية إلى محام صديق له وهو الأستاذ أنطونيو لويس كالمون تيشيرا وعندما كان سيذهب إلى العدالة تم الإفراج عن تريزا وراح الجميع ينسبون لأنفسهم أمر الإفراج عنها.

في الحقيقة تم الإفراج عن تريزا بفعل فافا. هو الآخر نزل الميدان وقام بالعمل بالطريقة الصحيحة، اتصل بشرطة المحافظة على التقاليد ووزع بعض المال ولكن من ابتلع الحصة الكبرى كان المفوض لاباو الذي كان يفاوض وهو في فراش الألم ورجلاه في الجنبين معلقتان إلى أعلى، وكان عليه أن يبقى ستين يوماً على تلك الحال فيحاول بأي ثمن تقليص الخسائر الناتجة عن الشركة السياحية اللعينة التي أسسها ودفع فافا دون مناقشة.

دفع دون أن يناقش، ودفع حباً بلا أمل لأن الإله إيشو عاد مردداً إنّ تريزا ليست مكتوبة له. وأكثر من ذلك كان قد علم من ألميريو داس نيفس حبها للمعلم جانواريو جيريبا الذي اختفى في عباب المحيط. مع ذلك لم يتركها في السجن بانتظار أن تتعرض هناك لأمثولة جديدة في حسن التصرف، وأخيراً رأت تريزا النور وأفرج عنها من السجن. استقبلها أماديو ميستري جيكي عند باب السجن المركزي وأخذها إلى فافا حيث كانت تنتظر تافيانا، لقد فقدت تريزا لونها وهزلت قليلاً. وبقي على صدرها وظهرها آثار سوء المعاملة. وأكثر من ذلك كانت متماسكة، معترفة بالفضل وسعيدة بالمعركة إنها الآن تريزا السوق المقفلة.

بعثت تافيانا برسالة إلى ألميريو فهرول إلى بيت العزّاب وابتلت عيناه بالدموع عندما رأى تريزا فوقف جامداً دون كلمة. اقتربت منه وقبلته على خديه.

- "إنها بحاجة إلى الهدوء والاستقرار؟ لقد أصبحت هيكلاً عظمياً وأكل الكلاب لحمها" قالت تافيانا ذلك وأضافت: "الأفضل سحب تريزا من العمل لبعض الوقت، إن الرائحة ستفوح من حظيرة بيشي كاساو إذا علم بأنها عادت إلى الشارع وهو قادر أن يخترع لها مأساة جديدة. إنه ليس بشراً" بصقت باحتقار وداست على البصقة بانفعال لتلفظها باسم كاساو.

لم تكن تريزا ترى ضرورة للاختباء وأرادت أن تعود إلى حلبة رقص فلور دي لوتوس في ذلك اليوم بالذات وهكذا يمكن أن يعود إليها لونها. ولكن ألميريو وتافيانا لم يسمحا: "لا تفكري بهذا. هل تريدين أن تذهبي مرة أخرى إلى السجن وتقلقي أصدقاءك وتجعلي الجميع يصابون بالجنون؟ انزعي هذا من دماغك".

- "أعرف الآن، أين سأضعك" قال ألميريو.

بينما كانت تريزا نائمة في بيت أوشوم حيث استضافتها يالوريشا، فقد رأت في الحلم جانواريو جيريبا ثم استيقظت مرتعبة. رأته في الحلم وسط البحر فوق صخرة تعصف بها أمواج عاتية ويحيط به الزبد والأسماك الكبيرة. مدَّ جانو ذراعيه لتريزا فاتجهت نحوه ماشية على الأمواج كما لو كانت تسير على أرض صلبة. وما

كـــادت تدركـــه حتى ظهرت من البحر مخلوقة إلهية نصفها امرأة ونصفها الآخر سمكة. بشعرها الطويل الأخضر لفت المخلوقة العجيبة جانواريو وحملته معها.. في اللحظـــة الأخـــيرة عـــندما اختـــفت المخلوقة العجيبة والبحار، لمحت تريزا وجه الـــسمكة - المـــرأة و لم تكن الإلهة يمانجا كما بدا لها في البدء ولكنّها كانت الموت بوجهه الكالح ويديه اليابستين.

لم يمر حزن تريزا غير المرئي أمام أم الإله يالوريشا:

- ماذا حدث لك يا ابنتي؟

- لا شيء يا أماه.

- لا تكذبـــي أبداً على شانغو.

قـــصّت تريـــزا حلمها بالتفصيل فأصغت الأم للسيدة بانتباه، و لم تستطع أن ترتجل حلاً إلهياً فلجأت إلى اللعبة ثم توجهت إلى تريزا:

- كـــوني مرتاحة يا ابنتي، كل شيء على ما يرام، ليس من خطر كما تقول الرؤيا. كوني واثقة فالآلهة قديرة وهي حولك. لم أرَ في حياتي آلهة بهذا العدد الذي حولك.

- "ولا أنا..." استطرد نيزينيو: "لم أرَ قط مخلوقة محروسة إلى هذا الحد".

- مـــرة أخرى أخذت السيدة الأم قطعتين من الحجارة المقدسة وكما لو أنها كانت تفتش عن تأكيد، ثم ابتسمت وسلمت القطع الأربع إلى نيزينيو الذي حدّق في تريزا وسألها:

- ألم تشاهدي قط في طريقك في ساعة الخطر عجوزاً ملتحياً؟

- أجل. ولكنه ليس دائماً هو نفسه بل شبيه به.

- إن الإله أوشالا يهتم بك.

وجددت الأم التأكيد بأن لا خطر يهددها:

- وإن في الساعة الأكثر نزاعاً عندما تفكرين بأن كل شيء قد انتهى، كوني واثقة، لا تستسلمي، ولا تفقدي حيويتك.

- وهو؟

- لا تخـــافي علـــيه ولا علـــى نفـــسك. إن الإلهة يانسان قديرة وجانواريو محروسها. لا تخافي واذهبـــي بسلام، آشيه.

- "آشيه، آشيه". ردّد الجميع في بيت شانغو.

بعـــد عدة أيام من الضيافة الحسنة استأذنت تريزا السيدة الأم وغادرت الملجأ عائدة إلى غرفتها في دار السيدة فينا في دشتيرو.

وفي غـــياب راقصة السامبا، ولأنه لم يكن يعرف متى يستطيع أن يعتمد عليها فـــإن أليـــنور بنـــييرو صاحب ملهى فلور دي لوتس تعاقد مع راقصات ومغنيات أخريات بينهن المغنية باتاتيفا دي ماكاو الآتية من النهر الكبير الشمالي، وليس من الـــشرق الأقـــصى كمـــا كان يتخيل بعض الزبائن؛ ورأت تريزا نفسها بلا عمل ولكـــنها مـــا لبثت أن تبلغت بإمكانية العمل في التباريس أكثر ملاهي باهيا أناقة وأعلاها مستوى.. لقد كان عرضاً غير مرتقب ومشرفاً لها و لم تكن قد خطرت لها فكرة احتمال وجود اسمها ضمن لائحة أسماء الفنانين في ملهى التباريس الذي كان يـــستقدم العـــاملات فيه من الجنوب البرازيلي وبينهن بعض الأجنبيات. و لم تكن تعرف أن اللجنة الإدارية في الشركة التي تحتكر الرقص ومن ضمنها ملهى التباريس تعـــود إلى فافـــا. وكان عليها أن تنتظر نهاية عقد الأرجنتينية راشيل بوسيو لتحل محلها. ليس عليها أن تقلق من أجل هذا فهي تستطيع أن تنتظر أطول مدة! فالعمل في التباريس هو مجد مكرس.

كانـــت تـــستطيع الانتظار إذ لم يكن ينقصها المال. فقد أرسلت لها السيدة باوليـــنا دي ســـوزا، من يدفع لها وتافيا عرضت عليها أية سلفة تحتاجها من أجل ضرورياتها. ولكنها لم تصل إلى الرقص على حلبة التباريس.

ففي عصر أحد الأيام جاء حفيد كامافيو دي أوشوسي يفتش عنها حاملاً لها رسالة مستعجلة: إن المعلم كايتانو غونزا يرغب في التحدث إليك حالاً لأن الطوافة ســـتحمل شحنة جديدة ليلاً إلى كامامو. شعرت تريزا بخفقة في قلبها وأحست في الحال وبحدس أكيد أن الخبر سيئ. وضعت على رأسها الشال الذي كان قد أهداه لهـــا الأستاذ قبل أن يموت وهبطت إلى محلة إيليفادور لاسيردا مع الفتى الذي جاء بالرسالة.

عـــند مـــدخل السوق، أخبرها كامافيو بأنه لا يعرف شيئاً عن سبب رسالة صـــاحب الطـــوافة، إذ تلقاها ونقلها في الحال، أحست تريزا بعدم الاطمئنان في صـــوت الـــصديق الذي كان يناديها بالعرّابة منذ عيد سان جوان الذي كانت قد

حضرته مع ألميريو، وأبقى كامافيو عينيه بعيدتين عنها، تائهتين في البحر، ثم صعد الاثنان في الزورق واتجها إلى الطوافة.

وقبل أن يتلفّظ المعلم غونزا بأية كلمة، وعندما لاحظت التقلب الظاهر على وجهه قالت له تريزا بلهجة متموجة النبرات: "هل مات؟"

وأكد المعلم الموت! إن سفينة الشحن بالبوا غرقت عند سواحل البيرو. بسبب إعصار هائل ومات جميع من فيها و لم ينج أحد وقد أوصل الخبر بحارة السفينتين اللتين أسرعتا للنجدة دون أن تتمكنا من الاقتراب بسبب هول الإعصار، وانقلبت زوارق النجاة هي الأخرى وفيها البحارة وقد جرفتهم الأمواج.

أعطاها الجريدة ففتحتها تريزا ونظرت ولكنها لم تتمكن من القراءة، أخبرها المعلم كايتانو وهو يقرأ لها النبأ فعلمت عندئذ كيف تكون الإطراءات رمادية قاسية فيا لليلة المأساوية في المحيط الهادئ، ومع بالبوا غرقت ناقلة نفط أخرى. "من يعش في البحر هو عرضة للعواصف والأعاصير"، ماذا يستطيع أن يقول لها غير هذا؟ ليس من عزاء في الموت. ونشرت الجريدة لائحة الغرق من باهيا فاستطاعت تريزا أن تميز فيها اسم جانواريو جيريبا.. عيناها ناشفتان كجمرتين منطفئتين، وحنجرتها مقفلة.

على كتفي تريزا يزن الموت ثقيلاً، فيا للعبء السيئ. لقد حملت الأموات على كتفيها حتى الآن دون أن تبدي تعباً ودون أن تقع في اليأس. لقد تحملت حتى الآن عبء الأموات وقامت من الموت ثلاث مرات، ولكن جانو يزن ثقيلاً، ومعه لا تستطيع أن تتحمل. "جانواريو جيريبا البحار، جانو الحب، لقد مت وبموتك انتهيت دفعة واحدة".

لماذا الذهاب إلى شركة الملاحة والإصغاء إلى السيد غونزالو يؤكد النبأ ويقدم التعازي الشكلية وينظر نظرته الباردة وهو لا يرى غير جمالك؟ ألم يكن هو من جهّز لائحة بأسماء البحارة للشركة؟ لكي يحفر حد الخنجر أكثر فأكثر في قلبها ويفقدها أملها الأخير؟ وهنالك، في الغرفة الأمامية الباردة في شركة الملاحة سمعت تريزا وعلى لسان الإسباني يقرأ البرقية التي تعلن موت جميع العاملين على ظهر السفينة بالبوا بمن فيهم بحارة باهيا. لماذا جاءت؟ لينغرز نصل الخنجر في قلبها أكثر إذا أمكن، لقد انتهت تريزا باتيستا.

علــى رأســـها المنديل المزهر، هدية الأستاذ، المستعمل في الفرح والحزن، هو الآن مـــنديل أرملة، وعلامة حداد، وعيناها ناشفتان، فارغتان. أنزلتها العربة التي استقلتها عند أعلى المدينة وما كادت تدخل محلة داسي حتى التقت بالتحري بيشي كاساو الذي بادرها عندما وقعت عيناها عليها:

– عاهرة البراز، كلبة، قذرة.

أراد أن يراها تقوم بردة فعل لكي يسجنها من جديد ويختم انتقامه منها. اكـــتفت تريـــزا بالنظـــر إلى الذي يستفزها، وأكملت الطريق فوقف التحري جامـــداً إذ كانــــت نظـــرتها نظرة شخص ميت، إنها نظرة عائد من الموت في الشارع.

اســـتقبلها المعلـــم مانويل وماريا كلارا على متن المركب وأخذاها في رحلة بعيدة كانت تريزا فيها بعيدة عن المدينة، والبحر، والخليج ونهر باراغواسو. كانت قد قررت مغادرة باهيا والعودة إلى أراضي منطقة الداخل حيث ولدت وترعرعت. إلى كاجازيـــراس دو نـــورتي. وما زالت غابــــي تتكلم إلى الرائعة التي لا يساويها أحد: "عودي عندما تريدين، فهذا بيتك".

تـــريد قـــبل أن تغادر إلى باهيا أن تجتاز طرقات جانو، في المركب فليشا دي ســـان جورجـــي الذي كان اسمه يوماً فلور داس أغواس وكان صاحبه جانواريو جيريـــبا الموشـــوم في يديه وذا الأغلال في رجليه. وتريد أن تتعرف إلى المرافئ التي وصـــفها لهـــا في أراكاجـــو، عـــند جسر الإمبراطور: كاشويرا، سان فيليكس، ماراغوجيبـــــــي، ســـانتو أمارو، سان فرانسيسكو دي كوندي، والجزر الضائعة، والقـــنوات، يـــا لها من جغرافية من الأحزان، ماذا تفيدها الذكريات، واكتشاف المناظر. والإصغاء إلى الريح إذا لم يكن هو موجوداً ولن يصل أبداً؟

المعلم مانويل على الدفة، بقربه على مؤخرة المركب ماريا كلارا تغني أناشيد جانايينا موسيقى البحر والموت. أينايي تمتطي العاصفة، ويمانجا تكسو بشعرها جسد الغريق، بشعرها الأخضر بلون الأعماق.

عـــند هبوط الليل، وموت القمر، والولادة مع الفجر، وبينما المركب قد رسا في مـــياه باراغواسو مرفوعة أشرعته. وإذ ظنَّ أن تريزا نائمة فقد أخذ المعلم مانويل ماريا كلارا بين ذراعيه وأخذا يدفئان المياه حباً.

تنهدات الحب ترتفع وتريزا متمددة على الخشب وعيناها الناشفتان غائبتان، وفي صـــدرها نـــصل خنجر مسنون، وقلبها ميت، ويدها تلمس مياه البحر والنهر الممتزجة، إنهما بحر ونهر جانو الحب.

عـــندما ألقـــى المركب مرساته في رامبا دور مركادو، كانت تريزا مستعدة لمغـــادرة مـــرفأ باهـــيا واللجوء إلى منطقة الداخل. عند الميناء، في انتظارها ألميريو الطيب. الصديق المسكين سيتألم بسبب النبأ ولكن الأسوأ من كل شيء هو البقاء هـــناك والقيام بالجولات البحرية التي يقوم بها جانو، والنظر إلى البحر حيث عاش، ولمس كل خشبة دفة كان قد وضع يده عليها.

وجه حزين، وصوت مختنق. ألميريو يعاني اليأس:

- "تريزا، إن زيكس مريض، مريض جداً، التهاب في السحايا الدماغية، يقول الطبيب ربما لن يشفى" تنهد يحترق في صدره.

- التهاب السحايا الدماغية؟

لحقت تريزا بألميريو وبقيت فوق رأس الصغير عشرة أيام كاملة، ودون أن تنام أو تأكل إلا قليلاً، وهي تهتم بالطفل. كانت قد حصلت على شهادة في التمريض منذ أيام الجذام الأسود.. لقد ناضلت مرات عديدة ضد الموت ونهرته في كل مرة:

تريزا الجذام الأسود: الآن هي نفسها ميتة ولكنها من أجل اليتيم ستحيا.

الدكـــتور ســـابيغو، طبيب شاب، بعد عدة أيام شوهد يبتسم للمرة الأولى وبينما يتلقى شكر ألميريو أشار أمامه إلى تريزا الواقفة قرب فراش الطفل.

- إن الطفل مدين بحياته للسيدة تريزا وليس لي.

وقـــد رآهما جنباً لجنب يهتمان بالطفل، فإن الدكتور سابيغو بإصرار الشباب يضع نفسه حيث لا يطلب منه:

- "إذا كنـــتما غير مرتبطين فلماذا لا تتزوجان؟ إن كل ما يحتاجه الطفل هو هـــذا: أم". قال ذلك وانصرف تاركاً الاثنين الواحد أمام الآخر. فرفع ألميريو عينيه وفتح فمه خائفاً وجازف بالقول:

- كان يمكن أن يكون جيداً... بالنسبة لي هذا أكثر ما أتمناه.

محملة بالأموات، ميتة، مستسلمة، لقد انتهت تريزا باتيستا.

- أعطني وقتاً للتفكير.

- تفكرين بماذا؟

رفيقة في تربية الطفل وفي البيت، يمكن أن تكون. أما في الفراش، فقط، محترفة، قديرة، وكونها صديقة ألميريو، ومدينة له بالمعروف، ومع احترامها له، سيكون مضنياً وصعباً الرجوع إلى ممارسة المهنة. هل ستكون عندها القوة للتمثيل؟ في فراش العاهرة ليس صعباً ولكن في فراش الزوجة ستصبح المهمة صعبة وواجباً مضنياً.

ولكن ألميريو لا يطلب مني الحب، ويعتقد أن بإمكانه الحصول عليه مع مرور الوقت. إنه يريد فقط رفيقة له وللطفل، وفراشاً كفراش بيت العزّاب، صداقة واهتمام.. إنها لا تملك الفرح ولا تستطيع أن تعطيه... لم يعد لديها قوة لتناضل، تريزا باتيستا تعبة من الحرب.

- إذا كنت تقبلني هكذا...

وقبل أن تكمل السؤال هرول ألميريو إلى داخل المخبز ليعلن النبأ.

بيتانغا أو منغابا، مرطب كتجو، ماراكوجا، أو جنيبا بادا؟ هل تفضل جرعة أباكاشي أو جنجيبرا؟ أكاراجيبي أو أبارا؟ لقد صنعتها كلها أغريبينا ولا أحد يصنعها بأفضل منها، اقبل شيئاً، إني أجد متعة في الضيافة، والحديث حتى يكون طيباً وكاملاً يقتضي مرافقة الطعام والشراب، ألا تعتقد كذلك؟

أجل، إني أعرفها، لقد رأيتها هنا، فمن هذا البيت يمر أناس من كل أنحاء العالم، يا سيدي. الفقير والغني، الشيخ المجرّب والشاب المتهور، رسام الصور الزيتية أو الذي يرسم على الجدران، كاهن الدير العالم المتواضع والأحمق المدعي وكلهم يأتون ليأخذوا بيدي؛ أتحدث مع الجميع، وبأية لغة، دون حرج، لقد خلق الله اللغات التي يتفاهم بها الناس وليس لتعجيز المعرفة والصداقة بين البشر؛ أرحب بالجميع بحرارة لأني ذو تربية باهيانية مرهفة، وسأخبرك بكل ما أعرف، وبكل ما تعلمته خلال هذه الثماني وثمانين سنة التي أكملتها من عمري وعشتها جيداً.

من تشبه تريزا باتيستا التي عاقبتها الحياة إلى هذا الحد والتي تعبت بهذا القدر من الألم الويلات وما تزال واقفة مع كل عبء الموت الذي على كتفيها؟ أنا أقول لك ما أعتقد أنها تشبه.

وأنـــا أجلس إلى تلك الشرفة أتأمل بعيداً في النهر الأحمر، وأنظر إلى الأشجار وبعـــضها قـــد بلغ المائة سنة وقد زرعت أكثرها أنا وأولادي وبهاتين اليدين اللتين حملـــتا المعول في أحراج فرادلاس وفي معارك الكاكاو، مستذكرة زوجي، الرجل الفـــرح، الطيب، ويحيط بـــي أولادي الثلاثة، كنوزي، وبناتي الثلاث، وأحفادي وحفـــيداتي وأولادهـــم، وأهلـــي وأصحابـــي، أنا، أيولاليا ليال أمادو، لالو كما يناديني الجميع، تحبباً، أقول لك، يا سيدي، إن تريزا باتيستا تشبه الشعب ولا أحد غـــير الشعب، إنها تشبه الشعب البرازيلي، الذي تألم كثيراً ولكنه لم ينهزم، وعندما يظنونه قد مات فإنه يقوم من بين الأموات.

أقـــبل مرطب أومبو أو قطعة كاجا، وإذا كنت تفضل الويسكي فإني أستطيع أن أخدمك ولكني لا أكفل لك طعمه.

الاحـــتفال بـــزفاف تريـــزا باتيستا كان حدث الساعة وغدا موضوعاً للثناء والتبجيل لمدة طويلة في مدينة باهيا. وقد غطّى رودولفو كويليو كافا كانتي المناسبة في مجلـــة اجتماعية مشيراً إلى الفرح والعظمة في الاحتفال الذي كان أكثر ما تكلم عنه الناس وأشاروا إليه في أحاديثهم باعتباره حدثاً لا يمكن نسيانه.

ونظـــراً لكثرة الطعام فقد امتلأت أربع طاولات كبيرة بما كان قد أعد منه، علـــى طاولة منها المأكولات الزيتية فقط، من السمك الحار إلى كل أنواع الصفد، ومـــن المحـــشيات والـــتوابل على اختلاف أنواعها إلى كل الأنواع الباردة. على الطاولات الأخرى أنواع اللحوم المحشوّة، خرفان، دجاج، ولحوم الماعز والغنم إلى جانـــب عشرين كيلوغراماً من التمن المصنوع، وكانت الصحون الكبيرة مليئة وما يـــزال الكثير منها في المطبخ. أما الحلويات والفواكه فحدث ولا حرج. أفضل من ذلك لا يمكن أن يكون، فمن الكوكودا وحدها خمسة أنواع. وما هو شراب فقد كـــان براميل وألفيات وصناديق كاملة، من البيرة، والكوكتيلات المتنوعة، وقناني نبيذ كابلينيا الأحمر، الويسكي، الفرموت، الكونياك، وكاشاسا، سانتو أمارو الطيبة بالإضـــافة إلى المرطبات.. الأستاذ نلسون تابوادا رئيس اتحاد الصناعيين أهدى إلى الخطيب دزينة من الشمبانيا للاحتفال بعد الوليمة. أفران سيدنا بونفين عملت دون توقـــف لا لخدمـــة السكان هذه المرة، فقد عملت ذلك اليوم لحاجات الاحتفال وحـــسب. أليس العريس السعيد، ألميريو داس نيفس هو سيد المؤسسة المزدهرة التي

سيكون لها قريباً فروع وفروع؟ محظوظ، ومغامر، ولد فقيراً، وما دام قد حقق كل هذا فمن حقه أن يحتفل هذا الاحتفال الصاعق بزواجه الثاني.

دعيت باهيا كلها للاحتفال بالمناسبة، ومن لم يتلق سهواً الدعوة فقد جاء إلى هـــناك دون دعـــوة و لم يتخلف أحد. لقد تم الاحتفال في دار ألميريو قرب المخبز وكـــان قـــد رقص بعض المدعوين داخل المؤسسة. الفرقة الموسيقية أوس ريس دو ســـون الـــتي تعمل في ملهى فلور دي لوتس أضافت أسباب التبجيل، ولكن قمة الفـــرح كانت بعد منتصف الليل عندما وصل الثلاثي الكريكو إلى الشارع وتحول الاحتفال إلى كرنفال.

ووصـــل معـــاً كـــل أعضاء نقابة الخبازين من المحتكرين الإسبان والمزاحمين الوطنـــيين. وكان هناك رفاق ألميريو في أخوية كنيسة بونفين، وفي ساو غونزالو دو روتـــيرو حيث كان عنده وظيفة ولقب. السيدة الأم، أولفا دي الأكيتو، إدواردو دي إيجيـــشا والمعلمان، ديدي ونيزينيو اللذان جاءا خصيصاً. الفنانون الذين وقفت تريزا نموذجاً لهم ماريو كرافون كاريبـــي، جنر، ميرابو والذين ما يزالون ينتظرون المناسبة والدور، والويل لهم لأنها لن تقف بعد اليوم! ومن هؤلاء إيمانويل، فرناندو كويلـــيو، ويليـــز وفلوريانا تيشيرا الذي كان جيد الحديث يذكر تريزا بالصديق فلـــوري باتـــشولا في ملهـــى بـــاريس الليغري في أراكاجو، ومع الفنانين الأدباء يـــستهلكون الويـــسكي ويختـــارون الأنـــواع، بعضهم ضائعون والبعض الآخر متفزلكون: جوان أوبالدو، ويلسن لينـــز، جيمس أمادو، الدازيو تافاريس، جيوفا دي كارفالـــيو، ســـيد شـــيئاس، غيدو غيرا، والشاعر تلموسييرا. الألماني هانسن والمهندســـان جيلبرت شافيس وماريا مندونسيا، منتبهون ويصغون إلى المعلم كالا للمـــرة الألـــف يروي قصة السمكة الحقيقية التي ابتلعت في نهر باراغواسو مركباً كاملاً ودفعة واحدة. فإذا كان لأحد مناسبة الالتقاء به فليستفد من المناسبة ليسمع القصة، فمن لم يسمعها لا يعرف ماذا فقد.

ولـــو تتبعنا الأسماء المذكورة لتبين الازدياد في عدد الرجال والنقصان في عدد النـــساء، ولكن هذه ليست الحقيقة، فكل واحد كان برفقة زوجته وبعضهم كان بـــرفقة أكثـــر من واحدة باسم لالو، جاءت السيدة زيليا بهدية عطر إلى الخطيبة وباسمها الشخصي قدمت خاتماً مقلداً جميلاً، وجاءت السيدات لويزا ونايير ونورما

بباقات من الزهور، أما النساء العموميات فلا يحصين؟ القوادات، رصينات، متزنات، مرتديات بأناقة؛ نساء من مستوى رفيع تافيانا، العجوز أكاسيا، أسونتا، السيدة باولينا دي سوزا تأخذ بذراع أريوستو ألفوليريو أما فتيات الهوى، فمتواضعات، خجولات، وبعضهن مع عشاقهن، وأما محظية أوغون الزنجية دومنغاس فبدت كأميرة.

في زاوية من الصالة، يكاد يكون مخفياً وراء ستارة النافذة كان فافا أشبينا لها أمام القاضي إلى جانب السيدة باولينا تونينيا وكامافيو دي أوشوسي وأمام الكاهن اختارت تريزا الرسام جنر أوغوستو وزوجته. أما شهود ألميريو فكانوا المصرفي سيلستينو الذي يمدّه بالقروض والنصائح، والمحامي تيبورسيو بربروز، والأستاذ جورجي قلمون مدير صحيفة المساء، إنهم قوم من الطبقة العليا. وأمام الكاهن فإن الخطيب احتفظ بالشاهدين على زواجه الأول: ميغيل سانتانا الجيد في الرقص والغناء. وكان بما يملك من مال قد ساعد ألميريو على انطلاقته الأولى في العمل، وتافيانا صاحبة بيت العزّاب حيث عثر مرتين على خطيبة. ولأنه كان سعيداً في زواجه من ناتاليا فلماذا يبدل الإشبينين؟ أما الطفل زيكس، بتألق كامل، فإنه سيقود الخطيبين إلى القران: ولمثل هذه المناسبات لا يوجد خطيب بليغ أكثر من رئيس البلدية ريجينالدو بافاو: إنه لا يضاهى ولا يخاصم.

لم يغب إلا المعلم مانويل وماريا كلارا لأن المركب فليشا دي سان جورجي كان في رحلة بعيدة إلى كاشويرا وكذلك المعلم كايتانو غونزا، فهو لا يحتفل بغير البحر والنجوم.

من المستحيل أن تقع عين امرئ على خطيب أكثر سعادة من هذا.

ملابس جديدة، بزة بيضاء إنكليزية المنشأ تليق بابن أوشالا المفضل. وقبل الساعة الرابعة، موعد الزواج، بقليل، ظهر حامل رسالة مربكة لتريزا. فطلبت الخطيبة من ألميريو أن يأتي إليها لأمر طارئ في بيت السيدة فينا حيث كانت تستعد لحفلة القران.

في بيت السيدة فينا ماريا بيتسكو وأناليا تساعدان تريزا على ارتداء ملابس العرس والتبرج! أين يمكن رؤية خطيبة أكثر تألقاً من هذه؟ هل كانت تريزا تستعد لحفلة الزواج أو لدفنها هي بالذات؟

قالـــت أناليا للصديقة إنها لا تعرف كيف تقدر قيمة الحظ. "آه لو أعطي لي هذا الحظ لكنت أسعد إنسان في الأرض: إني أعيش مشمئزة من هذه الحياة، من فراش إلى فـــراش، ومـــن يد ليد، أبيع جسدي، أبدد الحب مع عشاق لا يستحقون: ألم تري ما فعـــل خلـــيل؟" إنه شاب طيب ولكنه تخلى عنها ليتزوج من ابنة عم له، الملعون، قليل الحـــياء، إنها لا تلومه، فلكي تتزوج هي الأخرى كانت قد أنهت أية علاقة غير مثمرة، "آه، مـــن يعطيني بيتاً زوجياً وطفلاً، زوجاً لي وحدي، وأنا لـــه وحده، آه يا تريزا لو كـــنت مكانـــك لكنت أضحك مقهقهة، بأسناني كلها، بكياني كله"، وتوافق ماريا بيتـــسكو علـــى جـــزء، ولكن بالنسبة إليها لن تكون وفية لرجل واحد، فليس الأمر بالـــسهل وعلـــى الأخص بين العديدين الذين يفتشون عن الارتماء في الفراش دون أن يسألوا من عسى يكون صاحبه، ومن الذي يستعمله، للاتكاء والنوم، من البشر.

ارتـــدت تريزا ملابسها وتبرجت، ووضعت لها ماريا بيتسكو عقداً من عقود يانـــسان رمزاً للانتصار في حربها ضد الموت، وهو هدية فاليلوار ريفو، صائغ حلي الأورياس، وقد جاءت به الأم السيدة، وقادتها أناليا أمام المرآة لترى نفسها فإذا هي الروعة بعينها ولكنها حزينة.

وفي حين راحت الصديقات يهذين فقد وجدت تريزا نفسها متكئة على حافة المـــرآة. أخـــبار مؤثرة عن الانتصار وعقد أحمر قان موضوع في عنق من هزمت وانتهت. عجوز، تعبة من الحرب، ميتة من الداخل.

تذكـــر أحداثاً ووجوهاً وأشياء بعيدة وأناساً لم يعودوا موجودين. الأستاذ، النقـــيب، لولو سانتوس، الجنين الذي انتزع من رحمها وقتل قبل أن يكون، أزمنة السجن، أيام الأسواق العمومية، مرحلة أشتانسيا الأمكنة التي سارت فيها، الصالح والطالح، الجيد والسيئ، سوط الجلد الخام والوردة. كم من العمر بلغت منذ أشهر قلـــيلة في الـــسجن، سجينة لدى شرطة المحافظة على تقاليد باهيا؟ ستة وعشرون عامـــاً؟ لا يمكـــن، من يدري، ربما مائة وستة وعشرون عاماً، ألفاً وستة وعشرين وربما أكثر فساعة الموت لا يهم العمر.

ضـــجة في الـــباب، مناقـــشة حادة، صوت السيدة فينا تجيب أحداً، الجواب والـــضحكة... تريزا ترتجف، يخفق قلبها بأقصى سرعة، من صاحب الصوت الذي لا ينسى، وهذه اللهجة القريبة من صوت بوق البحر؟

– ستتزوجين؟ يمكن أن تتزوجي ولكن مني أنا وحدي.

وقفت ترتجف، لا تصدق أذنيها، خرجت عبر الممر خطوة خطوة تنظر بخوف إلى الـــباب المؤدي إلى الشارع، يستعد للدخول بأية طريقة، عملاق، نسر، حي، بكليته، إنه هناك، عندها أطلقت تريزا باتيستا نفسها شهيقاً وصراخاً، وهي تبكي، رمت نفسها بين ذراعي جانواريو جيريبا.

– لقد تعطل الزواج! ماريا بيتسكو، وهي تقفز من التاكسي عند باب مدخل دار ألميريـــو أعلنت ذلك. لقد تركت تريزا بين ذراعي المعلم جيريبا. ألم يغرق، ألم يمـــت؟ أي مـــيت؛ ولا حتى نصف ميت، حي وحي جيداً، رجل ولا جمل، كأنه جذع خيزران، وتريزا الأكثر حظاً.. عندما غرقت سفينة بالباو كان قد تركها هو وتوكينيو قبل ثلاثة أشهر وبدأا رحلة العودة إلى البيت. وعند وصوله أخبره الإشبين كايتانو غونزا بكل شيء. واعتذر الصديق ألميريو، ولكن الزواج كان قد أصبح أمراً لا بد منه.

في اللحظة الأولى أصيب ألميريو بصدمة عنيفة، وإحراج عميق لم يعرف كيف يخفيه؛ وأخيراً، ومعه أوراق الزواج جاهزة وقد دفعت تكاليف الاحتفال فلا بد أن يحـــدث. ولكـــن فضول قارئ الصحف العتيق، والمستمع المزمن لقصص الإذاعة، والمعتاد على تلبس شخصيات الأبطال الميلودراميين، جعله يستقوي على خيبة أمله وطلـــب معـــرفة التفاصـــيل. صدقوا: في أقل من نصف ساعة كان قد بدأ يشعر بالحمـــاس للقـــصة. تقدمت ماريا بيتسكو لتعلن النبأ على المدعوين، وقد وصلت إلـــيهم تقريباً مع القاضي والكاهن. انسحب القاضي في الحال؛ دون تيمونيو، على العكس، بقي ينتظر ألميريو، فربما يكون المسكين بحاجة إلى عزاء.

– "وماذا سيحدث لكل هذه الكمية من الطعام؟" أراد العجوز ميغيل سانتانا أن يعرف وكان قد تناول غداء خفيفاً وحجز مكاناً وهيأ شهية للوليمة.

"يـــا إلهـــي، لن يكون هنالك احتفال" تلوت الزنجية دومنغاس التي كانت قد هيأت نفسها لرقص السامبا طيلة الليل.

كـــان ألميريو داس نيفس برفقة أناليا يدخل الصالة عندما سمع الشكوى فرفع ذراعـــيه معلـــناً أن الذنب لا يقع عليه. "يا أبناء قومي"، قال "إن الزواج وقع مع الحمـــير في الماء، بالنسبة لي كان الأمر محزناً، ولكنه مفرح لتريزا، إن خطيبها الذي

اعتقدت أنه مات وصل من البحر في الوقت المحدد. كان أمراً سيئاً لو أنه وصل فيما بعد... هنا، أجل، كان سيكون الأمر سيئاً في كل الأحوال". وأعلن الموله الكريم أنه قادر أن يضحي بنفسه دون تذمر من أجل سعادة الحبيبة والخصم المحظوظ.

- "ما دام الأمر كذلك فلنحتفل" اقترح كايمي رجل النصيحة المخلصة. وجد ألميريو أن الصالة ملأى بالناس، وهنالك الكثيرون في الممرات، والطاولات، موضوعة، فبدا بطولياً ورفع صوته ليسمعه جميع الحاضرين، وباهيا كلها:

- لن يكون هناك زواج ولكن العيد سيتم. فلنبدأ بفتح زجاجات شمبانيا الأستاذ نيلسون.

- "هكذا، أجل، إنه كلام صحيح". وافق ميغيل سانتانا، متوجهاً إلى قاعة الطعام. الاحتفال بزواج تريزا باتيستا، على الرغم من أن الزواج لم يتم، جعل الليل ذا حيوية لا مثيل لها. أكلوا كل شيء، وشربوا كل المشروب، وليمة كتلك لم تعد تقام إلا في باهيا، ولم تكف فرقة الجاز عن الصخب وانتهى الرقص إلى الشوارع خلف الثلاثي إبيتريكو. عند منتصف الليل ألميريو وأناليا ترافقا كأنهما رفيقان دائمان واعترفت له أناليا بأنها مولعة بالطفل، الآن، هل رأيت؟ كأن الأمر قصة رومانسية.

رفع الشراع وراح المركب يشق بحر باهيا. ريح البحر تزداد زمجرة، والليل ثقيل. تريزا باتيستا مبتلة بالماء، وبدأ يقف عليها الملح، وتفوح منها رائحة البحر وشعرها الأسود مطلق للريح؛ لقد بعثت من جديد: "هاليلويا"؛ وتمسكت بصدر جانواريو جيريبا. وبينما هو على الدفة فإن جانو راح يزن حسنات الإقلاع بالمركب المعروض للبيع: "إذا كان جيد الانسياب فسأشتري وأدفع نقداً، الإشبين غونزا وضع مالي في المصرف وعاد عليَّ المال بالفوائد، إنه أوفى الأصدقاء. وأي اسم سنعطيه للمركب قولي لي؟" وقبل أن تختار اسماً تكلمت تريزا:

- هل تعرف إني قتلت رجلاً؟ كان سيئاً للغاية، ولم يكن يستحق غير الموت. ما زلت أحمله حتى اليوم عبئاً ثقيلاً.

أبقى جانواريو الغليون في فمه:

تريزا باتيستا

رواية

جورجي أمادو

يُعتبر الكاتب والروائي البرازيلي جورجي آمادو أحد أهم كتّاب البرازيل، بل أحد أهم كتاب أمريكا اللاتينية وأوسعهم شهرة في العالم.

ولد آمادو في مقاطعة باهيا في البرازيل عام 1912 وتوفي فيها عام 2001. وقد انخرط خلال حياته المديدة والحافلة في السياسة والأدب والنضال الحزبي فذاق طعم التشرد والنفي والسجن، لكنه أخلص للكتابة وكرّس لها نفسه حتى رحيله.

وقد انحاز في أدبه إلى جانب الفقراء والمسحوقين واتّصفت كتاباته بالطابع الشاعري الذي تغلب عليه أجواء الأسطورة وبطولات البسطاء من الناس في ولاية باهيا مسقط رأسه.

وقد نشر آمادو أكثر من أربعين كتاباً وترجمت معظم أعماله إلى أكثر من ثلاثين لغة بما فيها العربية.

آراء في الرواية

«إنها التكوين الذي خلقه «فيدياس» البرازيل، جورجي أمادو، على شكل رواية تتوزّع بمنهجية واقعية حرّة تماماً. تمتزج فيها المعرفة الجادة بفرح لغوي شفاف ينغرز في الدم. إن أمادو — مايسترو — الرواية البرازيلية يجيد لعبة التقابل والثنائية في تشكيل الموضوع الأثير لديه / الإنسانية المعذّبة مقابل اللاإنسانية...»

– الناقد أحمد خلف، (مجلة ألف باء)

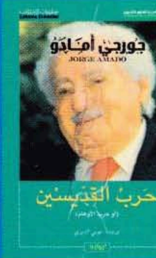
«... وهناك رواية أمادو تريزا باتيستا التي لا يمكن نسيان عوالمها وبطلتها وأحداثها، صراع أثقل عليَّ ولكنه صراع محبّب أن تفاضل بين جودتين وبين طبقين فاخرين يحمل كل منهما خصائصه، ومذاقاته، ومكوناته... ويجعلاننا نشكر اللذين أتاحا لنا أن نتناول من هذين الطبقين».

– عبد الستار ناصر، (جريدة الجمهورية)

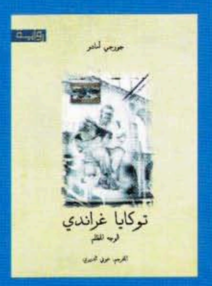
«تريزا باتيستا واحدة من روائع جورجي أمادو... وها أنا من جديد، كأنني ألتقي ذاكرتي، وأستعيد فرحي بشبابي... اللغة الحارة... الدم الحقيقي الذي يجعل الملامح ملامح... واللغة الخاصة... ونكهة الأرض التي لها رائحة أمة ومزايا إنسان... إن أمادو يكتب عن برازيله التي يمكن لفرط إيمانه أن تصير برازيلنا، أو أن تفيدنا بأن نحب أرضنا ونكون لصيقين بها...»

– الشاعر يوسف الصايغ، (مجلة ألف باء)

صدر أيضاً للروائي جورجي أمادو







الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
هاتف: 1676179 2 (213+)
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com

ISBN 978-9953-87-345-9



تصميم الغلاف: سامح خلف